

المركز القومى للترجمة

جاك أتالى

اليهود والعالم والمال

التاريخ الاقتصادي للشعب اليهودي

ترجمة: عاصم عبد ربه
تميم فتح الباب

2676

اليهود والعالم والمال

التاريخ الاقتصادى للشعب اليهودى

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2676
- اليهود والعالم والمال: التاريخ الاقتصادى للشعب اليهودى
- جاك أتالى
- عاصم عبد ربه، وتميم فتح الباب
- الطبعة الأولى 2019

هذه ترجمة كتاب:
Les Juifs, le Monde et l'Argent
Par: Jacques Attali

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

اليهـود والعـالـم والمـــال

التاريخ الاقتصادى للشعب اليهودى

تــألــيــف : تأليف جاك أتالى
تــرجــمــة: عـاصــم عبد ربـه
تميـم فتـح البـاب



2019

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

أتالى ، جاك
اليهود والعالم والمال: التاريخ الاقتصادى للشعب اليهودى .
تأليف: جاك أتالى . ترجمة: عاصم عبد ربه؛ تميم فتح الباب .
ط١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٩
٧٠٠ ص ؛ ٢٤ سم
١ - اليهود - التاريخ .
٢ - اليهود - أحوال اقتصادية .
(أ) عبد ربه ، عاصم (مترجم) .
(ب) فتح الباب، تميم (مترجم مشارك) .
(ج) العنوان ٩٥٩,٩٠٣

رقم الإيداع ١٩٨٧٩ / ٢٠١٤
الترقيم الدولى 1 - 866 - 718 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

شكر 15

مقدمة 23

كلمة المترجم 17

الباب الأول

سفر التكوين

(٢٠٠٠ ق.م / ٧٠ م)

١ – حتى الوصول إلى مصر : من المقايضة إلى الفضة 30

إيش و آدم 30

من إبراهيم إلى يعقوب 32

٢ - إسرائيل فى مصر : من الفضة إلى الذهب 39

ثراء المنفى 39

تحسن الاقتصاد 41

المنفى والحرية 44

٣- مغزى الكلمات 49

البداوة و التجريد 49

الكينونة والملكية 50

المال 50

الدفع 52

القيمة 53

التجارة 53

٤ – قضاة و ملوك : من الذهب إلى النقود 53
قضاة 54
صامويل وشاؤل 59
داوود و سليمان 60
المعتقدات الأولى 64
يهوذا والسامرة 69
من نينوى إلى بابل 72
٥ – المنفى الأول فى بابل : من النقود إلى مهنة التمويل 75
الاستضافة 75
العقيدة الاقتصادية فى بلاد الشتات 78
٦ – العودة إلى فلسطين : من التمويل إلى الإفلاس 80
التالان، الفرس، الهيكل، 81
الإسكندرية 85
تحت سلطة روما 93
تدمير الهيكل 102

الباب الثانى

سفر الخروج

(٧٠ - ١٠٩٦)

١ – مع روما وبدون الهيكل 108
أول شبكة من البدو الرُحل 108
قوانين الاحتلال : المال الأساسي 109
الحرب الثانية: والتلمود الأول 116

٢ – مسيحيون و يهود أمام المال 121

مال خصب، مال عقيم 121

السجن البيزنطى 127

الفانداليون شعب مضياف: الحاجة إلى تجار 133

٣ – بابل، قلب العالم 136

أقوياء فى بابل 136

السمعة والسند المالى (الكمبيالة) 138

٤ – المذهب الاقتصادى الجديد 144

التلمود والمال 144

الكتابة والنقود 144

أحب الله بكل ما تملك 145

العلاقة المالية بالأشياء والأجساد 147

سوق نزيه : السعر العادل والحقيقى 148

الملكية 149

النساء والأرض 150

التوريث 151

العمل من أجل الحـيـاة 153

الفقر غير المحتمل 156

فريضة أن يكون المرء خيرًا 157

إقراض المال 160

مجتمع إيثارى بالضرورة : «إصلاح العالم» 161

٥ - بين روما و بيزنطة : فرصة إسرائيل الجديدة 164
البابا ضد بيزنطة 164
محاولة أخيرة فى يـهـودا........ 167
٦ - سعداء كما كانوا فى بلاد الإسلام 169
تجار يهود ومولد الإسلام........ 169
أورشاليم و بابل تدخلان الإسلام 173
تجار يهود وأول يهود البلاط 177
بغداديون والرزنية........ 180
وزراء عظام ويهود بؤساء 181
النقل فى قرطبة 184
٧ - أوائل المصرفيين المسيحيين 185
فرنسا الميروفنجية........ 185
العصر الكارلونجى الذهبي 188
اليهودية فى ظل النظام الإقطاعى 191
يهود الأسواق الموسمية 194
٨ - التجار اليهود يمرون إلى الغرب 197

الباب الثالث

سفر اللاويين

(١٠٩٦ - ١٧٨٩)

١ - السفر بعيداً نحو الشرق (العام ١٠٠٠) من بيزنطة ومن ديار الإسلام 206
شيكات ومحاسبة 206

فلفل وعملات ورقية.. 212
الاندفاع نحو الغرب.. 213
٢-مقرضون وعرضة للبيع (١٠٠-١٢٦٠).. 214
أسواق موسمية و موانئ.. 214
حياة الطوائف 219
سماسرة وحرفيون 221
الفائدة بين اليهود ....
العلاقات مع الآخرين :مكروهون بسبب ما يسدونه من خدمات.. 233
الحملات الصليبية : الدفع أو الموت.. 237
٣ - المال بدون اليهود (١٢٦٠ - ١٤٩٢) 249
مصرفيون جُدد 249
تغيير الذاكرة (١٢٦٠-١٣٠٠).. 253
النهضة عبر الطاعون الكبير.. 256
توسكان والبندقية.. 261
٤ - من بلاد الإسلام ومن بولندا (١٢٦٠ - ١٤٩٢).. 264
مماليك، عثمانيون، مغول 264
الوصول إلى أوروبا الشرقية 266
٥ - تمويل الاكتشافات : الانزواء (١٠٠٠ - ١٤٩٢) 269
الزمن الإسباني 269
بحارة ومكتشفون.. 273

متحولون وخنـازير.. 275
تغيير ديانات 291
منافى أمريكا 291
٦ - يهودية الشرق، تجار بدلاء (١٤٩٢ - ١٧٠٠) 297
ديار الإسلام 297
القرنان الذهبيان فى بولندا 308
٧ - يهود الأميروالأمراء بلا يهود (١٤٩٢ - ١٧٠٠) 318
الجيتو (حارات اليهود) أوليفورن Livourne، 318
من لوثر إلى يهود البلاط........................ 325
٨ - يهود غير شرعيين فى قلب العاصمة (١٤٩٢ - ١٧٠٠) 331
من مونتانى إلى كولبير 332
من شيلوك إلى كرومويل 336
وسط أموال الآخرين : فى الفلاندر 342
٩ - العوالم الثلاثة الجديدة (١٤٩٢ - ١٧٠٠) 351
من إفريقيا إلى الهند 351
مجهزو السفن اليهود........................ 351
شركات الهند........................ 352
الهند والصين........................ 354
المستعمرات الإسبانية........................ 356
مستعمرات البرتغال 356
تبغ وسكر 359
المستعمرات الإنجليزية 361

١٠ – حياة وموت الأمم فى القرن الثامن عشر 363

غفوة الإسلام 364

نهاية بولندا 365

أول يهودى البلاط 369

١١ – متعهدو البلاط والثورة الصناعية (١٧٠٠ – ١٨٠٠) 370

يهود مقبولون فى فرنسا وإيطاليا 370

متعهدو البلاطات الملكية فى ألمانيا و النمسا 375

تراجع في هولندا 382

ثورة مالية فى بريطانيا العظمى 386

الأمل الأمريكي 388

الباب الرابع

سفر الأعداد

(١٧٨٩ – ١٩٤٥)

١ – متصلون بالثورة الصناعية 397

كل شخص ملزم بنفسه 397

اليهود فى الصناعة الأوروبية : اتصال 413

البنك اليهودى فى الثورة الصناعية الأوروبية 418

تأثير البنوك اليهودية على السياسة الأوروبية فى القرن التاسع عشر 433

٢ – خيالات ثلاثة 436

خيال أول : من سان سيمون إلى إنفانتان 437

خيال ثان : من ماركس إلى درومون 440

خيال ثالث : من فيبيير إلى سومبارت 449

٤ – أربعة مواطن للنشأة 455
رحم الاشتراكية : اليهودية الروسية حتى عام ١٩١٧ 456
رحم التحليل النفسى : يهود ڤيينا 474
رحم أمركة العالم : الولايات المتحدة فى القرن ١٩ 478
رحم الصهيونية : التطلعات الأولى نحو فلسطين ....
٤ – قانون العدد 527
نهاية الإمبراطوريات 527
مولد الاتحاد السوفيتى 535
٥ – الجديد، الأزمة، القديم ڤيمار و وول ستريت 542
هوليوود 554
أورشليم 561
٦ – اقتصاد المحرقة 571
اقتصاد الاستيلاء على السلطة 572
مصادرة الممتلكات 574
اعتقال 581
عمل إجبارى 582
المحرقة الحرفية أولاً 585
الإبادة الصناعية 587

الباب الخامس

سفر التثنية

(١٩٤٥)

١ – الأراضى و الكتاب 601
عودة إلى الأرض 601

إسرائيل – هل هي دولة يهودية ؟ 627
صحوة يهود المهجر 631
للخلاص من أسطورة المال اليهودي 673
ماذا تبقى من مناهضة السامية ؟ 643
٢ – لا حضر مقيمون بدون بدو رحـل 649
الاستكشاف 651
الربط 653
الابتكار 654
البقاء 655
٣ – حلقة الوصل بالشرف : إسرائيل 658
غايات الحرب، صور الحـــرب 658
لا وجود لإسرائيل بدون فلسطين 661
من الشرق إلى الغرب 663
٤ – حلقة الوصل بالغرب 665
طوائف الخارج (الشتات) 665
الفناء عبر فقدان التميز 665
الفناء عن طريق الاختلاف 668
٥ – من الغرب إلى الشرق الانفتاح أو الزوال 669
عابرون ناقلون من الشرق ومن الغرب 671

شكـــر

إلى

السيد الحاخام الأكبر رينيه سيرا Rene Sirat، السيد الحاخام دانييل فارى Daniel Fahri، السيد الحاخام مارك – ألان أوكنان Marc – Alain Ouaknin، السيدة چان أوزنيه Jeanne Auzenet، السيد چاك بندلاز Jaques Bendelaz، السيد رونى بروكنر Ronnie Bruckner، السيد رينه كلايتمان Rene Cleitman، السيد شارل إندرلان Charles Enderlin، السيد دونى ماراڤال Donis Maraval، الذين تفضلوا بمراجعة ومناقشة مخطوطة هذا العمل كليا أو جزئيا معى. إلى السيدة چان أوزنيه التى تفضلت بمراجعة قوائم مراجعه ومصادره. لهم منى كل الشكر و التقدير. من البديهى أن أنوه بأننى أتحمل وحدى مسئولية أى خطأ أو حكم تقديري ورد بالعمل.

جدير بالذكر : أنه كان علىّ أن أتخير لكل واقعة تاريخا من بين عدة تواريخ أوردها مؤرخون مختلفون. و لكل اسم علم، اسم شخص أو مكان، كان علىّ أن ألتزم تهجئة واحدة بينما استخدم المؤلفون المختلفون العديد منها.

كلمة المترجم

الحقيقة أننا لا نضيف جديدًا إن قلنا إن موضوع الكتاب شائك وملتبس، وإن سهام النقد لابد أن تصيب من يتصدى للكتابة عنه، وإن حاول أن يكون موضوعيًا قدر ما يستطيع. ولنا فى موسوعة الدكتور عبد الوهاب المسيرى عن اليهودية والصهيونية خير دليل على ذلك، فقد تعرض الدكتور المسيرى (رحمه الله) لانتقادات الجميع. لقد رأينا من يتهمونه بمحاباة اليهود ويطعنون فى عروبته بل وفى إسلامه، كما رأينا من يصفونه بمعاداة السامية ويتوعدونه بالويل والثبور.

كرس الدكتور جاك أتالى، مؤلف الكتاب، عمله الضخم، الذى يضاف إلى آلاف المؤلفات التى تناولت هذا الموضوع، لإيضاح مراحل تاريخ علاقات اليهود بغيرهم من الجماعات الإنسانية وبالمال .. عصب الحياة. ابتداءً من العام ألفين قبل الميلاد وحتى وقتنا الراهن، بل إنه قد حاول استطلاع ما سيكون عليه الحال نحو عام ٢٠٥٠ .

طرح المؤلف العديد من الأسئلة التى كان بعضها جارحًا وتولى بنفسه الإجابة عنها مقدما فى كل حالة وجهتى نظر، إحداهما موالية والأخرى معارضة تاركًا للقارئ حرية الاختيار، وإن بدا لنا أن أتالى كان يلتمس العذر لليهود فى كل مرة.

اعتمد المؤلف على توراة موسى وربط بين كل سفر من أسفارها وبين المراحل الخمسة الأساسية لتاريخ اليهود الحقيقي. وهنا يجب أن نلفت إلى أن علماء الآثار ينكرون الطرح التوراتى تمامًا لأنه لا يستند إلى أية آثار مادية.

نستطيع أن نقول باطمئنان إن الكتاب لا يتبنى خطابًا صهيونيًا، وإن نهايته توضح هذا بكل جلاء. غير أن ذلك لا يمنع من أن تكون لنا بعض الملاحظات المتعلقة باختيارات الكاتب لمفرداته، والتى رأينا فيها يهوديته، وهو أمر إنسانى، تتغلب على موضوعيته خاصة فى ما يتعلق بفلسطين ونذكر منها على سبيل المثال:

فى السطور الأخيرة من الفقرة الثانية من صفحة ٥٩٤ من الأصل الفرنسى يقول الكاتب: إن بقية فلسطين كانت تضم أخلاطا من السكان لا تجمعهم أى هوية وطنية واحدة وإن هؤلاء السكان قد جاءوا إليها من سوريا، ولبنان، والسعودية وأماكن أخرى. متناسيًا عوامل اللغة والدين والتاريخ لهؤلاء السكان! وهنا يحق لنا أن نتساءل عن ماهية الهوية الوطنية الواحدة التى جمعت بين المهاجرين اليهود الهاربين من جحيم المذابح فى روسيا ومن سجونهم المفتوحة فى المجر وشرق أوروبا وألقت بهم فى فلسطين فى أوائل ثلاثينيات القرن الماضي! خاصة أن هرتزل، كما يقول الكاتب آنفا فى صفحة ٥٤٩- قد تجنب بقدر ما يستطيع أى نقاش حول طبيعة الهوية اليهودية فى خطابه أمام المؤتمر الصهيونى الثالث.

في الفقرة الأخيرة من صفحة ٥٩٨ ومطلع صفحة ٥٩٩ من الأصل الفرنسي، يقول الكاتب: إن رئيسى الوزراء البريطاني السير ماكدونالد، قد تراجع، فى عام ١٩٣٢، عن قراراته بوضع بعض القيود على هجرة اليهود إلى فلسطين بعد الأحداث التى راح ضحيتها ١٣٥ يهوديًا، و١١٦ عربيًا (فى الجليل وفى حيفا). وذلك بعد استقالة حاييم وايزمان وفليكس فاربورج (المتفقين هذه المرة رغم خلافاتهما الدائمة) دون أن يوضح لنا أسباب هذا التراجع مرجعا ذلك إلى استقالة الرجلين فقط. فهل احتوى نص قرار الانتداب البريطاني، الذى أقر إنشاء الوكالة اليهودية على ما يشير إلى حتمية بقاء وايزمان وفاربورج فى مجلس إدارة تلك المنظمة الصهيونية ؟

يقول الكاتب فى معرض حديثه عن التغيرات السكانية المتوقعة فى المنطقة العربية، الفقرة الأخيرة من صفحة ٧٠٠ : إن اختلال التوازن السكانى سيكون أسرع وتيرة إذا تم الاعتراف « بحق العودة » لأبناء فلسطين الذين « غادروا » عام ١٩٤٨ . إلا إذا اعترف على الأقل بنفس الحق لأبناء اليهود الذين « طردوا » من البلاد العربية فى نفس الوقت . إن ما استوقفنا، بصرف النظر عن السياق، هو اختيار الكاتب لمفرداته، فنراه فى حال الحديث عما حل بعرب فلسطين عام ١٩٤٨ يستخدم اسم المفعول من فعل « Partir » الذى ينصرف إلى معانى : ذهب ، انصرف، مضى، خرج، سافر، راح، ... إلخ. وهى أفعال إرادية كلها. بينما اختار نفس الصيغة من فعل « chasser » الذى يشير إلى معانى : أزاح ، أبعد ، طرد،

صرف، جار على ... إلخ، وذلك فى وصفه لما جرى ليهود البلاد العربية. أى إن الكاتب يقول لنا إن عرب فلسطين قد غادروها طوعًا عام ١٩٤٨، بينما تعرض اليهود فى نفس الفترة للطرد من أوطانهم العربية!

بإيجاز شديد يقول الكاتب فى الفقرة الثانية من صفحة ٧٠٢ إن إسرائيل ربما انجرت أيضًا إلى حرب بسبب البترول الذى يسيطر « controle » الشرق الأوسط على ثلثى احتياطياته العالمية. وهنا أيضًا فإن ما استوقفنا ، بغض النظر عن السياق، هو اختيار الكاتب لفعل يسيطر أو يتحكم فى « controler » كما لو كان البترول ثروة مشاع عالمية لا ترتبط بأرض ولا ببشر وهل يمكننا بالقياس أن نقول إن فرنسا تسيطر على مياه نهر السن أو إن الولايات المتحدة تسيطر على مخزون البترول فى أراضيها ؟

أخيرًا نود أن نشير إلى أنه من المفيد الرجوع إلى مؤلفات الأستاذ أحمد أمين : فجر الإسلام، ضحى الإسلام، ظهر الإسلام، لمضاهاة الوقائع والتواريخ التى أوردها الكتاب والمتعلقة بتاريخ اليهود فى ديار الإسلام.

عاصم عبد ربه

الإهـــداء

إلى أبى سيمون

مقدمـــة

إليكم تاريخ علاقات الشعب اليهودى بالعالم والمال. أعرف أنه موضوع شائك، أثار كثيرًا من الجدل، وأدى إلى كثير من المذابح حتى صار كالمحرمات التى لا يجب التطرق إليها تحت أى ذريعة، خوفًا من إيقاظ ذكريات نكبة تعود إلى زمن بعيد. اليوم، لم يعد أحد يجرؤ على الكتابة حول هذا الموضوع، كما لو كانت قرون من الزمان لم تفد إلا فى إذكاء نيران المحارق. ومن هذا الواقع، فإن هذا الكتاب، ومن خلال وجوده ذاته، مهدد بأن يكون مصدرًا لألف سوء تفاهم.

بمجرد أن نتناول بالبحث موضوعًا ما، فإننا نسعى إلى تعظيم أهميته. هنا، كانت المجازفة كبيرة فى المبالغة فى تقدير دور المال فى تاريخ الشعب اليهودى، دور الشعب اليهودى فى العالم. إن عزمى على سرد هذا التاريخ، ربما يسمح باعتقاد أن هناك شعبًا يهوديًا موحدًا، غنيًا، مؤثرًا، خاضعًا لقيادة مركزية موحدة، تباشر تفعيل إستراتيجية للسيطرة على العالم من خلال المال. من هنا ربما التقينا بخيالات وأوهام اجتازت كل العصور، من تراجان Trajan إلى قسطنطين Constantin، من ماتيو Matthieu إلى لوثر Luther، من مارلو Marlowe إلى ڤولتير Voltaire، من بروتوكولات حكماء صهيون إلى كتاب كفاحى Mein Kampf، وصولًا إلى كل ما يحمله الإنترنت من معلومات مجهولة المصدر.

علاوة على ذلك، فإن الكتاب ليس كالحوار يمكن إنهاؤه ويمكن التحكم فى مجراه، بل إنه ليس مثل هذه النوادر – هناك الكثير منها حول هذا الموضوع – التى تسمح بالسخرية من كل شيء بشرط ألا يكون ذلك مع أى من كان. تخرج مخطوطة الكتاب عن سيطرة كاتبها بمجرد نشرها، يساعد الكتاب بعض القراء على التأمل، البعض الآخر على تغذية خيالاتهم. وعليه ينبغى على الكاتب، فى أثناء كتابته، أن يهيأه لجميع مآلاته، بما فى ذلك أكثرها تزويرًا.

مع ذلك، فإن من مصلحة الناس اليوم أن يفهموا كيف أن الشعب الذى أوجد التوحيد قد وجد نفسه فى وضع مكّنه من وضع الأساس الأخلاقى للنظام الراسمالى، قبل أن يصبح، من خلال بعض أبنائه، أهم سماسرته، أول مصرفى فيه، ثم بواسطة آخرين منهم ألد أعدائه. من الضرورى أيضًا بالنسبة للشعب اليهودى ذاته، أن يواجه هذا الجزء الذى لا يحبه من تاريخه، والذى ربما كان له، فى الواقع، كل أسباب الفخر به.

من أجل هذا، يتوجب علينا الإجابة على أسئلة صعبة: هل كان اليهود هم هؤلاء المرابون الذين حفظ التاريخ ذكراهم؟ هل حرصوا على أن تكون لهم بالمال علاقة خاصة؟ هل كانوا أصحاب دور مميز فى النظام الراسمالى؟ هل استفاد اليهود دومًا من الحروب والأزمات لتكوين الثروة؟ أم، بالعكس، لم يصبحوا مصرفيين، أو صاغة، سماسرة إلا عندما منعوا من مزاولة أى مهن أخرى؟ هل هم اليوم أرباب العولمة، أم أنهم أعتى خصومها؟

للإجابة على مثل هذه التساؤلات وعلى الكثير من غيرها – متحملين مخاطر التلخيص والاختصار التى لا يمكن تفاديها – سيكون علينا إحياء أهم أحداث التاريخ السياسى، الدينى، الاقتصادى والثقافى للألفيات الثلاثة الماضية، ورسم المصير الذى قدّرته الأمم للأقليات، أن نقتفى مصير الأمراء، المتسولين، المثقفين والفلاحين، الفلاسفة والممولين والتجار، رواد الصناعة، من خلال إعادة رسم مسارات حياتهم التى كانت غالبًا متألقة، مذهلة، مأساوية بصورة شبه دائمة، مجيدة أو بائسة، فى طريق المال والسلطة.

سوف نُدهش عندما نكتشف المغزى غير المتوقع، الذى تتخذه بعض الأحداث من بين أكثرها شهرة عندما نكتشف الدور الذى لعبه فيها أهل الكتاب (التوراة).

للقيام برحلة كهذه، ليس من الوارد أن نعتمد سلفًا بوصلة وحيدة: فى ظل الوفرة غير العادية لمغامرات جماعية ومصائر فردية تورط فيها الشعب اليهودى، سوف يكون من العبث أن نقتفى أثرًا وحيدًا. لن تتكشف أطروحتى إلا بحسب تطور السرد، حتى تفرض نفسها بانتهائه. لذلك فإن أفضل موجه للشروع فى هذه الرحلة المتسلسلة تاريخيًا، وأهم الأدلة على ما يبدو لى، لابد وأن يكون التوراة نفسها.

الواقع أن كل شيء يجرى كما لو كان تقسيم التوراة إلى خمسة أسفار ذات موضوعات محددة تمامًا، هو أدق تعبير عن المراحل الأساسية فى حياة الشعب اليهودى. بشكل أوضح، يجرى كل شيء كما لو كان كل واحد من الأسفار الخمسة يصف لنا سلفًا روح كل مرحلة من المراحل الخمسة للتاريخ الحقيقى للشعب الذى قام بكتابتها. وبطبيعة الحال فإن الأمر لا يتعلق إلا بوسيلة لإيضاح بعض الاتجاهات القوية للوقائع. لا مجال لقراءة التوراة باعتبارها الرواية المقدسة لنبوءات تاريخية. تظهر التوراة مصيرها أكثر من أى شيء آخر: يظل الناس أحرارًا فى فعل الخير أو الشر. ليس المقصود إلا أن نضع كل فترة تاريخية تحت مظلة واحدة من أجزاء التوراة الخمسة، لأن موضوع كل جزء يحيل بشكل مباشر إلى الرهانات الأساسية لكل فترة زمنية.

أولًا: سفر التكوين La Genése (الذى يبدأ فى التوراة من نشأة الكون إلى موت يوسف فى مصر)، ويمكن أن يفيدنا فى إلقاء الضوء على الفترة الممتدة فى القصة الحقيقة، من نشأة الشعب اليهودى حول إبراهيم وحتى تدمير المعبد (الهيكل) الثانى. فى كلتا الحالتين، يتعلق الأمر بتكوين شعب ونشأة قوانينه، علاقاته بالعالم وبالمال. وفى كلتا الحالتين ينتهى كل شيء بوصول اليهود إلى أرض المنفى: مصر فى إحداهما، الإمبراطورية الرومانية فى الأخرى.

ثم يأتى سفر الخروج L'Exode، الذى يروى فى التوراة، قصة إقامة اليهود فى مصر ويمضى السرد حتى خروجهم المفعم بالأمل نحو سيناء. ويمكنه أن يتطابق مع الفترة الممتدة لألف عام والتى تبدأ من المنفى فى الإمبراطورية الرومانية وحتى الرحيل الواعد نحو أوروبا المسيحية.

مع نهاية العام ألف تبدأ، بالتجاوب مع سفر اللاويين Levitique (السفر – الكتاب– الذى يتناول قوانين المنفى والأمل فى الأرض الموعودة)، معاناة الشعب اليهودى بين مخالب السادة فى إسبانيا، فى هولندا، فى البرازيل، فى الهند، فى بولندا حتى قيام الثورة الأمريكية. القوانين التى تفسر بقاءه حيًا.

آنذاك تحل الفترة المواكبة لسفْر الأعداد **Nombres** (التى– وفق التوراة– تقود اليهود من العجل الذهبى فى سيناء وحتى المعارك على أبواب أرض كنعان)، فترة رخاء اقتصادى ونمو سكانى، أعقبتها مذابح جماعية ثم الوصول إلى الأرض الموعودة. كما يحدث فى القصة الحقيقية تمامًا، حيث الوعود الرائعة للأنوار المتولدة بشكل غير مباشر عن المحرقة **Shoah** ثم قيام إسرائيل.

لحق بعض الناجين حينذاك بالدولة الجديدة، التى تنقّلت فى أثناء ذلك الوقت بين أيدى الحيثيين **Hittites**، والفلسطينيين، والأبيروس **Apiruc**، والكنعانيين، والهكسوس، والمصريين، والبابليين، والفرس، والإغريق، والرومان، ثم الفرس مرة أخرى، والبيزنطيين، والأمويين، والعباسيين، والصليبيين، والفاطميين، والمماليك والعثمانيين ثم الإنجليز، دون أن يتنازل اليهود عنها مطلقًا.

تأتى بعد ذلك الفترة التى ما زلنا نعيشها، وهى تعبر عما جاء فى سفر التثنية **Deuteronome** الذى يصف شرائع مجتمع أخلاقى يسمح للشعوب بالدفاع عن هويتها بواسطة المال أو ضده.

فى أزمنة التشكك والارتياب هذه، حيث يضع الاعتراف المتبادل بين بلدان الشرق الأدنى، إلى حد كبير، شروط الحرب والسلام فى العالم، فإن دروس هذه الألفيات من حياة البداوة تستحق أن تستخلص وأن يستفاد منها. حتى نتفادى – وهذا ما يجعلنا السفر الخامس نأمل فيه – بربرية المال الجديدة، عبر ابتكار أكثر الحضارات دعوة إلى التفاؤل، حضارة الضيافة.

فلنبدأ الرحلة إذًا.

البـاب الأول

سفــر التكـوين

من ٢٠٠٠ قبل الميلاد إلى ٧٠ ميلادى

١- حتى الوصول إلى مصر : من المقايضة إلى الفضة

٢- إسرائيل فى مصر : من الفضة إلى الذهب

٣- مغزى الكلمات : البداوة والتجريد

٤- قضاة وملوك : من الذهب إلى النقود

٥- المنفى الأول فى بابل : من النقود إلى مهنة التمويل

٦- العودة إلى فلسطين : من المال إلى الخراب

تبدأ اليهودية برحلة. وكما أن معنى كل شيء يكمن غالبًا في معنى الكلمات، فإن هوية الشعب العبرى تختبئ وراء اسمه، الذى يحيل تحديدًا إلى السفر والترحال. كان جده الأكبر، أحد أحفاد نوح Hoé، واحدًا من أجداد إبراهيم، كان اسمه إيفر Ever، والذى يمكن ترجمته بـ "البدوى" أو الرحّال أو "المبادل" أيضًا. إيفر هذا سوف يصير إيفرى Ivry بعد قليل، "عبرى". كما لو كان مصير هذا الشعب مسجلًا، منذ البداية، في حروف اسمه، الشفرة الجينية لتاريخه: سوف يتحتم عليه الترحال، المقايضة، التواصل، النقل. وبالتالى ممارسة التجارة أيضًا.

إننا نجد مسألة السفر هذه في كل الأساطير الأصلية للشعوب الرحّالة: جاء مؤسسهم من الخارج، أول آلهتهم كان يحمى المسافرين، يسيطر على الاتصالات والمبادلات، شروط السلام والثقة، وكى تتعقد الأمور قليلًا أيضًا، كان هذا الإله كذلك، بصورة عامة، إلهًا للصوص.

وهكذا فإن الرواية التوراتية تبدأ برحلة. وأول سفر في توراة موسى الخماسية Pentateuque– هو ما يسمى بسفر التكوين والذى كانت أولى عباراته هى "فى البدء" أو « أولًا »[٩٠] يروى تحديدًا هذه الرحلة، التى تبدأ من خلق الكون وتنتهى برحيل يوسف إلى مصر، أى منذ ولادة الإنسان حرًا وحتى كارثة العبودية.

فى القصة الحقيقية لهذا الشعب، بدأ هذا التكوين فى بلاد ما بين النهرين، قبل عصرنا بثمانية عشر قرنًا، لينتهى عند تدمير المعبد (الهيكل) الثانى، عام ٧٠ ميلادى، والخضوع للإمبراطورية الرومانية. إنه يمضى باختصار من جنة أرضية أخرى إلى مصر أخرى.

خلال هذه القرون الخمسة عشر – على الأقل – أوجد هذا الشعب الصغير عقيدة دينية سيكون ثلث تعداد البشر الآن قد جعل منها قاعدة لإيمانه، وأقام مع المال علاقة سوف تستخدم فيما بعد كأسس للنظام الراسمالي.

١- حتى الوصول إلى مصر

من المقايضة إلى النقود

آدم وإيش Adam et Ish

إن لم يكن ممكنًا أن نؤكد بثقة وجود شعب عبرى قبل الوصول إلى أرض كنعان – منذ أكثر من ثلاثة آلاف ومائتى عام – فإننا لا نستطيع أن نروى تاريخه دون الاهتمام بطريقة تذكر هذا الشعب لملحمته السابقة. وحتى إن لم يوجد دليل مادى للوقائع التى يرويها كتابه المقدس، فسوف تظل هذه الوقائع بالنسبة للعبرانيين، عبر قرون، مصدر إلهام أخلاقى، سياسى، اجتماعى، مرشدًا لسلوكهم اليومى، درسًا للحياة، درسًا فى الشجاعة، وثيقة للأمل فى مملكة الرب.

نادرة هى علوم نشأة الكون التى لا ينتمى الرجل الأول فيها إلى الشعب الذى ينقل هذه العلوم. ومع ذلك فهذه هى حالة النص التوراتى، الذى لم يكن الرجل الأول فيه عبرانيًا.

هذا الرجل إيش أو آدم، كان يعيش أولًا فى جنة عدن، مكان لا شهوة فيه، مكان للبراءة، وللكمال، مكان يكفل له رغد العيش ويقيه الاحتياج إلى العمل، إلا إن كان للمحافظة على هذه الجنة. لم يكن آدم يمتلك جنة عدن، لكنه لم يكن يحتاج أن يمتلك شيئًا ليعيش فيها سعيدًا، وحيدًا فى بداية الأمر، ثم مع رفيقة: كانت الحاجة الأولى ذات طبيعة جنسية، الرفض الأول، كان رفضه للوحدة. يواجهه ممنوعان فقط، كلاهما يتعلق بالطعام: لم يكن يجب عليه أن يأكل من ثمار شجرة المعرفة – لأنه سوف يكتشف فيها المعرفة، الوعى بالذات، وبالتالى الشك – ولا من شجرة الحياة – لأنه سيكتسب بذلك الأبدية. فى الحالة الأولى والثانية تعلق الأمر بمزايا موقوفة على الرب. أول تسجيل للوضع الإنسانى فى

الاقتصاد: حتى لا يشعر الإنسان بالرغبة، ينبغى عليه ألا يدرك مدى جهله ولا أن يدرك محدودية وضعه. بمجرد أن ينتهك واحداً من هذين المحظورين – بأكله الفاكهة المحرمة– فإنه يكتشف الوعى بالذات والرغبة، وعندئذ يدخل عالم النُدرة حيث لا يوجد شىء بدون عمل.

الرغبة تولِّد الندرة، كما تقول التوراة، وليس العكس، كما تدعونا البديهة إلى ذلك. أول درس فى الاقتصاد السياسى...

هذا الطرد من جنة عدن، هذا النفى للجنس البشرى، جعل من الإنسان كائنًا ماديًا. صار مخلوقًا من لحم ودم. بعد ذلك مباشرة، كان السعى وراء أسباب العيش شاقًا عليه، أشق بمرتين، يقول التفسير، حتى من مخاض رفيقته، أشق مرتين من البحث عن الخلاص. إيش Ish، الرجل الذى لا اسم له، الجنسى الطابع، أصبح آنذاك الرجل المتفرد، الذى وقع مع الله عقدًا تحول فيه الوضع الإنسانى إلى مشروع: إقامة مملكة الله على الأرض حتى يجد النقاء والبراءة الأخلاقية من جديد، ويتخلص من حالة النقص و الاحتياج.

للمرة الأولى لم يعد يُنْظَر إلى نشأة الكون باعتبارها دَوْرِيَّة ليس من أهدافها العودة إلى نقطة البدء. إنها تحدد معنى التطور وتجعل من التحالف مع الإله خضوعًا للزمن، تبيح للإنسان الحق فى اختيار مصيره: حرية الإرادة. هكذا وضعت وظيفة الاقتصاد، إطارًا ماديًا للمنفى ووسيلة لاسترجاع الجنة المفقودة من جديد. من الآن فصاعدًا صار للإنسانية هدف: أن تتجاوز خطأها. إنها تمتلك الوسيلة لتحقيق ذلك: إظهار قيمة الوقت. غير أنه، يقول سفر التكوين، جيل بعد جيل، ينحرف مسار كل شىء. فبدلًا من أن يعمل البشر على إعادة خلق جنة نعيم جديدة، ابتعدوا عن ذلك، عبر صراعاتهم وطموحاتهم. بقدر ما نسوا الإله، بقدر ما عانوا من أجل البقاء. حينذاك لا يصبح سفر التكوين إلا مجرد سرد للأحداث، من هابيل إلى نوح، ومن نوح إلى إبراهيم، من إبراهيم إلى يوسف، للمواجهة التى تتزايد ضراوتها وعواقبها الوخيمة بين الإنسان ومتطلبات الاقتصاد القاهرة.

غير قادرين على تفضيل متطلبات الأخلاق على متطلبات الندرة، تقابل أبناء آدم فيما بينهم. قابيل – الذى يشير اسمه إلى "التملك" أو "الحسد" – حصل على الأرض

كحصة من الميراث. هابيل – والذى يحيل اسمه إلى معانى العدم، الهواء، الغرور، الدخان – حصل على قطعان الأغنام(١٣٣). عندما لم يسمح المزارع لأخيه الراعى بحق المرور فى أرضه، فقد أحد الأخوين حياته فى تلك الواقعة، درس الاقتصاد الثانى: لا يشتهى أحد إلا ما يشتهى الآخر، وعليه فلا يمكن أن يكون هناك مجتمع إلا من خلال اختلاف الحاجات(١٦٥).

لم يكن مقتل الراعى مجرد جريمة.. قتل فيها رجل أخاه، إن الفاعل الحقيقى هو الأرض ذاتها، هذه الأرض الملعونة التى لم يكن قابيل قد حصل عليها من ميراثه إلا ليستقبل فيها أخاه بالترحاب(١٣٣). إن كانت التوراة قد أولت الدور الأفضل للضحية الرحّالة، إن كانت قد سمحت للقاتل المستقر فى الأرض بأن يواصل حياته، فقد كان ذلك حتى تجعله ينطلق، بدوره، فى رحلة للفداء.

كما فعل مع آدم، نفى الله قابيل، لقد جعل منه رجلًا مفلسًا، مسافرًا، بدويًا رحّالًا، ليعلمه أن يعرف الجانب الآخر للعنف.

لم تكن هذه الدروس الأولى كافية، فقد عاود أبناء قابيل السقوط مرة أخرى فى شراك تحدى الآلهة. صراع الأنداد، والصراع من أجل الموارد النادرة. مرات عديدة، حاول الرب أن يعيدهم إلى طريق الاتفاق المبرم مع آدم. وفى كل محاولة، فى أزمنة العمال فى بابل، أو فى أيام مجون أهل سدوم (*) Sodome وعمورية Gommrrhe، كان الرب يجدد علامة غضبه، ويعيد الناس إلى ضعفهم وضآلتهم.

من إبراهيم إلى يعقوب

بعد الطوفان الذى أعاد تأسيس الكون مباشرة، اختار الله سياسة أخرى: بما أنه لا يمكن لكل الناس إدراك المنطق الإلهى واستيعابه، فقد كلف شعبًا واحدًا ليكون وسيطه بينهم، عهد إليه بواجبات خاصة، دون أن يخصّه بأى مزايا. طالبه بأن يكون القدوة وأن

(*) أهل لوط.. (المترجم – عاصم)

يصلح الكون الذى دمرته الخطيئة. هكذا ولد الشعب "العبرى". الذى لن يصبح الشعب "اليهودى" إلا بعد خمسة عشر قرنًا.

منذ أربعة آلاف عام، هذا إذا آمنا بما جاء فى سفر التكوين، كان أحد أحفاد نوح، المدعو إيفر Ever، قد تجول هائمًا فى الأناضول[١٦]. قبل أن يصل إليها، اجتاز أوائل المدن / الدول (أوروك، لاجاش، جيرسون وكيش) التى كان سكانها يعبدون آلهة ترتبط بالخصوبة، يعرفون الكتابة، يطبقون أساليب الرى، يشكلون البرونز، يستخدمون الذهب والفضة كوسائل للتبادل[١٥٧]. كان سارجون Sargon، أحد الضباط القدامى فى جيش ملك مدينة كيش Kish، قد جمّع لتوه هذه المدن فى إمبراطورية أكادية واحدة Akkadien، استعبدت مدينة سومر Sumer، التى تعرضت باستمرار لهجمات الشعوب الرحّالة العابرة، التى أخضعها عن طريق إدماج وتوحيد أساليب حياة وعقائد ضحاياه[١٣٣]. من بين هذه الشعوب الجوّالة التى صادفها إيفر فى الأناضول، كان الحيثيون les Hittites، الموصوفون بأنهم « برابرة الجبل الذين لا يعرفون القمح »، و « الذين لا يعرفون منزلًا ولا مدينة»، والذين يتكلمون أقدم اللغات التى تسمى اليوم باللغة الهندو-أوروبية[٤٢٩]. كان السومريون Sumeriens والحيثيون يتواجهون، ويترصد كل منهما بالآخر، فى محاولات كل إقامة دولته الخاصة.

صار أحفاد نوح، قبيلة إيفر، يعرفون بالأبريوس Aprius أو الهاريبوس Haribus، وكانوا تجار قوافل، يربون الحمير[٦]، رعاة رحّل فى طريقهم إلى التوطن والتحضر[٤٣٠]. كانوا يقدسون جدهم المباشر، الذى كان يرافقهم ويحميهم، فى مقابل قرابين من الحيوانات والأحجار التى يقيمونها فى كل مرحلة من مراحل السفر.

بعد ذلك بقليل نحو عام ١٧٣٠ قبل الميلاد، انتظمت بلاد ما بين النهرين فى مملكة موحدة عاصمتها بابل Babylone، "باب الله" وتحت حكم الملك حامورابى Hammourabi. سوف نجد بعض آثار قانونه فى الشرائع اليهودية اللاحقة[١٥٧].

حدث آنذاك، وفقًا للنص التوراتى، أن واحدًا من هؤلاء البدو الأبريوس، كان اسمه تارح Térah، مربى ماشية ثريا، قد قام بمغادرة مدينة أور Our، فى كلدان Chaldée

السومرية (أو أورا Oura فى الأناضول)، واستقر، مع نسائه، أبنائه، رعاته، قطعانه، فى حاران Harran، فى آشور الحيثية[٦]. قادمًا من إمبراطورية معادية، لم يقابل بالاحتفاء وصادف عنتًا فى الحصول على الحق فى أن يرعى قطعانه.

واحد من أبناء تارح Térah هذا، كان يدعى أبرام Abram– المولود، كما يقول سفر التكوين فى عام ١٨١٢ قبل الميلاد، أى بعد عشرين جيلًا من بعد آدم وعشرة أجيال من بعد نوح – غادر عشيرة أبيه وتزوج، من بين نساء أخريات، سارة Sarah (التى يُذّكر اسمها باسم ساراى Saraï، الاسم الآخر لنيجال Nigal، ربة القمر فى أور، كما فى حاران[٦].)

وإذا بالرب يخاطبه. يأمره أن ينشىء شعبًا جديدًا، ، شعبًا راهبًا يكون مسئولًا أمامه عن الوضع البشرى. كل ما يريد الله أن يقوله للبشر، سيقوله لهذا الشعب، وكل ما سيقوله له سيكون فى الواقع موجهًا للناس كافة. كان على إبرام هذا أن يحمل النعيم الإلهى إلى البشر.

هكذا، وفى نفس الوقت الذى أعلنت فيه عن نفسها فكرة مؤسسة أخرى، فى مكان أبعد فى الشرق، فى الهند، الفيدا Les veda (*)، وهكذا بزغ التوحيد فى آسيا الصغرى. ولم يكن من الممكن أن يظهر إلا لدى جماعة من البدو الرُحّل تحتاج إلى السفر متخففة – دون كثير من الأصنام – وبسرعة – ودون أن يكون لديهم الوقت لاعتناق عقيدة البلاد التى يمرون بها: إله واحد – إيل EL– أو إيلوهيم Elohim، صيغة جمع غريبة، إله أو يهوه–YHH– هو نفسه الواحد لكل الشعوب[٦]. ياله من انقلاب هائل!

يروى سفر التكوين آنذاك قصة النزاع بين الرعاة من عشيرة إبرام (إبراهيم) ومن عشيرة ابن أخيه لوط Loth، حول السيطرة على الأراضى. رحل لوط باتجاه الشرق حيث سهل الأردن الغنى وفير المياه، واستقر فى سدوم. اتجه إبرام (إبراهيم) الذى كان وقتها فى الخامسة والسبعين من عمره إلى الجنوب وصوب مرتفعات الخليل، فى أرض

(*) الكتاب المقدس لدى الهندوس ويتألف من أربعة أجزاء، كتب الحكمة، ومن المرجح أن يكون قد ظهر فيما بين ١٣٠٠–١٠٠ ق.م. (المترجم – عاصم)

كنعان. الجنوب الذى يمثل الحكمة الروحية، ونور الشريعة، الشرق الذى يعنى الثراء الدنيوى.

كانت أرض كنعان التى حل بها إبرام، بلدًا ثريًا، فمن هنا تمر كل القوافل فى طريقها نحو آسيا. وكانت مقسمة فى فسيفساء من المدن الدول الصغيرة الواقعة تحت سيطرة مصر، التى تحكمها الأسرة الثانية عشرة فى ذلك الوقت. وفى سجلات هذه الأسرة نجد نصوصًا تشى بالكراهية كانت موجهة ضد "متمردين" كنعانيين.

يبدو أن الأبرسيين قد صادفوا فى أرض كنعان شعبًا آخر قادمًا من آسيا، الهكسوس، محاربين أشداء، كان أحد آلهتم سيث Seth يشبه بعل Ball إله الكنعانيين.[٦]

عندما استقر إبرام، الذى صار إبراهيم، فى أرض كنعان أمره الله بشيئين.

أولًا. أن يتكاثروا، أن يضاعفوا أعدادهم وأن يستغلوا الأرض. طلب من الله أن يكون غنيًا حتى يستطيع أن يقوم بخدمته. هكذا يشير سفر التكوين (١٣،٢) بفخر إلى تطور ثروة إبراهيم: "كان إبراهيم ثريًا يملك الكثير من القطعان، الذهب والفضة" — كانت الممتلكات كلها تمثل آنذاك وسائل المبادلة الأساسية. للحصول عليها كانت كل الطرق تقريبًا مباحة، بما فى ذلك الخداع: حتى إن إبراهيم قد ذهب فى ذلك إلى حد أن أوهم الناس بأن زوجته سارة هى أخته، طامعًا بذلك فى تلقى الهدايا ممن يرغب فى الزواج منها !

بعد ذلك، حرّم الله عليه التضحية بالبشر، حين أزاح السكين عن عنق إسحاق، ابن إبراهيم وسارة المفُضَّل، وفقًا للنص التوراتى، عن إسماعيل، البكْر، ابن واحدة أخرى من زوجاته، هاجر، الذى ترى فيه الأعراف المتناقلة السائدة الجد الأكبر لعرب الصحراء.[*] هكذا وضع الله نهاية لفترة امتدت آلاف السنين، جرت فيها طقوس التضحية بالبشر، وقد اختص الشعب العبرى وحده بذلك. لا يحتاج الله إلى التضحية بالقرابين البشرية، لكنه لم يتنازل عن التضحية بالحيوان، إنه ينزل الإنسان بذلك منزلة خاصة فى هذا الكون ويحول العنف إلى مجرد إنفاق للثروات المادية.

(*) المقصود شبه الجزيرة العربية.(المترجم — عاصم)

هذان الأمران الأولان الموجهان من الرب إلى شعبه متلازمان، لا ينفصل أحدهما عن الآخر: الثروة فى صورة قطعان الماشية، ذهب أو فضة هى أفضل بديل عن العنف. سوف نجد مرارًا تلك العلاقة بين المال والدم، تُلازم التحذير الذى أطلقه الله إلى العبرانيين ومن خلالهم إلى كل البشر: فالمال، أولاً كان وسيلة لتلافى العنف. عندما فرض الشعب اليهودى على نفسه استبدال الضحية البشرية بالقربان، كان قد تنبأ بمصيره: إنه سوف يستخدم المال كوسيلة لإصلاح الضرر وإيقاف شرك العمليات الثأرية. بالنسبة له، سيصبح المال وسيلةً للتفاوض بدلاً عن الصراع، وسيلة لإحلال السلام. بواسطة المال سوف يعلن الشعب اليهودى عن كراهيته للعنف(*). إلى أن يرتد عليه عنف المال وضراوته...

لقد ارتبط الأمران اللذان تلقاهما الشعب اليهودى فى أول تصرف مهم لإبراهيم فى أرض كنعان: عندما تعلق الأمر بدفن سارة، زوجته، أم إسحاق، لم يختر إبراهيم أرضًا مكتسبة بالقوة، وإنما اختار مغارة اشتراها من أحد الحيثيين، إفرون **Efron**، فى ماخبيلا **Makhpela**، بالقرب من الجليل (سفر التكوين، إصحاح ١٥، آيات ١٣ – ١٦). أتُخذَت كل الاحتياطات حتى لا يمكن لهذا البيع أن يكون محل اتهام أبدًا: لقد تم علنًا، لم يساوم إبراهيم فى الثمن المغالى فيه الذى طلبه الآخر (التكوين، إصحاح ١٥، آيات ١٥ – ٢٣): أربعمائة شيكل (كانت اللفظة لا تزال تشير حينها إلى وحدة للوزن)، أى أربعة كيلو جرامات وستمائة جرام من الفضة. كانت توزن بأثقال على درجة كبيرة من الدقة ويهتم الجميع بالتأكد من صحتها.

لقد كتبت آلاف الصفحات لتفسير السبب الذى من أجله اشترى إبراهيم، حقيقةً، هذه المغارة من الناس، ثم أجرّها لله. ولماذا بلغ ثمنها أربعمائة شيكل. الإيجار، ليذكرّ بأن البشر ليسوا سوى عابرين وأن أى ملكية، حتى أكثرها دوامًا، كالمقبرة مثلًا، لا يمكن إلا أن تكون إعارة من الله. الذى يقول فضلًا عن ذلك: "الأرض ملكى، لأنكم لستم إلا غرباء تسكنون فى أرضى" (سفر اللاويين، الإصحاح ٢٣، آية ٢٥).ليس علينا أبدًا أن ننسى هذه الحالة المؤقتة التى تقود بالتالى إلى ضرورة أن يكون المرء مضيافًا تجاه الغرباء.

(*) تُرى ما رأى الكاتب فيما يفعله الشعب اليهودى الآن فى فلسطين؟.. (المترجم – عاصم)

الثمن هو الآخر لم يكن نتيجة الصدفة، والطريقة التى فسره بها بعض الشُرّاح اليهود اللاحقين تستحق الذكر، لأنها تقدم مثالًا رائعًا للطريقة التى سوف يفكر بها مفسرو هذه النصوص، خلال آلاف السنين. فى العبرية، كما فى كثير من اللغات القديمة الأخرى، كانت الأرقام تدون بالحروف. لكن، صادف أن الحرف الأخير من الأبجدية العبرية يعبر عن الرقم "٤٠٠" وأنه، حتى نعد أكثر من ذلك، يجب أن نستخدم حرفين وليس حرفًا واحدًا، لذلك كان الرقم "٤٠٠" يمثل نهاية لما يمكن تقديره. وفضلًا عن ذلك، يمكن أن نقسم ٤٠٠ إلى ٨ مرات ٥٠. غير أن الرقم ٨ يمثل الرقم التالى لعدد أيام الأسبوع، و ٥٠ تأتى بعد ٤٩، عدد السنوات التى يجب أن تعاد بعدها الأرض إلى مالها الأصلى، وعليه كان الرقمان ٨، ٥٠ يمثلان كلاهما أعدادًا تقع خارج حدود دورات الزمن الإنسانى. كان الرقم ٤٠٠ يرمز إلى ما وراء الزمن البشرى.

بيد أن، ما وراء الزمن البشرى، هو الأبدية. "٤٠٠" يعادل التعبير عن الحق الأبدى المكتسب لإبراهيم فى المغارة، الحق الأبدى لليهود فى الجليل وبصورة أكثر توسعًا على أرض كنعان. سيكون من المفهوم أن يتردد صدى هذا الرقم ذاته، حتى يومنا هذا، كصاعقة جغرافوسياسية.

مات إبراهيم عن مائة وخمسة وسبعين عامًا، أى بعد قرن من وصوله إلى أرض كنعان. من بعده، عاش فيها وازدهر جيلان، جيل إسحاق، ثم جيل يعقوب. اتضحت معالم دياناتهم[١٦]. انتقل العديد من الأعياد الكنعانية بواسطة العبرانيين فى صورة احتفالات سنوية بالمراحل الأساسية لتاريخهم فى العالم.

إرضاءً لله أقرّ إسحاق ويعقوب بضرورة تحقيق الثراء. قام إسحاق بجمع الحيوانات "مازالت ثروته تتزايد إلى أن صار غنيًا قادرًا. يمتلك قطعانًا كبيرة من الحيوانات الصغيرة (الأغنام) وقطعانًا كبيرة من الماشية الكبيرة والكثير من العبيد (التكوين – إصحاح ٢٦، آيات ١٣ – ١٤). ومن بعده أصبح يعقوب "غنيًا جدًا، يمتلك العديد من القطعان، الجوارى، الإبل والحمير" (التكوين، الإصحاح ٣٠، آية ٤٣). بارك الله ثروته وسمح له بأن يشترى من أخيه إيساو Esaü الحق فى أن يكون البكر دليل على أن كل شيء يتحول إلى مال، حتى إن كان صحنًا من العدس...

بعد صراع مع أحد الملائكة، فى الفجر، أقر هذا الملك بهزيمته أمام حكمة الشيخ الوقور، يعقوب، الجريح مدى الحياة، تلقى من منافسه الغامض لقب "إسرائيل" (مصارع الرب)، الذى سوف ينقله إلى نسله. بعدها أعاد توزيع الأراضى سواء التى حصل عليها عنوة أو تلك التى حُصل عليها بشكل سلمى إلى حد ما، منذ عهد جده الأكبر، بين الأثنى عشر ابنًا المولودين له من زوجتيه الاثنتين، ليا **Léa** (روبن **Ruben**، سيمون **Siméon**، ليفى **Lévi**، يهودا **Juda**، إيسشار **Issachar** وزابولون **Zabulon**) وراشيل **Rachel** (يوسف **Joseph**، بنيامين **Benjamin**) ومن جاريتيه بيلحاح **Bilhah** (دان **Dan** ونيفتالى **Nephtali**) وزيلباح **Zibah** (جاد **Gad** وآشر **Acher**). كان تعدد الزوجات وسوف يظل لزمن طويل، عرفًا مقبولاً لدى العبرانيين، كما كان ذلك بالنسبة لجميع شعوب هذه المنطقة.

بعد ذلك حلت المجاعة فجأة، كما يقول الكتاب المقدس، بأرض كنعان، التى ربما أدت إلى الأزمة الاقتصادية الطاحنة التى ضربت الشرق الأوسط فى تلك الأيام(١٥٧). لقد دفعت بعائلة يعقوب - أو على الأقل بجزء كبير منها - نحو مصر. لم يكن ذلك أمرًا جديدًا: فالشرق الأوسط يعانى من شح المياه، بينما تزدهر الأراضى التى يخصبها طمى النيل سنويًا، فى مصر، بالحقول والبساتين. وفى كل مرة كان الجفاف يمتد فيها فى الشرق، كانت القبائل الآسيوية فى كنعان، فى كابادوس **Cappadoce** وفى بلاد ما بين النهرين تتدفق عليها. استفاد الهكسوس، الذين عرفهم اليهود واختلطوا بهم فى الجليل، من هذا الظرف وقاموا بهجوم على النيل(١٥٧). وبفضل قوتهم العسكرية المتقدمة، التى تعود إلى استخدام الجياد فى جر العجلات الحربية - الأمر الذى لم يعرفه المصريون - استولى الهكسوس على ممفيس ثم طيبة، حارمين كهنة آمون من إيرادات آسيا، الموجهة منذ الآن فصاعدًا نحو آفاريس **Avaris**، معقل الإله سيت، أخو أوزوريس، والإله المفضل لدى الهكسوس.

ادعى سيتى الأول ، **Seti**، فرعونهم، أنه ابن إلهم سيت بالمعمودية والذى حل محل حورس، حامى محاصيل الواحات(١٦). فى نفس الوقت، عثر على أول الآثار لوجود الأبيروسيين **Apirus** أو أبيرو **Apiru**، فى نصوص تأتى على ذكر أشخاص من الجائز أن تكون أسماؤهم هى أسماء إبراهيم، إسحاق ويعقوب. حدث ذلك فى الشمال، عند الحيثيين فى أوج مجدهم.

٢- إسرائيل فى مصر

من الفضة إلى الذهب

ثراء المنفى

ها هم العبرانيون إذًا (لن يصبحوا "اليهود" سكان يهودا، إلا بعد سبعة قرون من ذلك) فى مصر، نحو عام ١٦٠٠ ق.م تقريبًا. ولقد استقبلهم الهكسوس الأقوياء، الذين تعارفوا عليهم فى أرض كنعان، بالترحاب.

إلا إذا تقيدنا بسفر التكوين الذى يروى (فى الإصحاح ٣٧، آية ٤١) أنهم قد استقبلوا فى مصر من قبل شخص كان يدعى يوسف(١٣١). لكن ليس هناك أى أثر تاريخى يدل على ذلك. أول ظهور لليهود فى البلاط الملكى، كان ليوسف هذا، أحد أبناء يعقوب، الذى ألقى به أخوته فى غيابة جب عميق، ثم شديد الوسامة والذكاء، صار مستشارًا للفرعون، لأنه تمكن من التنبؤ بوقوع أزمة اقتصادية وكيف يمكن الاحتياط لها – بتفسيره لحلم الفرعون – وقدم للأمير طريقة معالجتها: تكوين احتياطات من المؤن، صيغة أولية للادخار. استعارة السبع بقرات السمان والسبع العجاف، درس جديد فى الاقتصاد السياسى قدمته التوراة، ثورة فى النظام الاجتماعى: ألا يتم استهلاك كل المحصول، توقع التهديدات والأخطار التى قد يأتى بها المستقبل والاستعداد لها. إعطاء الزمن دورًا فى التحكم والسيطرة على الطبيعة.

هنا ينتهى نص السِفْر الأول فى التوراة. لكن التكوين التاريخى للشعب العبرانى لم ينتهِ بسبب ذلك. سيلزمه كثير من الوقت ليقدم لنفسه قانونًا (شريعة) مكتوبًا، ليعيد إقامة مملكة، ثم يفقدها بعد ذلك. أما علاقته بالمال وبالعالم فسوف يكتمل تكوينها فى ذلك الوقت. فى هذا التكوين التاريخى، سوف ننتقل من ميلاد جنة أرضية، أرض كنعان، إلى منفى العبودية، روما، هنا أيضًا ستكون الثروات المادية فى قلب تحول لاهوتى وسياسى هائل.

خلال عدة قرون، حتى عام ١٢٠٠ ق.م، بدا أولًا أن العبرانيين يعيشون على أرض مصر فى هناء. أصدقاء لأمراء الهكسوس (ربما كانوا أبناء عمومتهم) صاروا طائفة كبيرة العدد، ذات نفوذ، أمة داخل الأمة. دون أن يكون لها حتى ذلك الوقت نص مقدس –

كانت كتابته محظورة – ولا طقوس محددة بعينها، لقد عاشوا على أنهم شعب الله المختار ليكونوا مثلًا يقتدى به، ليعرّفوا العالم بوحدانية الإله. بعضهم كان يعد نفسه للعودة يومًا ما إلى الأرض الموعودة بينما يعيش آخرون حياتهم كمصريين. كانوا يزاولون كل المهن: من تاجر إلى بنّاء، من نجار إلى فلاح أو خادم كاهن. تم القبول بالعديد منهم فى قلب النخبة المصرية، التى تعلموا لغتها وتبنوا أعرافها وعاداتها. أصبحوا فلكيين، نسّاخين، ضباط فى الجيش، ممولين، اندمج بعضهم فى المجتمع المصرى وتركوا الطائفة الأصلية. كان أغلبهم من الفقراء، على غرار المصريين الآخرين، انصهروا تمامًا فى الشعب الذى تلقّاهم بترحاب وتحمّلهم بقدر ما أمكن، وبمبالغتهم فى ذلك بشدة، لم يعودوا منذ ذلك إلا مصريين وفقط، حتى إن كل ثقافتهم اللاحقة لم تكن إلا ملمحًا من بين ملامح أخرى فى ثقافة سكان وادى النيل.

وفقًا لتخطيط يحاكى الطريقة المصرية، انتظم العبرانيون على كل حال (مجازًا على الأقل) فى اثنى عشر سبطًا أو عائلة تتحدر كلها من أبناء يعقوب الاثنى عشر – تسودها عادة تعدد الزوجات، وانقسم كل سبط منها إلى جماعات أو عشائر، انقسمت بدورها إلى "بيوت أبوية" يدير شئونها قضاة (كوفتيم Chofetim) رجال الشرطة (كوتريم Choterim) وحراس (كوميريم Chomerim). كان لهم أمير (ناسى Nassi)، يقوم باتخاذ القرارات المتعلقة بالشعب كله، تحت إشراف مجلس رؤوس العشائر، الأيدا L'eda، لا يكون الأمير مسئولًا إلا أمام الفرعون، الذى يتفاوض معه بشأن الضرائب وأعمال السخرة. مارس العبرانيون التجارة فيما بينهم، ومع المصريين، لكن دون أن يسمحوا لهم بنفس المزايا التى يمنحونها لإخوانهم المُعسرين.

قامت حركة تضامن بين العبرانيين قوامها المقايضات والقروض بدون فائدة.

لم تكن النقود بشكلها العصرى، قد ظهرت بعد، تقارن الأشياء التى يجرى تبادلها بكميات مجردة من الذهب أو من أى نوع من المعادن الأخرى المُشّكلة فى سبائك ذات وزن ثابت. وقد وجدنا النص التالى، مسجلًا على مسلة تعود إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد، "بيع فى مدينة هاى Hay، عن طريق العريف بنسيم Nebsem، ثور، أى ما يعادل

١٢٠ وحدة (دبن deben) من النحاس، وأخذ في المقابل قدرين من الدهن (أي ٦٠ دبن)، ثوب من الكتان الجنوبي (أي ٢٠ دبن)، جلد (أي ١٥ دبن)، خمسة مآذر من القماش الرقيق ٢٥ دبن)[١٧]..."

في إحدى مقابر طيبة، التي تعود إلى القرن الخامس عشر ق.م، هناك رسم محفور يمثل ميزانًا، فوق إحدى كفتيه ثوران، وتسع حلقات من المعدن فوق الكفة الأخرى. بدءًا من هذا القرن، شرع في استخدام سبائك من الرصاص أو الذهب ذات أحجام غير محددة، كوسائل لتسوية المبادلات.

لم يقطع المهاجرون علاقاتهم مع ذويهم الذين بقوا في أرض كنعان. عبر وساطة التجار العبرانيين الذين كانوا يسلكون طرق القوافل، كانوا يتبادلون معهم المخطوطات الدينية وكذلك ما لا يحصى من البضائع: ذهب النوبة ("لحم الإله" هذا الذي يحوّله الصائغ إلى حلي ولوازم جنائزية)، نحاس، جمشت، أبانوس، زيت، بيض نعام، جلود حيوانات مجلوبة، عاج، إلخ... هكذا استقرت أوضاعهم بين أهم تجار وسماسرة الإمبراطورية. لكن عندما تتغير موازين القوى، يصبح تقربهم من السلطة ونفوذهم التجاري مصدرًا للضرر. درس جديد للمستقبل. نحو عام ١٦٠٠ ق.م، وجد بعض الكهنة في أنفسهم القدرة على مواجهة الهكسوس، استولى أحدهم، أحمس Ahmosis، على آفاريس، طرد الغزاة، وأعاد إلى كهنة طيبة نفوذهم وأسس الأسرة الثامنة عشرة، التي لم يكن لعبراني مصر أي علاقة بها. تروي لنا التوراة ذلك بصورة رائعة في إيجازها المؤثر: "ملك جديد يعتلي عرش مصر، ولم يكن يعرف يوسف" (سفر الخروج (الإصحاح ١، آية ٨). أعادت هذه الأسرة الجديدة، الأمينوفيس الإله آمون حاميًا لها.

تحسُن الاقتصاد

إننا نتجه الآن إلى شيء ما يشبه النقود، في مصر، كان الذهب، الفضة، النحاس، البرونز، يستخدم كعملة في التعاملات. وهكذا تشير الهيروغليفية المصرية إلى الذهب، باعتباره صفًا من اللآلئ.

صار النظام أكثر صرامة. ولمواجهة الحيثيين، الذين بدوا ضاغطين فى الشمال الشرقى، كوّن المصريون جيشًا محترفًا حقيقيًا، بريًا وبحريًا. وفى هذه الفترة، وجدنا للمرة الأولى ذكرًا للعبرانيين فى الألواح المصرية، فى تل العمارنة. من فرعون إلى آخر تدهورت حياة العبرانيين. فى عام ١٣٧٢ ق.م، تقريبًا، اتخذ أمنحتب الرابع (أمينوفيس الرابع) اسم إخناتون، تخلص من كهنة طيبة وأحل محل آمون، حامى أسرته الخاصة، إلهًا واحدًا وكونيًا، آتون، إله الشمس، الذى حرّم تمثيله بصورة أخرى غير قرص شمسى، تشع منه خطوط طويلة من النور، ينتهى كل منها بيد بشرية تمسك بطلسم الحياة. حقبة غريبة، وضعت بشأنها عشرات النظريات، دون أن نصل فعليًا إلى استجلاء غموضها[١٥٧]. من الممكن أن تكون العقيدة الجديدة، ربما كانت توحيدية، مستوحاة من عقيدة العبرانيين، غير أن هذه الأخيرة، لم تخضع للعقيدة الجديدة، ورحبت بموت الفرعون الغامض، توت عنخ آمون، الذى كان موتًا غير طبيعى على الإطلاق فى عام ١٤٤٧ ق.م.

وقتها، استعاد كهنة طيبة والعسكريون السلطة وأقاموا الأسرة التاسعة عشرة، التى ستبقى حتى عام ١١٨٦ قبل الميلاد. تربص فراعنة هذه الأسرة، من ضمنهم رمسيس الثانى (١٢٩٤ – ١٢٢٩ ق.م) بالعبرانيين. ساورهم القلق من تعدادهم، تضامنهم، من نفوذهم الذى لا يزال واضحًا فى جهاز الدولة وفى الجيش. تعجبوا من أن جزءًا من النخبة المصرية يهتم بهذه الديانة، بالغة القدم، والقريبة مما يتيحه العلم المصرى المذهل من فهم للكون، والذى ربما ألهم إخناتون فكرة التخلص من كهنة آمون. عزل الرعامسة العبرانيين، منعوهم من ممارسة بعض المهن، من الزواج، من إنجاب الأطفال، قتلوا كل المواليد الجدد، استعبدوا الناجين منهم وأرسلوهم لصناعة قوالب الطوب وتشييد المدن، بناء صروح الإمبراطورية الجديدة: "وإنه (الشعب العبرى) شيد للفرعون مدنًا للمؤنة، بتوم Pithom، ورمسيس Ramssés" (الخروج، ١، ١١)، (الإصحاح الأول – آية ١١).

ثم جاء موسى ناجيًا ومنجيًا. كما تقول التوراة على أى حال، لأن التاريخ المصرى لا يذكر شيئًا عن ذلك العبرانى الذى أفلت من مذبحة قتل المواليد الجدد بمعجزة، ليصير أميرًا، صار تقريبًا أخًا للفرعون. تبعًا للكتاب المقدس، فإن موسى قد قتل رجلًا مصريًا، كان قد أساء إلى واحد من العبرانيين، واكتشف موسى نفسه أنه كان عبرانيًا أيضًا هو

الآخر، تلقى من ربه، بجانب النار، مهمة تحرير شعبه من العبودية ليحمله إلى أرضه. قرار غريب من الله، بأن يختار عبرانيًا جاهلًا بأصله، توصل إلى قمة الدولة فى الغربة، ليجعل منه قائدًا لثورة العبيد ! وسوف نرى بعد قليل أمثلة أخرى من هذا القبيل.

درس سياسى للمستقبل، لكنه أيضًا درس فى الاقتصاد: إذا كان الرب لم يغضب من موسى لتشبهه بالمصريين، لأنه صار غنيًا وصاحب نفوذ لدى غير العبرانيين، بل وإلى حد اختياره كرب لعائلته (بطريرك)، فلماذا لا نفعل مثله؟

لأن موسى قبل المهمة التى أملاها الله عليه. عرض على الفرعون شراء العبيد منه. رفض مستخف من الملك، الذى شدد عليهم ظروف العمل، مشترطًا عليهم صناعة أعداد أكبر من قوالب الطوب بكميات أقل من المواد الأولية (الطين). وجد العبرانيون أنفسهم آنذاك فى مواجهة موسى، الذى التمس العون من الرب. تدخل إلوهيم (رب العبرانيين) بالعديد من المعجزات ليؤكد تفوقه على آلهة المصريين. كل معجزة من هذه المعجزات يمكن تفسيرها بأنها ربما كانت شاهدًا على السيطرة الإلهية على الاقتصاد. وهكذا، كانت عصا موسى التى تحولت إلى تمساح كبير قوى التهم زواحف السحرة المصريين، تعبر عن سيطرة القدرة الإلهية على كل ما يخلقه البشر، مهما كان خارقًا. ثم حلت الآفات العشرة التى أنزلها "إلوهيم" بمصر حتى تسمح لشعبه بالرحيل. عشر عقوبات اقتصادية محددة الهدف تمامًا، متتابعة زمنيًا لتؤلم السجّان أكثر فأكثر، بالهجوم المتوالى على كل مصادر ثروته: الماء، الهواء، الأسماك، الزراعة، القمح، قطعان الماشية والأغنام، المناخ... إلخ. حتى إن الألفاظ المستخدمة فى الإشارة إليها تنطوى على رسائل ذات طبيعة اقتصادية. على هذا النحو، كانت واحدة من هذه الآفات، الدم، يسمى بنفسه اللفظة "دم" (dam) والذى سوف يشير بعد ذلك إلى النقود — المال — (داميم) (damim): الدم، المال، متلازمان لا ينفصلان، منذ تضحية إسحاق.

وإلى أن يسمح لهم بالرحيل أغنياء. كانت هناك أربعة نصوص أسست لذلك. أولًا: النبوءة التى نزلت على إبراهيم منذ زمن بعيد: "ستخرجون من هذه الأرض بأموال كثيرة (التكوين إصحاح ١٥، آيات ١٣ -١٤)، ثم، الأمر الذى تلقاه موسى أمام شوك النار: "لسوف تطلب كل امرأة من جارتها آنية من الذهب ومن الفضة، ملابس لتغطوا بها أولادكم وبناتكم، وسوف تنهبون مصر" (الخروج، الإصحاح ٣، آية ٢١ – ٢٢)، ثم الأمر الذى نقله موسى إلى رؤساء السبط قبل الخروج مباشرة: "ليطلب كل واحد منكم الذهب والفضة (الخروج، ١١، ١)، وأخيرًا التلخيص الفظ للوضع، بعدها بقليل: "ليسألوا، وينهضوا" (الخروج، ١٢، ٣٥، ٣٦). وعلى هؤلاء الذين يدهشهم رؤية العبيد يهربون أغنياء، سوف يرد المفسرون عبر العصور بأن هذه الأموال تعود إليهم كتعويض عن العمل الذى قدموه بالمجان خلال سنوات عصر الاستعباد، أو كهدية وداع، أو أيضًا كفدية يدفعها جيش مهزوم للمنتصرين. بعض المفسرين اليهود فى العصور الوسطى، مثل راشى طروادة Rachi de troyes، سوف يسجلون أيضًا أن هذه الثروات لم تنفع العبرانيين: بعد أن وصلوا إلى أرض كنعان، قاموا بإخفائها فى المعبد (الهيكل) الذى سوف ينهبه البابليون، ثم الإغريق، ثم الرومان بعد ذلك "الذين استولوا عليها من الإغريق، ولا تزال تزال الأموال فى روما[٣٢٥]".

درس جديد فى الاقتصاد: الأموال التى يجرى اغتصابها بالقوة وبالإرهاب، تذهب عبر نفس الطريق. فضلًا عن ذلك، فإن جزءًا منها سوف يختفى قبل ذلك أيضًا: عندما أخذ العبرانيون الذهب من مصر، فإنهم كانوا قد أخذوا، فى الحقيقة، ما يكفى لصناعة عجل من الذهب، والذى سوف يكلف– كما سوف نرى– كل زعماء العشيرة رؤوسهم، تقريبًا.

وفقًا للمأثور، فإن هذا الرحيل قد حدث فى عام ١٢١٢ ق.م. تأتى النصوص المصرية التى تعود إلى هذه الفترة على نكر إبعاد أو طرد شعب مريض، أو إبعاد شعب كان ملكه أبرص، كما تذكر تمرد العبيد الأجانب. فى عام ١٢٠٧ ق.م، سنجد أيضًا مرجعًا مصريًا آخر عن الأبروسيين، مسجل على مسلة مكرسة للفرعون منبتاح، ابن ووريث رمسيس

الثانى، الذى طاردهم فيما وراء البحر الأحمر، حتى أرض كنعان، التى كانت واقعة آنذاك بشكل جزئى تحت الحكم المصرى.

غادر مصر إذًا، عشرات الآلاف من النساء والرجال والأطفال، بعضهم كان غنيًا بالذهب، بالفضة وكل صور الممتلكات والأمتعة، بل ومعهم بعض العبيد. وقد رافقهم بعض الأصدقاء، الأزواج أو الزوجات المصريين فى هذه الرحلة نحو الشمال الشرقى، باتجاه أرض كنعان، عبر صحراء سيناء.

للبقاء على قيد الحياة، خلال مسيرة تصوّرها قصيرة، فرض موسى تنظيمًا شديد الصرامة: اقتصاد بدوى تمتزج فيه دائمًا الجوانب المادية والدينية، اشترط أولًا على كل شخص، غنيًا كان أو فقيرًا، أن يعرّف بهويته، أن يدفع نصف شيكل من الفضة، (سفر الخروج، الإصحاح ٣٠، ١١ — ١٦) — الذى كان لا يزال وزنًا، وليس عملة — أن تضحى كل أسرة بحَمَل. ألزم الحرفيين بتصنيع أشياء متينة، ولكن خفيفة. وللتذكير بما تعرضوا له وعانوا منه، حرّم عليهم كل الأعمال المذّلة، فرض راحة أسبوعية، سمح لكل العبيد بسبعة أسابيع من الحرية فى كل عام. (الخروج الإصحاح ٢٠، آية١٠) وأمر بتحرير العبيد العبرانيين بانقضاء ستة أعوام (سفر اللاويين الإصحاح ٢٥، آية٤٢، سفر الخروج الإصحاح ٢١، آية ١). لتسوية النزاعات، صاغ قاعدة التناسب بين الخطأ والعقاب (الخروج ٢١، ١٢)، وحدد تعويضًا من الذهب أو من الفضة لإصلاح أى ضرر، حتى الأضرار الجسدية. أخيرًا حث كل عبرانى على أن يبدو ودودًا مع الأغراب الذين يصادفهم فى القوافل أو فى الواحات: من الممكن أن نحتاج إلى مائهم أو طعامهم. كلف إحدى العشائر، عشيرة ليفى، بالعمل على تطبيق هذه القواعد بمنتهى الدقة والصرامة.

من كل هذا، لم يكن الشعب يرغب فى شىء، إنه لم يخرج من عبودية، ليسقط فى أخرى. يغمغم الشعب ويعترض. إنهم لا يرون السبب فى فرض قواعد متشددة كهذه من أجل رحلة قصيرة مثل هذا القصر. بعد عدة أيام سوف نكون فى كنعان، سوف نحط الرحال، سوف نقيم عيدًا على الأرض المستعادة. ولهذا، بمجرد أن ابتعد موسى عن المعسكر حتى يذهب لتلقِى قواعد الشريعة التى وعده الله بها، على جبل سيناء، شرع العبرانيون فى صنع صنم بما حصلوا عليه من غنيمة.

فكرة غريبة تقوم فى وقت واحد على الاستهزاء والتحدى: الرغبة فى الاستيلاء على آلهة سادتهم القدامى، والادعاء بأنهم مساوون لمن أساء معاملتهم، مع نسيان الإله الواحد الذى لولاه لكانوا مستمرين فى صب قوالب الطوب فى قلب الجحيم. قام هارون، أخو موسى، يعاونه رهط ليفى، بكل ما فى وسعه ليؤخر صناعة هذا الصنم حتى عودة أخيه. اقترح أولًا على من حرضوا على هذه الفكرة أن يختاروا العجل مثالاً، رمز الثراء فى مصر،حتى تظهر تفاهة الفكرة وسخافتها بوضوح أمام أعين الجميع. وبما أن الحال لم يكن كذلك، فقد اقترح أيضًا مصادرة كل الحلى التى أتوا بها من مصر، آملًا أن تعترض النساء على ذلك. لم يحدث من ذلك شىء. تم استهلاك الجزء الأعظم من الكنز المسلوب فى صناعة عجل رائع من الذهب. كانت الرسالة واضحة: عبادة إله واحد أفضل أم السجود أمام المال الذى وهبه الله للبشر ليحبوه.

درس جديد فى الاقتصاد: المال، وسيلة لخدمة الرب، يصير منافسًا للرب، وسيلة لعبادة الأصنام، يصبح مصدر خطر لو تحول إلى هدف فى حد ذاته. بمعنى آخر، تكون الثروة شكلًا من أشكال الوثنية إن لم تكن فى إطار قواعد أخلاقية.

فيما بعد، سيصبح التعادل المفترض من قبل بين المال والدم، فى نظر أعداء اليهود، تعادلًا بين المال والله وبالتالى بين الله، الدم، المال. يومًا ما سوف يقولون: إن دم الرب يمكن أن يبادل بالمال. لن نخرج بعد ذلك، من هذا المثلث الجهنمى فى العداء لليهودية.

بعد أربعين يومًا، عاد موسى من عزلته حاملًا الوصايا العشر، النص الذى أملاه عليه الرب. استشاط موسى غضبًا لرؤية الوثن الذهنى، "أحرقه" كما يقول النص – ما أشار إلى أن العجل لم يكن إلا من الخشب المغطى بقشرة من الذهب، أو كما يقول المفسرون أيضًا، أنه قام بصهره قبل أن يصب المعدن المصهور فى أفواه ثلاثة آلاف من المذنبين، يؤكد النص كذلك أن موسى قد محا من الوجود كل أموال مصر المنهوبة ومعها نخبة الشعب العبرانى. لأن هؤلاء الآخرين قد طمعوا فيها. الدم والمال مرة أخرى.

من الشعب المذهول بتوالى الأحداث، – الهروب، عبور البحر الأحمر، دخول الصحراء، القضاء على عبدة الأوثان – طلب موسى أن يعتبر أن ثروته الأساسية متاعًا

لن يمكنه أن يبيعه ولا أن يستهلكه، بل سوف يستطيع كل شخص أن يحصل عليه دون أن يحرم الآخر منه: شريعة الرب. شعب عابر رحّال، يتمتع بنص إلهى، عليه أن يعرف كل شىء فيه وأن يحيا من خلاله، حتى ينقله، ليجعل منه عمود العالم الفقرى. هكذا فرض موسى الوصايا العشر على الشعب المقهور. عشرة أوامر ترسى قواعد أخلاق وآداب عامة، ذات أبعاد اجتماعية هائلة. إنها تشترط العمل بالفعل، تفرض الراحة الأسبوعية، تحرّم تصنيع أى أشياء مقدسة، تحترم العقود والملكيات الخاصة، تشبّه السرقة بالاختطاف، وتشبّه الاختطاف بالقتل.

آنذاك، كلف موسى رهط ليفى بالعمل على احترام تطبيق الوصايا لأنهم كانوا الجماعة الوحيدة التى لم تشارك فى عبادة العجل الذهبى، جاعلًا منهم المختارين من الشعب المختار. للحفاظ على بقاء عدد الأسباط غير الكهنوتيين اثنى عشر سبطًا، قسم موسى سبط يوسف إلى اثنين (حول ولديه مينَساه **Menasseh** وإفرايم **Ephraïm**).

غير أن موسى قد أدرك أن رفاقه فى الرحلة، بعد أن ذاقوا ذل العبودية وعرفوا غواية العجل الذهبى، لن يكونوا قادرين على التقيد بهذه الشريعة (الوصايا): لوقت طويل جدًا كانوا خاضعين للغير، ما جعلهم غير قادرين على القبول بحرية الاختيار، محور شريعة موسى. كان عليه إذًا أن يغير الشعب، أن يستبدله بجيل بلا ذاكرة، جيل لم يعرف تجربة مصر. لهذا أصدر حكمه: كل مَن عاش فى مصر وعرف هوانها سيكون عليه أن يموت فى الصحراء. لن يدخل أى عبد قديم إلى أرض الحرية.

رتب موسى فى ذلك الوقت لتيه وهمى، الوقت اللازم لتكوين شعب بديل، لمساعدة العبرانيين فى متاهة الرمال هذه فى تربية أطفالهم الذين ينبغى أن يحلوا محلهم، رفع الله عنهم مؤقتًا التكاليف التى فرضها على البشر من عهد آدم: العمل. أنزل الله "المن" ليشبعهم. وفقًا للمفسرين، أنه كان طعامًا غريبًا، يتخذ الطعم الذى يشتهيه من يتناوله: للأطفال كان له طعم اللبن، للفتية المراهقين، طعم الخبز، لكبار السن، كان له طعم العسل. من يطعمه يصير فى قوة الملائكة. غير أن "المن" كان أيضًا طعامًا رتيبًا مضجرًا، يضيع فقط إحساس المرء بالجوع بعد تناوله. لا تصاحبه أى لذة. لم تكن سيناء جنة عدن. لا

يتوافر المن إلى ما لا نهاية: كان ينزل عليهم كل صباح، أمام كل خيمة، لا ينبغى أن يؤخذ منه إلا بقدر ما يحتاجه أهلها تمامًا. كل ما يؤخذ زيادة عن ذلك يفسد: لا مجال للادخار والتخزين، وبالتالى فلن يكون هناك تجارة.

كما هو الحال بالنسبة لكل وقائع التوراة، بحثنا عن تفسير عقلانى لهذه الظاهرة. يرى فيها بعض العلماء إشارة إلى نوع من الحشرات تتطفل على نباتات بعينها، أشجار الإثل، التى لا تزال تنمو إلى يومنا هذا فى جنوب النقب. ومازال البدو إلى يومنا هذا يعرفون هذه الحشرات الـ tamarix mannifera– قرمزيات غنية بالهيدروكربونات، لها مذاق حلو ودبق – ويستخدمونها كبديل عن العسل. وإلى يومنا هذا أيضًا، يطلقون عليها اسم... المن !

لم يرض الشعب عن هذا الطعام، الذى يتطلب كثيرًا من الخيال ليكتسب مذاقًا ما. إنه يأمل فى الهروب من سجن الرمل هذا، الخروج من التيه. هنا أيضًا، درس فى الاقتصاد: إنتاج غذاء ما بوفرة، إغداق المأوى والكساء، القضاء على الندرة لم يكن كافيًا. لا يكتفى أحد بالعيش مُشبعًا لحاجاته الأولية فقط. الكل يسعى لإشباع رغباته ويجد لذة فى أن يخلق حاجات جديدة بلا توقف. يريد الناس الأرض الموعودة، لكنهم يستشعرون أنها لن تكفيهم. لهذا، أليسوا تعساء فى أن تقتصر حياتهم على البحث عنها فقط: التجوال فى التيه انتهى بأن صار غاية فى حد ذاته.

واقع الأمر، أنه مع مرور الوقت، وجد بعض العبرانيين التائهين سعادة حتى فى هذا الطواف الذى لا ينتهى. بعد مرور أربعين عامًا، كانوا قد اعتادوا فعلًا على حياة البدو هذه بدون الحاجات التى ينتقدها طليعتهم التى وصلت أخيرًا إلى كنعان، هذا البلد الذى يجب على المرء فيه أن يعمل حتى يحصل على غذائه.

موسى، الذى يوشك على الموت، يوجه إليهم درسًا أخيرًا فى الاقتصاد: التعود على النزول على رغبات الغير (أفوداح Avodah) ليس أفضل من عدم اليقين فى ظل الحرية (melak'a– ميلاخا) – اسم الأولى يعكس معنى المعاناة، اسم الثانية يحيل إلى معنى السلطة. مرة أخرى، تكمن الرسالة، فى اليهودية، فى مغزى الألفاظ.

٣- مغزى الكلمات

البداوة والتجريد

لا يمكن فهم شيء في الفكر اليهودي، خاصة في علاقته بالمال، إذا لم يهتم المرء بمغزى الأشياء كما تكشف عنها جذور وأصول الألفاظ التي تشير إليها. كانت الكلمات، من جهة أخرى، قد أعطيت للبشر، يقول سفر التكوين، حتى من قبل الأشياء التي تسميها، وأنها تحيا بشكل مستقل عنها. ولهذا، فإن الرغبة في وصف العلاقة بين اليهودية والاقتصاد، تعني أولًا الاهتمام الشديد بتحليل الألفاظ التي يمكن أن تصفها، السعي لمعرفة تاريخها، علاقتها بالألفاظ الأخرى. إنها على سبيل المثال، استخراج نقاط مشتركة بين الكلمات التي تكتب بنفس الحروف الساكنة (في العبرية، لا تكتب الحروف المتحركة، وكما في اللغات الأخرى يمكن أن يكتب العديد من الكلمات بنفس الحروف الساكنة)، أو بين الكلمات التي لها نفس القيمة الرقمية (كل حرف يعادل رقمًا، والكلمات تعادل مجموع القيم الرقمية لحروفها).

بالعمل على ذلك النحو، ربما منذ فترة عبور سيناء، أرسى اليهود القواعد نفسها في التأمل العقلي التجريدي وفي الخطاب العلمي الهادف هو الآخر إلى اكتشاف ثوابت مشتركة لوقائع لا تتعلق ببعضها بشكل مسبق. وعليه، بالبحث في أصل الكلمات، لعل اليهود كانوا منذ ثلاثة آلاف ومائتي عام يعدون الأجيال القادمة للتجريد، ملكة مهمة للغاية، سوف نرى ذلك، في عالم المال، في العلم والفن.

مثلت هذه القدرة على التجريد أهم ثروات البدو الرحّل. لا يستطيع أحد أن يستولي عليها. انظروا كيف تسمح بالتلاعب بالألفاظ في مجال الاقتصاد.

الكينونة والملكية

لا تتضمن العبرية فعل "مَلَكَ" – كلمة يش yech، التى تعنى "كان" أو "يوجد" تشير أيضًا إلى علاقة "هذا الذى" بالأشياء، "أنا أملك" يعبر عنها بـ "يش لى" yeca Li أى "هذا لى" أو "يوجد لى". بمعنى آخر إن الشىء المملوك لا يتميز عمن يملكه. تحيا الأشياء حياة أصحابها، وكل من يتنازل عن ملكية شىء يفقد من قوة الحياة أكثر بكثير من المال الذى يجلبه له بيعه.

المــــال

اللفظة الأساسية المستخدمة للإشارة إلى المال هى كسِف Kessef، التى وردت فى التوراة حوالى ٣٥٠ مرة [٩٨]. وتكتب بثلاثة حروف ساكنة K,S,F، التى تنطق كوسيف kosséf، مشيرة إلى الرغبة، الحنين، الأمر الذى له علاقة بالمال بكل تأكيد. فضلًا عن أن نفس هذه الحروف الساكنة الثلاثة، إن نطقت Kassaf– كاساف، أو بطريقة أخرى، تعطى فعلًا ظهر فى خمس مرات فقط فى التوراة كلها، وفى كل منها كان له معنى قريب من "رغب فى"[١١١]. هذه المقاطع تكشف من ناحية أخرى عن صور الرغبة[١١٩] التى يتيح المال إشباعها.

يتيح المال للشخص بأن يطالب بحقه، كما هو الحال عندما قال أيوب للرب: "أنت تدعونى و أنا أجيبك وتشتاق إلى عمل يديك" (أيوب، ١٤، ١٥).

المال يشبع رغبة المرء فى أن يكون محبوبًا، كما هو الحال عندما قال النبى صافنيا Sophonie: "سيطروا على أنفسكم، كونوا أناسًا بلا رغبة"، وهو ما يمكن ترجمته أيضًا بـ "شعوب لا تستحق أن تكون محبوبة" (صافنيا – الإصحاح ٢، الآية ١).

يتيح المال إشباع اللهفة، كما هو الحال، عندما قال داود للرب بشأن أعدائه "إنهم كالأسد الكامن للافتراس" (المزمور ١٧، الآية ١٢).

يسمح المال بالتوقف عن الشعور بالضعف، مثلما كان الحال، عندما تغنى الشاعر: "تذوب نفسى شوقًا إلى ديار الرب" (داود ٨٤، ٣).

وأخيرًا يسمح المال بالحصول على ما نحن مستعدون لفعل أى شيء من أجله، ماعدا السرقة، مثلما قال لبان Laban ليعقوب، الذى تركه حاملًا الأصنام التى أخذتها راشيل Rachel : "لماذا سرقت آلهتى؟" (التكوين ٣١، ٣٠).

هكذا يحيل المال إلى معنى المطالبة، إلى معنى الرغبة، الضعف، إلى الحب، إلى العاطفة(١٩٩). ويسمح بإشباعها بطريقة سليمة، متحضرة بشرط السيطرة على هذه الرغبة، لأن "من يحب المال لا يشبع أبدًا من الكسب" سفر الجامعة (إصحاح ٥، آية ٩). درس آخر فى الاقتصاد: حب الرغبة لا يمكن أن يفرز إلا الرغبة.

لكن، بما أن اللغة العبرية تميل إلى التلاعب بالحروف(٢٩٦)، فإننا أيضًا، بتغيير ترتيب حروف كلمة Kessef، أو بتغيير حرف منها، نحصل على كلمات أخرى تقترب أيضًا بصورة أخرى من معنى المال. مثل Kachef– كاشيف (سحر)، Kessef (اكتشف، كشف عن)، Sahaf– ساهاف (دمر، نهب) أو أيضًا Sekef– سيكف (أوهن، أضعف عزيمة، شغل بال). إن كلمة Kessef يمكن أيضًا أى تتفكك إلى Kes (قطع، ألغى) و Sof (نهاية)، أى إن الكلمة تعنى أيضًا "نهاية المنع": على هذا النحو، يشير المال أيضًا إلى نهاية قطيعة، نهاية عنف، او إعادة اتصال، بداية رسالة. معناه بالضبط تمامًا.

هناك تعبيرات أخرى تستخدم أيضًا لتسمية المال وتكمّل معناه.

المال النقدى يسمى ماوت maot، التى يمكن أن تقرأ مييت méét، لو نطقت بطريقة أخرى (ومعناها – الذى يعتمد على الوقت). بعبارة أخرى، المال هو وسيلة لبللورة الوقت، وقت العمل ووقت التفاوض.

أما المال بمعنى "واجب الدفع" فسوف تقال، فيما بعد، داميم DaMim، وهى أيضًا صيغة الجمع من DaM– دام (دم). المال بدلًا من الدم: يرش المذبح بدم (DaM) الحيوان الذبيح قربانًا، المُشْتَرى بمال (DaMim) من قدم الأضحية(٩٨). تشابه واضح وخطير، رأيناه

فى مصر فعلًا عدة مرات، وحوّره عن معناه من يتهمون اليهود، من المسيحيين والمسلمين من بعدهم، بشرب دم الأطفال. DM، يمكن أن تعطى أيضًا DaMa(جمع، قارن، قدم)، لأن المال يمثل الأشياء بغرض المقارنة بينها. DM يمكن أخيرًا أن تنطق DoM (صمت)، التى يمكن تأويلها بأن المال يُكره على السكوت وأن يؤدى إلى تفادى النقاش، لكن، تبعًا أيضًا لترجمة لاحقة ورائعة للتلمود (الباب الأخير، إصحاح ٩٢ أ–Baba Camma qra)، بأن على الرغم من المال الذى يدفع كتعويض فإن الجانى لا يعد بريئًا ما دام لم يحصل على عفو ضحيته(٢٩٦).

مازالت هناك كلمة أخرى تعنى المال، بمعنى "الثروة": mamone– (مامون)، بينما ما مونيه، ma – moné، هى اختصار ma (ata) moné– ما آتا مونيه، التى تعنى: "ما تنوى أن تفعل؟"، بمعنى آخر أن المال يجبر المرء على مراعاة أفعاله.

كما أن للأحرف قيمة رقمية، يمكننا أيضًا أن نجد معادلات وعلاقات مثيرة للاهتمام بين الألفاظ ذات القيمة الرقمية المطابقة لحروفها. وعلى هذا النحو، نجد أن أحد الحاخامات فى بداية القرن الرابع عشر، يعقوب بن آشر Jacob ben Acher، ولقبه بال هارتوريم Ba ‘al ha-tourim، قد لفت إلى الكلمات الثلاث –mammon (ثروة)، Sovlam (سلْم) و oni (فقر)، لها جميعها نفس القيمة الرقمية: ١٣٦. لقد اكتشف فى هذا الارتباط بين الكلمات الثلاث التى لا تجمع بينهما علاقة مسبقة، تفسيرًا لحلم يعقوب: سلم يعقوب الذى يضع الناس فى علاقة مع الرب، يساوى الفروق بين الفقراء والأغنياء.

هكذا، جعل الشعب اليهودى من النقود الوسيلة الوحيدة والعامة للمبادلة، تمامًا كما جعل من إلهه الوسيلة الوحيدة والكونية للسمو والترقى.

الدفـــع

كلمة Leshalem (دفع)، تنطبق أحيانًا Shelmout (كمال)، و Shalom (سلام). بمعنى آخر: إن سداد الديون هو طريق للحصول على السلام. هذا أيضًا، تبدو المبادلة النقدية كأفضل وسيلة لتسوية النزاعات، الجدل أو الحرب.

القيمــة

إن كلمة Sha'ar، التى تعنى القيمة، تسمح بتخيل معنى "تكافؤ" أو "تعادل" تأتى من أصل يعنى أيضًا "تحديد"، "تثبيت" و "إعداد"، كما تعنى أيضًا "باب مدينة"، أى المكان الذى تقيم فيه العدل وتحدد قيمة الأشياء والأفعال. "مثل قيمة روحه، يكون" (سفر الأمثال ٢٣، ٧). بتعبير آخر: إن كل شىء يمكن حسابه، كل شىء يمكن تقديره، القيمة النقدية لأى شىء لا يمكن فصلها عن قيمته الأخلاقية. فى اللغة العبرية الحديثة تشير الكلمة إلى السعر الجارى للأشياء، وبصفة خاصة أسعار صرف العملة.

التجارة

تشير كلمة massa oumatane، والتى تعنى "تجارة"، أيضًا فى نفس الوقت إلى "أخذ"، و "عطاء". ما يعنى أن التجارة ليست النتيجة المترتبة عن حساب الربح، لكن تقارب قيمة المباع وثمنه الاثنين المتعادلين، تزامن الفعلين عن تراضٍ، حيث يكون طرفا الفعل فى وضع المساواة. ربما تابعنا هذه الرحلة اللفظية إلى ما لانهاية. فالكلمة التى تشير إلى السوق، مثلًا، Chouk، تشير أيضًا إلى الساق (وخصوصًا عظمة الساق الكبيرة)، وبالتوسع فى المعنى، المكان الذى نمشى فيه، الشارع، الذى هو مكان التجارة.. بامتياز.

٤ - قضاة وملوك

من الذهب إلى النقود

باستقرارهم فى أرض كنعان، أتيح للعبرانيين وللمرة الأولى فرصة العيش بانتظام فى بلد ينعم بوجود حكومة. فى البداية، ترددوا. لقد عانوا كثيرًا من السلطة إلى حد تخوفهم من القبول بسلطة جديدة، حتى وإن كانت سلطتهم. غير أن مقتضيات الحرب والاقتصاد دفعتهم إلى ذلك. لابد من ضرائب، ميزانية، نقود، قواعد للملكية. فى تطور

وبروز مذهل للقانون، والإجراءات تم اختيار بعض القيم وبعض قواعد اقتصاد السوق، التي ستكون أساس القوانين في الغرب لمدة ثلاثة آلاف عام قادمة.

قضـــاة

قبل أن يموت موسى، آخر من عرف مصر تحت حكم رمسيس الثاني، كان قد أدرك أنه قد أمضى معظم حياته في الصحراء بين الصلاة وتفسير الشريعة. في ذلك الوقت، وزع هاتين المهمتين بين إليعازر **Éléazar**، أحد أبناء هارون، الذي اتخذ دور الكاهن، ويشوع **josué** (الذي يعني اسمه "الذي نجّاه الله")، الذي أوكلت إليه مهمة تفسير شريعة الرب، وأن يدبر للشعب شئون حياته اليومية، عبر رئاسته لمحكمة تتكون من أحد عشر قاضيًا (لهذا الرقم قيمة خاصة، كما سوف نرى). هذه المحكمة لم تكن حكومة. لكن شكلًا من أشكال المجالس الديمقراطية على الأقل في قواعدها، لها رئيس عسكري وسياسي في نفس الوقت، مكلف بإيجاد الحل لمشاكل واقعية ملموسة. لا حكومة، لا هيئات إدارية، لا سياسة ضرائبية مركزية.

في بداية القرن الثاني عشر هذه، كانت أرض كنعان إقليمًا إستراتيجيًا من الناحية العسكرية والاقتصادية، ملتقى طرق التجارة الرئيسة في تلك الفترة: إلى الشرق باتجاه بلاد ما بين النهرين، إلى الشمال نحو الأناضول، إلى الغرب ناحية البحر الأبيض المتوسط واليونان، إلى الجنوب إلى مصر، التي كانت واقعة تحت وصايتها.

العديد من المدن — الدول المستقلة، المدن التجارية، الموانئ، محطات استراحة القوافل، كانت نقاط عبور إجبارية للبضائع: ذهب، فضة، نحاس، رصاص، أخشاب بناء، ماشية، عسل، زيت زيتون، جعة، نبيذ، مراهم وأدهنة. كانت التجارة العالمية، خاصة الساحلية، بين أيدي الكنعانيين، "وسطاء للشرق بأسره"[٤٢٩]. كان تعبير "كنعاني" أو "فينيقي"، يشير في ذلك الوقت إلى التاجر، الذي ينافسه الفلسطينيون أو "شعب البحر" الذين سيعطى اسمهم، بعد ألف عام، اسم فلسطين. جدل حول الأصل: تتحدر الكلمة الإغريقية **Palestinia** وفقًا لمعظم المؤرخين[٦]، من الكلمة العبرية **Pelechet** (التي تشير إلى الفلسطينيين). لكن

بالنسبة لآخرين[٢٠٥]، فإنها تأتى من الكلمة الإغريقية **Palaistes**، التى تعنى المصارع، أى "مصارع الرب" بما يعنى أيضًا يعقوب، بعبارة أخرى إسرائيل ! وفقًا لأن تشير فلسطين إلى بلد الفلسطينيين أو أرض يعقوب، فإن أصل الكلمات قد كان ولايزال مرة أخرى ذا أهمية جغرافوسياسية هائلة.

يرى المؤرخون، أن وجود العبرانيين فى هذه المناطق قد تأكد نحو عام ١٢٠٠ ق.م، وهم يفسرون ذلك عن طريق غير النص التوراتى. بالنسبة لهم فإن الأكثر احتمالاً هو أن هذا الشعب قد نتج عن تجمع أربع عشائر فى أرض كنعان، جاءت من بلاد أربعة: بنو يعقوب، عشيرة آرامية نازحة من وادى باليح **Balih** فى أعالى بلاد ما بين النهرين، لتستقر نحو عام ١٢٧٠ ق.م، فى سيشم **Sichem** بأرض كنعان، بنو إسرائيل، الذين وصلوا إليها بعد ذلك قادمين من الجنوب، من بلاد جوشن **Goshen**، فى دلتا النيل، حيث تم استخدامهم، خلال حكم رمسيس الثانى، فى تشييد مدن بيتوم ورمسيس، تواجدت هاتان العشيرتان فى كنعان لتشكلا "تحالف سيشم **Sichem**" الذى أتى يشوع على ذكره[٢٤] والذى تلاقى نحو عام ١٢٠٠ ق.م، مع عشيرتين أخريين، كانتا قد تجمعتا كذلك فى تحالف: ، بنو إبراهيم، القادمون من الجليل، التى ستأخذ اسم "بيت يهودا"، وبنو إسحاق، القادمون من بييرشيبا **Beer Sheba**، أى من سيناء.

قام مؤرخون آخرون باختزال هذه القصة إلى ثورة الفلاحين الأبروسيين المتحالفين مع عبيد هاربين من مصر، ضد سادتهم الكنعانيين.

أيًا كان التفسير الحقيقى لوصولهم إلى هذه الأماكن، فإنه من المؤكد أن القرن الثانى عشر قبل الميلاد قد شهد، أفواجًا من العبرانيين المتمرسين حربيًا بسبب حياتهم فى الصحراء وعلى رأسهم قائد صارم يدعى يشوع **Josué**، تسير وفى مقدمتها تابوت يضم شريعتهم، ساعية نحو أرض منحها الرب لشعبهم – على الأقل وفقًا لرواياتهم بشأن نشأة الكون – من قبل خمسة قرون.

وجدوا أمامه جيوش المدن / الدول الفلسطينية: غزة، عسقلان **Ascalon**، أشدود **Ashdod**، عِكرون **Eqron** وجات **Gat**.

بانتهاء مواجهات شديدة العنف، انتصرت الجماعات الاثنتا عشرة على الفلسطينيين، طردوا الحيثيين، تغلغوا بين الكنعانيين، مستقرين على السهل الساحلى ما بين يافا وغزة، وأقاموا حصون عكا، مجيدو، تاناخ، بيت شيعان، ثم شيدوا فى الجنوب خطًا محصنًا ثانيًا مكونًا من جير، آيالون، أورشليم، فى البداية كانت أراضى كل جماعة معزولة عن أراضى الأخرى بممالك معادية، ومع تقدم الفتوحات، اتصلت هذه الأراضى. مستشعرًا تصاعد النزاعات بين المتنافسين، قام يشوع بتوزيع الأراضى المستولى عليها بين الجماعات الاثنى عشرة: "اختاروا بأنفسكم ثلاثة رجال من كل جماعة حتى أوكل إليهم مهمة التجول فى البلاد ووضع خريطة لها وفقًا للحيازات التى سيجرى تخصيصها؛ بعد إتمام ذلك، سيأتون لرؤيتى. سوف يقسمونه إلى سبعة أجزاء، يهودا عليه أن يحافظ على حدوده فى الجنوب، يوسف عليه أن يحمى حدوده فى الشمال. سوف تعّينون حدود البلد من سبع جهات وسوف تأتوننى بهذه الخريطة إلى هنا، حتى نقترع عليها من أجلكم أمام إلهنا الأبدى" . (يشوع، إصحاح ١٨، آية ٤ – ٦).

من الآن فصاعدًا، تسجلت أسماء أسباط بنى إسرائيل فى الجغرافيا.

كانت البيئة لا تزال معادية. يسيطر الكنعانيون على صناعات التعدين، خاصة تعدين الحديد، الذى كان وقتها معدنًا ثمينًا، ولهذا، واجه العبرانيون كثيرًا من الصعوبة فى الحصول على أسلحة من الحديد. كان تعداد السكان الإجمالى فى هذا البلد، على ما يبدو، قرابة المليون نسمة، الأغلبية من المصريين، الفلسطينيين ومن الكنعانيين[٣٥].

تردد بضع مئات الآلاف من العبرانيين الوافدين فى عقيدتهم. شرع كثير منهم فى عبادة الآلهة المحلية، عشتروت، بعل، آلهة الخصوبة الوثنية الآتية من بابل. للمحافظة على هويتهم، أقام الآخرون نظامًا صارمًا: كما فى مصر وسيناء، مجلس يضم الشعب كله، الإيدا **L,eda**، يناقش القضايا المهمة. كل مدينة، كل قرية تنتظم فى جماعة مستقلة يديرها كبار السن وتنفرد بمحكمة خاصة للنظر فى كل تصرفات الحياة اليومية وتقيدها بالشريعة وكذلك للفصل فى النزاعات التى تنشب بين السكان.

لم يكن هناك قوانين مكتوبة، لم يكن هناك إلا اجتهادات وأحكام فيها أخذ ورد إلى ما لا نهاية. كما كان الحال، بعد ذلك بكثير، بالنسبة للقانون الأنجلوساكسونى، لم يرد القانون العبرى أن يحدد شيئًا بنصوص مكتوبة. من عصر إلى عصر سوف تدرس المحاكم (بيت دين) وتفصل فى حالات خاصة معتمدة على المبادئ الأخلاقية للشريعة، وفقًا لظروف الوقائع الآنية.

حددت هذه المحاكم أولًا العلاقة بالموت: بخلاف جيرانهم يدفن العبرانيون موتاهم خارج حدود المدن، فى مقابر. من المحتمل أنهم كانوا من ضمن الأوائل فى تحريم وضع أشياء أو كائنات حية فى هذه القبور: الثروة لا يجب أن تزول بالموت، أقصى درجات الدنس.

طمح السكان إلى أن يصيروا متجانسين تقريبًا داخل حدود تتثبت وتترسخ أكثر فأكثر. صار هؤلاء الرعاة القدامى، محاربين رُحلاً ثم عبيدًا لأعمال التراب، ثم تحولوا إلى فلاحين يزرعون حتى أقل المنحدرات والتلال خصوبة. أنشأ بعضهم القرى، وأصبحوا فيها حرفيين، تجار، صُياغ. لم تكن النقود قد ظهرت بعد كانت التجارة والقروض، كما فى مصر وغيرها، تجرى بصورة عينية أو بأوزان من الذهب أو الفضة. بين العبرانيين وبعضهم، كانت القروض، صورة من صور التضامن، تقدم بدون فائدة، كانت تتاح للمزارعين، مثلًا، لشراء البذور، ثم يتم سدادها مع المحصول الجديد. بالنسبة لغير العبرانيين، يتم دفع فائدة كما يفعل المقرضون الآخرون.

ظهرت النقود، للمرة الأولى، فى ثنايا آية من سفر القضاة (١٥،٩)، عندما تعلق الأمر بالثمن الواجب دفعه إلى دليلة فى مقابل الفخ الذى نصبته لشمشون، ثم فى موضع آخر أبعد قليلًا، فى آية أخرى من نفس السفر (١٧،٢). ظهرت النقود فى صورة شواكل فضية (قطع نقدية ولم تعد مثاقيل أو أوزان)، تم صهرها ليُصنع منها تمثال، قدم إلى إحدى الأمهات. تلك الحالتان لظهور النقود، تحيل إحداهما إلى العلاقة الجنسية، والأخرى إلى الأمومة. كلتاهما مرتبطتان بالخيانة ومصاحب لها. لكن فيما وراء الاستعارة، فالمقصود هنا هو المفارقة التاريخية: لن تظهر أول نقود فى العالم، كما سوف

نرى، إلا بعد خمسة قرون من ذلك، فى آسيا الصغرى. فى الواقع إن سفر القضاة، الذى يذكرها، قد كتب بعد ستة أو سبعة قرون من الأحداث التى يتناولها، وقرنين بعد إدخال النقود بواسطة الإغريق.

حددت المحاكم قواعد أسرية أخرى تم تطبيقها على المستوطنين. ما يتم اكتسابه عن طريق العمل يجب أن يستخدم أولًا فى إعالة الأسرة ("ينبغى على الرجل أن ينفق على الغذاء أقل مما يربح، وكما تسمح موارده للكساء، ولكن بما يفوق موارده لإكرام النساء والأطفال، لأنهم يعتمدون عليه"، هكذا سيقول المفسرون بعد ذلك[٤٠٧]). للرجل سلطة مطلقة على نسائه (عادة تعدد الزوجات لا تزال سارية)، وعلى أطفاله، ما عدا، منذ إبراهيم، حق قتلهم (سفر اللاويين، إصحاح ٢٠، آية ٢ – ٥)، (سفر التثنية، إصحاح ٢١، آية ١٨ – ٢١). يُلْزَم الأب بإجراء الختان لكل أبنائه الذكور وبأن يفتدى ابنه البكر، بقربان، للتذكير بتضحية إسحاق. كان الابن البكر يحصل على ضعف ميراث الآخرين، ويأتى الأحفاد قبل عماتهم، فى حالة عدم وجود أبناء أو أحفاد ترث البنات آباءهن، لكن دون حق الأفضلية للبكر منهن، يذهب ميراث الرجل عديم الأولاد إلى أعمامه، أم المتوفى ووالده ليس لهم أى حق فى الميراث، (سفر القضاة، إصحاح ١١، آية ٢). لكن حق البكورية لا يحدد وحده مصير أى شخص. يمكن لأى رجل أن يعيد شراء حق البكورية، كما فعل يعقوب ويوسف، أو أن يتم اختياره بواسطة أبيه، كما فعل إبراهيم مع إسحاق.

ومع ذلك، فقد تحسنت أوضاع النساء: يضمن لهن عقد الزواج نوعًا من الضمان المادى فى حالة الطلاق، إن لم يكن للمرأة أطفال، فإنها تستطيع أن تحصل عليهم بتوكيل امرأة أخرى. لكن النساء ظللن جميعًا خاضعات تمامًا: إن ورثن عن آبائهن، لا تستطيع البنات الزواج إلا برجال من داخل العشيرة (سفر الأعداد، الإصحاح ٣٦)؛ الأرامل بدون أولاد ملزمات بالزواج من أخ أصغر للزوج المتوفى حتى يؤمن لهن نسلًا من بعد موت الزوج. تتبع المرأة زوجها فى العبودية، عندما لا يتمكن من سداد دين ما (سفر الخروج، إصحاح ٢١، آية ٢، ٣). تتحمل النساء مهمة التعليم الدينى الأساسى لأطفالهن، دون أن يتحتم عليها لهذا السبب الانتماء إلى الشعب المتحدر من سلالة ذكورية.

بعد يشوع، سيطر على مجلس القضاة شخصيات قوية أخرى، أصدروا الأحكام القضائية وقاموا بكثير من الاجتهادات. حكومة دينية ديموقراطية، كان رموزها الأساسيون هم ديبورا Deporah، يبته jepté، شمشون Samson، جدعون Gédéon وصامويل Samuel. لكنها كانت دينية تقل فاعليتها أكثر فأكثر من الناحية التمويلية والعسكرية.

صامويل وشاؤول.

في بداية القرن الحادي عشر قبل الميلاد، تلقت عشائر إفرايم Ephraïm وميَنساه Menasseh وبنيامين Benjamin الهزيمة على يد شعوب كانت عدوانية بصورة خاصة، الفلسطينيين أو الآمونيين. تم الاستيلاء على التابوت وتدمير قدس الأقداس في سيلو Silo. حينذاك، قدر القضاة تدعيم الجيش، غير المتمرس مهنيًا حتى ذلك الوقت، والذي يتهرب معظم الرجال من الخدمة فيه. إن الخدمة في الجيش الآن، يقول القضاة، هي خدمة للرب؛ الجنود هم "أتباع الرب وأولياؤه" (سفر القضاة، الإصحاح ٢٠، آية ٢). من يتملص من التجنيد يطرد من الطائفة ("لقد رفض أن يأتي لنجدة ياهفي yahyé). على الرغم من هذا التوبيخ، فإن عدم وجود نظام ضريبي قد حال دون الحصول على جيش مستديم وإستراتيجية متماسكة.

نحو عام ١٢٠٠ ق.م، صار الوضع حرجًا بصورة متزايدة. أصبح الغزاة الآمونيون أكثر تهديدًا. اجتمع مجلس العشائر كاملًا في مدينة راما Rama. وأنذر رؤساء كل العشائر القاضي الأول في ذلك الوقت، صامويل Samuel، بأن عليه أن يختار ملكًا وأن يفوض له كل الوسائل لإقامة جيش دائم. في خطاب رائع حذّر صامويل مندوبي العشائر من خطورة ملك يستأثر بالسلطة والثروة، ويذّكر الجميع بأن سلطة مستبدة يمكنها أن تُخضِع الشعب وتتسبب في معاناته. نص يتمتع بحداثة لم تكن محل شك أبدًا.

"انظروا كيف سوف يتصرف الملك الذي تريدونه: أبناؤكم سوف يأخذهم ليستخدمهم في عرباته، في خيّالته، سوف يجعلهم يركضون أمام عرباته الحربية، سيجعل منهم ضباطًا للألف، ضباطًا للخمسين؛ سوف يجبرهم على حرث الأرض، على الحصاد من أجله، على

صناعة الأسلحة، معدات عرباته. بناتكم سوف يستغللهن فى تحضير العطور، فى طهو طعامه وإعداد خبزه. أفضل حقولكم، كرومكم، حميركم سوف يستولى عليها، ليستغلها حتى يغتنى. سوف يأخذ ضرائب على أغنامكم، وأنتم أنفسكم سينتهى بكم الأمر عبيدًا له. سوف تبكون بسبب هذا الملك الذى تريدونه. لكن الله لن يغفر لكم فى هذا اليوم" (صامويل الأول – إصحاح ٨، آيات ١٠ – ١٩). غير أن الشعب لم يُصغِ إليه ورد عليه هاتفًا "لا. لابد لنا من ملك !"

استسلم لهم صامويل وعرض عليهم من اعتقد أنه الأفضل، حتى فى مقاومة هذه المغريات: شاؤول Saül، قائد، خرج منتصرًا من عدة معارك خاضها ضد الآمونيين. بعد أن تم اختياره ونودى به ملكًا وتوّج بدهان جسده بالزيت المقدس، انتقى شاؤول جنودًا، صادر مؤنًا، شيد حصونًا.

خلال شهر كامل من كل عام، كان على كل شخص أن يقدم للملك كل ما يلزمه من مواد. إلى جانب الملك، تنعقد محكمة تضم واحدًا وسبعين عضوًا. كل عشيرة تدير شئون مقاطعتها، ما من أحد يمكنه أن يتنازل عن ملكيته خارج إطار عشيرته. فى كل مدينة تجرى ممارسة السلطة عن طريق محكمة (بيت دين)، تتكون من ثلاثة أشخاص، وسلطة تنفيذية تتألف من سبعة أشخاص، لابد أن تكون الأولى والثانية شرعية فى نظر الشعب.

أقام شاؤول تنظيمًا عسكريًا فعّالًا. ولمدة عشر سنوات تمكن من صد الآمونيين والفلسطينيين، قبل موته فى ميدان المعركة عام ١٠١٠ ق.م، مع ثلاثة من أبنائه، منهم جوناتان jonathan المختار لكى يخلفه.

داود وسليمان

انتقلت السلطة وقتها إلى قائد آخر، كان قد انتصر حديثًا على الفلسطينيين فى ظروف احتفظ النص منها بأثر أسطورى. ومع ذلك فقد كان أول شخصية توراتية تأكدت حقيقتها التاريخية(١١٥). منه سوف يتحدر المسيح، وفقًا للمأثور من الروايات. وحّد داود

العشائر وصد هجومًا جديدًا للفلسطينيين. إدارى لا نظير له، أقام الدولة واختار لها كعاصمة، مدينة كانت عاصمة ملك كنعانى قديم، ملكى صادق Melchisedech، المحتلة آنذاك بواسطة الجيبوسيين Jébuséens : أورشليم، التى يعنى اسمها "مدينة السلام". وبنى فيها لنفسه قصرًا من خشب الأرز اللبنانى. وأقام فيها مجلسًا استشاريًا، نظم استغلال الخاصة الملكية، وضع سياسة ضريبية، أمر بالشروع فى إجراء تعداد للسكان وأشرف على تدوين التراتيل الدينية (تنسب إليه الأعراف المأثورة تأليف غالبية المزامير). وبلاشك أنه وضع فى التداول شيئًا ما بدأ يشبه النقود: استخدم داود على أى حال معادن ثمينة فى إصدار قطع كانت قيمتها لا تزال غير متساوية، ومنح لنفسه حق احتكارها(٣٤). اشترى قطعة من الأرض ليشيد عليها معبدًا ليحل بذلك محل مكانى التعبد العبرانى الأساسيين، جيلجال Gilgal، حيث كان يشوع قد ترك آثار عبور نهر الأردن وسيلو Silo، الصومعة التى تضم تابوت العهد. لكن، لسوء حظه، لم ينجح فى جباية ما يكفى من الجزية من الجيران. ويقضى المأثور أيضًا بأن إرساله بأورى، الزوج الأول لبتشبع Bethsabée، إلى الموت، كان قد أعاقه عن إكمال مشروعه. كان نمو البلاد الاقتصادى ملحوظًا كبيرًا، طوّر صناعة تعدين الحديد والنحاس، النقل البرى والبحرى. قام بعض التجار بالانتقال والإقامة فى المدن الأجنبية ليكونوا حلقات وصل وأماكن استراحة وتبديل لتجار يهودا. فى سِفْر الملوك الأول، ورد أول ذكر للتجار العبرانيين المستقرين فى خارج البلاد: «بن حداد Ben hadad يقول لأحاب: "المدن التى أخذها أبى من أبيك، أنا سوف أستعيدها، وأنت تستطيع أن تنشئ أسواقًا فى دمشق، مثل التى أوجدها أبى فى السامرة Samarie"» (سفر الملوك ٢٠، ٣٤).

كان تسيير الإمبراطوريات فى تلك الفترة يتطلب انتزاع ضرائب أو جزية متزايدة بشكل مستمر من الشعوب المجاورة، للدفاع عن نفسها. إذا كان داود قد فرض الجزية على البلاد التى فتحها – المؤمنة بواسطة قوات من المرتزقة – فإنه لم يسع إلى توسيع أرض إسرائيل؛ ولذلك فإن موارده تضررت أيضًا. حكم داود على بلاده بأن تظل ضعيفة اقتصاديًا بسبب افتقاره لطموح التوسع.

مات داود فى عام ٩٧٢ ق.م. بعد نزاعات كثيرة، خلفه ابنه سليمان. معاصرًا للأسرة الحادية والعشرين فى مصر، سيظل على العرش أربعين عامًا. نبوءة صامويل تواصل تحققها: ملك مترف مختال، يضم حريمه سبعمائة زوجة وثلاثمائة محظية، استبدل سليمان حامية المرتزقة التى كانت لأبيه بجيش من المجندين وفرض ضرائب مرتفعة. حصّن المدن الحدودية مثل مجدو Megiddo، هازور Hazor، جيزر Gizer. وليقضى على روح العشيرة، قسم البلد إلى اثنتى عشرة مقاطعة لم تكن حدود كل منها مطابقة لحدود أرض كل عشيرة، وعهد بإدارتها إلى معتمدين. أنشأ مدرسة لتأهيل الموظفين. أطلق مشروع بناء معبد فى أورشليم (الهيكل): عمل به مائة وخمسون ألفًا من الرجال لمدة سبع سنوات ونصف السنة، استخدموا فيها المواد الأولية الأكثر فخامة فى المنطقة، خصوصًا خشب الأرز اللبنانى الذى يوُرّدَه حيرام Hiram ملك مدينة صور.

كان الجزء الأهم من التجارة لا يزال تحت سيطرة غير العبرانيين، وللإشارة إلى التُجار، مازلنا نقول "كنعانى"، وهى الكلمة التى سوف تطلق فيما بعد على الفينيقيين. لم تكن التجارة نشاطًا مقصورًا على الشعب العبرى، الذى كان فى البداية راعيًا، مزارعًا ثم جنديًا. لكنهم شرعوا فيها بسرعة جدًا. لاستكمال الفضة – المعدن، الذهب أو الحلى والمجوهرات، استخدمت، منذ ذلك الوقت فصاعدًا، سبائك مدفوعة من قبل الملك. عما قليل سوف يتزايد عدد العبرانيين بين تجار المنطقة أكثر فأكثر، بل إننا نجد منهم الآن بحارة على سفن سليمان التجارية والحربية؛ وآخرين، مهندسين، حرفيين أو خبراء، يسافرون لتشييد القصور فى بلاد أخرى(٣٤).

لزيادة موارده، قام الملك بتأمين سلامة التجارة فى المنطقة، مقابل دفع جزية أو ضريبة تؤخذ من جيرانه. وضع نظامًا لإستراتيجية تحالفات مع جيرانه وبخاصة مع مملكة سبأ Saba. وكان بهذه المناسبة أن (سفر الملوك الأول، إصحاح ١٠) رأينا ظهور النقود للمرة الأولى كقربان دينى: ملكة سبأ تقدم إلى سليمان، من أجل معبده، خشب الصندل، عطورًا ومائة تالان من الذهب، كما جاء فى النص، تعلق الأمر مرة أخرى بوزن، سوف تظهر النقود بعد قرنين من ذلك.

للمحافظة على السلام مع مصر، تزوج سليمان من بين أميرات أخريات من بلاد أخرى، بإحدى بنات الفرعون؛ الثقافة العبرية تثرى نفسها الآن بتأثيرات مصرية، فينيقية– المسُمى الإغريقى للكنعانيين – وبابلية.

تتحدد سمات الديانة اليهودية[١٦]. ينتظم الكثير من الأعياد (بساح / عيد الفصح Pessah، الأسابيع / شافوعوت Shavouot، سوتوت / المظال Souccot، روش ها – شانا– رأس السنة Roch ha – Chana) حول دورات الحياة الزراعية. أعمال بناء المعبد تنتهى، عبر فرض الضرائب والسخرة. كان افتتاحه مناسبة لاحتفالات كبرى أقيمت خلالها الصلوات وقدمت القرابين والأضحيات – ثيران – من أجل سعادة كل واحدة من الإحدى وسبعين أمة التى تعمر العالم. فى صلاته الافتتاحية، أوكل سليمان إليه رسالة ربانية شاملة: "حتى تعرف كل شعوب الأرض اسمك..." (سفر الملوك الأول – إصحاح ٨، آية ٤٣). نص جوهرى للمستقبل: لا يمكن أن يكون الشعب العبرى سعيدًا، إذا لم يكن الآخرون كذلك. شعب مختار، ثرواته ليست ذات معنى إلا إذا ساهمت فى إثراء كل الآخرين. لا يكون أى شىء نافعًا للعبرانيين إن لم يكن نافعًا للآخرين، وكل ثروة ينبغى أن يتم اقتسامها مع الباقين: هكذا يُخصص ركن فى الحقل للأغراب الذين يمكنهم أن يأتوا بكل حرية ليقطفوا ثمار عمل المزارع العبرى.

حول المعبد (الهيكل)، قام اقتصاد حقيقى. يتلقى هذا المعبد، سدس المحاصيل، عُشر هذا القربان يذهب إلى الكهنة اللاويين، من ضمن الكهنة، يستخدم الباقى للإنفاق على المعبد ولإغاثة الفقراء. بواكير ثمار العام يجب أن تقدم إلى الكاهن الأكبر. كل هبة للمعبد تُصبح مقدسة، ولا يمكن للواهب أن يستعيدها إلا بافتدائها بثمن أعلى من قيمتها التجارية. المعبد، المكان الأفضل حراسة فى البلاد، صار بذلك غرفة حصينة (خزينة) تستخدمها الدولة وكذلك أصحاب الثروات الكبيرة الخاصة لإيداع أموالهم فيها. ومثّل بسرعة قطب الجذب الأول فى البلاد، مكان لقاء كل العبرانيين القادمين من الممالك المجاورة. ساحته بذاتها صارت مكان عمل وزّانى المعدن الثمين، ثم مقرضى النقود – سواء كان ذلك إلى أشخاص عاديين أو إلى أرباب الأعمال وبشكل خاص إلى ملاك الأراضى الذين يقترضون قبل الحصاد ليدفعوا أجور مزارعيهم.

المعتقدات الأولى

لم يعد يُكتفى بنقل الشريعة من الذاكرة. صار من المنطقى تدوين الروايات الأولى، لما سوف يصير، بعد عدة قرون، التوراة (التعليم). هكذا بُدء فى تجميع أحكام واجتهادات المحاكم، ومحكمة عليا – تتكون دائمًا من واحد وسبعين عضوًا، كما كان الحال فى وقت يشوع، مجلس السانهيدرين Sanhédrin، يحدد، من بين أشياء أخرى ظروف تسيير اقتصاد المملكة(٩٨). ها هى مبادئه الأشياء.

فى البداية، تفاؤل رائع. الفترة كانت فترة بناء وتنفيذ المشروعات الكبرى. وإن كانت رواية تدمير برج بابل تُذكر بتهديدات ومخاطر التقدم، فإننا نؤمن أكثر من أى وقت مضى بضرورة وإمكانية اكتشاف العالم وإصلاحه. من المطلوب أن يكون المرء غنيًا، لأن القضاة يقولون: إن رجلًا غنيًا يكون محصنًا من إغراء السرقة ويمكنه أن يتعلم بسهولة أكثر وخصوصًا يمكنه أن يعطى بسهولة. بعد ذلك بفترة، فى كتاب "أخلاق الآباء"، مجموعة أفكار، سوف نقرأ هذه الحكمة القوية التى تلخص جيدًا روح هذا العصر: "عندما لا يكون هناك دقيق، لا يكون هناك توراة" والعكس بالعكس.

ولكن الثروة يجب أن تكون رصينة متواضعة، لا ينبغى لها أن تصعد إلى الراس وتديره، ولا أن تقود إلى سلوكيات متعالية متكبرة: لم تكن تلك الفترة خالية من الأمثلة العكسية فى حاشية الملك... إضافة إلى ذلك، يعاد التأكيد على أن الثروة مؤقتة وعارضة، ممكن أن تنقلب. بينما أن الحياة فى ذاتها ليست كذلك. أن تكون غنيًا ليس سوى وسيلة لخدمة الرب، أن تقوم بعمل الخير. ليس غاية فى حد ذاته.

الملكية الخاصة مصونة ومحمية بدون أن تكون، لهذا السبب، مقدسة. كل نقل للملكية، كل تبادل تجارى يجب أن يجرى أمام شهود (سفر التكوين إصحاح ٢٧ آية ٢). ملكية المنقولات تتم باستلام الشيء موضوع الملكية؛ الملكية العقارية يجرى التنازل عنها عبر طقس يخلع خلاله البائع نعله (لوط Ruth– ٤، ٧). تستمر حقوق المستأجر إذا كان عقد الإيجار ساريًا بينما تم بيع الملكية. ملكية الآخرين ينبغى أن تحترم وتصان: "إن وجدت ثور عدوك أو حماره ضالًا، شاردًا سيكون عليك أن تعيده إليه". غير أن أحدًا لن يذهب إلى

السجن بسبب دين ما ولا حتى بسبب سرقة. السارق الذى يسرق فى الخفاء عليه أن يدفع قيمة ما سرقه (أربعة أمثاله إن تعلق الأمر بالماشية)، إلا اذا أعاد الشيء المسروق إلى وكيل المحكمة (الأمر الذى يسمح له بأن يظل مجهولاً). السارق الذى يعمل فى وضح النهار ليس عليه سوى أن يعيد الشيء المسروق، دون أن يدفع غرامة. إن كان هناك وقاحة أو تطاول أمام أحد القضاة، تكون العقوبة أكثر شدة.

الغش سرقة معنوية، ويجب أن يعاقب عليها بأشد من السرقة المادية. جاء فى الكتاب المقدس: "ملعون من يُضل الأعمى" (سفر التثنية ٢٧، ١٨) وكذلك: "لا ينبغى عليك أن تضع حجرًا فى طريق الأعمى" (سفر اللاويين ١٩، ١٤)، وهو ما يمكن ترجمته بأنه نهى عن أن تقدم عامدًا نصيحة سيئة، أو أن تبيع أشياءً مغشوشة (نبيذ، أغذية فاسدة) أو مضرة (أسلحة، مخدرات)، أن تخدع من لا يعرف، أن تزن المنتجات بأوزان مغشوشة. إضافة لذلك، وبما أن العبرانيين يخالطون الأغراب فى كنعان وخارجها أكثر فأكثر، فإن المحاكم صارت محمولة على أن تميز بين ما هو محرم بالنسبة للبشر جميعًا وما هو محرم بالنسبة للعبرانيين فقط، شعب الكهنة الموكل به واجبات خاصة. هل يمكننا أن نبيع أسلحةً إلى أغراب، أصنامًا؟ هل يمكننا أن نقرضهم بفائدة؟

الفائدة (التى يقال لها نيشخ، أو عضة – لدغة) ممنوعة فى داخل الطائفة لأن القرض فيها يعتبر شكلًا من أشكال التضامن بين الأشقاء ولا يعتبر تجارة. حتى وإن كان المقترض ميسور الحال، فإن علينا أن نقرضه بلا فائدة، لأننا لا نعرف إذا كان سيظل كذلك عند استحقاق سداد القرض؛ وعليه فينبغى أن يعامل على أنه فقير آنيًا. من يطلب قرضًا بفائدة يكون مذنبًا بقدر ما يكون من يوافق على إقراضه. كان البعض يلتف بالفعل على هذا التحريم بالاستثمار فى عملية تجارية واقتسام المخاطرة والأرباح مع الملتزم بالعملية.

فى التجارة، على شريطة أن تكون هناك منافسة حقيقية، تكون الأسعار حرة، إلا بالنسبة للسلع ذات الأهمية القصوى؛ فإن أرباح هذه السلع تكون محددة بسدس سهر التكلفة مع تدخل وسيطين فقط على الأكثر. بعبارة أخرى، إن الربح التجارى على السلع

الأساسية لا يمكن أن يتجاوز ضريبة المعبد، والتى تقدر هى الأخرى بالسدس. أول من يستقر من التجار يكون له أحيانًا الحق فى الحماية من التجار المنافسين شديدى العدوانية.

هناك نقطة جوهرية: على كل عبرانى أن يتجنب القبول بعمل مضن، خاضع للآخرين، لأن الخضوع لكائن من كان يساوى العودة إلى مصر، إدمان المخدرات أو الاستسلام لعبادة الأصنام: "بع نفسك – أنت ذاتك، لعمل غريب عليك، ولكن لا تكن خاضعًا" هذا التحريم يفسر لماذا يرفض اليهود، من عصر لآخر، فى غالب الأحوال الانتماء إلى مؤسسات وهيئات كبرى وسوف يفضلون عن ذلك العمل لحسابهم الخاص.

يُعتز بالعمل اليدوى، مثله مثل الثراء، إن وضع فى خدمة قيم أخلاقية. ما دام لم يكن خاضعًا، فإنه يأتى حتى قبل الدراسة، لأنه يتيح للمرء أن يكسب ما يسمح له بالتفرغ للدراسة. "ليبارك لك الرب فى كل ما تصنعه يداك" (سفر التثنية – الإصحاح ١٤، آية ٢٩). إصلاح العالم هو الواجب الأول.

للمستخْدَم الحق فى الحماية من أهواء ونزوات صاحب العمل: يجب أن يتم دفع الأجر فى يوم محدد (سفر التثنية ٢٤، ١٤)؛ ممنوع تشغيل أى شخص فى أعمال مضرة بالصحة؛ يجب أن يكون العامل حديث السن جدًا، أو المريض، أو المسن محميًا. العمال الأجراء لهم الحق فى التجمع، لكن التجمعات أو الاتحادات لا يمكن أن تؤدى إلى إقصاء أحد الأغيار من العمل. يجب أن يتيح الإضراب للعامل الأجير اقتضاء احترام حكم المحكمة، العقود، أو الأعراف والتقاليد. الأنشطة الممنوعة فى يوم السبت لا تزال غير مذكورة بالتفصيل، غير أن الحرث كان منذ الآن ومن قبل محرمًا فى يوم السبت وكذلك تشغيل العبيد والحيوانات وإشعال النار. فيما بعد، سيكون بالإمكان، استخدام حق الدفاع عن النفس فى يوم السبت.

تحددت أوضاع العبيد. العبد العبرانى يجب أن يتحرر بعد انقضاء ستة أعوام ويحصل حينذاك على بعض الماشية والثمار (سفر التثنية ١٥، ١٣)؛ إذا رغب فى البقاء فى خدمة سيده بوصفه عاملًا أجيرًا، تثقب أذنه (سفر الخروج الإصحاح ٢١، آية ٦، التثنية ١٥، ١٧). العبيد الآخرون، المختتون جميعًا (سفر الأعداد – إصحاح ١٧، آية ٢٣ –

٢٧)، يشاركون فى الاحتفالات المرتبطة بالطقوس الدينية ولهم الحق فى عطلة يوم السبت بصورة خاصة (سفر التثنية ١٢، ١٦)؛ بإمكانهم أن يصيروا رجالًا محل ثقة. (سفر الأرقام ٢٤، ٢). إذا اعتنقوا الديانة العبرانية – وهو ما لهم الحق فيه – يجرى تحريرهم بنفس الشروط مثل العبرانيين.

لابد أن تكون البيئة محمية من آثار الاقتصاد والجرب: "إذا توقفت طويلًا أثناء حصار المدينة التى تهاجمها لتستولى عليها، فلا يجب عليك مع ذلك أن تدمر أشجارها ولا اقتلاعها"، لأنها "هى التى تطعمك وينبغى عليك ألا تقطعها. أجل، إن شجرة الحقل، هى الإنسان نفسه" (سفر التثنية ٢٠، ١٠ – ٢٠).

بيد أن القانون الذى يوضع على هذه الصورة يفترض مجتمعًا مثاليًا، ملك عادل، محاكم مطلعة ومستنيرة تمامًا ومطاعة طاعة عمياء. كما لم تكن الحال فى الواقع. لقد أدت أحكام الوقت والسلطة فى الحقيقة إلى تراكم الثروات والامتيازات. ما كان صامويل قد تنبأ به فى عهد شاؤول، تحقق فى عهد سليمان: تضخمت الثروات؛ واستسلم بعض الأمراء للفساد والرشوة. فى حين كان على الشعب أن يتجمع فى المعبد على فترات منتظمة (على الأقل مرة كل سبع سنوات) لاتخاذ القرارات الكبرى، صار زعماء العائلات الكبيرة وملاك الأراضى الواسعة يقررون كل شىء مع بعض التجار وحفنة من كبار الموظفين والملك (التثنية ٣١، ١٠).

لتعويض هذه المظالم وحماية هوية الجماعة، وبناء على مبادرة من القضاة شُرِعَ فى وضع نظام متطور للرعاية الاجتماعية. امتزجت العدالة بالعطف فى مفهوم خاص، **tsedaka**، لفظ يشير إلى العطف والبر بقدر ما يحيل إلى التضامن، إلى العدالة بقدر ما يعنى الدقة. الإحسان **tsedaka**، يطبق على كل من يواجهون خطر الإقصاء من الجماعة بسبب فقرهم أو تمردهم: "إذا وصل أخوك إلى التمرد، إذا رأيته يبدد ماله، فادعمه وسانده، وإن كان غريبًا وقادمًا جديدًا، وليعش معك" (سفر الخروج ٢٣، ١ – ٩). ينبغى أن يحصل الفقير من الجماعة، ليس فقط على ما يقيم أوده، ولكن أيضًا ما يمكنه من خلق نشاط جديد والعيش بكرامة من عمله. كل جماعة مُلزمة بمساعدة أى فقير يقيم فى أرضها وأن تخصص له على الأقل العُشر من مواردها.

المعبد هو من يعيد تقسيم العطايا وتوزيعها على المحتاجين. "مكتب سرى" يتيح العطاء فى الستر، ويجب على الفقراء أن يتلقوا عطاياهم دون الإعلان عن أنفسهم.

وبالعكس، فإن الثروة لا يجب أن تكون بلا حدود. لا يجب أن يكون المرء ثريًا بأكثر مما يلزم. جاء فى سفر الأمثال (٣٠، ٨ – ٩) "لا تعطنى لا فقرًا ولا سعةً، دعنى أكسب بنفسى نصيبى من الخبز، مخافة أن أكون متخمًا بالنعمة فأرتد عن دينى، فأقول "من هو الله؟" أو أيضًا أن أكون محتاجًا فقيرًا فأدنس اسم الله". من أجل كبح جماح التراكم المبالغ فيه للثروة، وطبقًا لمتطلبات الزراعة كان من المحتم أن تترك الأرض لترتاح مرة كل سبع سنوات (إنها السنة السبتية التى لا تعمل فيها الأرض) والتخلى فى هذه السنة عن ناتج الأرض للفقراء. من جهة أخرى، تُرَد أى أرض إلى أصحابها الأصليين، بعد مرور تسعة وأربعين عامًا، المقصود هنا هو أرض الاثنى عشر سبطًا الذين حصلوا عليها كحصة فى الإرث (سنة الغفران). يمتد هذا الشرط الجبرى ليشمل القروض، التى يجب أن تلْغَى هى الأخرى كلما مر تسعة وأربعون عامًا. تؤدى هذه الآلية إلى منع تكوين ملكيات كبيرة من الأرض، وتجعل من غير المجدى امتلاك العبيد الزراعيين، وتحد على وجه الخصوص من توارث ثروات الأغنياء لأكثر من جيلين وإلى تقليص الارتباط بالأرض. أى إنه اقتصاد بدوى...

لكن الأوان كان قد فات، لقد تدهور الوضع كثيرًا بحيث أصبح من غير الممكن إصلاحه بهذه الحزمة من التشريعات المتطورة. وعندما مات سليمان فى عام ٩٣٢ ق.م، كانت هذه التجاوزات وأوجه التباين قد تعمقت، الملكيات الواسعة أنهكت صغار المزارعين، المرعى الشاسعة حلت محل زراعات الكفاية الذاتية، ظهرت ثروات متعجرفة بوقاحة، مالية البلاد فى أحط مستوياتها، المحاكم صارت غير قادرة على فرض إنفاذ قراراتها، الإحسان tsedaka، لم يعد يجرى تطبيقه، أبهة المعبد وفخامة القصر، محل الإعجاب من قبل، أصبحا الآن موضعًا للمقت والكراهية. شرعية السلطة صارت محل اتهام القبائل وتشككهم فيها. المملكة على وشك الانفجار الداخلى.

يهوذا والسامرة

القصة التالية سوف تؤثر عميقًا فى الشعب العبرانى. إنها سوف تقوده عبر عدة قرون إلى فقدان الأرض التى عُهد بها إليه، لترسله ليعيش فى المنفى. إنها تحدد إلى يومنا هذا علاقته بالعالم وبالمال. وتفسر إلى حد كبير الدور الذى سيكلفه العالم به.

رفضت عشر قبائل من الشمال الاعتراف بـ رحبعُام Roboam ابن سليمان، ووريثًا شرعيًا، واقترحت اختيار يرُبعُام jeroboam، ملكًا، والذى كان أحد كبار رجال الدولة المتمتعين بالنزاهة، والمنفى آنذاك إلى مصر لأنه قد حاول تنظيم موارد المملكة المادية. ولأن رحبعام رفض أن ينسحب، انفصلت المناطق الشمالية وكونت مملكة جديدة (الضفة الغربية لنهر الأردن والجليل اليوم) التى أطلق عليها إسرائيل أو السامرة، عاصمتها هى السامرة ويربعام jeroboam، ملكًا عليها. مملكة الجنوب، أورشليم وما حولها، صار اسمها مملكة يهودا – أو يهوذا من اسم القبيلة التى تحكمها. صار اسم الشعب العبرى، الشعب اليهودى.

الفجوة بين المملكتين كانت أولًا سياسية. كان مفهوم الملكية مختلفًا عند كل منهما. مملكة يهودا الصغيرة، حول أورشليم تحافظ على صيغة الأسرة الحاكمة فى محيط آل داود، بينما الملك فى مملكة إسرائيل يجب أن يكون مقبولًا ومعتمدًا من قبل مجلس الشيوخ ويمكن إقالته وإحلال آخر محله إذا لم يقم بواجبه الأساسى: تأمين العدالة ورعاية المحتاجين. لم يعد ملوك إسرائيل إذًا بالفعل مقدسين. بل إن البعض، فى السامرة، ينظرون إلى الملك باعتباره وسيطًا لا جدوى منه بين الله والشعب. هذه الصفة المؤقتة الهشة للسلطة سوف تحمل بالتتابع تسع عائلات إلى عرش إسرائيل.

أكثر اتساعًا، أكثر تعددًا، أقل تمسكًا بالعقيدة، شهدت مملكة إسرائيل حضارة أكثر تألقًا من الأخرى، الأكثر تقشفًا وصرامة. استمر تراكم الثروات فيها، لكن لم يعد هناك تغاضٍ عن التجاوزات والمظالم كما كان الحال بالأمس. ثار بعض الفقهاء الملهمين بصورة خاصة، ممن نسميهم أنبياء، للتنديد بهذه الانحرافات الأخلاقية. البعض يقارن أورشليم بسدوم، التى دمرت لأنها لم تتمكن من توزيع ثروتها بصورة أفضل بين الأغنياء والفقراء،

لأنها قامت بحماية الملكية الخاصة بأكثر مما يجب ولأنها كانت ترفض استقبال الفقراء العابرين. أشيعا Isaïe يهدد ويتوعد: "ويلكم يا من تضيفون بيتًا إلى بيت، وتضمون حقلًا إلى حقل دون أن تتركوا ركنًا حرًا وتطمحون إلى أن تقيموا وحدكم فى البلاد ! لقد همس الأبدى Ceboat فى آذانى: أقسم بذلك، أن عديدًا من البيوت محكوم عليها بالدمار ! كبيرة وجميلة اليوم، ها هى خاوية بلا سكان..." (أشعياء ٥، ٨ – ٩). وحتى فى يهودا كانت التجارة تتغلب أحيانًا على التوراة، وحرمة يوم السبت لم تكن دائمًا محل احترام من قبل سكان أورشليم، إلى درجة أن اثنين من الأنبياء عاموس Amos ونيحميا Néhémie اضطرا إلى منع بعض التجار من دخول المعبد لأنهم قد أتوا ليستفيدوا من الزحام فى هذا اليوم وينصبوا فيه منصات عرض بضائعهم.

التمييز بين المملكتين كان أيضًا ذا طابع دينى: سكان إسرائيل، عبرانيون سوف يطلق عليهم سريعًا اسم "السامريين" يتوقون إلى العودة إلى ديانة أكثر بساطة. البعض توصل إلى إيجاد نوع من التوفيقية مع ديانات الشعوب التى تعيش فى جوارهم: إل EL صار بهذا أبًا لـ YHWH وشكل مع زوجته أستاراتيه Astérath وطفليهما (بنت وولد) وحدة مقدسة[٦]. مملكة الجنوب، يهودا، التى يسكنها اليهود، بقيت على العكس تؤمن بوحدانية الإله بصورة قاطعة؛ بل إن أهلها كانوا يعتبرون أن السامريين وثنيون.

إننا نبدأ بهذا فى التمييز بين الشعب، الأمة والدولة، لأن هناك الآن مملكتين لنفس الأمة، ولأن هناك العديد من اليهود يعيشون فى الغربة، فى مصر، فى سورية، فى بابل.

كانت المبادلات التجارية بين هذه الممالك كبيرة وقد شارك اليهود فيها. يرسل الشرق بالبضائع المصنعة نحو الغرب، الذى يبعث بالذهب والفضة. كانت الدولة تراقب الطرق وتقوم على صيانتها. العربة ذات العجلات والأسطول الشراعى أتاحا لقوافل تجارية منتظمة الرحيل من مصر إلى بلاد ما بين النهرين وإلى الهند، مرورًا بإسرائيل. يقوم تجار يهود بالاتجار فى المعادن والأقمشة بين وسط آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين[١٥٧]. تستورد مصر النحاس من فارس، الزنك من سورية، والذهب من أرمنيا ومن النوبة، الفضة من كبادوكيا؛ وتصدر الحبوب إلى أهل أثينا وإلى الحيثيين، حجر الشبة إلى دلفى، الذهب

إلى أمراء آسيا. يقوم بعض التجار برحلات ذهاب وعودة بين مدن فينيقيا الواقعة بعيدًا في الشمال – جبيل وصور – المرتبطة فيما بينها مع الدلتا المصرية بتفاهمات تجارية.

كانت كل هذه الأنشطة سببًا في إثراء المراكز التجارية (الموانئ البحرية أو المستودعات الواقعة على الحدود بين الدول) وإثراء الجماعات اليهودية التي تعيش فيها.

استؤنف النمو الاقتصادي في كل من المملكتين، بعد أن توقف لفترة إثر أزمة السنوات الأخيرة من حكم سليمان. وامتلأت الواحدة والأخرى بالمدن (ميزبا، مجدو، دبير، لخيش) وشرع في أعمال ضخمة لجر المياه؛ طرق تشق صحراء الجنوب صوب البحر الأحمر وميناء إيلات. مملكة إسرائيل، أكثر انفتاحًا، أكثر ثراءً وأكثر إلمامًا بالتجارة من الأخرى، تطلق حملات تجارية تصل إلى الساحل الغربي للهند(٣٤). في هذه المدن، كانت الورش الحرفية، المشاغل (ملكية أو خاصة) تعمل بكل طاقتها للوفاء بطلبات الأغنياء. إلى الآن، لم تكن النقود، بالمعنى الحديث للكلمة، قد وجدت، ولكننا نستخدم معادن ثمينة، على شكل أوزان مدموغة بواسطة الخزينة الملكية، لتمويل العمليات التجارية الكبرى.

لم يتنازل البعض، من بين المسئولين في الدولتين، عن إعادة تكوين وحدة الشعب العبري. حاول آحاب، واحد من ملوك إسرائيل الأوائل، التقريب بين البلدين عن طريق إعطاء ابنته أتالي للزواج من ابن ملك يهودا، بالرغم من أن زوجته إيزابيل، كانت تدفعه لاعتناق ديانة "بعل". فشل التقريب السياسي، لكن الدولتين احتفظتا تقريبًا بنفس الديانة.

مخافة عدم الاستقرار، غادر الكثير من العبرانيين من كلتا الدولتين المنطقة إلى بلاد تشتهر بأن الحياة فيها كانت أكثر يسرًا: بابل، مصر، كريت أو قبرص. بشر واحد من الذين نطلق عليهم اسم أشعياء، نحو عام ٧٦٥ ق.م بوعد، سوف تتردد عباراته عبر آلاف السنين في كل الجماعات العبرانية المتبعثرة:

"في ذلك اليوم، سيمد الرب يده مرة أخرى ليجمع الباقي من شعبه الذي كان قد فرَّ إلى آشور، إلى مصر، إلى فاتروس، إلى كوش، إلى عيلام، إلى شينعار، إلى حمامات وإلى جزر البحر. سوف يزفع الراية أمام الأمم لتستقبل المنفيين من إسرائيل ولجمع بقايا يهودا

المشتتة من أقطار الأرض الأربعة" (أشعياء ١١، ١١ – ١٢). فى الواقع، أن الشتات فى العالم كان قد بدأ لتوه.

من نينوى إلى بابل

نحو عام ٧٥٠ ق.م، كانت المملكة الآشورية، الأقوى آنذاك، فى حاجة إلى موارد جديدة. فى نينوى، – العاصمة كان الملك تيجلاث – فالازار الثالث يطمع فى ثروات كنعان. كان معظم جيران إسرائيل ويهودا واقعين تحت سيطرة الآشوريين، الذين كانوا يطالبونهم بضرائب باهظة. تحالف ملك إسرائيل بيكاه Peqah مع رازون Rason ملك دمشق وبحياد ملك يهودا، يوتام yotam، طرد الآشوريين. غير أن أشاز Achaz، ابن يوتام، الذى صار ملكًا ليهودا، خان إخوانه فى السامرة على الرغم من انتقادات أشعياء(٧): انضم إلى صف ملك آشور وسمح له بالتسلل إلى أورشليم ووضع كنز المعبد بين يديه. وصل الآشورى إلى غزة والحدود المصرية" (وادى العريش)، مستبعدًا أى إمكانية فى وصول الدعم المصرى، ثم التفتت نحو مملكة إسرائيل. اغتيل بيكاه عن طريق شخص يدعى هوشع بن إيلاه Osée ben Elah الذى اعتلى العرش وتحالف مع الآشوريين فى عام ٧٣٥ ق.م. قاوم الملك السورى رازون ثلاث سنوات أخرى ثم سقط بدوره عام ٧٣٢ ق.م. تغلب الآشوريون: فى عام ٧٢١ ق.م، دخل ملكهم الجديد سالمنزر الخامس Salmanazar V إلى السامرة، جاعلًا من مملكة إسرائيل ضيعة آشورية. طرد ثلاثين ألفًا من سكان المملكة إلى نينوى وأحل محلهم بعض المهزومين من بلاد أخرى. فر العديد من السامرة إلى مصر وإلى آسيا الصغرى؛ هناك انضموا إلى الجماعات العبرانية المستقرة فيها من قبل والتحقوا أحيانًا بالجيوش المحلية كمرتزقة. قبائل إسرائيل العشرة المتجمعة حتى تلك اللحظة فى السامرة، تبعثرت، تشتت واندمجت فى مجتمعات جديدة، اندثرت.

أصغر مساحة، أسهل فى الدفاع عنها، متنازع بشأنها بين مصر وآشور، احتفظت مملكة يهودا باستقلال صورى وظلت أورشليم مركز الحياة اليهودية. قام الملك اليهودى الجديد إزكياس Ezéchias، بتحديث البلاد وحفر قناة ماء تحت الأرض بين سيلويه Siloé

وأورشليم. فى عام ٧٠٥ ق.م مات الملك الآشورى سارجون الثانى **Sargon II**. حاول إزكياس توحيد البلد من جديد وطلب من سكان المملكتين ومن العبرانيين فى الشتات أن يدفعوا ضريبة من أجل صيانة معبد أورشليم.

يقول أشعياء: "ويل لمن يضيف بيتًا إلى بيت، يضم حقلا إلى حقل، حتى لا يترك مكانًا بعده" (أشعياء ٥، ٨). استنكر عاموس تشغيل العبيد فى يوم السبت (آموس ٨، ٥).

فى عام ٧٠١ ق.م اجتاح الملك الآشورى الجديد **Sennachérib**، سنحاريب، مملكة يهودا. تم تدمير ست وأربعين مدينة محصنة. كان على وشك الاستيلاء على أورشليم، عندما انسحب، بلا شك لقاء فدية ضخمة. مات إزكياس عام ٦٩٩ ق.م. استمرت مملكة يهودا فى الوجود، وإن كانت منهكة للغاية. الملك التالى، ماناسيه **Manassé**، ظل على العرش قرابة الخمسين عامًا وحتى عام ٦٤٥ ق.م. ويبدو أنه قد أمر باغتيال النبى أشعياء (على أى حال أمر بقتل واحد من اثنين كان يحملان نفس الاسم). الذى كان ينتقده بسبب تساهله الدينى وبسبب ثروة الأغنياء الشائنة.

فى عام ٦٢٧ ق.م، هُزِمَ آشوريو "آشور بانيبال" على يد حاكم "بلاد البحر"، كلدانى يدعى نَبوبولاسر **Nabopolassar**، الذى أسس أسرة حاكمة جديدة. سقطت مدينتى آشور ثم نينوى عاصمة الآشوريين فى يد الحاكم الجديد وكان ذلك عام ٦١٢ ق.م، وقام بتدميرهما تمامًا. تقاسموا الإمبراطورية مع المديين **Les Médes** واستقروا فى بابل، عاصمة حامورابى القديمة على نهر الفرات.

أراد ملك يهودا فى ذلك الوقت، يوشيا **josia**، الاستفادة من تغيير النظام الحاكم عند الآشوريين، ليحاول مرة أخرى إعادة توحيد المملكتين العبرانيتين. ولكى يمنح المملكتين نظامًا قضائيًا موحدًا، جمع أحكام المحاكم فى مدونة قانونية، كانت الصورة الأولى لما سيكون السفر الخامس فى التوراة، سفر التثنية. نجح فى تمويل جيش من المرتزقة – الإغريق – واسترد من الكلدانيين جزءًا من السهل الساحلى. غير أن الملك يوشيا قد قتل فى مجدو عام ٦٠٩ ق.م، على يد قوات الحكام البابليين الجدد.

فوض المصريون الراغبون بدورهم فى ممارسة نفوذهم على هذه المنطقة ذات الأهمية الإستراتيجية القصوى من الناحية الاقتصادية، الملك يوهاقيم yohakim على عرش أورشليم، وطلبوا منه أن يقيم السلام مع نبوخذ نصر Nabuchodonosor، الذى خلف والده نبو بولاسر عام ٦٠٥ ق.م. متجاهلًا نصائح النبى أرميا jérémie المنعزل فى أناتوت Anathot، بالقرب من أورشليم، رفض هذه النصيحة الحكيمة وثار عليها. فى عام ٥٨٩ ق.م دخلت قواته أورشليم؛ وتخلصت من يوهاقيم وحاشيته وآلاف من أعضاء الهيئة الحاكمة، ضباط، حرفيين، فنيين، ليلحقوا بالعشرين ألف عبرانى المنفيين من قبل فى نينوى، وقت سقوط السامرة، وقامت بتجميعهم فى نيابور Nippor، على بعد ستين كيلومترًا جنوب شرق بابل، على ضفاف الفرات. عين نبوخذ نصر شابًا فى الحادية والعشرين من عمره ملكًا على أورشليم، كان اسمه Zédékiah وكان ابن أخ يوهاقيم. قبل صدقيا Zédékiah بالعرش، لكنه أشعل بدوره ثورة ضد المحتلين. بعد حصار استمر ثمانية عشر شهرًا، وفى التاسع والعشرين من يوليو عام ٥٨٧ ق.م، دخل نبوخذ نصر أورشليم من جديد ثم، فى التاسع من شهر آبِ، دمر المعبد واستولى على كنوزه. عندما ما ألقى القبض على صدقيا قام بقتل أولاده أمام عينيه، ثم انتزع عينيه وأرسله ليلحق بعمه فى المنفى. مملكة يهودا التى تمكنت من البقاء خلال مائة وستة وثلاثين عامًا فى مملكة إسرائيل، كانت تذوى هى الأخرى.

انتهى أمر النظام الدينى، السياسى، الاقتصادى لإسرائيل. بدون معبد، ليست هناك أضاحى، ليس هناك قرابين، لا موارد مالية، ما من جيش، ما من ملك، لا رهبان. لا شىء يمكن عمله سوى الخضوع لقانون المنتصر. فى ٥٨٦ ق.م، انتقل أرميا إلى مصر، حيث سوف يكتب إلى المنفيين رسالة طويلة سوف تُستَخرج منها بعد عدة قرون القاعدة الأساسية للحياة فى الشتات: للبقاء على قيد الحياة، يجب الانصياع لقانون البلد المضيف.

مع ذلك، فإن أورشليم لم تُنسَ. المزمور ١٣٧ ينقل ويترجم بوضوح هذا الأمل فى العودة: "على ضفاف أنهار بابل، كنا نجلس ونبكى، نتذكر صهيون" .

٥- المنفى الأول فى بابل

من النقود إلى مهنة التمويل

تجربة جديدة سوف تمتد وتفيد خلال الألفيات اللاحقة: الشتات، شعب، يعيش على أرض شعوب أخرى، ينظم نفسه بدون كيان دولى. يكتشف العبرانيون، مندهشينَ أنهم قادرون على تنظيم أمورهم فى المنفى بأفضل كثيرًا مما فى المملكة، كان الشتات أفضل كثيرًا من يهودا. فهم مختلطون بآخرين بدون سلطة على أرض تابعة لهم، شعروا بأنهم أكثر حرية فى أن يستخرجوا أفضل ما فيهم وأن ينقلوا إلى الآخرين الأدوات التى لا يمكن الاستغناء عنها فى ثقافتهم. سوف نفهم السبب فى ذلك فيما بعد.

الاستضافة

فى القرن السادس قبل الميلاد قامت، مستقلة عن بعضها بصورة كاملة تقريبًا، بعض المبادئ الأساسية للفكر العالمى. فى آسيا، كان عصر الكونفوشيوسية واللاو-تسيو؛ فى الهند عصر البوذية، فى بلاد اليونان، كان عصر فيثاغورث. فى العالم اليهودى، هذا العصر الاستثنائى هو عصر بعض الأنبياء الكبار والأوصاف الأولى لليوتوبيا المسيحية أو الحلم المسيحى الفاضل.

مع ذلك فقد وجد الشعب العبرى نفسه فى وضع بائس بالفعل: نصف اليهود من المحتمل أن يكونوا ثلاثة ملايين فى مجموعهم كانوا الآن فى المنفى، أو مبعثرين فى بابل، فى كريت، فى شمال إفريقيا أو فى مصر. يهودا والسامرة مفلستان تعيشان على المساعدة التى يجمعها حاخامات الطوائف العبرية فى الشتات.

أصبحت بابل فى عهد نبوخذ نصر، مع إمبراطورية ميدا Méde، أكبر قوة اقتصادية فى العالم. جدد الملك عاصمة ملكه، مضاعفًا أعداد أهرام بابل والحدائق المعلقة. بدا الحكم الجديد متسامحًا تجاه الأقليات: لا منغصات، الحق فى ممارسة طقوس الديانة المختارة،

فى شغل كل الوظائف. استفاد العبرانيون المنفيون من ذلك. فى عام ٥٦١ ق.م، أطلق سراح الملك السابق يوهاقيم؛ أعيدت إليه حاشيته وتم تنصيبه ملكًا على عرش نيبور. قرر القادة اليهود، قانعين بما قسم الله لهم، أن ينظموا أحوالهم للعيش فى نيبور بصفة دائمة. على كل حال، فمن هنا قد جاء إبراهيم.

عندما انتشرت الأخبار بين الجاليات المتناثرة المشتتة بأن الوضع فى بابل أفضل بكثير منه فى يهودا، فقد أتى حتى الكثير من اليهود ليلحقوا طوعًا بالمنفيين الأوائل. سرعان ما صار عددهم هناك بمئات الآلاف. إلى جانب الحرفيين، الفنيين، كبار موظفى الدولة من عسكريين ومدنيين الذين جاءوا فى البداية، انضم الآن تجار، مزارعون، صيادون، بناءون أتوا للمشاركة فى كل الأعمال التى أطلقها الملك(٣٤).

من جيل إلى جيل توطدت علاقات صداقة، علاقات ثقافية، دينية وتجارية مع الأغيار (غير اليهود). تاجر اليهود حتى فى السلع التى لا يحق لهم استهلاكها أو استعمالها وقاموا كذلك بتقديم القروض بفائدة إلى البابليين. ليس لأن هؤلاء لم يكن لهم الحق فى ذلك: من مدونة حامورابى القانونية القديمة، إضافة إلى شريعة تاليان. كانوا قد احتفظوا بالحق فى الإقراض بالفائدة. حتى ذلك الوقت لم يكن هناك قطع نقدية ، يمارس الناس التجارة على وجه الخصوص بالشعير، بالقمح، التمر ، غير أن سبائك الذهب المدموغة تحل الآن محل الثروات المدخرة. وهكذا موّل أحد كبار المزارعين، شوما أوكين، **Shuma Ukin**، رحلات تجارية بأموال مقدمة سلفًا. موّلت عائلة إيجبى **Egibi** شركات توصية وقروضًا شخصية، تلقت ودائع، وسددت دفعات مالية منتظمة. بعض الممولين اليهود عملوا مع هؤلاء التجار المحليين. فى سجلات أرشيف واحدة من أوائل دور التسليف فى العالم — "دار موراشو(٣٤)"، المستقرة فى نيبور **Nippor**، التى تقوم بتمويل أعمال زراعية وتجارية عبر تقنية بسيطة للغاية بالمشاركة فى الأرباح، وجدنا أسماء سبعين اسمًا من المقرضين اليهود وكذلك عقودًا موقعة بالتساوى بين رجال أعمال يهود وبابليين.

لكن لتجنب أن تكون بينهم وبين المعابد البابلية، التى تقوم بإدارة شئون القرابين وتعمل كجهات ضامنة للقروض بين التجار، أنشأ اليهود بنوكهم الخاصة وكانوا يستوفون

حقوقهم بالماشية، بالحلى، بالعبيد، بموارد الأرض. صار بعضهم شديد الثراء (نهميى Néhémie ٧، ٦٧ – ٢٩) وتتم قبولهم فى بلاد الملك نبوخذ نصر. اتخذت بعض العائلات اليهودية ألقابًا محلية، بعضهم، كان فى طريقه للاندماج فى المجتمع البابلى. كان أغلب اليهود مع ذلك، من الرافضين لهذا الاندماج، ولم يختلطوا تمامًا مع الآخرين (الأغيار): حرمة يوم السبت وبعض الممارسات الأخرى كالختان وتحريم بعض الأغنية، كانت تميزهم عن سكان بابل الآخرين. قاموا بوضع القواعد الأساسية التى يعود إليها الفضل فى بقائهم على مدى آلاف السنين القادمة فى المنفى: احترام الشرائع المحلية، البقاء متوحدون ومتجمعون، عدم الثقة إلا فى ذويهم، عدم مراكمة ثروات عقارية، توريث ثقافتهم، إقناع الأغيار المتزوجين من يهود باعتناق شريعة موسى. انتظمت الأعياد والاحتفالات فى إطار الأسرة التى صارت قيمة عليا، وسيلة للبقاء والاستمرار، مع رقابة صارمة للأخلاقيات الجنسية. شُرِع فى تعليم الأبناء بانتظام القراءة والكتابة باللغة الآرامية، لغة الحياة اليومية والتجارة، وباللغة العبرية، لغة الصلاة. تغيرت الكتابة: صارت الحروف مربعة الشكل، لا تزال على هذا الحال إلى يومنا هذا. ظهرت علاقة أكثر فردية مع الله، الذى صار كائنًا كاملًا، نموذجيًا، مطلقًا، غيورًا، يطالب الجميع وخاصة الكهنة، بالكمال. تبلورت مفاهيم الغيب، الخطيئة، القيامة، الملائكة(١٦). يُصلى من أجل العودة إلى صهيون (الاسم الكنعانى لمدينة أورشليم) ومن أجل إعادة بناء الهيكل. وسط الكهنة، الشعراء، الموسيقيين، تألقت المزامير، سفر أيوب، الأمثال، الجامعة. أنبياء جدد نددوا أيضًا بمخاطر التدخل فى رهانات الأقوياء؛ العيش وسط الأغنياء، واكتساب المال مع البابليين: "سيكون ذهبهم دنسًا!" قال حزقيال Ezéchiel (٧، ١٩ – ٢٠)، الذى استنكر قوة بابل المستعلية (١٦، ٢٩؛ ١٧، ٤). صفنيا Sophonie يرفض الذهب والفضة، "هذان المعدنان اللذان لم يعودا قادرين على إنقاذ الإنسان" (١، ١٨).

وكما هو الحال فى إسرائيل ويهودا، داخل كل طائفة من الطوائف المتناثرة فى بابل، كان هناك محاكم تضم الحكماء (هاشاميم) وتفصل فى النزاعات الفردية. وعندما تتناول المحاكمات قضايا أشخاص، لفض النزاعات المتعلقة بالأعمال أو ذات الطابع الخاص، لا يتم ذكر أسماء أطراف النزاع مطلقًا. لا يمكن توقيع عقوبات جسدية، لكن فى الحالات

القصوى، هناك عقوبة تساوى عمليًا عقوبة الإعدام: الطرد من الطائفة. فإنها بإقصاء المحكوم عليه عن جماعته، تحرمه فى الواقع من أن يعمل أو أن يتلقى المساعدة من اليهود الآخرين. للبت فى القضايا الأكثر صعوبة، يستكمل القضاة النصوص المكتوبة الموجودة النادرة لأنها تضم أحكام كبار قضاة يهودا. ولهذا الغرض، يتراسلون فيما بينهم ويتم نقل رسائل هؤلاء الحاخامات - أسئلة وإجابات - مع التجار وسط بالات توابلهم الصغيرة. بدأت بعض المدارس فى تأهيل القضاة. الأساتذة المدرسون فى هذه المدارس لا يتقاضون أجرًا، بعكس كهنة أورشليم، لكنهم يكسبون عيشهم بالعمل اليدوى.. مزارعون، مهنيون، تجار. وحتى إن لم يكونوا ملزمين بالتقيد بالشريعة البابلية، ولم يكن عليهم أن يقدموا حسابًا إلى السلطة السياسية، فإنهم قد شرعوا فى توفيق العقيدة وأحكام الفقه المترسخة فى زمن مملكتى يهودا والسامرة مع ظروف المنفى.

العقيدة الاقتصادية فى بلاد الشتات

يهدف كل مذهب اقتصادى، منذ أن يوجد، إلى تحديد أفضل شروط بقاء الجماعة فى وسط غريب. وهو يقوم على ثلاثة قواعد أساسية: العمل، المنافسة، التضامن. يمكن أن يعُبر عنه بهذه الصورة: كل عضو فى الجماعة يجب أن يعمل من أجل أن يكسب عيشه، وفقًا للمبادئ الأخلاقية. التى تضعها الشريعة، إن أمكن فى مهنة حرة فردية: يجب أن يقبل كل شخص بالمنافسة، ما يتيح له أن يمتلك الفرصة فى أن يثرى، ولكنه يعرضه كذلك لخطر الفشل، ويجعل التضامن ضروريًا. أخيرًا، على كل منا أن يحرص على ألا يسئ إلى صورة الطائفة فى نظر الأغراب بل وأن يكون نافعًا، إذ استطاع ذلك، لمضيفيه الذين استقبلوه بينهم.

العمل أولوية مطلقة. العاطل خطِر بالنسبة للطائفة، لأنه عبء عليها، ولأنه يمكن أن ينتهى إلى السرقة، بل إلى القتل وبذلك يضر بالطائفة كلها. من جهة أخرى فإن كل طائفة تعتبر مسئولة عن الجرائم التى ترتكب فى الجوار. ينظر إلى العمل اليدوى باعتباره جديرًا بالتكريم بصورة خاصة حتى بالنسبة للمتعلمين: "اتخذ عملًا، حتى إن كان هذا العمل ليس

مطابقًا لما تعتبره مصدر فخرك وشرفك، حتى لا تكون محتاجًا إلى أحد" يقول المعلمون، الذين يضيفون: "من يعيش من عمل يده أفضل من الرجل التقى الذى يؤمن بالله". حتى الحاخام الربانى ينبغى عليه أن يعمل بيديه ليكسب قوته؛ لا يجب عليه أن ينتظر، كما كان البعض يفعل فى أورشليم، حصيلة الزكاة (العطاء). وفقًا لإحدى الروايات، فإن حكيمًا، حاخامًا، "كاهانا" رد على أحد الحاخامات كان قد سأله أين يجد قوته: "ليس عليك سوى أن تذهب إلى السوق وتقوم بتقطيع الحيوانات فور ذبحها وبهذا يمكنك أن تكسب قوتك[٤٠٨]". من الممكن أن يكون العمل شاقًا ولكنه لا يجب أن يكون منفرًا لا فى عدد ساعاته ولا فى ظروف مزاولته. إنه يقوى الشك بصورة خاصة نحو الأجير: العمل لحساب الآخرين يمكن أن يوّلد نوعًا من الكراهية؛ من الأفضل أن يعمل المرء لحسابه الشخصى. يقول الحكماء: "العالم مظلم كئيب لمن ينتظر غذاءه من الآخرين[٤٠٨]". وأيضًا: "من الأفضل أن تجعل من السبت يوم عمل من أن تعتمد على الآخرين" حتى إن أحكام القضاء ذاتها تكون مترددة أمام تقسيم العمل، الذى تنظر إليه باعتباره تهديدًا للحرية: "ملعون هو الرجل الذى يتكل على رجل آخر[٤٠٨]". كانت محاكم تلك الفترة تتحدى المُستخْدمِين عادة عن طيب خاطر. على سبيل المثال، ممن الممكن أن يعتبر التأخر فى دفع الراتب أو الأجر خطيئة خطيرة كخطيئة القتل: "فى ذات اليوم، سوف تدفع له أجره قبل أن تغرب الشمس، لأنه فقير وينتظر أجره بفارغ الصبر[٤٠٨]". وأخيرًا فإن سلسلة من أحكام المحاكم قد ألزمت أيضًا باحترام عمل الحيوانات، بألا نفرض عليها أعمالاً شاقة جدًا: الالتزام بإطعامها قبل البشر، منع شراء بهيمة من الدواب لا نستطيع أن نؤمن الاعتناء بها، الراحة الأسبوعية، تحريم تقطيع الحيوان حيًا.

فى هذا الاقتصاد المكون فى جوهره من مؤسسات صغيرة، تكون المنافسة أساسية. يجب أن يكون للمستهلكين، موضع اهتمام القضاة الرئيسى، القدرة على الحصول على الطعام بشكل مناسب وكريم بأقل سعر ممكن. كما كان الحال فى إسرائيل فى عهد سليمان، كان الربح فى السلع الأساسية قد ظل محددًا بسدس سعر التكلفة، ما يؤدى من جهة أخرى إلى بيع الموردين اليهود فى الغالب بأسعار أقل من أسعار منافسيهم من غير اليهود. تستطيع المحاكم حتى أن تحدد أسعار السلع ذات الأهمية القصوى، الجوهرية فى حياة

الناس وتجريم بيعها خارج الجماعة إن صارت شحيحة. على كل شخص أن يخصص عشر موارده للتضامن مع جماعته. الجالية العبرانية فى كل مدينة ينبغى بداهة أن تستقبل بالترحاب أى يهودى يأتى لينضمَ إليها. لا يستطيع كائن من كان أن يمنع قادمًا جديدًا من أن يفتتح عملًا تجاريًا، حتى إن أدى ذلك إلى بعض الصعوبات بالنسبة للأعمال الموجودة بالفعل، بشرط أن يحسن مع ذلك من أوضاع المستهلكين، (بتوفير سلع جديدة مثلًا أو نفس السلع بأسعار أقل)، ألا يضر بكل الأعمال التجارية القائمة، وألا يزيد من أسباب الضرر، كالأدخنة أو الروائح الكريهة[٤٠٨].

لكى يكون المستهلك على دراية كاملة، يمكن للتاجر أن يقوم بعمليات ترويج ذات طبيعة إعلانية، أو حتى يقوم بتوزيع عينات مجانية من منتجاته. كان نقاش الحاخامات حول هذه النقطة شائقًا: يقول الحاخام ياهودا Rabbi yehouda: "لا يجوز أن يقوم التاجر بتوزيع القمح المحُمص ولا الجوز على الأطفال، لأنه يعوّدهم بذلك على المجيء عنده" لكن الحكماء الآخرين يبيحون ذلك. الحاخام يهودا يقول: "لا يجوز له أن يبيع بسعر أقل من سعر السوق". غير أن الحكماء الآخرين يقولون: "لا يمكن أن يذكر رجل كهذا إلا بالخير[٤٠٨]".

عما قليل، سوف يتوجب تطبيق هذا المذهب، الذى ترتسم خطوطه الآن فى بيئة جديدة، لأن اليهود، الذين كانوا قد غادروا لتوهم إلى المنفى، ولدهشتهم الكبرى، سوف يتمكنون من العودة إلى إسرائيل حيث ظهر حكامهم أكثر منهم ضعفًا.

٦- العودة إلى فلسطين

من مهنة التمويل إلى الإفلاس

كانت المرحلة الأخيرة لتكوين الشعب اليهودى هذه فى ظاهرها أكثر لاهوتية وسياسية منها اقتصادية. عبر تداخل وتشابك مذهل من الأسر الحاكمة، غامر بالانقلابات والخيانات، سوف يصل اليهود إلى يهودا من جديد، يقيمون فيها مملكتهم، ينتصرون، ثم يفقدون كل شيء مرة أخرى ويرحلون إلى المنفى من جديد حيث سوف يبقون لألفى عام.

كان المال حاضرًا فى المشهد، وراء كل واحدة من هذه الوقائع: من أجل المال طمعنا فى الأرض، بفضله مُوِلَتْ الجيوش وشُيدَ المعبد، وبسبب الأموال والثروات التى يضمها هُوجِمَ وتم احتلاله. المال الذى كان من الواجب أن يستخدم لتجنب العنف، لم يؤد هنا أيضًا ولمرة أخرى، إلا إلى اجتذابه.

التالان، الفرس، المعبد (الهيكل)

فى تلك الفترة، نحو عام ٦٠٠ ق.م، فى إحدى الممالك الإغريقية الصغيرة فى آسيا الصغرى، ليديا Lalydie، الواقعة شمال إفسوس Ephése، ظهرت للمرة الأولى العملات النقدية الحقيقية: قطع موحدة العيار من الذهب ومن الفضة ذات قيمة تبادل ثابتة. فى البداية استعمل أهل ليديا، كوسيلة للتبادل، قطعًا من الإليكتروم، سبيكة طبيعية من الذهب والفضة ، ذات أحجام مختلفة وغير محددة القيمة. ثم تخلى الملك كريسوس Crésus، آخر ملوك ليديا عن الإليكتروم، نحو عام ٥٥٠ ق.م، واستخدم بدلًا منه عملة ثنائية المعدن من الذهب ومن الفضة ذات قيمة محددة مشار إليها: التالان. كتب هيرودوت Hérodote : "إن الليديين هم أول من سك ووجه إلى استعمال العملة المصنوعة من الذهب ومن الفضة، وكانوا الأوائل أيضًا فى القيام بتجارة التجزئة"[١٩٦] .من الجائز أن تكون العملة النقدية قد جاءت من الصين لكن ليديا كانت أول مملكة قامت بتصنيعها من معدن ثمين وقامت بضمان قيمتها. أخذ الفرس بهذا النظام فورًا، كما نقلته كل المدن الإغريقية الأخرى وكل الشعوب التى تتاجر معها. سويًا كان كريسوس والبابليون قد وجدوا سيدهم: بعد خمسين عامًا من استيلاء الإمبراطورية البابلية فى عهد نبوخذ نصر (المتوفى عام ٥٦٢ ق.م) على أورشليم، فإنها قد سقطت بدورها تحت ضربات قائد فارسى، كورش الثانى Cyrus II، الذى كان من كبار الإستراتيجيين، والذى بنى ملكه عبر الانقلاب على التحالفات وإسقاطها، بعبارة أخرى عبر الخيانة، كما كان نبوخذ نصر نفسه قد فعل. ملك منذ ست سنوات على مدينة فارسية، فارس، كان كورش الثانى قد ثار ضد زوج أمه آستياج ملك الميديين (الأكراد) Les Médes: تغلب عليه واستولى على عاصمته إيكباتان

Ecbatane فى عام ٥٤٩ ق.م، وأعلن نفسه ملكًا على الفرس والميديين (الأكراد). فى عام ٥٤٧ ق.م، متحالفًا مع نابوندى Nabondl ملك بابل، توغل فى آسيا الصغرى وسحق الإغريق الإينونيين، ومن بينهم كريسون. فى عام ٥٣٩ ق.م، خيانة أخرى: انقلب على حليفه البابلى، وقام بأسره، دخل بابل ظافرًا، واتخذ لقب "ملك بابل"، ملك البلاد الأربعة"، وجعل من يهودا إقليمًا فارسيًا. وسمح للشعوب الحائزة على إقطاعيات، بحكم ذاتى واسع النطاق فى مقابل جزية من المال والجنود، كان على اليهود أن يدفعوها مثل الآخرين. أباح إقامة الطقوس الدينية لكل العقائد. وهكذا تجاور ماردوك Mardouk إله بابل مع رب اليهود، من بين آلهة أخرى كثيرة.

فى عام ٥٣٨ ق.م، أى بعد عشر سنوات من الفتح، متحسبًا من هجوم من جانب مصر، قرر كورش أن يجعل من يهودا سورًا بينه وبين الفرعون. سمح آنذاك لليهود بالرجوع إليها، بل أمر بأن ترد إليهم كنوز المعبد التى أخذها نبوخذ نصر، حتى تتوفر لهم وسائل إعادة بناء بلدهم. لكنه لم يسمح لليهود مع ذلك بأن يكون لهم استقلالهم ولا حتى ملكهم؛ ظلت المقاطعة تدار بواسطة حاكم فارسى.

فى عام ٥٣٠ ق.م، وعندما مات كورش أثناء حربه مع قبائل تورانية فى آسيا الوسطى، لم يرجع يهود بابل إلى أورشليم بكثافة. لأن يهودا فى غضون ذلك الوقت كانت قد صارت إقليما فقيرًا، بددت غارات السلب والنهب ثرواته. لم يكن للمنفيين فى بابل أى رغبة فى الرحيل عن المملكة الفارسية القوية المتألقة. إجمالاً، لم يعد من المنفى إلا نصف عددهم، كانوا الآن فى حدود المائتى ألف نسمة، يرافقهم سبعون ألف عبد وخادم (نسبة عادية فى تلك الفترة)؛ كانوا مملوكين فى الغالب من قبل الأكثر ثراءً، الذين ظلوا فى بلاد ما بين النهرين. عاد هؤلاء المهاجرون بصفة عامة بعقيدة نقية لم تمس؛ اصطدموا بمن ظلوا فى البلاد، أحيانًا كانوا قد صاروا وثنيين واحتلوا الأراضى الخالية التى غاب عنها أصحابها، كان على محاكم يهودا حينذاك أن تحل العديد من النزاعات المتعلقة باسترداد العائدين لأراضيهم، إعادة زراعة الأراضى البور، إعادة بناء التحصينات. إعيد إنشاء محاكم، مدارس للحاخامات وكذلك مجالس السنهيدرين Le Sanhédrin. لم يعد من الممكن احترام كل الشرائع فى مملكة داوود David. فعلى سبيل المثال لم يعد من الممكن تطبيق

عام الغفران: لم تعد الأراضى مقسمة تبعًا للقبائل، صرنا عاجزين عن العثور على الورثة، وضاع أثر عشرة قبائل من أصل الاثنتى عشرة قبيلة. لم يعد من الممكن إذا أن تظل هذه الشريعة الأساسية سارية فى التسعة والأربعين عامًا الضرورية لتطبق أكثر من مرة. ظلت ظروف الحياة شاقة؛ كان لابد لسكان يهودا أن يستعينوا بلا توقف بأموال الأغنياء البابليين ليسددوا ديون المزارعين لدى الأغراب ويتفادوا مصادرة الأراضى.

فى عام ٥٢٢ ق.م، تزوج ضابط يدعى داريوس **Darius**، كان ابنًا لأحد حكام فارس، من ابنتين من بنات كورش **Cyrus**، مزيحًا العديد من الطامعين فى ذلك وصار ملكًا للفرس. أنشأ عاصمتين جديدتين بجانب بابل – بيرسيبوليس **Persépolis** وسوز **Suse** –، وحد النظام النقدى وأوجد عملة حقيقية تتكون من دنانير ذهبية داروية(*) وشواكل من الفضة(**). مطبوع عليها صورة رامى القوس، كانت هذه النقود مخصصة للمبادلات مع الخارج؛ فى الأسواق الداخلية استمرت المبادلات عن طريق المقايضة. قسم داريوس المملكة إلى عشرين ولاية، قام بعملية مسح للأراضى وأنشأ محطات مناوبة ووفادة للتجار والعسكريين بطول الطرق. فرض سيطرته على بحر إيجه، وضم تراقيا **La thrace** ومقدونيا **La macédonie**، قام بتقوية المحاور التجارية بين البحر الأحمر والخليج الفارسى، وأكمل حفر القناة بين البحر الأحمر والنيل(٣٥). صارت يهودا فى ذلك الوقت ملتقى طرق تجارى أساسى لأوروبا. تشجع اليهود تحت ولاية داريوس على البقاء فى بابل: هناك كثير من العمل للجميع، فرص للعيش فى يسر ورخاء.

لكى يحكم فى يهودا، كان لداريوس فطنة أن يختار لها محافظًا يهوديًا، زوروبابل **Zorobabel**، ابن أحد الملوك المنفيين، وأن يشرع بذلك تقريبًا فى إعادة الملكية. أثار الحماس أورشليم. أراد النبيان **Aggée** و **Zacharie** إعلان زوروبابل **Zorobabel** ملكًا لليهود. هدأ هذا الأخير من حماسهما، أعاد تنظيم السياسة الضريبية، أحاط نفسه بمهاجرين سابقين، بسطوا معه نفوذهم على هؤلاء الذين لم يغادروا البلاد، ليس دون أن يتسبب ذلك فى إثارة

(*) نسبة لداريوس. (المترجم – عاصم)

(**) الشاكل وحدة نقد، معيار، مثقال عبرى. (المترجم – عاصم)

الجدل والنزاعات. شُرِعَ أخيرًا فى إعادة بناء المعبد الذى تم الإعلان عنه كثيرًا فيما قبل، فى ظل تمويل مضمون فى نفس الوقت بمساهمات يهود بابل، وبواسطة ضرائب باهظة جدًا فرضت على يهود يهودا وأقساط تدفعها كل الجماعات العبرانية المنتشرة الآن فى محيط البحر المتوسط وفى الشرق والتى يأتى لطلبها بلا كلل حاخامات يرسلهم زوروبابل. لقد بدأ دور يهود الشتات فى اقتصاد إسرائيل.

تم افتتاح المعبد الجديد فى الثالث من مارس عام ٥١٥ ق.م. لم يكن فى مثل ضخامة ولا فخامة المعبد الأول. فُقِدَ تابوت العهد؛ حل شمعدان ذو سبعة أذرع محل شمعدانات سليمان العشرة. غير أن اقتصاد المعبد قد عاد بكهنته، بعوائد عشوره، بهباته وصيارفته. تدفقت القرابين. الكهنة، كبار الكهنة واللاويون انشغلوا بها جميعًا. عما قليل سيكون هناك عدة آلاف من الكهنة ممن يعيشون على موارد المعبد، خزينة مشددة الحراسة بصورة دائمة وتضم حليًا ومجوهرات، عملات ذهبية وفضية من كل البلاد. وبما أن هذه الكنوز كانت مخبأة فى قدس الأقداس، فقد بالغ الجميع، يهودا وغير يهود، فى تقدير أهميته. صار المعبد موضوعًا للحوار ومطمعًا فى الشرق الأدنى بأسره.

هزم داريوس عام ٤٩٠ ق.م على يد الإغريق، فى موقعة المارثون **Marathon**، ثم مات عام ٤٨٦ ق.م. تراجع ابنه زركيس **Xerxés** أمام الإغريق حتى سالامين **Salamine**. أدار حفيده أرد شير **Artaxerxés** مملكته متخذًا حاشية من المثقفين اليهود والإغريق، من بينهم تيميسنوكليس **themistocle**، الذى كان منفيًا فى آثينا **Athénes**، نيهمياس (نيحميا) **Néhélas**، أحد الربانيين الذى عينه (الملك) حاكمًا على يهودا عام ٤٤٥ ق.م بغرض أن يتفادى أن تستقر فيها أسرة حاكمة من نسل زوروبابل. خفض نيهمياس الضرائب، ألغى الديون، أعاد العشور.

شهدت هذه الحقبة أيضًا ازدهارًا استثنائيًا للنصوص الدينية. ظهر أشعيا آخر، والذى ربما كان يبشر بالمسيح القادم، عندما أعلن عن مقدم "خادم الرب المعذب"، إن لم يكن يشير بهذا الاسم إلى الشعب اليهودى. صيغت نصوص أسفار موسى الخمسة الأولى وكذلك أسفار الأنبياء فى كتب. يذّكر سفر يوحنا **jonas** بواجب يهود المنفى الأول

فى الدفاع عن نينوى ninive استعارة عن ضرورة أن يحمى اليهود، فى كل عصر، العالم من غضب الرب. فإن مُصاب العالم هو مصابهم أيضًا.

الإسكندرية

عندما اغتيل أرداشير الثالث Artaxerxés III، عام ٣٣٨ ق.م، خلفه داريوس الثالث، لكن ذلك كان نهاية إمبراطورية فارسية عظمى. انتقل النفوذ الاقتصادى من الفرس إلى الإغريق. استولى البحر الأبيض المتوسط على السلطة. أصبح الإسكندر، ابن فيليب المقدونى، تلميذ أرسطو، والذى كان ملكًا فى العشرين من عمره، سيد طيبة وآثينا، صار الآن رئيسًا لاتحاد البلاد الخاضعة للإغريق. وعندما ضرب نقودًا تحمل صورته، كان قد اعتمد بذلك النظام النقدى الآثينى، الذى سيعمم بعد قليل فى المنطقة بأكملها. بجيش كبير، تغلب على داريوس الثالث ودحره فى أسوس Isoss، بسورية، عام ٣٣٣ ق.م؛ انفتح أمامه الطريق إلى مصر، كانت تمر بيهودا. حاصر الإسكندر مدينة صور tyr (سبعة أشهر) وغزة (شهرين)، اجتاز أورشليم فى عام ٣٢٢ ق.م وسط هتافات اليهود. بسرعة جدًا لاقت العادات الإغريقية رواجًا كبيرًا. بدأ أثرياء يهودا فى التحدث باليونانية، فى تقليد هيئة ملابس وطريقة معيشة المحتلين الجدد. حتى إن خدم المعبد الشباب مارسوا الألعاب الرياضية فى قاعات الرياضة البدنية[٢٥]. التشبه بالغزاة مستمر، فى يهودا كما فى خارجها.

هيمن الإغريق أيضًا على التجارة. وفى ممارسات وأنشطة التجار والبحارة اليونانيين فى تلك الفترة، ظهرت شروط البيع بالأجل، الإقراض عالى المجازفة للصيادين، وإلى التجار، وشروط الرهن العقارى، شروط الضمان، الكفالة، عقود المبادلة وحتى عقود التأمين[١٧]: هكذا، ابتداءً من تلك الحقبة، أقام الإغريق فى بابل نظامًا للتأمين ضد هروب العبيد، يموله أقساط يدفعها كل مالك عبيد[١٧].

غادر الإسكندر أورشليم وغزا مصر يصحبه مرتزقة من اليهود كتعويض عن المساهمة المالية فى تشييد معبد على جبل جاريزيم Garizim، فى السامرة. أسس مدينة

الإسكندرية، ميناء تجاري، فى موقع إستراتيجى حيث سوف تستقر بسرعة طائفة كبيرة من اليهود المتمتعين بنفس الحقوق التى يتمتع بها المقدونيون. مَثّلَ اليهود على الفور حتى أكثر من نصف الثلاث مائة ألف ساكن من سكان المدينة الجديدة. من هنا، سوف تشع اليهودية وتزدهر فى العالم الإغريقى بأكمله. استقرت طوائف يهودية أخرى فى مصر اليونانية: لكن، نظرًا لأننا قد احتفظنا فيها بذكريات على الأقل ميتولوجيا لما جاء فى سفر الخروج، فإن المصريين بالأحرى قد استقبلوا هؤلاء التجار القادمين مع المحتل اليونانى بلا ترحاب.

من ذلك المكان فى العالم، وإلى تلك الفترة من التاريخ، يعود تاريخ الصور الأولى لليهود باعتبارهم "مرابين" أو "قتلة". إن العداء لليهودية أصله إغريقى، سكندرى، قبل أن يكون مسيحيًا. ومن قبل، كان المصريون يبغضونهم، بلا شك. يؤكد شخص ما، يدعى داموكريت **Damocrite**، أن اليهود لابد أن يختطفوا، مرة كل سبع سنوات، أحد الأجانب، يقتادونه إلى معبدهم ويضحون به بتقطيعه إلى قطع صغيرة. كتب أبيان السكندرى **Appien** أن اليهود يقومون كل عام بتسمين رجل إغريقى ليأكلوه. المدعو مانيتون **Manéthon**، كاهن مصرى، يقول: إن اليهود ليسوا إلا جنسًا من المجذومين، أرسلوا إلى مصر من قبل فى عهد موسى، وينبغى أن يطردوا من جديد.

فى عام ٣٣١ ق.م، يغادر الإسكندر مصر، يمر من جديد بأورشليم وصور، يسير نحو بلاد ما بين النهرين، يقوم بإحراق بيرسيبولس — اغتيل داريوس الثالث على يد قواته — واستبدل دينار داريوس الذهبى بالدينار الإغريقى. تحولت كنوز ملوك الفرس إلى قطع نقدية شجعت المبادلات التجارية وأدت إلى نهضة اقتصادية هائلة. جرت فى حد كبير منها بواسطة التجار اليهود. فى عام ٣٢٧ كان المقدونى فى كابول **Kaboul** وفى باميان **Bamyan**، واصل طريقه نحو الهند، ثم عاد عبر الصحراء فى رحلة شاقة منهكة إلى بابل، حيث مات فى عام ٣٢٣ ق.م، عن ثلاثة وثلاثين عامًا، نجم ساطع. ربما كان أول رجل حملت العملة النقدية صورته، ما كان من امتيازات الآلهة وحدهم حتى ذلك الوقت.

قام قواده، الديادوك، بتقسيم إمبراطوريته. سيليوكوس Séleucos أخذ سورية وبلاد ما بين النهرين، من بحر إيجه إلى أفغانستان. بطليموس Ptolémée استحوذ على مصر واليونان. يهودا، الواقعة تحت حكم سيليوكوس، صارت على الفور موضع خلاف بين القوتين الإغريقيتين: كان الرهان فى حقيقة الأمر هو السيطرة على الطرق التجارية، وقد كانت لا تزال تمر من هناك، فى يهودا.

بطليموس الأول سوتير، قائد حامية الإسكندرية، أقام عاصمته فى الإسكندرية عام ٣١٢ ق.م، وشيد بها الفنار والمكتبة بمعاونة بعض المثقفين الإغريق واليهود وكذلك بعض المصرفيين اليهود. أخذ قبرص، ساعد سيليوكوس الأول فى الاستيلاء على بابل وتلقى منه فى المقابل، سورية: اثنان من الإغريق كانا على رأس مملكتى مصر وبابل القديمتين. استمر بطليموس فى الحكم حتى عام ٢٨٦ ق.م.

الباقى الأخير من مغامرة الملك المقدونى الرائعة، سيليوكوس، ظل يحكم طوال خمسين عامًا تقريبًا، استمرت ولايته إلى عام ٢٨١ ق.م، بدأ من عاصمة جديدة تحمل اسمه Selucie (السلوقية) سيليوسى، على نهر دجلة، بجوار بابل تمامًا. استمر ملوك الإغريق، من بعده، فى الاحتفاظ بالسيطرة على مملكة بابل وبدعمهم للجماعة اليهودية المحلية، تجار، حرفيين، مزارعين، وسيطروا أيضًا على فلسطين، حيث، بدأ فى الظهور فرق بين الكثير من الجماعات الدينية من بين اليهود: الفريسيين Les Pharisiens، الصدّوقيين، الإسينيين[٤٢٨] Les esseniens.

الصدوقيون les sadducéens، ممثلو الأرستقراطية وعائلات كبار الكهنة يهيمنون على النظام السياسى والدينى. يشرفون على الضرائب، القرابين، وكل الدوائر المالية.

الفريسيون، مرشدون روحيون للطائفة، قادة دينيون وعلمانيون، كانوا يدعون إلى الحياة البسيطة، ينتقدون ثراء الكهنة، يؤكدون إيمانهم بحرية الإرادة والاختيار، الحياة الأبدية، عودة المسيح. إنهم يتذكرون أن النبى ELie قد قال إن الفقر هو العطاء الأعظم الذى منحه الرب إلى شعبه فى استعارة رائعة: "إن الفقر يوافق إسرائيل كما يوافق سرج أحمر حصانًا أبيض". والزهد – بيرشوت Perishut، الذى يشتق منه "فريسى" pharisien – لا يؤدى بالضرورة إلى الخلاص، ولذلك فهم لا يدينون الثروة إذا كانت فى خدمة الخير.

الإيسينيون Les esséniens، جماعة شبه رهبانية، كانوا يمعنون أكثر فى رفض وإنكار الثروة. تتشارك فى الملكيات، الموارد، الطعام، الملابس. يرفضون الزواج والتضحية بالحيوانات. يدعون إلى العفة والنقاء ويوصون بارتداء الملابس البيضاء.

شروط تحقيق التضامن تتضح: كل عضو فى الجماعة يجب أن يخصص دائمًا العشر من موارده، على الأقل، لتمويل التصدق تتولى الجماعة إدارة أموال الصدقات ، فتؤمن الآن مهر الفتيات المحتاجات، موردًا لكبار السن ممن ليس لهم عائلة، تشغيل من تعرض للإفلاس، تقديم قروض بلا فوائد استقبال الأغراب العابرين ووفادتهم، افتداء العبيد، وأخيرًا وقبل كل شىء المدارس من أجل كل الأطفال.

فى عام ٣٠١ق.م. انتقلت يهودا من أيدى سيليوكوس إلى ولاية بطليموس الأول. دخل هذا الأخير أورشليم فى يوم السبت، الأمر الذى أثار صخبًا واستنكارًا، لكنه عمل على الانتهاء من إعادة بناء المعبد ولم يتدخل فى الشئون الداخلية للبلاد إلا بأقل القليل. كان يجبى ضريبة سنوية، غير أنه يستثنى منها خدم المعبد، ولمدة ثلاث سنوات، كل يهود أورشليم. الكاهن الأعظم، السلطة الوطنية الوحيدة المسموح بها، له الحق فى جمع وتحصيل ضريبة العشور، فى فلسطين وفى الشتات، وفى إدارة كنوز المعبد.

قام بطليموس الثانى (المدعو فيلادلفيا Philadelphe)، الذى خلف والده عام ٢٨٦ ق.م، بالسيطرة على فلسطين، وامتدت ولايته، بدءًا من الإسكندرية، حتى عام ٢٤٦ ق.م. لم تكن مصر أبدًا، طوال تاريخها، بمثل هذا النفوذ: متأهلنة(*)، تأثرت شيئًا فشيئًا بنفوذ روما، القوة الغربية الجديدة البازغة، أمر فيلادلفيا بترجمة التوراة إلى اليونانية: إنها التوراة المسماة بالسبعينية(**)، المفيدة لمن لم يعد يتكلم من اليهود غير هذه اللغة.

(*) تطبعت بالطابع الهلينى أو الإغريقى القديم. (المترجم - عاصم)

(**) ترجع هذه التسمية إلى أن فيلادلفيا قد كَلَّفَ سبعينًا من اليهود المصريين بترجمة التوراة وقد منحهم حريتهم لقاء هذا العمل. (المترجم - عاصم)

فى عام ٢٤٥ ق.م، قام خليفته بطليموس الثالث إيفرجيت Évergéte، بتدعيم يهودا وإثراء المعبد. قام المدعو سيمون العادل Simon Le Juste بوظيفة الكاهن الأعظم ومن بعده قام بها أخواه الاثنان. وفى هذه الحقبة كتب سيمون العادل: "بالنسبة لليهودى، فإن العالم يرتكز على ثلاث دعامات: الشريعة، خدمة الرب، وأعمال الخير". فى عام ٢٢٢ ق.م زاد بطليموس الثالث من سرعة صبغ فلسطين بالصبغة الهيلينية (اليونانية)، أصبحت كل المعاملات الرسمية بين اليهود والمحتلين تجرى الآن باللغة اليونانية. اندرج اقتصاد البلاد فى اقتصاد المملكة المصرية الجديدة. استمر الفريسيون والإسينيون فى التصدى للصدوقيين الأثرياء، وسعوا لاستعادة نفوذهم على الحاكم: استبدلَ أعضاء مجلس السنهيدرين الصدوقيين أنفسهم تدريجيًا بأعضاء من الفريسيين. ظلت أحوال الاقتصاد التجارى مزدهرة. عادت الأرياف تنعم بالرخاء من جديد. أصبحت يهودا من الآن فصاعدًا إقليمًا إغريقيًا، يعيش على الطريقة الإغريقية.

فى عام ٢٠٢ ق.م تغيرت ولاية الحكم من جديد: فى نهاية رحلة فتوحات طويلة وصلت إلى الهند ثم فى جزيرة العرب، تحالف أنتيخوس الثالث Antiochos III، ملك سيليوسى (٢٢٣ – ١٨٧ ق.م) مع فيليب الخامس Philippe v، ملك مقدونيا، تجهز لغزو آسيا. استرد فلسطين من البطالمة واعترف بحق اعتناق اليهودية وممارسة شعائرها.

قوة جديدة، جعلت من نفسها ضامنة لحرية المدن الإغريقية، روما تهتم بالشرق الأوسط أكثر فأكثر، من أجل احتياطيه الاقتصادى وينتابها القلق من قوة أنتيخوس الثالث البازغة والصاعدة. بالنسبة لقواد روما فإن الطريق إلى آسيا يجب أن يظل مفتوحًا. تتكون التحالفات: مقدونيا مع السيليوسيديين، البطالمة مع روما: هكذا وجدت يهودا نفسها واقعة بين التحالفين اقتصاديًا وسياسيًا. جماعات الشتات – لدى البطالمة فى الإسكندرية، لدى السيليوسيديين فى بابل، لدى الرومانيين فى روما – اتهمت أحيانًا بالتآمر من أجل وضع يهودا تحت حماية قوة أخرى: كان الاتهام بالولاء المزدوج قائمًا بالفعل، مدعومًا بوجود جاليات شقيقة داخل الإمبراطوريات المتصارعة المعادية.

صارت روما موجودة فى مصر أكثر فأكثر على المستوى العسكرى والاقتصادى. فى عام ١٩١ ق.م، واجه القنصل فلامينيوس **Flaminius**، المتحالف مع البطالة فى مصر، جيوشًا سيليوسيدية متحالفة مع فيليب الخامس ملك مقدونيا، مما أعطاهم تفوقًا مهمًا من الناحية العددية. مع ذلك انتصر الرومانيون فى ترموبوليس **thermoplyes**، ثم فى مانيزى **Magnesie** عام ١٨٩ ق.م. كان على أنتيخوس الثالث أن يوقع معاهدة آبامى **Apamée**، التى يتنازل بمقتضاها عن ممتلكاته فى آسيا، فيما يجاوز نهر دجلة إلى البطالة. كان الملك المهزوم مرغمًا على دفع تعويضات حرب باهظة للغاية لدرجة أنه لم يتمكن من الوفاء بها إلا ببيع وظائف كبار كهنة كل الديانات وبنهب ثروات كل المعابد التى كانت فى متناوله، فى كل الأماكن، من أورشليم إلى القدس. فى عام ١٨٧ ق.م، قتل الملك أنتيخوس فى معبد بعل بمدينة سوز، عندما هوجم بغتة أثناء قيامه بالاستيلاء على كنوزه.

معبرًا لكل الجيوش، مُغَيِّرةً لمليكها بلا توقف، لم تكن يهودا رغم كل هذا أقل رخاءً وازدهارًا حتى ذلك الوقت. الأرض تنتج القمح، الشعير، الفاكهة، النبيذ، الزيت والتين. تربية الماشية توفر حيوانات الأضاحى. تطور الصيد فى عكا **Acre** وفى يافا **Jafa**. بينما كانت البلد فقيرة فى المعادن، لكن ولأنها كانت غنية فى أحجار البناء، ولأن قطعان الأغنام فيها تنتج الصوف بغزارة، فقد ازدهرت فيها أعمال البناء وكذلك مهنة النسيج. موّل الكهنة – ملتفين على حرمة الإقراض بالفائدة – أعمال الزراعة، الصيد، ورش الحرفيين(٣٤). وضع الصيارفة أنفسهم فى خدمة الحجاج. اغتنى بعض الناس، قلة نادرة، بالعمل كجامعى ضرائب لحساب المحتل، أيًا ما كان. استمرت جماعات الشتات فى تمويل إعادة إعمار البلاد والإنفاق على الكهنة المحومين حول المعبد والذين يتزايد عددهم أكثر فأكثر.

من أورشليم، إلى بابل والإسكندرية، ضبطت المحاكم والمدارس الدينية أحكام الفقه وأوضحت الأحكام. بدأ المعلمون والطلاب فى تدوين ملاحظاتهم المدرسية، المسماة ميشنايوت أو "إعادة وتكرار" – المحفوظ عن ظهر قلب – إنهم يجمعون فى مجموعات قرارات المحاكم حول قضايا أخلاقية، ولكن اقتصادية أيضًا كالضرائب، الأسعار، المؤسسات، الحياة الاجتماعية، التضامن، البيئة. إنهم يُعلون من قدر العمل اليدوى، بعكس المجتمع" الإغريقى المجاور الذى يراه معيبًا ، يحددون الأسعار العادلة ، يضعون حدود

الأرباح، يشرفون على التجمعات النقابية، الهيفوتز hévots، يقسمون شوارع المدينة بين هيئات الحرفيين، يراقبون بصورة خاصة بعض الحرفيين المتخصصين في المنتجات النسائية، المشكوك في تهاونهم الأخلاقي، يستبعدون من يمارس مهنة تعتبر مُذلة كالدباغة، أعمال المناجم، جمع الفضلات (بسبب الروائح الكريهة)، ويجيزون طلاق زوجاتهم منهم.

يمكن أن تحظر بعض المحاكم الآن نشاطًا ما.. لأنه يضر بباقي أوجه النشاط الاقتصادي أو يضر بالبيئة. فعلى سبيل المثال، فإن تربية الماشية الصغيرة، وخاصة تربية الماعز محظورة لأنها تخرب الحقول. حكم آخر يمنع إقامة ساحات دراس القمح (الأجران) على بعد أقل من خمسين ذراعًا من حدود أي مدينة، مخافة أن تضر القشور التي تحملها الرياح بصحة السكان. كذلك لا يجب بناء الأفران المنخفضة، التي تنتج كثيرًا من الدخان، ولا إحراق أخشاب شجر الزيتون، ولا أشجار كروم العنب أو أخشاب نخيل البلح، على مذبح المعبد، ولا الإسراع في إشعال لمبة زيت النفط بأكثر من الواجب، "لأن ذلك يعتبر تبذيرًا وإهدارًا لقيمة طبيعية(٤٠٨)" . يفرض على المدن الجديدة الاحتفاظ بمنطقة خالية حول محيطها، بلا أشجار، ولا زراعات، ولا مشروعات أو مؤسسات. مستخلصين العبرة من هشاشة الأوضاع وتغيرها تبعًا للوقت وضرورة أن يظلوا مستعدين للرحيل دومًا، حددت المحاكم مبادئ إدارة الممتلكات: "يجب أن يحتفظ الرجل بثروته في ثلاث صور: ثلثًا في صورة أرض، ثلثًا للماشية، ثلثًا من الذهب(٤٠٨)". وتوضح أيضًا شروط المساعدات التي توزع على الفقراء، الأرامل، الأيتام والأغراب العابرين، لمواجهة الديون والمرض.

ظل الإقراض بفائدة مُحَرمًا، يواجه كل مقترض خطر أن يصير فقيرًا وغير قادر على السداد: تشبه الفائدة دائما بالكذب أو الاختلاس. "إذا أقرضت مالًا إلى أحد مواطنيك، أو إلى محتاج يقيم في بلادك، فلن تتصرف معه كالمقرض برهن ولن تفرض عليه فائدة" (سفر الخروج ٢٢، ٢٤؛ سفر اللاويين ٢٥، ٢٧). من المحرم أيضًا الاقتراض بفائدة، تحرير عقد القرض ، أو التوقيع عليه بصفة شاهد. محرمة أيضًا كل الأفعال التي يستطيع الدائن بواسطتها الاستفادة بصورة غير مباشرة من قرضه الذي أقرضه. (أفاك ريبيت avaq ribbit، وتعني حرفيًا "غبار الفائدة"). في الواقع، وعلى الرغم من الحظر العام، فإن التفسير الماكر لهذه النصوص يتيح للمحاكم التسامح تجاه بعض الممارسات: إنها تقصر

الحظر أولًا على قروض الاستهلاك، الوحيدة التى تتعلق فعلًا بالفقراء. قروض الاستثمار مسموح بها وفقًا لآليات محددة جدًا ودقيقة. فعلى سبيل المثال المنقولات المرهونة لقاء قرض بلا فائدة، يتم استرجاعها أو افتدائها، عندما يسدد المقترض دينه، مع هامش ربح يعادل الفائدة. مع ذلك تظل الأشياء المرهونة، مبدئيًا، مراقبة بصرامة: "كل رجل سوف يستعيد الأشياء التى يملكها وسوف يعود كل شخص إلى أسرته" (سفر اللاويين ٢٥، ٢٣ – ٣١). كل الممتلكات يمكن أن تترك رهنًا دون تحديد لفترة زمنية، عدا المساكن، التى لا يمكن أن يستردها المقترض إلا بعد مُهلَة سنة، بغرض السماح للمقرض بالإقامة فيها هو وعائلته.

أما خارج الجماعة، التى تتطلب التضامن والتراحم، فالفائدة مسموح بها لأنها لا تحمل شيئًا من اللا أخلاقية: "فى الخارج، سوف يمكنك أن تقرض أو تقترض بفائدة" (سفر التثنية ٢٣، ٢٠). ما من أحد ملزَم باعتبار الأجنبى (الغير) ضعيفًا غير قادر. كما أن الأغيار أيضًا لا يواجهون كذلك خطر الترحيل.

بما أنه لم تكن هناك أى عقوبة من الناحية العملية سوى الإقصاء عن الجماعة، من الصعب جدًا النطق به، كان لابد للمحاكم أن تكرر نفس الحكم باستمرار. وكانت القروض المباشرة بفائدة كثيرة بين اليهود، كما تثبت ذلك بعض البرديات المصرية فى القرن الخامس قبل الميلاد والتى كتبتها الجالية اليهودية فى جزيرة فيلى، جزيرة فى النيل أمام أسوان.[٢٢٩] استمرت الاتهامات الموجهة ضد اليهود بازدواجية الولاء. والتى اتخذت منحى مأساويًا بشكل خاص فى عام ١٨٧ ق.م عندما اتهم أنتيخوس الرابع – إيبيفان Épiphane، الحاكم فى الشرق، يهود ما بين النهرين وفلسطين بأنهم قد انتقلوا إلى صف البطالة والرومان. فألغى منشور آنيخوس الثالث الذى اعترف فيه باليهودية، فى محاولة أولى منه لاستئصال اليهودية، حظر ممارستها فى كل أنحاء يهودا، نصب تمثالًا لزيوس Zeus،(*) فوق مذبح المعبد، وعاقب الختان بالإعدام، أجبر اليهود على المشاركة فى الاحتفالات والأعياد الإغريقية وأعاد تعميد أورشليم تحت اسم أنطاكية Antioche.

(*) كبير الآلهة عند الإغريق. (المترجم – عاصم عبد ربه)

لم يكن بقاء اليهودية فى يهودا مهددًا بهذه الصورة مطلقًا. سوف يتوجه اليهود حينها إلى روما حتى تنقذهم. وهذا ما سوف يكون خسارتهم.

تحت سلطة روما

إليكم الآن قصة زوال الهوية الدولية الأخيرة للعبرانيين. التى سوف تشكل كل ما يلى من مصير اليهود. ومن ثم، تقلب أوضاع علاقات اليهود مع العالم.

فى عام ١٦٩ ق.م، حاول أنتيخوس الرابع إخماد التمرد فى يهودا والذى قاده الكاهن الأعظم ياسون **jason**، استولى على كنوز المعبد فى نفس الوقت، أحرق الكتب اليهودية، وأمر بأغرقة(*) المدينة بالقوة . اعترض دانيال **Daniel**؛ هاجر كثير من اليهود إلى مصر، حيث يسعى البطالمة إلى اجتذابهم. فى عام ١٦٧ ق.م، قام أحد الكهان ماتاتياس الأسمونى **Matthatias L'asmonéen** وابنه يهودا مكابى **judas Maccabée** بالانضمام إلى رجال المقاومة، أحرقوا القرى اليونانية، قام بختان الأطفال الذكور فيها بالقوة[١٠١]. فى ديسمبر عام ١٦٤ ق.م، قام المتمردون بالاستيلاء على أورشليم وتدشين المعبد من جديد باعتباره مكانًا مقدسًا لليهود، بزيت معجز، ما يحيى منذ ذلك الوقت ذكرى عيد هانوكا **Hanoukka**. كانت العودة إلى السلطة تأتى عبر عودة النور، عودة الروح.

فى عام ١٦١ ق.م، استغل مكابى **Maccabée** هذا النجاح الأول ليعلن إنشاء دولة يهودية مستقلة[١٠٢]. أرسل اثنين من ممثليه إلى روما لمحاولة الحصول على حماية مجلس الشيوخ. غير أنه قد مات فى عام ١٦٠ ق.م فى ساحة المعركة، فى شمال أورشليم، فى مواجهة الجيوش المقدونية والسيليوسيدية. خلفه أخوه جونتان **jonathan**، وبعد أن قام بعقد اتفاق مع القواد السيلوسيديين، اعتمد على الفريسيين وأعلن نفسه كاهنًا أعظم للمعبد مع ما يتبع المنصب من موارد؛ فى عام ١٥٠ ق.م، اعترف به رئيسًا للأمة اليهودية، بل

(*) صبغها بالصبغة الإغريقية. (المترجم – عاصم)

ورئيسًا عسكريًا للجيوش السيليوسيدية فى الشرق – الجنوب التى سمحت له بإدارة شئون فلسطين، ذلك لأنها كانت مشغولة بأمور أخرى.

فى الواقع، لقد ظهرت قوة جديدة فى الشرق: البارثيون، القادمون من آسيا الصغرى. لقد هزم قائدهم ميتريداتس Mithridate إغريقيي سيليوسيدس ودخل بابل محررًا، دون أن يغير أوضاع الطوائف التى تعيش فيها. أما فلسطين فقد ظلت تحت حكم السيليوسيديين.

فى ١٤٣ ق.م، خلف سيمون (سمعان) Simon، أخو مكابى Maccabée الثالث، جونتان الذى تم اغتياله. رفض سيمون دفع الضرائب للحاكم الإغريقى الجديد، ديمتريوس الأول Démétrios وأصدر مرسومًا باستقلال يهودا فعليًا ، مؤسسًا حكم الأسرة الأسمونية. فى ١٤١ ق.م، أرسل مرة أخرى بعض السفراء إلى روما لمحاولة الوصول إلى تحالف مع الرومان ضد السيليوسيديين المنهكين، استدعى مجلسًا كبيرًا، سنهيدران، اعترف له بلقب "كاهن أعظم، مخطط حربى وملك اليهود"، "أمير وكاهن أعظم إلى الأبد. ضرب عملات معدنية تزينها صور المنتجات الزراعية السبعة الأهم فى البلاد (القمح، الشعير، العنب، التين، الرمان، الزيتون، والتمر)(٣٤)، ووزع بين أشقائه مناصب النفوذ السياسية، الاقتصادية، الدينية؛ ولأنهم كانوا جميعًا من المعينين مدى الحياة، فقد سيطر هؤلاء بذلك على الجيش، رجال الدين والمحاكم والموارد المالية للدولة. لقد عادت الملكية. بل إنها صارت وراثية: بعد سيمون خلفه ابنه البكر ، Aristoble آريستوبول الأول، الذى كان أول من حاز على لقب "ملك" من المكابيين، الأسرة الأسمونية. بعد عام استولى على العرش أخوه يهودا آريستوبول Judas Aristobule، ابن Hyrcan هيركان، الذى كان ابن سيمون الثالث، واستمر حكمه ربع قرن، حتى عام ٧٦ ق.م، حطم فيها من كان يقاومه من فريسيين وفتح السامرة. دعم الصدوقيون الأسرة الأسمونية التى تقاوم الأيسنيين.

أدت الأزمة القائمة بين الطوائف اليهودية إلى تحديد طبيعة الكتب المقدسة التى يجب الأخذ بها. بالنسبة للصدوقيين، ينحصر ذلك فى أسفار موسى الخمسة الأولى، وبالنسبة للفريسيين، فالأمر يتعدى إلى كل الأسفار التوراتية. أما بالنسبة للأيسنيين، فالأمر يتعلق بكل الكتب، لكنهم يفسرونها وفقًا لمقتضيات النقاء والزهد.

هنا تقع فترة معقدة بصورة خاصة فى حياة الأسرة الحاكمة سوف تؤدى إلى ميلاد المسيحية وإلى نهاية آخر دولة يهودية.

بعد موت والدتهما أليكسندرا Alexandra، تنازع ابناها هيركان الثانى Hyrcan II وأرستوبولس الثانى Aristobuleth II ، على الحكم. إلى أن أدخل الحاكم اليهودى لمقاطعة إيدوميه (أحد أقاليم البلاد)، كان يدعى أنتيباتير Antipater، الرومان فى اللعبة باقتراحه على الشقيقين العدوين الخضوع لتحكيم بومبي Pompée، قائد القوات الرومانية المنتشرة فى شرق البحر الأبيض المتوسط.

كان بومبى قد تلقى لتوه من مجلس الشيوخ تعليمات بإنجاز مهمة مزدوجة: إحلال السلام فى البحار، حيث يهدد القراصنة اليونانيون التجارة، وأن يشن الحرب على ميتراداتس السادس Mithridate VI، الملك البارثى الذى قام لتوه بقتل كثير من الرومان فى مدينة إفسوس Ephése، فى آسيا الصغرى. قبل بومبي بمساعدة أنتباتير، الذى يعتقد أنه يحتاج إليه؛ فى معركته التالية. انتصر على باقى الجيوش السيليوسيدية (السلوقية)، واقتحم أورشليم فى ٦٣ ق.م، دخل إلى قدس الأقداس وأصدر تحكيمه لصالح هيركان الثانى، الذى قلص مع ذلك سلطاته وحدود ملكه. أما آريستوبول الثانى فقد أرسله إلى روما سجينًا. قُتِلَ فى المعركة اثنا عشر ألفًا من اليهود. وقد كان ذلك فى واقع الأمر، برغم المظاهر، نهاية الأسرة الأسمونية الحاكمة. بلا رغبة منه، معتقدًا أنه يعيد سلطة يهودية، كان أنتباتير فى الحقيقة قد عمل على تقليصها لصالح روما.

منذ ذلك الوقت فصاعدًا كان اليهود مجبرين على القبول بالخضوع للإمبراطورية؛ قام جباة ضرائبهم برفع معدلاتها، التى يضيفون إليها دائمًا العُشر من أجل المعبد وضرائب الفقراء. لم يترجم التحالف الرومانى إذًا إلا بتغيير الحاكم وزيادة فى الأعباء والخضوع.

مرحلة معروفة جيدًا أدت آنذاك إلى سقوط فلسطين أكثر تحت السيطرة الرومانية. فى عام ٦١ ق.م، كان بومبي الذى انتابه الضعف، مضطرًا إلى تقاسم السلطة مع قائد الجيوش الغربية، يوليوس قيصر jules César ومع رجل سياسى واسع الثراء، كراسيوس Crassus، الذى آل إليه حكم الشرق. كان آريستوبول الثانى قد أطلق سراحه

حينذاك وحاول استعادة السلطة من أخيه. انهزم الرجل، وأُرسل مرة أخرى إلى روما كأسير حرب. متحالفًا مع بومبي، أعاد هيركان الثانى إعمار أورشليم بينما أطلق يوليوس قيصر فى روما سراح اليهود الذين تم بيعهم كعبيد. فى عام ٥٤ ق.م، عند مرور قيصر بأورشليم، فى طريقه لمحاربة البارثيين، اقتحم المعبد واستولى على كل الهبات التى حملها يهود الشتات وكذلك على ٢٠٠ تالون ذهبى، لم يكن بومبي قد مسها؛ كما طالب فضلًا عن ذلك السكان بتقديم ٨٠٠ تالون إضافية، أى ما يساوى فى مجموعه أربعة وثلاثون طنًا من الذهب.

عندما اغتيل كراسيوس فى عام ٥٢ ق.م، صوّت مجلس الشيوخ بمنح بومبي السلطة كاملة. لم يوافق يوليوس قيصر، الذى كان وقتها فى حملة فى بلاد الغال، أن يُجَردَ من هذا الجزء من سلطاته على هذا النحو؛ اجتاز نهر الروبيكونى **Rubicon** واحتّل روما، بينما كان بومبي مع الصفوة فى مجلس الشيوخ يهربون باتجاه اليونان. ولأن أنتيباتير وهيركان الثانى كانا قد استوليا على حصة بومبي، فقد أطلق يوليوس قيصر سراح آريستوبول الثانى وأرسله لفتح يهودا ضد أخيه. وللمرة الثالثة تفشل المحاولة.

انهزم بومبي أمام قيصر فى فارسلا **Pharsale** فى ٩ أغسطس عام ٤٨ ق.م، غير هيركان الثانى وأنتيباتير من معسكرهما آنذاك وانضما إلى قيصر، الذى تخلى عن آريستوبول الثانى. الخيانة فى كل مكان. فى كل الجيوش تواجد جنود من اليهود. كان واحد منهم رئيسًا للشرطة فى مصر. آخر على رأس القيادة فى جيوش كليوباترا **Cléopâtre**. قدم بعض المرتزقة اليهود لمساعدة قيصر فى التغلب على المصريين. أنتيباتير الذى كوفئ على خيانته، صار مواطنًا رومانيًا وعينه قيصر مديرًا (محافظًا) **Puocurator** ليهودا بأكملها. التجأ بومبي إلى مصر، حيث قتل.

عام ٤٤ ق.م، لم ينس قيصر، الذى أصبح ديكتاتورًا، المساعدة التى قدمها له يهود يهودا فى صراعه مع بومبي: سمح لهم بوضع مميز دون أن يمنحهم مع ذلك الاستقلال. أذن لهم بممارسة طقوس اليهودية، كما سمح بعبادة إيزيس **isis** أو ميثرا **Mithra**. كما هو الحال فى كل مرة، كانت السيادة، حتى النسبية، ترافقها ميزات ضرائبية:« نحن سيوس

سيزار (قيصر)، القنصل للمرة الخامسة، نأمر لاعتبارات الشرف، مقتضى الصداقة وكذلك من أجل صالح مجلس الشيوخ وصالح الشعب الرومانى وتفوقه، بأن يصير هيركان، ابن إليكسندرا، وأولاده كهنة عظامًا وملوكًا كهانًا لأورشليم وللأمة اليهودية؛ أن يتم تخفيض الضرائب بالنسبة لليهود فى السنة الثانية؛ وأن يدفع كل سكان أورشليم جزية فى كل عام، ما عدا فى السنة السابعة "السبتية" لأنهم لا يزرعون فيها ولا يجنون ثمار الأشجار؛ وإنهم سوف يدفعون مرة كل عامين ضريبة تساوى ربع الحصاد، وكذلك العشور إلى هيركان وإلى أولاده كما كان يدفعها سابقوهم...(١٧٧)"

اغتيل قيصر فى نفس العام واستولى أنطونيو Antoine على الحكم فى روما. كاسيوس Cassius، أحد المشاركين فى اغتياله استأثر بقيادة الحاميات فى سورية. أما أنتيباتير، نفسه، الذى تمت الوشاية به باعتباره حليفًا للرومان، فقد قتل فى عام ٤٢ ق.م، على يد وطنيين يهود.

فى أورشليم، حل أنتيجون Antigons محل عمه هيركان الثانى، إلى أن عهد مجلس الشيوخ فى عام ٣٧ ق.م، بالحكم إلى أسرة المدير التى كثيرا ما ساعدت روما: تم إعلان أحد ولدى أنتيباتير، هيرودس Herode، ملكًا لليهود. اما أنتيجون فقد ضرب عنقه.

تجلى هيرودس محافظًا قاسيًا ومحاربًا ممتازًا. تصالح مع الأيسينيين وقاوم الصدوقيين الأشداء، مُعَينًا بنفسه الكهنة العظام وفق ما يروقه. لم يعد أى منصب يوّرث. ومن أجل إعادة بناء البلاد، أثقل كاهل الشعب بالضرائب.

فى عام ٢٧ ق.م، تولى أوجست (أغسطس) Auguste السلطة فى روما. تبعًا لبعض التقديرات، كان عدد اليهود فى ذلك الوقت ستة ملايين فى كل الأقاليم التى تتولى روما السلطة فيها، أى حوالى عشرة بالمائة من مجموع السكان. كانوا موجودين فى مصر، فى تيساليا Thessalie، فى آسيا، فى إسبانيا، فى إفريقيا (الجزائر) ، فى مدينة ليون، فى ترافيس Tréves؛ فى روما كان عددهم خمسين ألفًا، وكان هناك خمسة عشر كنيسًا يهوديًا: حرفيون وتجار، كهنة وسماسرة. فى عام ٢٠ ق.م، حاول هيرودس، المكروه كأبيه من الشعب، أن يستميل الشعب عبر تمويل أعمال تجميل وتزيين المعبد. زاد مساحة

الساحة إلى الضعف، ساعيًا إلى إعادة أبهته فى عهد سليمان. عاد قدس الأقداس مرة أخرى ليصبح مركزًا للقرابين والعطايا وللحج عند اليهود. فى هذا العام استقبل وحده ، بمناسبة عيد الفصح، - يقول الكاتب اليهودى الحاصل على الجنسية الرومانية، فلافيوس جوزيف[٢١٣] Flavius joséphe- ثلاثة ملايين حاج جاءوا من كل أنحاء العالم، أى أكثر من ثلث المؤمنين باليهودية فى العالم ! مبالغة، دون أدنى شك. اقتصاد المعبد يعمل بأقصى طاقته. تجار، مقرضون، أدباء، - مهن غالبًا ما يمارسها الشخص بنفسه - ينتقلون من المعبد إلى البحر ثم إلى بلاد الشتات، حاملين العطايا، البضائع، أسئلة لاهوتية، إجابات من الكهنة والحكماء، تعهدات بقروض، عطايا وقرابين للمعبد.

يطالب الأبسنيون بإصرار متزايد أن تكون طريقة حياة الكهنة أكثر بساطة، وأن تكون طريقة تسيير المعبد أقل ترفًا، هبات أقل، أعمال كبرى أقل، تضامن أكثر مع الفقراء. يرى الكثير فى اضطرابات المعبد، نبوءة عن مقدم المسيح الوشيك.

كان هيرودس متواجدًا بصورة كلية. تدخل بنفسه عندما وقع الواحد وثلاثون زلزالًا التى أثارت قلق واضطراب نفوس الناس وكذلك عند حدوث المجاعات التى فاقمت من حدة الثورات وزادتها عددًا. قام المدعو Jean، بغمس كل من حضر إليه فى مياه نهر الأردن بفترة قصيرة ودعاهم إلى التوبة والندم على ما فعلوه إلى أن ألقى القبض عليه وإعدامه. فى العام الرابع قبل الميلاد ولد فى مدينة بيت لحم صبى كان يسمى يهوشع Yehoshuha أو يوشع بن نون Joshua والذى سوف يشب فى الناصرة.

فى تلك السنة مات هيرودس. فى روما رفض أغسطس أن يمنح ابنه Herode Antipas هيرودس أنتيباس لقب الملك ، واكتفى بتسميته "حامى رُبع المملكة". بعد ذلك بعامين، قرر الإمبراطور أن يقهر النخبة اليهودية، التى قام بنفيها.. إلى أبعد مكان ممكن — ماعدا حاكم الربع المملكة — إلى فيينا، إلى بلاد الغال عهد إلى المحافظين الرومانيين بإدارة شئون يهودا، وألحقها بإقليم سورية ووضع المعبد تحت حماية القانون الروماني.

للتوافق مع البيئة الجديدة، لطّفت المحاكم الربانية (محاكم الحاخامات) من أحكامها. على سبيل المثال، فكما كان قانون الضرائب الرومانى يقتضى سداد الضرائب سنويًا،

تخلت المحاكم عن مبدأ إراحة الأرض وعن إلغاء الديون مرة كل سبع سنوات، فى وقت سنة الغفران. ولتنفيذ ذلك، بالاتفاق مع السلطات الدينية، خاصة مع الحاخام الأكبر، الحاخام هليل Rabbi Hillel، عدلت شروط العقود القائمة بالفعل التى كانت تتحسب من ذلك باللجوء إلى إجراء إغريقى، يسمح بتغيير شروط العقد بواسطة إعلان بسيط يتم شهره أمام إحدى المحاكم.

لم يعد الأغنياء يهتمون كثيرًا بأمور الديانة. لم يمول أى منهم عمليات بناء المعابد الكثيرة التى شيدت فى تلك الفترة فى مملكة يهودا بواسطة جماعات المزارعين والحرفيين. من جهة أخرى زاد الغضب الشعبى وانتشر ضد الكهنة (الذين ينفقون)، وضد الأغنياء (المبذرين)، ضد المحاكم (التى تتغاضى)، ضد الرومانيين (المضطهدين)، ضد أصحاب المزارع المستغلين).

فى عام ١٤ الميلادى، قام الإمبراطور الجديد تيبريوس – طبريوس –Tibére بتعيين المدعو Valerius Gratius– فاليريوس جراتيوس، واليًا رومانيا على يهودا؛ عين هذا الوالى، ثم أقال ثلاثة من كبار الكهنة بالتتابع قبل أن يحدد اختياره، عام ١٨، على أكثرهم طاعة، يوسف كايفى joseph Caïphe، الذى قبل – إهانة قصوى ! – أن يأتى ليطلب ملابسه الكهنوتية من الوالى قبل كل احتفال دينى. فى عام ٢١، أسس هيرودس أنتيباس عاصمة جديدة، Tibéiad طبريا، التى كانت أكثر فخامة من أورشليم، والتى رفض اليهود الأتقياء الذهاب إليها، لأنها أقيمت على أرض مقبرة. فى عام ٢٦، حل بونتيوس بيلاتوس Pontius Pilatus محل جراتيوس، وتمتع بونتيوس بكل السلطات: السياسية، الضريبية، الشرطية، القضائية. تمرد بعض اليهود عندما قام بنصب تماثيل لقيصر فى أورشليم وعندما أمر خزينة المعبد بتمويل حفر قناة للماء. كان يوسف كايفى، عن نفسه، يخضع لكل طلبات الرومانيين.

تزايد عدد الجماعات والطوائف[٣٩٥]. تزايد انتظار المسيح لهفة و حرارة . من بين آخرين كثر، يوشع Joshua، يسوع الناصرة jesus denazareth، ربانى، يبشر وينادى بحب القادم وبطلان الدنيا و كنوزها . مستعيدًا ما جاء فى التوراة، من موعظة الجبل إلى

"جعل السبت من أجل الإنسان"، من الدفاع عن مبدأ اللاعنف إلى الأمر بأن "تحب القادم، كما تحب نفسك"، قال إنه يستمد سلطته من الله، طرد التجار من باحة المعبد الذى أعلن عن هدمه لاحقًا. رغبت السلطات الرومانية ومجلس السنهيدران فى إسكاته، مثل كل من يتحدث بصوت عال.أعدم مسيح الناصرة على يد الرومان فى أحد أيام عيد الفصح ومر موته تقريبًا دون أن يستلفت الأنظار، إلى أن أعلن حواريوه بعثه، بعد مرور ثلاثة أيام.

صدرت هذه المناداة أولًا عن بطرس Pierre وكررها يعقوب Jacques على كل اليهود كما فعل أصحاب آخرون لعيسى / يسوع، كلهم من اليهود، الحواريين. بعد أن آمن شاؤول Shaül، الذى صار اسمه بولس Paul، أعلن فى كل المعابد اليهودية المتناثرة فى حوض البحر الأبيض المتوسط مقدم السيد المسيح. لم يكن الرومان يرون فيهم حتى ذلك الوقت إلا جماعة أو طائفة دينية بين طوائف أخرى.

فضلًا عن ذلك، ظهرت جماعات يهودية أخرى فى نفس الفترة، منهم المتعصبون leszélotes، المؤيدون للصراع المسلح ضد الرومان.

فى غضون ذلك، كانت كراهية اليهود تتصاعد فى روما. كونهم متهمين بأنهم مختلفون، بأنهم لا يعبدون آلهة الرومان البيتية، بأنهم يجتذبون إليهم كثيرا من كبار السادة والنبلاء. قام تيبريوس Tibére، الذى خلف أغسطس بمنع ممارسة الشريعة اليهودية فى كل شبه الجزيرة الإيطالية وكان ذلك فى عام ١٤ الميلادى.

عام ٣٧، قام الإمبراطور كاليجولا Caligula، الذى لم تدم ولايته سوى أربع سنوات، بتعيين هيرودس أجريبا الثانى Herode Agrippall، ملكًا على يهودا، وعزل الوالى الرومانى ليهودا بونص بيلاتى Ponce Pilate، وطلب من النائب فى سورية، بيرتونى Pertone أن يقيم له (لكاليجولا) تمثالًا فى معبد أورشليم. ماطل بيرتونى فى تنفيذ الأمر، شاعرًا بأن استفزازًا كهذا يخاطر بإشعال حركة تمرد حقيقية. مشتعلًا بالغضب، دبر كاليجولا لاعتداءات يونانية ضد يهود الإسكندرية، الطائفة اليهودية الأهم فى الإمبراطورية الرومانية، الأكثر ثراءً ونفوذًا عن كل الجماعات اليهودية فى يهودا، متخوفين من اتساع المذابح، أسرع مسئولو هذه الطائفة بإرسال مبعوث إلى روما للتفاوض مع الإمبراطور من

أجل إحلال السلام. هذا الرجل، المعروف باسم فيلون Philon كان مثقفًا رفيعًا، فيلسوفًا كبيرًا في نفس الوقت الذى كان فيه أحد أغنى أغنياء تجار المدينة؛ كان قد موّل شراء الأبواب المصنوعة من الذهب ومن الفضة التى تزين المدخل الرئيسى لمعبد أورشليم. امتدت المفاوضات. شاعرين بأن روما تحمى ظهورهم، صار اليونانيون مصدر خطر يتزايد أكثر فأكثر. توجس يهود الإسكندرية حينها من وقوع الأسوأ. غير أن كاليجولا قد مات فى عام ٤١، قبل أن يبدأ التنفيذ. شاعرين بالخلاص والراحة، ثأر يهود الإسكندرية من الخوف الذى عاشوه بإلقاء اللوم على اليونانيين.

انتشرت مقولات عيسى الناصرى. البعض، من بين آخر الشهود على موته، يتمنون الآن أن يعلنوا "الخبر السعيد" إلى الآخرين من غير اليهود. بعد مناقشات مريرة قبل بولس القيام بالمهمة. وتساءل الناس آنذاك إن كان من الواجب أن يفرض على الوثنيين الذين اعتنقوا الديانة الجديدة نفس القواعد التى يخضع لها اليهود. كان من المناسب أن يظهروا أقل تشددًا معهم: لا ختان، ممنوعات غذائية أقل بكثير. فى عام ٤١ الميلادى، عندما وصل المسيحيون الأوائل – كانوا كلهم تقريبًا من اليهود – إلى روما حيث ارتدى كلوديوس Claude لتوه الرداء الإمبراطورى القرمزى ، عوملوا أيضًا معاملة اليهود الآخرين؛ تم إعفاؤهم من عبادة آلهة سكان روما وأوجوست، شريطة ألا يُخْلُوا بالنظام العام[٣٦٨]. فى كتاب حياة القياصرة الاثنى عشر، يقول سيوتونى Suetone: إن "الإمبراطور كلود قام بإقصاء اليهود عن روما، لأنهم تحت تحريض شخص ما، يدعى كريستوس Christos، لم يتوقفوا عن التمرد والهياج[٣٣٥].

فى أنطاكية، بدأ تجنب إطلاق اسم كريستيانو «Chrisitianoi » على تلاميذ المسيح، والذى يحيل إلى لفظ إغريقى، خريستوس Christos يشير إلى المسيح.

فى نفس الوقت، اعترف كلوديوس لهيرودس أجريبال الأول حفيد هيرودس، بلقب ملك اليهود. لم تعد فلسطين إقليمًا من أقاليم الإمبراطورية الرومانية بصورة كاملة. عزل الملك الجديد كاييفى Caïphe واستبدله بكاهن أعظم آخر، أكثر تحررًا، رد إليه الوالى الرومانى ملابسه الكهنوتية عند مغادرته البلاد. لكن ذلك لم يدم طويلًا:

فى عام ٤٤، وعندما مات هيرودس أجريبا، ضم كلوديوس من جديد معظم المملكة إلى الإمبراطورية باعتبارها إقليمًا من أقاليمها يتولى إدارته والٍ رومانى. وترك لابن هيرودس أجريبا الأول، أجريبا الثانى، مقاطعات مختلفة من أراضى سوريا وكذلك منحه لقب المفتش العام للمعبد فى أورشليم، وأولاه سلطة تعيين الكاهن الأعظم والتحكم فى بعض موارد المعبد.

بدا الولاة الرومانيون متعسفين أكثر فأكثر. فى عام ٥٥، رد نيرون **Néron**، الذى خلف كلوديوس جزءًا صغيرًا من الجليل، كانت من ضمنه مدينة طبرية **Tiberiade**. لم يكن ذلك كافيًا لتهدئة حماس ورغبة الاستقلال لجماعة من الثوار، المتعصبين **Les Zélotes**، بقيادة المدعو يهودا **Judas** الجليلى الذى كان يدعو إلى الحرب الشاملة ضد الرومان. لم يشارك المسيحيون فى ذلك. نيرون، الذى انتابه القلق بسبب هذه الثورات وبسبب تبشير اليهود بعقيدتهم حتى وضمن ذلك داخل عائلته ذاتها (يدور الهمس بأن بوبيه **Poppée** زوجته، اعتنقت الديانة اليهودية)، قام (نيرون) بالقضاء على اليهود — من ضمنهم أعضاء الطائفة المسيحية — فى كل مكان داخل الإمبراطورية بعد احتراق عاصمته، حيث اتهمهم بالمسئولية عنه.

تدمير المعبد (الهيكل)

بدأت الأزمة الأخيرة بسبب المال مرة أخرى: فى عام ٦٦ تحت حكومة الوالى الرومانى جسيوس فلوريوس **Gessius Florus**، اختلس أحد الجنود الرومان سبعة عشر تالونا ذهبيًا من خزينة المعبد. مبلغ زهيد مقارنة بالثروات المودعة فيها. قام الشعب اليهودى، تهكمًا، بحملة جمع تبرعات لصالح الوالى الرومانى، الذى رد على ذلك بإرسال قواته. هكذا بدأت حركة تمرد سرعان ما تحولت إلى صراع من أجل الاستقلال. استولت جماعة من الزيلوت (المتعصبين)، يقودها مناحم **Menahem**، ابن يهودا الجليلى، على مسادا **Massada** وقضى على الحامية الرومانية فيها. تجاوزت الأحداث الملك أجريبا الثانى. رفض المسيحيون الانضمام إلى الثوار اليهود وظلوا على الحياد.

رهيبًا، كان القمع ضد كل اليهود فى كل أنحاء الإمبراطورية، أول مذابح جماعية فى تاريخ اليهود. جالية أنطاكية تم إبادتها كاملة؛ قتل ثلاثة وخمسون ألفًا من اليهود فى الإسكندرية، التى عاشوا فيها سعداء لمدى ثلاثة قرون. حاصر الرومان أورشليم، التى لم يتوصل القواد اليهود فيها إلى إستراتيجية من أجل فك الحصار. أرسل نيرون فيسباسيان Vespasien مع سبعين ألف رجل لإخماد التمرد.

بعد موت نيرون، فى روما، عام ٦٨ الميلادى، قتل بالتتابع ثلاثة من الأباطرة وهم جالبا Galba، أوتون Othon وفيتلّيوس Vitellius. صار فيسباسيان، الذى كان موجودًا آنذاك فى أورشليم، إمبراطورًا وكان ذلك عام ٦٩، وترك ابنه تيتوس Titus لينهى الحرب فى يهودا. حاصر القائد الشاب أورشليم أثناء عيد الفصح اليهودى واستولى على المعبد الذى كان يعتزم وضعه تحت حمايته. عندما تسبب مشعل أحد الجنود فى نشوب حريق تحت سقيفة بجوار قدس الأقداس، فى ٢٣ يوليو ٦٩، حاول تيتوس إخماد الحريق: وعد برينيس Perénice، ابنة هيرودس أجريبا الأول التى كان مغرمًا بها، بأن يقوم بحماية المعبد. لكن فى يوم ٩ آب – الموافق ٢٩ أغسطس عام ٧٠ – وهو، تبعًا لما تقول الأسطورة، يوم إحياء ذكرى تدمير المعبد الأول السنوية، تم تدمير المعبد الثانى ونهب العساكر الرومان الأجلاف ثرواته. وفقًا لتعليق لاحق (سوكا ٥٥ أ) (Souccah ٥٥a) فإن زوال المعبد كان كذلك مأساة لغير اليهود أيضًا لأن العبرانيين كانوا يصلون من أجلهم: "إنهم لا يعرفون قيمة ما فقدوه".

صمد الجزء العلوى من المدينة، الذى يشرف عليه سيمون (سمعان) بارجيورا Simon Bargiora، لمدة شهر آخر. بعد هزيمته، تراوح عدد من ماتوا ما بين ستمائة ألف إلى مليون يهودى من بين ثلاثة ملايين كانوا يعيشون فى يهودا والسامرة؛ انتقل الرجال الأصحاء إلى روما كعبيد أو مصارعين. رافقت كنوز المعبد الأخيرة – الشمعدان ذو السبعة أذرع، المائدة الذهبية، لفائف التوراة – تيتوس فى عودته الظافرة. تعرض قائد التمرد سيمون بارجيورا للجلد طوال الرحلة، وأعدم عند الوصول إلى روما. تم صك العديد من العملات النقدية احتفالاً بالحدث. سقطت مدينة هيروديوم Herodium ومدينة ماكور Machaerus عام ٧١؛ مدينة مسادا Massada فى أبريل عام ٧٣. أما حاميتها، فبعد أن صمدت قرابة

الثلاث سنوات، انتحر رجالها انتحارًا جماعيًا. وأصبحت قيصرية Cesarée عاصمة البلاد المحتلة. صَرَح المحافظ للحكيم الأعظم الباقى على قيد الحياة، أحد تلامذة هليل Hillel، يوهنان بن زكاى Yohanan ben Zakkaï، حاخام وإسكافى كان قد تمكن من الهروب من أورشليم المحاصرة داخل نعش مغلق، بإعادة إنشاء مدرسة للحاخامات، محكمة عليا، سنهيدران، فى يافنيه Yavneh، بالقرب من قيصرية.

قدر عدد اليهود فى العالم فى ذلك الوقت بحوالى سبعة ملايين نسمة(٣٥): مليونان فى فلسطين، ثلاثة ملايين فى باقى أنحاء الإمبراطورية الرومانية، مليون فى المملكة البارثية والمليون الأخير فى أماكن أخرى. كانت روما تفرض على الملايين الخمسة الواقعين آنذاك تحت حمايتها أن يسددوا لها المبالغ التى كان يتم جمعها حتى الآن من أجل صيانة المعبد. هكذا ولد صندوق اليهودية، الذى أعفى منه المسيحيون لأنهم لم يشاركوا فى التمرد: بالنسبة لروما كان التمييز بين اليهود والمسيحيين فى المقام الأول ضرائبيًا.

واصل بعض المتعصبين اليهود النضال فى مصر وفى سيرنايك Cyrenaïque. بلا طائل. بدا أن اليهود لم يعد لهم مصير آخر سوى الانصهار نهائيًا فى الشعوب التى يعيشون مبعثرين فى بلادهم. بدا أن دورهم العقائدى، السياسى والاقتصادى قد انتهى. سوف تأخذ ديانة توحيدية أخرى من اليهودية.

إن التكوين التاريخى، مثل التكوين التوراتى، ينتهى بالمنفى: الإمبراطورية الرومانية، مصر جديدة.

الـبـاب الثانى

سفـــر الخـروج

(٧٠ - ١٠٩٦)

١ - مع روما وبدون الهيكل: أول شبكة من الرحل العابرين.

٢ - مسيحيون ويهود أمام المال.

٣ - بابل، قلب العالم.

٤ - العقيدة الاقتصادية الجديدة: التلمود والمال.

٥ - بين روما وبيزنطة: فرصة إسرائيل الجديدة.

٦ - سعداء كما فى بلاد الإسلام.

٧ - أول المصرفيين المسيحيين.

٨ - التجار اليهود يمرون إلى الغرب.

بينما بدأ عصر جديد مع انتصار الغرب الرومانى، ها هو الشعب اليهودى مطروحًا على الطرقات من جديد. إن مصيره، هذه المرة، قد تحدد بصورة نهائية: أن يتلاشى، كما حدث من قبل لشعوب أخرى طردت من أراضيها أو خضعت لمحتلين، مثل الهكسوس أو السيكثيين **les Scythes** أو كما سيفعله بعد ذلك المديون **les médes**، الغاليون، القوطيون، الفاندال(*)، الاندماج مع فاتحيهم دون أن يتركوا أثرًا لملكهم، عقائدهم ولغاتهم.

على العكس منهم، سوف ينجح اليهود مع ذلك فى تحقيق المستحيل: البقاء على قيد الحياة فى أماكن تتخلل الإمبراطوريات والممالك، حافظوا فيها على الجوهرى من ثقافتهم، بتوفيقه دومًا وفق مقتضيات المنافى الجديدة. من التدمير الثانى للهيكل وحتى بداية الحروب الصيليبية، سوف يتخطون كل التقلبات الاقتصادية، العقائدية والسياسية للألفية المسيحية الأولى. فى إمبراطوريات الشرق وقوى الغرب الأولى، تحت سيطرة الأنظمة الملكية، الأمراء، الأساقفة، سيظل وضعهم تقريبًا فى كل مكان مُحْتَمَلًا إلى حد ما، ما عدا فى الإمبراطورية الرومانية.

قدر مذهل لشعب صغير يتألف من مزارعين، من تجار، من حرفيين، من باعة، من ممولين ومن أدباء، انخرط فى أهم أحداث العالم. شعب من العابرين، شارك فى المقام الأول فى مسيرة التحول التدريجى من النظام الإمبراطورى إلى النظام النقدى، محافظًا على الصلات بين مختلف جماعاته المتناثرة فى المعسكرات المتحاربة المختلفة، مكونًا بذلك شبكة ثقافية وتجارية فريدة بين كل الشعوب الحضرية المستقرة فى السلم وفى الحرب.

(*) السيكثيون: قبائل بدوية رحالة تتحدر من أصول إيرانية؛ المديون: قبائل كردية قديم سكنت الأناضول؛ الغاليون: قدامى الفرنسيين؛ القوطيون: قبائل سكان ألمانيا الشرقية القدماء؛ الفاندال: قبائل من شمال أوروبا، الهكسوس: كما هو معروف قبائل من الرعاة الآسيويين احتلت مصر زمن الفراعنة، طردهم أحمس الأول. (المترجم – عاصم)

لقد انطبقت روح ألفية المنفى هذه تمامًا مع روح الفترة التى يرويها السفر الثانى من أسفار موسى الخمسة الأول يعرض سفر الخروج (أو "الأسماء"[٩٠]) فى الواقع إقامة العبرانيين الطويلة فى مصر، أحيانًا سعداء وأحرارًا، أحيانًا أخرى عبيد مجبرين على تشييد مدن، لا يسكنون فيها، إلى رحليهم نحو المجهول الواعد بالحرية. يتناول هذا الفصل، هو الآخر، إقامة فى المنفى، فى أماكن متعددة، بعضها كريم مضياف، وأماكن قمع مرعبة أخرى، يشيد اليهود المستعبدون فيها عوالم يجدون أنفسهم مطرودين منها بعد ذلك.

فى نهاية سفر الخروج، غادر اليهود صوب أرض كنعان. فى ختام هذه الألفية المسيحية الأولى، فروا نحو أوروبا. كانت الأولى مثل الأخرى أرضًا للوعد والأمل، مواطن الخيبات الآتية والقاسية.

خلال هذه الفترة الطويلة، عابرون بين شعوب متحاربة، أمَن اليهود التواصل بين إسبانيا، سوريا، مصر وبلاد فارس. متعلمون وتجار فى نفس الوقت فى الغالب، فقراء بشكل عام، محبوسون فى المهام والوظائف الأخطر والأقل شعبية، مكروهون لما يسدونه من خدمات ولعنادهم فى رفض اعتناق المسيحية، موضع ارتياب لارتباطهم بجماعاتهم المتواجدة فى بلدان معادية، أحيانًا يعيشون فى سعادة، غالبًا ما يكونون ضحايا، متضامنون فيما بينهم تقريبًا بصورة دائمة، تمكنوا من الصعود والبقاء ناقلين تراثهم الثقافى من جيل إلى جيل. معالم منسية بدونها ربما ظلت جوانب ومظاهر كثيرة من عالم اليوم عصية على الفهم.

١ - مع روما وبدون الهيكل

أول شبكة من البدو العابرين

عند سقوط أورشليم، كان السواد الأعظم من الشعب اليهودى متواجدًا داخل حدود الإمبراطورية الرومانية، ثلثه فى فلسطين وحدها، ملتقى إستراتيجى للطرق الحربية التجارية. بفقدان موارد المعبد، سيكون على اليهود أن يتعودوا حياة المنافى، فى بلادهم كما فى خارجها، وأن يقيموا أول شبكة دولية للبدو الرحل.

قوانين الاحتلال:

المال الأساسي **L'argent de Lessentiel**

بالنسبة لروما، لم تكن قضية اليهود آنذاك مسألة هامشية: واحد من كل عشرة من المقيمين فى إطار الإمبراطورية، كان لا يزال يهوديًا، ثلاثة من كل عشرة سكان فى بعض المناطق، من بينها روما، أكثر من ذلك أيضًا فى الإسكندرية، مركز للعقيدة اليهودية وللتجارة الدولية فى ذلك الوقت. يمكننا كذلك أن نصادف يهودًا فى مواضع أخرى، كما فى قرطاجة، فى محيط البحر الأبيض المتوسط وفى الأودية النهرية فى "جول" الفرنسية، فى كليرمون فيران، فى بواتيه، فى ملتقى المجارى المائية والطرق التى تسلكها الفرق الرومانية. إنهم يتبعون الجيوش كمورِّدين أو كجنود قبل أن يستقروا فى المدن و الأسواق كموظفين، أصحاب متاجر، باعة جائلين، مجهزى سفن، مقرضى أموال، مزارعى كروم. يتاجرون فى كل شيء: المنتجات الزراعية، المنسوجات، الأخشاب الثمينة، التوابل، الفراء، النبيذ، الفضة الذهب، العبيد(٣٤). أقام البعض محطات إبدال ووفادة تجارية من الشمال فى ألمانيا إلى الجنوب فى المغرب، بل صار لهم أتباع وأنصار من بين التجار الآخرين: أن تكون أو أن تصبح يهوديًا، فهذا أمر يجلب الاستفادة المزدوجة من تضامن ودعم الطائفة ومن شبكة تجارية فريدة من نوعها.

عندما انتشر خبر تدمير الهيكل الثانى، لم يكن بمقدور هذه الجماعات، التى دفعت سرًا مبالغ كانت أحيانًا طائلة لدعم المجهود الحربى ضد المحتل، إلا التأكد من هول الكارثة. فى المعركة من أجل الاستيلاء على أورشليم، سقط مليون يهودى قتيلًا (وفقًا لما يقول المؤرخ اليهودى فلافيوس جوزيف (يوسفوس) **Flavius Goséphe**، بالضبط ١٩٧٠٠٠ من سكان يهودا)(١٩١)، أى ثلث سكان البلاد، ٩٧٠٠٠ أسير تم ترحيلهم إلى روما كعبيد فقدت الأرستقراطية الصدوقية مصداقيتها تمامًا، سقطت النخبة الأسينية فى المعركة. أما المليونان اللذان بقيا على قيد الحياة والمتواجدون فى يهودا والسامرة وكانا فى الغالبية من الفريسيين فقد حاولا الصمود بقدر المستطاع فى بلد عمَّه الخراب. لقد فقد الشعب مبرر وجوده. بدا أن الرب قد تخلى عنه. لماذا يستمر إذًا فى الوثوق بشريعته وبكهنته؟ لماذا يؤمن بمن قاده إلى الشقاء أو لم يمنع ذلك على الأقل؟

أصبح كل اقتصاد يهودا (يقول الرومان الآن "فلسطين") بلا وريث. أهملت الصناعات التى تفوقت فيها يهودا - صناعة الحديد، الكتان، الزجاج، الصباغة، الحرير - قضى الاحتلال الرومانى على الطوائف اليهودية القروية، القلة النادرة من المزارع التى أبقت على نشاطها تعيش على حد الكفاف. هجر الفلاحون أراضيهم، سواء كانوا أغنياء أو فقراء، لعدم قدرتهم على تسويق منتجاتهم بأمان[٢٤]. امتلأت المدن والقرى بالعاطلين والمتسولين الذين كانوا يلعنون الرب وكهنته. استحث الحاخامات الفلاحين على ألا يبيعوا أراضيهم للأغراب بثمن بخس، وأعفوهم من كل الدراسات الدينية عبر أمثال وأقوال مأثورة مثل: "العمل فى الأرض هو انشغال دائم"[٤٠٨] أو "سينشأ الأبناء فى حرفة الآباء"[٤٠٨] وعندما انتابهم اليأس، ألزموا كل مالك عقد العزم على البيع ألا يتنازل عن أراضيه إلا إلى أحد أفراد أسرته.

ينتظر الجميع منقذًا. بالنسبة للبعض، سيكون قائدًا حربيًا هو من سوف يقودهم إلى الحرب ويحررهم من الاحتلال الرومانى. بالنسبة لآخرين، فإنه قد أتى فعلًا على صورة يسوع الجليلى - المسيح - الذى كان موته نذيرًا بكوارث لاحقة، والذى ستكون عودته فرصة للثأر. وآخرون غيرهم، مثل فلافيوس جوزيف ينتابهم القلق من كوارث ربما تولد عنها ثورة والذى نصح اليهود بالاندماج فى الإمبراطورية الرومانية، التى تُحسن معاملة الشعوب المهزومة[٢١٢].

لتفادى أن ينقلب اليهود إلى ديانة المحتل أو المسيحية، خفف الحاخامات من قيود الصلاة. كان الحاخام (الربانى) يوهنان بن زكّاى، المعارض للصراع المفتوح مع روما، يقول فى مواعظه "إن مجرد تلاوة "الشيما" صباحًا ومساءً (الشيما: الصلاة اليهودية التى تمجد وحدانية الإله)، ربما كان كافيًا لتنفيذ وصية التوراة قد نفذت"[٤٠٨]. أما مائير فقد وعد كل من يقيم فى فلسطين ويتحدث العبرية، بكل العطايا الإلهية.[٤٠٨] تم توحيد الطقوس، وضعت اللمسات الأخيرة لنصوص الكتاب المقدس. استبعدت كل الجماعات والطوائف الدينية من المعابد، ومنها الجماعات المسيحية.

لم يكن الرومان، من جهتهم، متعجلين بشكل خاص لاندماج اليهود فيهم، كان هناك بعض كتابات الهجاء تصفهم بأنهم "أوساخ"، "برابرة"، "جبناء"، "مجذومون"، "قاتلو أطفال". استنكر سنيكوس Sénéque، ومن بعده كانتيليا نوس quintilien، ثم جُوفنَالوس juvénal، في اليهودية نوعًا من الخرافة والطَيرة[٣٣٥]. يقول تاسيتوس Tacite: "كل ما هو مقدس بالنسبة لنا يراه اليهود وثنيًا، وكل ما هو حلال عندهم نراه نجسًا"[٣٣٥] ثم إن روما لم تكن ترغب أبدًا في أن يقيموا دولة. قام الإمبراطور فيسباسيانوس Vespasien وابنه تيتوس Titus، الذي كان لا يزال يمثله في أورشليم، بقطع كل الموارد المالية عنهم. بعد نهْب المعبد والاستيلاء على الضرائب التي كانت قد دفعت حتى ذلك الوقت إلى الكاهن الأعظم، منعوا من تمويل أي سلطة يهودية، سواء كانت دينية أو سياسية. كُلف والٍ خاص لجباية الضرائب المفروضة على اليهود (المحددة بما يعادل ٢ دراخمة) من كل يهودي بالغ مقيم في حدود الإمبراطورية.

بدون هيكل، لم يعد بالإمكان تقديم الأضحيات والقرابين، ولا تخزين الأموال والثروات، تنظيم المبادلات والمقايضات ولا تقديس العقود. لذلك نقل بعض الحاخامات بعض اختصاصات الهيكل إلى المعابد اليهودية الصغيرة. إنهم يقولون إن الإحسان، التضامن، الذي صار ضروريًا أكثر من أي وقت مضى، قد حل محل الذبائح والقرابين، وسوف يكون وحده الذي يضمن التكفير عن الذنوب. مع ذلك، فلم يكن من الوارد، في أي وقت، استنساخ عظمة المعبد الأكبر (الهيكل) المثالية في المعابد الصغيرة: فهذه الأخيرة كان عليها أن تظل بسيطة وثبتت موارد الحاخامات عند مبلغ كان في المتوسط أقل بعشرة أمثال مما كان يتقاضاه كهنة بني إسرائيل بالأمس القريب. هنا تبدأ اليهودية بلا هيكل، حيث حلت الصلاة مع التضحية والقربان.

عندما صار تيتوس Titus بدوره إمبراطورًا، واصل نهب ثروات يهودا، كما نهب ثروات باقي الإمبراطورية، وقام بتوزيع الأراضي على مواطنين رومان. منع إعادة بناء الهيكل وقام بالقضاء على كل من يمكن أن ينتمي إلى آل يعقوب من قريب أو بعيد، مصدر الشرعية لملوك البلاد الأصليين، وللمسيح المخلص. ترك للمحاكم الربانية أن تفصل في النزاعات التي تنشب بين اليهود، وأعيد إنشاء السنهيدران (المجمع اليهودي) في جامنيا

(بافنى) تحت إشراف يوهانان بن زكاّى، الحاخام الإسكافى، الذى كان قد تمكن من الفرار من أورشليم المحاصرة مختبئًا داخل نعش. استعاد خليفة الحاخام جامليل الثانى GamLieLII، - الذى كان الحوارى بولس، من جهة أخرى، تلميذه - لقب ناسى Nassi، الذى حمله سابقوه فى الأزمنة السعيدة. باعتباره السلطة اليهودية الوحيدة المصرّح بها من قِبلَ الرومان، أكد جامليَل على وحدة وتوافق أحكام المحاكم فيما بينها. لكنه، مانحًا لمعارضيه بعض التوازن، وعد بأن يشير فى الأحكام الصادرة إلى وجهات نظر الأقليات العقائدية.

إن تدمير الهيكل فى وقت بعينه، ربما كان من الممكن فيه توحيد كل طوائف الشتات، قد حرر هذه الطوائف فى واقع الأمر من كل وصاية. فى فلسطين كما فى خارجها، جددت الجماعات صلاتها واستعادت القواعد القديمة التى قامت فى زمن الإقامة الأولى فى بابل: العمل بجد، عدم الوثوق إلا فى ذويهم، توريث الأجيال القادمة اللغة والشريعة، طاعة أمير بلاد الاستضافة، البقاء متجمعين، التواصل بين مختلف الجماعات والطوائف اليهودية.

فى كل أنحاء الإمبراطورية، قلدت الجماعات اليهودية ما يجرى فى يهودا، نظمت نفسها على ذلك النحو، كانت تختار هيئة للإدارة تتشكل فى نفس الوقت من الأقل جهلًا والأقل فقرًا، وأحيانًا من حكماء موسرين وكذلك من أدباء ومتعلمين أثرياء، يتم الاختيار داخل الهيئة بشكل وراثى فى الغالب.

فى بعض المدن الإيطالية، التى وصل إليها منفيون من جهات الشتات الأربع، ظهرت معابد صغيرة متمايزة تبعًا لعادات وتقاليد هؤلاء وهولاء. فى روما، كان هناك سبعة معابد - من بين ثلاثة عشر معبدًا كانت المدينة تضمها آنذاك - مخصصة ليهود جاءوا من مناطق بعينها فى الإمبراطورية.

داخل كل طائفة، كان هناك مجلس من الأعيان يدير شئون المقابر، يشرف على جباية الضرائب، يقوم بمساعدة الفقراء، يفاوض من أجل افتداء العبيد اليهود. محكمة كهنوتية تنظم الأسعار بين اليهود، تحدد الأجور، تعريفة النقل، العمولات؛ خاصة فى أوقات التضخم،تقوم بالتوسط بين الموظفين وأصحاب العمل، تضع الحد الأدنى للأجور والحد

الأدنى للأسعار، تراقب الموازين والمعايير، تراجع تطبيق فكرة الحق فى العمل التى كانت جنينًا آنذاك، تقوم بتعيين شوارع خاصة لكل مهنة، تدير تعاونيات التضامن الخاصة بالحرفيين.

كانت أيضًا تدير العلاقات مع غير اليهود، أحيانًا كى تضع لها حدودًا أو تحجهما. ولهذا، عندما فرضت روما إنشاء هيئة للحرفيين، ألزمت المحاكم الدينية العبرانية اليهود بألا يصبحوا أعضاءً فيها حتى لا يكونوا مرغمين على العمل فى يوم السبت. كانت تشجع على إقامة اتحادات نقابية يهودية لتؤمن الدفاع عن مصالحهم. وفى الغالب كانت هذه المحاكم تحث على التوافق مع القوانين المحلية (وكما كان المجتمع الرومانى يؤمن فقط بالزواج الواحد، فإن كثيرًا من المحاكم الدينية اليهودية كانت تعاقب تعدد الزوجات)؛ كانت تبيح للتجار اليهود أن يبيعوا الأغذية والمشروبات غير الحلال من وجهة نظر اليهود.

بعد المذابح التى دارت فيها، عادت الإسكندرية لتكون الطائفة الأكثر ازدهارًا فى الإمبراطورية. كان ميناؤها أكبر موانئ العالم، وعاد اليهود فيها ليكونوا من بين أهم موردى ومجهزى السفن، تجرى مقايضات ريش النعام، العاج، والذهب المستخرج من أعالى النيل، ويجرى فيها تصنيع أوراق البردى، الزجاج، السجاد، المشغولات الفضية، المنسوجات، التى سوف يذكر التلمود منها فيما بعد، أربعة عشر نوعًا مختلفًا. يقول الحاخام يهودا بهذا الشأن[٢٣٩]: "من لم ير معبد الإسكندرية فإنه لم ير مجد إسرائيل أبدًا: لم يكن المؤمنون يحتلون أماكنهم مصادفة، لكن صياغ الذهب كانوا يجلسون فى جانب، وكان صناع الفضيات يجلسون فى جانب، الحدادون فى جانب... بحيث يتعرف الفقير عند دخوله المعبد مباشرة على رفاق مهنته، ربما يتدبر هؤلاء الآخرون له عملًا، ولأفراد أسرته الآخرين".

فى بعض البلاد – كما فى مصر تحديدًا، حيث يعيش الآن قرابة مليون من اليهود[٣٥] كان هناك والٍ رومانى له مرتبة الأمير، ومجلس من الشيوخ (جيروزيا) منتخب من قِبَل جماعة المؤمنين فى كل المدن، يقوم بإدارة العلاقات مع الوالى الرومانى الذى يشرف على الإقليم.

لم تراود أحد الفكرة، فى أى وقت، ولا كان بمقدوره أن يعيد الربط بين كل هذه الطوائف فى ظل سلطة مركزية. المحكمة العليا، السنهيدرين، فى فلسطين، لم تعد تمارس إلا سلطة ونفوذًا عقائديًا يُلهم المحاكم المحلية فى العالم بأسره فى أحكامها. غير أن ذلك كان يجرى بمرونة وسلاسة فائقة، لأنه إذا اتخذ قاض فى مكان ما قرارًا مخالفًا لأحكام السنهيدرين، فإن أحدًا لن يعاقبه، بل ويصدف أن تؤدى بعض الآراء المحلية إلى تحول فى آراء السنهيدرين ذاته. كل شىء يتوافق ويتلائم بلا توقف حول مبادئ أخلاقية ثابتة لا تتغير.

فى مواجهة هذا الميل الفطرى الرائع للبقاء، قابل خليفة تيتوس، دوميسيانوس Domitien، مأزقًا سوف يمر به كثيرًا كل من سيرغب فى القضاء على اليهودية: ألم يكن من الأفضل أن يتركوها لتعيش ليأخذوا منها ما تعرفه وما ربحته بدلًا من تكلف نفقات القضاء عليها؟ بعد إخماد انتفاضات التمرد الأخيرة فى يهودا، راودت دوميسيانوس فكرة أن يفرض انقلابًا عامًا فى الديانة الرسمية للإمبراطورية؛ إنه يتحدث عن إغلاق كل المعابد المحلية، وحتى طرد كل من كان سيطمع إلى البقاء يهوديًا. غير أنه قد تراجع عن ذلك عندما أوضح له مسئولو ماليته قدر الموارد التى كان سيحرم منها بدفع العبرانيين إلى الهجرة إلى البلدان المعادية لروما، حيث تتواجد جماعات كبيرة مستعدة لاستقبالهم بكل ترحاب. قرر الإمبراطور حينذاك ألا يعاود الحديث عن تغيير الديانة، لكن زيادة الضرائب المفروضة على اليهود وتطبيقها على كل من ولِد يهوديًا من الرجال، أينما وجد فى داخل حدود الإمبراطورية، ومهما كانت ديانته الحالية، ذاهبًا فى ذلك إلى فرض تحقيق وفحص جسمانى على كل من يُشك فى يهوديته. هكذا صارت اليهودية "جنسًا" ولم تعد مجرد ديانة. تَخَفّى كثير من اليهود حتى لا يدفعوا الضرائب. ازداد الوضع تدهورًا فى فلسطين، هاجر آخر الأثرياء إلى بلاد ما بين النهرين، سوف تجلب الضرائب حصيلة أقل فأقل، حتى وإن بقيت لمدة طويلة واحدة من أوائل الموارد المالية للإمبراطورية. لكى يحاول زيادة حصيلة الضرائب، قرر الإمبراطور نيرفا Nerva تغيير سياسة دوميسيان، الذى اغتيل عام ٩٠، وبذل قصارى جهده فى العمل على عودة النخبة اليهودية إلى فلسطين. أعطاهم الحق، وحدهم فقط لا غيرهم، فى ألا يقدسوا عقيدة الإمبراطور؛ شجع محاكمهم على تسوية

الخلافات التى تنشب بينهم، أعاد إلى آل داوود، المُهَاجِر أغلبهم فى بلاد البارثيين، بعض امتيازاتهم، رد إلى رئيس السنهيدرين (المجمع اليهودى)، الحاخام جامليَل الثانى، لقب البطريرك، واستثناه من الضرائب مع السماح له، ولصالحه، بجباية الضرائب التى كانت تدفع فيما مضى للمعبد، وذلك من كل الجماعات اليهودية فى الإمبراطورية، للإنفاق على حاشيته ومحكمته فى يافنى Yavneh وعلى المدارس. سمح نيرفا بحرية الانتقال لجباة هذه الضريبة عبر أنحاء الإمبراطورية، وكانوا فى الغالب شخصيات محترمة، كانوا ينتقلون من طائفة إلى أخرى، وكلاء جددا لشبكة تربط بين طوائف متعددة. من ناحية البطريرك، لم يكن هنا قصور، لا مظاهر ثراء ورفاهية، كان سقوط المعبد قد لقنهم درسًا. لا مركزية تستلفت الأنظار، لا تراكم ظاهر للثروات، لا تعاون وتنسيق واضح بين الطوائف.

بالرغم من أن ولاية نيرفا لم تستمر أكثر من عامين، فقد كان لإصلاحاته أثر هائل فى الديانة اليهودية. انتظمت، من بعده، الدورات والتبادلات الاقتصادية من جديد فى فلسطين استؤنف الإنتاج، انتعشت المدن، وعادت الجماعات اليهودية إلى التواصل والتبادلات التجارية فيما بينها. فى عام ٩٨، لم يغير الإمبراطور الجديد تراجان Trajan من الإجراءات التى اتخذها سلفه؛ إلا أن فترة حكم هذا الإسبانى قد بدت أكثر صعوبة بكثير، بالنسبة لليهود وكذلك بالنسبة للشعوب الأخرى المُحتلة، بسبب الحروب الأهلية والنزاعات مع البلاد المجاورة. تدهور الوضع الاقتصادى. فى مصر، فى قبرص، تقاتل اليهود واليونانيون. أرسل تراجيان قواته إلى مناطق النزاع، وقامت هذه القوات بالقضاء على المعسكرين معًا (يهود ويونانيين) فى عام ١١٦، ارتفعت أصوات التمرد من جديد، فى يهودا؛ قام الحاكم لوسيوس كانتيوس Lucius Quintus بقمعه وإخماده. ألحقت قوات رومانية أخرى الهزيمة بالبارثيين les parthes ، واحتلت بلاد ما بين النهرين، ساعية إلى فرض الضرائب على اليهود المقيمين فيها.

لم تكن الإمبراطورية الرومانية قد بلغت هذا الاتساع وغطت هذه المساحة من الأرض من قبل أبدًا. غير أن الذروة، وكما هو الحال دائمًا، تنذر بالسقوط الأجل الوشيك: لا تملك روما ما يكفى من الموارد لتدير مثل هذا التجمِع الشاسِع.

الحرب الثانية

التلمود الأول

بداية من العام التالى (١١٧)، أدرك هادريانوس **Hadrien**، الذى خلف عمه، أنه من الخطر الإشراف والتحكم فى إمبراطورية بمثل هذا الامتداد. أعاد الرجل بلاد ما بين النهرين إلى حكامها البارثيين السابقين، ما أسعد يهود بابل سعادة كبرى. سمح بإقامة الصلوات فى المعابد اليهودية المحلية فى أنحاء الإمبراطورية وصرح للأكاديمية بالانتقال من يافنى **Yavneh**إلى صافورية **Sepphoris**، العاصمة الإدارية للجليل. نقل البطريرك جامليل الثانى لقبه إلى ابنه سيمون **Simon** (سمعان).

غير أن هارديانوس كان يحلم بتوحيد شعوب الإمبراطورية، بخلق المواطن الروماني **Civis romanus**. كان عليه إذًا أن يتخلص من هؤلاء اليهود، الكثيرين للغاية، المنظمين للغاية، المُحبين جدًا للشجار، شديدى الجاذبية بالنسبة للنخب الرومانية. إن كان قد قبل بوجود الأجانب – من بينهم اليهود – فى المؤسسات الإدارية الرومانية، فقد حرم أى ممارسة دينية خاصة ومتباهية بتفردها، مثل الاحتفال بيوم السبت؛ وكذلك الختان الذى صار جريمة كبرى، قياسًا على الإخصاء (طبق هذا الإجراء على المصريين أيضًا). كان خياله الضريبى بلا حدود، ابتكر ضريبة على أجرة النقل، على الصوم الكبير، ضريبة جمارك قدرها اثنان ونصف بالمئة، تقتطع عند عبور أى من الحدود الإقليمية، صار كل شيء ذريعة لفرض ضريبة جديدة، حتى إن حاكمًا رومانيًا كان يأسف من «عدم تمكنه من فرض ضريبة على الهواء الذى يتنفسه اليهود[٣٤]». ووفقًا لمؤرخين، حدث أن كان بعض اليهود مضطرين إلى بيع أبنائهم ليدفعوا لجباة الضرائب، الواقعين تحت مسئولية السلطات اليهودية، الذين صاروا فى الواقع «متعاونين مع المحتل». وبهذا الخصوص قال الحاخام يوهانان **Yohanan**: «أن يفر المرء من البلاد أفضل من أن يقبل انتخابه فى مجلس المدينة[٤٠٨]».

عزم هادريان على أن يجعل من أورشليم مدينة رومانية، **Aelia Capitolina** إيلياء كابيتولينا. أمر ببناء مذبح مكرّس لجوبيتر فى مكان وموضع المعبد اليهودى (الهيكل)،

ومنع أى يهودى من الوصول إلى أطلاله، ماعدا فى يوم ٩ آب - يوم ذكرى تدميره - إجراء التف حوله اليهود برشوة الحراس الرومانيين. وفى هذا الشأن سوف يقول أحد كتاب القرن التاسع عشر الميلادى: «لم يكن باستطاعة اليهود أن يذرفوا الدموع فى نفس المكان الذى اشتروا فيه وأسالوا دم عيسى المسيح، إلا لقاء المال[٢٦٤]» مرة أخرى يلتقى المال والقتل مختلطين أيضًا عندما يتعلق الأمر باتهام اليهود.

فى عام ١٣٠ الميلادى، عندما حضر هادريان بشخصه للتأكد من فاعلية محاولته فى القضاء على الثقافة اليهودية، اندلعت حركة تمرد فى يهودا. كان على رأسها المدعو سمعان بن كوزبا **Simon ben Kozeba**. استشف واحد من أكبر حكماء تلك الفترة، الكاهن أكيبا **Rabbi Akiba**، فى استبداد الرومان ما ينذر بحرب إبادة يتعرض لها اليهود لاحقًا: تخلى عن المجلس اليهودى الأعلى (السنهيدرين)، انضم إلى المتمردين، انطلق عبر الشرق الأوسط بأكمله، من جماعة إلى أخرى، ليجمع الأموال اللازمة لتمويل انتفاضة. لدى عودة أكيبا أطلق سمعان بن كوزبا حرب عصابات؛ انضم إليه كثير من اليهود. وكما كان الحال إبان حركة التمرد الأولى، منذ ستين عامًا مضت، آثر المسيحيون من جانبهم البقاء بعيدًا؛ بل إن بعضهم انضوى تحت لواء المحتل. اختارت بعض المدن اليهودية كطبرية وصفورية أن تبقى على الحياد خشية تعرضها لعمليات انتقام.

بدأ سمعان بن كوزبا بإلحاق الهزيمة بالجيش الرومانى الذى يقوده الجنرال تينيوس روفوس **Tineius Rufus**. استعاد أورشليم، دمر إيلياء كابيتولينا **Aelia Capitolina**، أعاد إقامة مذبح يهودى مكان المعبد (الهيكل)، أعلن إقامة الدولة العبرية من جديد، صك عملات نقدية جديدة تحمل عبارة «العام الأول لتحرير أورشليم». إنها ساعة النصر. نصّب رابى أكيبا الحكيم سمعان بن كوزبا ملكًا لليهود، وحول لقبه إلى بار كوشبا **Bar Kochba** («ابن النجمة») ليذّكر بالنبوءة التى تبشر بقدوم المسيح: «سوف ترتفع نجمة من آل يعقوب» (سفر الأعداد الإصحاح ٢٤، آية ١٧)، موحيًا بذلك بأن سمعان - وليس يسوع - ربما كان المسيح الذى طال انتظاره، لأنه قد أنقذ البلاد.

استبدل هاردیان القائد المهزوم بأفضل ضابط عنده، يوليوس سيفيروس julius Severus، الذى استدعاه من بريتانى(*) حيث كان منهمكًا فى إخضاع آخر المعاقل السلتية. بعد أربعة أعوام من المعارك المحتدمة، استعيدت أورشليم من جديد، أما آخر حصون اليهودية، بيتار، فقد سقط عام ١٣٥ الميلادى. لم يبق قائمًا سوى بعض جيوب المقاومة معزولة فى كهوف الصحراء. أُعدم سمعان بار كوشيا، سُجن الكاهن أكيبا أولًا فى قيصرية ثم أعدم هو الآخر بعد ذلك بقليل. تم حل المجلس اليهودى الأعلى، أعيد بناء مذبح جوبيتر وكذلك مدينة إيلياء كابيتولينا، ولم يعد لأى يهودى الحق فى الاقتراب منهما، لا للعيش ولا للصلاة.

فقد الشعب اليهودى كل قادته المدنيين، العسكريين وحتى الدينيين. قتل أغلب من كان فى عمر يسمح بحمل السلاح من الرجال أو تم بيعهم كعبيد. وبما أن الإقليم كله قد أُعلِنَ ملكًا للإمبراطورية، فإن القلة النادرة من اليهود التى ظلت تزرع الأرض قد صاروا مجرد مديرين أو مستأجرين لهذه الأراضى بشكل وراثى إلى حد ما، وكان عليهم أن يدفعوا إلى روما بدلًا إيجاريًا إضافة إلى ما يدفعونه من ضرائب. فر من استطاع الفرار.

وفقًا لما يقول المؤرخ اليونانى ديون كاسيوس[٣٤]Dion Cassius، المولود بعد ثلاثين عامًا من ذلك الحدث، فإن ٥٨٠٠٠٠ يهودى قد ماتوا فى هذه الحرب، تضاف إلى مليون منهم سقطوا فى الحرب الماضية. لم يتبق فى فلسطين من اليهود إلا بعض مئات الآلاف. إجمالًا، تقلص تعداد الشعب اليهودى بمقدار الثلث خلال قرن واحد من الزمان. أما الناصريون، الاسم الذى أطلقه بعض الرومان على حَوَارِىّ يسوع من اليهود، الذين يطلق عليهم الآن "مسيحيين" ، فقد احتفظوا، بالحق فى الإقامة فى أورشليم وبالإعفاء من دفع ضرائب الخزانة المفروضة: على اليهود أصبح التمييز بين هؤلاء وهؤلاء ذا طبيعة ضريبية[٢٤].

بعد ذلك بخمسة أعوام، عام ١٤٠ ميلادى، سمح الإمبراطور أنطونان الصالح Antonan le pievx، الذى أعقب هادريان، لتلاميذ الكاهن أكيبا، قائد المتمردين، بدخول

(*) إقليم فى شمال فرنسا. (المترجم - عاصم)

يهودا وبإعادة بناء أكاديمية فى أوشا Usha، فى الجليل، التى كانت لا تزال تحت رئاسة سمعان، ابن جامليل الثانى، الذى كان قد أخذ عن أبيه لقب البطريرك (رب العائلة) أو ناسى Nassi ونقله إلى ابنه سمعان الثانى Simon II. على حساب دافعى الضرائب الآخرين فى الإمبراطورية، سواء كانوا يهودًا أم غيرَ يهود، أُعفى الكهنة من الضرائب تشجيعًا لهم على الدراسة. من جهة أخرى أعاد أنطونان السماح بإجراء الختان لكل الأطفال الذكور المولودين لوالدين من اليهود. كان ذلك انقلابًا هائلًا، حتى إن الشائعات قد جرت فى روما بأن كاهنًا يدعى يهودا ربما أقنعه باعتناق اليهودية، بل كلفه بكتابة تفسيرات لاهوتية! لم تعد فلسطين إقليمًا تابعًا لسورية وتحولت لتصبح إقليمًا مستقلًا بذاته. وهنا فقط ظهر اسم "فلسطين" فعليًا. سيكون علينا أن ننتظر ثلاثة قرون أخرى حتى يفرض نفسه فى كل الكتابات الرومانية.

على الرغم من هذه الجهود، فى عام ١٦١، العام الأخير من ولاية أنطونان، تحالف بعض يهود الجليل مع البارثيين، المحتشدين على الحدود مع سوريا، فى محاولة للتخلص من وصاية السيطرة الرومانية. قمع الإمبراطور التالى مارك أوريل Marc Auréle هذه الانتفاضة اليهودية الجديدة، أجبر البارثيين على التقهقر وتراجعت معظم الإصلاحات التى قام بها أنطونان.

فى عام ١٦٥ الميلادى، حل الكاهن ياهودا هاناسى Yahouda ha-Nassi محل سمعان الثانى كبطريرك لليهود وأقام فى صفورية مع المجلس اليهودى الأعلى (السنهيدرين). وسوف يظل بطريركًا لمدة ثلاثين عامًا. تركز قراره الأول فى العمل على تسجيل تفسيرات التوراة كتابة، التى كان الحكماء يتناقلونها شفويًا منذ قرون والذى كان تدوينها ممنوعًا بشكل صارم، ربما لتجنب إظهار تعارضاتها («اثنان من الحاخامات، ثلاثة آراء مختلفة»). سوف يشارك فى تحرير هذه الشروح على الأقل مائة وثمانية وأربعون كاتبًا فى صورة نص مجمع، والذى سوف يصبح المِشناه Le Mishna (أو "الترديد" لأنه يجمع نصوصًا كانت حتى ذلك الوقت "تتردد" من الذاكرة). حل الكتاب محل المعبد كـ "موضع" لتجمع الشعب اليهودى.

في عام ١٨٨، أنهى الكاهن يهودا تجميع ثلاث وستين رسالة مقسمة فرعيًا إلى ست تصنيفات: الزراعة، الدورة السنوية للاحتفالات والمراسم، الزواج، التقنين التجارى المدنى والجنائى، خدمة المعبد، طقوس الطهارة. وسيلزم نصف قرن آخر، فى أورشليم، وفى بابل، حتى تكتمل المشناه. يظهر الجزء الجوهرى من المذهب الاقتصادى فى التصنيف الرابع نيزيكيم **Nezikim**، خاصة فى أبوابه الثلاثة الأولى (بَابَا كاما، بَابَا ميتسيا وباباً باترا **BaBa Qamma Baba metsia Baba Batra**) والتى تعنى حرفيًا، باللغة الآرامية (لغة لا تزال سارية فى بابل ومستخدمة جزئيًا فى هذه النصوص)، "الباب الأول"، "الباب الأوسط" و"الباب الأخير"، حيث تجمعت التشريعات المتعلقة بالملكية.

مَثَلَتْ المشناه حالة القانون فى تلك الفترة، إنها تُجَمّد تفكير القضاة، واصل الفقهاء كتابة تعليقات وشروح جديدة، وواصلت المحاكم الفصل بحرية فى مواقف تتغير دونما توقف. على سبيل المثال، عندما اشترط الرومان، بعد نشر المشناه، دفع الضرائب فى كل السنوات، ومن بينها السنوات التى يقال لها السنوات السبتية، صرّحت المحاكم لليهود ببيع أراضيهم صوريًا لمدة عام إلى أصدقاء من غير اليهود بغرض التملص من شرط إراحة الأرض الإجبارى الذى تفرضه الشريعة اليهودية، والذى كان يحرمهم من عوائد تلك السنة المقصودة. وقد وصل الرابى ياناى حتى إلى المطالبة، لنفس الأسباب والظروف، بإلغاء السنة السبتية.

وأيضًا كان العمل يجرى بالفعل، فى أكاديمية الجليل، على شروح المشناه والتى سيطلق عليها اسم جومارا **Guemara** ("الإتمام")، وقائع طريفة، مناقشات، ملاحق تمت إضافتها إلى كل كتب المشناه. سوف يشكل هذا وذاك مجموع ما سوف يطلق عليه تلمود أورشليم.

مع ذلك، وعلى الرغم من كل الجهود المبذولة للحفاظ على وجود يهودى فى فلسطين، فقد سعت الجماعات اليهودية باستمرار إلى أن تتوزع فى باقى أنحاء الإمبراطورية الرومانية: فى فارس، فى جزيرة العرب، وأبعد من ذلك أيضًا. كان أكثرهم ثراءً يصطحبون معهم كل الجماعات المهنية الضرورية لحياة طائفة يهودية: معلمون، قضاة، كهنة، قصابون، خبازون. من تبقى منهم صاروا أقليات، خاضعة لنفوذ ظل إغريقيًا أكثر منه رومانيًا.

شيئًا فشيئًا، مرة أخرى، كان الشعب اليهودى قد توارى واختفى باعتباره شعبًا. عما قليل لن يتبقى منه شيء، كما تتوقع الكتابات الرومانية[٣٣٥]، إلا بعض الكتب والذكريات الساخرة والمتهكمة التى يحتفظ بها المنتصرون.

فى نفس المكان، فى ذلك الوقت، ظهرت قراءة توحيدية أخرى للعالم، انقلاب جذرى فى العلاقة مع الرب.

٢ - مسيحيون ويهود

أمام المال

مال خِصْب، مال عقيم

كان أتباع المسيح الأوائل من اليهود المتدينين الملتزمين بتعاليم وطقوس شريعتهم. يحترمون تعاليم التوراة. ولأنهم تعرفوا على المسيح فى شخص يسوع (عيسى)، فقد كانوا يأملون فى إقناع اليهود الآخرين بالانضمام إليهم فى انتظار عودته.

غير أن عودة المسيح قد تأخرت، وتوترت العلاقات وصارت حالات التحول إلى المسيحية أكثر ندرة. يقول المسيحيون عن أنفسهم إنهم "Verus Israél" (حقيقة إسرائيل الوحيدة)، يشكّون فى أن يكون اليهود يلعنون المسيح فى صلواتهم ويتهمونهم بـ "قتل الإله"[٤٢٨] يهمس البعض حتى بأن كل نكبات اليهود تتأتى من استشهاد المسيح والدور الذى لعبه الصدوقيون فى ذلك. وفى المقابل، وصفهم اليهود بالهرطقة، وطردوهم من جماعاتهم ومن الشبكات التجارية.[٤٢٨]

هكذا تباعد فرعا الديانة اليهودية الواحد عن الآخر. بولس الطرسوسى أو بولس الرسول المختلف مع بطرس Pierre، اجتذب إليه بعض الوثنيين، المتعاطفين أولًا مع اليهودية. تسارعت حركة التحول إلى المسيحية فى آسيا الصغرى، فى اليونان، فى سوريا، فى مصر، فى روما، فى قرطاج. عندما يكون هناك عدد كاف من المؤمنين، فى كل

طائفة، يتم ترسيم كاهن (قس) لها. عندما يكون هناك عدد مناسب من الكهنة (القساوسة)، فإنهم يختارون منهم أسقفًا، يكرّسه أساقفة الجماعات المجاورة، ليصبح بعدها مسئولًا عن الكهنة (القساوسة) وعن المؤمنين فى جماعته[٤٢٨]. لم يكن للكنيسة حتى الآن كتاب مقدس. بعد رحيل بطرس، لم يعد لها كذلك رئيس سوف يكون الرئيس، بعد وقت طويل، أسقف روما، فى قلب الإمبراطورية المهيمنة.

بصورة متوازية، تعمقت الفوارق بين المذهبين الاقتصاديين. فى الأول والثانى، يؤمن الناس بفضيلة الإحسان، العدالة والتضحية بالقرابين والعطايا. لكن، بالنسبة لليهود، من المستحسن أن يكون المرء غنيًا، بينما من المطلوب فى المسيحية أن يكون المرء فقيرًا. بالنسبة للبعض (اليهود) يكون الثراء وسيلة لخدمة الرب (التعبّد) بصورة أفضل، وبالنسبة للآخرين (المسيحيين) فإنه يُضر بخلاص المؤمنين. بالنسبة للبعض فإن المال يمكن أن يكون وسيلة لفعل الخير، بالنسبة للآخرين فإن تأثيره دائمًا ما يكون مدمرًا وخيم العاقبة. يرى طرف أن كل شخص يستطيع أن يستمتع بما يربحه من المال؛ ويرى الطرف الآخر أنه لابد وأن يحرق الأصابع. يعتقد اليهود أن موت الإنسان غنيًا هو نوع من المباركة الآلهية ما دام تم الحصول على المال بطريقة أخلاقية وما دام قام المرء بكل واجباته تجاه الفقراء والمحتاجين فى جماعته، بينما يعتقد المسيحيون أن موت الإنسان فقير هو الشرط الضرورى لخلاصه ونجاته. فى هذا يقول مَتّى نقلًا عن المسيح: «أقول مرة أخرى: إن مرور الجمل من ثقب إبرة، أسهل من أن يدخل غنى فى ملكوت السماء» (١٩،٢٤). وإن كان لوقا قد اختتم مَثَلَ المسئول غير الأمين بهذه العبارة الغامضة: "أتتخذون أصدقاءً بالمال الحرام" (١٦،١١) معترفًا من خلالها بقوة المال وتأثيره، سرعان ما أضاف: "اعملوا الخير واقرضوا دون انتظار شىء فى المقابل" (إصحاح٦، الآية٣٥).

فى الواقع، كما رأينا، أن الحصول على فائدة على الأموال لم يكن بالنسبة لليهود أمرًا لا أخلاقيًا؛ وحتى إن كان لا يجب أن يحدث بين اليهود وبعضهم، وذلك نظرًا لدواعى التضامن، لا عن تحريم أخلاقى للنقود، مثلها مثل الماشية، ثروة خصبة، والوقت مجال لزيادة قيمتها. أما بالنسبة للمسيحيين، بعكس ذلك، وكما يرى أرسطو والإغريق، فالنقود – مثل الوقت – عقيمة، لا يتولد عنها فى حد ذاتها الثراء؛ وبالتالى فالاتجار فى النقود يُعد

خطيئة قاتلة. إن هاجس عقم المال المتسلط هذا يحيلنا أيضًا إلى كراهية العلاقة الجنسية، المُحَرّمة خارج نطاق الزواج. تعتقد الكنيسة الجديدة، أنه بخلاف ما خلق الله، فإن شيئًا لا يجب أن يكون خصبًا. تشغيل المال يعتبر كالزنا.

لعل من الواجب أيضًا وبلا شك أن نرى فى هذه الفروق أثرًا للخلاف القديم جدًا بين الإيسنيين والصدوقيين، ورغبة الحواريين فى اجتذاب أكثر اليهود فقرًا إليهم.

كانت تبرعات اليهود إلى طوائفهم محددة بخمس دخولهم. وبالعكس، يتم تشجيع المسيحيين على التبرع للكنيسة بلا حدود. بينما كان من الواجب أن تعيد الطائفة توزيع هذه الهبات بالكامل على الفقراء والمحتاجين، كان بإمكان الكنيسة الاحتفاظ بها، على الأقل بجزء منها لنفسها، بغرض أن تؤدى أبهتها وعظمتها (الكنيسة)إلى تعلق المؤمنين بها وبالتالى خلاصهم. بالنسبة لها، كانت النقود، التى لا تتولد عنها فائدة، من الممكن أن تجلب لطف الله(*)، إن مرت عبر الكنيسة. سوف تتأتى كل السلطة الكنسية اللاحقة من هذا التحول فى العلاقة مع المال.

لتعميق هذا الفرق أكثر، خلط النقد المسيحى لليهودية فورًا بين اللاهوت والاقتصاد بدمج اتهاماتهم لليهود بقتل الإله وبالاحتكار. تعترض الأناجيل على يهودا الذى قبل أن يسلّم المسيح لقاء ثلاثين دينارًا (إنجيل مَتّى، الإصحاح ٢٧، ٦-٧)، ثم يأمل أن تغفر خطيئته بردها إلى مريم المجدلية التى أسالت عطرًا قيمته ثلاثمائة دينار عند قدمى المسيح (إنجيل لوقا الإصحاح ٧، ٤٧)، جاعلة من المال وسيلة للافتداء و مقدمة المثل لهبة من أجل غفران الخطايا.

تعترض الأناجيل أيضًا على ما يسمى "قانون تالون اليهودى" (الذى رأينا مع ذلك أنه يأتى فى الحقيقة من حامورابى والذى انتقدته توراة موسى ذات الأسفار الخمسة الأولى)، وعلى التبرير المسيحى لدعوة اللاعنف[١٢١]. إنجيل متّى (الإصحاح ٥، الآيتان

(*) اللطف أو النعمة أو الفضل الإلهى (.. أو الثواب) - تعبير لاهوتى خاص بالمسيحية، ينطبق على معنى لفظة «La gráce" - الواردة بالأصل الفرنسى. (المترجم - عاصم)

٣٨- ٣٩) يأخذ على عاتقه استئناف هذا الاتهام. يقول على لسان المسيح:«لقد تعلمتم أنه قد قيل لكم: «العين بالعين، السن بالسن». وأنا، أقول لكم لا تقاوموا الشر أبدًا الذى يرغب فى إلحاقه بكم، لكن إذا ضربك أحد على خدك الأيمن، فأدر له أيضًا خدك الآخر.» غير أن الآية التوراتية المذكورة تقول فى الواقع: «سوف تقدم حياةً بمقتضى (وليس لقاء) حياة، سنًا بمقتضى سن...» لفظة تاحت Ta'hat (بمقتضى أو تبعًا لـ...) الواردة لا تشير إلى انتقام أو ثأر، وإنما على العكس تشير إلى تقديم تعويض مكافئ للخسارة الواقعة[١٢١]. تطالب الآية إذًا بالاكتفاء بالمال عندما تراق الدماء. تحريم الانتقام هذا موجود فى الكثير من آيات الأسفار الخمسة، ومنها تلك الآية التى يذكرها المسيح، العالم بأصول الشريعة، كثيرًا جدًا حتى إننا سوف ننسى فيما بعد مرجعيتها الأساسية: «لا تثأر ولا تكّن الغل فى صدرك. (...) أحب قريبك كما تحب نفسك تمامًا» (سفر اللاويين، الإصحاح ١٩، آية ١٨).

فى إطار نفس الروح، حتى وإن أشاد بعض علماء لاهوت المسيحية القديمة[٢٠١]، مثل كليمَن السكندرى Clément، بأخلاق اقتصادية قريبة جدًا من أخلاقيات الأسفار الخمسة، فإن المسيحيين الأوائل قد استمدوا من هذه المقاطع الإنجيلية الدليل ليؤكدوا أن: كل شىء، عند اليهود، يقدر بالمال، كل شىء يتحول إلى مال: حتى الوقت، حتى لحم البشر، حتى الرب! إنهم يقولون، إن اليهودى الذى باع المسيح مقابل المال، على استعداد ليشترى كل شىء وليبيع كل شىء. السوق هو شريعته الوحيدة. أصبح العداء المسيحى لليهود على الفور غير قابل للانفصال عن انتقاد مذهبهم الاقتصادى.

فى نهاية القرن الأول من العصر المسيحى، عندما بدأت الكنيسة فى الاستقرار، كانت قضية علاقاتها مع اليهودية فى قلب كل المناقشات[٢٠١]. يقول بعض اللاهوتيين إن المسيحية هى نتاج اليهودية، وبعكس ذلك، يقول آخرون إنها لا تمت لها بأى صلة. يؤكد الغنوصيون، على سبيل المثال، أن إله اليهود لم يخلق إلا عالم هذه الدنيا وأن إلهًا آخر، أبا يسوع، قد خلق عالم السماء. بل إن المهرطق الغنوصى مارسيون Marcion، نحو عام ١٥٠ الميلادى، قد طالب بأن تحذف من كل نصوص الأناجيل، التى يجرى كتابتها آنذاك، كل إشارة إلى اليهودية وإلى كتاب الأسفار الخمسة (توراة موسى).

برغم هذه التفاوتات، فلا يزال المسيحيون فى نظر الرومان مجرد طائفة يهودية من بين طوائف أخرى، كالسامريين. قام خليفة مارك أوريل، الإمبراطور كومود **Commode**، شخص مجنون يظن نفسه هرقل **Hercule**، قام بمطاردة اليهود والمسيحيين بلا تمييز. عاش هؤلاء وهؤلاء منعزلين فى أنحاء الإمبراطورية، يعيشون على الهامش ومحكوما عليهم بممارسة أعمال هامشية أيضًا. ابتداءً من عام ٢١٢، صار كاراكالا **Caracala** إمبراطورًا، بعد أن اقترف ألف جريمة، استأنف الرجل تجاه اليهود والمسيحيين سياسة الاندماج فى المجتمع الرومانى. أصدر منشورًا يجعل من كل المقيمين فى الإمبراطورية مواطنين رومانيين متماثلين (مواطنة رومانية واحدة للجميع).

دخل اليهود حينذاك بأعداد غفيرة فى الوظائف الإدارية الرومانية، دون أن يقسموا يمين الولاء للإمبراطور ودون أن يغيروا ديانتهم، غير أنهم لم يستطيعوا الوصول إلى المناصب الرفعية. أفضل الوظائف التى كان بإمكانهم أن يأملوا فيها كانت وظائف جباة الضرائب، المكروهة من الجميع. لم يعد بإمكانهم ممارسة أى حقوق نوعية خاصة؛ تم تجاهل ديانتهم وثقافتهم تمامًا. كانوا واقعين فى مأزق لن ينتهى أبدًا: اضطهاد فظيع، يدفعهم للموت؛ اندماج فى المجتمع بأكثر مما هو مطلوب، يدفعهم للتلاشى والزوال.

نحو عام ٢٤٠، نفذت المسيحية أكثر فأكثر داخل الأوساط الراقية فى الإمبراطورية. صيغت أسفار العهد الجديد، اكتملت الأناجيل. أقرت سلطة الأساقفة على مناطق بأكملها. فى مقايضة مع الرب مقابل وعود بالحياة الأبدية، تدفقت الهبات والعطايا، سواء كانت أراضى، رؤوس ماشية أو أشياء ثمينة. كانت مهمة الأحبار أن يقوموا بإدارة هذه التبرعات لتكوين أملاك ومصادر دخل خاصة بالكنيسة– سعى بعضهم إلى إعادة بيعها – الأمر الذى بذلت المؤسسة، الدينية حول أسقف روما، كل ما فى وسعها كى تمنعه. أعلن أورجينوس **Origéne**، عالم اللاهوت السكندرى أن المؤمنين بالكنيسة قد حلوا محل اليهود "كشعب مختار"

فى بداية القرن الثالث الميلادى، تراجعت روما قليلًا لصالح أقاليمها الآسيوية، بينما اجتاحت المسيحية الإمبراطورية بأسرها. هكذا، اجتمع مجلس مسكونى إقليمى، فى عام

٢١٦، ضم واحدًا وسبعين أسقفًا أفريقيًا فى مدينة قرطاج. مجمع آخر، مستلهمًا المجلس اليهودى الأعلى "سنهيدرين" ضم نفس العدد من الأساقفة وانعقد فى روما بعد ذلك بقليل. وصل عدد القساوسة المسيحيين فى العاصمة آنذاك إلى أربعة وستين قسًا. بل إنهم تواجدوا خارج العالم الرومانى أكثر فأكثر. أقلقت قوة المسيحيين المتصاعدة آنذاك السلطات الإمبراطورية بأكثر ما سببته تلك الملايين القليلة من اليهود، غير المرتدين عن دينهم، المتناثرين فى أنحاء الإمبراطورية.

منذ العام ٢١٢، عندما بدأت ولاية ألكسندر سفروس **Alexandre Sévére**، عُومل اليهود بطريقة أقل مهانة من المسيحيين: فقد كان لهم حق الإقامة فى روما، تم إعفاؤهم من الضرائب، صار بإمكانهم ممارسة طقوس ديانتهم بصورة علنية. فى عام ٢٣٦، اختفى حتى "صندوق اليهودية" تلك الضريبة التى كان تحصيلها منذ بعض الوقت يكلف أكثر مما تجلب، ضاقت الجماعات أيضًا بدفع الضرائب الرسولية، ضريبة البطريرك، الذى ضعفت هيبته. احتفظت العلاقات بين الطوائف بقوتها، لكن مركزها لم يعد واقعًا فى فلسطين. وإن وجد فى مكان ما، فبالأحرى سيكون فى الإسكندرية، ثم، كما سوف نرى فيما بعد، فى الإمبراطوريات المنافسة لروما.

قام الأباطرة التاليون (ديسوس، فاليريانوس، ديوكليتيانوس **Déce, Valérien, Dioclétien**) جميعهم باضطهاد اليهود والمسيحيين سويًا. تواصلت جهود إدماج هؤلاء وهؤلاء فى المجتمع الرومانى. فى عام ٢٥٠، أجبر ديسوس كل مواطنى روما على الصلاة للآلهة الرسمية للدولة. فى عام ٢٨٥ منع ديوكليتيان الحرفيين اليهود والمسيحيين من إقامة اتحاداتهم النقابية. فى عام ٣٠٢، أحرقت أماكن عبادتهم، منعت المجالس والجمعيات المسيحية، صودرت كل أملاك الكنيسة.

على الرغم من كل هذه المضايقات، فقد صمدت اليهودية وقويت شوكة الكنيسة، اكتسبت فى كل مكان أرضًا وقلوبًا. تحت النفوذ المتنامى لأسقف روما، طابقت الكنيسة بين تنظيمها وبين تنظيم الإمبراطورية. بتلقيها المزيد والمزيد من الهبات، وأعلنت أن ممتلكاتها غير قابلة للتصرف ومنعت أساقفها من الاتجار فيها، مراكمة بذلك وسائل جذب المزيد من

المؤمنين. كثيرًا ما صادر الأباطرة ثروة بعض الأسقفيات، التي سرعان ما يعاد تكوينها تقريبًا عن طريق هبات جديدة.

فعل الأساقفة الأوائل كل ما في وسعهم لتمييز بطاركة التوراة عن يهود عصرهم. هكذا ميّز يوسابيوس Eusébe، أسقف قيصرية بين «عبرانيّ العهد القديم الأتقياء» وبين اليهود المعاصرين «المُرعبين». مع ذلك، فإن سياسة التمييز هذه لم تبد شديد الفاعلية، لأنه، فى عام ٣١٢، أثناء انعقاد أحد مجالسها الإقليمية الأولى، فى مدينة إلفيرا Elvira، بإسبانيا، منعت الكنيسة على المسيحيين، أن يبارك الحاخامات محاصيلهم. تكررت أعمال المنع هذه كثيرًا فيما بعد لدرجة أنها لم تؤد فى الواقع إلا إلى إثبات وتوكيد تلك الممارسات التى كانت تدينها: ظل اليهود والمسيحيون فى واقع الأمر أكثر تقاربًا بما يرغب فيه كهنتهم. من جانب وآخر، تواصل الطرفان، تجار ومزارعون، حرفيون وصُياغ، بأكثر مما يتمنى الأساقفة. يتزاورون، يشاركون بعضهم البعض فى الأعياد. يتبادلون الصلوات والتبريكات، مثيرين غضب السلطات الدينية الشديد.

السجن البيزنطى

انتهى الحال بأن وقع ما كانت بشائره قد بدت منذ قرن مضى: فى عام ٣١٢ تحول أحد الأباطرة إلى المسيحية. بعد عدة مذابح جرت بين الطامحين إلى العرش، استولى قسطنطين Constantin على السلطة فى روما، ثم منح المسيحيين فى عام ٣١٣ حق حرية العبادة، وذلك عبر منشور ميلانو. بل إنه رد إلى الكنيسة كل ممتلكاتها التى صادرها الأباطرة السابقون. تكونت ثروة المسيحية. فى نفس الوقت قرر دفع الإمبراطورية الرومانية نحو الشرق؛ صار الاقتصاد العالمى يدور حول آسيا بصورة متزايدة.

أسس قسطنطين عاصمة جديدة، القسطنطينية، على أطلال بيزنطة، مستعمرة إغريقية قديمة تقع على البسفور. للإشارة إلى هذا الجزء الشرقى من الإمبراطورية، سوف نتحدث لاحقًا عن الإمبراطورية البيزنطية. فى عام ٣٢٥، عندما أصبح الحاكم الوحيد للإمبراطورية بأكملها، ادعى قسطنطين كذلك أنه الرئيس الوحيد للكنيسة، وأنه فوق الأساقفة. تدخل

فى النقاشات اللاهوتية وحاول إقناع السامريين بالدخول فى المسيحية، لأنه كان يميز بينهم وبين بقية طوائف اليهود. سحب المواطنة الرومانية، التى منحها كاراكالا للمقيمين فى الإمبراطورية منذ قرن مضى، من كل من يرفض التحول إلى المسيحية؛ منع بصرامة شديدة أى تبشير باليهودية (عاقب كل مسيحى تحول إلى اليهودية بالإعدام حرقًا شأنه شأن اليهودى الذى دعاه إلى ديانته)، حرم ختان أى عبد مسيحى، عاقب بالإعدام كل يهودى يلوم يهوديًا على الدخول فى المسيحية. أقصى اليهود عن المناصب العسكرية والمدنية — فيما عدا جباية الضرائب — مع السماح لهم بإخضاع نزاعاتهم لمحاكمهم الخاصة: لم يعودوا رومانيين ولم يعد القانون الرومانى ينطبق عليهم.

ظل التمييز بين اليهود والمسيحيين محل نقاش فى قلب الكنيسة ذاتها. فى عام ٣١٨، كان أريوس **Arius**، أحد قساوسة الإسكندرية، يؤكد على أن وجود الأب يسبق وجود الابن وأنه قد خلقه. قام أسقف الإسكندرية بحرمانه (طرده من الكنيسة)، مؤكدًا وجود الأب والابن معًا منذ الأبد وللأبد. خلف هذا الفارق، يكمن جدل حول مكانة اليهودية فى ميلاد المسيحية. انقسم المسيحيون بين الرغبة فى القضاء على الديانة التوحيدية الأخرى والرغبة فى الإبقاء على الشعب الذى خرج منه المسيح كدليل على شرعيته التاريخية. فى عام ٣٢٥، للبت فى المسألة قام قسطنطين باستدعاء أول مجمع مسكونى إلى مدينة "نيقيا" **Nicée**، فى آسيا الصغرى. أكد الإمبراطور والمجمع المسكونى أن الأب، إله المسيحيين، هو نفس إله اليهود، على الرغم من اعتبارهم "شعبًا بغيضًا"... ظهر العداء المسيحى لليهودية، قائمًا على كراهية من جاء بالبشارة، كراهية من أسدى الخدمات وقدم المعروف. سوف نرى ذلك فيما بعد بكثير فى العلاقة بالمال: كراهية من يقرضون النقود للآخرين بعد أن قدموا لهم إلههم.

من إمبراطور لآخر، تدهورت أوضاع اليهود. مع تراجع الإمبراطورية صارت ظروف تطويقهم والتضييق عليهم أكثر صعوبة. فى عام ٣٣٠، حين تم افتتاح القسطنطينية، "روما الجديدة"، نشب خلاف حول السلطة بين الكنيسة والإمبراطور، الطامعين كليهما فى السيطرة السياسية واللاهوتية. النقطة الوحيدة التى اتفقا بشأنها كانت ضرورة قمع اليهود وإخضاعهم. إضافة إلى الممنوعات التى أملاها الإمبراطور عليهم ردت الكنيسة —

فى مزايدة لا تتوقف – بممنوعات أخرى فرضت على المسيحيين حتى لا يقيموا أى علاقات من أى نوع مع اليهود. وهكذا حرّما (الكنيسة والإمبراطور) على المسيحيين استخدام تقويم الأعياد اليهودية لتحديد مواقيت أعيادهم. لم يكن بعض الحاخامات يرى غضاضة فى ذلك، وكانوا يرون فى هذا التمييز فرصة للحفاظ على هوية مهددة بالضياع.

عندما مات قسطنطين، انقسمت الإمبراطورية الرومانية، التى كانت فى أوجها، إلى فرعين، فرع شرقى وفرع غربى: فى عام ٣٣٧، استقر قنسطانس الثانى **Constance II**، أحد أبناء قسطنطين فى مدينة القسطنطينية وأعلن الحرب على الفرس؛ أما أخوه البكر قسطنطين الثانى فقد استقر فى روما وقام بإدارة الجزء الغربى من الإمبراطورية. قام الأخ الأصغر قنسطانس الثانى مع شقيقه الثالث قنسطانط **Constant** بإخماد ثورات اليهود فى الإسكندرية وفى يهودا. فى عام ٣٣٩، منع زواج اليهود بالمسيحيات، ثم زواج اليهوديات بالمسيحيين. ثم، لإقصائهم نهائيًا عن النشاط الزراعى، منعهم من اقتناء العبيد، حتى من غير المسيحيين.

فى عام ٣٥٠، حاول قنسطانس الثانى إعادة توحيد جناحى الإمبراطورية بعد أن قضى على كل أفراد عائلته. وصف اليهود بأنهم «طائفة مفسدة» واتهمهم بالتآمر عليه، متواطئين مع الفرس؛ لامهم على ذلك متخذًا دليلًا بـ «هؤلاء الحاخامات الجواسيس» الذين يتنقلون بين الإمبراطوريتين، فى الواقع لينقلوا إلى طوائفهم تقويم الأعياد اليهودية المطبق فى أورشليم. أصبحت شبكاتهم التجارية والدينية حينذاك ضعيفة للغاية. تحول عدد من اليهود إلى المسيحية تجنبًا للاضطهاد والتعسف ضدهم؛ كانوا يمارسون حياتهم العقائدية سرًا، أو انتهى بهم الأمر إلى أن صاروا مسيحيين مخلصين. فى الجليل، حوّل جالوس **Gallus**، معاون قنسطانس فى الشرق، حياة اليهود إلى جحيم لا يطاق. تدريجيًا فقدت المنطقة أهميتها السياسية. كانت الطرق التجارية الرئيسة تنطلق من روما إلى القسطنطينية وإلى الإسكندرية. صارت فلسطين هامشية القيمة.

فى عام ٣٥٢، انفجرت حركة تمرد أخرى؛ غير أنها لم تكن مدعومة من قبل البطريرك، المتعاون مع روما، ولذا سرعان ما أجهضت، نتيجة لنقص الموارد المالية. فى عام ٣٥٨،

وللتخلص تمامًا من الهوية القومية اليهودية، قررت القسطنطينية ضم فلسطين إلى مجموع المقاطعات الأخرى الواقعة بين البحر الأحمر والمتوسط في إقليم واحد جديد أطلق عليه اسم (أرض فلسطين) فالسطينا تيرتيا Palestina Tertia، ترسخ اسم فلسطين بالفعل. في عام ٣٥٨، وعندما حاول البطريرك، الذى فقد مصداقيته لدى كل يهود العالم، فرض تقويم جديد، هذه المرة ابتداءً من تاريخ تدمير المعبد الثانى، لم يعره أحد انتباهًا.

في الوقت نفسه، على الرغم من حالة الانحطاط السائدة المحيطة، أنهى ربانيو (حاخامات) طبرية، فى عزلة مدارسهم، كتابة تفسيرات جديدة لمجموع النصوص المقدسة. عمل هائل، كونت هذه الجومارا مع المشناه، التلمود المسمى تلمود "أورشليم" أو بالأحرى "أرض إسرائيل" نظرًا لأنه لم يكتب فى المدينة المقدسة. بالتزامن مع ذلك، كما سوف نرى، كتبت شروح أخرى للمشناه، جومارا أخرى سوف تشكل فيما بعد بقليل تلمود بابل.

كما يحدث فى لعبة التأرجح، ووفقًا للظروف الاقتصادية ولاحتياجات العصر، أظهر أباطرة الشرق نوعًا من التسامح تجاه اليهود. أينما عاشوا، كان هؤلاء فى معظمهم تجارًا أو حرفيين، لم يعد فى إمكانهم ابتداءً من ذلك الوقت فصاعدًا زراعة الأرض، لعدم قدرتهم على امتلاك العبيد. لم يكونوا سوى، فى النادر جدًا، مقرضين لقاء رهن، خاصة فى التجارة الدولية حيث ظل دورهم أساسيًا.

خلف جوليان julien، مشرك عتيد، كونستانس الثانى عام ٣٦١. عاد إلى الوثنية، ما استحق عليه أن ينال لقب جوليان المرتد. آملًا فى الحصول على عون شبكة التجار اليهود الدولية، وعن طريقهم، على مساعدة الطوائف اليهودية فى بابل فى حربه ضد الملوك الساسانيين لبلاد ما بين النهرين، قام جوليان بحماية اليهود فى كل أنحاء الإمبراطورية، سمح لهم بالعودة إلى شغل الوظائف العامة، اعترف لهم بالحق فى إقامة صلواتهم وفى العودة إلى محاكمهم الخاصة، وعدهم بإسقاط الضريبة المستحقة للبطريرك. بل إنه قد شرع فى إعادة بناء المعبد (الهيكل)، الذى أوقف الأعمال الأولية فيه حريق غامض وذلك قبل وفاته مباشرة فى عام ٣٦٤، بعد فترة ولاية امتدت لثلاثة أعوام فقط، أثناء حصاره لمدينة المدائن عاصمة الدولة الساسانية.

بعده، جدد الأباطرة علاقاتهم بالمسيحية واستؤنفت الاضطهادات ضد اليهود. قام كل من فالنس Valens وفالنتينيان Valentinien بطرد اليهود من الوظائف العامة التى كان جوليان قد سمح لهم بالعودة إليها. شدد الأباطرة الذين جاءوا من قبلهم من عزلتهم أكثر خارج عالم الاقتصاد والسلطة.

فى عام ٣٨٠، عاد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول theodose I إلى سياسة أكثر رأفة واعتدالاً. فى حين قام أمبرواز Ambroise أسقف ميلانو بالتنديد باليهود (عام ٣٩٠)، الذين انكبوا على "صفقات تجارية مشينة"[٢٠١]، كان ثيودوسيوس يؤكد من جديد على استقلالية قرار المحاكم اليهودية ("لن يحدد أى شخص غريب عن الديانة اليهودية الأسعار لليهود[٢٠١]")، يطالب باحترام مناسباتهم الدينية، احترام تقويمهم، حمايتهم من كل أشكال الاعتداء؛ فى نفس العام، منح مجهزو السفن اليهود فى الإسكندرية حق إنشاء اتحاد نقابى مستقبل — امتياز استثنائى فى أهم موانئ العالم.

لذلك، عارضت الكنيسة اليهود فى مجالى العقيدة والاقتصاد معًا. فى عام ٣٩٥، بعد التدمير الجزئى لمكتبة الإسكندرية مباشرة الذى قام به البطريرك المسيحى ثيوفيل théophile، وندد بهم بطريرك القسطنطينية، جان كريسوستوموس jean Chrysostome، باعتبارهم "أعداء الله"، وسمى المعبد اليهودى «دار الشيطان المكرسة لعبادة الأوثان» و «وكر قتلة الإله[٢٤]». أخذ على اليهود رفاهيتهم وممارستهم للربا (الإقراض بفائدة) (مع أنه لا يزال نادرًا للغاية). «اليهود يعبدون الشيطان، وعقيدتهم مرض[١٣٥]». فى نفس الفترة، فى مدينة هيبون Hippone، بـ نوميدى Numidie، استنكر أوغسطين Augustin الإقراض بفائدة. ميز بين ثلاث خطايا عظمى: اشتهاء الجسد (لكن التناسل أمر واجب)، اشتهاء السلطة (لكن من اللازم التفانى فى الشئون العامة) واشتهاء المال (وهو ذنب لا يغتفر). بعبارة أخرى، يجب علينا أن نمنع المال من ممارسة "الفسق"، أى أن يغل فائدة. جعل أوغسطين من اليهود رموزًا، «بانحطاطهم»، لموت المسيح. وإن كان يطالب بأن نتوقف عن قتلهم، فإنه يوصى — للتمكن من إظهارهم — بتفريقهم وإذلالهم «بهدف إيضاح وتسجيل انتصار الكنيسة على المعبد».

فى عام ٣٩٥، نقل ثيودوسيوس الأول حكم الإمبراطورية الشرقية إلى ابنه البكر، أركاديوس Arceadius، والإمبراطورية الغربية إلى ابنه الأصغر هونوريوس Honorius. بدا الإمبراطوران الجديدان أقل تسامحًا من والدهما. فى عام ٣٨٩،تراجع أحد القوانين عن استقلالية اليهود القضائية ولم يعتبر محاكمهم إلا «مجرد هيئات للتحكيم مع موافقة الأطراف المعنية(١٣٥)» لها حق الاستئناف أمام المحاكم العادية. منعهم هذا القانون من التحول إلى المسيحية إن كان وراء ذلك منفعة اقتصادية، على سبيل المثال ليتمكنوا من ممارسة بعض المهن أو ليتملصوا من دفع بعض الضرائب. صار التجار الإغريق والبيزنطيون الآن على كل الطرق التجارية وفى كل البحار. أصبح اليهود منافسين لم يعد مرغوبًا فى وجودهم.

حل ثيودوسيوس الثانى théodose II، أبن أركاديوس محل أبيه فى عام ٤٠٨. أتم احتجاز اليهود داخل وضع قانونى استثنائى. فى عام ٣٤١، ألغى بواسطة مرسوم إمبراطورى رتبة البطريرك. أوجد ضريبة جديدة ينبغى على كل طائفة أن تضمن سدادها(٣٤). ومضى فى ذلك إلى حد أنه وعد كل من يشى باليهود بنسبة مما يتم التحصل عليه منه. جدد منع اليهود من اقتناء عبيد من المسيحيين، من انتقاد مسيحيين، تحصيل ضرائب للصدقة، التبشير باليهودية وختان غير اليهود، إقامة معابد يهودية. لم يكن مسموحًا لليهود بإحياء أعيادهم إلا بصورة غير علنية. تم تجميع القوانين الصادرة منذ عام ٣١٢، بعد ذلك فى «قانون ثيودوسيوس»، الذى وضع ما بين عامى ٤٣٥ و ٤٣٨ ، الذى كان يقضى أيضًا بعقوبة الإعدام على كل اليهود المشار إليهم باعتبارهم «الطائفة البغيضة»، كل السامريين وكل غير المسيحيين «الباحثين عن الفردوس» الذين ربما حاولوا تغيير ديانة أحد المسيحيين. حدد هذا القانون الأماكن التى يستطيع «الكفرة» أن يعيشوا فيها(١٣٥). ولكى يتوقفوا عن الاندماج فى المجتمع الرومانى وليمكن تمييزهم عن التجار المنافسين، يوضح القانون الكيفية التى يجب على اليهود أن يراعوها فى ملبسهم. يمنع عنهم معظم الوظائف العامة وبخاصة وظيفة حراس السجون والقضاة، ويجبرهم على ممارسة تلك التى تستدعى مسئوليات مالية، خاصة تحصيل الضرائب.

حول هذه النقطة، كان نص القانون ينطوى على نفاق شديد:

«حيث إنه من المهم لصاحب الجلالة الإمبراطورية النظر بعين الاعتبار لكل ما يلزم بقصد تحقيق الرفاهية العامة فى أدق تفاصيلها، فنحن نأمر بأن يقوم هؤلاء التابعون لتلك الطوائف التى سنعهد إليها بجمع الضرائب فى جميع المدن بالمحافظة عليها، بواسطة موظفيهم المحليين، وأن يلتزموا بدفع نصيبهم فيها، تقديم الهبات، أداء واجباتهم العسكرية. لن يكون مسموحًا بأى استثناء لهؤلاء الأشخاص، المكروهين بسبب مناوراتهم التى لابد أن يعاقب عليها القانون[١٧٧]».

فى عام ٤٣٥، استخدم تعبير «قتل الإله» للمرة الأولى باللغة اللاتينية على لسان أسقف مدينة راڤينا Ravenne، المدعو بيير كريسولوجِوى Pierre Chrysologue.

غادر معظم اليهود حينذاك الإمبراطورية الشرقية. خلال نلك الوقت، استقرت أحوال يهود الإمبراطورية الغربية، الذين تتم معاملتهم بصورة أفضل بعض الشيء.

الفانداليون شعب مضياف

الحاجة إلى تجار

فى الغرب، قام القوط الغربيون Wisigoths، بقيادة ملكهم ألاريك Alaric، باجتياح روما فى ٢٤ أغسطس ٤١٠. فى عام ٤١٨، تمكن هونوريوس Honorius من طردهم، ثم أقام معهم تحالفًا. فيما بعد كان الدور على الفانداليين، القادمين من وسط أوروبا، فى السطو على الغال (فرنسا)، إسبانيا، شمال إفريقيا، قرطاج، والوصول إلى إيطاليا. وحتى إن كان الحاكم الغربى أيتيوس Aetius قد طرد غزاة آخرين – قبائل الهون، بالقرب من ترويس Troyes، فى عام ٤٥٣ –، فقد تمكن الفاندال بقيادة جينسيريك Genséric من نهب روما عام ٤٥٥.

الواقعة الأخيرة ليست معروفة تمامًا، لأنها كانت بلا شك لا تدعو للفخر: فى عام ٤٧٦، قام أودواكريه Odoacre، ملك الهيروليس (واحدة من قبائل الفاندال)، بعزل آخر أباطرة الغرب، رومُليوس أوجُسيتولوس Romulus Augustule، وحل محله وقام بنقل

الشعارات الإمبراطورية إلى زينون Zénon، حاكم القسطنطينية حينذاك: إذلال ما بعده إذلال للإمبراطورية الرومانية الغربية المحتضرة.

بصورة متناقضة، سوف يلقى اليهود من هؤلاء البرابرة معاملة أفضل من معاملة مسيحيي القسطنطينية لهم. لاريب أن القبائل الجرمانية كانت قد دخلت فى علاقات مع التجار اليهود، حتى قبل أن تقوم هذه القبائل بالتعرف عليهم داخل الإمبراطورية الرومانية، القادمين (تجار اليهود) إلى أراضى الشمال والشرق سعيًا وراء الكهرمان والفراء. هناك، وطبقًا للقانون الجرماني، كانوا قد طلبوا من الحكام المحليين، لقاء رسوم (إتاوة)، الحماية المستحقة للأجانب العابرين خلال فترة قضاء مشترواتهم. وقد حصلوا عليها قبل العودة إلى الإمبراطورية الرومانية والشرق دون أن يسعوا للحصول على الإقامة فى هذه المناطق: كان الجرمانيون فى حاجة إلى تجار يشترون منهم منتجاتهم ويحملون إليهم البضائع من باقى أنحاء العالم.

عندما انهارت الإمبراطورية الرومانية الشرقية، كان القانون الجرماني هو السارى: عامل الجرمانيون اليهود، بالمساواة مع المواطنين الرومان الآخرين، "كأجانب"

لهؤلاء المواطنين، أساسًا بلا رئيس، لم يعترف القانون العرفى الجرماني بأى وضع قانونى: لا تجرى معاقبة القتلة منهم، من يقوم بإيوائهم يكون مسئولًا عن تصرفاتهم، ليس لديهم الحق فى التملك ولا فى التوريث. إن لم يجدوا، بعد انقضاء عام ويوم، أى حامي، أو إن لم يتمكنوا من سداد الإتاوة التى يطلبها، يكون عليهم مغادرة البلاد أو أن يصيروا عبيدًا. تم استغلالهم كوسيلة، ثروة، أداة للتجارة.

عندما تحول هؤلاء البرابرة إلى المسيحية، فى القرن الرابع، لم نعد ندرى بالضبط مَن كان، مِن الرومان، الفاندال، الفرنجة، البرجنديين، أو القوط الغربيين، يتشبه بالآخر. الرومان المتمسحين مثل الفاندال أو القوط الغربيين الذين صاروا رومانًا أصبحوا مواطنين فى ممالك جديدة. وحدهم اليهود ظلوا «أجانب»، نافعين من أجل هذا، وراغبين فى البقاء هكذا.

يبدو أن كثيرًا من الجهود قد بذلت لدفعهم إلى اعتناق المسيحية أو على الأقل لمنعهم من إعاقة أولادهم من القيام بذلك. مع ذلك، فقد وجد من بقى منهم ثابتًا على دينه من السادة

الجدد معاملة أقل سوءًا من معاملة الأباطرة البيزنطيين لهم: تم إقصاؤهم عن المناصب العسكرية، لكن سمح لهم بإنشاء الوكالات التجارية.لأننا، فى الواقع، كنا فى حاجة إليهم: فى ظل حالة عدم الأمان التى تسود الطرق، فوضى العلاقات وقرقعة الأسلحة، كان اليهود، مع بعض التجار الإغريق الذين يطلق عليهم اسم "سورى –Syri" – كان من بينهم الكثير من اليهود أيضًا –، يؤمنون العلاقات التجارية وكذلك تمويل إنشاء القرى الأولى فى أوُروبا الجديدة.

برغم مما يجرى فى القسطنطينية، تحسنت علاقات اليهود بكنيسة روما التى ترغب فى حماية الشهود على حقيقة المسيح. فى عام ٤٩٥، أوصى البابا جيلاس الأول Gélase I أحد الأساقفة بالاهتمام بأمر واحد من اليهود «كان قد أسدى إليه خدمات جليلة». فى عام ٥١٢، قام ثيودوريك Théodoric، ملك القوط الشرقيين، متأثرًا بقنصله ومحافظه، الكاتب كاسيدورى Cassidore، بالإبقاء على حق اليهود فى الإقامة الحرة، إن «كان لهم بعض النفع العام» وأعاد لهم الاستقلال القضائى الذى نزعه الرومان عنهم عام ٣٩٨. فى عام ٥١٩، أجبر ثيودوريك حتى بعض المسيحيين على تمويل أعمال إعادة بناء بعض المعابد اليهودية فى رافينا والتى كانوا قد قاموا بإحراقها من قبل.

انحازت إسبانيا وحدها إلى صف القسطنطينية فى معاداة اليهودية. فى عام ٥٨٩، عندما تخلى الملك ريكاد Reccared عن العقيدة الأريانية، تحت تأثير البيزنطيين، واعتنق المذهب الكاثوليكى، أمر اليهود بتحرير عبيدهم، منع الزواج المختلط، أجبر أطفال اليهود على تلقى تعليم مسيحى، ثم ألزم كل اليهود بالاختيار بين التعميد وبين الطرد. فى عام ٦١٥، أعاد أحد خلفائه، سيسبوث Sisebuth، نشر هذه القوانين، مما يدل على أنها لم تكن مطبقة.

صار عدد اليهود أقل فأقل فيما تبقى من الإمبراطورية الرومانية. رحل اليهود باتجاه بابل التى صارت بارثية ليؤمنوا علاقاتها التجارية مع إمبراطورية الشرق.

٣- بابل، قلب العالم

فى الفترة التى تم فيها تدمير الهيكل الثانى، كان جزء من العبرانيين قد استقر ما لا يقل عن خمسة قرون فى بابل هذه، حيث ولد أبو الشعب، إبراهيم، تبعًا لما تقول الرواية التوراتية. يعرف كل اليهود أن ذلك المنفى الأول كان ميمونًا للغاية، لدرجة أنه عندما أذن لهم سيروس Cyrus بالعودة إلى إسرائيل، لم يفعل ذلك إلا القليل جدًا منهم. الكثير يعرف أيضًا أنه، بالرغم من التقلبات التى توالت مع الاحتلال الإغريقى ثم البارثى، كانت الجماعات اليهودية فيها تعامل باستمرار تقريبًا معاملة طيبة وتمكنت من الحفاظ على هويتها دون أن تخشى الاندثار. لهذا السبب، وبعد كارثة ٧٠ ب، التحق كثير من يهود مملكة يهودا وباقى أنحاء الإمبراطورية الرومانية بالأقاليم الفارسية. حركة واسعة للغاية إلى حد أن أكثر من مليونين من بينهم قد انتقلوا من إمبراطورية إلى الأخرى وذلك فى غضون قرنين من الزمان.

أقوياء فى بابل

فى ذلك العصر، كان البارثيون فى بابل، مع الصين وروما من بين أهم القوى الاقتصادية، السياسية، الثقافية والفنية فى العالم.

نشبت الحرب آنذاك بين روما والمدائن عاصمة البارثيين، للسيطرة على المجالات والطرق الإستراتيجية، من إسبانيا إلى الصين.

حروب باردة، حروب ساخنة، حروب مواقع، حروب حركة، حروب تجار وجنود. تغيرت الحدود؛ كانت قوات إحداهما تندفع أحيانًا إلى قلب الأخرى. حروب "مسامية"، لذلك: تتبادل الإمبراطوريات وجيوشها المتاع، الرجال، الأراضى؛ يسمحون بمرور القوافل والرسل. لا مجال لإغلاق الطرق أمام التجار، خاصة اليهود والإغريق.

على الحدود، ظهرت بعض المدن؛ استقرت فيها بعض الطوائف اليهودية فى أوضاع خطرة ولكنها كثيرة المزايا. مشكوك فى قيامها بالتجسس من قبل جميع الأطراف، ضحية لكل عمليات السلب والنهب، حاولت هذه الطوائف المحافظة على حيادها، تاجرت مع كل العابرين، مرتحلة حتى فى أمتعة سفر هؤلاء وهؤلاء. وهكذا نجد أثر التجار اليهود فى الجيوش البارثية كما نجده فى الجيوش الرومانية؛ كانوا يوردون لها الحبوب أو العتاد (كانت تجارة الأسلحة محرمة عليهم من حيث المبدأ)، أحيانًا كانوا جنودًا أيضًا، كما هو الحال فى مصر.

بشكل عام، اختار اليهود مساندة الفرس الذين أكرموا وفادتهم ضد روما التى دمرتهم. فى عام ١١٦، شارك يهود مصر فى انتفاضة ضد روما؛ ثم فى انتفاضة أخرى فى برقة Cyrenaïque ، ثم فى أخرى فى قبرص. فى كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية، يتهم اليهود على كل حال بتمويل حركات تمرد ضد روما. تنامى دورهم الاقتصادى لدى البارثيين، الذين تزايدت قوتهم التجارية.

صار اليهود أغلبية فى العديد من المدن، داخل الإمبراطورية البارثية: فى بابل نفسها Babylone، فى السلوقية Séleucie، فى نهارديا Nehardea، فى نيسبيس Nisibis، ماهوزا Mahoza، فى أصفهان Ispahan و سوس Suse، بل وأيضًا فى العديد من القرى المتناثرة فى فارس كلها وفى بلاد ما بين النهرين حيث تواصلت حياة طوائف من المزارعين، الحرفيين والتجار اليهود منذ قرون.(٣٤) خلال كل هذه الفترة، لم يظهر هناك أى أثر لنزاعات عنيفة، مذابح جماعية، اتهامات موجهة لليهود بعينهم.

لإدارة شئون هذه الطوائف التى سرعان ما جمّعت، مع المنفيين القادمين من الغرب، ما يقرب من مليونى شخص، اعترفت السلطة البارثية – كما فعل سيروس Cyrus فى زمن النفى الأول – بنوع من الحكم الذاتى لسلطة يهودية، حاكم أو رئيس المنفى (أو باللغة الآرامية، الجارى استخدامها باستمرار، resh galutha، "حاكم المنفى"). بعكس بطريرك أورشليم، مارس حاكم المنفى سلطة مدنية سياسية وليست دينية. امتد سلطان أحد الأمراء اليهود، المختار من بين سلالات حاكمة يفترض تحدرها مباشرة من داوود،

إلى كل طوائف ما بين النهرين. نشر نفوذه حتى على المقيمين، اليهود وغير اليهود، فى المناطق ذات الأغلبية اليهودية. خضعت لسلطته مدن مثل ناريس Nares، سورا Soura، بومبيديثا Pumbeditha، نهار – باكد Nahar – Paked وماهوزا Mahoza (حيث يعيش). أدار نشاطها الاقتصادى، الذى تتزايد أهميته بالنسبة للإمبراطورية أكثر فأكثر.

كان المدعو ناحوم هو أول من عرف من رؤساء المنفى exilarque تحت هذا اللقب، نحو عام ٧٥ قبل الميلاد، حتى و إن كان من الجائز وجود آخرين قبله، بل ربما منذ ولاية داريوس[٤٥]. امتلك ناحوم شرطة، جيشًا، ميزانية تمولها الضرائب المفروضة على الجماعات اليهودية والتى يتولى بنفسه تنظيم تحصيلها، وجهاز إدارى قضائى، مدنى ودينى. عين لكل طائفة حاكمًا. من بين أفرادها. كان يستطيع فرض عقوبات الغرامة، الجلد أو الحبس. فى بابل، قبل الجميع بهذه الملكية الصورية، كتذكار للمُلك فى يهودا، ولأنها تسمح بتحسين علاقة القوى مع الحاكم. لكن نظرًا لعدم وجود أى آية فى التوراة تفرض سلطته على الجماعات اليهودية، لم يتمتع بالمزايا التى يتمتع بها أى ملك: على سبيل المثال، كان مسئولًا عن تصرفاته (يمكن محاسبته) أمام جمعية الشعب ولم يتورع اليهود عن انتقاده. وضع مدهش لسلطة داخل السلطة سوف نجده مرارًا فى مصر، فى المغرب، فى بولندا. سوف يستمر هنا لمدة ألف عام، موفرًا لليهودية البابلية وسائل استقرار سياسى واقتصادى غير عادى وكذلك إبداعًا لاهوتيًا، ثقافيًا وماليًا لا نظير له.

السمعة والسند المالى (الكمبيالة)

فى الأرياف، كان اليهود تجارًا للمنتجات الزراعية والحيوانات اللازمة للزراعة؛ أحيانًا كانوا أيضًا فلاحين، مُربّى ماشية، عمالاً باليومية، مزارعين، وحتى مُلاك أراض. كان كثير جدًا منهم مرتبط بالأرض لدرجة أن المحاكم الدينية كانت لا تنعقد خلال شهرى نيسان وتشرى (مارس / أبريل وأكتوبر / نوفمبر)، فترة الأعمال الزراعية المهمة. كان المهاجرون الجدد والتجار القادمون من باقى بلاد الشرق الأوسط ينقلون إليهم التقنيات الجديدة، المنتجات الجديدة. لم تكن تلك هى المرة الأخيرة التى يأتى فيها هؤلاء البدو العابرون

بالجديد. بعد أن صاروا فلاحين، شكلوا طليعة التقدم الزراعي: غرسوا أشجار الزيتون في سهل الفرات، قاموا باستبدال زيت السمسم بزيت الزيتون كسلعة غذائية وكمادة للوقود. أدخلوا عسل النحل، التمر، النخيل وحتى الكروم إلى الطائف، بالقرب من مكة(٣٤). شرع أطباؤهم – المصَرح لهم بممارسة التشريح، من قبل الكهنة – في مكافحة الأوبئة التي تجتاح البشر والحيوانات في هذه المنطقة. مثقلين حتى الاستنزاف بالضرائب للطائفة، للملكية العقارية، للملك، كان المزارعون، يهودًا أو غير يهود، يتحولون إلى عبيد للدولة أو لأي شخص آخر، يهودي أو غير ذلك، قائم لتحصيل مديونياتهم، إذا لم يتمكنوا من سداد ضرائبهم أو ديونهم. لكن بينما كانت الدولة تصادر فورًا أراضي المدينين للضرائب في الإمبراطورية الرومانية، فإن العلاقات والفساد في بلاد ما بين النهرين كانت تسمح بألف حل وحل، ونادرًا ما كان المدينون يتحولون نهائيًا إلى عبيد.

في المدن، كان اليهود تجارًا، خبازين، صناعًا وبائعي جعة، نساجين، دباغين، صيادين، حمّالين، حدادين. ونظرًا لأن القضاة كانوا يمنعون ممارسة المهن المزعجة أو إجبار آخرين على ممارستها، فقد فضل اليهود العمل لحسابهم الخاص مع عدد قليل من الموظفين ، كانوا عادة أفرادًا من العائلة.لم يكونوا يحبون أن يكونوا أجراء ولا أن يكون لديهم أجراء ؛ كان رأسمالهم الأساسي هو اسمهم وسمُعتهم. يعتبر حرفيوهم أفضل خبراء الإمبراطورية في صناعة الصبغات، أشغال النحاس، اللؤلؤ، الزجاج، المعادن الثمينة(٣٤). كان البعض من الباعة الجائلين ويربحون بالكاد ما يقيم أودهم؛ آخرون من الصُياغ، تجار ذهب، تقريبًا نقي، ضاربي عملة ؛ أو أيضًا تجارًا كبارًا، يصدّرون الحبوب، النبيذ، الصوف، ويستوردون الحديد، الحرير، الأحجار الكريمة، عن طريق القوافل أو بواسطة السفن في البحر الأحمر وعبر المحيط الهندي(٤٥). كان البعض أيضًا يقومون بالإقراض لقاء رهن، يمولون زراعة المحاصيل وعمليات الشحن. كان تخصصهم هو المال واستجلاب كل جديد.

بالطبع، ظلت القروض بين اليهود وبعضهم بدون فوائد؛ لكن التجار كانوا يبتكرون باستمرار أساليب جديدة للالتفاف على هذا الحظر ، عبر تقاسم الأرباح والمخاطر. ازدهرت التجارة الدولية واحتاجت إلى الائتمان. ومن القسطنطينية إلى القاهرة، من بابل إلى أصفهان، من الإسكندرية إلى فاس، ظل اليهود، أصحاب أفضل شبكة معلومات في تلك

الفترة، مع الإغريق، أهم ممولى التجارة الدولية. محل غيرة شديدة من أغنياء بابل المقيمين، مثل هؤلاء التجار والمولون، العلماء و الرحّالة، أهدافًا نموذجية لكل الانتقادات، وشكلوا خطرًا يتهدد الطائفة بكاملها. فى بداية القرن الثالث الميلادى، أذعن أحد المصرفيين اليهود فى مدينة السلوقية - العاصمة القديمة للسيلوسيديين التى صارت معسكرًا حربيًا، ثم مدينة تجارية فى ظل حكم البارثيين - لضرائب فرضت عليه مؤكدًا أنها كانت « تؤمن وجودهم »، بينما "يطلق إلغاؤها ميول السكان إلى إراقة دم اليهود"(٢٤). سوف نجد العديد من الحالات التى اتخذ فيها نجاح أقلية ضئيلة ذريعة لعمليات قمع واضطهاد جماعية.

شعر اليهود بأنهم محميون جيدًا من خلال هذا التوازن وذلك حتى عام ٢٠٢، عندما هاجم أرداشير الأول Ardachir I، ملك إحدى المقاطعات الصغيرة المجاورة، الملك البارثى أرتابان الخامس Artaban V، اتخذ غالبية اليهود جانب الأسرة الحاكمة المهددة. ومع هذا فقد هُزم أرتابان. أقام أرداشير مملكته المعروفة باسم الساسانية وأنشأ عاصمة جديدة على شاطئ دجلة فى أرداشير أو قطسيفون Ctesiphon، على الضفة الغربية فى مقابل السلوقية أو سيلوسيا الواقعة على الضفة الشرقية التى ظلت العاصمة التجارية. تم الربط بين المدينتين بواسطة جسرين تحوطهما الأسوار المحصنة.

لم يغير السادة الجدد شيئًا تقريبًا فى تنظيم الدولة. حافظوا على النظام الدينى والتقسيمات الاجتماعية فى طبقات مغلقة، اعتمدت طبقة النبلاء العليا الجديدة على سادة من الصف الثانى ورجال الدين المزدكيين. لم يقترب أرداشير من تنظيم الطوائف اليهودية ولا من نظام حكومة المنفى؛ لم يأمر أحدًا بتغيير ديانته، لكنه وافق على منح بعض المزايا الضرائبية لأتباع ديانة السادة الجدد. لم تمنع الإدارة الساسانية اليهود من تشييد معابدهم بينما حظرت على المسيحيين، الذين بدأت أعدادهم فى التزايد، بناء أى كنائس.

بعد عشرة أعوام من الصراع الظافر نوعًا ما ضد أعدائه فى الشرق ، السكيثيين Les Scythes، اصطدم أرداشير بروما، من أجل السيطرة على بلاد ما بين النهرين وأرمنيا، المعبر نحو باقى آسيا. فى عام ٢٤٠ مات أرداشير، تاركًا خلفه إمبراطورية مزدهرة، مفتوحة أمام الفنانين، الأدباء والمثقفين، القادمين إليها من كل صوب، خصوصًا من اليهود. اجتذب

خليفته شاهبور الأول Chapour I، مزيدًا من اليهود ، الذين أصبحوا غالبية سكان مدينة قطسيفون، عاصمة الإمبراطورية.

ازدهرت حياة الطائفة اليهودية فى ذلك الوقت. غير أنه فى الوقت الذى تم فيه الانتهاء من صياغة المشناه، كان من المستحيل تقريبًا على يهود ما بين النهرين الحصول على تفسيرات وشروح الربانيين فى فلسطين: كان أى يهودى يقوم بنقل أى وثائق عبر الحدود بين الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية التى أصبحت ساسانية يعتبر فى نظر كل من المعسكرين جاسوسًا خطرًا، حتى إن تعلق الأمر بوثائق دينية.

فضلًا عن ذلك، لم يجر تناول الموضوعات المتعلقة بالمنفى فى أكاديميات يافنى وطبرية، ولم تكن المشناه تسمح ليهود بابل بالفصل فى كل حالة. كان لابد لهم إذًا من التزود بأسرع ما يمكن بوسائل وضع مذهب فقهى خاص بيهود الشتات، ولو اقتضى الأمر الابتعاد عن حكماء يهودا.

فى عام ٢٥٠، أنشأ الراف صامويل rav Samuel، طبيب، عالم فلك، قاض وحاخام، أول أكاديمية دينية فى نهارديا Nehardea. ولأنها كانت قد دمرت عام ٢٥٩ أثناء تمرد لحلفاء روما، فقد أعاد إنشاءها، فى مكان أبعد قليلًا وأكثر أمنًا، فى بومبيديتا Pumbedita، ثم فى سورا Soura حيث سوف تبقى لمدة ثمانية قرون. سينال رئيس هذه الأكاديمية لقب الجاون Legaon ("فخر" يعقوب). وقد كانت مكانًا للأبحاث بقدر ما كانت محكمة عُليا. يبدأ شباب العلماء بالدراسة فيها؛ بعد ذلك، وحتى سن الأربعين، يكتبون تعليقاتهم وتفسيراتهم الخاصة قبل أن يقوموا بالتدريس فيها بدورهم. كل أستاذ يمكنه أن يمنح لقب رابى —rav— إلى تلميذه، لأن، « كل من تلقى الترسيم يمكنه أن يمنح الترسيم(٤٠٨)». لم يكن العلماء منقطعون عن طوائفهم. بداية، خلال شهرى (آذار وأيلول) شديدى الحرارة، ينضم كل يهود المدن المجاورة إلى الطلاب من أجل الجلسات الكبرى، المسماة "كالاه" Kallah لتفسير التلمود فى الهواء الطلق. بالإضافة إلى ذلك، لا تدفع الطائفة أى أجور للمتعلمين، لكن عليهم أن يعملوا ليعيلوا أنفسهم؛ كانوا يمارسون التجارة، الطب، أعمال المصارف، زراعة البساتين والحدائق، الحرف المختلفة. على سبيل المثال، كان الرابى أبا

أريخا مؤسس أكاديمية سورا التلمودية، يدير تجارة الحرير المملوكة لعمه. الرابى هِيا rav Hiya يراقب الأسواق. الرابى صامويل، الذى يدير أكاديمية نهارديا، يتاجر أيضًا فى الحرير. كان البعض من الملاك العقاريين ويعيشون على عوائدهم منها. كان آخرون يسعون أيضًا للزواج من ابنة أحد العلماء الأثرياء، وعملهم اليدوى يصبح آنذاك رمزيًا للغاية. كان أغلبهم معفيًا من الضرائب.

وقع التنافس فورًا بين حاكم المنفى والجاون. لكن إذا كان للأول مبدئيًا سلطة إدارية على القضاة ويعامل الثانى باعتباره مجرد مساعد له، فإن الكهنة كانت لا تحترم موظفى حاكم المنفى، المتهمين بالعيش على الضرائب المقتطعة من اليهود:« من الأفضل اكتساب المال عن طريق عمل اليدين بدلًا من التمتع بثراء حاكم المنفى الذى يعيش على أموال الآخرين(٤٠٨)».

تحت حكم الساسانيين، كما كان الحال تحت حكم البارثيين، لقى اليهود معاملة أفضل بكثير من المسيحيين. فى كل مكان، فى مناطق المواجهة، كانوا حلفاء البارثيين بشكل عام، بينما أصبح المسيحيون من حلفاء روما. لهذا لعل الأباطرة الساسانيون قد حاولوا اجتذاب اليهود من الإمبراطورية المسيحية، بينما تدخل الأباطرة المسيحيون كثيرًا لصالح مسيحيى الإمبراطورية الفارسية. جرى تبادل السكان كالرهائن؛ وتدفقت البضائع بين الجهتين من جديد.

شعر اليهود بكثير من الارتياح فى بلاد ما بين النهرين حتى عام ٣٦٠، عندما حاول الإمبراطور الرومانى جوليان المرتد إقناعهم بمهاجمة الفرس، لم يدعُ كهنة بابل إلى حركة التمرد التى تأمل فيها القسطنطينية، لكنهم صرّحوا للتجار اليهود فى بلاد ما بين النهرين، منتكهين قواعد الدين اليهودى ، بتوريد الأسلحة إلى الجيش الفارسى.

مع ذلك، نادرًا ما ظهر اليهود فى حاشية الأمراء. تحت الحكم الساسانى مثلما كان الحال تحت الحكم البارثى – كما فى البلاد الخاضعة لروما تمامًا – ظلت السلطة السياسية بين أيدى العسكريين وطبقة أرستقراطية وراثية معزولة جدًا. العلاقة الوحيدة بين السلطات مع الطائفة اليهودية كانت عن طريق حاكم المنفى والضرائب: كل طائفة

تدين بمبلغ إجمالى على قدر عدد أعضائها. إذا لم يتجمع المبلغ فى التاريخ المحدد سلفًا، تطالب السلطة الإدارية الفارسية حاكم المنفى بالسداد، يسعى الحاكم اليهودى بعد ذلك إلى استرداد ما دفعه من الطائفة ويقوم فى نفس الوقت باقتطاع ضريبة جديدة ليتمكن من تشغيل موظفيه وتوفير أموال الصدقات. كان وكلاء حاكم المنفى يبدون جميعهم غاية فى الإلحاح فى جمع الضرائب. من نافلة القول إنهم كانوا مكروهين من الشعب !

كانت كل الطوائف، مهما كانت متواضعة، تقيم تنظيمًا متطورًا (معبد، مدرسة، حمّام شرعى...) بمجرد امتلاك الموارد اللازمة لذلك، وجدت هيئات تتكفل بإتمام مراسم الدفن، إيواء المسنين (بلا عائلات)، سداد أجور المعلمين، دفع المهور، تجهيز العرائس، أطعمة وملابس فقراء الطائفة أو العابرين.

تَطَوُّر التجارة على المدى الطويل، حمل التجار على ابتكار وسائل تمويل جديدة. وهكذا، مَثَّلَ السند أو الكمبيالة، الذى تم اختراعه فى تلك الفترة فى فارس، ربما بواسطة أحد اليهود[٣٤]، أحدث ثورة مالية واقتصادية عظمى لأنه سمح بتحويل الائتمان إلى دين مجرد وأتاح تحويله إلى طرف ثالث يتكفل باسترداده من المقترض الأساسى. ونظرًا لأنه لا يمكن أن يؤدى وظيفته إلا من خلال ثقة أطراف التعامل، كان التجار اليهود أفضل من يمكنهم استخدامه. ومع هذا، فقد ارتاب الحاخامات فى هذه الأداة التى توجسوا من أن تؤدى إلى جعل الديون قابلة للتحويل إلى أغراب. إذ إن الثقة، التى كانت بالنسبة لهم، أساس الاقتصاد، تفترض معرفة الشخص الذى يضمن قيمة الدين. الاسم، السُمعة كانا القيمتين الأساسيتين، من الواجب عدم نسيان ذلك أبدًا: إنهما من يسمحان بالحصول على أموال أثناء الرحلة التجارية بناءً على مجرد تقديم مثل هذا السند (لدرجة كبيرة وبحيث إن بعض التجار الفارسيين كثيرًا ما اتخذوا يهوديًا كشريك لتشملهم نفس الضمانة).

للتغلب على تردد العلماء (علماء الدين) وتحفظاتهم تجاه وسائل الائتمان الجديدة هذه، وضع بعض التجار، كانوا غالبًا من الكهنة أيضًا، ضمانات خاصة جدًا مخصصة للمقرضين محل الثقة : كانوا قد لاحظوا أن بعض الكهنة القادمين من فلسطين لجمع هبات من أجل طوائف يهودا كانوا يقدمون لرعاياهم الأسخياء صكوكًا ملكية رمزية تمامًا لقطع

من الأراضى الواقعة فى فلسطين، بحصص مساحتها أربعة أذرع[٣٤] – لم تكن لها بداهةً أى قيمة قضائية، لأن الأراضى هناك قد صارت ملكًا إمبراطوريًا كضمانات لقروض متفق عليها بينهم وكفالات لتحويلات بين التجار اليهود لدين على شخص غير يهودى. هذه السندات، التى لم يكن لها قيمة إلا ارتباط من يقوم بتحويلها بأرض إسرائيل، كانت تمثل فى نظرهم أفضل ضمانة لصلاحية الدين.

برغم هذه الابتكارية التمويلية، فقد ظل النشاط الائتمانى فى تلك الفترة هامشيًا للغاية، لم تكن النقود منتشرة إلا قليلًا وبقيت المقايضة هى القاعدة فى التعامل فى غالب الأحيان. ولذلك لم تهتم بها المحاكم اليهودية كثيرًا إلا فيما يتعلق بالتجارة الدولية.

للفصل فى نزاعاتهم، احتفظ اليهود فى الواقع بالحق الخاص بهم وحدهم والذى لا نجده لدى أى أقلية أخرى فى الإمبراطورية الساسانية فى عدم اللجوء إلا إلى محاكمهم الخاصة. فضلًا عن شروط القروض، وضعت هذه المحاكم عددًا كبيرًا من شروط تطبيق المشناه وحددت بوجه خاص أسعار البضائع، معدلات الفائدة، نظام تدرج الرواتب، صيغ العقود، كانت تقوم بمراقبة الأسعار، الموازين والمقاييس. تولد عن ذلك حزمة كاملة من التنظيمات، المخالفات، الاستثناءات، استخلص منها شروح الشروح التى ابتعدت شيئًا فشيئًا عن تفسيرات أورشليم.

٤ - المذهب الاقتصادى الجديد

التلمود و المال

الكتابة والنقود

معتمدين على المشناه الموضوعة عام ٢٠٠ فى فلسطين وفى بابل، فى يافتى وفى بومبيديتا، قام قضاة بابل، منفيون يتوجهون إلى منفيين، بتمحيص وتوضيح التوازن بين وجهات نظر الفلاحين، المتمسكين بالتقاليد، وآراء التجار، الرحالة وفقهاء (علماء)

المدن والموانئ، حاملى الأفكار الجديدة. كان هدف القضاة قبل كل شيء هو ضمان ترابط الطوائف اليهودية وانتقال القيم الأخلاقية من جيل لجيل. هذه الأفكار، سوف تشكل فى مجموعها إضافة إلى المشناه، ما سيطلق عليه بعد قليل "تلمود بابل"، خلافًا لذلك الذى تمت كتابته فى نفس الوقت فى فلسطين. ونظرًا لأنه من عمل طائفة غنية، فسوف ينتشر قريبًا بين كل الطوائف، أكثر من تلمود فلسطين.

فى ذلك العالم الفظ الخشن، الذى تحكمه علاقات القوة، ظهرت النقود شيئًا فشيئًا كصيغة أرقى لتنظيم العلاقات الإنسانية، تسمح بحل كل الخلافات بلا عنف، بما فى ذلك تلك ذات الطبيعة الدينية. كان واضعو التلمود، معظمهم من التجار، غالبًا من خبراء الاقتصاد، تميزت أحكامهم بدقة نظرية نادرة، وحتى بحداثة كبيرة. لدرجة أن واحدًا من كبار الاقتصاديين فى القرن العشرين ورنر سومبارت **Warner Sombart**، قد اهتم بها، وسوف يكتب "إن كهنة التلمود كانوا يفكرون كما لو كانوا قد قرأوا ريكاردو وماركس **Ricardo et Marx**، أو كما لو كانوا قد مارسوا لمدة سنوات وظائف وكلاء الصرافة فى (سوق أوراق مالية) **Stock Exchange**".[٣٩] سوف نرى أن دافيد ريكاردو وكارل ماركس وكثيرًا من وكلاء الصرافة فى **Stock Exchange** كانوا قد نهلوا هم الآخرون من هذه الثقافة...

سوف تطبق أحكام التلمود فى كل الطوائف اليهودية فى كل أنحاء العالم حتى نهاية القرن الخامس عشر بل وأحيانًا حتى إلى منتصف القرن العشرين. أى بعد خمسة عشر قرنًا من كتابة هذا المؤلف، الذى نقدم لكم ها هنا ملامحه الأساسية.

أحب الله بكل ما تملك

بداية، يظل الثراء دائمًا محل ترحيب[٤٠٩]. أعطى الله، خالق كل النعَم، الأرض للناس ليعمروها وليجعلوا منها إرثهم المشترك. بوجه خاص، كان المال، آلة لتحويل المقدس إلى مدنس، للتحرير من القيود، لتوجيه العنف، لتنظيم التضامن، لمواجهة متطلبات غير اليهود، فإنه مثل وسيلة رائعة لخدمة الرب والعمل من أجله. عنصر سحرى ضرورى

لحياة الشبكات اليهودية. لذلك، لا يدين التلمود، ليس بأكثر من النصوص السابقة عليه، الثراء ولا يمجد الفقراء.

غير أن الثروة ليست مكافئة: إنها تكليف. ليس على الغنى أن يعتذر عن كونه كذلك؛ لكن عليه فقط أن يشارك بنصيب أكبر من المسئولية فى إدارة العالم؛ ليس لأى غنى الحق فى التهرب من هذه المهمة. أن يصبح المرء غنيًا لم يكن إذًا علامة على حظوة إلهية، لكن على واجب إلهى، ولا يحصل الثرى إلا على ميزة إمكانية أن يكون نافعًا، أن يكون قادرًا على مساعدة الآخرين.

وعلى العكس من ذلك، يمكن أن تتكشف الثروة عن مصدر للخطر إذا كانت أنانية وميالة للتفاخر؛ إنها توجد الغيرة والتحاسد حينذاك ويمكن أن تفسد سلوك من يحوزها بتحويله إلى شحيح ومدعٍ مغرور. يجب أن يعيش الرجل الثرى إذًا بتواضع، بلا غرور وتكلف وبلا زهو ولكن أيضًا بدون استكانة زائفة. لا يجب أن يعيش كرجل فقير حتى لا يفقد الإحساس بما حظى به من امتيازات وأيضًا بما عليه من واجبات. وفرائض. يجب عليه أن يحيا كرجل غنى حتى لا ينسى أن يتقاسم النعمة مع الأفقر منه لا يجب أن تكون الثروة عقارية بشكل أساسى، لأنها تبدو حينها واضحة للغاية... بأكثر مما يجب، مؤدية إلى الغيرة والحسد، صعبة التصرف فيها لمن يكون عليه أن يغادر بأسرع ما يمكنه. لذلك يجب أن تبقى سائلة: المعدن الثمين هو أفضل صورها، الأرض هى أسوأها.

ليست الثروة أيضًا وسيلة إشباع كل الرغبات، التى لم تشبع منذ الزلة البشرية الأولى. إنها لا يمكن إلا أن تخلق الحاجة إلى تجاوزها بذاتها، الأمر الذى لا حدود له. الأكثر من ذلك، أن الاغتناء لا يكون مقبولًا ونافعًا إلا إذا تم بخلق ثروات عن طريق الابتكار والتجديد أو ابتداءً من أموال خصبة (ماشية أو نقود)، وليس عن طريق أخذه من الآخرين. وأخيرًا، بما أن كل النعم تأتى من عند الله، فالعطاء هو الاغتناء: الصدقة هى طريقة للاغتناء. وفى النهاية، فإن الثروة الحقيقية الوحيدة، هى الحياة. النقود يمكن تعويضها. لا الحياة. الثروة، متقلبة، ليست أهم ما يملكه الإنسان، بينما تمضى الحياة، غير قابلة للاسترجاع. لذلك يقر الكهنة لمزارع بأن ينهك أرضًا ليأكل أو ليدفع ضرائبه. أو أن تبيع طائفة أملاكها

لتتمكن من تحرير أحد العبيد أو الأسرى. أو ينتهك أحد حرمة السبت لإنقاذ حياة. ليس هناك إذًا أهم من الحياة، ولا حتى كلام الرب: إذا كان هذا ضروريًا لافتداء عبيد أو الحصول على وسائل للدفاع، يمكن استخدام الأموال التى جمعت لبناء معبد أو مكان للتعليم، وحتى بيع مخطوطات لنصوص مقدسة وأدوات إقامة الشعائر.

العلاقة المالية

بالأشياء والأجساد

يستخدم المال لتعويض أى خسارة، بما فى ذلك تلك التى وقعت بشكل عمدى، وحتى الخسائر البدنية. إنه يسمح بتعويض ضحية عن معاناتها، ويساعد على تفادى الوقوع فى شرك الأعمال الثأرية. يؤكد على رفض قانون تاليون (الثأر) الذى نادت به التوراة، ينص التلمود على كيفية التعويض بالتفصيل عن السرقات، الضرب، الجراح والإهانات. دارت مناقشات طويلة للغاية حول تحديد طبيعة ما يجب تعويضه بواسطة الجانى: "كل من يصيب آخر بجراح يكون مُلزمًا بتعويضه ماديًا عن الضرر اللاحق بقدراته المهنية، المعاناة البدنية التى أدت إليها هذه الجراح، الضرر المعنوى، تكاليف العلاج، توقف نشاطه العملى"،[٤٠٨] إضافة إلى ذلك، يكون التعويض متناسبًا مع الضرر الواقع، ليس وفقًا لثراء من ارتكب الخطأ.

غير أن، هذه المكافأة المالية، لا تعوض كل الأضرار. بوجه خاص، لا تستطيع النقود تعويض فقدان حياة ما: مهما كانت الغرامة فادحة فإنها لا تكفى إذًا للعقاب على جريمة قتل، الغفران أمر حتمى[٤٠٨]. على النحو ذاته، كل ما يمس الحياة لا يمكن مبادلته بالمال: على سبيل المثال، لا يمكن لرجل أن يبيع زوجته ولا أن يشترى لقب كاهن. ويمكن لأحد العبيد أن يتخلص من وضع العبودية، دون أن يتم افتداؤه، بمجرد أن يصير يهوديًا. بالمثل، وكما ما زلنا نعتقد – على غرار العديد من الحضارات الأخرى– بأن كل شىء صنعته أيدى البشر يحتوى شيئًا من روح صانعه، لا يُمْكن للمال أن يعوّض تمامًا قيمة الشىء المبيع. جاء بالتلمود (الباب الأوسط،٥١– أ) وحتى بصورة بالغة الجمال: (البائع يخسر)؛ مما يعنى أن بيع غرض ما، مثل التنازل عن الحياة الكامنة فيه، لا يمكن لأى مال أن يعوضها.

سوق نزيــه:

السعر العادل والحقيقى

يمثل الغش والخداع أفظع الجرائم: « يُعد خداع شخص ما بالقول تصرفًا أسوأ من الغش المادى[408]». بشكل خاص، يعد استخدام وزن مغشوش،فى سوق ما وإن كان بشكل طفيف جدًا، تجديفًا وإهانة للدين. السعر مثل العهد، تشير العبرية إلى « سعر غير عادل » بلفظة Ona'ah، التى تحيل إلى "كذبة" أو "إهانة" . بمعنى آخر، فإن بيع شيء ما بسعر غير عادل يحيل إلى معنى الكذب أو الظلم (سفر اللاويين، الإصحاح ٢٥، آية ١٤).

تحدد مجموعة من القواعد التلمودية الظروف التى يمكن من خلالها لسوق ما إن يبرز السعر العادل للسلع، مع أولوية مراعاة الطرف الأضعف ، أى المستهلك.

أولًا، يجب أن يستخدم السوق وسائل شريفة، خاصة نظام دقيق للأوزان والمقاييس. "الموازين المغشوشة تعد دنسًا وفحشًا (أمام الله)؛ الأوزان الحقيقية العادلة هى إرادته" (سفر الأمثال ١، ١١). وهو ما جاء من قبل فى سفر اللاويين (الإصحاح ١٩، ٣٥ - ٣٦): « إنك لن تخطئ فى الحكم، فى قياس الطول، فى الوزن، المحتوى، سيكون لديك موازين منضبطة وأوزان عادلة» ، فى الوقت الذى يقيس أو يزن الأشياء التى سوف يبيعها، يصبح التاجر مأمورًا قضائيًا، عند تحديده وزنًا أو طولًا، فإنه يصدر حكمًا. سوف تذهب بعض التعليقات حتى إلى اعتبار أن تحريم استخدام الموازين المغشوشة تقريبًا له مثل أهمية تحريم جماع المحارم « اتساع وفداحة نتائج هذا الغش فى الزمان والمكان[408]» على المنتج مسئولية إبلاغ عملائه بالتفصيل بطبيعة ما يبيعه لهم، لا يمكن للبائعين أن يتجمعوا فى ائتلاف تجارى للتحكم فى الأسعار إلا إذا كان تحالفهم يساعد على إيجاد "السعر العادل" لسلعة ما.

إذا ظهر أن سعر البيع بعد ذلك كان مبالغًا فيه، يمكن للمشترى أن يطالب باسترداد الفرق الزائد، إلا إذا أثبت البائع أنه قد أبلغ المشترى به قبل إتمام البيع. لكى يكون السعر عادلًا، لا ينبغى أن يتجاوز الربح مقدارًا "معقولًا" محددًا، فى حالة مجرد الوسيط

التجارى، بسدس سعر التكلفة، إلا إذا أثبت البائع الخدمة التى قدمها. بالنسبة للسلع ذات الضرورة القصوى – الغذاء والكساء –، يجب أن تحدد الطائفة أسعارًا يستطيع الفقراء دفعها للحصول على هذه السلع. يحدد الكثير جدًا من الشروح التى وردت فى التلمود، (الباب الأخير، ٩٠ ب) ظروف تحديد الأسعار، فى حالة نقص إحدى السلع الأساسية يؤدى الاهتمام بمصلحة المستهلك إلى السماح لقادم جديد بالتدخل فى سوق ما، إلا إذا لم يحمل جديدًا أو إذا أوجد وضعًا غير متكافئ مع التجار المستقرين فى السوق من قبل. بالعكس، ليس للمشترى الحق فى إبعاد مستهلكين آخرين للإبقاء على السعر منخفضًا.

الملكية

ملكية الأشياء ليست مطلقة أبدًا. فى مجال الملكية العقارية، يمكن مصادرة أرض ما فى حالة شغور التركة (عدم وجود وريث). يمكن للطائفة أن تسترد ملكية ما إذا كان ذلك «للصالح العام»، على سبيل المثال لإقامة مساحة خضراء، بناء مكان للعبادة أو مدرسة، للتخلص من التلوث، ضمان أمن الجماعة ضد جيرة خطرة، منع وإعاقة بيع أو تأجير أرض واقعة فى حى يهودى لشخص من غير اليهود. ولتحقيق ذلك ، يمكن للطائفة بذاتها، كما يقول تفسير المشناه (الباب الأول – ١١٤أ)، شراء الأرض محل النزاع، أو السماح فقط لجيران يهود بحق الشفعة استنادًا إلى الآية التلمودية: « لقد سمحت لأسد بالعيش على حدود ملكيتى" . كانت قيود التصرف فى الملكية الخاصة أكثر توسعًا من تلك التى أجازتها التصنيفات الرومانية لـ res nullius ،res omniu communes(العامة ، الاستثنائية) التى استلهمتها القوانين الغربية الحديثة.

لكون الملكية غير مطلقة، ظلّت السرقة تعاقب بأقل مما يعاقب به استخدام العنف. إذا ارتُكِبَت سرقة بوجه مكشوف (guezéla)، لا تطلب المحكمة من السارق إلا إرجاع الشىء المسروق أو سداد ثمنه؛ وإذا ارتكبت السرقة بدون علم الضحية أو قام بها سارق يخفى وجهه (guenéva)، فالسارق ملزم أيضًا بأن يدفع على الأقل ضعف قيمة ما استولى عليه. يمكن أن تصل عقوبة جريمة اختطاف شخص إلى الإعدام.

كما لو كان لتأكيد أن الملكية الخاصة لا يجب أن تعتبر مبدأً مقدسًا، فإننا نجد فى التلمود، مباشرة، بعد تحليل لرهان أساسى فى اليهودية – السبت – تحديدًا للسلوك الواجب الالتزام به فى هذا الخصوص: احترام ملكية الآخرين دون حماية ملكيته الخاصة. فى تفسير يحمل عنوان رسالة الآباء، يقول هليل Hillel بلغته الخاصة جدًا: «هناك أربعة أبعاد للرجل. ذلك الذى يقول: "ما هو لى فهو لى، وما لك أنت فهو لك،" فهذا رجل ضعيف . أما من يقول: "ما لى هو لك، وما هو لك هو لى" فهو رجل جاهل. من يقول: ما هُوَ لَكَ، هَوَ لى، وما هو لى، فهو لى، يكون رجلًا شريرًا. من يقول: "ما هو لى هو لك، وما هو لك فهو لك"، يكون حكيمًا.» بمعنى آخر، فإن الشراكة وحدها هى ما تستحق الاحترام والحماية[٢٩٦].

النساء والأرض

فى الشتات، حتى يعيشوا فى سلام مع جيرانهم، كان على اليهود مراعاة قانون الوسط الذى يعيشون فيه. على سبيل المثال، ونظرًا لأن تعدد الزوجات كان شائعًا فى بلاد ما بين النهرين، فقد كان يهود بابل كذلك – على الأقل من حيث المبدأ – بينما كان يهود الغرب قد تبنوا منذ وقت طويل مبدأ الزوجة الواحدة السارى فى الإمبراطورية الرومانية. وتمامًا كما وجد حاخامات العالم المسيحى نصوصًا فى التوراة لتحريم تعدد الزوجات، فإن حاخامات العالم البابلى قد وجدوا نصوصًا توراتية أخرى، لها نفس القطعية الثبوتية، لتبرير ذلك، منع أى تمييز شرعى بين الزوجات وحتى توجيه النصح بأنه من الأفضل اتخاذ ثلاث زوجات بدلًا من اثنتين لتجنب المنافسة. وفى المقابل، وبرغم أن ممارسة جماع المحارم كان شائعًا عند البابليين وعند المصريين، فقد ظل محرمًا بشكل صارم عند كل اليهود، فى أى مكان كانوا. وبينما كان الارتباط الحر محرمًا فى ظل التشريع الفارسى، فقد سمح به الحاخامات ومعه إقامة العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج معترفين بنفس الحقوق لكل الأطفال، شرعيين وطبيعيين. وكما كان الحال فى فلسطين وفى روما، شجع الربانيون فى الشرق كذلك الزواج المبكر، خاصة فى المدن. اعترف بمهنة المأذون كمهنة مُشَرِّفة، والتى كان من الممكن أن يمارسها أحيانًا أحد الكهنة.

كان عقد الزواج الموثق (المكتوب) يؤمن النساء ضد نزوات أزواجهن، كان حاخامات ما بين النهرين يستنكرون سلوك يهود الإسكندرية الذين يتزوجون دون تحرير وثيقة كهذه، على شاكلة « الناس الذين قد يجيئون من الشارع لاختطاف امرأة بغرض الزواج منها». بمعنى آخر، إن الزواج بامرأة دون تقديم ضمان عقد الزواج لها يعادل أن تعتبرها وكأنها غانية. مثلما يجرى داخل الطوائف اليهودية فى العالم المسيحى، فإن الشابات هن من يقدمن المهر أولًا إلى الزوج حتى يتمكن من مواصلة دراسته، ثم يسهم فيه والدى الزوج، ثم يحمله الزوج نفسه، أولًا إلى والدى الزوجة، ثم إلى الزوجة نفسها. يتم الاحتفاظ بهذا المهر احتياطيًا فى حالة وفاة الزوج أو وقوع الطلاق. يقوم الزوج بإدارة المهر وكذلك باقى ممتلكات زوجته ويحتفظ بحق الانتفاع به. تتكفل الجماعة بتوفير مهر أكثر الأفراد فقرًا. لا يعمل الكثير من النساء، إلا فى معاونة أزواجهن فى دكاكينهم الصغيرة أو لإنجاز أعمالهن المنزلية.

حاولت المحاكم اليهودية كذلك تنظيم علاقات اليهود مع البابليين. إذا تعرضت إحدى الطوائف اليهودية لنقص فى إحدى السلع الغذائية، يمكن للمحكمة أن تطالب بتجَنُّب بيعها إلى غير اليهود، حتى وإن أدى ذلك حتمًا إلى جلب المزيد من المال. وبالعكس، تطالب المحكمة وتوصى ببيع المواد الضارة أخلاقيًا إلى غير اليهود فقط. على سبيل المثال، وفقًا ليهودا بن بيتريا، فإن على طائفة من مزارعى الكروم أن تشجع بيع النبيذ إلى أغيار فقط "لأن بيع النبيذ خارج الطائفة (تصديره) يساهم فى الحد من الميول الشهوانية[٤٠٨]" فى داخل الطائفة. لكن لا يحق لأحد كذلك أن يتاجر فى سلع يمكن أن تحرض غير اليهود على القيام بأعمال غير أخلاقية. لذلك تحرّم المحاكم بيع الأسلحة إلى غير اليهود، وتحرّم بيع أى شىء يتعلق بعبادة الأوثان إلى أى شخص كان أو تماثيل تحمل وجوهًا بشرية يمكن أن تستعمل فى دعْم عبادات غير توحيدية.

توريــث

فى تلك الفترة، كانت الديانة اليهودية لا تزال تنتقل من خلال الرجال أو النساء. هناك قصة تلمودية طريفة تقول إن يهودية المرء يحكم عليها، فضلًا عن ذلك، من خلال

أولاده، وليس من خلال أبويه: لا يكفى أن يتربى المرء كيهودى حتى يكون يهوديًا، يجب عليه أيضًا أن يربى أولاده كيهود. بمعنى آخر، فإن الأهم بالنسبة لأى رجل، يهوديًا كان أو غير يهودى، ليس ما يتلقاه، ولكن ما يقوم بنقله إلى أبنائه. إن أهم مسئوليات الطائفة تتمثل إذًا فى نقل معرفتها إلى الجيل التالى. من هنا يأتى اشتراط الزواج من داخل الطائفة أو، على الأقل، التوصل إلى تحول طرفه غير اليهودى إلى اليهودية. سيكون علينا الانتظار عدة قرون أخرى حتى لا يصبح توريث اليهودية يجرى إلا عن طريق النساء فقط.

واجب الأم أو الأب الأهم تجاه أطفالهم هو تعليمهم القراءة. كانت المخطوطات نادرة وكانت الذاكرة أفضل وعاء للمعرفة. انتظم التعليم عبر المشاركة فى الصلوات العائلية وتمارين تقوية الذاكرة. هناك عشرات من الصفحات المكرسة للترتيب الذى يجب أن يتم من خلاله تدريس النصوص، ولقائمة النصوص التى من المناسب حفظها عن ظهر قلب، ولاختيار النصوص الدنيوية - أرسطو فى المقام الأول - التى يمكن قراءتها والسماح للأطفال بقراءتها.

يحدد التلمود أيضًا، شروط توارث وانتقال الإرث المادى. يرث الرجل عن زوجته، لكن المرأة لا ترث عن زوجها، فيما عدا الهبة المكتوبة. يحّرم الربانيون على أى أب حرمان أطفاله من الميراث ويفرضون، فى كل عقد زواج، تخصيص جزء من الميراث إلى البنات القاصرات: "هكذا يكون ترتيب الميراث: الأولاد الذكور ونسلهم من الذكور (إذا ماتوا قبل آباءهم) يسبقون البنات؛ البنات تتقدم أشقاء المتوفى، ونسل الأشقاء يأتى قبل أشقاء الوالد لكن الوالد الذى يعيش بعد أبنائه الذكور يسبق كل نسله" (الباب الأخير ٨ ب).

إذا كان الرجال هم أصحاب الأولوية فى الوراثة، فإن تعليم البنات يأتى قبل توريث الفتيان. "عندما يموت رجل تاركًا بنينًا وبناتًا فى الوقت نفسه، وإذا كان الميراث كبيرًا، يرث البنون ويخصصون من هذا الإرث ما يكفى للإنفاق على الفتيات حتى يتزوجن، أما إذا كان الميراث قليلاً، فيستخدم هذا المبلغ فى إعاشة الفتيات، سوف يسأل الأبناء الناس" (الباب الأخير ٩ أ).

العمل من أجل الحياة

فى المنفى، لا يمكن العيش على المَن كما حدث فى الصحراء، ولا على عطاء العشور مثل كهنة الهيكل (المعبد). لا أحد، ولا حتى الحاخامات والقضاة، له الحق فى أن يعيش دون أن يعمل. العيش على الإحساس ليس إلا الملجأ الأخير. «من الأفضل عدم الالتزام بيوم السبت على الاعتماد على إحسان الغير[٤٠٨]». العمل من كد يديه هو الفرض الأول على كل يهودى، مهما كان الوقت الذى يقضيه فى الدراسة، الصلاة، الحكم، التعليم. يورد التلمود أمثلة لا حصر لها لمعلمين، فى بابل أو فى يهودا، يكسبون أرزاقهم من العمل اليدوى: البطريرك يوهانان بن زكّاى كان إسكافيًا Yohanan ben Zakkai، الربانى يهودا- ها-ناسى Yehouda ha - Nassi كان خبازًا، راف هونا rav Houna كان مزارعًا، الربانى إسحاق Issac كان حدادًا. هناك معلم كبير آخر، مؤسس مدرسة مدينة سورا Soura، راف أبا أريخا rav Abba Arikha، سوف يرفض يومًا ما حتى الرد على تحية أحد تلاميذه، لأنه كان منهمكًا وقتها فى عمل يدوى ربما تسبب التوقف عنه بالإضرار بصاحب المال. حتى قراءة التوراة – فيما عدا وقت الصلاة – تأتى بعد العمل.

ولا يمكن للمرء إعفاء نفسه من طبيعة العمل المرهقة. وفقًا لطريقة خاصة به فى التفكير والاستدلال، يقيم التلمود الدليل على أن العمل من أجل الحياة هو بالضرورة أصعب مرتين من إعطاء الحياة (الإنجاب). ها كم الدليل. من ناحية قد جاء بالتلمود: «سوف تلدين مع الألم» (سفر التكوين الإصحاح ٣، الآية ١٦)، ومن ناحية أخرى: «سوف تحصل على قُوتك بمرارة» (سفر التكوين، الإصحاح ٣، الآية ١٧). لأن كلمة "مرارة" تضم ضعف المقاطع اللفظية التى تضمها كلمة "ألم" فما يجرى "بمرارة" وهو (العمل)، أصعب مرتين مما يجرى "بألم" وهو (الولادة). إحداهما معاناة معنوية، أكثر إرهاقًا ومشقة من الأخرى، معاناة جسدية. ولنفس هذه الأسباب، فاكتساب المرء لأسباب عيشه أكثر إرهاقًا ومشقة من اكتساب الأبدية، بل وأكثر تعقيدًا من شق ممر لعبور البحر الأحمر...

إن لم يستطع المرء تجنب أن يكون العمل شاقًا ومرهقًا معنويًا، فلا يجب أن يكون مُذلًا ولا مشينًا. وعلى هذا كانت بعض الأعمال محظورة ومنها الأعمال التى تتكرر حركاتها بلا

نهاية، الأعمال التى تكون نتائجه أغراضها غير أخلاقية، الأعمال التى تؤدى إلى اعتماد اليهودى على مشيئة ورضا غير اليهود. كان تفضيل الأعمال الحرة. الأشغال المنزلية، لا مناص منها، مقبولة، مع بعض التحفظ « مشينة للرجال وماسة بأخلاقيات النساء ». ولهذا كان من المسموح به وفقًا للعرف السائد فى تلك الفترة عند الأغنياء اقتناء عبيد من غير اليهود للقيام بها، لأنهم غير مُلْزَمين بنفس الالتزامات الأخلاقية، مثل تقديس يوم السبت.

وبرغم أن، العبودية كانت تلقى قبولًا أقل عما كان فى القرون السابقة: إذا كان ما زال من المسموح لأحد اليهود احتجاز أسرى الحرب والمدينين له، فإن ذلك الخضوع قد صار محددًا بسنة واحدة. ارتكازًا على الآية التى تقول إن العبد لابد « أن يشعر بالرضا فى دارك» (سفر التثنية، ١٥، ١٦)، استخلص كهنة بابل من ذلك تحريم الإبقاء على عبد يهودى ولو لحظة واحدة وأنه من الواجب أن يعوض على كل عبد آخر تحول إلى اليهودية؛ إذا استمر هذا الأخير فى رفضه لهذا العرض لمدة عام، لزم ساعتها بيعه من جديد.

فضلًا عن ذلك يوجد فى التلمود وصف للأنشطة المحرمة خلال يوم السبت أكثر تحديدًا بكثير ، من التوصيف الذى قدمته سابقًا أسفار موسى الخمسة تلك التى لم تكن تحرم سوى حمل أى وأقل شىء والابتعاد بأكثر من ألفى ذراع عن القرية التى يسكنها الشخص. تضيف هذه القائمة تحريم تسعة وثلاثين نشاطًا (المقدمة على أنها مهن وحرف مرتبطة ببناء المعبد (الهيكل)، يقدم تأملها معلومات ثمينة للغاية على مهن تلك الفترة، وحيث يلاحظ أيضًا رسوخ وتنامى الزراعة والأنشطة المرتبطة بها.

من المباح فى كل الأيام، لكن محظور من مساء الجمعة إلى مساء السبت، بذر الحبوب، حرث الأرض، الحصاد، جمع المحصول، تجميع الحزم، ضرب القمح، الدراس، تنقية وفرز الحبوب، الطحن والجرش غربلة الدقيق، العجن، الخبيز، جز الغنم، غسل الصوف، ضربه، صباغته، الغزل، النسج، عمل عقدتين، حبك حيطين، فصلهما عن بعضهما، عمل عقدة دائمة، فكها، خياطة غرزتين، الفتق بغرض إعادة عمل غرزتين، صيد أيل، إناخة حصان، سلخ حيوان، فرز، دباغة جلد حيوان، كشط جلد بغرض عمل ملبس أو لفافة للكتابة، تقطيع جلد، كتابة حرفين من حروف الأبجدية، محو حرفين من حروف الأبجدية، تشييد، هدم

بناء، إطفاء نار، إشعال نار، الدق بمطرقة لإتمام عمل ما، نقل شيء من مكان لآخر. يضاف إلى كل هذا، في نص آخر، محظورات تتعلق بالتجارة وبكثير من المهام المنزلية.

عندما لا يتمكن عامل من تجنب أن يكون أجيرًا في أحد الحوانيت، ورشة حرفي، أو لدى مجهز أو ممون سفن، فإن عليه أن يكرس لعمله كل الوقت المتفق عليه، بل إن لديه الحق في ألا يحيي صاحب العمل ولا ينطق بأقل صلاة شكر وتبريك بعد الأكل إن جار ذلك على ساعات عمله. في المقابل فإن صاحب العمل يدين له بأجر يتيح له أن يعيل أسرته بصورة كريمة ولائقة.

ليس هناك "أجر عادل" بينما يوجد "سعر عادل": يحمي التلمود المستهلكين بأفضل مما يفعل تجاه العمال.

يتولد الأجر عن "السعر العادل" بين الربح - المحدد، في بعض الحالات القصوى، بسدس سعر التكلفة - كلفة المواد الأولية والأجر، ما يتبقى بعد أن يتم سداد الباقي. لأن الربح محدد بحد أقصى، يمكن القول إن القيمة المضافة تمر أساسًا إلى المستهلك وإلى الأجير، وليس إلى صاحب المال.

فضلًا عن دفع الراتب، يجب أيضًا على صاحب العمل احترام كرامة أجيره. عليه أن يعامله كند له وأن- على سبيل المثال- يدعوه دائمًا إلى مائدته ليشاركه الطعام. يجب عليه أيضًا أن يدفع له راتبه المستحق. إن لم يفعل، فكأنما انتزع منه وقته، ثمار عمله، آماله وأحلامه، انتزع بشكل ما شريحة من حياته وهو يقترف حينها ما يعادل جريمة قتل، لأن الآخر «فقير وحياته مكرسة لهذا العمل»(تفسير تلمودي ، لسفر التثنية، إصحاح ٢٤ ، آية ١٤). الأمر يتعلق بجريمة في غاية الخطورة .«ينتزع القدير حينذاك حياة من ينتزع من الضعيف حقه ، وينتزع ممن انتزعوا قوت الضعيف أملاكهم التي جمعوها ظلمًا[٤٠٨].» لا يستطيع صاحب عمل، حتى يمتنع عن دفع الراتب، أن يكتفي بأن يقسم بأنه لا يدين له بشيء أو أنه قد دفع له راتبه من قبل؛ عليه أن يقدم الدليل المادي على سداد الراتب أو أنه لا يدين حقيقة بشيء. بينما يكفي العامل الأجير أن يؤكد أن صاحب العمل يدين له براتب حتى يكون الأخير مُلْزَمًا بسداده إليه. لأن صاحب العمل كما يقول سفر القضاة، لديه

العديد من الأجراء، يمكن أن ينسى دينه تجاه أحدهم، بينما الأجير، نفسه، فيعرف ما إن كان قد حصل على راتبه أم لا بالضبط.

الفقر غير المحتمل

الفقر، لا يمنع من حفاظ المرء على كرامته. قربان الفقير وعطيته الدينية يساوى قربان الغنى وعطيته، "ثور الغنى له نفس قدسية حفنة دقيق يقدمها فقير"[(٤٠٨)] الفقر لا يناقش، لايبرهن عليه، لا يتفاوض بشأنه. لا يجب علينا أن نطلب من شخص ما أن يثبت أنه يشعر بالجوع قبل أن نطعمه، لكن يمكننا أن نطلب منه أن يثبت أنه لا يملك كساءً قبل أن نقدمه له.

الفقر هو عدو الشعب. « يقف الرب أمام الباب مع الرجل الفقير» يقول أحد المقاطع بتصوير رائع فى سفر اللاويين(٣٤ ، ٩). يجب مكافحته حبًا فى الأهل (سفر اللاويين ١٩، ١٨)، بسبب أولوية الحياة المعترف بها (سفر التثنية الإصحاح ٣٠، آية ١٩)، للحفاظ على سلامة الشعب ولتجنب العنف.

غير أن الفقر قاهر لا يمكن التغلب عليه. لم يكن التلمود نصًا خياليًا: مستعينًا بخبرة قرون سابقة، يرى التلمود أن الفقر سوف يقاوم دائمًا وسوف يوجد بلا توقف. «أسوأ من خمسين آفة[(٤٠٨)]» ، كان الفقر دائمًا نتيجة أو سببًا لتقصير أخلاقى، لانتهاك وصية، لإنكار قول من كلام الرب أو لسوء الحظ الذى يتكالب على شخص ما. لإثبات ذلك، يخلط التلمود، كما فى غالب الأحيان، بين الحكاية والأسطورة واللعب بالكلمات. ها هو مثال ساطع على ذلك:

«يومًا ما، غادر الرافى يوهانان بن زكاى (البطريرك فى وقت الثورة) أورشليم، على ظهر حمار يرافقه بعض أتباعه. فى أحد الحقول رأى البطريرك امرأة تنقب فى روث البهائم باحثة فيه عن حفنة من حبوب الشعير. عندما لمحته، غطت المرأة نفسها بشعرها الطويل، اقتربت المرأة منه وسألته قائلة: "سيدى ! اعطنى شيئًا آكله". قال لها: "من أنت

يا ابنتى؟" أجابته: "أنا ابنة نكديمون بن جوريون" فسألها: "ابنتى ماذا جرى لثروة أبيك؟" أجابت "كما يقال فى أورشليم: ملح النقود يؤدى إلى نقصانها(٤٠٨)».

أثارت تلك الإجابة الغامضة ألف تعليق وتعليق. إنها يمكن أن تعنى أن أى استخدام للمال يؤدى إلى الإفلاس. لكن بعض الحكماء يشيرون إلى أن كلمة "نقصان" (h'asser) لا تختلف عن كلمة "إحسان" (h'essed) إلا بحرف واحد - الـ "d" فى محل الـ "r" ويقولون إ، هذا يوضح أن الفرق بين "الثروة"، "الإفلاس" ينجم عن مجرد خطأ إملائى، عجز فى التعبير بالقول. بمعنى آخر، فإن الفقر يمكن أن يكون نتيجة غلطة أخلاقية، وليس عن إدارة مجازفة للمال. لفت شرّاح آخرون إلى أن الملح هو الوسيط الأساسى لحفظ المواد الغذائية وأنه يكون بذلك رمزًا للتراكم. عندما قالت المرأة: "ملح النقود يؤدى إلى نقصانها"، كانت تقصد أن بخل والدها هو ما قاده إلى الإفلاس المعنوى، ثم إلى المادى. بينما ربما أتاح له سلوك عادل أن يمتلك فى نفس الوقت ما يبقيه غنيًا ويمكنه من العطاء بسخاء.

باختصار، تقول المرأة إن أباها قد أفلس لرغبته الشديدة فى الاحتفاظ لنفسه بالكثير.. بأكثر مما يجب . اختلاف فى حرف هجائى واحد - سلوك أخلاقى آخر - ربما كانت المرأة قد أكدت أنه قد صار غنيًا بسخائه.

فريضة أن يكون المرء خيّرًا

تستطيع المحاكم، وفقًا لتفسير رائع آخر، أن تجبر أعضاء طائفة ما «أن يتبادلوا فيما بينهم إسداء كل الخدمات الموافقة لمصلحة الطائفة(٤٠٨)». بمعنى آخر، إنه ليس للنقود معنى إلا إنها تتيح للمرء أن يكون نافعًا للآخرين؛ يؤكد الحكماء أيضًا أن الممتلكات المادية، مثل نافورة يجب أن يترك ماؤها ليسيل، المال ليس سوى وسيلة للخلق ولأن يكون المرءُ نافعًا. الإصرار على اكتنازه هو جنون قاتل، العطاء عمل أخلاقى، وسيلة للاغتناء.

كما فعل بشأن الملكية، مَيّز التلمود بين أربعة أشكال للسلوك تجاه الهبة أو العطاء: «من يرد أن يعطى إذا لم يعط الآخرون يرغب فقط فى التميز عن الآخرين، ذلك الذى يرغب

أن يعطى الآخرون، وليس هو، يريد التخفى بين الآخرين؛ ذلك الذى لا يعطى ويمنع الآخرين من العطاء، شرير؛ أما من يعطى حتى وإن أعطى الآخرون أيضًا فهو رجل حكيم(٤٠٨)».

العطاء مجرد واجب دنيوى، أرضى، ليس قربانًا يضمن الخلاص أو الأبدية. إنه يتوجه أولًا إلى اليهود الآخرين، لكنه يتوجه أيضًا إلى كل من لا يعبد الأوثان. كانت المسيحية فى تلك الفترة تُعتبر وثنية فى عيون اليهود، بسبب عقيدة التثليث (الثالوث المقدس). بعكس ما هو عليه فى المسيحية، فإن عمل الخير لا يمثل ضمانًا للحياة الآخِرة، لكنه واجب إنسانى فقط، مسئولية جماعية. هكذا، ستكون أى طائفة ملزمة بالمسئولية عن السرقات والجرائم التى تقترف فى جوارها، لأنها لم تكن قادرة على تجنب انتشار الفقر من حولها.

على كل عضو فى أى طائفة إذًا واجب أن يدفع إلى هذه الطائفة ضريبة ينبغى أن يعاد توزيعها بالكامل على الفقراء. المعيار العادى لهذه الصدقة – La tsedaka – هو، كما فى وقت سليمان، عُشر موارد الشخص من أى طبيعة، على سبيل المثال، فإن أى مزارع أو مالك أرض زراعية عليه أن يدفع عُشر ناتج حقوله، قطيع ماشيته أو كرومه، بعد اقتطاع العُشر الذى يدفع لكهنة المعبد (الذى آل إلى لا شىء تقريبًا، فى فلسطين، والمنفى، منذ تدمير المعبد (الهيكل). يجب على المزارع أيضًا أن يسمح للفقراء أن يأتوا بعد الحصاد لالتقاط الحزم والسنابل الساقطة وكذلك حبات العنب المتساقطة أو غير الناضجة. فضلًا عن ذلك، فإن ركنًا من حقله مخصص لغيره: إنه لأى غريب، يهودى أو غير يهودى. ثم إن الفلاح اليهودى لا يمكن أن يكون راضيًا عن محصوله إلا إذا كان محصول الركن المخصص للغرباء وافرًا معتبرًا. بل يجب أن يدفع الغنى حتى ضعف الصدقة – أى خُمس موارده – لكن ليس أكثر من ذلك، حتى لا يعرض ثروته للتهديد. ولا يجب عليه كذلك أن يخفى ثروته بغرض تقليل عطائه فقط. يقول التلمود: إن الغنى يجب أن يتناول أطايب الطعام وأن يعيش فى رغد حتى لا يقع فى إغراء محاولة نصح الفقراء بتقليد زهده وبساطة مأكله! والغنى الذى يتوقع أن يتناقص ماله يجب أن ينتزع منه ما يكفى للقيام بواجب الصدقة لاحقًا مثلما تظهر ذلك تلك الحكاية التلمودية الساحرة(١١٨).

« رأى الحكيم يوهانان بن زكاى (هو ذاته مرة أخرى !) فى منامه أن أولاد أخيه كانوا على وشك أن يفقدوا ٧٠٠ دينار. دون أن يخبرهم، أقنعهم أن يعطوه كل ما يملكون للتصدق به، وألا يستبقوا سوى ١٧ دينارًا. قبل الشباب بذلك. عشية يوم كيبور (الغفران)

استولت حكومة الأغيار(*) على كل أموال اليهود. قال الكاهن يوهانان لأولاد أخيه: « ليس هذا بالأمر الخطير، فلم يكن معكم سوى ١٧ دينارًا، وهذا هو كل ما أخذ منكم". فسأله أولاد أخيه: "كيف عرفت بذلك» فأجاب: "من خلال حلم" سألوه: "لماذا لم تقل لنا شيئًا؟" رد الرجل: "لأني كنت آمل أن تدفعوا الصدقة بصورة متجردة(٤٠٨)».

بصورة جميلة أيضًا يقول التلمود، في هذا الشأن يجب "جز الشياه قبل أن تعبر المخاضة"(٤٠٨)

يجب أن تجرى الصدقة دائمًا فى الخفاء والستر. إن قدمها الواهب بطريقة ظاهرة متباهية، فلأنه ينتظر من ورائها مقابلًا؛ فتصير حينذاك فعلًا تجاريًا، عملًا غير مشروع، يؤدى إلى كوارث: من يقوم بها على هذه الصورة يستلفت أنظار وانتباه الحكام والحاسدين، ومن يتلقاها بهذه الطريقة يكون ضحية لـ "إهانات نرجسية".

يوضح التلمود وجه الاستخدام الذى يجب أن توجه إليه النقود التى يتم تحصيلها. بعكس الكنيسة، التى شرعت فى تثبيت أقدامها وآنذاك، لا يُحتفَظ بشىء منها للاعتناء بأبهة وفخامة دور العبادة. الأولوية لدفع فدية العبيد، أسرى الحرب، التجار الذين تعرضوا لنهب القراصنة. لكى لا يحّرض ضمان الافتداء هذا على أخذ اليهود كرهائن، فقد أعلن جهارًا نهارًا أن الطوائف لن تدفع أكثر ما يدفع عادة لافتداء عبد أو رهينة غير يهودية. وحتى لا يسعى اليهود المبذرون إلى الاستدانة بلا حدود، فإنه من المعلوم أن الطائفة لن تدفع إلا ضعف فدية العبد لسداد ديون أحد أعضائها، إلا إذا كان هناك بعد ذلك خطرًا على حياته. من جانب آخر تؤمن الصدقة تمويل إعاشة الأيتام ومهور الفتيات الشابات الفقيرات، استقبال المسافرين العابرين واستضافتهم، رواتب المعلمين، كساء « العراة، وقود الطهو لمن لا يملك، امرأة أو زوج لعزباء أو عازب، بل وحتى خادم لغنى صار فقيرًا(٤٠٨)» لأن التلمود ينصح بمساعدة غنى قديم بأكثر مما يدعو إلى مساعدة رجل فقير على الدوام، أخيرًا، فإن الصدقة ينبغى أن تكون فى عون من لا يحتاج إلا إلى معونة مؤقتة.

(*) كل (غير اليهود). يعتبرون أجانب أو أغرابًا عنهم أى أغيار. (المترجم – عاصم)

لتجنبهم الاضطرار إلى بيع ممتلكاتهم فى الوقت غير المناسب. هنا تأخذ الصدقة صورتها الأكثر اكتمالاً: إقراض المال بدون فائدة.

إقـراض المال

إن أفضل طريقة لتحقيق العدالة تتمثل فى الواقع فى إقراض المال أو الموارد المادية إلى من لا يملك أى موارد أو من يمر بصعوبات عابرة. القرض يجب أن يكون حينذاك بلا فائدة:« من الجائز أن يتم السداد على دفعات ، لكن ذلك لا يجوز إذا كان مجموع الأقساط أكبر من المبلغ المدفوع نقدا»(الباب الأوسط ٧٠ ب). بل إن الكاهن جامليل قد أوصى بإقراض الأفقر بخسارة.

بصورة أعم، يظل من المحرم، مثلما كان الحال دائمًا، إقراض فرد فى الطائفة بفائدة. كان هذا التحريم قطعيًا وتكرر كثيرًا فى النصوص المقدسة:« لا تقبل من أخيك لا "عضة" "Néchékh" ولا "زيادة فى القيمة" "ribbit" لكن اتق ربك وليعش أخوك معك». (التثنية، ٢٠،٢٣، مفسرة فى التلمود — الباب الأوسط ٦١-أ) العضة تشير إلى الفائدة التى يدفعها المقترض؛ زيادة القيمة هى الفائدة التى يتلقاها المقرض. يرى بعض العلماء ، أن تحريم الفائدة هذا لا تبرره مجرد المجازفة بأن يصير الغنى فقيرًا، بل يبرره أيضًا حقيقة أن الرجل لا يملك الوقت. غير أن الفائدة تنقل الوقت من المقترض (الذى يكون الوقت بين دفعتين بالنسبة له قصيرًا للغاية) إلى المقرض (الذى يكون هذا الوقت بالنسبة له طويلاً للغاية). الفائدة ليست إذًا، كما تقول العقائد اليونانية والمسيحية، هى بيع لوقت المقرض إلى المقترض، لكنها على العكس، هى سرقة لوقت المقترض بواسطة المقرض الذى يتلقى فائدة زيادة على ذلك.

يمكن و مع هذا ، فى حالات بعينها، إقراض أحد أفراد الطائفة بفائدة، على سبيل المثال، إذا لم يعد الشخص يمتلك أى مصدر للدخل هنا يكون المقترض هو من يتصدق من خلال دفعه للفوائد. غير أن المقرض لا يجب أن يضع نفسه طوعًا فى موقف الاعتماد على عوائد القروض ليكسب رزقه، ويدين التلمود مقرض المال المحترف (الماكوت ٢٤ أ؛ نيداريم ٤٩ ب).

يرى بعض علماء الدين أنه، إذا لم تكن هذه الممنوعات تتعلق إلا بالقروض بين اليهود وبعضهم، فذلك لأنهم خاضعون لضرورات وشروط أسمى؛ ويرى آخرون أن ذلك بسبب أن غير اليهود يعيشون فى وضع أكثر استقرارًا وأمانًا، ويتعرضون بصورة أقل لخطر أن يصبحوا فقراء. فى حين لم تكن الفوائد بين اليهود ممنوعة إلا بدوافع التضامن والتآخى والبر فيما بينهم، فقد كانت النقود، خارج المجتمع اليهودى ، حية وينبغى تشغيلها؛ النقود خصبة، مثلما كانت قطعان يعقوب، وكانت الثروة طيبة طاهرة. إنها مال لا تختلف عن غيرها، إنها حية مثل صور المال الأخرى. يرى بعض القضاة، أن العلماء وحدهم، ووحدهم فقط، يمكنهم الإقراض بفائدة، إلى غير اليهود، لأنهم يعرفون أفضل من غيرهم كيفية التعامل معهم. وأخيرًا، بالنسبة لآخرين، فإن إقراض غير اليهود بفائدة كان بالنسبة لكل اليهود فرضًا ملزمًا، واجبًا أخلاقيًا.

فى نهاية الأمر، بعد العديد من المناقشات وكثير من المعارضات، سمح التلمود فى كل الأحوال بإقراض غير اليهود بالفوائد كما سمح به بين اليهود وبعضهم شريطة اعتبار المقرض شريكًا للمقترض.

مجتمع إيثارى بالضرورة:

"إصلاح العالم"

إجمالًا، تبلّور فى التلمود، أساس الأسلوب اليهودى فى الاقتصاد: لا شىء ينفع لليهود إلا إذا كان نافعًا لغيرهم أيضًا. إنهم لا يستطيعون إذًا العيش هانئين سعداء فى بيئة ليست كذلك. ولهذا يتعين عليهم "تقويم العالم" (tikoum olam)، لأن العالم، تقول المشناه، قد نتج عن «تكسر الآنية[٤٩](*)» دور الشعب اليهودى هو المساعدة على إصلاحه، بأن يكون متضامنًا مع كل البشر الآخرين.

(*) المعنى التوراتى.. هو انفصال الطبيعة المادية عن النور (الإله).. المرحلة الثانية من مراحل خلق الكون الثلاث بحسب العقيدة اليهودية. (المترجم – عاصم عبد ربه)

إننا نجد أثرًا لضرورة إيثار الغير هذه فى العديد جدًا من الشروح والتفسيرات(٤٣). هكذا يتساءل التلمود كيف يجب على اليهود أن يحبوا الله. الإجابة: أن يحاولوا بشكل ما، بمثالية تصرفاتهم، بسلوكهم المُؤْثِر للغير، أن يحب الآخرون هذا الرب الذى يحث عباده على مثل هذا السلوك.

لقد رأينا هذا، فمن يزرع حقلًا عليه أن يترك جزءًا من ثماره للأغراب. من هنا تأتى أيضًا حتمية التمسك بالشرف والأمانة، تحريم اللجوء إلى الغش وارتكاب أفعال مُضرة بالآخرين – يهودًا كانوا أم غير يهود – استغلالاً أو الاستيلاء على حقوق أى من كان. ومن هنا أيضًا تنبع حتمية حسن استضافة الغرباء، عدم نسيان أننا قد كنا – أو من الممكن أن نكون – غرباء. ومن هنا أخيرًا يتأتى واجب أن نضيف إلى ثروات العالم، لا أن نختلسها من ثروات الآخرين. وبناءً على ذلك، فإن الاقتصاد لا يقوم على أخذ ثروات أهل الجوار، ولكن خلق ثروات جديدة، حتى لا يحرم أحد من ممتلكاته. من هنا كانت أهمية الأموال الخصبة التى تخلق ثروات جديدة: الأرض، المال، العقل.

هنا تكون وظيفة الاختيار (الخروج ١٩ والتثنية ٢٦)، التى تفرض على الشعب اليهودى واجبات، مقبولة بملء الإرادة، وأولها واجب إسعاد الآخرين، والشعور بالسعادة فى سعادة الآخرين. يقول الكاهن الأكبر هانا نايل Rabbenu Hananael: «لا يكون اليهود أبدًا أفضل حالًا، إلا إذا كان الآخرون فى وضع أفضل».

وبالتالى، فإن من صالح العالم أن يُتْرَك لليهود ما يكفى من الحرية حتى يتمكنوا من القيام بهذا الدور. ولهذا، بحسب تفسير تلمودى (سوكا ٥٥ب – soukka ««b)، فإن العالم يكون فى أفضل حالاته عندما يكون اليهود أحرارًا وبالتالى قادرين على التوسط لصالحه. عليهم أن يعاملوا التوحيدين كأنداد لهم وأن يغفروا للمشركين حتى يتخلوا عن عبادة الأوثان.(٢٩٠) نكبة الشعب اليهودى وتعاسته إذًا هى نكبة وتعاسة للبشر أجمعين.

فى أثناء كتابة هذه النصوص، من القرن الثالث إلى القرن الخامس، تحت الإشراف المتتابع لكبار الكهنة، راف يهودا rav juda، راف هونا rav Huna، راف ناهمن rav Nehman، راف بابا rav papa، راف أشى rav Ashi، عاش اليهود وسكان بلاد ما بين

النهرين فى توافق، قام طرف بالمجازفات التجارية التى لم يرد الطرف الآخر القيام بها. كان مجموع التعليقات والتفاسير التى تم تحريرها نحو عام ٤٢٠ تحت إدارة الربانى آشى Ashi أكبر حجمًا بأربعة أمثال ما كتب فى أورشليم. لكن، فى منتصف القرن الخامس، بينما كانت الإمبراطورية الغربية تتهاوى تحت الضربات المتتابعة للعديد من الغزاة البرابرة، رأينا الحركات المتطرفة تظهر فى بلاد ما بين النهرين وفى الأوساط المزدكية (الفارسية القديمة). تمرد حاكم المنفى فى ذلك الوقت، مار صامويل Mar Samuel، لكنه اغتيل. كون الحاكم الجديد، مار زوترا الثانى Mar Zutraii، جيشًا وأعلن استقلال الدولة اليهودية، التى ضمت المدن الرئيسية ذات الأغلبية اليهودية من مملكة بابل، إلى أن مات فى عام ٥٢٠ ميلادية، بعد أن صمد لمدة سبع سنوات.

عطلت هذه الأحداث أعمال تحرير تلمود بابل – الجومارا Gumara – لأكثر من قرن بعد الانتهاء من كتابة تلمود إسرائيل – جومارا إسرائيل.

كان الوضع آنذاك مقلقًا جدًا للشعب اليهودى: أساءت القسطنطينية استقباله، مضطهدًا فى بلاد ما بين النهرين وفى روما، مطرودًا من أورشليم، لم يعد لديه الكثير من الأماكن ليذهب إليها. مضطرين، تشبه اليهود بأهل هذه البلاد واندمجوا فيها. لم يعودوا أكثر من خمسة ملايين بعد أن كانوا ثمانية منذ خمسة قرون خلت[٣٥]. غادر كثير منهم الإمبراطورية الساسانية ليستقروا فى اليمن، الجزيرة العربية، فى الهند، فى البلقان. اعتنق واحد من ملوك جنوب جزيرة العرب، ذو نوار Dhu Nuwar، اليهودية فى بداية القرن السادس الميلادى، ما أدى إلى وجود طائفة الفلاشا Falasha فى الحبشة. على ساحل مالابار Malabar (أو كيرا لا اليوم)، أنشأ مهاجرون قادمون من قطسيفون طائفة يهودية ستقوم، حتى القرن السادس عشر، بدور مهم فى تجارة الفلفل.

بين بيزنطة وروما، تجلت فرصة جديدة لإسرائيل فى فلسطين.

٥- بين روما وبيزنطة

فرصة إسرائيل الجديدة

البابا ضد بيزنطة

عندما صار جوستنيان Justinien إمبراطورًا فى عام ٥٢٧ بموت عمه جوستان الأول Justin I ، قام بقمع حركات التمرد (ومنها واحدة فى عاصمته ذاتها عام ٥٣٢)، ثم جمع إدارة الإمبراطورية وإدارة الكنيسة. ترك إدارة أمور الإمبراطورية الغربية لمثله، حِبْر الكنيسة الشرقية، الذى يقيم فى رافينا Ravenne والذى كان له أن يتصدر البابا (يسبقه قدرًا). وقع بنفسه على معاهدات واتفاقيات لاهوتية، قام بالتحكيم بين مختلف التيارات المسيحية، مفضلًا «النيقيين» - الذين يرون أن يسوع متحد فى الجوهر مع الله ومتواجد معه - عن «التوحيديين» - الذين يرون أن يسوع هو المعادل للرب - المسيطرين آنذاك فى الشرق. فى عام ٥٣١، قام بتجميع كل الشرائع الموجودة فى تقنين واحد، موفقًا بين أرثوذوكسية (أصولية) الكنيسة واقعية الإمبراطورية[٢١]. بشأن قضية القروض، على سبيل المثال، استعاد التقليد الرومانى الذى يسمح فى بعض الحالات بفائدة ما، كما هو الحال فى التجارة البحرية، المحددة بـ ٣٣٪ فى العام كحد أقصى، لقاء المخاطر التى يتعرض لها هذا النشاط. ولأنه كان لا يزال يرى فى اليهودية منافسًا فى العالمية، فقد اشترط جوستنيان على كل طائفة تكريم وإعلان بيعة الولاء والطاعة لكل إمبراطور جديد وكل بابا جديد. منع هؤلاء « الذين يعتقدون فى الخرافات اليهودية، المهرطقين، المانويين والسامرائيين [٢١]» ، من الشهادة ضد أى مسيحى، توسيع المعابد الموجودة، بناء معابد جديدة، أو ممارسة أى مسئوليات محلية. حول المحاكم الدينية إلى مجرد هيئات تحكيم وفرض إقامة مراسم الزواج تبعًا لقواعد القانون الكنسى. سمح لليهود باقتناء وبيع العبيد الوثنيين بشرط تحرير من يعتنق المسيحية.

فى عام ٥٣٢، أبرم أحد قواده، بليزير Bélisaire، سلامًا مع العاهل الساسانى خوسرو الأول أنوشروان Khosro IAnushir van، يسمح للتجار البيزنطيين باستخدام الطرق فى آسيا والمتاجرة مع يهود قطسيفون وسائر أقاليم الإمبراطورية الفارسية. بعد

ذلك بثلاث سنوات، استعاد بليزير، على رأس جيش قوامه اثنا عشر ألفًا من الجنود، مدينة رافينا من القوط الشرقيين وسيطر كذلك على جنوب إيطاليا وجنوب إسبانيا وجعل من طليطلة **Toléde** حاضرة حقيقية. وحيث إن يهود روما، نابولى، ميلانو، جنوة وباليرمو كانوا قد انحازوا إلى جانب الفاندال والقوط الشرقيين ضد البيزنطيين – دافعوا مثلًا عن نابولى ضد الجيش البيزنطى – فقد أقصاهم بليزير عن الخدمة العسكرية وكل الإدارات العامة. فى عام ٥٣٥، اعترضت المجمعات المسكونية فى كليرمون **Clermon** وماكون **Macon** على وجود اليهود فى الوظائف العامة والقضائية فى الإمبراطورية. فى أعوام ٥٣٨، ٥٤١، حاولت مجمعات أورليان **Orleans** من جديد حظر أى علاقة بين اليهود والمسيحيين. لكن دونما جدوى دائمًا. فقد تمسكت الطوائف اليهودية بهويتها العميقة.

فى عام ٥٤٦، استعاد القوط السيطرة على روما، لكنهم تعرضوا للهزيمة مرة أخرى على يد البيزنطيين فى عام ٥٥٥. فى عام ٥٦٥، وبموت الإمبراطور جوستنيان، الذى لم يغادر القسطنطينية أبدًا، عاد البحر المتوسط إلى سيطرة الإمبراطورية الشرقية. لكن القوة العظمى، كانت مرة أخرى، على وشك السقوط: بعد ذلك بثلاث سنوات، هاجم برابرة آخرون، اللومبارديون، إيطاليا بينما هاجم الفرس القسطنطينية. تحت ولاية جوستان الثانى، ثم فى عهد تيبيريوس **Tibére** وموريسوس **Maurice**، ابن جوستان الثانى بالتبنى، استنزفت الإمبراطورية فى هذه النزاعات الكثيرة التى لا تنتهى.

فى عام ٥٩٠، طالب البابا جريجور الأول التقدم والصدارة على حبر الكنيسة الشرقية فى رافينا، ممثل الإمبراطور البيزنطى فى إيطاليا[٣]. كان مشغولًا للغاية بتوطيد أركان سلطته وبالصراع ضد ظهور الأريانية من جديد، رفع البابا القيود التى تمس اليهود[٣٠٨]. فى عام ٥٩١، منع أسقف تيراسينا **Terracina** من نقل أحد المعابد اليهودية بذريعة أن الصلوات اليهودية كانت تزعج المؤمنين فى كنيسة مجاورة، وأمر بتعويض الطائفة اليهودية فى باليرمو لأن المعبد وأماكن استضافة الفقراء كانت قد صودرت. وتمادى فى ذلك حتى إلى توجيه اللوم إلى أحد اليهود المتحولين إلى المسيحية لأنه وضع صليبًا وصورة للعذراء داخل أحد المعابد[٣٣٦]. شجع اليهود على ممارسة الأنشطة الاقتصادية الضرورية للمسيحية، لكنها محظورة على المسيحيين. على سبيل المثال، تشغيل العبيد

«كونه ضروريًا لتسيير العمل فى الإقطاعيات المسيحية الكبرى» ومن ضمنها إقطاعيات الكنيسة، ولم تكن الديانة المسيحية تسمح بتجارة العبيد، اجتهد البابا فى حث اليهود على القيام بذلك. لكن بما أن الكنيسة كانت تمنع اليهود من جهة أخرى من اقتناء العبيد، سمح لهم جريجور بحيازة عبد مسيحى لمدة أربعين يومًا أو عبد وثنى متحول إلى المسيحية لمدة ثلاثة أشهر، الوقت اللازم لبيعهم. بل، إنه سمح لتاجر يهودى يدعى بازيل Basil بأن ينقل صوريًا ملكية عبيد مسيحيين إلى أولاده، الذين تحولوا إلى المسيحية وقت إتمام الصفقة! وسمح أخيرًا لليهود أصحاب الأراضى الزراعية باستخدام مهاجرين مسيحيين. ولم يمنعه هذا من تهنئة الملك ريكارد Reccard على تشريعه المعادى لليهود، وأن يدين الملوك الفرنسيين لأنهم سمحوا ليهود الغال (فرنسا) بامتلاك عبيد مسيحيين بصورة دائمة[١٣٤].

فى القسطنطينية، نحن أمام انقلاب زاد من ضعف الإمبراطورية . أدى تمرد جيش الدانوب إلى مقتل موريس، آخر الأباطرة من سلالة چوستنيان؛ فى عام ٦١٠، أسس هرقل Heraclius فى بيزنطة أسرة حاكمة جديدة.

كانت الفوضى والاضطراب يعمان الوضع العسكرى. إن كان هرقل قد احتوى الفرس وردعهم، فإن السلافيين (*) Slaves (الصقالبة) قد اجتازوا نهر الدانوب، فى عام ٦٢٩، طُرِدَ القوط الغربيون البيزنطيون من إسبانيا من قبل قوط غربيين آخرين. كانوا جميعًا من المسيحيين وكانوا يخضعون للبابا. بدءًا من ذلك الوقت، لم تعد الكنيسة فى حاجة إلى التسامح مع اليهود: فى عام ٦٣٣، أعلن مجمع مسكونى عُقد فى طليطلة Tolede بحضور الحكام الجدد أن اليهودية ليست إلا «نجسًا»[١٣٥]. أعاد فرض التحول إلى المسيحية قسرًا على كل اليهود، خصوصًا على من يعمل منهم فى وظيفة عامة، ومنع كل صابئ جديد من التعامل مع أتباع ديانته القديمة. مع ذلك فلم تطبق أى من هذه الإجراءات بصورة حقيقية.

(*) Slaves. السلافيون – أو الصقالبة كما يقول المؤرخون العرب – هم الشعوب القاطنة جبال الأورال الشرقية والغربية وهم نوعان صقالبة الشمال (الروس والبولنديون) وصقالبة الجنوب اليوغوسلاف (الصرب – الكرواتيون، السلوفاك والبلغاريون). (المترجم – عاصم)

محاولة أخيرة فى يهوذا

فى عام ٦١٠، نفس العام الذى استولى فيه هرقل الأول والقوط الغربيون على السلطة فى بيزنطة، حاول الإمبراطور الساسانى، خوسرو الثانى استعادة فلسطين - التى لم يعد اليهود يمثلون سوى عُشر سكانها - من الإمبراطور المسيحى. انضم اليهود إلى صفوف القائد الساسانى روميزانس Romizanés، وحاولوا التخلص من المحتل البيزنطى. قامت جماعة باغتيال بطريرك أنطاكيا المسيحى، وثارت جماعات أخرى فى مدينة صور Tyr. يبدو (تبعًا للمصادر الوحيدة الموجودة عن هذه الفترة، وهى مسيحية كلها) أن يهود طبرية بزعامة المدعو بنيامين Benjamin قد ساعدوا الساسانيين على استعادة مدينة قيصرية Cesarée فى مقابل وعد بأن يديروا مملكة يهودا بأنفسهم[١٣٥]. فى عام ٦١٤، دخل الفرس أورشليم. جلب روميزانس بقايا الصليب المقدس إلى مدينة قطسيفون وعهد بمقتضى الوعد المبرم، بإدارة المدينة المقدسة إلى بنيامين. رأى البعض فى هذا إشارات على قرب مقدم المسيح. فى Apocalypse فى سفر الرؤيا لإيلياء - جاء بالفعل، أنه قبل هذا المجىء فإن «ملك الفرس الأخير سيكون عليه أن "يذهب إلى روما" خلال ثلاث سنوات متتالية»، «يهزم ثلاثة أبطال قادمين من البحر لملاقاته». أُعلن بنيامين ملكًا لليهود، وتدفق على أورشليم كل الحالمين بإعادة بناء الدولة المسيحية، من إسبانيا إلى الإسكندرية.

لكن هذا الحلم كان قصير الأجل. فبعد ثلاث سنوات، انتزع الفرس من بنيامين إدارة أورشليم وقاموا بطرد "مثيرى الشغب" إلى خارج أسوار المدينة بأكثر من ثلاثة أميال. ضاعت الفرصة الأخيرة فى إقامة مملكة فى يهودا. محبطًا من أن المسيح لم يأت لنجدته، تحول بنيامين إلى المسيحية، مثل كثير من الآخرين، الذين أصابهم اليأس بعد أن رأوا تبدد كل أمل فى إعادة إقامة إسرائيل. هكذا عرفنا ، مثلًا ، بأمر تحول ٣٧٥ يهوديا فى طماى tumaï، بمصر، إلى المسيحية[١٣٥].

فى عام ٦٢٦، حاصر خوسرو الثانى القسطنطينية. غير أن إمبراطورية هرقل البيزنطية كانت قد استردت قواها. فى معركة نهاوند Nehavend، دحرت قواته الفرس، الذين كانوا قد أهملوا تدعيم أسطولهم البحرى. قتل خوسرو الثانى فى المعركة وحل محله

ابنه يزدجرد Yazdgard . ما تزال قطسيفون تحت احتلال البيزنطيين، الذين استعادوا كل الكنوز التى نهبها الفرس، منها الصليب المقدس، الذى نقلوه عام ٦٣٠، إلى أورشليم، التى غادروها منذ خمسة عشر عامًا.

كان اليهود، الذين ساعدوا الفرس على تحقيق الانتصار قبل أن يطردوا، يتوقعون تعرضهم لأسوأ عمليات الانتقام من جانب البيزنطيين. لكن هرقل أعلن العفو العام. كان ذلك الوقت هو أوج مجده وكذلك ساعة القطيعة بين الشرق والغرب: استبدل هرقل اللاتينية باليونانية كلغة رسمية للجيش والبلاط، اتخذ لقب بازيلوس Basileus بدلًا من قيصر أغسطس "Cesar Auguste" بقدره ومكانته، الذى كان يتخذه الإمبراطور الرومانى منذ عهد أغسطس. وضع كل إقليم تحت قيادة واحد من قواده وكوّن جيشًا من المرتزقة. وبدا أن الإمبراطورية الشرقية قد استقرت وإلى الأبد.

لكن، مرة أخرى من جديد، سوف تعانى إمبراطورية منتصرة من انتصارها. مرهقة بسبب الحروب مع الفرس، مقوضة بسبب الحروب الذهبية التى لا تتوقف بين الأريوسيين Ariens (الذين يعتقدون أن الله موجود قبل اليسوع، والتوحيديين Monoteliste (الذين يرون أن إرادة الله قد تجسدت فى يسوع)، أصحاب عقيدة الطبيعة الواحدة Monophysites (يعتقدون أن المسيح هو الله)، والتى رفضها أسقف روما، وهنت سلطة هرقل وتقطعت أنفاسها.

حتى وإن كان هرقل قد أعاد شرط اعتناق كل يهود الإمبراطورية للديانة المسيحية، فإنه لم يعد قادرًا على فرضه. ليس أكثر من ملك القوط الغربيين فى إسبانيا، سيسبوث Sisebuth، الذى مازال يفرض على اليهود الاختيار بين التعميد والمنفى. لم يستطع أحد أن يفرض عليهم أى شىء. صمدت الطوائف اليهودية على الرغم من كل الاعتداءات وكل المحظورات التى عانت منها.

فى غضون ذلك الوقت، أضعف الصراع بين الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الساسانية اقتصاد الشرق الأوسط بكامله. لم تعد قنوات الرى تلقى أى صيانة، وببطء عادت المنطقة إلى التصّحر[٢٤]. على الرغم من الانتصار، فقد أوهنت الحربُ بيزنطة. درس

اقتصاد خاص: أحيانًا يكون الغالب المسيطر أضعف من المغلوب وأكثر عرضة للهجوم. درس فى الإستراتيجية: الإمبراطورية الهرمية، تكون أقل حظًا فى مقاومة الصدمات، من تلك المصممة على شكل الشبكات. درس فى السياسة: عندما تتنازع قوتان عظميان منزلة الريادة والتفوق، فإن قوة ثالثة يمكن أن تبرز وتفوز بها.

ها هو زمن الإسلام قد جاء فى الواقع، وسوف يجد اليهود مساحة جديدة من الحرية النسبية.

٦- سعداء مثلما كانوا فى الإسلام

ها هى فكرة جديدة من الرب قد جاءت لتقلب الأوضاع الجيوسياسية. خلال قرن واحد امتد سلطان الإسلام من مدينة كوردو **Cordoue** إلى مدينة كابول **Kaboul**. وجد اليهود فيه بيئة توحيدية جديدة، لكنه كان فى هذه المرة حفيًا بهم تقريبًا. سوف يعيشون فيه بشكل لائق، مهانين ولكن مقبولين، مع استمرار بقائهم سادة التجارة الدولية. مرافقين للفاتحين العرب نحو أوروبا، حاملين إليها بضائع الشرق ومعارفه، سوف يخلق اليهود أجواء يقظة الغرب. ها كم كيف حدث ذلك..

التجار اليهود
ومولد الإسلام

قبل ميلاد محمد، كان اليهود بالفعل قد انتشروا بأعداد كبيرة فى مختلف ممالك جزيرة العرب، هاربين من قمع واضطهاد الفرس والرومان. كانت الجزيرة العربية آنذاك معبرًا يتلاقى فيه أصحاب الديانات التوحيدية والوثنيون. بل لقد كان هناك مملكة عربية فى الحجاز، شمال اليمن، اعتنقت اليهودية، وسوف تختفى هذه المملكة نحو عام ٥٣٠، تحت ضغط ملك مسيحى من الحبشة[١٦٦].

في هذه المنطقة بالتحديد سوف تبدأ تجربة محمد، المولود في عام ٥٧٠ أو ٥٧١ في مكة، واحة للقوافل تضم ثلاثة آلاف من السكان، باسم محمد بن عبد الله. يتيم في العاشرة من عمره، أمي، تلقى محمد في الصحراء خاتم النبوة، احتضنه أحد أعمامه، أبو طالب، التاجر، شيخ إحدى القبائل، القرشيين. كانت قريش تتولى حراسة ورعاية، الحجر الأسود، حجر نيزكي، كان يتوسط، في ذلك الوقت، ثلاثمائة صنم، وكان الملاك جبريل قد قدمه لإبراهيم وابنه اسماعيل ما يعد شاهدًا على وجود التوحيدية الإبراهيمية في المنطقة. تزوج محمد من أرملة ثرية، كان ابنها البكر وقتها في الخامسة عشر من عمره، عمق محمد من معارفه بالديانة التوحيدية، ربما بسبب احتكاكه بالطائفة اليهودية الصغيرة في هذه المدينة. نحو عام ٦٠٧، كان يغادر المدينة ليعتكف في خلوات طويلة في الصحراء وفي عام ٦١٠ تلقى محمد الوحي برسالته عن طريق الملاك جبريل، خلال شهر رمضان، داخل غار في جبل حراء. دعا محمد إلى الزهد، تطهير الأخلاق والأرواح، والتسليم (الإسلام) لإله إبراهيم، الله. طلب من أتباعه الأول – قلة قليلة ومستضعفة – قراءة القرآن، تلاوته غيبًا، والصلاة متوجهين نحو بيت المقدس(*) وترك عبادة الأصنام. اجتذب المزيد من الأتباع تدريجيًا، المسلمين ("الذين يسلمون أرواحهم إلى الله"). بعد عامين من وفاة زوجته الأولى سيصل عدد زوجاته فيما بعد إلى تسعة في ذات الوقت وفي ذات ليلة من عام ٦٢١، أثناء منامه، قادته رحلة (الإسراء) إلى بيت المقدس البعيد، في أورشليم (القدس). حيث سوف يصعد منه إلى السماء (المعراج) ليقابل الأنبياء، يسوع والرسل، قبل أن يعود. بدأ حينها في إملاء القرآن، المنّزل في عربية فصحى، على بعض النسّاخ الذين يكتبونه على قطع من الجلد، شقف من الفخار، سعف النخل. كان ذلك وحيًا (التنزيل: تشير نفس الكلمة إلى "الدفقة") كلام "غير مخلوق"، فعل الله، ذاته. ادعى بعض النساخ نهائيًا فيما بعد أنهم لم ينقلوا بالضبط ما أملاه عليهم النبي وأنهم حتى قد أوعزوا إليه ببعض المقاطع(**). عندما انتهى من إملائه، كان حواره مع جبريل قد استمر خلال اثنى عشر عامًا.

(*) أورشليم بحسب النص الفرنسي. (المترجم– عاصم عبد ربه)

(**) لم يورد الكاتب أسماء هؤلاء المدعين ولا أشار إلى المصدر الذي استقى منه وجهه النظر هذه .. (المترجم – عاصم عبد ربه)

فى سبتمبر عام ٦٢٢، كان ٢٧٥ رجلًا من سكان المركز التجارى الأساسى فى الجزيرة العربية، واحة "ياطيب" أو المدينة ("مدينة الرسول") التى تبعد ثلاثمائة كيلومترًا من مكة، قد طلبوا من محمد أن يأتى ليحّكم فى نزاع نشب بين عشيرتين عربيتين، الأوس والخزرج. كانت المدينة فى ذلك الوقت أيضًا أهم مراكز الحياة اليهودية فى جزيرة العرب[٣٨٥]. حرفيون، باعة، تجار، صُياغ، صانعو دروع وأسلحة، مصرفيون (كان القرآن هو أول نص غير يهودى يلمح غمزًا إلى نشاط يهودى يتعلق بالربا - الإقراض بفائدة)، تدخلوا جميعًا فى النزاع: بنو النضر وبنو قريظة إلى جانب الأوس، بنو قينقاع إلى جانب الخزرج. كان التحكيم صعبًا، حكم محمد لصالح الخزرج وحلفائهم اليهود[٤٥٥].

صار محمد قائدًا عسكريًا، نبيًا مسلحًا وحاكمًا للمدينة. فى خطاب ألقاه فى المدينة اقترح محمد تنظيم القبائل المُوحِدَّة، مسلمة وغير مسلمة فى اتحاد يضم كل ذرية إبراهيم. « .. وجادلهم بالتى هى أحسن.. إلى آخر الآية» (القرآن ١٦، ١٢٦)(*). تأثر بعض اليهود مسحورين بكلامه، لكن الغالبية رفضت. احتدم الجدل العقائدى مع الحاخامات، الذين اتهموا محمدًا بتحوير النص التوراتى وتشويهه. عاد الملاك جبريل، الذى كان قد أبلغ محمدًا برسالته فى المرة الأولى، ليحذّره من تآمر بنى النضير عليه، وهى العشيرة اليهودية التى خسرت فى التحكيم. فى عام ٦٢٣، أمر بطردهم من المدينة:(**) "غادروا أرضكم وخذوا كل ما تستطيع إبلكم حمله، ما عدا الأسلحة وعتاد الحرب!" لم يعد محمد يصلى موليًا وجهه شطر القدس(***)، ولكن شطر الكعبة بمكة. حل رمضان محل عاشوراء التى تشبه يوم الغفران (كيبور).

فى شهر مارس، كوّن العرب الذين لم يتبعوا محمدًا جيشًا قوامه عشرة آلاف رجل، وساعدتهم بعض العشائر اليهودية والمسيحية. أعلنت الحرب. قاد محمد ثمان وعشرين معركة ضد المشركين:

(*) القرآن الكريم، سورة النحل، لكن الآية المقصودة هى الآية ١٢٥ وليس ١٢٦ كما جاء خطأ بالنص الفرنسى. ولذا وجب التنويه. (المترجم - عاصم عبد ربه)

(**) برجاء الرجوع إلى المراجع المذكورة آنفًا فى كلمة المترجم بشأن هذه الواقعة. (المترجم - عاصم عبد ربه)

(***) أورشليم بحسب ما جاء بالنص الفرنسى.

"قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله... إلى آخر الآية" (القرآن ٩، ٢٩)(*). "ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار" (القرآن ٥٩، ٣)(**) بعد ذلك طرد محمد يهود بنى قينقاع وقضى على يهود بنى قريظة.

فى عام ٦٢٨، قُتِلَ يهود خيبر، فى الشمال، فى الحجاز. صارت خيبر مسلمة، سبى المنتصرون النساء والأطفال، احتفظ محمد لنفسه، من بين أخريات، كجارية، بيهودية تدعى ريحانة[٢٠٥]. ووقع ساعتها مع المسيحيين ويهود خيبر معاهدات سلام تضمن لهم حرية العقيدة والعمل، مقابل جزية قدرها قطعة ذهبية عن كل بالغ، كانت تدفع بالأمس القريب إلى المحتلين الفرس.

شيئًا فشيئًا دخلت كل القبائل العربية فى الإسلام. فى عام ٦٣٠، كان رجال جيش محمد، عددهم حوالى عشرة آلاف رجل، يسيطرون على منطقة مكة. فى المناطق التى يشرف عليها، أقام محمد دولة. أبْقى على كل صور التعامل التجارى القديمة، بما فى ذلك القروض. أقر القرآن بعقود المشاركة (شركة العقد)، عقود الشركة، شراكة رؤوس الأموال، شراكة العمل، شركات الاعتبار (عقود تحل بحسب إرادة كل طرف من أطرافها)، شركات التوصية (كانت تمارس فى فترة ما قبل الإسلام لتمويل القوافل)، عقد البذار أو الزراعة وعقد الرى[١٧]. أقر القرآن أيضًا بعقد المرابحة، بشرط أن يبرر ذلك العقد بأداء عمل ما، وبالتالى، يصرح القرآن بالقرض المضمون على غير المنقولات لمدة محددة سلفًا مع الاستفادة بحق الانتفاع، إذا لم يتم السداد فى الموعد المقرر. يستطيع صاحب الدين أيضًا أن يبيع الشيء المرهون حتى دون الرجوع إلى السلطات القضائية. بانضمام القبائل العربية بكاملها إليه، حرّم محمد على اليهود والمسيحيين الإقامة فى شبه الجزيرة[٢٨٥]: "يا إلهى، ليهلك اليهود والمسيحيين! لقد اتخذوا من الكنائس مقابر لأنبيائهم. لن يكون فى جزيرة العرب أى من الديانتين". فى عام ٦٣١، وقع مع هذا اتفاقًا مع قادة المسيحيين فى نجران والمستعمرات الزراعية اليهودية فى شمال شبه الجزيرة التى تعهدت بأن تقدم نصف محاصيلها لقاء حق البقاء[٢٨٥] والإقامة.

(*) القرآن الكريم، سورة النحل، رقم ٩ فى المصحف، الآية ٢٩. (المترجم - عاصم عبد ربه)

(**) القرآن الكريم، سورة الحشر، رقم ٥٩ فى المصحف، الآية ٣. (المترجم - عاصم عبد ربه)

بعد وفاته، فى الثامن من يونيو ٦٣٢، عن عمر يناهز الثانية والستين، بدأت الفتوحات المذهلة لخلفائه. فى غضون عشر سنوات، سقطت فلسطين، سوريا، مصر، إمبراطورية بابل، بين أيديهم. "إنا أرسلناك للناس كافة" هكذا جاء فى القرآن(*).

أورشليم وبابل

تدخلان الإسلام

منشغلًا للغاية بتجميع النصوص القرآنية ومتابعة الفتوح، لم يقم أول الخلفاء، أبو بكر، بإبعاد لا اليهود ولا المسيحيين من الأراضى العربية. واصل طريقه عبر الصحراء حتى يهودا. متوجسًا من تواطؤ بين اليهود والمسلمين، حاول هرقل من جديد إجبار كل اليهود فى فلسطين على اعتناق المسيحية. لكن جيوشه لاقت هزيمة منكرة على يد جيوش أبى بكر، جنوب البحر الميت، وكان ذلك عام ٦٣٣. هناك، حيث استقر المسلمون، صارت الأراضى المحررة، التى كانت حتى ذلك الوقت أراضى الإمبراطور، ضمن "أملاك الإمام". فى ذلك الوقت، أسلم كثير من الفينيقيين، الكنعانيين، إغريق فلسطين. حاول أبو بكر عدة مرات فتح أورشليم، لكن سدى: تحمل الجيش البيزنطى صدمة الهزيمة. فى شهر أغسطس من عام ٦٣٤، مات الخليفة موتًا طبيعيًا، الأمر الذى لن يكون كذلك بالنسبة للثلاثة الذين أتوا من بعده(٢٥٦).

كان الأول من بينهم، عمر بن الخطاب، أول من حمل «لقب أمير المؤمنين»، الذى دار حول يهودا من ناحية الغرب، وسحق جيشًا من المرتزقة التابعين لبيزنطة على ضفاف اليرموك واستولى على دمشق، فى عام ٦٣٦. استقبل اليهود الذين يعيشون هناك الفاتحين كمحررين. في عام ٦٣٨، دخل المسلمون أخيرًا أورشليم بعد أن أحكموا حصارها تمامًا. دار تفاوض بين عمر وبطريرك المدينة المسيحى حول عدد اليهود الذى يمكن السماح به.

(*) الآيتان بالآية الكريمة، تعقيبًا على ما ذكر من الفتوحات المذهلة، كما يقول الكاتب يعد من وجهة نظرنا غمزًا فى الإسلام ورسوله. (المترجم - عاصم)

طالب اليهود بحق الإقامة لمئتين على الأقل من الأسر اليهودية. اقترح البطريرك خمسين أسرة. قبل عمر بسبعين منها، دون حق تملك الآبار سوف يحصل اليهود فيما بعد على هذا الحق وكذلك على حق الصلاة أمام حائط المبكى برغم أوامر الخليفة الصارمة.

فى كل مكان حلّ فيه عمر فاتحًا، عهد بالسلطة فيه إلى بعض المؤمنين. وكان يترك فى المكان، تحت إمرتهم، بعض موظفى النظام السابق، الذين جعل منهم – موظفين / عبيد، وكلف بعض السوريين وبعض اليهود بالاهتمام بجباية الضرائب. كانت الضرائب التى تفرض على المدن والمقاطعات التى تستسلم دون مقاومة، أقل من تلك الضرائب التى تفرض على المدن والمقاطعات التى تبدى مقاومة(٢٥٦). مستلهمًا التسوية التى قام بها محمد مع يهود خيبر، أضاف عمر إلى الضريبة المفروضة على كل رأس ضريبة على الأرض تعادل خُمس محصولها، وأخرى على الممتلكات، والتى يضاف إليها أيضًا الضرائب التى يقتطعها المزارعون العموميون لحسابهم الخاص. كان دفع الضرائب، التى تعطى الحق فى التجول والانتقال، فى الغالب ذريعة لطقوس مهينة: فى كل مدينة، كان الأمير، ممثل الخليفة، يتسلم الضريبة ثم يسدد ضربة إلى عنق دافع الضريبة، الذى يقوم أحد الحراس بإبعاده بعد ذلك(*). وبما أن الخليفة لم يكن يسعى إلى أن يفقد المولين، فإن الأمراء والقوات المسلمة لم تكن تبذل جهدًا لإقناعهم بالدخول فى الإسلام وساهمت الضريبة (الجزية) بالأحرى فى الحفاظ على ترابط الطوائف اليهودية.

صار غير المسلمين، سواء كانوا من اليهود، والمسيحيين أو المشركين، أقليات "محمية" – ذميين – dhimmis(٤٥٤). وضع مهين: ليس للذمى Le dhimmi الحق فى أن يرفع صوته أمام مسلمين، ولا أن يقف بجانب واحد منهم فى درب ضيق، لا يحق له ذبح حيوانات ولا أن يكون مسلحًا، ولا أن يمتطى حصانًا. لم تكن أى مهنة محظورة عليه، ولم تكن أى مهنة كذلك مخصصة له، ما عدا مهنة البنوك، التى كانت لا تزال فى طور التكوين.

(*) يرجى الرجوع فى مراجعة الوقائع التاريخية المذكورة والمتعلقة بحياة اليهود فى البلاد الإسلامية إلى كتب الأستاذ أحمد أمين «فجر الإسلام»، ضحى الإسلام، ظهر الإسلام التى تعتبر «عمدة الكتب» فى هذا الخصوص وكذلك إلى الموسوعة اليهودية للدكتور المسيرى. (المترجم – عاصم)

وبالرغم من أن الذميين لم يكن لهم الحق أساسًا فى أن يحملوا أسماءً عربية، فإنهم قد احتفظوا بأسمائهم قبل وصول الإسلام، مع التسميات أبو، بنو وابن مركبة مع أسماء عربية. لم يكونوا ملزمين بالإقامة فى حى مخصص لهم(*)، لكنهم وجدوا ميزة فى البقاء متجمعين ليستفيدوا من خدمات الحاخام والقاضى، مراقب العمليات التجارية، صندوق الإغاثة، المكلف بافتداء الأسرى، الرسل القادمين من طوائف أخرى. ومع ذلك، فإن هذه الأحياء فى المدن المسماة الملاح فى بعض المناطق(**). لم تكن مغلقة، وكانت معاملاتهم مع جيرانهم لا تنقطع. الإجبار الوحيد الذى تخضع له المساكن و دور عبادة اليهود، هو أنها لا يجب أن تكون أكثر اتساعًا أو أكثر ارتفاعًا عن المبانى الإسلامية المجاورة.

فلّاحون، نسّاجون، مصرفيون أو مترجمون، اندمج اليهود فى المجتمع الإسلامى. شارك بعض اليهود حتى فى كتابة النص القرآنى (المصاحف)[٤٥٥]. ساعدوا فى وضع تصنيفات قواعد اللغة العربية (النحو والصرف) وقاموا بدور بالغ الخصوصية فى إبراز الحضارة الإسلامية وتطويرها. انتقل العديد جدًا من التجار اليهود بالسفن أو فى القوافل بين إسبانيا وبلاد فارس (إيران الحالية) عابرين أراضى مسيحية، مسلمة أو فارسية.

بل إن جيوش المسلمين قد استخدمت بعض الذميين. فى عام ٦٤٠، أقام عمر فى الإسكندرية - حيث كان لايزال يعيش أربعون ألف يهودى - وفى ما سوف يصبح القاهرة[٤٥٦]. فى غزو المدينة، رافقته قبيلة قوامها أربعمائة محارب من اليهود، بنو روبى Beni Roubi. كان عام ٦٤٢ عامًا شديد الأهمية بالنسبة للمسلمين: انتزعوا يهودا بكاملها من البيزنطيين وكل بلاد ما بين النهرين من الساسانيين. دخل عمر قطسيفون منتصرًا على يزدَجرد الثانى، آخر أبناء خوسرو الثانى. كانت المدينة وضواحيها تضم أكثر من مليونين من السكان. كان أكثر من نصف رؤساء العائلات من اليهود؛ احتفل أكثر من تسعين ألفًا من بينهم بانتصار عمر. مزعزعًا من قبل بسبب الاحتلال البيزنطى من قبل خمسة عشر عامًا، انهار النظام المحلى القائم. سرعان ما اختفى الأمراء الساسانيون والكهنة الزرادشتيون.

(*) حارات اليهودى أو النصارى. (المترجم - عاصم)

(**) بلاد المغرب العربى على وجه الخصوص. (المترجم - عاصم)

صارت بلاد ما بين النهرين مركزًا من المراكز الثقافية والسياسية الإسلامية. بالرغم من مطالبات قواده العسكريين، قام عمر بحماية اليهود. ومنع أحد كبار قواده، سعد بن أبى وقاص(*)، من الاستيلاء على أرض تعود ملكيتها إلى بعض اليهود(٣٤). اعترف عمر بشرعية حاكم المنفى، الذى كان يدعى بستاناى Bostanaï. اكتسب مركز الجاون، مدير مدرسة سورا Soura، أهمية كبرى: صار بإمكانه منذ تلك الحين فصاعدًا أن يأمر بطرد شخص ما من الطائفة، بتنفيذ عقوبة الجلد علانية، وأن ينهى منطوق أحكامه بعبارة حاسمة: "هذا هو القانون، والانحراف عنه ممنوع، سواء إلى اليمين أو إلى اليسار(١٣٥)".

بعد عمر، اغتيل الخليفة عثمان فى عام ٦٥٧ بتدبير من على، أبو المذهب الشيعى وابن عم محمد(**). حينذاك ابتدأ نزاع حول الشرعية؛ ثم ابتدأ معاوية الدولة الأموية فى عام ٦٦١. انطلاقا من دمشق، التى أقام فيها بعد مغادرة القاهرة(***)، حاول معاوية الاستيلاء على القسطنطينية مرارًا، فى محاولات سنوية ابتداء من عام ٦٧٤. وفى كل مرة، كان الإمبراطور قسطنطين الرابع، ينجح فى صده. من قطسيفون، فتح بلاد فارس، حيث يعيش اليهود منذ ستة قرون على الأقل؛ بعض الطوائف مثل طائفة يهود أصفهان، مركز اقتصادى وثقافى من المرتبة الأولى، كانت تعود حتى، بحسب الأساطير المحلية إلى المنفى الأول(٣٤٦). وقد وجدت الشبكات التجارية ليهود العصر الإسلامى هناك مصادر جديدة للتجارة.

وعلى النحو ذاته، وجدت جيوش المسلمين، عندما اجتاحت أفغانستان فى ميرف Merv، بلخ Balkh، غازنى Ghazni، هيرت Heret، كابول Kaboul ونيسابور Nisapur، من اليهود تجارًا، محصلين للضرائب يعملون لحساب حكام المدن، أو مشرفين على مناجم

(*) ورد الاسم بالأصل الفرنسى محتويًا على خطأ إملائى وآخر نحوى - Sa'd ibn Abu Waqqar - راجعًا فى ذلك إلى كتاب Baron (s.w) - تاريخ إسرائيل، الحياة الاجتماعية والدينية، الصادر فى باريس 1957. 1964 المجلد الخامس. وهى أخطاء سوف تتكرر. (المترجم - عاصم)

(**) التزمنا بنقل ما ورد بالنص الفرنسى ولكن الخطأ التاريخى فادح يصل لحد المغالطة، فلم يحدث أن أتهم أحد عليًا بقتل عثمان بن عفان كما يدعى النص، فضلًا عن أن المذهب الشيعى لم يتبلور كمذهب إسلامى إلا بعد مقتل على. (المترجم - عاصم)

(***) لم تكن القاهرة قد أنشئت فى تلك الأوقات. (المترجم - عاصم)

الرصاص(٤٧). فى ميرف ظل هناك أثر لأحد الحاخامات كان قد ترسم كاهنًا فى بابل، يعمل كمحصل للضرائب لصالح شخص يدعى منصور بن عمر، وكذلك على أثر خلاف كان قد نشب بين «اليهود» ومن «يطلق عليهم اليهود»(٤٧). اعتنق جزء من هذه الطوائف الإسلام، مثل السكان الآخرين؛ رحل الباقى إلى فلسطين، حيث صارت السيطرة الإسلامية أكثر شدة.

فى أورشليم، كان يزال مسموحًا لليهود، فى مناسبات قليلة جدًا، بالاقتراب من أطلال الحائط الغربى الذى أمر الخليفة عبد الملك بأن يبنى فوقه مسجد قبة الصخرة، ثم ابتداءً من عام ٦٨٥، إلى جواره، ابتداء من ٧٠٥ المسجد الأقصى. أورشليم أصبحت القدس، "المقدسة".

تجار يهود

وأول يهود البلاط

فى عام ٦٧٢، باع الحكام المسلمون الجدد برونز تمثال رودسيوس العملاق **Colosse de Rhodes** - أحد عجائب الدنيا السبع - إلى بعض اليهود، الذين قاموا بتحطيمه. فى كثير من المدن والإمارات، ظل التجار اليهود مسئولين على جباية الضرائب. صار بعضهم موردين للسلاح إلى جيوش المسلمين مع الإبقاء على علاقات وثيقة مع طوائفهم الأصلية؛ كانوا يكتبون بالعبرية أو بالآرامية، ويتحدثون العربية فى حياتهم اليومية.

سابقة مهمة: فى الكثير من المناطق، صار بعض اليهود مستشارين نافذين للأمراء. كانت الظاهرة جديدة تمامًا: حتى ذلك الوقت، لم يكن اليهود يقتربون من الأمراء إلا بوصفهم موظفين مسئولين عن الضرائب. لكن النقص فى النخبة المسلمة دفع بهم إلى الصدارة. فى عام ٦٩٥، فى دمشق، تم تعيين أحد الماليين اليهود مسئولًا عن النقود فى العالم الإسلامى بأسره وكان ذلك عن طريق الخليفة عبد الملك.

فى تونس، حيث أقام اليهود من قبل الفتح العربى بزمن طويل، اصطدمت الجيوش العربية أحيانًا بقبائل من اليهود، مثل قبائل عُبيد الله Ubaid Allah، المستقرين فى جزيرة جربة. فى الجزائر، قاتلت امرأة يهودية تدعى دهيا Dihya، وتلقب بـ "الكاهنة" العرب عام ٧٠٣، إلى جوار اليهود والبرابرة المتهودين. صادف الفاتحون العرب المسلمون بعض الطوائف اليهودية، تجارًا ومزارعين، فى قسطنطينية، فاس، مراكش. فى الصحراء، ستكون قبيلة الداجاتون Daggatoun، التى قاتلت المسلمين، من اليهود[٢٥٢].

مواصلة تقدمها، وصلت جيوش المسلمين إلى إسبانيا، حيث كان القوط الغربيون قد قاموا لتوهم بطرد آخر البيزنطيين؛ استقبلهم اليهود استقبال المحررين. وبمساعدتهم تغلبت القوات الإسلامية على الملك رودريك Roderic فى يوليو عام ٧١١ وسرعان ما أتموا فتح شبه الجزيرة بكاملها، باستثناء بعض الأراضى فى الشمال التى ظلت مسيحية. توثقت العلاقات بين المسلمين واليهود وصارت أكثر قوة. دارت بينهم مناقشات حول الفلسفة، الأدب، العلوم، اللاهوت. تبادلوا الأفكار. ترجموا النصوص الإغريقية إلى العربية وإلى العبرية. فى مهمة هائلة: قام راف بن أبيتور بترجمة المشناه إلى العربية. تنقل التجار، ازدهرت الأعمال الحرفية. لم يعرف اليهود طوال حياتهم مكانًا أكثر روعة للإقامة من مدن هذا الإسلام الأوروبى فى القرن الثامن.

فى عام ٧١٧، انطلاقًا من دمشق، شرع الخليفة عمر الثانى[*] فى تدعيم الوجود الإسلامى فى أجهزة الدولة. سعى إلى استبدال كل الموظفين الذميين بآخرين من المسلمين. وعليه فقد حاول التخلص من كبار الموظفين اليهود، الذين ازداد عددهم وقوى نفوذهم بأكثر مما يجب. لكنه لم ينجح فى ذلك، لعدم وجود كوادر ذات قيمة، لدرجة أن رجال الدين المسلمين أخذوا على الخلفاء إحسانهم المغالى فيه تجاه اليهود[٢٥٤].

(*) المقصود هو عمر بن عبد العزيز، الملقب بخامس الخلفاء الراشدين. وثامن خلفاء بنى أمية. ولد عام ٦٨٢ بالمدينة المنورة وتوفى عام ٧٢٠ بحلب، سوريا. (المترجم - عاصم)

فى ذلك الوقت، من عام ٧٤٥، سيكون حاكم إقطاعى فى إحدى ممالك آسيا الوسطى، ويدعى بولان Boulan، ملك الخزر (*) Khazars، قد اعتنق اليهودية. سوف يظل خلفاؤه يهودًا طوال قرنين ونصف القرن. وتبعًا للرسائل المتبادلة فى القرن العاشر الميلادى بين أحد الوزراء اليهود للخليفة فى قرطبة Cordoue – يهودى متنفذ فى البلاط، حاسدى بن شابروت Hasdi ibn Chaprout، سوف نتحدث عنه لاحقًا – وجوزيف، ملك الخزر Khazars، فإن هذا التحول قد جرى فى أعقاب نقاش بين ثلاثة من أصحاب الديانات التوحيدية، أعد له الملك بولان السابق ذكره، والذى سوف يخرج منه اليهودى ظافرًا.

فى عام ٧٥٣، أدت هزيمة أخرى للخلفاء الأمويين أمام القسطنطينية إلى تمرد سلالة المنصور، أحد أعمام النبى محمد، العباس. وقام أحدهم بقتل آخر الخلفاء الأمويين، مروان الثانى (**)، وأسرته(٢٥٦). كان الناجى الوحيد من هذه المجزرة هو عبد الرحمن، الذى أسس أسرة حاكمة فى قرطبة واتخذ لنفسه لقب أمير الأندلس.

فى بلاد ما بين النهرين، قدر الخليفة الجديد للأسرة الحاكمة الجديدة، العباسية أن يشيد عاصمة جديدة، أكثر اقترابًا من الشرق من مدينة دمشق، ليقترب من الأقاليم الشرقية التى مثلت ابتداءً من ذلك الوقت فصاعدًا الجزء الأهم من أراضيه. كلف أحد علماء الرياضيات والفلك اليهود، ماشا الله Masha Allah، وعالم فلك زرادشتى، آن – نابوخل، بإعداد خرائطها، بالقرب من قطسيفون، بابل ومن السلوقية، عواصم الإمبراطوريات السابقة، وعلى ضفاف دجلة: ما سوف تكون بغداد.

(*) شعوب تركية قديمة، عاشت فى شمال القوقاز. امتد حكمها خلال القرن الثامن والتاسع. (المترجم – عاصم)

(**) المقصود هو مروان بن محمد. (المترجم – عاصم)

البغداديون والرذنية

بعد عشرة أعوام من بزوغ فكرتها، صارت بغداد عاصمة للإسلام. وبسرعة أصبحت مدينة عملاقة، أكثر مدن العالم اتساعًا، مع ما يقرب، عما قليل، من مليونين من السكان. غادر أكثر من مليون من اليهود، كما يقال، المدن، القرى والكفور والأرياف المجاورة وجاءوا ليعيشوا فى مركزها التجارى، الكرخ، بهدف أن يتوقفوا عن دفع الضريبة العقارية، بالرغم من أن الخلفاء قد وعدوا بتخفيض الضرائب على من يظل مرتبطًا بالأرض[٢٤] قائمًا على زراعتها.

داخل هذا التجمع الشاسع، مارس اليهود البغداديون كل المهن. لم يكونوا لا أكثر ثراءً ولا أكثر فقرًا من المسلمين. يعيشون متجمعين فى أحياء غير مغلقة. هنا، كما فى كل مكان آخر، كان الحاخامات يحثون الملاك اليهود على ألا يبيعوا لمسلم منزلًا فى الحى اليهودى(*)، حتى لا يكون عندهم "ذئب فى الجوار"[٢٥٦]. بل إن القوانين الإسلامية كانت تعترف لليهود بحق الشفعة فى المنازل التى يقيمون فيها بصفة مشتركة مع مسلمين.

أصبحت مدارس مدينة سورا ومدينة بومبيدتا، متصلة بالعاصمة الجديدة بواسطة نهر اليهودية "نهر اليهود"، لأن منازلهم كانت تمتد على ضفاف هذا النهر. كانت هاتان المدرستان تتعارضان أحيانًا بشأن السلوك الواجب تبنيه حيال التلمود أو حول صيغ وأشكال الصلاة.

تربط شبكة الطوائف التجارية الآن بين كل الطوائف اليهودية فى العالم المعروف – طوائف الهند، القوقاز، البحر الأحمر، بلاد ما بين النهرين، فلسطين، مصر، الواحات الصحراوية، إيطاليا، إسبانيا[٢٥٦] حول ثلاث عواصم: قرطبة، الإسكندرية، بغداد. بين هذه الطوائف تنقل التجار اليهود، مثلما كان الحال منذ سبعة قرون مضت، الذين سيطلق عليهم من الآن فصاعدًا اسم "الرذنية" (انحدرت الكلمة من الفارسية Rad han، "دليل" أو "من يعرف الطرقات"[٢٥٦]). فى معظمهم، كان هؤلاء التجار من علماء الدين أيضًا. بالرغم من

(*) حارات اليهود، أو الملاح أو الجيتوهات. (المترجم – عاصم)

أن أحدًا منهم لم يكن له اسم ثابت تمامًا، حتى هذه الفترة، فقد بدأت بعض الأسماء فى الظهور بفضل رسالة أو فاتورة. مثل اسم إبراهيم بن يشون، الذى كان يمارس التجارة ما بين شمال أفريقيا وحتى جزيرة سومطرا وحصل على لقب عضو (haver) اليشيفا (Yeshiva) فى أورشليم[٢٣٠]. وفى حين كان تجار دمشق الذين يطلق عليهم السوريون (فى الغالب من المسيحيين وأحيانًا من اليهود)، يصدرون منتجات الشرق الفاخرة صوب إسبانيا، إيطاليا أو شمال أوروبا، كان الرذنية يجلبون إلى بغداد الحرائر، الذهب، التوابل، المخدرات، العبيد، الفراء من الشمال، والنبيذ والمنسوجات من مقاطعات الراين ولاموز وممر سوُن–رون Saone - RhÔne و من اللانجدوك Languedoc. للقيام بهذا النشاط وصنعوا نظامًا لتحويل رؤوس الأموال بين الطوائف، من خلال مجرد محررات حسابية بسيطة. وآخرون كانوا من أصحاب المزارع العمومية وكانوا يؤمنون سداد ضرائب سكان الأقاليم[٤٥٥].

أصبح السند (الكمبيالة) غير شخصى، بالرغم من معارضة الحاخامات؛ صارت اللغة العبرية، مع اليونانية، العربية، واحدة من اللغات الأساسية للتجارة الدولية، توحد القانون التجارى الدولى، الخاص والعام، تقريبًا حول الشريعة اليهودية وتفسيراتها.

وزراء عظام ويهود بؤساء

فى بغداد، لم يثق الخلفاء فى الفرس (الذين اعتنقوا الإسلام الشيعى) والمسيحيين (الذين يمكن أن تغريهم فكرة مساعدة البيزنطيين). لإبقاء الخلافة بعيدًا عن القوى المركزية المتنابذة، استعان الخلفاء بمستشارين ومصرفيين من اليهود. أدار هؤلاء الشئون المالية ووضعوا الأنظمة النقدية، حصلوا على قروض كبيرة كان الخلفاء يسددونها بعد تحصيل الضرائب، التى يتولى نفس التجار اليهود – أو غيرهم – جبايتها.

مع ذلك، فلا يجب أن يخفى نفوذهم الواضح هشاشة وعدم استقرار أوضاع معظم الطوائف اليهودية المجاورة. فى غالبيتهم العظمى، ظل اليهود فقراء للغاية، وكان وضعهم، هنا كما هو هناك، قد ازداد سوءا بنجاح يهود البلاط. هكذا، كان الخليفة العباسى الخامس،

هارون الرشيد، نحو عام ٨٠٠، المشهور بصفة خاصة بقصة علاقاته الأسطورية مع شهرزاد، محاطًا بالعديد من المستشارين اليهود. بل إنه قد بعث بأحدهم، ويدعى إسحاق Issac، كسفير لدى شارلمان Charlemagne (بحسب بعض المصادر، سيكون إسحاق هذا، الحقيقة أحد مبعوثى شارلمان، والذى صار صديقًا لهارون الذى أعاد إرساله إلى سيده الأول محمّلًا بالهدايا) لكن هذا لم يمنع بأى حال من الأحوال، بل على العكس، من اعتصار اليهود وإثقال كاهلهم، مثل الآخرين، بالضرائب.

فى عام ٨٥٣، قام الخليفة المتوكل، برغم أن العديد من مستشاريه النافذين كانوا من اليهود، بتحويل بعض المعابد اليهودية والكنائس إلى مساجد، منع اليهود من ترديد وتلاوة بعض الصلوات بصوت عال، وانتزع من اليهود حق استخدام الجياد فى نقل بعض البضائع الأمر الذى أدى إلى انهيار بعض أوجه النشاط التجارى تمامًا وانتهى إلى إقصائهم من المناصب الإدارية والمالية تمامًا.

حيث إن اليهود والمسيحيين قد تشبهوا جدًا بأهل البلاد، فى تلك الفترة، لدرجة عدم القدرة على تمييزهم عن المسلمين، فإن المتوكل قد فرض عليهم مظهرًا خاصًا بهم فى الملبس: فى قدم، حذاء أبيض اللون والقدم الأخرى حذاء أسود، على العباءة رسم قرد بالنسبة لليهود وخنزير بالنسبة للمسيحيين. سيقوم آخرون، بعد قليل، بفعل هذا أيضًا، فى أوروبا.

أما الخليفة التالى، الحاكم، فقد أجبر اليهود على أن يحملوا فى بعض المناسبات قرمًا خشبية لا يقل وزنها عن خمسة أرطال، منحوته على صورة ثور، رمزًا للعجل الذهبى، وفرض على المسيحيين أن يجروا صليبًا طوله قدمين. لم يمنع هذا أبدًا من احتفاظ بعض المصرفيين اليهود بمناصب رفيعة.

كذلك استخدم الوزير الخاقان، نحو عام ٨٨٠، اثنين من المصرفيين اليهود، يوسف بن فيماس Joseph ben phimas وأرون بن عمران Aaron ben Amran، للإشراف على "تسويات نصف ضرائبية، نصف تجارية". فى عام ٨٩٢، صار حفيد يوسف بن فيماس المذكور (AL Muktadin وهكذا ورد)، المدعو نتيرا Netira، محل ثقة الخليفة المقتدى بعد أن اكتشف اختلاسات مالية داخل جهاز الدولة[٢٥١]. فى عام ٩٦٩، قام جوهر الصقلى jawhar

paltiel، القادم من جنوب غرب إيطاليا، ببناء جزء من القاهرة للمُعز، أول خلفاء دولة جديدة، دولة الفاطميين. (ورد اسم المعز بالأصل الفرنسي هكذا IAL - Mir izz)(*) وفي عام ٩٧٥، أصبح يعقوب بن كليش Yacoub ben killis وزيرًا للخليفة العزيز وأقام في القاهرة أول جامعة قرآنية، الأزهر. في عام ٩٨٣، وبينما أُسس أول اتحاد نقابي للمصرفيين اليهود في القاهرة، كان وضعهم مزدهرًا للغاية لدرجة أن بعض الكتابات المنتقدة اتهمت السلالة الفاطمية بالتحدر من أصول يهودية(٢٥١).

غير أنه لم يكن من المفيد لطائفة يهودية، أن تضم بين صفوفها شخصيات قوية ومتنفذة: عندما رفض أحد المصرفيين اليهود في بغداد، عام ٩٩٨، تقديم قرض للخليفة، تعرض بعض القائمين على أمور الطائفة للحبس. نحو عام ١٠٣٠، صارت عائلة توستوري Tusturi، التي أثرت من التجارة في الأحجار الكريمة، الممول الأول للخليفة المستنصر(١٦١)، دون أن يكون ذلك سببًا في توقف أو حتى تخفيف أعمال الاضطهادات التي يتعرض لها اليهود.

ثم بدأت بغداد في التداعي، ضاعت قوة الخلفاء الاقتصادية في رمال الصحراء. غادرت النخب اليهودية حينذاك إلى مصر وإسبانيا. في عام ١٠٣٨، ألغي منصب الجاون في بابل، في عام ١٠٤٠ مات إزقياح Ezekiah، آخر حكام المنافي دون أن يخلفه أحد. تضاءلت بغداد وتوارت أمام القاهرة، ثم أمام قرطبة، حيث تجاوزت المدارس التلمودية المتألقة الأكاديميات البغدادية. اتخذ معلموها أيضًا لقب "جاون" مع الحق في إصدار أحكام العفو أو الإعدام على من يصدرون الحكم بحقه، بعكس ما كان يحدث في بابل.

في عام ١٠٨٠، أجبر الخليفة المقتدر آخر يهود بغداد على وضع شارة صفراء ونيشان من الرصاص بوزن الدينار منقوش عليه كلمة "ذمي". هكذا انتهت بالنسبة لليهود ألفية ونصف الألفية من الحياة شبه الهانئة في بلاد ما بين النهرين. وكان ذلك أيضًا نهاية

(*) أخطاء في كتابة أسماء الخلفاء – وعدم توافق تاريخي بين التواريخ والواردة بالأصل الفرنسي وفترات ولاية بعض الخلفاء. ننصح بالرجوع إلى أعمال الأستاذ أحمد أمين – فجر، ضحى، ظهر الإسلام، والتي تعد عمدة المراجع في التاريخ الإسلامي. (المترجم – عاصم)

إمبراطوريات الشرق. كان الغرب فى طريقه لاحتلال الصدارة. ظاهريًا من خلال نظامه الاجتماعى، الإقطاع. وفى الحقيقة عبر شبكته التجارية.

النقل فى قرطبة

اجتذبت الدولة الإسلامية فى إسبانيا وفى المغرب التجار العبرانيين لدرجة أن بعض المدن الإسبانية سرعان ما صارت ذوات أغلبية يهودية. حتى إن مدينة غرناطة Granade، كانت تسمى "غرناطة اليهودية فى اللغة العربية ("المدينة اليهودية") بسبب، كما قال فى ذلك الوقت المؤرخ الحميارى AL Himyari، "أول السكان الذين استقروا فيها كانوا من اليهود(١٩)". هناك، قام هؤلاء اليهود مع المسلمين بتنظيم ما يمكن أن نطبق عليه "نقل تقنيات ومعارف" الشرق إلى الغرب: المخطوطات الإغريقية، طرق الحساب الهندية، الهندسة الصينية، الطرق المحاسبية البابلية، الطب الإغريقى، الذى وصل إلى هناك عن طريق مترجمين من العرب واليهود(٣٤). ترجمت فى ذلك الوقت إلى العبرية وإلى العربية مصنفات علمية هائلة. أصبحت قرطبة آلة ضخمة للترجمة وللشرح والتفسير والتعليق. استقرت فيها طوائف كبيرة، وكذلك فى إشبيلية Seville، غرناطة، طليطة. هناك ومثلما كان الحال فى كل مكان، صار اليهود حرفيين، موردين للجيوش وللبلاطات الملكية، جباة ضرائب، ممولين ووزراء. لنورد بعض ما آلت إليه مصائر بعضهم من بين آخرين.

فى عام ٩٦٠، صار حاسداى بن شابروت، Hasdai ibn Chaprout حاخام، طبيب وعالم، دبلوماسيًا، أحد رجال البلاط، ثم كبير وزراء الخليفة عبد الرحمن الثالث، كان يستقبل الوزراء، يوّجه التجارة الدولية نحو طوائف الشرق. فى عام ٩٧٠، كان يعقوب بن جاو jacob ibn - jau مستشارًا للخليفة الحاكم. بعد ذلك بقليل، كان صامويل هاليفى Samuel Halexi معلمًا للخليفة المنصور. فى عام ١٠٣٠، كان صامويل بن ناجيدا Samuel ben Nagida، سليل عائلة ثرية من تجار قرطبة، وسيطًا فى تجارة التوابل فى مالاجا Malaga، مؤلف بعض الأبحاث الدينية، تلموديا، وعالمًا لغويًا، قد صار جابيًا للضرائب، ثم وزيرًا لملك غرناطة، هابوس Habbus وطوال ثمانية عشر عامًا قائدًا عامًا للجيوش، وبرغم

الكثير من الدسائس التى حيكت له أصبح رئيسًا للوزراء، فى عام ١٠٣٨، فى عهد بلير الفاجر، Belir Le de bauche وسوف يظل فى منصبه حتى موته فى ساحة القتال، عام ١٠٥٦، فى إحدى المعارك ضد الأمراء المسيحيين. خلفه ابنه فى منصبه، لكن تمردًا موجهًا ضده، فى عام ١٠٦٦، قد أدى إلى مذبحة راح ضحيتها ثلاثة آلاف من يهود المدينة. (آمال ومجازر : تمهيد لكل ما ينتظر اليهود فى أوروبا).

٧- أوائل المصرفيين المسيحيين

فرنسا الميروفنجنية

عندما استقرت المسيحية فى بلاد الغال(*)، كانت هناك طائفة يهودية تقيم فيها بالفعل منذ زمن طويل. منذ العام السادس الميلادى، كان أركيلاوس Archélaos ابن هيوودس الأكبر Hérode Le Grand، قد نفى إلى فيينا Vienne، بينما نفى هيرودس إلى مدينة ليون Lyon. استقر الكثير من يهود فلسطين بعدهم فى تور، بواتييه، ناربون، ليونيل، نيم، فى مقاطعات أكيتين، نورماندى وفى شَمَبَانْى. فى القرن الخامس، كان هناك أثر لمعبد يهودى أقيم فى باريس فى جزيرة "المدينة"[٦١] L,ile dela cité. اكتشف وجود اليهود فى مملكة بورجوند burgonde، عام ٥١٧، من خلال قوانين الملك سيجموند Sigismond التى كانت تقضى بطردهم. فى عام ٥٤٤، حرّم عليهم شيلدبير الأول Chiledbert 1، الذى كان ملكًا على جزء من بلاد الغال، الظهور فى يوم عيد الفصح فى شوارع باريس. حُرم فريول Ferréol، أسقف أوزيه Uzés من إبراشيته بسبب أنه «عامل بعض اليهود بأكثر مما يجب من اللين[٣٦٩]». فى عام ٥٧٦، دُمر أحد معابد مدينة كليرمون Clermon إثر موعظة الأسقف أفيتوس Avitus التى ندد فيها باليهود. فى عام ٥٨٢، أجبر شيلبيرك Chilperic اليهود على الاختيار ما بين الدخول فى المسيحية أو اقتلاع عيونهم.

(*) الاسم الذى أطلقه الرومان على المنطقة التى يسكنها الغاليون، وهى شعوب كلتية، كانت تمتد على شمال إيطاليا وفرنسا بلجيكا. بلاد الغال كانت تضم المناطق التى تشمل الآن فرنسا و بلجيكا و الجزء الألمانى الواقع غرب نهر الراين. (المترجم: عاصم عبد ربه).

كان الجزء الأكبر من المبادلات التجارية لا يزال يُجْرَى – حتى القرن الحادى عشر– بطريقة المقايضة. الملح، الأسلحة، المنسوجات، النبيذ، المنتجات الزراعية كانت تُبادل إحداها بالأخرى. تسدد ضرائب السادة الإقطاعيين قمحًا، مقاطع من الأقمشة أو ألبسة من الصوف أو الكتان (كانت بعض الإقطاعيات تمتلك معامل نسيج حقيقية)[٣٤]. كان التجار، أحيانًا من السوريون، لكن أيضًا من اليهود المتحدثين باليونانية – ويطلق عليهم أحيانًا السوريين Syri – يقومون بالتجول بين المدن حاملين المنسوجات الفاخرة، التوابل، المخدرات، العبيد وأحيانًا الذهب. وتقريبًا لم تكن النقود تستخدم أبدًا.[١٧] وهنا وهناك، استخدمت السبائك فى تجارة المسافات البعيدة. لم تكن هناك نقود أو عملة "وطنية": ضربت الأديرة، الأساقفة، الأمراء نقودًا (فلوسًا) من الذهب وعملات نقدية من الفضة غير متطابقة فيما بينهما، فى بعض المناطق، كانت عملة "السوليدوس" Solidus الذهبية التى صكها قسطنطين، تحت مسميات "البيزان"، "الدينار"، "المارافيدى"، لا تزال سائدة[١٧]. وظلت النومسيما Lenomsima البيزنطية، قطعًا نقدية قيمتها فلس واحد، ضربت من الذهب فى مدينة القسطنطينية، وتزن نظريًا ٣٨٩ جرامًا، مع العملة الرومانية والفرنسية القديمة، العملة الرئيسية فى التجارة الدولية. هذا السوليدوس Solidus – تحول اسمه فى اللغة الفرنسية بعد ذلك بكثير إلى "سول" Sol أو "سو" (*)Sou(فلس)– لم يستخدم فى أوروبا إلا كعملة حسابية بين المراكز التجارية الكبرى وبين التجار اليهود واليونانيين الذين يقومون بالربط بين هذه المراكز وبعضها. ولم يكن يُتَدَاوَل حقيقة. كان الذهب بالأحرى هو العملة السائدة فى الشرق وسيطرت الفضة فى الغرب[١٧].

بجوار الـ "كاسترا" Castra، بلدات صغيرة محاطة بالأسوار، استقرت طوائف يهودية جديدة فى نهاية القرن السادس الميلادى. وفى الموانئ كان اليهود يديرون شبكات التبادل التجارى التى حافظوا عليها منذ أيام الإمبراطورية الرومانية، مهما كانت السلطات الحاكمة. وصلت أوراق البردى المصرية إلى مارسيليا، قمح شمال أفريقيا وصقلية إلى أوستى Ostie. زيت الزيتون القادم من إسبانيا، كان يباع فى شمال بلاد الغال. ورثت

(*) قطعة نقدية فرنسية صغيرة كانت تساوى فى مطلع القرن الماضى مليمًا تقريبًا. (المترجم – عاصم)

توابل الهند والصين إلى ناربون **Narbonne**، التى كانت لا تزال ميناءً. تسلم تجار رافينا الحرير الوارد من القسطنطينية. فى سوق فردان **Verdun** الموسمية، تجرى تجارة العبيد الساكسون، الذين يوزعون بعد ذلك على إسبانيا وفى الشرق[٣٤]. يمارس اليهود فى هذه المدن كل المهن المتعلقة بالتجارة والصناعة الحرفية، أما التسليف، فكان مهنة هامشية، مقصورة على قروض بغرض الاستهلاك، فقد ظل حكرًا عليهم. كانت الاستثمارات لا تزال غير مرغوبة وفكرة المؤسسة محل ارتياب وغير معتبرة: الربا[٣٣٧] **L,ausre** أو "**L,usura**" – كلمة مأخوذة من الكتاب المقدس المكتوب باللاتينية، تشير إلى كل فائدة متولدة عن عملية تبادل أساسها المال، وبالتالى تشير أيضًا إلى الفائدة التجارية والفائدة على القروض، بما فى ذلك عندما يدر القرض فائدة ضئيلة، هذا التعميم للموصوف ستؤدى إلى أن نَصْف بالمرابى عمليًا كل مقاول وحتى القرن السادس وكل مقرض للنقود، مهما كان معدل الفائدة الذى يتعامل به، حتى القرن التاسع عشر.

فى عام ٥٨٤، ذكر جريجوار دو تور **Gregoire de tours** مطران ومحرر أخبار فى جريدة " التاريخ الفرنسى" **L'hisortia Francorum** عملية اغتيال وقعت فى مدينته، تور، لمُقْرض أموال يهودى، يدعى أرمانتاريوس **Armantarius**[٣٤]. فى عام ٦١٣ ثم فى عام ٦٢٩ خَيَّرَ كلوتير **Clotaire** ثم داجوبير، على التوالى، يهود لانجدوك – التى تم استعادتها من القوط الغربيين – بين الدخول فى المسيحية والطرد من البلاد. فى عام ٧١٩، قام قائد مسلم باحتلال مدن: ناربون، كاركاسون وبيزيّه ونيم. وفى عام ٧٣٢، استطاع شارل مارتيل **Charles Martel** إيقاف هذا الزحف الإسلامى نحو الشمال، فى ٧٣٧، استعار كاركاسون وبيزيّه. فى ناربون، استمر المسلمون والمسيحيون واليهود فى العيش معًا فى وئام. فى ٧٥٥، أنزل بيبان البابوى **Pépin Le pref** الهزيمة باللومبارديين، محافظًا على الوعد الذى قطعه للبابا فى السنة الماضية بأن "يقدم هبة لسان بيير **Saint Pierre**" (القديس بطرس) الأراضى التى يفتحها فى إيطاليا: وهكذا أنشئت الولايات البابوية. فى ٧٥٩، استعاد ناربون من المسلمين بمعونة القوط الغربيين. وكنوع من الترضية والشكر على حيادهم، أقر ليهود هذه المدينة بالحق فى الانتظام فى طائفة وبالحق فى توريث أملاكهم العقارية إلى ذويّهم المستحقين. امتياز نادر، سوف يستمر لستة قرون تالية.

العصر الكارولنجى(*) الذهبى

فى عام ٨٠٠، قام البابا ليون الثالث LéonIII بتتويج شارلمان إمبراطورًا للغرب، لإيجاد منافس فى مواجهة الإمبراطور البيزنطى الذى يعارضه بسبب خلاف حاد حول مسألة تمثيل المسيح بالصور. كانت أوروبا فى عهد شارلمان لا تزال شديدة الفقر مقارنة بإمبراطورية قسطنطين الرابع، مملكة هارون الرشيد فى بلاد ما بين النهرين وإلى إمارة قرطبة التى يتربع على عرشها عبد الرحمن الثانى. ابتدأ شارلمان ولايته بإعادة تقييم العملة: تأكد الاعتماد على الفضة كقاعدة معيارية مع فئتين من العملة الحسابية (الجنيه والفلس (المليم) وقطعة نقدية واحدة للتداول (الدانق أو الدرهم). لتأكيد تفوقه السياسى، لتشجيع التبادلات التجارية الداخلية وتقليص التجارة نحو خارج الإمبراطورية، قام شارلمان بمنع صك وسائل التبادل الدولية الخاصة وحدد عدد الورش العمومية لضرب النقود.(١٧) واصل التجار اليهود استيراد المنتجات الشرقية عبر مدن: سانس Sens، ڤردان Verdun، تروى Troyes، التى كانت أكبر مراكز الأسواق الموسمية(٣٤)

فى مدينة ناربون، أسس الحاخام ما خير Makhir نحو عام ٨٠٠ مدرسة دينية وحصل من شارلمان على جزء كبير من المدينة، والذى أصبح ما يشبه "مملكة" مُصَغرة كان على رأسها، وفقًا للنموذج القديم لطائفة يهود بابل، " أمير للمنفى" سوف ينتقل لقبه بالتوارث عبر أجيال عديدة. فى عام ٧٩٧، كلف شارلمان يهوديًا من مدينة ناربون يدعى إسحاق Issac برئاسة سفارة إلى خليفة بغداد، عاد منها فى عام ٨٠٢ يحمل للإمبراطورية هدية عبارة عن ساعة رملية وفيل. ولتشجيع نمو وتطور مملكته الاقتصادى سعى الإمبراطور الكارولنجى إلى اجتذاب اليهود. سوف يكتب أحد الأطباء والمؤرخين اليهود، يوسف ها - كوهين joseph ha - Kohen، بهذا الشأن فى القرن السادس عشر: "لقد كان المسيحيون والمغاربة يتحاربون فيما بينهم وكان ذلك وقتًا عصيبًا بالنسبة لإسرائيل". من روما، استدعى شارلمان، ملك فرنسا، الرابى كالونيموس kalonymos، دو لوك de Lucques، الذى قاد

(*) نسبة إلى كارل مارتل والكارولنجيون سلالة ملوك فرنجة حكمت أوروبا ابتداء من ٧٥٠م – وحتى القرن العاشر(المترجم – عاصم عبد ربه).

اليهود الناجين إلى ألمانيا، قام بتجميع المشتتين من يهودا، وعقد معهم شارلمان تحالفًا. أقام اليهود آنذاك فى ألمانيا مدارس لشريعة الرب، كما فى السابق، وصار كالونيموس على رأسهم."(٢٩٣) فضلًا عن ذلك، سمح الإمبراطور للتجار اليهود بأن يقسموا على توراتهم، كلف بعض الموظفين المسيحيين، المُعلمين اليهود، بالاهتمام باليهود المشتغلين بالتجارة وحمايتهم. أقيم نظام إدارى حقيقى متخصص.

ظلت البلاد فقيرة للغاية، تزرعها عصابات قطاع الطرق والأشقياء البؤساء ، بلا توقف. كانت مساعدة الفقراء منوطة بالكنيسة، التى يجب عليها مبدئيًا أن تخصص لهم ثلث مواردها. يوضح أحد مراسيم شارلمان أن "العشور الكنسية يجب أن تقسم فى حضور الشهود، إلى ثلاثة أجزاء سوف تؤمن تكاليف الاعتناء بالكنيسة، إعاشة القس ومساعدة الفقراء المحتاجين".(١٦٠)

يروى أحد كُتاب الأخبار(٦٠) فى فترة ولاية الإمبراطور والمعروف باسم « راهب القديس – جول» "moine de saint-gall" كيف أن شارلمان كان قد طلب يومًا ما من أحد التجار من أصدقائه أن ينصب فخًا لأحد الأساقفة كان معروفًا بالجشع على وجه الخصوص ولم يكن يتقيد بشرط تخصيص ثلث موارده للفقراء. طَيّب التاجر فأرة بالعطر وعرضها على الحبر « مدعيًا أنه عثر على هذا الحيوان الذى لم يره أحد من قبل فى يهودا». أراد الأسقف شراء الفأرة بثلاثة جنيهات من الفضة. « أى ثمن تافه لشيء ثمين كهذا !» قال التاجر اليهودى زاعقًا: إنى لأفضل أن ألقى به فى البحر على أن أتنازل عنه لقاء ثمن بخس كهذا." عرض الأسقف ساعتها عشرة جنيهات. رد التاجر قائلًا: «ما كان رب إبراهيم ليرضى أبدًا أن أفقد ثمرة جهدى ومصدر رزقى بهذا الشكل.» زاد الأسقف السعر إلى عشرين جنيهًا ز لفّ التاجر الفأرة فى قطعة من القماش الفاخر وتظّاهر بالانصراف. ناداه الأسقف وعرض عليه صُرة كاملة من الفضة. وافق التاجر وبسرعة حمل ثمن البيع إلى شارلمان راويًا له ما دار. استدعى الإمبراطور حينذاك الأساقفة فى مجمع كنسى، وبعد أن صرّف الأعمال الجارية، طلب إحضار النقود التى تحصل عليها التاجر اليهودى، عرضه على المجلس قائلًا: "أنتم، أيها الأساقفة، يجب عليكم أن تكونوا فى خدمة الفقراء، عن طريقهم، تخدمون المسيح، بدلًا من السعى وراء الأشياء التافهة الفانية.. ها كم كل هذه

النقود التى دفعها واحد منكم لتاجر يهودى لقاء مجرد فأرة منزلية معطرة ببعض العطر !..." وبحسب ما جاء بالوقائع المسجلة، فإن الأسقف الذى تعرض "للتشهير العلنى قد خر جاثيًا على أقدام الإمبراطور ملتمسا صفحه"(٦٠)

مثل هذه النوادر، حقيقية كانت أم مُتَخَيلَة، لم تُصلح فى شىء من صورة شارلمان ولا صورة اليهود فى نظر الكنيسة.

أحاط لويس التقى Louis Le pieux، ابن شارل Charles، هو الآخر نفسه باليهود. كان مستشاره الخاص زدقياح Zedekiah، طبيبًا، وكان تأثيره عليه هائلًا لدرجة أن الراهب الإسبانى أجوبارAgobard، قال فى كتابه "خمسة رسائل ضد اليهود" المكتوبة فى ٨١٤، "كان رجال البلاط يسعون لنيل حظوته ويلتمسون رضاه بتقديم الهدايا الثمينة"(٦٠) هكذا صار الدارج فى البلاط هو دعم اليهود ورعايتهم. «حتى إن بعض السادة الإقطاعيين كانوا يقدسون يوم السبت ويفضلون مواعظ الحاخامات عن عظات القسس والرهبان، الذين كانوا فى غاية الجهل فى ذلك الوقت(٦٠) .» أعطى الملك جوازات سفر لبعض الأسر اليهودية « لجذبهم إليه وحمايتهم فى أسفارهم ورحلاتهم البحرية التجارية». صرّح لهم ببناء معابد جديدة ومنحهم الحق فى ممارسة التجارة خلال فترة الصيام وممارسة طقوس السبت على الرغم من اعتراضات أجوبار، الذى صار مطرانًا لمدينة ليون عام ٨١٣. وسوف ينجح الملك فى نفيه بعد أن دفع أولاده الثلاثة للتمرد ضده.

اجتذب هذا السلام الكارولنجى أعدادًا متزايدة من يهود آسيا الصغرى، من البلقان ومن جنوب إيطاليا. بالرغم من عداء الكنيسة والطبقة الأرستقراطية، وهكذا استقرت بعض الطوائف فى الأقاليم، فى الريف، على ضفاف نهر الراين LeRhin، فى شمال إيطاليا، فى كل مكان على طول طريق الأسواق الكبرى. هنا كما فى قرطبة نقل اليهود خبراتهم فى زراعة الكروم والحرف اليدوية وعلاقاتهم التجارية مع آسيا الصغرى(٣٤)؛ ساهموا فى نقل الثروات والمعارف القادمة من الشرق.

لا يزال من غير الممكن التمييز بين الكنائس والمعابد؛ كانت الترانيم أيضًا متقاربة. كثير من المسيحيين يقدسون راحة يوم السبت؛ يتناقش القساوسة والحاخامات، يتخالطون،

يتاجرون معًا، يغيرون ديانتهم. ترجمت مجموعات من الميدراش Midrash أو الهاجاداه Haggadah إلى لغة الأويل L'oil بواسطة يهود متحولين إلى المسيحية وقدمت باعتبارها "حكايات شعبية". مَثَلَ الأعمى والمشلول فى سنهيدرين ٩١، صار قصة القديس مارتان Saint Martin(٢٨٨).

فى نهاية القرن التاسع، كان قرابة عشرين ألف يهودى قد استقروا فى ألمانيا وثلاثين ألفًا فى بلاد الغال.

اقترب عدد اليهود من المائة ألف فى أوروبا المسيحية بأكملها. أى جزء لا يزال ضئيلًا من الستة ملايين الذين يعيشون فى العالم. وتواجد الباقى منهم فى بلاد الإسلام بشكل أساسى وكذلك فى بيزنطة، وقليل أيضًا فى وسط أوروبا. فى القرن الخامس، فى فيينا (النمسا حاليًا) حيث استقر بعض التجار، ظهرت كلمة أشكناز للإشارة إلى يهود ألمانيا، ويقال إن الكلمة قد صيغت ابتداء من اسم أحد أحفاد نوح (الذى كان أبوه يسمى جومان Gomen، اسم يحيل رنينه الصوتى بصورة غامضة إلى جرمانيا "ألمانيا"...)

اليهودية فى ظل النظام الإقطاعى

توطدت أركان النظام الإقطاعى تدريجيًا. فى بداية القرن الخامس، ضمن النبلاء والرجال الأحرار حماية المزارعين لقاء أعمالهم الزراعية. ولم يكن اليهود لا من الأحرار ولا من عبيد الأرض الذين لا يملكون الحق لا فى حمل السلاح ولا فى تملك الأرض. لم يكونوا سوى أجانب يدفعون الضرائب، أحد مصادر الدخل من الممكن أن يتنازل عنه أمير ما لواحد من أتباعه أو مُقْطِعيه أو لأحد الأثيرة لقاء مزايا أو منافع أخرى.

فى المقابل، كان حكام المدن التجارية الجديدة يرحبون باليهود ويمنحونهم الأراضى، الامتيازات، بل « صكًا بالحقوق». كانوا يحتاجون إلى تجار وقد لا حظوا أن اليهود يجلبون الثراء إلى المدن التى تحسن استقبالهم. فى عام ١٠٠٤، منح أسقف مدينة سبير Spire فى

راينلاند[*] Rhenanie، المدعو روديجير Rudiger، صكًا مثل هذا ليهود مدينته: «اعتقد، قال الرجل، إننى كنت سوف أعُلى ألف مرة من عزة ومجد بلدتنا بجلب اليهود للإقامة فيها.» فى مقاطعة شامبانى، بطول نهر الراين (الران)، نهر اللوار، نهر السين، فى شمال إيطاليا وفى بولندا استقرت كذلك عدة مئات من الطوائف الجديدة الجديدة. فى جنوب بلاد الغال (فرنسا)، صار بعض اليهود ملاكًا للأراضى وأحيانًا كانوا يقومون باستغلال ملكياتهم بأنفسهم. بل صادف أن كان بعضهم مزارعين للكروم، بينما لا يستطيعون الشراب مع المسيحيين (يقول التلمود: "نبيذ غير العبرانيين ممنوع مراعاة لبناتهم"). الخوف مرة أخرى من الزيجات المختلطة. بصورة عامة كان اليهود مع ذلك أقل اهتمامًا واشتغالاً بالأعمال الزراعية عنهم فى ديار الإسلام وفى بلاد ما بين النهرين. أولًا لأن الكنيسة تفضل أن تعهد بأراضيها إلى مسيحيين، يمكنها أن تطالبهم بدفع العشور. ثم لأن اليهود لا يحق لهم تشغيل العبيد، الذين لا يمكن بدونهم القيام بالأنشطة الزراعية الكثيفة. وأخيرًا وخاصة لأن التهديدات بالطرد سوف تحث اليهود عما قريب على أن يظلوا مستعدين للحركة: الشتات، فى أوروبا، لا يمكن إلا أن يكون حضريًا.

فى المدن، تكونت الطوائف(universitas judaeorum) من أشخاص اعتبارية: كما فى الأماكن الأخرى، كان لكل طائفة مجلس، محكمة، صندوق تضامن مالى، معبد. مارس اليهود أكثر المهن والحرف تنوعًا: أطباء، صبّاغون، دَبّاغون، صناع هياكل للعربات، خَياطون، نجّارون، حدّادون، صاغة، مصرفيون، نجّارو مبانى. تخوف التجار المسيحيون من منافستهم. فى القرن التاسع، نص مرسوم كويرزى Quierzy الملكى على أن التجار اليهود سيكون عليهم دفع رسم العُشر أو واحد على أحد عشر للمسيحيين.

ظلت عمليات التسليف هامشية، حتى إنها لم تذكر فى مجموعة كتابات المعادية لليهود فى ذلك الوقت، Adversus judaeos[٦٠]، المبالغ المسجلة فى الأحكام (التى لا تحدد أبدًا، فضلًا عن ذلك، هوية الأطراف، ولا مكان ولا تاريخ إتمام المعاملة، ولا معدل الفائدة)، غير

(*) راينلاند. أرض تاريخية تقع على طول نهر الراين.. وهى ألمانيا اليوم. (المترجم – عاصم)

ذات قيمة. غير أن هذه المعاملات قد وَجِدَت بالفعل: اقترض بعض المسيحيين من مختلف الطبقات الاجتماعية من اليهود وكانوا يؤمنون بصفة عامة أن السداد كان واجبًا أخلاقيًا. على هذا النحو، وضعت كونتيسة تولوز، وهودا، Dhouda، كتابها "مذكرات حرة Liber manulis، المهُدى إلى ابنها جيوم Guillume، مذّكرة إياه بواجب سداد ديون أبيه، ومن ضمنها الديون المستحقة لدائنين من اليهود[٦٠]. أقرض اليهود أيضًا بعض الأديرة: كان المدعو أورسليوس Ursuellus، المقيم فى مونمورينسى Montmorency، يحّصل على سبيل المثال فائدة قدرها ٢٨٪ على قرض قدمه لدير القديس دونى Saint - Denis.[١٧٦]

ارتفعت هذه الطلبات قليلًا مع النمو الاقتصادى وانتهت بأن تخطت قدرات المقرضين الأفراد، سمح القضاة حينذاك للمقرضين اليهود بالتجمع لتأمين رؤوس الأموال اللازمة لإقراض المسيحيين. صار من الممكن إذًا أن يقترض اليهود بفائدة فيما بينهم، بشرط أن يكون المقترض النهائى مسيحيًا. بعد ذلك بقرنين، أى فى القرن الحادى عشر، وفى ألمانيا، كتب الرابى جيرشوم Gershom:« إذا أجاز واحد من غير اليهود لأحد اليهود أن يجد له المال عند يهودى آخر ليقترض منه بفائدة، تكون المعاملة شرعية لأن اليهودى الأول يكون وكيلًا فى عملية إقراض إلى أحد الأغيار[١٧٦]». شيئًا فشيئًا لم تعد الطوائف اليهودية مقبولة إلا بشرط أن تكون من المقرضين، مهنة محرمة على المسيحيين.

لضمان سداد هذه الأصول وفوائد تتجاوز الستين بالمائة سنويًا، كان الدائنون يتخذون رهنًا. إما أن يجلب الرهن ذاته عوائد يحتفظ بها المقترض فى حوزته، وهذا هو «الرهن الميت»، وإما أن يترك العوائد للمقرض كفائدة مقابل تعهد أمام بعض الوجهاء المسيحيين بألا يتصرف مطلقًا فى هذا الرهن، إلا فى حالة عدم سداد الدين، وهذا هو «الرهن الحى».

صار الطلب على القروض أكثر قوة فى النصف الثانى من القرن العاشر وأصبح الضغط الذى يمارسه المدينون على الدائنين مقلقًا. دارت نقاشات حادة حول الرهون. أوصى الرابى ميشولام بن كالونيموس Meshulamben Kalonymos بطلب عقارات ذات عوائد مساوية للفائدة كرهن[٣٤]. أحيانًا كانت هذه الرهون لا تغل شيئًا: فى حضور شهود "معروفين" كانت الأديرة تقدم أشياءً ثمينة كرهون، ملابس المراسم الدينية، أشياء متعلقة

بالعبادة لم تكن تجلب نفعًا ولم يكن باستطاعة المقرض اليهودى لا أن يستعملها ولا أن يبيعها. لم يكن بمقدوره سوى الاعتماد على رغبة المقترض فى استعادة الشىء المرهون. لم يكن هناك أحد غير اليهود، فى ذلك الوقت، له الحق فى أن يقدم قروضًا، وغالبًا لم يكن لديهم الحق فى مزاولة مهن أخرى دون ممارسة مهنة التسليف أيضًا. «لا يقرض النقود إلا يهودى» هكذا يقال فى كل مكان.(١٣٤) فى كثير من لغات العالم فى ذلك الوقت كانت كلمة تهّود "jaudaiser" تعنى "أخذ الفوائد".(٣٣١) لم يكن التعبير متسامحًا تجاههم فى شىء. ساور اليهود القلق، حاولوا التخلص منه، لكن دون جدوى. لم يعد يشار إلى الفوائد التجارية المتولدة عن شراء و بيع الأمتعة باعتبارها "ربا"، لكن القروض فقط تعتبر كذلك، المرابى هو اليهودى، والعكس بالعكس...

يهود الأسواق الموسمية

شجع بُعد المسافة عن المراكز فى بابل وفى فلسطين الطوائف التى نشأت فى أوروبا المسيحية على الابتكار. هناك، تقام الصلاة والرؤوس عارية، نتلوا الكاديش Kaddish (تقديس اسم الله) فى حياة الوالدين. وضع المثقفون قصائد دينية طقسية لكل الأعياد وأدخلوا طرقًا جديدة لدراسة التلمود. لم نعد ننتظر ردودًا لا من أورشليم ولا من بغداد، ولا حتى من قرطبة. لم يتأثر أحد عندما جددت مدرسة سورا، مركزًا لاهوتيًا لليهودية البابلية، تحريم الإقراض بفائدة، وإن كان غير مباشر، أولًا إلى اليهود ثم إلى غير اليهود.

بما أن علماء الدين كانوا تجارًا أيضًا، كان من الطبيعى أن يجرى تنظيم اجتماعات الكبار منهم فى مدن الأسواق الموسمية –ماينس Mayence وفورم Worms فى ألمانيا وسانس وتروى فى فرنسا – لبيع بضائعهم وفى نفس الوقت مناقشة المجادلات اللاهوتية الراهنة. كانت آراؤهم تتردد بعد ذلك عبر أوروبا عن طريق تجار آخرين ثم تصبح اجتهادات فقهية.

فى ماينس قام الرابى جيرشوم ماور ها جولاح Gershom Maor ha Golah وتعنى ("نور المنفى") بمنع تعدد الزوجات بشكل نهائى لكل يهود أوروبا. هذا السلوك، الذى

لا يزال التلمود يبيحه، ظل ساريًا فى بلاد الإسلام، ولكنه لم يعد شائعًا فى الإمبراطورية الرومانية منذ وقت طويل. لكن وصول الطوائف اليهودية القادمة من العالم الإسلامى إلى أوروبا المسيحية فرض إعادة هذه السنة من جديد. فى فورمز توجس الرابى اليزار Aléazar من الدور الذى آل إلى اليهود فى كل الأنشطة المالية. مستشعرًا أن الخطر يلوح، نصح - بدواعى الحذر السياسى وليس لأسباب عقائدية - بعدم تقديم القروض بفائدة نهائيًا إلى أى شخص كان، بما فى ذلك غير اليهود. لم يستمع إليه أحد. ثم من جهة أخرى كيف لهم أن يرفضوا؟

فى تروى troyes، التى كانت فى ذلك الوقت أحد أهم مراكز أوروبا التجارية، ظهر واحد من أوائل المفكرين فى اللغة الفرنسية - أو بالأحرى فى لغة شامباتى القديمة- سليمان بن إسحاق Salomon ben Issac، الملقب براشى Rachi، أحد أتباع إسحاق بن يهودا Issac ben Yehuda، من مدينة ميتزMetz، تلميذ جيرشوم ماور حا جولاح، رابى ما ينس، مزارع كروم وبائع نبيذ من إنتاج مقاطعته.[٣٣٣] ما بين عام ١٠٦٠ - كان حينها فى العشرين - ١١٠٥، كتب تفسيرًا كاملًا للتوراة، آية بآية، وكذلك تفسيرًا للتلمود بأكمله، وإضافة إلى ذلك ثلاثمائة وخمس وخمسين إجابة على أسئلة وردت إليه من كل طوائف أوروبا.[٣٣٥] مقدمًا فى الغالب بلغة شامبانى القديمة معانى بعض الكلمات العبرية الصعبة، كان الرجل مصدرًا ثمينًا للغاية بالنسبة لعلم أصول قواعد اللغة الفرنسية القديمة. عالم لاهوت مميزًا ورجلًا مواكبًا لعصره، قدم راشى قراءة بسيطة وواضحة للشريعة، وفى نفس الوقت تحديثًا مهمًا لأحكام الفقه والاجتهادات. على سبيل المثال أباح لليهود الاختلاط بالمسيحيين: "لا يمكننا أن نكسب عيشنا بدون التعامل مع الأغيار (الوثنيين)، لأننا نعيش بينهم، ونعتمد عليهم."[٣٣٥] نصح التجار بعمل عقود مكتوبة، تثبت إرادة الأطراف الواضحة فى الالتزام بها، دون خرق للشريعة. بما أنه كان يعرف بصورة مذهلة كيف يدور العمل فى الأسواق الموسمية، فقد أصدر تقنينًا جديدًا خاصًا بالأسعار. فعلى سبيل المثال، حذر من كبار التجار الذين يشترون جانبًا كبيرًا من المحصول بأسعار منخفضة ثم يخزنونه لإعادة بيعه فيما بعد، محققين أرباحًا كبيرة، مع المحافظة على مبدأ « السعر العادل » فى الظاهر ، حسَّن من أوضاع الأجراء باشتراط تمتعهم بعقود عمل تمتد لثلاث سنوات. أباح لعامل اليومية أن

يغادر موقع عمله فى أى لحظة، إذا لم يؤد هذا الغياب إلى أضرار مادية غير توقف العمل نفسه، ويحتفظ له بحق الحصول على أجر عمله كاملًا وفقًا للوقت الحقيقى المبذول فيه.

فى أواخر عمره، سيعرف راشى حسرة المذابح الأولى المرتبطة بأول حرب صليبية ولن يتاح له الوقت لإتمام عمله.[٢٧٣] سوف يتم إدخال التصويبات والتنقيحات التى أجراها على نصوص التلمود فى كل الطبعات اللاحقة. أُطلق على أتباعه، من بعد وفاته، لقب التوسافيست - أى "المضيفين - (كلمة توسافا Tosafa تعنى "إضافة") لأنهم قد أضافوا إلى الأستاذ (مثل سيمهاح بن صامويل Sim hah ben Samvel، من مدينة فيترى Vitry، شماياح Chemayah، يهودا بن إبراهيم Yehouda ben Abraham، يوسف بن يهودا Joseph ben Yehoudah، يعقوب بن سيمون jacoup ben Simon). تزوجت بناته الثلاث بثلاثة من تلاميذه. أنهى أحد أحفاده، صامويل بن مائير Samuel ben Meir، كتابة تفسيره وتعليقه على مبحث الباب الأخير Baba Batra ، أحد مباحث التلمود الاقتصادية. حفيد آخر، يعقوب رابينو تام jacoup Rabbeno Tam، الذى كان يُقْرِضُ، برهون، جابى ضرائب ومزارع كروم، سوف يبيح بيع النبيذ إلى غير اليهود إذا كان ذلك هو السبيل الوحيد لكسب المال. إنه سوف يكتب: « فى كل مرة تعلق الأمر فيها بخسارة مالية جسيمة، كانت التوراة قد اهتمت بأموال إسرائيل. لماذا أبدى أنا اهتمامًا أقل ولماذا قد أرفض أن أقرر أن هذا.. شيئًا مباحًا[٢٤]؟ » سيكون واحد من تلاميذ راشى القدامى أحد أهم معلمى اليهودية فى أوروبا الوسطى، فى القرن السابع عشر، وهو كبير كهنة مدينة براغ، - مهرال براغ - Prague.بل إن تأثير راشى قد تجاوز نطاق اليهودية: سوف يطّلع الراهب الفرانسيسكاتى نيكولا دو لير Nicola de Lyre على ما كتبه، وسوف يستشهد به كثيرًا فى تفسيره الخاص للتوراة. مارتن لوثر Matin Luther أيضًا سوف يستشهد بتعليقاته وشروحه.

يظل راشى أعظم رموز زمن ازدهار وعظمة التجار العلماء ، أصحاب الدور الأساسى فى اليقظة الاقتصادية والسياسية للعالم المسيحى.

٨ - التجار اليهود يمرون إلى الغرب

فى ظل هذا الانقلاب الحادث فى الجغرافيا السياسية، كان اليهود وحدهم تقريبًا هم من استطاعوا أن ينتقلوا من طرف من العالم إلى الطرف الآخر. موانئ المتوسط التى يدير المسلمون شئونها (من إسبانيا إلى مصر، من فلسطين إلى لبنان) كانت مغلقة أمام التجار المسيحيين. تحتم على جنوة وبيزا Pise أن تخوضا معارك عنيفة ضد القراصنة المسلمين. عبر الطرق البرية كان الوضع أكثر سوءًا، لأن دولة الإسلام كانت تبدأ من حدود بيزنطة. أما التجار اليهود فقد كانوا موجودين فى أهم المحطات التجارية، البرية والبحرية، سواء كانت مسلمة أو مسيحية: جنوة، باليرمو، القيروان، الإسكندرية، الفسطاط (القاهرة فيما بعد)، كوس Cos، عدن، الرمل، سجلماسة (واحة ومحطة وصول القوافل فى المغرب، فى قلب الصحراء). كانوا ينتقلون من بلاد ما بين النهرين إلى المغرب، من القوقاز إلى القرم Crimée فى إسبانيا، من الخليج الفارسى(*) إلى ساحل مالابار(**). شكلوا ما يشبه اتحادًا نقابيًا يحتفظ لنفسه باحتكار بعض العملاء(٢٤)، ينظمون تبادلات تجارية كانوا وحدهم القادرين على القيام بها. بفضل الوثائق الأرشيفية التى عثر عليها فى القاهرة(٤٥)، تعرفنا جيدًا على ممارساتهم فى تلك الفترة؛ التى عكست أيضًا بلا شك ممارساتهم فى القرون السابقة بشكل ما.

رافق كثير من التجار اليهود بضائعهم فوق متون السفن (منسوجات، أصباغ، أدوية وعلاجات، عطور، مشغولات نحاسية، برونز، سكر، مشروبات وعصائر، زيوت، شموع، أنبذة، أسماك مجففة، قطع ذهبية وفضية، مخطوطات - لكن لم نعثر على أى أثر لتجارة أسلحة أو عبيد)(٥). كانوا يولون حماية البضائع من الماء ومن الحشرات القارضة أقصى اهتمام؛ كانوا أيضًا خبراء فى التغليف، بالورق، الأقمشة وعُقْد الربْط. بوجه عام، كان عملاؤهم أيضًا من التجار اليهود، مستوردين لبضائعهم. للتعريف بمنتجاتهم وترويجها،

(*) تصارع العرب والفرس دائمًا حول هذا الخليج - فنسبه كل طرف إلى نفسه. (المترجم - عاصم)

(**) ساحل الهند الجنوبى. (المترجم - عاصم)

استعملوا ما كان يشبه "وكلاء الدعاية" يدفعون لهم بالعمولة. وحتى لا يتعرضوا لمخاطر كبيرة، كانوا يقسمون حمولاتهم بين العديد من السفن، ما عدا أثناء أوقات الحروب حيث يقصرون الرحلة على سفينة واحدة، حتّى ولو فقدوا فيها الحياة أو الحرية. في ذلك الوقت لم يكن لهم اتصالات واسعة لا بالحكومات ولا بالجيوش، إلا إذا كانوا من بين موّرديها. في بعض الحالات كانوا يطلبون حماية قوافلهم في البحر، عبر الصحراء أو داخل مناطق التوتر (سوريا، اليمن، مصر). أحيانًا كان القراصنة يأسرونهم، لكنهم سرعان ما يتم تحريرهم (كانت تلك هي حالة أحد يهود عدن الذي أسره القراصنة في بومباي وحرره زوج أخته في بنجالور Bangalore). كان يصادفهم أيضًا أن يظلوا محصورين لعدة سنوات في مدينة ما، يرسلون بخطابات يائسة إلى شركائهم وإلى ذويهم (نحو العام ١٠٠٠، كانت تلك هي حالة أحد التجار التوانسة، الذي أوقف في مدينة أمالفي Amalfi – أو حالة ناهري بن نيسيم nahrey ben nissim، تاجر، ومصرفي تونسي، سوف يقضي معظم حياته محصورًا رغمًا عنه في مصر).

الخطابات التي تبادلها هؤلاء التجار – التي نملك منها قدرًا ضئيلًا في هذه الفترة– كانت أحيانًا مطوّلة ومعقدة، دقيقة ومفصّلة، منمقة، بل شاعرية، لكنها كانت أحيانًا تتحول أيضًا إلى مجرد بيانات حسابية. بلا توقف، كانوا يتبادلون الأخبار، يساورهم القلق، يسلّمون بالأقدار. لكن التفاؤل كان عامًا والثقة في الله كانت لا تتزعزع. في كل الخطابات، كنا نتمنى للمرُسل إليه أن «يحتفظ بمركزه المشرق(٥)» في نهاية خطاب مُوَجَه من تاجر يهودي تونسي عاش في القرن الحادي عشر إلى مراسل تجاري، يمكننا أن نقرأ:

« حَصِلْ، من فضلك، الألفي دينار المستحقة لي عن القافلتين، اشتر شمعًا من أفضل الأنواع، إن كان ممكنًا من نوع "الميزاري" Lé Misari، الأفضل، وأيضًا كل نصال السكاكين من نوع فاييمي Fayymi التي تجدها(٥)».

الكل يستخدم في الغالب عبارة للمجاملة: «ليلهمك الله أفكارًا ناجحة تمامًا(٥)» إنهم يسافرون من صقلية إلى تونس، من مصر إلى اليمن، بدون نقود، متأكدين من حصولهم على القروض (الائتمان)، المأوى وكذلك معلومات عن الأسواق المحلية في المكان الذي

يصلون إليه. عند السداد كانوا يناقشون طويلًا نسبة المعدن فى العملة، التى كانت تقلباتها تساوى نسبة إيجابية أو سلبية كان من الواجب اقتسامها. (عمومًا كانت المحاكم تقرر أن الخسارة فى قيمة العملة يجب أن يجرى اقتسامها بالتساوى بين الشارى والبائع).

فى المدن التى لا يتواجد بها طوائف يهودية كبيرة أو حيث لا يكون لهم مراسلون طبيعيون، كان التجار يقيمون مكاتب لوكلاء يمثلونهم وكانت هذه المكاتب أيضًا تحل محل "البورصة"، مكتب البريد، المصرف، المحكمة، مكتب عدلى (لأسر التجار الذين يتوفون أثناء الرحلات). أحيانًا، يكون لهؤلاء الوكلاء عبيد، يجرى تحريرهم أو إعادة بيعهم بسرعة. هنا وهناك، كان هؤلاء الممثلون من المسلمين؛ بل يحدث أن يكون القضاة بين تجار يهود من قضاة المسلمين يطبقون فى هذه الحالة الشريعة التلمودية. ويتفق أيضًا أن يتحد التجار اليهود والمسلمون من أجل بناء السفن أو الاشتراك فى تجارة: من نحو ذلك، اشترك رئيس الطائفة اليهودية فى عدن، مأمون، نحو سنة ١٠٠٠، مع بنّاء سفن عربى، بلال، لبناء سفينة ضخمة مخصصة للإبحار ما بين عدن وسيلان.

استقر بعض التجار، بعد كثير من السفر، فى مدن لم تكن معروفة أساسًا بالنسبة لهم. مثل يوسف بن يعقوب بن عوكل، الإيرانى الأصل، الذى حط رحاله فى مصر مع الفاطميين فى عام ٩٦٩، بعد أن تنقل كثيرًا وقام بكثير من الرحلات فى إسبانيا وفى صقلية، وقد استقر فى الفسطاط. فى أسرته يجرى الحديث بالفارسية؛ بينما يكتب هو شخصيًا بالعبرية، العبرية الفارسية، وبالعربية، بأسلوب رفيع للغاية. تاجَر يوسف بن يعقوب مع آسيا والعالم الإسلامى، كان يستقبل من مدينة سجلماسة **Sijilmosa** كل ما يأتى من إفريقيا السوداء، عن طريق القيروان. تخصص فى تجارة اللؤلؤ والجواهر، وكان يبادلها لقاء الأخشاب الثمينة، توابل، عطور، حرائر، صابون، ذهب السودان، فضة إسبانيا. يتلقى أيضًا، عبر نفس الدوائر، أسئلة وإجابات أكاديميات بغداد، المحتضرة، التى كان يمثلها فى القاهرة.

فى عدن، مارست عائلة مأمون، أكبر العائلات اليهودية، مهنة بناء وتموين السفن (التى كان من الأسهل أن يمارسها اليهود فى المحيط الهندى عن البحر المتوسط)(٥). قامت عائلة أخرى بتحديد تعريفة الجمارك فى الميناء.

محكومة بشريعة التلمود، كانت عقود وديون التجار اليهود محمية للغاية. كانت خطابات التحويل والديون مكتوبة بالعبرية فى كثير من الأحوال لتظل غير مفهومة للقراصنة المُحَتَمَلِين. عندما تعلمت الأجهزة الشرطية فك شفرة الحروف العبرية، استخدم البريد شفرة سرية تتكون من نفس هذه الحروف. تسوى المحاكم الدينية الخلافات بتطبيق شريعتها، ليس بقوانين البلد التى يمرون بها. الشريعة، شريعة البدو، تسافر مع التاجر فى رحلاته.

هكذا أسقط التجار اليهود حواجز اللغة بين الشرق (قليل من الغرب يعرفون اللاتينية) والغرب (قليل من المسيحيين يتحدثون العربية). تكّفل اليهود بتوحيد صيغ الوثائق والعقود، نقلوا الأفكار، ترجموا النصوص (من الإغريقية إلى العربية، من العربية إلى اللاتينية) ويعود، كما يبدو، إلى تاجر يهودى نقل النظام الرقمى الهندى إلى العالم العربى وإلى يهودى آخر نقل النظام الرقمى العربى إلى العالم المسيحى(٦٤). هكذا انتقل كثير من الابتكارات من عالم إلى الآخر.(٢٥٤)

هنا، وكما كان الحال منذ الحال منذ خمسة عشر قرنًا، كان هؤلاء البدو الرحل ضروريين لتسيير أمور الطوائف الحضرية. ومرة أخرى، لم يكن هناك شيء نافع بالنسبة لهم إذا لم يكن نافعًا أيضًا بالنسبة لغيرهم. وسوف ينجح التجار اليهود من خلال ذلك فى المحافظة على علاقات مع الأطراف المتعارضة لعالم مفكك متصّدع، مع المحافظة على كيانهم الخاص فى نفس الوقت. المسافر العابر للحدود يجد فى تنظيم هذه الرحلات سببًا للوجود. إذا كان اليهود قد تمكنوا من البقاء أحياءً فقد كان ذلك من أجل القيام بهذه الرسالة: الانتقال، "المرور" عبر المكان والزمان.

بالنسبة لهم – مرُحب بهم فى بلاد الإسلام العباسى كما فى أوروبا الكارولنجية، متواجدون بكثرة فى إسبانيا، عوامل تلاقى بين الديانتين التوحيدتين السائدتين، لم يعودوا يفكرون فى الدولة اليهودية إلا من قبيل الحنين إلى الماضى. لم تعد إقامتها من جديد سوى أمل غامض غير محتمل بقدر ما كانت عودة المسيح، التى تختلط وترتبط أيضًا بعودة هذه الدولة.

آخر الشهود على انقلاب كبير فى الجغرافيا السياسية، تنبأ اليهود باندفاع العالم نحو أوروبا. بدا لهم أن المنفى قد انتهى خلال تلك الفترة، قلصت المذابح وعمليات الاندماج فى مجتمعات المنفى عدد اليهود إلى النصف، من ثمانية إلى ربما أربعة ملايين، بينما كان تعداد العالم قد جاوز الضعف[٨٦]. هل كانت أرضًا موعودة تلك التى تلوح فى أوروبا؟ ومثل الأرض الموعودة الأخرى ستكون محفوفة بالمجد والازدهار، بالدم وبالدموع.

الباب الثالث

سفــر اللاويين

(١٠٩٦ - ١٧٨٩)

١- السفر بعيدًا نحو الشرق (عام ١٠٠٠).

٢- مقرضون وعرضة للبيع (١٠٠٠ : ١٢٦٠).

٣- المال بدون اليهود (١٢٦٠ : ١٤٩٢).

٤- من بلاد الإسلام ومن بولندا (١٢٦٠ : ١٤٩٢).

٥- تمويل الاكتشافات والانزواء (١٠٠٠ : ١٤٩٢).

٦- يهودية الشرق: تجار بدلاء (١٤٩٢ : ١٧٠٠).

٧- يهود الأمير وأمراء بلا يهود (١٤٩٢ : ١٧٠٠).

٨- يهود غير شرعيين فى قلب العاصمة (١٤٩٢ : ١٧٠٠).

٩- العوالم الثلاثة الجديدة (١٤٩٢ : ١٧٠٠).

١٠- حياة وموت الأمم فى القرن الثامن عشر.

١١- موردو البلاط والثورة الصناعية (١٧٠٠ : ١٨٠٠).

فى نهاية الألفية الأولى من عصرنا هذا، وبعكس ما تذكره كل الأساطير، لم يكن اليهود لا أغنياء ولا أصحاب بنوك ولا مستشارين للأمراء، كانوا تقريبًا من الفقراء كلهم، فلاحين وحرفيين. كان بعضهم مُقرِضين ومُجَبرين على ذلك، لمبالغ صغيرة للتجار، الحرفيين المزارعين، الأديرة، للنبلاء الصغار. حفنة قليلة منهم كانوا مقربين للأسر المالكة، ساعدوا على تنظيم وإنشاء الأجهزة الإدارية للدول. عاش معظمهم فى ديار الإسلام فى إسبانيا، فى بلاد ما بين النهرين ومصر. كان بعضهم تجار قوافل أو على السفن، يسافرون دون اعتبار للحدود ولا لما يفرضه الأمراء من قيود ومحاذير، مشكلين شبكة الربط الأخيرة بين إمبراطوريات تتناطح فيما بينها أكثر فأكثر.

عندما أظلم الشرق وأوشكت شعلة الغرب أن تصير مجرد حطب وحسب ، عندما تراجع العالم الذى كان يتسامح معهم، واستيقظ العالم الذى يكرههم، أدرك اليهود أن الأمور لن تكون طيبة إذا ما بقوا وسط المعارك التى بدت نذرها.

فى الواقع ستكون تلك المعارك، رهيبة: بينما تضاعف عدد سكان العالم بأكثر من ثلاث مرات، ما بين عام ١٠٠٠ ونهاية القرن الثامن عشر[٦٨]، منتقلًا من ٢٥٠ مليونًا إلى ٩٠٠ مليون على ما يبدو، بقى عدد اليهود على حاله فى حدود الأربعة ملايين، تحت وقع المذابح والتخلى عن دياناتهم قسرًا والدخول فى أخرى مرغمين بصورة أو أخرى.

إذا كان الشعب العبرى لم يندثر تمامًا بالاندماج فى مجتمعات أخرى – كما حدث لكثير من الشعوب الأخرى – فذلك لأنه نجح فى تطبيق ونقل قواعد الحياة التى حصّلها منذ أكثر من ألفى عام مضت وأودعها السفر الثالث فى توراة موسى، سفر اللاويين. أو (ما أسماه كذلك)[٩٠]. مجموعة التعليمات الموجهة للكهنة هذه ، التى وضعت الشروط

العملية للبقاء فى الزمن. لما يمثل هوية الشعب: قواعد المصاهرة، الأعياد الأساسية، التعاليم المتعلقة بالغذاء، اللغة، الثقافة، الذاكرة، أخلاقيات الحرية، وبصورة عارضة، أخلاقيات الاقتصاد. إلى جانب قواعد الحياة اليهودية، لخص سفر اللاويين فى الواقع شروط إلغاء الديون وأيلولة الرهون. خليط مذهل، تحذير مسبق غير عادي: خلال قرون العصور الوسطى، وما بعدها، سوف يصبح اليهود مقرضين للنقود رغمًا عنهم. سيوجه إليهم اللوم على إسداء هذه الخدمة. مجبرين على تمويل مولد الرأسمالية، مضطهدين لقيامهم بذلك، سوف يصوغ اليهود قيم هذا النظام. من خلال ملحمة رائعة، وسط ألف كارثة، سوف يساعد اليهود فى إقامة قواعد عالم المال، وتنظيم أموال العالم.

١ - السفر بعيدًا نحو الشرق (عام ١٠٠٠)

من بيزنطة ومن ديار الإسلام

شيكات ومحاسبة

فى أواخر الألفية الأولى، حينما تراجعت بغداد، أتيح للقسطنطينية كل المقومات لتصبح مركز الاقتصاد فى العالم. نقطة تلاقى بين آسيا، وأفريقيا، الغرب وبكين، كانت المدينة العظيمة، مع الحاضرة الصينية، واحدة من أكبر مدن العالم. إنها تمتلك المال، البضائع، المساحة الواسعة، القوة العسكرية وشبكات تجارية. ومع هذا، ولعدم وجود روح التنافس لنخبة بيروقراطية للغاية، مترفة للغاية، سعيدة بأكثر مما يجب، معطلة أكثر فأكثر بسبب نمطها الخاص فى الحياة وحنينها إلى أصولها الهيلينية ومجدها العتيد، لم تتمكن القسطنطينية من التغلب على الإسلام. عاش اليهود فيها فيما بينهم وعملوا فيها من أجل الجميع. كانوا صبّاغين، تجار فراء، نساجين، تجار، باعة، سماسرة فى كل شىء، موردين - أحيانًا حتى للبلاط - للملابس، المجوهرات، تمارس قلة قليلة منهم مهنة الإقراض والتمويل، لقد أصبحت الإمبراطورية البيزنطية تمتلك الآن قنواتها الخاصة.

منذ عصر الإمبراطور جوستنيان justinien، اندمجت مجموعة من العبرانيين فى الروح والعقلية الإغريقية بصورة مميزة ليتم قبولهم فى المجتمع بصورة أفضل: المترّومون. كانوا فى معظمهم، من الحرفيين، الصُيّاغ، النجارين، تجار الميناء. حولوا أسماء عائلاتهم إلى الإغريقية، كانوا يقرأون ويؤدون طقوسهم باللغة اليونانية، يعلقون مزيدًا من الأهمية على تفسيرات حاخاماتهم بما يفوق نصوص التوراة ذاتها، يفصلون أحيانًا فى النزاعات التى تنشب بينهم وفقًا لقوانين الإمبراطورية. بعد عام ١٠٥٠، وعندما وصل إلى العاصمة البيزنطية، بعض اليهود الفارين من بغداد، الآخذة فى التداعى، كانت طقوسهم مختلفة جدًا عن طقوس المترَومين، لدرجة أن الإمبراطور أليكسيس كومنين Alexis Comnéne قد اضطر إلى إقامة حائط ليفصل بين أحيائهم الخاصة. كان أفراد هاتين الطائفتين يعملون معًا ويتاجرون معًا لكنهم لم يكونوا يصلون فى نفس المعابد، ونادرًا ما يتزوجون فيما بينهم. لم يكن ذلك انفصالًا دينيًا، مجرد فارق ثقافى.

كانت البيئة الإسلامية المحيطة أقل جاذبية الآن. كانت الطوائف اليهودية التى تعيش فيها لا تزال تضم ثلاثة أرباع اليهود– أى أكثر من ثلاثة ملايين شخص – من قرطبة إلى كابول وحتى فيما يتجاوزها. وفى كل مكان، كما كان الحال فى القسطنطينية، عمل اليهود فى كل مهن التجارة، الزراعة، الحرف اليدوية. فى كل مكان استمروا فى العيش منعزلين، معتقلين، "محميين"، مهانين، مُعَامَلين بدونية. ومع ذلك فقد أمّن تجارهم جزءًا مهمًا من التبادلات التجارية بين الهند والمحيط الأطلنطى، دافعين مواكب قوافلهم وسفنهم لجلب الفلفل من الهند والحرير من الصين.

لم يعد للإسلام مركز آخر ، سوى مركز جزيرة العرب العقائدى، المحرم على اليهود. لم تعد بغداد أهم مدينة يهودية فى العالم، وفقدت اليهودية فيما بين النهرين دورها الذى استمر لألف عام كقائد فكرى. لم يعد هناك حاكم منفى أو جاون، ندر، أكثر فأكثر، من يحوّم حول الخلفاء من أثرياء اليهود. تقلص تعداد سكان بغداد: فى عام ١١٦٨، لم يعد هناك سوى أربعين ألف يهودى. فى عام ١١٧٧، وفقًا لأحد الرحالة اليهود، بنيامين، Benjamin de Tudele، بنيامين التطيلى، الذى كانت رواياته الشائقة لا تتمتع بكثير من الدقة التاريخية، كان هناك ثمانية وعشرون معبدًا وحوالى عشر مدارس دينية. بعد قرن

من ذلك، فى عام ١٢٥٨، لم يذكر رحالة يهودى آخر غير ستة وثلاثين ألفًا من اليهود، يترددون على ستة عشر معبدًا فقط: كانت الضغوط تدفعهم فى بلاد الإسلام، كما فى غيرها إلى الصلاة خفية فى منازلهم. فى أماكن أخرى من دولة الخلافة، كانوا أقل من مليون: رحل الآخرون نحو الإسكندرية أو صوب الجاليات الصغيرة الكثيرة المتناثرة فى ديار الإسلام.

فى حلب، الموصل، دمشق، الفسطاط، القيروان، فاس أو من وفى إسبانيا، كانت كل طائفة تمارس طقوسها وفق طريقتها، باقية أحيانًا، تحت سلطة نفس العائلة من التجار - المتعلمين، لقرون طويلة. كانت هذه الجاليات تتحمل فى هذه المدن الإهانات وصور الاضطهاد، كما حدث فى فاس، عام ١٠٣٢، عندما قضى زعيم عربى، أبو كاما تانيم، على ستة آلاف شخص، أو كما جرى فى مراكش، ابتداءً من عام ١١٥٠، حيث منعت أسرة حاكمة جديدة متعصبة بصورة خاصة، طائفة يهودية كانت قد نشأت منذ عام ١٠٦٢، من ممارسة عقيدتها، دولة الموحدين(*). فى فلسطين كان الوضع أكثر بؤسًا من ذلك: لم يكن هناك إلا القليل جدًا من اليهود، ما عدا فى الأكاديميات الدينية، ومن بقى منهم كان يُعَامَل فى بعض المدن وكأنه من طبقة أدنى من البشر.

كان الإسلام الأكثر تسامحًا معهم وترحيبًا بهم والأكثر ازدهارًا فى تلك الفترة، يتواجد فى مصر، التى تظل نقطة العبور الإجبارية من الشرق نحو الغرب. ابتداءً من العام ١٠٠٠، أقامت دولة الفاطميين الشيعية فيها نظامًا تميز بازدهار ورخاء وتحرر لم يصل إليه تقريبًا أى نظام فى تاريخ وادى النيل. فى هذا المجتمع المتوسطى، تجاور اللاهوتيون البيزنطيون والمثقفون اليهود مع المفكرين المسلمين وتحاوروا معهم. مَثَّلَ الطوائف اليهودية لدى الخليفة أمير، كان يتفاوض باسمها بشأن الضرائب وأعمال السُخرة فى أجواء تسودها روح الاحترام المتبادل. عندما استولت الأسرة الفاطمية

(*) الموحدون: دولة إسلامية أسسها الموحدون - المتحدرون من سلالة أمازيجية (بربرية) حكمت بلاد المغرب والأندلس. الموحدون هم أتباع محمد بن تومرت. استمرت الدولة من ١١٢١ إلى ١٢٦٩. (المترجم: عاصم عبد ربه)

على مكة والمدينة والمناطق المحيطة بهما أيضًا صار أمير القاهرة "Lenaguid" (ممثل اليهود) ممثلًا للطوائف اليهودية فى فلسطين وصقلية وشمال إفريقيا فى نفس الوقت. شارك فى بناء العاصمة الجديدة، القاهرة، كل أبناء الطائفة اليهودية: فلاحون، حرفيون، صيارفة، سماسرة، صُيّاَغ، والتى شيدت بجوار الفسطاط. رسم معماريون يهود خرائط الجامع الأزهر(*)، وأدار البحارة اليهود مع اليونانيين شبكة العلاقات التجارية التى تربط بين الإسكندرية، إسبانيا، صقلية، بيزا، أمالفى، كورفو، عمان وكوشان، وذلك منذ ألف عام وأكثر. كان التجار اليهود، أول من استعان بثلاثة ابتكارات جديدة، سوف ينسبها التاريخ بعد ذلك بكثير إلى الإيطاليين: الشيك المصرفى، ورقة يقدمها المشترى للبائع لسداد ثمن سلعة ما، يدّون عليها اسم كل منهما، مكان وجود المال، المبلغ الواجب سداده وآية توراتية كرمز للتحقق من شخصية المشترى، والسند (الكمبيالة) عندما يكون السداد مؤجِلًا، الحسابات من صورتين (جزئيًا) لتسجيل حركة ديونهم.

غير أن الحقبة الفاطمية والشيعية العارضة لم تدم طويلًا. فى عام ١١٦٤، لم يفض النيل بصورة كافية، وحدث نقص كارثى فى المحاصيل، مجاعة حادة أدت إلى اضطرابات اقتصادية وحركات تمرد وعصيان فى القاهرة. استغاث الخليفة، الذى داهمته الأحداث، بقوات أتابك حلب، نور الدين السنى ، صار القائد الكردى صلاح الدين[٢٥٨] (صلاح الدين الأيوبى)، المُرسَلَ لإعادة النظام، وزيرًا للخليفة الفاطمى العاضد، ثم أزاح هذا الأخير وأقام زعامة سنية فى القاهرة. بموت نور الدين – الذى تحوطه الشكوك فى عام ١١٧٤ – ضم صلاح الدين سوريا إلى مصر وسيطر على أجزاء من بلاد ما بين النهرين، والجزيرة العربية، واستولى على أورشليم عام ١١٨٧. لم تتغير أوضاع اليهود بذلك. ظل معظمهم تجارًا وحرفيين. صار أحدهم، يدعى أبو البيجرن، طبيبًا للخليفة الجديد، وآخر، أبو المنَجّابن شحاح، مسئولًا عن الزراعة وشق قناة متفرعة من النيل.

(*) برجاء الرجوع إلى كتاب «تاريخ الجامع الأزهر» تأليف محمد عبد الله، الهيئة المصرية العامة للكتاب. (المترجم: عاصم عبد ربه)

فى ظل هذا الإسلام المتألق والأقرب إلى التسامح، لم يجسد أحد أوجه المصير اليهودى المتعددة مثلما مَثّله موسى بن ميمون، حاخام، طبيب، مستشار للأمير. ولد موسى فى قرطبة، عام ١١٣٥، كان فى الثالثة عشر من عمره عندما اجتاح المدينة أمراء الموحدين ومنعوا ممارسة اليهودية فيها. حينذاك اعتنقت أسرته الإسلام ظاهريًا، وهاجرت إلى المغرب، مبتعدة قليلًا عن دولة الموحدّين. وهناك وجدوا الكثير من المثقفين الساعين إلى الحرية: مسلمين – مثل ابن رشد، من كبار شرّاح أرسطو، الذى لجأ إلى مراكش – ويهودا، استقر معظمهم فى مدينة فاس. هناك درس موسى بن ميمون، اليهودى سرًا على كل حال، التلمود، الطب، الفلسفة الإغريقية والإسلامية (سيكتب فيما بعد: "ليس هناك ديانة توحيدية أكثر نقاءً من الإسلام"(٢٦٢). فى الثانية والعشرين كتب موسى بن ميمون بحثًا عن التقويم.

فى عام ١١٦٥، أحكم الموحدون قبضتهم على المغرب، ممارسة اليهودية، حتى سرًا، صارت شديدة الصعوبة. منجذبًا إلى أجواء الحرية التى تعم مصر، استقر ابن ميمون فى الإسكندرية نحو عام ١١٦٥، ورأى فيها مدينة تتداعى ومجدها إلى زوال (فى عام ١١٧٧، لم يحص فيها بنيامين التطيلى إلا ثلاثة آلاف يهودى). فى الإسكندرية لحق موسى بأخيه الذى قدم إليها قبله وأثرى من العمل بالتجارة عبر المحيط الهندى قبل أن يموت غرقًا فى البحر الأحمر عام ١١٦٩. تزوج ابن ميمون، الذى صار غنيًا ووريثًا شابًا، انتقل للسكن بالفسطاط، أحد ضواحى القاهرة، حيث يعيش معظم يهود العاصمة، تفرغ آنذاك لدراسة اللاهوت والطب. فى عام ١١٨٥، كان طبيب الفاضل، الوزير النائب عن صلاح الدين، الذى غادر القاهرة مستقرًا فى دمشق، استقبل ابن ميمون الحاخامات والمثقفين المسلمين المولعين بالرياضيات الإغريقية والعلوم المصرية. فى هذا الوسط من المثقفين والتجار المتعلمين، المضطرب بسبب تصادم القرآن مع أرسطو، حاول موسى، أن يظهر، باللغة العربية، أن الفلسفة اليهودية تقدم تفسيرًا عقلانيًا للوضع البشرى. فى عام ١١٩٠، كتب مؤلفه "دليل الحائرين"، متجاوزًا ومفعلًا كتاب – سفر– الآباء، وأفكار الحاخام هيليل التى وفقّها لتلائم العالم الإغريقى والإسلامى. أوجد توافقًا جديدًا بين الجماعى والفردى، العقل والإيمان، التوراة وأرسطو – كما كان يفعل ابن رشد فى نفس الوقت فى الإسلام.

وفقًا لابن ميمون، كل إنسان حر فى أن يعيش عقيدته كما يهوى ("إن التوراة وحدها هى ما يمكن أن تسمى إلهية: الشرائع الأخرى من وضع البشر(٢٦٢)"). فى عالم التجار والرّحالة الذى يعيش فيه، كان موسى بن ميمون يدافع عن المسئولية الفردية، وذهب فى ذلك إلى حد استنتاج أن أفضل أشكال البر والإحسان هى المساعدة، "سواء من خلال الهبات، سواء من خلال القروض، سواء عبر التشارك مع من افتقر فى إيجاد عمل له بحيث لا يعود فى حاجة إلى المساعدة(٢٦٢)". بعبارة أخرى، لا يمكن التغلب على الفقر إلا إذا قام الأغنياء بتمويل مشروعات الفقراء. إن إيجاد العمل هو الوسيلة الوحيدة فى الحقيقة لتحقيق الثراء بنزاهة وشرف. فضلاً عن ذلك، فإن إقراض غير اليهود، إن توفرت القدرة على ذلك، كان ضرورة أخلاقية، شريطة عدم استغلال المقترض بمعدلات فائدة مرتفعة جدًا وكذلك ضرورة إقراض المرأة الوحيدة حتى لا تصبح عالة على الآخرين.

بعد وفاة ابن ميمون فى عام ١٢٠٤، ابتدأ أولاده أسرة من الكهنة ومسئولى الطوائف سوف تهيمن على الوجود اليهودى فى مصر حتى الفتح العثمانى عام ١٥١٧. افتتح الكاهن إبراهام هانانيل، حمو أحد أبنائه، هذه الأسرة، وكان ثريًا يمتلك معملاً لتكرير السكر، ومسئولاً عن مجموع المحاكم الربانية فى مصر، قاضيًا فى كل الخلافات التى تنشب بين التجار القائمين بجلب توابل الهند وحرائر الصين لإعادة بيعها حتى فى أوروبا.

مبكرًا جدًا، اشتهرت أعمال ابن ميمون فى داخل الطوائف اليهودية فى بلاد الإسلام والمسيحية: حمل التجار كتبه فى ترحالهم، وهكذا، وابتداءً من مصر بصورة خاصة وبمساعدة هذا المفكر اليهودى غير المباشرة، ستصل القواعد الأخلاقية للمذهب العقلانى الفردى إلى الغرب المسيحى. أوضح ابن ميمون عَرَضًا مفاهيم الثواب الفردى وأبدية الروح، التى سوف يستلهمها توما الأكوينى **Thomas d,Aquin**، وكذلك قيم الحرية والمسئولية التى سوف ينبثق عنها المذهب الرأسمالي. عدد ممن سيدعّون، فيما بعد، البحث فى أصول الحداثة سوف ينسون مصادرها إليه –إسلامية: هلّيل، ابن رشد، ابن ميمون.

فلفل وعملات ورقية

كان الفلفل فى ذلك الوقت – مع الحرير – أحد مصادر الثروة الرئيسية فى الشرق. كان موجودًا بصورة أساسية فى الهند، على ساحل الهند الجنوبى، (تسمى اليوم كيرالا). منذ عدة قرون، بل منذ أكثر من ألف عام، كان التجار اليهود يأتون لمبادلته بالأقمشة والحلى. استقرت طائفة يهودية قوية فى مدينة كوشان Cochin، قرابة عام ١٠٠٠، تحت إشراف المدعو يوسف رابات Joseph Rabban، استخدمت كمحطة وفادة للسماسرة والتجار القادمين من مصر. يروى بنيامين التطيلى Benjamin de Tudele، رحالة مدمن للترحال، أنه قد قابل هناك، نحو عام ١١٨٠، ألف يهودى "سود البشرة مثل جيرانهم" يحترمون الشريعة ولديهم قدر من المعرفة بالتلمود"[٤٢٢]. بعد ذلك بقليل، سوف يسجل رحالة مسيحيون مختلفون أيضًا وجود تجار يهود فى كوشان وفى كرانجانور Cranganore، كانت مثابة محطة لرحلات أكثر بعدًا نحو الصين حيث سوف يجلبون الحرير.

لقد وصل التجار اليهود فى الحقيقة إلى إمبراطورية ميليوMilieu قبل ماركو بولو بثلاثة قرون على الأقل. فى عام ٩٥٠، روى بوزى ابن شهريار Buzy ibn shahriar، أحد يهود القاهرة، فى كتابه "عجائب الهند" قصة المدعو إسحاق بن يهودا، أحد التجار الذى سافر من عُمان فى عام ٨٨٢، قاصدًا الصين، حيث سوف يظل حتى عام ٩١٢ وعاد منها ثريًا، قبل أن يسافر من جديد. ليموت مقتولاً فى سومطرة. فى نحو عام ١٠٠٠، استقرت طائفة من التجار القادمين من عُمان، إيران، الهند فى مقاطعة هينان Henan، على النهر الأصفر، فى مدينة كايفنج Kaifeng، التى كانت عاصمة أسرة سونج فى ذلك الوقت. مثلت هذه الطائفة بالغة الصغر وسط ستين مليونًا من الصينيين، مكتب تمثيل للتجار القادمين من الشرق الأوسط، كانوا وسطاء لكل السلع. بعد ذلك قامت هذه الطائفة بوظائف أخرى داخل المجتمع الصينى وصاروا حرفيين، مزارعين، مقرضى أموال. بعد ذلك بقرن، فى ولاية أسرة جان Jin، تواجد اليهود فى الجهاز الإدارى للإمبراطورية وفى مستويات كانت أحيانًا رفيعة، بخاصة، كان بعضهم مسئولين عن النقود وعن الخزانة العامة، كما كانوا

فى كثير من المناطق الأخرى فى العالم. بل يبدو، وفقًا لما يقول بعض الباحثين الصينيين اليوم، فإن بعض اليهود كانوا هم أول من صنع، عام ١١٦٣، أوراق عملات ورقية من الجوت: على الأركان الأربعة لصحيفة طباعة عُثِرَ عليها حديثًا، ربما أمكن قراءة بعض حروف الهجاء العبرية.

تواجد اليهود آنذاك فى كثير من مدن الصين: عُثِرَ على أثرٍ لمعبد يهودى أقيم عام ١١٦٣ فى شانج جيانج Shangjiang (اليوم أشينج)، Acheng فى مقاطعة هيلونج جيانج Heilongjiang. فى عام ١٢٧١، إن صدّقنا اليوميات المنسوبة إلى أحد التجار الذى كان فى رحلة إلى كانتون، Canton يعقوب الأنكوانى Jacop d, AncÔne، فإن ألفى يهودى كانوا يعيشون فيها وسط الفرنسيين، أهل جنوة وسكان روما؛ أخبروه عن عشرات الآلاف من اليهود المقيمين فى أماكن أبعد فى شمال الصين. ازدهرت هذه الطوائف حتى القرن الرابع عشر تحت حكم إمبراطورية يوان Yuan. ثم خلال أسرة مينج، فقدت كل اتصال بباقى العالم: بضع آلاف من اليهود وسط مائة مليون من الصينيين.

الاندفاع نحو الغرب

فى نهاية القرن الثانى عشر كانت أوروبا تستفيق. أنشئت الموانئ وانتظمت أعمالها بطول بحر الشمال وبحر البلطيق. نُسِجَت شبكات تجارية جديدة للذهاب بحثًا عن منتجات المحيط الهندى، رموز الرخاء والرفاهية، مرت عبر أسواق نورمبرج Nuremberg، ماينس وتروى Troyes ، Mayence عبر موانى فينسيا، رافينا Ravenna، آمالفى Amalfi، تونس، القسطنطينية، الإسكندرية، عمان وكوشان. كانوا وحدهم من يمتلكون مراسلين ومعارف محل ثقة فى كل هذه الأماكن، ظل التجار اليهود سادة الطرق فى آسيا البعيدة وأفريقيا، وكانوا أيضًا تقريبًا الوحيدين فى معرفة كيفية جلب الذهب من السودان.

غير أنهم فقدوا كثيرًا من أسواقهم فى أوروبا. من ناحية، لأن التقدم فى مجالات الزراعة أتاح فيها إنتاج عدد كبير من السلع (الصبغات على وجه الخصوص) التى كانوا يتاجرون فيها حتى ذلك الوقت. من ناحية أخرى، تجمع التجار المسيحيون فى جمعيات

"خيرية"، فى المدن التجارية الجديدة فى إنجلترا والفلاندر (بلجيكا)، للدفاع عن أنفسهم ضد القراصنة، كانت هذه الجمعيات، على غرار اتحادات التجار اليهود التى تعود إلى ألف سنة مضت، تنظم وتمول قوافلها التجارية الخاصة وتقيم مقرات لأعضائها فى كل الموانئ التى تعبرها قوافلها. لم يعد التضامن حكرًا على اليهود. شكل اتحاد التجار الموسميين فى جوتلان **gotland**، جمعية **(hasna)**، سوف تضم فى القرن الرابع عشر مائة وسبعين مدينة فى بلاد البلطيق، من بروج **Bruges** إلى دانزج **Dantzig**، من ليوبك **Lubeck** إلى ريجا **Riga**.[٦٩] عبر هذه المدن مرت منتجات الشرق الأقصى، التى كانت تعبر أحيانًا ما بين النهرين والبلقان. لم يتركوا للتجار اليهود غير الأسواق الأقل ربحية: أسواق القمح والنبيذ، والتى كانوا يأتون لترويجها فى أسواق راينلاند الموسمية **Rhenanie** حيث، ينتهى بهم الحال إلى حط رحالهم، منضمين إلى الطوائف اليهودية الصغيرة المستقرة هناك منذ قرون.

فى القرن الحادى عشر، شكلت الطوائف اليهودية فى الغرب المسيحى شبكة ضمت إجمالًا حوالى مئتى ألف شخص. رغم ضآلة عددهم، سوف يلعبون، بغير قصد، دورًا إستراتيجيًا فى ميلاد الرأسمالية: فى الوقت الذى تنبّه فيه الخمسة والعشرون مليونًا من المسيحيين الذين تضمهم أوروبا إلى التجارة كانوا يحتاجون إلى الاقتراض، دون أن يعرفوا بأنفسهم قانون الاقتراض. تلك الحفنة من "قتلة الرب" سيقومون بالمهمة...

٢ - مقرضون وعرضة للبيع (١٠٠٠ - ١٢٦٠)

أسواق موسمية وموانئ

عندما تفككت الإمبراطورية الكارولنجية(*)، كان اليهود يعيشون فى أوروبا داخل طوائف مُصّغرة، غالبًا أقل من خمسمائة شخص. نجدهم فى صقلية، نابولى (حيث كان فردريك الثانى **Frédéric II** يستقبل مرحبًا علماءً من اليهود والمسلمين، جاعلًا من المدينة

(*) نسبة لملوك كارولنجيين وهى السلالة التى حكمت أوروبا من ٧٥٠م حتى القرن العاشر. (المترجم: عاصم عبد ربه).

مركزًا للترجمة، الصرافة والتجارة)، فينسيا، روما، سبير **Spire**، فورمز **Worms**، ماينس، نورمبرج، لندن، يورك **York**، بريستول، كانتبرى وفيينا (حيث أقيمت أول مؤسسة يهودية فى القرن الثانى عشر). يذكر بنيامين التطيلى كمثال، طائفة أسترانسبورج **Astranburg**، "واحدة من أكثر الطوائف رخاءً وازدهارًا فى ألمانيا(٤٢٢)" ابتداءً من ١١٨٨. فى فرنسا، كان هناك طوائف فى أكثر من مائة مدينة، خاصة فى الأرياف وعلى امتداد الأنهار: السين، اللوار، الجارون، الرون والراين. فى باريس، كان اليهود أقل من ألف شخص، فى ناربون **Narbonne**، فى بوردو **Bordeaux**، فى موانئ الجنوب الأخرى كما فى إسبانيا المسيحية والمسلمة، كانوا أكثر عددًا بكثير. إجمالًا، حتى وإن كانت الأرقام غير مؤكدة، فإن تعداد اليهود فى أوروبا المسيحية فى القرن الحادى عشر كان يصل تقريبيًا إلى ثلاثمائة ألف شخص رقم هزيل، مقارنة بأربعة ملايين ونصف مليون مازالوا يقيمون فى الشرق. ومع ذلك فابتداءً من هذه المجموعة الصغيرة سوف تتشكل صورة اليهودى الجديدة: المرابى الطفيلى وليس فقط قاتل الرب الكافر. فى هذه القصة سيحل الاقتصاد شيئًا فشيئًا محل العقيدة.

توارت قواعد القانون الرومانية والكارولنجية. للأجانب أن يختاروا مبدئيًا ما بين تطبيق عاداتهم الخاصة أو الانصهار فى القانون الإقطاعى القائم على علاقات القوة والعلاقات مع الأرض. من ظل من اليهود مخلصًا لشريعته لا يمكنه أن يكون لا فارسًا ولا عبدًا من أقنان الأرض. هكذا ظل كثير منهم أجانب بالفعل، بينما اندمجت الشعوب الأخرى فى مجتمعاتها. "عبيد الأرض"، "خدم الملك" **Servi Camera**، لم يكن اليهود حينذاك يستطيعون أن يمتلكوا، بدون موافقة الأمير، لا أنفسهم ولا ممتلكاتهم. للسادة الإقطاعيين عليهم حق الحياة وحق الموت. تموت ديونهم بموتهم، ويرث ساداتهم كل ممتلكاتهم، باستثناء، إنعام خاص يوافق عليه الإقطاعى بتوريث أولادهم وذريتهم.

عندما يتعرض يهودى لسرقة، فإن كفيله هو من يجب تعويضه، ويحدث أيضًا أن يرفض الكفيل رحيل أحد اليهود التابعين له كى يتزوج بيهودية تابعة لآخر، مثلما كتب ملك أراجوان **Aragon** إلى ألفونس **Alphonse**، كونت مدينة تولوز **Compte de Toulouse**، مطالبًا إياه باليهودى التابع له **Bonus du Mas- d'agenais** بونوس دوماس دانيا.

كانت الطوائف تحصل على صكوك استيطان، كانت تؤمن لهم، مقابل ضريبة يدفعونها، الحماية من اللصوص، حق المعيشة على أرض الكفيل وحق ممارسة طقوس عقيدتهم. غالبًا ما كانت هذه الصكوك، بمجرد الموافقة عليها، تسترد، ثم تباع مرة أخرى إلى نفس اليهود، بعد عملية طرد وهمية لم تكن تهدف إلا إلى تبرير فرض ضرائب جديدة. أن يكون لدى أمير ما، بعض اليهود، كان يعنى تأمين موارد كبيرة. كانت الطوائف تمثل شيئًا فشيئًا موارد مالية معتبرة يعتنى السادة بحمايتها والدفاع عنها باهتمام كبير، يمكنهم أن يختاروا تبعًا للظروف بين أن يصادروا كل ممتلكاتها دفعة واحدة وبين أن يقتطعوا بانتظام جزءًا من مواردها. بعد تسعة قرون، هتلر، جورينج، سبير وهيملر، سوف يتدارسون نفس الخيار.

تم الموافقة على أول المواثيق من هذا النوع فى القرن الحادى عشر وفى إنجلترا، فى ألمانيا وفى فرنسا من قبل الملوك، ثم ما بين عام ١١٢٠ وعام ١١٥٠ بواسطة بعض المدن مثل فورمز **Worms**، سبير **Spire**، سالامنك **Salamanque** ومارسيليا **Marseille**. فى عام ١٢٣٦، أصبح يهود ستراسبورج أتباعًا للخاصة الإمبراطورية"، تحت الحماية الشخصية للإمبراطور فردريك الثانى، كانت "طائفة المدينة تدفع فى ذلك الوقت مئتى مارك سنويًا للخزانة الإمبراطورية، قسم المسئولون عنها هذا العبء الضريبى على العائلات تبعًا لثرواتهم. عندما تتذمر إحدى الطوائف، يحدث أن تنتزع الضريبة قسرًا: مثلما فعل أحد قساوسة ستراسبورج، بيرتولد دو بوشيك **Berthold de Bucheck**، معتقدًا أنه أيضًا يستطيع أن يفرض ضرائب على يهود المدينة، قام بالقبض عليهم جميعًا فى المعبد يوم السبت بواسطة قواته الخاصة – حيث كان متأكدًا من وجودهم جميعًا بالمعبد – ولم يطلق سراحهم إلا مقابل ٦٠٠٠ جنيه، كان نصفها، كما يقول بنفسه "لتغطية نفقات زواج بنات أخته". أحيانًا كانت المطالبة مصحوبة بالإساءة والتعذيب، وأحيانًا أيضًا، يقبل السادة، تأجيل الدفع، إلى الوقت اللازم ليتمكن دافعو الضرائب من إعادة تكوين مصادر مالية جديدة.

كان السادة يتغيرون مع تحركات السلطة الحاكمة. مثلًا، فى عام ١١٧٧، عندما كان يجب على فردريك باربروسا الاعتراف باستقلال مدن لومبارديا، انتقل اليهود إلى أيدى سادة جدد.

قامت نظم الحماية على التسلسل: يجب على التابعين أن يلتمسوا من سيدهم حق استقبال يهود على أراضيهم. فى عام ١٢٩٤، طلب أولريتش (من نيوهاوس) Ulrich de Neuhaus من وينسيلاس الثالث WenceslasIII، ملك بوهيميا، السماح له بتوطين ثمانى أسر على أرضه والسماح لهم "بالقيام من أجله بكل الأشياء التى يقوم بها يهود الملك إرضاءً لرغبات الملك، وأن يقدموا له كل الخدمات التى يؤديها يهود الملك للملك[٢٢١]". وقد وعده بأن يكون رب كل أسرة هو الملزم وحده بممارسة إقراض المال وأنه إذا هربت بعض العائلات، فلن يسعى إلى استبدالها بأخرى من الطوائف التابعة للملك. فى عام ١٣٢٢، صرّح ملك بوهيميا، جانْ jean، لأسقف مدينة أولمتز Olmutz بالاحتفاظ بيهودى واحد فى كل واحدة من مدنه الأربع، فى عام ١٣٣٤، صرح لبيير – من روزبنرج– Rosenberg– بأن يحتفظ بأربعة منهم فى ولاياته الخاصة.

قد يتنازل بعض السادة أحيانًا عن الموارد التى يدرها اليهود التابعون لهم لدائنين أو إلى مُقَطَعين تابعين لهم[٢٢١]. إنهم يستطيعون أيضًا بيع، رهن، مبادلة اليهود التابعين لهم. فى بورجونى Bourgogne، عام ١١٩٦، قام الدوق أودس الثالث Eudes III، بمبادلة يهوده بيهود مدينة ديجون Dijon. رهن هنرى الثالث Henri III ملك إنجلترا يهوده لدى ريشار دو كورنوى Richard de Cornouaille، ثم تنازل عنهم لابنه إدوار Edouard، الذى رهنهم هو الآخر عند مصرفيين من لومبارديا. فى عام ١٢٩٣، تنازل الإمبراطور أدولف دو ناسو Adolphe de Massau عن حقوقه فى عبيد الألزاس إلى مطران مدينة ماينس سدادًا لدين قدره ١٢٠٠ جنيه. للتعبير عن شكره لإخلاص المدعو هنرى داسنى – Henri d'Isny، وعده رودلف دو هابسبورج Rodolphe de Habsbourg بـ ٣٠٠ مارك وتنازل له عن حقوقه فى يهود ستراسبورج وماينس حتى سداد هذا الدين.

يحدث أيضًا أن يتنازل بعض السادة الإقطاعيين عن أراض أو امتيازات مع الاحتفاظ باليهود الذين كانوا مرتبطين بها لأنفسهم. مثلما حدث فى عام ١١٠٦، فى إسبانيا، عندما تنازل فيكونت جيرون عن قلعة بالاجيه Balaguer لأرنولد بيرنجيه حاكم أنجليرولا Anglerola، احتفظ بوضع يده (حيازته) على التجار الموجودين فيها، سواء كانوا من اليهود، المسيحيين أو المغاربة[١٩].

سلعًا للتجارة، كانت الطوائف اليهودية أيضًا محلًا للنزاعات بين السادة الإقطاعيين، السلطات الدينية، والسلطات البلدية. يتنازع أولًا بشأن الحق فى محاكمتهم، وبالتالى حق تحصيل الغرامات. ثم حق فرض الضرائب عليهم وتحصيلها. فى عام ١٠٩٤، وافق أسقف مدينة سبير، روديجيه، على صك استيطان ليهوده، بعد ذلك بستة أعوام منح الإمبراطور هنرى الرابع صكًا آخر لنفس الطائفة. كانت طائفة رايتسبون **Ratisbonne** واقعة تحت حماية ثلاث سلطات: الإمبراطور، الكونت، بورجوازيو المدينة. كان يهود ناربون مقسمين إلى طائفتين، إحداهما خاضعة للمطران والأخرى للفيكونت، لكل منهما حقوق مختلفة. فى عام ١٢٨٩، أمر برلمان مدينة تولوز أن تسدد تعويضات ليهود الأسقفية الذين تم تعذيبهم على أيدى خدم الفيكونت.

لم يعوزنا الخيال فى مسألة الضرائب: فى عام ١٢٦١، فرضت بلدية ستراسبورج على اليهود سداد قيمة أعلام المدينة (رايات)، التى أضيف إليها ضريبة على الغرامات التى تقرها المحاكم اليهودية الدينية، وأخرى "لهدايا عيد الميلاد"! اعترض أسقف المدينة، والتردو جيرولدسك **Walther de Geroldseck**، الذى كان يفرض عليهم ضريبة من قبل، على هذا القرار، مقدرًا أن هذه الضرائب يمكن أن تضعف قدرتهم على سداد الضرائب التى يطالبهم بها هو شخصيًا. انقلب الخلاف إلى حرب أهلية، هزمت قوات الأسقف فى ٨ مارس ١٢٦٢، اتفق وقتها على أن اليهود سوف يعفون من الضرائب لمدة خمسة أعوام وسيكون عليهم بعد ذلك أن يدفعوا سنويًا للمدينة مبلغ ١٠٠٠جنيه، ١٢ ماركًا إلى الأسقف و٦٠ ماركًا إلى الإمبراطور.

فى فرنسا، كان على اليهود الانتظار إلى أن يقرر فيليب أغسطس **Philippe Auguste** مركزية السلطة ليصبح اليهود خاضعين لوصاية الملوك فقط[٦٧]. ومع ذلك، اتخذ الملك بعض الاحتياطات للاحتفاظ بالحقوق المكتسبة: وُقِعَ ما بين عامى ١١٩٨، ١٢٣١، ثمانية عشر اتفاقًا للاحترام المتبادل لملكية اليهود بين الملك ومختلف السادة الإقطاعيين. فى ١٢٢٣، على سبيل المثال، وقع لويس الثامن **Louis VIII** مع خمسة وعشرين إقطاعيًا من نبلاء المملكة اتفاقًا يؤكد عدم أحقية أى شخص فى استقبال أو استبقاء يهود الآخرين، أو إقراضهم إلى نبيل آخر بدون موافقة الملك الذى كان يتقاضى عرضًا مقابلًا ماديًا. فى

عام ١٢٣٠، أكد لويس التاسع ذلك مرة أخرى عبر اتفاقية ملُن Melun، بينما كانت نصف المدن الفرنسية التى تضم طوائف يهودية قد صارت خاضعة للإدارة الملكية. يجب انتظار فيليب الجميل Philippe le bel نحو عام ١٣٠٠، حتى يمنع بعض الضباط الملكيين تداخل امتيازات البارونات "مع أشخاص أو أنشطة يهود المملكة التجارية[٦١]"، بمعنى آخر، ليتأكدوا من حصول التاج الملكى على حصته من الضرائب التى يدفعها اليهود لساداتهم. وهكذا كان امتلاك اليهود من أهم علامات تثبيت وتأكيد أى سلطة ملكية.

حياة الطوائف

شباب، تجار، رواد، كانت هذه الطوائف الخاضعة لنظام إقطاعى صارم تنظم أمورها للتفاوض بشأن حقوقها وضرائبها. فى حين كان تسيير أمور هذه الطوائف مؤمنًا بشكل عام فى الشرق بطريقة وراثية وعن طريق عائلات من المتعلمين، وفى أوروبا كانت تدار بواسطة أكثر التجار إقدامًا والأقدر على التفاوض مع الأمراء. بل قد حدث فى إنجلترا فى عهد أسرة البلانتاجت، أن تمكنت كل الطوائف اليهودية فى بلد ما من التجمع ليكون لها ممثل واحد، Le presbyter، ("العجوز")، يتفاوض مع الأمير بشأن قيمة الضرائب، مجددًا بذلك تقاليد حاكم المنفى أو رئيس الطائفة فى بغداد والنجيب القاهرة.

كانت حياة هذه التجمعات المعزولة فى البلاد المسيحية تنتظم حول بعض المبادئ السلفية والبسيطة: البقاء متجمعين، الحفاظ على علاقات سليمة ولكن متحفظة مع السلطات الحاكمة، أن يكونوا نافعين لغير اليهود وتوريث الشريعة اليهودية. تفاوتت الممارسات الدينية، ما بين الزاهدين فى الشمال والمترفين فى إسبانيا والأقاليم، كان يحدث مثلًا، أن تقوم طائفة، مشغولة بأعمال الزراعة، بدفع أجر كاهن ليصلى صباحًا ومساءً باسم الجميع.

فى أوروبا، كما فى غيرها من بلاد العالم. كان اليهود والأكليريك (الكتاب)، من بين القادرين على القراءة؛ كان ذلك واجب الجميع باستمرار، منذ الطفولة. ظلت العبرية لغة الصلاة والثقافة والتعليم، وكانت هذه اللغة تُدْخِل تعبيرات من لغة البلد المضيف.

كان مسئولو كل طائفة ينظمون عملية تعلم اللغة والشريعة، سير طقوس الاستحمام - عنصر أساسى فى الحفاظ على الصحة العامة - المعابد، المقابر، المحاكم وخصوصًا التضامن. منذ القدم، لم يكن أى متعلم يقبل بالعيش داخل طائفة لا تساعد الفقراء. من قبل الجمعيات والمستشفيات العامة المسيحية بوقت طويل، كان للطوائف اليهودية جمعيات "استضافة" تقوم بتوفير الطعام والمأوى للزائرين والفقراء القادمين من طوائف أخرى؛ وكانت هناك قواعد صارمة يمليها الحاخامات لتنظيم إقامتهم: "بمجرد وصولهم، يجب معاملة الزوار بلطف بالغ، حتى وإن بدوا أفظاظًا خشنى الطباع، يجب تقديم الطعام إليهم بأسرع ما يمكن، لأنهم، إن كانوا فقراء فقد يترددون فى طلبه. على المضيف ألا يبدو مشغولًا بمشاكل شخصية، ولا يجب عليه التباهى بثرائه. من جانبهم، سيكون على الزائرين أن يتلوا الأدعية لمباركة المضيف، ساعة صلاة الشكر، بعد تناول الطعام.[٤٠٨]" أحيانًا كانت بعض الطوائف تتردد فى السماح بإقامة كثير من العائلات الجديدة، خوفًا من ردود فعل الوصى عليهم أو من زيادة التكاليف التى يمكن أن تجرها استضافتهم. لكن كرم الضيافة كان واجبًا مقدسًا وكان الحال ينتهى بأكثرهم تحفظًا عمومًا بالقبول.

يجب على كل طائفة أيضًا أن تدخر ما يكفى لسداد فدية مسجون من أعضائها، نتيجة نزوة من نزوات كفيله، أو تاجر اختطفه القراصنة بعيدًا. كما يحدث - نادرًا - أن يرفض سجين أن تدفع فديته، مثلما حدث، فى عام ١٢٨٦، عندما رفض أحد المتعلمين من منطقة فورمز **Worms**، المعروف باسم مهرال روزنبرج، الذى سجنه أمير فورمز، رودلف دو، هابسبورج **Rodolph de Habsbourg**، أن تدفع طائفته فديته حتى يتفادى أن يقوم الأمير باختطاف شخصيات مهمة أخرى. لم يتنازل النبيل ومات المهرال فى السجن. اشترى جثمانه أحد التجار اليهود أليكسندر فيمبفن **Alexander Wimpfen** الذى كان قد اقترح دفع الفدية، دفع فى ذلك نفس مبلغ الفدية وقام بدفنه فى احتفال كبير فى مقبرته ذاتها. ويمكننا أن نرى إلى اليوم، فى فورمز، المقبرتين متجاورتين.

لم يكن الإحسان مقصورًا على الجيران فقط: مثل الطوائف الأخرى، كان على طوائف أوروبا المساهمة فى حملات جمع التبرعات التى يقوم بها الحاخامات القادمين من الأرض المقدسة من أجل آخر الطوائف التى لا تزال تعيش هناك.

تجرى أيضًا مناقشة السلوك الواجب اتباعه تجاه الفقير غير اليهودى الذى يطرق باب معبد يهودى. برغم أن النصوص المقدسة (سوخا ٥٥- أ) تشترط نفس التضامن تجاه كل التوحيديين، اعترض كثير من الحاخامات على ذلك حتى لا تهدر الموارد المتاحة النادرة ولأنهم يعتقدون أن المسيحيين المؤمنين بالثالوث المقدس، ليسوا من أهل التوحيد، بعكس المسلمين...

تقوم الطائفة بالاتفاق على كل هذه الخدمات من خلال ضريبة يتم دفعها نقدًا أو بصورة طبيعية (عينًا) وعن طريق بيع "مراتب الشرف" فى المعبد بالمزاد. التهرب من دفع ضريبة الطائفة يعد سببًا للطرد من الطائفة، العقوبة القصوى بالنسبة ليهودى. لكن معدل هذه الضريبة لا يجب أن يضر بالنمو الاقتصادى: يمثل عشر الدخل حدًا أدنى دائمًا، وخمسة كحد أقصى. لا يقتطع أى شىء من الضريبة للإنفاق على أبهة دور العبادة: ليس هناك- أو تقريبًا- فن دينى يهودى.

تحكم الطوائف أيضًا حياة الأكثر ثراءً من أبنائها بمنعهم من تبنى أساليب عيش متباهية بأكثر مما يجب حتى لا تتسبب فى إثارة غيرة المسيحيين. مثلما منعت إحدى طوائف الراين Le Rhin- منطقة كان اليهود يعاملون فيها بطريقة مسيئة، كما سوف نرى - فى القرن الثالث عشر على أفرادها كل الاحتفالات غير الدينية، حتى لا تستلفت الانتباه. لم يكن للمثقفين، خاصة، الحق فى المشاركة فى الأعياد والحفلات، حتى فيما بينهم، "باستثناء حفلات زواج أحد المتعلمين بابنة واحد آخر من المتعلمين[٢٦٢]"، يقول ابن ميمون، نقلًا عن حاخامات أوروبا. عاقبت طائفة أخرى فى ألمانيا بقسوة مَنْ يرتدى أو يكسو بناته ملابس غالية الثمن. من هنا جاءت اتهامات اليهود بالبخل التى بدأت فى الذيوع والانتشار فى كل مكان. مرة أخرى، يلام اليهود على ما أجبروا على أن يكونوه.

سماسرة وحِرفيون

يجب أن يُكْتَسَبَ المال بطريقة شريفة وعن طريق العمل. القمار محرم، مثل السرقة، لأنه "لا يسهم فى عمران العالم". المال لا يشين، إنه جواز مرور، وسيلة للفرار، ضمانة

للحرية. إنه ليس وسيلة لتكديس الأراضي – رغبة تافهة، غل في القدم، يقول الحكماء. إنه لا يعد كذلك طريقًا للنجاة والغفران. إنه درع وحجاب واق. كان يعقوب بن إيلى أحد حاخامات الضواحي، في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، يشكر الرب "لأنه ضاعف ثرواتنا، لأن ذلك يمنحنا القدرة على صيانة حياتنا وحياة أطفالنا، إفشال محاولات مضطهدينا[٢٢٩]". إضافة إلى ذلك، فعندما تلوح التهديدات والمظالم، يكون الخوف من الفشل محفزًا قويًا على العمل والادخار.

كان من استقر من اليهود كمزارعين قلة نادرة، وإن صاروا كذلك، فقد كانوا عمومًا مديرى إقطاعيات، ليسوا أبدًا كأقنان للأرض ولا أصحاب إقطاعيات – إلا إذا تحولوا إلى المسيحية. وكان من يقومون بتجارة المنتجات الزراعية، ماشية أو نبيذ، أقل ندرة. في القرى الكبيرة، كنا غالبًا ما نجدهم أصحاب نزل، دبّاغين (مهنة كريهة الرائحة لدرجة أن المعابد– دونًا عن كل المهن– كانت تتحفظ عليها)، حائكين، صناع أواني زجاجية، نساجي حرير (كان الحرير الذى يُصنع منه ثوب التتويج لدى سلالة هابسبورج ينسج تقليديًا على يد أحد اليهود)، صاغة، نحّاتي أحجار كريمة وحتى صناع بخور وأدوات طقوس عبادة مسيحية. أحيانًا كان الحاخامات يعترضون على عمل النساء: على سبيل المثال، كان البيع بالتجول بين المنازل محظورًا عليهن، لا يجوز لامرأة أن توجد تحت سقف بيت رجل آخر دون أن تكون بصحبة زوجها.

في المدن، كان اليهود غالبًا سماسرة، أي وسطاء، مشترين وبائعين لكل المنتجات، أحيانًا كانوا ممثلين لكبار التجار المسيحيين. في النظام الرأسمالي الوليد، ليس هناك سوق شفاف بدون وسيط يساعد على مقابلة ومقارنة العرض والطلب، وإيجاد التمويل لهذا وذاك، وعلى تطوير نوعية المنتجات (رفع الجودة). بطبيعة الأمور، كان السمسار هامشيًا، ضروري وبغيض في نفس الوقت، كل يعمل وحيدًا، معتمدًا على سمعته فقط، خارج النقابات. لا تتطلب مهنته أي رأسمال: مجرد القدرة على التوقع المسبق للحاجات، العملاء، الموردين، الأسعار. القدرة على التفكير، بالمعنى الطيب للكلمة (**Aspéculer**).

فى منطقة أرل Arles، كان اليهود صانعى صابون، فى مارسيليا، كانوا وسطاء بحريين واحتكر بعضهم مهنة تصنيع المرجان. فى نابولى، نجدهم بصورة خاصة فى مهنة صباغة المنسوجات ونسج الحرير -أول صناعة- استغلال المناجم. فى إقليم لا نجدوك وفى إسبانيا، وصل البعض إلى مجالس المدن وحصلوا أحيانًا على امتياز التزام تحصيل الضرائب والتزام ضرب النقود. فى كل مكان، كانوا أطباء، مكتشفين للجسد البشرى، لأنهم كانوا الوحيدين من حيث المبدأ الذين يحق لهم تشريح الجثث. وأخيرًا كان الكثير منهم موسيقيين جوّالين، مثل التروفير (شاعر متجول فى شمال فرنسا) سوسكان فون تريمبرج، والتروبادور (شاعر متجول فى جنوب فرنسا) آشر بن يائيل.

فى بداية الألفية، فى جنوب أوروبا كما فى بلاد الإسلام وفى القسطنطينية، أقام اليهود نقاباتهم الحرفية الخاصة. فى الشمال، تغلغلوا فى النقابات المسيحية، أحيانًا علانية وأحيانًا بصورة سرية. ثم صارت الاتحادات العمالية قوية للغاية، فى الشمال كما فى الجنوب، وقامت بإقصائهم عن المهن الحرفية، حتى أقلها قدرًا: فى عام ١٣٣١، طُرِدَ اليهود من نقابة الدبّاغين فى مدينة إيسلنجين Esslingen الإمبراطورية.

لم يتبق لهم عمليًا فى ذلك الوقت، فى كثير من أقطار أوروبا، إلا تجارة الخيول، مهنة الجزارة وخاصة- مأزق مأسوى!- مهنة إقراض المال، وظيفة إستراتيجية فى تلك المرحلة من الرأسمالية البازغة وتكوين الأمم. ولأنهم قد أجبروا على ممارستها، فسوف يندفعون إليها ويغرقون فيها. لحظهم التعس المنكود. مرة أخرى، سيكون اليهود نافعين للآخرين ولسوف تلاحقهم الكراهية بسبب الخدمات التى يسدونها.

الفائدة بين اليهود

بالاقتراب من الألفية الجديدة، ضاق النظام النقدى أمام متطلبات التجارة. حتى وإن أضيفت إلى عملة شارلمان (الدينار الفضى) خلال العصور الوسطى، عملات أخرى مثل عملة جنوة (الفلورين)، فرنسا (التورنوا الكبير) وفينيسيا (الدوكات)، لم يعد حجم وسائل الدفع المتداولة كافيًا لتغطية احتياجات المزارعين، الحرفيين، التجار وخاصة

النبلاء والملوك. وعليه أصبحت القروض (الائتمان) ضرورية. أكثر بكثير عما كانت فى القرون الماضية.

غير أن الإقراض ظل محرّمًا تمامًا بالنسبة للمسيحيين، لا تزال الكنيسة تسمى العائد الذى يحصل عليه، باشمئزاز، ربا Usura، لفظة لم تعد تستخدمها للإشارة إلى العائد الناتج عن تجارة السلع(٢٣٧).

اعتبر كل مقرض شيطان يغوى المقترض ويخلق الظروف المؤدية إلى إفلاسه: كان القرض والمقرض، على التوالى، يمثلان التفاحة والثعبان فى جنة عدن. وعليه يكون المقْرِض مكروهًا بسبب الخدمة التى يقدمها، حتى وإن كانت شروط القرض ليست ربوية.

إضافة إلى ذلك، انتاب الكنيسة القلق عندما رأت القروض تدعم الملوك، الذين يعارضونها، والمدن التى لا تستطيع فيها بسهولة، مثل الريف، السيطرة على أجساد الناس وأرواحهم. ولهذا، استمرت فى منع كل المسيحيين من الإقراض، لكن، بالمفارقة، لم تحرم على المؤمنين الاقتراض. كان المأزق مستحكمًا تمامًا بين الحاجات الاقتصادية والأيديولوجية الدينية.

ابتداءً من القرن الحادى عشر، بينما كان النظام الإقطاعى فى طريقه لأن يضع النظام التجارى والدولة القومية، لم يكن هناك أحد آخر غير اليهود لممارسة تجارة المال. كانوا قد بدأوا من قبل فى القيام بهذا، رأينا ذلك فى العصور السابقة.

يمتلك الكثيرون الآن الوسائل المالية اللازمة، تجار وحرفيون ممنوعون من امتلاك العقارات، مهتمون بحيازة ما يمكنهم من الرحيل على وجه السرعة فى حالة واجههم تهديد ما، مدخرين بعض السيولة فى صورة قطع ذهبية وأحجار كريمة، يمكنهم إقراضها مع استمرارهم فى ممارسة مهنهم إن كان لديهم الحق فى ممارسة إحداها. فضلًا عن ذلك، كان معدل الفائدة مرتفعًا (أحيانًا أكثر من ٦٠٪ سنويًا، بسبب ارتفاع الطلب والمخاطر) بحيث تنامت سيولتهم النقدية بسرعة. حتى وإن لم يحددوا بأنفسهم معدلات الفائدة وفق رغباتهم، المراقبة بحزم من قبل السلطات، فقد كانوا أحرارًا إلى حد ما فى تحديد شروط السداد. لا تزال الكنيسة تشير باشمئزاز إلى أن

"المال يوّلد": أصوات غاضبة تخلط الاقتصاد بالجنس فى انتقاداتهم لطبيعة الفائدة (الربا) الوحشية، نتاج علاقات حب آثمة بين المقرض وأسيره. هكذا إذًا صار اليهود مقرضين وخاضعين فى نفس الوقت. ملكًا للنبلاء ومقرضين لساداتهم أو لجيرانهم. مقرضين رغمًا عنهم. مقرضين يمكن بيعهم.

ابتداء من القرن الثانى عشر، كانت بعض هذه الصكوك تشترط على الطوائف اليهودية ممارسة هذه المهنة كى يتم القبول بها واستضافتها. بل كانت تشترط أحيانًا أن يقوم أرباب العائلات بالإقراض لقاء رهون – بجانب مهنة أخرى – كما كان حال **Newhaus** فى بوهميا. وفى القرن الثالث، جاء فى أول صك تمت الموافقة عليه ليهود بولندا أن مهنة مقرض المال هى إحدى المهن المطلوبة. فى عام ١٢٣٦، قبل الإمبراطور اليهود كرعايا **Servi nostri** مقابل خدماتهم كمقرضى أموال.

كان حاخامات القرن الحادى عشر والثانى عشر يدركون تمامًا الأخطار المترتبة عن قبولهم بقيام مثل هذا الدور: فى بغداد، فى القرن العاشر، تعرضت طوائف بكاملها للاضطهاد بسبب أن بعض مواطنيها قد قبلوا القيام بوظيفة المصرفيين. إن كانت اضطهادات المقرضين حتى ذلك الوقت لا تزال نادرة فى أوروبا، فذلك لأن القروض لم تكن مهمة. تناقش رجال الدين بشأن هذا طويلًا، متبادلين الرسائل بينهم. راجعين دائمًا إلى نفس القضية: لما المجازفة بالتعرض للهلاك على أيدى دائنين غاضبين؟

طالب الحاخام إسماعيل **Ishmaél** بأن يمتد تحريم الإقراض بفائدة إلى غير اليهود، باستثناء ألاَ تكون هناك وسيلة أخرى لكسب العيش. بعبارة أخرى، لا تقوموا بهذه المجازفة، ما عدا فى حالة الضرورة القصوى. كان لحاخام رافينا نفس الرأى، لأن مهنة إقراض المال تؤدى إلى توطيد كثير من العلاقات مع غير اليهود، بأكثر من اللازم، وتهدد سلامة القيم الأخلاقية. أشار مؤلف كتاب التعليم **Sefer Hachinukh** إلى أن "وفقًا لأخلاقيات العالم الجديدة، كان لابد من السماح لنا بالقروض مع الفائدة، ولكن الهدف من الوصايا **mitzvot** هو تنقية اليهود، والرب ينهانا عن القيام بأشياء غير مقبولة بحسب مقتضيات الأخلاق الخاصة بنا[٤٤٢].

بعكس ذلك، لم يعترض عليها كهنة آخرون: الحاخام مورد خاى Mordechai، فى فرنسا، مستشهدًا براشى مدينة تروى، أقرها بين اليهود، إن مرت عبر وسيط يحجب المستفيد النهائى بالقروض، لكن معظم التفسيرات كانت ترفض القرض الربوى بين اليهود، إلا إذا كانت الفائدة تذهب إلى الصدقات، أى إلى الفقراء. سوف نرى فيما بعد أمثلة. فى عام ١١٦٠، فسر أحد أحفاد راشى رابينو جاكوب تام Rabenou jacob tam– مثلما حدث مع ابن ميمون فى نفس الوقت فى مصر – إقراض الأجانب بأنه واجب أخلاقى(١٧٦). يجب أن يضع المرء ما يملك فى متناول الأجانب. وأضاف – تفكير منطقى عصرى للغاية لن يؤخذ به قبل مجىء آدم سميث – إن القرض الربوى فى صالح المقترض، لأنه يدفعه إلى اتخاذ قرارات منطقية، بينما تؤدى القروض بلا فائدة إلى إفساد الحسابات الاقتصادية. كان لرامبام Rambam نفس الرأى، وعن نفسه كان يذّكر بأن التوراة قد سمحت بمهنة الإقراض الربوى، دون أن يكون ذلك فرضًا واجبًا. ويقول الكثيرون أيضًا إنها مهنة مشرفة، وإن المقرضين يربحون بسرعة ما يكفى من المال ليتركوا أى مهنة أخرى ويتفرغوا لدراسة التعاليم الدينية وكان ذلك، على وجه الخصوص، ما حدث فى ألمانيا، عندما كتب أحد حاخامات القرن الثانى عشر، شالوم بن إسحاق شيكيل: "إن السبب الذى لأجله تحتل التوراة فى ألمانيا مكانة أكبر منها فى البلاد الأخرى، هو أن اليهود يقدمون فيها قروضًا ربوية إلى غير اليهود وليسوا فى حاجة إلى التفرغ لمهنة أخرى تتطلب كثيرًا من الوقت (...). مَنْ لا يعكف على دراسة التوراة يوظف أرباحه فى الوفاء باحتياجات من يقومون بدراستها..."(٣٤)

يناقش آخرون أيضًا أسعار (معدلات) الفائدة: لابد أن تكون مرتفعة للغاية، يقول البعض، لتغطية مخاطرة عدم السداد وحتى لا يكون عليهم أن يقرضوا بأكثر مما يجب، لا.. بل يجب أن تكون منخفضة، يرد آخرون فى المقابل، حتى لا نثير الحقد والغيرة.

كان النبلاء الإقطاعيون الذين يقومون بكفالة وحماية اليهود هم أول عملائهم: لابد من المال، الكثير لإقامة الدول. بعد الغزو النورماندى الذى قادهم فى عام ١٠٦٦ إلى إنجلترا، طالّب جيوم الفاتح Guillaume le Conquerant التجار اليهود بتمويل مؤسساته الجديدة، وترك لهم مهمة استرداد أموالهم بأنفسهم عن طريق قيامهم أنفسهم

أيضًا بتحصيل الضرائب وإقراض الآخرين، بخلاف الأمير، بمعدلات فائدة مرتفعة. فى عام ١١٧٠، قام أحد التجار اليهود، بناءً على ذلك، **josué de Gloucester** ، خوسيه دو جلوسيستر، بإقراض هنرى الثانى مبالغ طائلة لتمويل غزو إيرلندا. اعترض أحد الأساقفة الإنجليز[٢٣٩]: "المال الذى يحصل عليه أمير بشكل غير مباشر عن طريق مرابٍ يجعل منه شريكًا فى الجريمة". كان المقرض قد اقتيد ساعتها إلى شرك قاتل: مُحصل ضرائب، عليه أن يتحمل تأخيرات سداد النبلاء الصغار والمزارعين ويصير إذًا دائنًا لهم دون الرغبة فى ذلك. كما قد يحدث، كما جرى أثناء ولاية لويس التاسع، أن يقوم موظفون ملكيون، بتحصيل الضريبة بأنفسهم، مصادرين ممتلكات الخاضعين لها غير القادرين على السداد، وإجبار اليهود على القبول بها كرهون فى مقابل قرض للأمير، شريطة أن يقوم المقرضُ رغم أنفه باسترداد أمواله بنفسه بعد ذلك من الخاضعين للضريبة مباشرة فى مقابل ممتلكاته المرهونة. وأخيرًا قد يحدث، بكل بساطة، أن يقوم موظفو السلطة بمصادرة ممتلكات المقرضين بحجة أن "طريقتهم الربوية تفقر المدينين" متناسين أنهم هم الذين أثقلوهم بالضرائب.

بعد الأمراء، تأتى الأديرة لتكون ثانى العملاء المفروضين على اليهود. لقد افتخر الأب سوجر **Suger**، الذى كرس حياته لإصلاح دير القديس دونى **Saint-Denis**، لأنه تمكن من الاقتراض ثم سداد دينه عَبْر المدعو أورسولوس من مدينة مونمورنسى **Ursellus de Montmorency**، وكان مقرضًا لقاء رهون[٦٠].

هناك نادرة كاشفة بشكل خاص[٨٠]: حدث فى إنجلترا، خلال عام ١١٧٣، أن اقترض دير قبر القديس أدمون، من المدعو إسحاق ، ابن الحاخام جوشوا (يوشع) **josué**، مبلغ ٤٠٠ جنيه إسترلينى بمعدل فائدة قدره ٢٥٪ سنويًا، مقدمًا ممتلكات الدير كرهن، ملابس حريرية وآنية وأدوات طعام من الذهب، ثم ٤٠ جنيهًا من المدعو بنديكت (من مدينة نورويتش) **Benedict de Norwich**. فيما بعد، روى لنا أحد الرهبان قصة هذا القرض، التى تعرض بوضوح الظروف التى واجهها اليهود فى ذلك الوقت، مصرفيون على الرغم منهم، يقدمون القروض بلا توقف بصورة متزايدة آملين، غالبًا وهمًا، فى استرداد أموالهم يومًا ما، يزيف المقترضون ديونهم يعترضون عليها حتى يتمكنوا من استصدار حكم بإلغائها من السلطات العليا. تلك القصة تستحق القراءة بالتفصيل.

"عندما تحطمت ممخضة الزبد الخاصة بالكنيسة، كان على وليام، خادم الدير، أن يقترض سرًا، من بنديكيت المقيم فى نورويتش، مبلغ ٤٠ جنيهًا إسترلينيًا، ليقوم بإصلاح الممخضة، على أن يسدد فائدة عن هذا القرض؛ وقد قدّم اعترافًا بالدين مختومًا بختم يوجد عادة بالقرب من صندوق ذخائر دير سان أدمون، وتقوم النقابات والتجمعات الأخوية بختم رسائلها به. عندما وصلت الديون إلى ١٠٠ جنيه، جاء اليهودى بخطابات من الملك تتعلق بدين خادم الكنيسة وكشف عن أن الخادم قد تعاقد معه سرًا ودون معرفة رئيس الدير والقساوسة. قدم الأب رئيس الدير، بعد أن قام بعزل الخادم، اعترافًا جديدًا بدين قدره ٤٠٠ جنيه يستحق السداد خلال ٤ سنوات، يشمل الـ ١٠٠ جنيه الأولى و١٠٠ جنيه أخرى طلبها الأب الرئيس. لكن الأب لم يضع خاتمه الشخصى على الاعتراف بالدين، وإنما خاتم الرهبان فقط. ولأن الدين لم يسدد مع انتهاء الأربع سنوات، فقد وضع اعتراف جديد بدين جديد قدره ٨٨٠ جنيهًا، يستحق الدفع هذه المرة بواقع ٨٠ جنيهًا سنويًا ولمدة إحدى عشرة سنة. كان لدى نفس اليهودى اعترافات أخرى بديون لم تسدد تستحق على نفس الدير، منها اعتراف يعود إلى أربعة عشر عامًا. كان المبلغ الإجمالى المستحق له ١٤٠٠ جنيه. طلب ممثل الملك من الأب أن يحيطه علمًا بمثل هذه الديون الضخمة". (٨٠)

لم تخبرنا القصة عما إذا كان الدائن اليهودى قد استوفى دينه فى نهاية الأمر أم لا. منَ الجائز ألا يكون قد فعل، نظرًا للطريقة التى عومل بها اليهود الإنجليز خلال سنوات لاحقة على هذه القصة.

فيما وراء الأمراء والكنيسة، اقترض الجميع خصوصًا فى راينلاند من التجار اليهود: المزارعون لشراء البذور، الحرفيون لشراء المعدات، وحتى النقابات التى لم تكن ترغب أصلًا فى وجودهم بين صفوفها. وبصورة عامة كانت المبالغ زهيدة. تم تسليفها بأسعار فائدة مرتفعة ودائمًا ما يتم سدادها فى أجواء وديّة. تظهر بعض الوثائق العدلية المحفوظة فى بربينيان **Perpignan**، فى نهاية القرن الثالث عشر (١٣٤)، أن متوسط القرض كان يعادل الدخل السنوى للحرفى، وأن عُشر القروض كان أقل من جنيه إسترلينى، أى ما يعادل دخل شهرين. بينما كان المرابون اليهود فى منطقة سان كانتان (القديس كانتان)

Saint- Quentin، يقدمون قروضهم إلى تجار متواضعين، فإنهم لم يمولوا فى بربينيان، إلا حرفيين ميسورى الحال(١٣٤)، بمعدل فائدة يفوق الـ ٥٠٪.

كان المقترضون يتعاقدون على هذه القروض شاعرين بالندم، كما لو كانت مخدرًا لا يمكنهم التخلى عنه والعيش بدونه، ساخطين على من يقرضهم. أما المقرضون، فكان عليهم أن يحسبوا حجم المخاطرة وفقًا لشخصية المقترض ومركزه المالي، تقدير سعر الفائدة التى يمكن المطالبة بها منطقيًا، تصور وتقييم الرهونات، استرداد مستحقاتهم فى المواعيد المتفق عليها، إخفاء المرهونات والأموال، التى تكون عادة كبيرة جدًا، التى يتم استردادها والتى تكون مصدر إغراء كبير للصوص. فضلًا عن ذلك، فلا يوجد مرابون بدون نظرية المخاطرة، بدون معرفة بالسرية والتخفى، بدون مثمنين خبراء فى الأشياء الثمينة– لآلئ، ذهب، فضة، عملات نقدية، تسمح بإخفاء أكبر قدر ممكن من الثروة فى أقل حيز يمكن تخيّله.

فى البداية، كانت عمليات التسليف تجرى أساسًا بصورة شفهية. كان القرويّون الأميوّن، وبخاصة النساء، اللاتى يقترضن عادة بدون علم أزواجهن، يرفضون أن تظهر ديونهن فى وثائق(١٧٦).

بتطور القانون المكتوب فى أوروبا الجنوبية فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر، بدأت العقود تستخدم كأدلة إثبات فى حالات الاعتراض.

فضلًا عن أن– كما رأينا فى حالة دير قبر القديس آدمون فى إنجلترا– التوقيع والخاتم يجب أن يكونا محلًا للثقة. كما كتبت أحيانًا بعض صكوك الإقراض عند كتبة العدل القانونيين أو محامى الأسقفية. لذلك نجد أن وثائق الأرشيف العدلية فى بربينيان قد احتوت أيضًا كثيرًا من العقود لعمليات مالية مهمة ومحاضر لقروض زهيدة القيمة قدمت إلى بعض الحرفيين(١٢٥)، جرت عمومًا دون اعتراضات.

وضع المقرضون آنذاك تقنيات متطورة باطراد فى مجال التسليف. اشتغل البعض فضلًا عن ذلك، بمدخرات جيرانهم اليهود، مقابل مكافأة مالية أجاز الكهنة ذلك، نظرًا لأن المقترض النهائى كان غريبًا عن أهل الطائفة. طوّر آخرون وسائل مكتوبة تسمح بتحويل

القرض إلى قيمة عينية يمكن تداولها تجاريًا ويمكن إعادة بيعها: الممرام Le mamram، وثيقة بسيطة يثبت فيها المبلغ المستحق، تاريخ السداد المتفق عليه، توقيع المدين (لا يعرف أحد على وجه اليقين أصل هذه الكلمة الشائعة للغاية فى العصور الوسطى، هل جاءت من الكلمة العبرية hemir، "تغيير"، أو من اللاتينية In memoriam "فى الذاكرة"، أو أيضًا من... membrana، والتى تعنى قطعة من الجلد المصقول المعد للكتابة "رق"؟). لقد عثر على أول أثر لها فى فرنسا خلال القرن الثانى عشر، فى أحد التفاسير التى قام بها إلهان بن إسحاق، المقيم بمدينة دامبيير، لرسالة تعويض الوثنيين Avodah Zarah. وبما أن الوثيقة لم تكن تذكر اسم الدائن، فقد كان " المامرام" قابلاً للدفع لصالح من يقدمه للمدين، وبالتالى فقد كان قابلًا للتحويل، على الأقل بين المرابين اليهود الذين يتبادلون الثقة فيما بينهم، مع احتساب فائدة نظرًا لأن المقترض النهائى كان مسيحيًا. وسيلة رائعة لتطور الائتمان، إنها تسمح بامتلاك مصادر جديدة، من خلال إقناع مُقرِض آخر بقيمة توقيع عميلهم، سواء كان دولة، مزارعًا، حرفيًا أو تاجرًا. استخدم اليهود هذه الصكوك لمدة ثلاثة قرون قبل أن تصبح بطاقة الأمر بالدفع هذه قابلة للتحويل فى إيطاليا (فى بداية القرن الخامس عشر). سوف ينسب هذا الابتكار مع ذلك إلى بعض المصرفيين فى لومبارديا الذين ربما كانوا- كما سوف نرى- من اليهود الذين تحولوا إلى المسيحية ظاهريًا ولكنهم بقوا فى السر يهودًا.

أثارت قضية الرهن أيضًا العديد من المجادلات المذهبية(٢٣١). وافق الحاخامات على أن تؤخذ ممتلكات غير اليهود (الوثنيين) كرهون، ما عدا بعض الأشياء ذات الضرورة الأساسية (أحجار الرحى أو بعض الملابس بعينها(٢٣١). فى المدن، يمكن رهن المعدات، الأحجار الكريمة، التحف، بل وأدوات طقوس العبادة المسيحية. فى الأرياف، كانت الرهون فى الغالب هى محاصيل وغلال المقترض، فى موزيل، فى راينلاند، كانت الأقمشة، الأحصنة، أو الأنبذة. فى المدن البولندية(٤١٤) وفى الجاليات المستقرة فى مورافيا، كانت الرهون أيضًا من النبيذ. قد يحدث تبعًا لذلك أن يكون القرض بالرهن فى واقع الأمر بيعًا مقنعًا وأن يكون المقترض مجبرًا على التخلى عن ممتلكاته الثمينة بسعر منخفض لدائنه. كان بعض السادة الإقطاعيين يمنع على اليهود أخذ الأراضى، أو مطاحن أو الإقطاعيات

الزراعية الصغيرة، آخرون، أشد مكرًا، كانوا يجبرونهم، على العكس على ألا يأخذوا كرهن إلا الملكيات العقارية حتى لا يستطيعوا أخذها عند رحيلهم! أحيانًا كانت صكوك الإقامة التى تمنحها مدينة ما إلى إحدى الطوائف توضّح أن المقرضين يمكنهم أن يقوموا بمصادرة رهن أحد الدائنين إن لم يقم بالسداد.

كانت كل جالية مسئولة عن استقامة مرابيها. فى بعض الحالات، كانت تتعهد بألا يتجاوزوا نسبًا محددة للفائدة، وتضمن إعادة المرهونات إلى المقترضين فى كل الأوقات.

عمومًا، لم يكن إقراض الأموال مهنة. إنه عمل جانبى بالنسبة لمعظم اليهود. فى بعض الجاليات، كان كل اليهود البالغين مرابين ومزارعين، مرابين وتجار، مرابين وأطباء، مرابين وحاخامات. كان من الصعب أحيانًا العثور على يهودى لم يلجأ، على الأقل بصورة دورية، إلى تجارة المال. يقول مناحم ها-ميرى، عالم يهودى بروفنسى(*) عاش فى القرن الثالث عشر: "يبدو أن أحدًا لم يمنع نفسه من إقراض الوثنيين (غير اليهود) بالربا[١٠٤]" ولا حتى هو شخصيًا.

يظهر تقرير المحققين الذين أرسلهم لويس السادس إلى سان-كانتان أن ثلث المرابين اليهود هناك كان من النساء، التمست خدماتهن نساء أخريات ذوات أعباء عائلية ساعيات إلى قروض تقل قيمتها كثيرًا عما يقترضه الرجال. يصبح الموقف حساسًا بصورة خاصة عندما يكون على المقرض أن يصادر الرهون التى تركها عنده حاميه وكفيله ذاته، الذى منحه الصك. وما يمكن أن يُطْلَب كرهن من ملك، يقترض ما يمكّنه من دفع رواتب جيشه؟

هكذا، وتدريجيًا صار بعض المرابين ملاّكًا بصورة شبه إرادية، لملابس، جياد، محاصيل نبيذ، وحتى براميل، ورش حرفيين، معامل، عيون ماء، طواحين، قناطر ماء، قنوات، لم يكن لهم أحيانًا لا الحق فى استغلالها ولا فى إعادة بيعها وفق إرادتهم. كانت الكنيسة. يساورها القلق أيضًا وهى ترى النبلاء يرهنون لدى اليهود ممتلكات كانت تطمح فى الحصول عليها كهبات وتبرعات دينية.

(*) البروفنس – منطقة فى جنوب شرق فرنسا، تطل على البحر المتوسط وتجاور إيطاليا... (المترجم – عاصم)

ظهرت فى ذلك الوقت مهن جديدة، لإدارة هذه الممتلكات والاتجار فيها. من قبل، كان اليهود تجارًا، حرفيين، وسطاء، مرابين، ثم صاروا تجارًا فى الأشياء المستعملة. هكذا تعلم المرابون فى الألزاس و فى راينلاند تجارة الخيول، الماشية، النبيذ - التى حاول الحاخامات منعه أو إعاقتها - المنسوجات، الملابس المستعملة، وبعض أشياء ثمينة. بل يحدث أن يمارس المرابون تجارة الأشياء المسروقة، التى يتركها بعض اللصوص كرهون ثم يفرون بعد ذلك، مخاطرين بأن يتعرضوا هم أنفسهم بعد ذلك للاتهام بالسرقة .

عندما يكون الوضع السياسى هادئًا لفترة طويلة، تستقر أحيانًا بعض العائلات من المرابين المتخصصين، الذين مارسوا هذه المهنة مدة ثلاثة أو أربعة أجيال وخلفوا أسر الممولين فى شمال إفريقيا أو فى الشرق، خاصة فى إقراض الأمراء وكبار التجار: مثل آل فولتيرا **les voltera**، آل تيفولى **les tivoli**، آل دابيزا **les Da Pisa** وآل ديل بانكو **les del Banco**، يهود إيطاليا الذين سيُظن فيما بعد أنهم من مواطنى لومبارديا. صار بعضهم أثرياء: فى إنجلترا، نحو عام ١٢٤٠، أثناء ولاية هنرى الثالث، تثبت الوثائق الضريبية أن ثلاثة من المرابين اليهود (أرون دليون من مدينة يورك ودافيد من أوكسفورد) قد سددوا ٨٣٪ من مجموع الضرائب التى دفعها كل اليهود على أنشطة التسليف والخدمات الائتمانية. فى نهاية القرن الثالث عشر، كان لدى إلياس- من مدينة فسول **Elias de Vesoul** أحد كبار المصرفيين والتجار اليهود فى مقاطعة بورجونى، عملاء حتى فى ألمانيا. أمام اتساع عمليات هؤلاء المرابين، قام الأوصياء عليهم، فى إنجلترا وفى إسبانيا بالإشراف عليها، تسجيل ديونهم واقتطاع جزء من الفائدة حتى وإن كانوا هم أنفسهم من المقترضين!

انتهى الأمر باليهودى والمرابى إلى أن يصيرا شخصًا واحدًا. هكذا نحت برنار- من مدينة - كليرفو **Bernard de Clairvaux** فعل استهود **judaisare**، للإشارة إلى عمل المرابى. وفق مفاهيم القرن الثانى عشر، كان كل مستدين مسيحيًا .وكل صاحب دين يهوديًا، حتى وإن كان المسيحى من رجال المال، مثل التاجر الهولندى جيّوم كادس **Guillaume Cades**، والذى كان حجم عملياته فى السوق الإنجليزى يتجاوز حجم أعمال معاصره اليهودى هارون- دو لانكولن- **Aaron de Lincoln**، والذى أُعتبر "متهودًا[١٠٤]" .

انتاب القلق بعض الحاخامات من جراء ذلك. طالبوا اليهود بالتحول عن هذه التجارة التى تفاقم من خطر آخر: إنها تجبر المرابى على العيش بجوار الآخرين بعد قليل، العيش فى ظل التهديد بإثارة كراهيتهم نحوه.

العلاقات مع الآخرين

مكروهون بسبب ما يُسدونه من خدمات.

استوطن بعض اليهود، القليل منهم، فرادى فى بعض القرى، القلاع، المراكز الأمامية، هناك، كانوا تجارًا، وكلاء معامل تقطير، ممثلين لكبار التجار، وسطاء، محصلى ضرائب وفى نفس الوقت، وكثيرًا جدًا، مرابين. عاش الآخرون فى جماعات لم تكن تقل عن عشرة من الذكور الراشدين، كما تفترض الشريعة. كانوا جميعًا على اتصال بالمسيحيين من حولهم. عالج أطباؤهم وحكيماتهم المرضى فى الجوار؛ باع فلاحوهم محاصيلهم فى الأسواق، دخل بائعوهم منازل الوثنيين (غير اليهود)؛ سافروا بصحبتهم، أكلوا معهم وقاسموهم المساكن؛ اشتغل الحرفيون اليهود فى المعامل والورش مع عمال مسيحيين؛ كان لابد للمرابى من التفاوض مع عملائه؛ لعب الباعة الجائلون من كل الطوائف النرد سويًا فى أندية القمار؛ رحبت الأسواق باليهود والمسيحيين، كان شارع اليهود (حارة اليهود) الذى نجده فى العديد من المدن مجالًا مفتوحًا.

مستكشفون بطبيعتهم، انصاع اليهود طوعًا لتلك الجولات العميقة فى العوالم الجديدة. فى كل مرة يحطون فيها رحالهم فى بلد جديد، كانوا يتعلمون لغته ويتبنون ثقافته. يناقشون آدابه، يقرأون نفس الفلسفات، يتشاركون نفس طريقة الملبس، يعانون نفس المجاعات، نفس الأوبئة، نفس الأعداء. يقاتلون فى نفس الجيوش، يخلقون أعمالًا أدبية، تحفًا يدوية الصنع ومؤسسات تجارية. يشاركون فى نفس الاقتصاد، ينتجون ويستهلكون نفس السلع مثل المسيحيين. كما أنهم كانوا يحملون أيضًا الجديد من حيث يأتون. أكثر مرونة، لعدم خضوعهم لقيود النقابات، كانوا منافسين خطرين للحرفيين المسيحيين. غالبًا ما كان اليهود مصدرًا للقلق والتخوف بسبب قدرتهم على الإنتاج بصورة أفضل وبأسعار أقل.

أجبرتهم ضرورة العيش فى أوساط مفتوحة على تعديل طرق أداء شعائرهم الدينية. وبالرغم من أن القضية لا تزال ماثلة ومحل جدل، فإن التعليمات البابلية التى كانت تمنع الاتجار مع غير اليهود قبل الأعياد الدينية بثلاثة أيام لم تعد سارية. كما صار مهملًا أيضًا، مع الضرورات التى أوجدتها الرهون، الحكم بمنع الاتجار فى النبيذ وحيازة أدوات تأدية طقوس الديانة المسيحية. أصبح تعدد الزوجات مبررًا للطرد من الجماعة (الطائفة)، صار التطليق ممنوعًا ولم يعد الطلاق جائزًا إلا بعد موافقة مزدوجة من الطرفين. وأخيرًا، كما كان الحال منذ النفى البابلى الأول، كان ممنوعًا على اليهود مقاومة سلطات الأمير الحاكم (ماعدا فى حالة أراد الحاكم إجبارهم على التحول عن ديانتهم فى هذه الحالة وفى هذه الحالة فقط، فإن المقاومة المسلحة وحتى الانتحار كانا أحيانًا مصرحًا بهما).

روى العديد من الحكايات حول مناقشات عامة، عن علاقات اقتصادية وعائلية، علاقات صداقة بل حتى حكايات حب بين مسيحيين ويهود- مثل ذلك الأنيب من مدينة أوكسفورد، الذى اعتنق اليهودية نحو عام ١٢٢٠ حبًا فى فتاة يهودية من جالية المدينة. العكس أيضًا كان صحيحًا، فقد تحول بعض اليهود إلى المسيحية بسبب الحب وسعيًا إلى الاندماج فى المجتمعات الجديدة كان بعض اليهود يناقشون المسائل الدينية فى الأماكن العامة أو فى منازل هذا أو ذاك منهم. يقول راشى مدينة تروى: إن واحدًا من جيرانه المسيحيين كان يقدم له الحلوى فى آخر أيام أعياد الفصح اليهودية. خالط بعض الطلاب اليهود البولنديين جماعات الكتبة فى الجامعات الإيطالية. استقبل بلاط البابا كليمن الرابع فى أفنيون الحاخام ليفى بن جرشون Rabbi Levi ben Gerson.ترجمت أعمال أبراهام بن عزرا Abraham ibn Ezra إلى اللاتينية والفرنسية[١٠٤]. تحاور كبار المفكرين اليهود فى تلك الفترة، مثل الفليسوف ها- ميرى Ha- meiri، من بربينيان، مع نظرائهم المسيحيين، مثل رايمون لول Raymond، الذى كتب "الوثنى والحكماء الثلاثة"[٢٥٧]. أظهر بعض الكُتاب المسيحيين معرفة ممتازة بالآداب اليهودية[٢٨٨]. تحتوى كتابات نيكولا- دولير Nicola de Lyre، على العديد من الإحالات إلى راشى والاستشهاد به، استعانت الكتابات اليهودية بصورة متزايدة بالفلسفة العربية، الإغريقية، الأوجوستينية، ألهمت روايات الفروسية بعض الفلاسفة اليهود. قام بعض اللاهوتيين المسيحيين، فى القرن الثانى عشر، بدراسة

المخطوطات العبرية واستعانوا بالحاخامات لمقارنتها بالنسخة اللاتينية للإنجيل. ربط تعاون وثيق بين قساوسة دير سيتو، وبعض الحاخامات الذين قاموا بترجمة مقاطع من التوراة (الكتابة المقدسة) من العبرية إلى الفرنسية التي لم يكن الأكليريكيرون يعرفونها إلا باللاتينية[١٠٤]. استشار القساوسة الدومنيكان والفرانسيسكان المفسرين اليهود لإثراء شروحهم وتعليقاتهم. في القرن الثالث عشر، أغنى سولومون بن جابريول أفكاره النظرية، الواردة في كتاب "أصل الحياة" La source de lavie مغترفًا من بعض المذاهب المسيحية[٢٨٨]. شدد الحاخامات في ذلك الوقت على الاختلافات بين العقائد التوحيدية الثلاث. وبهذا الخصوص تلقى ما كتبه راشي قبولًا أفضل: "هذه الأمم التي نعيش وسطها نحن، الشعب العبرى، منفيين، تؤمن بخلق العالم من العدم، الخروج، وبعض النقاط الجوهرية الأخرى. إن عقيدتهم مكرسة لخالق السموات والأرض[٢٢٦]. في بربينيان، أقر الحاخام ها- مَيرى حتى أن المسيحيين يعتبرون في نظره، منذ الآن فصاعدًا موحدين، مثل اليهود والمسلمين وليسوا وثنيين، ما يفرض على الطوائف اليهودية أن تساعد فقراءهم بنفس الطريقة التي تساعد بها أهل ديانات الكتاب الأخرى.

نوقشت أعمال أرسطو- المترجمة من قبل إلى العربية- بالعبرية في الطوائف اليهودية في جنوب فرنسا قبل أن يعلق عليها توما الأكويني[٢٨٨]. من جانب آخر، اندلع جدل في قلب طائفة ناربون حول العمر الذي يجب فيه على الأطفال تعلم الفكر الأرسطي. كان المسيحيون، الذين واجهوا أفكار أرسطو من خلال ابن رشد، يعبرون آنذاك أزمة كان ابن ميمون قد حاول الرد عليها من قبل في كتابه دليل الحائرين. استشهد بعض المؤلفين المسيحيين بطريقة التعليم اليهودية كنموذج. لهذا، سجل أحد تلاميذ أبيلار Abélard في أحد تفسيرات رسالة بولس إلى أهل أفيس: "حتى إن كان فقيرًا، حتى إن كان لديه عشرة أطفال، فسوف يرسلهم اليهودي إلى المدرسة، لا من أجل المنفعة، ولكن من أجل تعلم الشريعة، وليس فقط أبنائه الذكور، بل بناته أيضًا"[٥٩] ويكشف عرضًا، كذلك عن القفزة الاستثنائية في تعداد اليهود: الأسر التي تضم عشرة أطفال لا تمثل حالة نادرة والطوائف تنمو وتتكاثر بسرعة.

كالعادة، توجس الحاخامات حينها من أن يتسبب، أكثر التجار ثراءً، والأفضل اندماجًا والأهم منزلة، الأكثر قربًا من الأمراء والأوساط الفكرية، فى الإضرار بطوائفهم بسبب الأخطاء التى يمكن أن يقترفوها أو بسبب مشاعر الحسد والغيرة التى يمكن أن يثيروها. نفس الفكرة القديمة دائمًا: لا شىء ينفع اليهود، إن لم يكن نافعًا للآخرين. لهذا، لعل العلاقات خارج الطوائف كانت مراقبة بصرامة، يكرر الحكماء بإصرار أن نجاة الجميع تعتمد على استقامة كل فرد وأن الحصول على أملاك المسيحيين بطريقة غير شريفة أو الاستفادة من أخطاء المسيحيين عند إجراء عملية تجارية تمثل آثامًا كبرى وأن من صالح كل يهودى أن يعيش الأغيار فى رخاء وأن من واجبه أن يشارك فى ذلك.

لكن، لأننا نخشى، قبل كل شىء، التشبه بالآخرين والاندماج فيهم، حرص الحاخامات وعملوا على احترام التعليمات المتعلقة بالطعام، التى تحرم على كل يهودى أن يتقاسم الطعام أو الشراب مع مسيحى. كانوا يحثون أتباعهم المؤمنين على التجمع فى نفس الأحياء، حول أحد المعابد، حمام شرعى، مقبرة. كانوا يطالبون أحيانًا بتمكينهم من أن يغلقوا بأنفسهم مدخَلىّ شارعهم ببوابة، حتى يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم بصورة أفضل فى حالة تعرضهم لاعتداء. من الآن فصاعدًا، فى مثل هذا النوع من الأحياء، لن يعود للحاخام، معلم المدرسة، الجزار، وبعض أصحاب الحرف، أى اتصال بالأغيار(٣٤). شجع النبلاء مثل هذه التجمعات التى تسهل عملية الإشراف عليها ومراقبتها ولتجنب الاختلاط. هكذا، ربما حدد جاك الفاتح jacque le conquerant ملك أرجون، ليهود بربينيان، مع موافقتهم، العيش فى أحد الأحياء القريبة من حى النساجين، الذين كانوا يقومون بتمويل أعمالهم، فكرة الجيتو لم تكن بعيدة.

كان الحاخامات بالتأكيد محقين فى الاحتراس والحذر: بالرغم من التعايش الشعبى وفائدتهم من الناحية الاقتصادية، كانتَ العداوة والكراهية على وشك العودة. عن طريق خليط مُجرّب من الدين والاقتصاد، سوف يتخلص الغرب قريبًا من دائنيه من خلال اتهامهم بقتل الرب. هكذا سوف تكون الطوائف اليهودية عرضة لاتهامات جديدة، منزلقة بلا توقف من مجال لآخر. يلام اليهود لأنهم قدموا للناس إلههم وأموالهم لأن المرء يلوم حتى نفسه لأنه لم يعد باستطاعته الاستغناء لا عن هذا ولا عن ذاك. أقرضوا الناس

الرب، أقرضوا النقود، متهمين بلا تمييز بأنهم لصوص، مستغلون، طفيليون، محتكرون، مرابون، متآمرون، شاربو دماء، مسممون، قتلة أطفال، مدنسو المقدسات، أعداء الله، قاتلوا المسيح، حاقدون على يسوع.

الحملات الصليبية:

الدفع والموت

بدا كل شيء مع انتصاف القرن الحادى عشر. الوضع فى أوروبا لم يعد مزدهرًا. عصابات من اللصوص تنهب المدن، نبلاء يتقاتلون فيما بينهم. فى ١٠٧٣، استفاد البابا الجديد، جريجوار السابع **Gréoire VII** من الوضع، لينكر على الإمبراطور الرومانى الجرمانى الأصل الحق فى التدخل فى الانتخابات البابوية. بل إنه قد أجبره، فى عام ١٠٧٧، على الركوع أمامه فى كانوسا **Canossa**، وحرّم على النبلاء شراء الضريبة الكنسية. وإلى البابا مرة أخرى اتجه إمبراطور الشرق الجديد أليكسيس كومنيه **Alexis Comnéne**، الذى كانت جيوشه قد لاقت الهزيمة لتوها على يد المسلمين، ملتمسًا مساعدة مسيحىّ الغرب الذين كان قد قطع علاقاته بهم منذ أكثر من عشرين عامًا.

فرصة أكثر من رائعة لكنيسة روما: بالاستجابة لهذا النداء، كان بإمكانها أن تأمل فى انتزاع القيادة من أمراء الغرب، استعادة الكنيسة الغربية، الاستفادة منها للمواصلة نحو أورشليم واسترجاع قبر المسيح من أيدى المسلمين.

لم يتح لجريجوار السابع الوقت لتنفيذ هذا المشروع. لقد كان خليفته أوروبان الثانى **Urbain II**، هو من أطلق، أثناء مجمع مسكونى انعقد فى كليرمون **Clearmon**، فى ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥، ما سوف يسمى فيما بعد الحملة الصليبية الأولى. فرسان، رهبان، رجال من عامة الشعب أتوا من كل أنحاء أوروبا، يقودهم فرسان فرانك (فرنجة) (قدامى الفرنسيين) جوفروا دو بويون **Jodefroy de bouillon**، ريمون دو تولوز **Raymond de Toulouse**، انطلقوا لنجدة البيزنطيين ولفتح الشرق. للإنفاق على المعدات ولتأمين حماية

أسرهم خلال غيابهم الذى ينذر بأن يكون طويلًا، كان الصليبيون يفتقرون إلى المال بطبيعة الحال. المكان الوحيد الذى تخيلوا إمكانية وجود المال فيه، كان خزائن المرابين اليهود. أعفتهم الكنيسة، من ناحية أخرى، من سداد أى ديون سابقة. لم يكن ذلك كافيًا: لجأ بعضهم إلى السلب والنهب. فى الطريق إلى أورشليم، كان الصليبيون- خاصة صليبيى ألمانيا، ولكن ليس هم فقط- ينهبون الطوائف التى يمرون بها، يسلبون المال، الذهب، اللآلئ وحتى حلى الموتى الذين نبشت قبورهم. الدعوات إلى التروى والسكينة التى أطلقها بعض الأساقفة وكذلك اعتراضات الإمبراطور كونراد الثالث Conrad III، الذى يخضع لكفالته يهود ألمانيا، لم تؤد فى ذلك إلى شىء. ابتداء من ٣٠ مايو ١٠٩٦، تعرضت للنهب والتدمير كل الطوائف اليهودية فى كل من كولون، ماينس، فورمز، سبيرى، ستراسبورج- غالبًا بعد عروض تم رفضها بالتحول إلى المسيحية. أحيانًا، ولتفادى التعرض للاغتصاب والتعذيب، دارت معارك انتهت بعمليات انتحار جماعى، كما حدث فى كولونيا وفورمز. خلال بضع أسابيع، كانت الحصيلة ثلاثين ألف قتيل. لم يكن شىء كهذا قد وقع مطلقًا، فى أى مكان فى العالم، منذ مذابح يهوذا، منذ ألف عام مضت. بشأن هذا، دار الجدل حاميًا فى بروفانس (بفرنسا)، إسبانيا، إيطاليا وفى أوروبا الوسطى، مناطق هادئة نسبيًا.

عند وصول الصليبيين إلى الأراضى المقدسة، وجدوا، خلف قوات السلاجقة، بعض الطوائف اليهودية القليلة، والتى كانت تلقى معاملة كريمة من جانب المسلمين. فى ١٥ يوليو عام ١٠٩٩، عندما استولى جوفروا دو بويّون على أورشليم وقضى على سكانها بعد حصار دام خمسة أسابيع، جُمع بعض الآلاف من اليهود الموجودين فى المدينة فى أحد المعابد النادرة الباقية على حالها، ثم أشعل فيه النار. أما اليهود الآخرون الذين ألقى القبض عليهم مسلحين فقد تم بيعهم كعبيد، بسعر أقل من الجنود المسلمين إمعانًا فى إشعارهم بالدونية والإذلال.

عندما استقرت أوضاع المملكة المسيحية، لم يفرَض على اليهود أى ضرائب خاصة ولم يفرَض على من بقى منهم على قيد الحياة أى تمييز، بخلاف منعهم من الإقامة فى أورشليم. وسوف تظل مشاركتهم فى اقتصاد الممالك الصليبية هامشية.

فى جنوب أوروبا، أثارت الواقعة صدمة هائلة، لدرجة أن بعض الطوائف قد رحلت إلى المغرب وبعضها الآخر قد اشترط على الأمراء المسيحيين المسئولين عن حمايتهم ضمانات إضافية حتى تظل تحت وصايتها. على سبيل المثال، كان لابد لمدينة رجيو فى كالابر أن تضمن للطائفة اليهودية القاطنة فيها تعويضًا كاملًا فى حال تعرضها لاعتداء من أجل إجبارها على الرحيل.

لم يحد هذا من العنف الجارى شيئًا. فى ألمانيا وفى إنجلترا تزايدت وتيرة الاتهامات الموجهة لليهود بارتكاب جرائم تتنوع باطراد: أعداء المسيح، حلفاء للعرب المسلمين، مستفيدون من غياب الصليبيين، الذين اضطروا إلى حرمان عائلاتهم من ضروريات الحياة للوفاء بنفقات السفر، بينما يعيش أعداء المسيح فى بحبوحة ويُسر. كانت كل المناسبات صالحة لمصادرة ممتلكاتهم. فى عام ١١٣٠، أجبرهم ملك إنجلترا، هنرى الأول، الذى كان من المرحبين بهم فى البداية، على أن يدفعوا متضامنين غرامة قدرها ٢٠٠٠ جنيه لأن واحدًا منهم كان متهمًا بالقتل. عند وفاته، فى عام ١١٣٥، تصارع ورثاه بشأن أموال اليهود صراعًا مريرًا.

فى عام ١١٤٤، ابتكار جديد، اتُهِمَ يهود نورويتش **Norwich**، بقتل فتى صغير، عثر عليه ميتًا فى إحدى الغابات، حتى يشربوا دمه، وذلك فى ليلة الجمعة المقدسة. كانت تلك هى المرة الأولى التى يطلق فيها مثل الاتهام على اليهود منذ القدم. كان هذا الاتهام مقصورًا على المسيحيين المهرطقين. وبرغم تدخل بعض السلطات المحلية التى أثبتت أن موت الفتى قد جاء نتيجة لنوبة صرع، فإن بعض التجار اليهود، كان كثير منهم من مقرضى المزارعين، قد تعرضوا للقتل، وفرضت على آخرين غرامة مالية. صار الحماة لصوصًا.

فى عام ١١٤٦، أمام الصعوبات المالية والحربية التى واجهتها مملكة الصليبيين، دعا برنار دو كليرفو **Bernard de Clairvaux** إلى حملة صليبية ثانية ولكن مع النهى عن سلب أملاك اليهود. بالنسبة له، كما كان بالنسبة للقديس أوجستان **Saint Augustin** والقديس جريجوار الكبير **Saint Grégoire Legrand**، كان من الواجب حماية الشعب اليهودى

باعتباره شاهدًا و "مسئولًا" عن آلام السيد المسيح. لابد إذًا أن يظل على قيد الحياة ليتواصل التنديد به واتهامه بقتل الرب. ومع ذلك فقد دعاهم بعض الرهبان، خاصة فى جنوب ألمانيا، إلى تدمير الطوائف التى أعيد تكوينها بعد نصف قرن بالتحديد من المذابح الأولى. حث أحد الرهبان، المدعو راندولف على نهب اليهود فى ألمانيا وفى الألزاس. هنا أيضًا، كانت الاتهامات بقتل الإله بمثابة تشجيع على المذبحة. وفى هذا العام أيضًا، كان بيير الموقر **Pierre Le vénérable**، راعى دير كلونى **Cluny**، الغارق فى ديون تعاقد عليها مع مقرضين يهود والغاضب من رؤية أمتعة وأملاك كان يأمل فى تلقيها كتبرعات تؤول إلى اليهود وتصبح يهودية، يبث ضغينته ومرارته ضدهم. ندد فى مواعظه بالربا "عادة اليهود الوخيمة" التى يمكن أن تنتقل عدواها إلى الشعب الصالح. يجب أن يجردوا من كل شىء، كما كتب بوقاحة وتهكم إلى لويس السابع: "يجب أن يظلوا مكروهين ومنبوذين، على أنى لا أطالب بإعدامهم. من المناسب أن يجرى عقابهم بشكل يتناسب مع فسادهم. هل هناك عقاب أكثر ملائمة لهذا الشعب الدنىء من أن يجرد مما حصل عليه بالغش ومما سرقه بالظلم والجور(٣٠٩)؟"

بصورة متواضعة، بدأت الحملة الصليبية الثانية، التى قادها لويس السابع وكونراد الرابع، وذلك بالاستيلاء على بعض الجزر الإغريقية وقد انتهت على نحو يرثى له على أبواب دمشق. استؤنفت المذابح فى أوروبا، كانت تلك المرة بيد الشعب لا الأمراء. كان هذا ما جرى عام ١١٦٨ فى مدينة جلوسيستر **Gloucester**. ثم، فى عيد الفصح **Pâques** ١١٧٧، عندما اتهمت طائفة بلوا **Blois** بأكملها بشرب دم الأطفال- كانت تلك هى الحالة الثانية من هذا النوع بعد حادثة نورويتش- وقد أحرق أفرادها أحياءً. فى نفس ذلك العالم، أعلن صلاح الدين، ابن أيوب، الذى صار حاكمًا لمصر، الحرب ضد الفرنجة واستولى على دمشق، قبل أن يهزم فى مونجيزار **Mont gisard** عام ١١٧٧ ويفشل أمام أورشليم.

كان فيليب أغسطس **Philippe Auguste**، أول ملك أوروبى تواتيه فكرة طرد كل اليهود من مملكته. فى عام ١١٨٠، لدى وصوله إلى العرش، قرر أن يطردهم مع السماح لهم بأن يحملوا فقط ما يجلبه بيع أثاثهم. أمر بإغلاق مدرسة **(Yeshiva)** باريس، ثم،

مدفوعًا بحاجته إلى المال- خاصة للتحضير لحملة صليبية جديدة- سمح لهم بالبقاء فى مقابل فرض ضريبة إضافية: أوضح له رجال ماليته أن اليهود يجلبون كدافعى ضرائب، أكثر مما يجلبونه كمطرودين من أملاكهم.

سوف تستخدم نفس الطريقة فى العديد من المرات لاحقًا: أمر بالطرد يُرد بعد ذلك مقابل فدية. وهكذا سيكون اليهود على وشك الترحيل من فرنسا لست مرات متتالية خلال قرن من الزمان لم يغادروها أبدًا، لكنهم دائمًا ما كانوا يدفعون.

تواصلت المذابح، خاصة فى إنجلترا: فى دير مقبرة القديس إدمون عام ١١٨١ (أى بعد ثمانى سنوات من القرض السابق ذكره آنفًا)، فى مدينة بريستول **Bristol** عام ١١٨٣، وفى وينشستر **Winchester** عام ١١٩٢. لم يكن اليهود وحدهم هم من تطاردهم الكنيسة. فى الواقع، فإن هذه الأخيرة قد حملت أيضًا على المهرطقين: فى عام ١١٨٤، تم القضاء على الفودوايين **Les vodois**، بعدها جاء دور الكارثيين **Les Carthes** الذين ابتكر من أجلهم جهاز التفتيش الأسقفى، شرطة تتمتع بكل الصلاحيات، ومنها التعذيب: كل من لا يستنكر علنًا من المشكوك فيهم ما اقترفه، غالبًا ما يموت تحت التعذيب، من يتصالح مع الكنيسة يحكم عليه بالسجن مدى الحياة، ما كان يسمى عقوبة "الحائط"، من يعترف ويصر على البقاء على عقيدته المهرطقة (المرتدين) يُسَلم إلى السلطة المدنية ويحرق. أحيانًا ميتًا، وأحيانًا حيًا.

فى عام ١١٨٧، بعد خمسة عشر عامًا من المحاولات والجهود، أسقط صلاح الدين المملكة الصليبية، قضى على الفرسان (مثل رينو دو شاتيون- **Renaud de Chatillon**)، فتح بيروت وأورشليم، انتزع الصليب الموضوع فى قبة الصخرة وسمح لليهود مرة أخرى بالإقامة فيها[٨٥]. ولاسترجاع المدينة من أيدى المسلمين، أطلقت حملة صليبية ثالثة بواسطة أهم ملوك أوروبا الثلاثة، فردريك برباروسا، هنرى الثانى البلانتاجنتى وفيليب أغسطس. كان تمويلها فى كل مكان على عاتق اليهود بوضوح. فى عام ١١٨٨، قرر البرلمان الإنجليزى، المنعقد فى نورثامبتون **Northampton**، تمويل المغامرة الجديدة عن طريق انتزاع ضريبة قدرها ١٣٠٠٠٠ جنيه، استحق نصفها على اليهود بينما كانوا

لا يمثلون إلا ٠,٢٥٪ من السكان. لمواجهة هذه الضرائب وبسبب عمليات السلب التى تعرضوا لها، رفع المرابون اليهود معدلات فائدتهم، ما زاد من مشاعر الضيق منهم. فى الثالث من سبتمبر عام ١١٨٩، بعد موت هنرى الثانى، رفض خليفته ريتشارد ديستمنستر، اندلعت بعض حركات التمرد، وقتل فيها بعض اليهود. فى اليوم التالي، وضعهم الملك تحت حمايته: إن أموال أتباعه تؤول إليه، قال الملك باختصار مفسرًا تصرفه: من الواجب الحفاظ عليها!

فى عام ١١٩٠، عندما انطلق ريتشارد فى حملة صليبية، اعتدت مجموعة من البارونات المديونيين، يرأسها ريتشارد مالبيس **Richard Malebys**، على طائفة مدينة يورك **York**، التى لجأت فى ١٦ مارس إلى إحدى قلاع الملك التى هاجمتها الجماعة المذكورة مشعلة النار فى سجلات القروض المحفوظة فى الكاتدرائية. فى اليوم التالي، وبإيعاز من حاخام الطائفة، الرابى توم توف بن إسحاق **Tom tov Ben Issac**، قاومت الطائفة المحاصرة دون أسلحة تقريبًا، ثم انتحر أفرادها حتى لا يجبروا على اعتناق المسيحية وحتى يتجنبوا التعذيب. وقعت مذابح أخرى فى لندن، ومن جديد فى نورويتش.

استولى الفرسان على عكا. هُزم صلاح الدين. تعقّدت الحرب: يدور التفاوض بشأن أورشليم. ريتشارد يريد المدينة المقدسة، "إنها بالنسبة لنا، كما يقول، موضوع مقدس جليل لدرجة أننا لن نتخلى عنها مطلقًا، وإن لم يتبق منا غير رجل واحد[٨٥]". ويرد عليه صلاح الدين: "إنها أورشليم (القدس) تعود إلينا، بقدر ما تعود إليكم، بل إنها بالنسبة لنا أكثر قدسية أيضًا، إن نقطة انطلاق رسولنا فى رحلته الليلية (المعراج) وهى مكان تجمع أمتنا يوم القيامة[٨٥]". فى ١١٩١، كان اليهود أيضًا هم من فرض عليهم دفع الفدية الثقيلة التى طلبها ليوبولد **Lépold**، دوق النمسا، الذى أسر ريتشارد قلب الأسد فى طريق العودة وكانت مستحقاتهم هى ما تم إلغاؤها. وقعت معاهدة عام ١١٩٢، ترك بمقتضاها الساحل وعكا لصليبيى إمبراطورية الشرق اللاتينية، مع السماح لهم بالذهاب إلى أورشليم من أجل الصلاة، أما سوريا، أورشليم وفلسطين فعادت إلى صلاح الدين. بعد موته فى مصر عام ١١٩٣، انتقلت مصر إلى حكم عمه الملك الكامل.

لدى عودته إلى لندن، عام ١١٩٤، غاضبًا لأنه قد فقد، بتدمير سجلات القروض، الممتلكات التى ربما كان بإمكانه الحصول عليها من اليهود، قام ريتشارد بوضع نظام دقيق لحماية قروضهم حتى يتفادى أن يُفْقَد أثرُها فى حال قيام تمرد. كلف وكلاء تابعين للتاج بتسجيل كل الديون وإيداع ثلاث نسخ من السجلات فى خزائن. شَكَّلَ لجانًا مشتركة يترأسها ضابط ملكي وتتكون من أعيان من المسيحيين واليهود، يحتفظون بمفاتيح هذه الخزائن(٣٤). فى حالة عدم سداد الضرائب على عائد القروض، تطبق على الطوائف اليهودية عقوبات تتراوح بين السجن والموت، مرورًا بالتعذيب، مصادرة الممتلكات، النساء، الأطفال. أعلن بعض البارونات فى شمال فرنسا، حتى ذلك الوقت معتدلون، أنهم أحرار من ديونهم تجاه اليهود، وقبل الانطلاق فى حملات جديدة كانوا يقومون بسلب أملاكهم وطردهم من أراضيهم.

فى الـ La bull Sicut judeis– المرسوم البابوى بشأن اليهود، نهى البابا أنوسنت الثالث Innocent III المسيحيين عن سلب أملاك اليهود، تكدير أعيادهم، إجبارهم على القيام ببعض الأعمال، تدنيس مقابرهم أو "إخراج جثث موتاهم المدفونة بغرض ابتزاز أموالهم". واقع الأمر أن سلب ممتلكات اليهود لم يعد يجلب ما يكفى لتمويل الاحتياجات الهائلة: لم يعد الصليبيون يجدون حتى ما يكفى ليدفعوا لأهل البندقية تكاليف عبور بحر إيجة والبحر المتوسط. عرض عليهم الحاكم آنذاك (Le doge) أن يجندهم لاسقاط الإمبراطور البيزنطى لصالحه. فى ١٢٠٤، احتل الصليبيون، الذين صاروا مرتزقة، القسطنطينية مانحين بذلك أهل البندقية وجنوة فرصة افتتاح وكالات تجارية فى البحر الأسود، حيث عثروا هناك على تجار يهود. كانت الإمبراطورية اللاتينية الزائلة، محرومة من الدعم، قد دخلت مرحلة الموت، فى حين اكتشف الصليبيون فى القسطنطينية مباهج أسلوب الحياة البيزنطى، مرجع قديم لعصر النهضة الآتى.

فى أوروبا، ولحماية أنفسهم قليلًا، حاول اليهود تعميم فكرة تحرير عقود القروض كتابة. وفى نفس العام، احتج نفس البابا، أنوسنت الثالث لدى ملك فرنسا على هذا الإجراء:«إذا تمكن، أحيانًا، من يقترضون منهم المال بالربا (المسيحيون)، من تقديم شهود مسيحيين بحقيقة أنهم قد دفعوا ديونهم، لاكتسبت مزيدًا من المصداقية تلك الوثيقة،

التى، ربما، تركها المدين المسيحى إهمالًا لدى دائنه. وبما أن المسيحيين لا يستطيعون فى هذا الشأن الشهادة ضد اليهود، فإن هؤلاء الآخرين يحققون الثراء» استنكر البابا أيضًا تسامح ملك فرنسا الكبير بأكثر مما يجب تجاه جالياته اليهودية، التى تقرض هناك للنهب بصورة أقل من البلاد الأخرى، وغالبًا أغنياء بما يكفى لارتكاب خطأ بناء معابد جميلة للغاية: "ثم إن وقاحتهم تذهب بعيدًا (إننا نتكلم عن ذلك بخزى) لدرجة أن يهودًا فى مدينة سنس Sens، قد فرغوا لتوهم من تشييد، بالقرب من كنيسة قديمة، معبد قديم، معبدًا جديدًا، يفوق الكنيسة ارتفاعًا بكثير، يقيمون فيه صلواتهم تبعًا للطقوس اليهودية. وإنهم لا يقومون بذلك مثلما كان يحدث سابقًا قبل إبعادهم عن المملكة، أى بصورة سرية، ولكن وسط كثير من الضجة، دون أن يتورعوا عن التشويش على أقدس الطقوس التى تدور فى الكنيسة المجاورة(٦٠)"

فى كل مكان، تتواصل عمليات الابتزاز. فى ١٢١٠، قام جان (عديم الأرض(*)) Jean sans terre، الذى خلف أخاه ريتشارد قلب الأسد، بسجن مسئولى الطوائف وتعذيبهم ليحصل على ٦٦٠٠٠ مارك من الفضة. أمر على وجه الخصوص بأن يخلع كل يوم سن من أسنان كل ممثل ليهود بريستول الذين رفضوا دفع ١٠٠٠٠ مارك من الفضة. عند السن الثالثة دفعوا ما استطاعوا دفعه. فى عام ١٢١١، رحل ثلاثمائة يهودى فرنسى وإنجليزى ليستقروا فى عكا وفى أورشليم إلى جانب المسيحيين إلى جانب المسلمين. لقد صار من الصعب، بصورة متزايدة، أن نستخرج منهم ما لم يعودوا يملكونه.

كان عام ١٢١٥ عامًا تاريخيًا فاصلًا. فى إنجلترا، وقعت فيه وثيقة الماجنا كارتا La Magna Carta(**)، التى تعهد بمقتضاها الملك جان (Sans terre)، بعد الهزيمة فى بوفين Bouvines، عام ١٢١٤، ألا يفرض ضريبة بدون موافقة النبلاء ورجال الدين وبأن يسمح لكل الأجانب- بخاصة لليهود- بحرية التجارة. فى إيطاليا، قرر المجمع اللاترانى (نسبة

(*) هو خامس أبناء هنرى الثانى ملك إنجلترا.. (١١٦٧ - ١٢١٦). خلف أخاه ريتشارد قلب الأسد. أنجب هنرى (الثالث) وإيزابيلا.. (المترجم: عاصم)

(**) ميثاق الحريات الأعظم فى إنجلترا - وثيقة صدرت للمرة الأولى ١٢١٥م - ثم عدلت أحكامها وصارت قانونًا عامًا عام ١٢٢٥ (المترجم: عاصم).

إلى كاتدرائية يوحنا اللاتراني- مقر أسقف روما)، الذى عقده البابا أنوسنت الثالث، منع اليهود من الإقراض بالربا. وأكد أيضًا على تعريف استحالة القربان إلى جسد المسيح ودمه حقًا: خبز القربان هو جسد المسيح، النبيذ هو دمه. مرة أخرى، تداخلت رموز المال ورموز الدم واختلطت. ولاكتشاف المهرطقين بصورة أفضل، أجبر المجلس أيضًا كل المسيحيين على الاعتراف للكهنة مرة فى كل عام. بالنسبة لليهود، الذين صاروا مصدر خطر للكنيسة، كان الحل هو عزلهم: ممنوع عليهم شغل الوظائف العامة، استخدام امرأة مسيحية فى عمر الإنجاب، ممنوع عليهم الدخول إلى أى كنيسة، الخروج فى الشوارع فى أيام الأعياد المسيحية، العمل يوم الأحد، بناء معابد مرتفعة ومزخرفة. ولتمييزهم عن المسيحيين بصورة أفضل، ولتجنب أن يتسللوا إلى المدن لممارسة التجارة، فرض عليهم المجلس أن يحملوا علامة خاصة: فى البلاد الجرمانية، سوف تكون قبعة مخروطية الشكل، فى البلاد اللاتينية، سوف تكون الوصايا العشر أو دائرة من القماش الأصفر تحاك فوق ملابسهم (القرص) التى ترمز إلى قطع الذهب التى قبلها يهوذا- المال دائما! عهد إلى أحد المفتشين بملاحقة اليهود الذين لا يضعون هذه الشارة المميزة.

مثل التى سبقتها، لم تكن هذه المحظورات تطبق بالفعل. حتى عام ١٢٧٠، كان واحد وعشرون أمرًا مكتوبًا قد كررها، وكل مرة تحت طائلة غرامة مالية أوعقوبة جسدية. دائمًا تذهب سدى: بدت الشعوب غالبًا أكثر تسامحًا من حكامها واستمرت فى التعايش سويًا لأنها كانت تحتاج بعضها الآخر.

فى عام ١٢٢٣، بدأت حملة صليبية جديدة ضد المهرطقين: كان ابن فيليب أغسطس، الذى قاد الحملة ضد قوات ريمون دوتولوز الكاثارية قد وصل إلى سدة الحكم واعتلى عرش فرنسا، تحت اسم لويس الثامن. استولى على مقاطعة لانجدوك، قبل أن يلقى حتفه عام ١٢٢٦، فى طريق عودته من سَفِنز **Cévenes**. فى عام ١٢٢٩، حصل فردريك الثانى أميرهونستوفن من السلطان الكامل، على الحق فى دخول أورشليم. واستقر هناك. مطرودًا من الكنيسة فى ١٢٢٨، عاش حتى موته فى إيطاليا الحياة الناعمة المترفة لأمير شرقى. صارت فكرة الحروب الصليبية ذاتها أضحوكة تدعو للسخرية.

فى عام ١٢٣٢، تعرض هنرى الثالث ملك إنجلترا للنقد لأنه لم يفرض على اليهود ما يكفى من الضرائب. سيذكر أحد المؤرخين فى القرن التالى أن اليهود فى تلك الفترة قد كدسوا ثروات طائلة بفضل احتكارهم الإجبارى لمهنة البنوك[١٨٣]: "كان العرش يحميهم شريطة أن يؤول جزء من غنائمهم إلى خزائن الملك، كان بإمكانهم أن يدفعوه دون أن يغيروا أسلوب حياتهم المترف(...). كانت احتياجات المملكة، خلال ولاية هنرى الثالث، قد أبقت الملك فى وضع الاعتماد على اليهود حتى إنه بدلًا من مطاردتهم والتضييق عليهم، قد بنى لهم منازل لإيواء المتحولين إلى المسيحية، حيث يدفع لقدامى اليهود المقيمين فيها معاشات شهرية. قام البارونات، غاضبين من هذا التحالف بين الملك واليهود، بالقضاء على رجال الملك واليهود معًا".

فى عام ١٢٣٥، أدان جريجوار التاسع الاعتداءات المقترفة ضد اليهود تحت ولاية لويس الثامن... أى قبل خمسة عشر عامًا! فى عام ١٢٣٩، حصل النبلاء والتجار من دوق برتانى،جان لورو، على الأمر بإعاد القلة الباقية من الحرفيين اليهود عن البروفانس، كان هذا الإجراء يحررهم بطبيعة الحال من الديون. فى مدينة روان Rouen، تعرض اليهود الذين لم يلحقوا بالإنجليز لنفس الحوادث المؤسفة. فى ١٢٤٠، ألزم مجلس مدينة ليون الكنسى وبكل وضوح كل الأمراء المسيحيين، وتحت طائلة الطرد من الكنيسة، بإجبار اليهود التابعين لهم على "أن يسلموا إلى فرسان الصليب الأموال التى تحصلوا عليها عن طريق الفائدة."

استخدمت فى ذلك الوقت كل الوسائل لانتزاع أملاكهم. فى عام ١٢٤١، فى عصر الإمبراطورية، تحت ولاية فردريك الثانى، عثر فى آجونو Haguenau على ثلاثة أطفال موتى، انفجر غضب الدهماء. إزاء هذا التهديد، حصلت الطائفة اليهودية على حماية الإمبراطور لقاء مبلغ طائل: يدور الهمس بأن الإمبراطور قد أثار إحداهما (الدهماء) ليبتز الأخرى (الطائفة). قتل ثلاثة أرباع يهود فرانكفورت– حوالى ألف نسمة– لاتهامهم بالتحالف مع الغزاة المنغوليين الافتراضيين وبنقل الطاعون، دفع الربع الباقى ثمن بقائهم على قيد الحياة، غاليًا.

كانت الكنيسة تحبذ سلب أملاك اليهود، لكنها كانت لا ترغب في القضاء عليهم: ولهذا كانت لا تزال تدعي حمايتهم، بعد أن عزلتهم واحتجزتهم، بعد أن حرضت على كراهيتهم، وعلى عدم سداد مستحقاتهم. في عام ١٢٤٧، اعترض البابا أنوسنت الرابع، كما فعل جريجوار التاسع، منذ اثني عشر عامًا، على الاتهامات، باقتراف جرائم دينية طقسية، موجهة ضدهم وضد "عمليات النهب". وكتب إلى أساقفة فرنسا وألمانيا: "إن بعض رجال الكنيسة، الأمراء، النبلاء وكبار السادة الإقطاعيين في مدننا وإبراشياتنا، قد وضعوا بعض الخطط التي حاكها الشيطان ضد اليهود، لحرمانهم قسرًا من ممتلكاتهم ولاتهامهم زورًا بالاشتراك في أكل قلب طفل مقتول، في باين Paynes، ولأنه من دواعي سرورنا أن يُتركوا وشأنهم، فإننا نأمر بأن يلقوا معاملة ودية. وإن نما إلى علمكم تعرضهم لأي اعتداء ظالم، أعيدوا الأوضاع إلى نصابها، استدركوا المظالم التي وقعوا ضحايا لها ولا تسمحوا بتكرارها مستقبلًا." أمر بابوي سيظل بلا أثر وإن استحق أن ينفذ.

في نفس العام، في إنجلترا، وهذه المرة تحت الاتهام بتزوير العملة، فرض على اليهود ضريبة قدرها ٢٠٠٠٠ مارك من الفضة، كان ذلك مناسبة داعية لاجتماع كل رؤساء طوائف المملكة، في مدينة ورسيستر Worcester، ليتقاسموا المبلغ المطلوب. حكم الملك على أرون دو يورك Aaron de York، أكبر مصرفي يهودي في البلاد، أن يدفع بمفرده أولًا ٤٠٠٠ مارك ذهبي، إضافة إلى ١٤٠٠ مارك فضي. ينسب إلى الجميع ثروات لا تنضب، غير أن، الملك قد أمر بإجراء تحقيق موسع، في العام التالي، أظهر أن معظمهم كانوا تقريبًا من الفقراء، وأنهم إن كانوا يقرضون فقد كان ذلك أساسًا إلى أناس فقراء وبمبالغ زهيدة.

في عام ١٢٤٨، قبل الخروج في حملة صليبية جديدة، استدعى لويس التاسع مجلس مدينة ملن Melun الكنسي، منع المسيحيين من الاقتراض من اليهود- ربما كنا قد استطعنا البدء من هنا!- ومنع اليهود من الاتجار مع المسيحيين. فرض على اليهود أن يضعوا شارة (دائرة صفراء). كانت حملته الصليبية بعد ذلك سلسلة طويلة من المغامرات والأسفار (أوديسة): استولى على دمياط، في مصر، قبل أن يقع في الأسر في طريقه إلى القاهرة، بينما أزاح المماليك — جنود مجلوبون من أصول شركسية — أسرة صلاح الدين

عن الحكم. أثناء فترة أسره، عام ١٢٥٣، قدرت والدته، الوصية على العرش، أن تطرد كل اليهود من ولاياتها، ثم، كما فعل كثير من الحكام، اختارت أن تجبرهم على دفع جزء من الفدية الهائلة- ٤٠٠٠٠٠ ألف جنيه- المطالَب بها لتحرير الملك. لدى عودته، قرر من سيصبح القديس لويس لاحقًا، تعبيرًا عن امتنانه تجاه من أتاحوا له العودة حيًا... أن يطردهم! أما أنوسنت الرابع، الذى لم يستمر عطفه على اليهود طويلًا، فقد كتب إلى الملك مهنئًا مادحًا تصرفه وكما لو كان يعتذر عن تخاذله السابق: "لأننا قد علمنا أنهم لا يمتثلون للقوانين التى أصدرناها". ومع ذلك، تمكن اليهود من البقاء مقابل سداد ضريبة إضافية.

فى إنجلترا، كان الملك هنرى الثالث يبحث دائمًا عن المال ليشن حروبه ففرض على اليهود الإنجليز من جديد ضريبة أخرى، كان قدرها هذه المرة ٨٠٠٠ مارك من الفضة. ولما كانوا غير قادرين على السداد، فقد قام ببيعهم- كانوا حوالى عشرة آلاف- إلى أخيه ريشار دو كورنوى **Richard de Cornouilles**، الابن الثانى لجان عديم الأرض. فى ١٢٥٥، اتهموا مرة أخرى بقتل طفل، كان يدعى هوج دو لانكولن **Hugues de Lincoln**، ليشربوا دمه، كان اكتشاف جثته، بعد ستة وعشرين يومًا، قريبًا من مكان زواج أحد الحاخامات، مناسبة لقتل مائة من اليهود.

فى عام ١٢٦٠، غادر الرابى يائيل **Yehiel**، الذى شهد بعينيه إحراق التلمود، فرنسا ليذهب إلى مدينة عكا ويؤسس هناك مدرسة تلمودية.

منع لويس التاسع، من جديد، يهود فرنسا من تملك الأراضى. ونقل أملاكهم من خلال التوريث وكذلك من إقراض النقود بفوائد. لكن مستشاريه، كما يقول جيوم دو شارتر **Gauillaume de chartre**، لفتوا نظره إلى الأهمية المتعاظمة للائتمان لتسيير اقتصاد المملكة، "حيث إنه من الأفضل احتمال المرابين اليهود، الملعونين بالفعل من قبل، بدلًا من ترك المسيحيين يقترفون هذه الخطيئة[٢٤٠]". رد لويس إنه لا يستطيع التسامح مع "هذا السم الذى يقوض المملكة" كان يريد حث اليهود على أن يصبحوا حرفيين، لكنه تراجع أمام معارضة النقابات الحرفية المسيحية، وتحدث مجددًا عن طردهم عندما كان يحتضر، عام ١٢٧٠، أمام سواحل تونس.

انتهت الحملات الصليبية، حتى وإن كان لابد من الانتظار حتى عام ١٢٩١، حتى يستولى المماليك على عكا وينتهوا من المملكة الصليبية الصغيرة.

كان المنتصر الحقيقى الوحيد هو فينسيا: كانت صاحبة السمو قد قامت ببناء السفن الضخمة التى أوصلت الصليبيين، فى وقت ما، كانت لها السيطرة على القسطنطينية والمراكز التجارية فى البحر الأسود، وتمرست فى تقنيات الشرق فى تصنيع وصباغة المنسوجات القطنية والحريرية (الكاملوت، البروكار، الدمقس)، وكذلك فى فنون صناعة الزجاج، وسيطرت على جزء من حركة التجارة فى بعض موانئ البحر المتوسط: بيزا، جنوة، مارسيليا، ناربون، سيت، تحالف تجارها مع التجار اليهود واستفادوا من شبكتهم التجارية فى البلقان والبلدان الإسلامية فى جلب منتجات جديدة شغف بها الأوروبيون: التمور، الموز، الورد، الحنة، السَنا، الزنبق، النيلة، الفلفل، القرنفل، الزنجبيل، الفانيليا، الزعفران، الكركم، الكمون، الينسون...

أتت القروض الأولى أُكُلها: أصبح الاقتصاد مستعدًا للانطلاق تحت ضغط حاجات جديدة. قام اليهود بالمجازفات الأساسية. صارت مهنة المصرفى أقل خطورة ومغامرة. لم يعد هناك إذًا حاجة لليهود.

٣- المال بدون يهود (١٢٦٠- ١٤٩٢)

مصرفيون جُدد

أمام مثل هذا الطلب المتنامى، ثار كثير من المسيحيين لعدم قدرتهم على مزاولة مهنة مربحة ومفيدة كهذه المهنة. لم تعد الكنيسة قادرة على تبرير منع استثمار الأموال ولا على إخراج المقترضين والصيارفة، مع الحواة والممثلين والعاهرات، من بين المهن المؤدية إلى الجحيم. انتقلت من "التسامح والتواطؤ مع النظام الإقطاعى إلى التسامح والتواطؤ مع الرأسمالية"، إنها تنجو بنفسها فى الرأسمالية: صارت البورصة هى حياتها(٢٣٩)".

ابتعدت أولًا عن مفهوم مثالية الفقر قليلًا وتركت الانطباع بأن الرغبة فى المكافآت والجوائز الأرضية لا تتعارض تمامًا مع الأخلاق. بشرط، أن تقدم للكنيسة وأن يكتفى المرء بالعفاف والزهد والكفاف وبعبارة أخرى الادخار بكل معنى الكلمة. وكما أشار لويس ممفورد Lewis Mumford[٢٨٧]، إن الكنيسة تحول شيئًا فشيئًا خمسًا من أصل سبع خطايا كبرى (البخل، الكبرياء، الرغبة، النهم، الطمع) إلى قيم إيجابية. استمر النهى عن الترف و الكسل.

رأى بعض الحقوقيين أن التقنين الرومانى أكثر ثراءً من التشريع الكنسى، أخرجوا من خزائنهم قانون جوستنيان المنسي منذ عدة قرون. سمحوا من جديد بالقروض الربوية، على الأقل فيما يخص التجارة البحرية والوفاء بالمخاطرة التى تتعرض لها. بالرغم من المجالس الكنسية والمحرومين كنسيًا، فإن بعض العلمانيين المسيحيين وحتى الأديرة، القساوسة والأساقفة لم يتوقفوا أبدًا عن ممارستهم أجمعين لتجارة المال والعمل بمجال التسليف.[٢٣٩] قامت بعض الأديرة بالإقراض بفوائد من أموال الهبات والعطايا التى يتبرع بها إليها[١٥٩]. هكذا قدم راعى دير القديس مارتان فى بونتواز Pontoise قرضًا قيمته ٦٠ جنيهًا إلى المدعو جيوم المقيم فى ميلو Mello، محتفظًا بإقطاعيته الصغيرة فى بيرفيل Berville كرهن قبل سفره فى حملة صليبية عام ١١٥٧. أصبحت جمعية فرسان المعبد مقرضًا مهمًا مثلما كانت جمعية الرهبان التوتونية واحدًا من أهم تجار الصوف فى أوروبا.

غير أن ذلك لم يكن كافيًا: كان لابد لهذه القروض الربوية بين المسيحيين أن تظل حذرة، بل سرية ولم تكن تستطيع أن تفى بالاحتياجات الهائلة التى أوجدتها اليقظة الاقتصادية فى أوروبا.

فى عام ١١٧٩، لم يعد المجمع البابوى الثالث فى لاتران Latran يقلق بشأن الربا "الواضح"، أى القروض ذات معدلات الفائدة "الجائرة". ارتأى المجمع حينها أن نسبة ٣٣٪ سنويًا ربما كانت، فى بعض الحالات، حدًا أقصى مقبولًا لسعر الفائدة على النقود. ولإبعاد اليهود أكثر، قرر المجلس أن شهادة أحد المسيحيين تفوق قيمة أى عقد مبرم كتابةً

مع أحد اليهود. فى ١٢١٥، أقر المجمع البابوى الرابع، بشىء من النفاق، أن إقراض المال من أحد المسيحيين إلى آخر يمكن أن يدر مالًا إن كان على صورة مكافأة للتأخير فى سداد القرض، أو أجرِ عن عمل المصرفى أو المحاسب، أو أيضًا ثمنًا للمخاطرة بفقدان المال المقتَرض. وظل الربا "الخطير والفاحش" فى المقابل محرمًا على المسيحيين[٢٣٧]. سوف يؤدى ذلك إلى ظهور بعض رجال البنوك (الممولين) المسيحيين الذين سوف يرفعون من حجم الائتمان المتاح.

غير أن النقود ظلت نادرة للغاية؛ واصلت المعدلات السنوية تجاوز الـ ٤٠٪ بصورة عامة. فيما بين نهرى الران واللوار، تراوحت بين ٣٠٪ و ٦٠٪. فى إنجلترا، كان من الممكن أن ترتفع إلى ٨٠٪، بل و ١٠٠٪. حاول الأمراء وقتها احتواءها وكبح جماحها. فى عام ١٢١٨، حدد مرسوم ملكى فرنسى سعر الفائدة على النقود بدينارين عن كل جنيه وذلك أسبوعيًا (أى حوالى ٤٣,٣٣٪ سنويًا). فى ١٢٢٨، حدد جاك الأول– ملك أراجون Jaques I d'aragon سعر الفائدة بـ ٢٠٪ للأجل القصير ومنع القروض المركبة. عام ١٢٥٥، خلال اجتماع مجلس اتحاد المدن الراينلاندية، حُدد السعر القانونى للفائدة فى الآجال القصيرة بـ ٢ دينار عن كل جنيه وذلك أسبوعيًا، أى ٤٣,٣٣٪ سنويًا وحدد بأن ٣٣,٥٪ بالنسبة للآجال الطويلة.

ظهر بعض التجار الإيطاليين، وسطاء فى المنتجات الزراعية ثم مقرضين للمال، فى ثلاثة أماكن، فينيسيا، جنوة، فلورانسا[٦٩]. انطبقت عليهم ثلاثة أشكال للرأسمالية[١٧]: رأسمالية الدولة، رأسمالية المغامرة، الرأسمالية العائلية.

مع الحملات الصليبية، أخذت فينيسيا دور القسطنطينية كوسيط متميز بين الشرق والغرب. ابتداءً من الآن سوف تمر بها معظم التوابل، الحرير، القطن التى يستهلكها الغرب، كانت تبادلها بمطرزات الفلاندرو الفضة المستخرجة من مناجم نورمبرج. فى عام ١٢٥٢، استقر بعض التجار اليهود على جزيرة سباينلونجا Spinalonga، التى أصبح

اسمها جيودكا La Giudecca[٧٥]. صار معظمهم تجارًا، رجال تأمين، أحيانًا مقرضين وانضموا إلى الصيارفة الذى كانوا يتنقّلون ويتاجرون على الريالتو (*) Rialto.

فى جنوة، كان بعض التجار والقراصنة يستوردون منذ قرون المنتجات الزراعية ومنتجات المناجم فى شمال أوروبا، منسوجات أوروبا الوسطى ومنتجات إيطاليا الزجاجية: كانوا يبادلونها بالذهب الآتى من السنغال والنيجر، والملح والنحاس من الصحراء، العبيد، الأخشاب، والأسلحة من شرق إفريقيا[٦٩]. كانت صراعاتهم مع المسلمين العرب قد بعثت فيهم حب المخاطرة والتوق إلى المجد. لتمويل هذه التجارة وإعداد وتجهيز سفنهم، ظهرت "الشركة البحرية" (المعروفة لدى البحارة الفينيقيين، اليهود، اليونانيين منذ خمسة عشر قرنًا، حيث يتشارك بعض التجار فى شراء سفينة ما، ويكون الثمن مقسمًا إلى أسهم مجردة) و "الطلبية" (حيث تتجمع رؤوس أموال من العديد من التجار لتمويل عمليات حرفية أو صناعية[١٧]. حتى يُتاح للتجار عدم حمل مبالغ ضخمة جدًا من الأموال أثناء ترحالهم، أعادوا اكتشاف السندات (الكمبيالات) التى مارس اليهود التعامل بها منذ أكثر من قرنين فى مصر.

أخيرًا، فى فلورنسا، صار تجار الحبوب والصوف رجال بنوك وممولين للأمراء. يتسلمون ودائع، يقومون بالسداد لحساب عملائهم، تحويلات ومقاصات من فرع إلى آخر. من بينهم، كانت هناك عائلات كبرى تقوم أيضًا بإقراض جهات أجنبية مثل آل باردى Les Bardi، آل ريكاردى les Riccardi، آل بيروزى les peruzzy، وآل فريسكو بالدى les Frescobaldi، وتوجهت هذه القروض إلى البلانتاجنت فى إنجلترا بصورة خاصة (قدم إليهم آل ريكاردى ٤٠٠٠٠٠ جنيه وقدم آل فريسكو بالدى ١٢٢٠٠٠) وقد استقرت هذه العائلات فى بروج ثم فى أنفرس Bruges- Anvers

(*) الريالتو، هو جسر الريالتو الشهير – فى فينيسيا – الذى يعبر القناة الكبرى – والواقع فى منطقة الريالتو قلب فينيسيا المالى والتجارى فى تلك الفترة حيث تتواجد البنوك ووكالات التأمين. (المترجم : عاصم)

في نهاية القرن الثالث عشر، تطور الائتمان كذلك بما يكفى فى إيطاليا لتنخفض أسعار الفائدة إلى ٢٥٪. وجدت الكنيسة مصلحتها فى ذلك عبر إشراكها هؤلاء المولين فى عملياتها. إنها لم تتخلص من اليهود بسبب ذلك. كانوا لا يزالون كثرٌ يواصلون إقراض التجار وحتى الكنيسة ذاتها: بعد نصف قرن من المجمع البابوى الرابع فى لاتران، عام ١٢٦٧، لاحظ مجمع فيينا أيضًا أن القروض اليهودية تتحول إلى رهون لممتلكات كانت الكنيسة تضع عينها عليها، وأنهم (اليهود) قد تزايدوا كثيرًا وصاروا نافذين لدرجة أن موارد الكنيسة قد تعرضت لانخفاض كبير: سرعان ما استخلص الاستنتاج: لابد من طردهم!

تغيير الذاكرة (١٢٦٠- ١٣٠٠)

فى ذلك الوقت كان الشرق يبتعد عن الغرب. اختارت الكنيسة بشكل نهائى روما لتكون مركزًا لها. التصوير، الموسيقى، الآداب تصبغ بالطابع الغربى، لغة الخطاب، السلوكيات والأسماء. أصبح المسيح ومريم العذراء شقراوين. اختير الشعب اليهودى، الشاهد على الأصل الشرقى للمسيح وعلى فشل الحملات الصليبية، ليكون تجسيدًا لكل الشرور فى اللوحات الفنية، الآداب، المسرح الدينى.

ونظرًا لأن الطوائف اليهودية لم تعد ضرورة اقتصادية، فقد بدأ تهديدهم وإبعادهم من كل الممالك المسيحية الكبرى. سيستغرق هذا الرحيل فى الواقع أكثر من قرنين، فى غضون ذلك، سوف تتخذ عشرات القرارات بترحيلهم ثم سيجرى إلغاؤها، فالجاليات اليهودية تجلب من الأموال عن طريق الضرائب والإتاوات التى تدفعها أكثر مما يجلبه سلبها نهائيًا.

وحتى إن كان جريجوار العاشر **XGrégoire** قد أمر بحماية أشخاص اليهود وممتلكاتهم فى كل البلاد، وحتى إن كان فيليب الثالث **Philipe III**، الشجاع، قد استعان بهم من أجل "إنعاش التجارة، تنظيم تداول الأموال ووضع حد لاستنزاف الموارد المالية"[٦٧]. ها هى ما بدت أول قرارات الإبعاد. فى عام ١٢٧٢، أغلقت معابد لندن

اليهودية، وأصبحت ممارسة الديانة اليهودية محظورة فى إنجلترا. أصدر إدوارد الأول Edouard I، مرسومًا ملكيًا يمنع الإقراض بالربا. مثل العاهل الفرنسي، صرح لهم ملك إنجلترا بأن يصيروا حرفيين، لكن دون أن يفتح لهم النقابات والاتحادات العمالية الأمر الذى أعاقهم عن الاشتغال بشيء آخر، كما حدث فى فرنسا، غير مهنة الإقراض حتى يمكنهم العيش. مناسبة طيبة لإعدام بعض المرابين اليهود شنقًا: فى عام ١٢٧٨، تم توقيف ٦٨٠ مرابيًا يهوديًا وإعدامهم شنقًا فى برج لندن؛ فى ١٢٨٠، تعرض ٢٩٣ لنفس المصير. أمام استحالة العثور على مصدر آخر للعيش لمن بقى منهم على قيد الحياة وأمام الحاجة إلى الائتمان، أباح لهم التاج الإقراض مرة أخرى لمدة أربع سنوات، ثم جدد هذا التأجيل. فى عام ١٢٨٧، لدى عودته من الشرق، ثار إدوارد الأول غضبًا عندما وجد أن قراره بطرد اليهود لم يطبق، فقرر مصادرة آخر البيوت اليهودية الكبيرة لصالحه، فرض ضرائب على أملاكهم المنقولة ومنعهم من التصرف فى الرهون. استعد الكثيرون للرحيل وشرعوا فى بيع ممتلكاتهم، اتهموا حينذاك بالرغبة فى إخفاء ما كان فى حوزتهم، لقد أثاروا بالأحرى الغيرة. كان الطرد الجماعى وشيكًا.

لقد بدأ فى عام ١٢٨٨، بطرد يهود نابولى، الذين كان كلهم تقريبًا من أصل ألمانى. قبل الكثير باعتناق المسيحية حتى يتمكنوا من البقاء. بعد ذلك بعامين، فى ١٢٩٠، قرر إدوارد الأول إقصاء الخمسة عشر ألف يهودى الذين لا يزالون يعيشون فى إنجلترا. ظل البعض متواجدًا، مخفيًا الاسم والهوية، هاجر الآخرون نحو ألمانيا، بوهيميا، المجر، بولندا، وحتى إلى فرنسا – فى روان وبوردو على وجه الخصوص – حيث لم يكن الوضع أفضل. فى مطلع العام، ذاعت فى باريس تلك القصة[١٧٥]: كان أحد مرابىّ شارع دى بييت Rue des billettes قد أقرض على ما يبدو إحدى العاهرات ثلاثين مليمًا (عدد دنانير يهوذا) وأخذ أجمل أثوابها رهنًا. فى عشية الفصح، ستكون المرأة قد جاءت تعرض على المرابى إبدال الثوب المرهون لقاء خبز قربان كانت قد سرقته من إحدى الكنائس، وافق المرابى، بل إنه قد تغاضى عن الدين، معتبرًا أن خبز القربان كان يساوى أكثر من ثلاثين مليمًا. ووفقًا لما تقوله الشائعة، "غرز المرابى حينها مديته فى الخبز، لكن، ولدهشة الجميع، سال دم المخلّص من القربان". تم القبض على المرابى وأسرته بكاملها وتم

عرضهم أمام محكمة الأسقف الذى، "كى يستخلص العبرة من المعجزة، عرض عليهم اعتناق المسيحية". غير أن "المجدف، الطماع، العنيد" قد رفض الاقتراح، بينما قبلت به الزوجة والأطفال، اقتيد المرابى إلى منصة الإعدام وأُحرِقَ حيًا"، "بالرغم من ادعائه بأن كتابًا كان بحوزته سوف ينقذ حياته. أقيمت كنيسة صغيرة فى موقع المعجزة(١٧٥)".

فى الثامن عشر من يوليو من نفس العام، قرر ملك فرنسا طرد حوالى مائة ألف يهودى من المملكة، إجراء سوف يحوله مرة أخرى، بعدها بقليل، إلى مجرد مصادرة لممتلكاتهم.

فى عام ١٢٩٤، طُرِدَ أيضًا كل يهود مدينة برن **Berne**، المتهمين بقتل طفل صغير، بعد قرنين ونصف من الزمان، أقيمت نافورة فى ميدان لاجونيت **La grenette**، سميت بنافورة آكل الأطفال، كانت تمثل غولًا يعتمر قبعة صفراء مخروطية وقد أدخل طفلًا فى سلة بينما كان يلتهم آخر. لا تزال تلك النافورة قائمة إلى اليوم.

فى عام ١٢٩٨، قام أحد النبلاء الألمان، ريندفليش **Rindfleish**، المعروف بـ "قاتل اليهود"، بتجميع جيش صغير، قام فى خلال ستة شهور، بالقضاء على أغلب اليهود المقيمين فى مدن الأسواق الموسمية، فى فابرج، رايتسبون، نورفبرج، أرجوسبورج، هيلبرون وروتيجن فى بافاريا والذين كانوا حوالى مائة ألف(١٢٩). لقد كانت تلك أكبر المذابح التى ارتكبت بحقهم حتى ذلك الوقت فى تاريخ يهود أوروبا، بل أكبر أيضًا من مذبحة الحملة الصليبية الأولى، التى دارت بعد قرنين تحديدًا وتحديدًا فى نفس المكان.

فى عام ١٣٠٦، كان فيليب الرابع – الوسيم – **Le bel** لا يزال فى حاجة إلى المال، بعد حربه مع الفلامنك. فى نفس الوقت أمر بسجن فرسان الهيكل ورجال البنوك اللومبارديين حتى يصادر أملاكهم، فقرر، كما فعل ذلك من قبل خمسة عشر عامًا، طرد هؤلاء اليهود الذين لا يريدون اعتناق المسيحية. فى تلك المرة، كان جادًا: لا مجال لهم، كما يبدو، فى شراء حق البقاء. صُرِحَ لهم بالاحتفاظ بملابسهم التى عليهم فقط وحمل طعام يوم واحد فقط: بدأت العملية؛ ثم سارت ببطء: عثر أيضًا، ما بين ١٣٠٧، ١٣١٠، على العديد من وثائق بيع ممتلكات اليهود بأدنى الأسعار. ثم أُجِّلَ القرار من جديد، فى عام ١٣١١، كان لا يزال بإمكان اليهود البقاء، لكن بدون استعادة ممتلكاتهم.

النهضــة

عبر الطاعون الكبير

فى بدية القرن الرابع عشر، تزايدت الاحتياجات فى أوروبا إلى الائتمان وإلى دور رجال البنوك وذلك بسبب القفزة الاقتصادية التى تحققت وبسبب ارتفاع الأسعار. فى فلورنسا، يقوم آل فريسكو بالدى، وآل باردى، آل بيورتزى- اللومبارديون - الآن بكل الأعمال المصرفية: تغيير العملات، التحويلات، السداد من مكان لآخر، إقراض الباباوات، الملوك، الأمراء، حكومات المدن، التى يقومون بتحصيل مواردها وتقديم استشاراتهم لها فى الشئون المالية[١٦٧]. وبما أن مهنة البنك (المصرف) قد ظلت محظورة على المسيحيين بأمر الكنيسة، فإن اللومبارديين قد زعموا أنهم يمارسون التجارة فقط، وأنهم لا يعرفون أن ما يضيفه المدينيون إلى قيمة الدين عند السداد يسمى "فائدة"[٣١١]... عمل الكثير منهم فى بروج **Bruges**، أنفرس **Anvers** وفى إنجلترا، حيث حلوا محل اليهود (الذين حصلوا عليه، يومًا ما كرهن لقرض منح إلى الملك!). هكذا قدم آل فريسكوبالدى إلى إدوارد الثانى المال الضرورى لتمويل حربه ضد أسكتلندا[٣٥٤]، موّل آل باردى وآل بيورتزى حملات إدوارد الثالث على فرنسا أثناء حرب المائة عام، حاصلين على الصوف الإنجليزى كرهن والذى سيكون مصدر ثراء معامل النسيج فى فلورنسا: صار القرض آنذاك صورة من صور البيع بأسعار مخفضة. فى عام ١٣١٨، بلغت ثروة آل باردى ٨٧٥٠٠٠ فلورين، أى ما يعادل ميزانية عميلهم الأهم، الملك إدوارد الثانى[٣٥٤].

ثم جاء الانهيار فجأة: فى ١٣٤٥، كان هنرى الثالث غير قادر على سداد مبلغ ٩٠٠٠٠٠ ألف فلورين كان يدين بها إلى آل باردى إضافة إلى ٦٠٠٠٠٠ ألف فلورين أخرى كان قد اقترضها من آل بيورتزى[٣٥٤]. مبالغ طائلة! إفلاس رجال المال فى لومبارديا الذى أطاح بمركز فلورنسا المصرفى لصالح مركز كل من جنوة وفينيسيا (البندقية)[١٧٦].

هكذا ظل المرابون اليهود فى منتهى الأهمية، على الرغم من انتهاء الحملات الصليبية. لم تنفذ بالفعل أى عمليات طرد جماعى. تواجدت باستمرار بعض المدارس التلمودية فى

مدينة سنس Sens، فى فاليز Falaise وفى تروى Troyes، خرّجت الكثير من المعلمين الدينيين اليهود. طولّب اليهود فى كل مكان بالاستمرار فى إقراض المزارعين والحرفيين. فى زيورخ، ألزمهم مرسوم ملكى، فى عام ١٣٠٩، حتى بإقراض أغنياء المدينة باستخدام معدل فائدة يحدده مجلس المدينة، وقد كان ذلك من جهة أخرى من خلال حصيلة بيع الملابس المرهونة لديهم، مصدر الدخل الوحيد المسموح به لهم. فى فرنسا، سرعان ما أهمل أمر مرسوم طرد اليهود الصادر عام ١٣٠٦، على أى حال بالنسبة للمقرضين، لأنه ابتداءً من عام ١٣١١، كان وريث التاج قد منح بعض البارونات الحق فى أن يضعوا تحت ولا يتهم القضائية بعض "اللومبارديين، اليهود والمرابين الآخرين[٦١]". فى عام ١٣١٥، بعد أن أصبح لويس العاشر، أكد حقهم فى الإقامة، مبدئيًا لمدة اثنى عشر عامًا. فى نفس العام، بسبب مطالبة الجماهير بشكل عام، استدعى العاهل الإنجليزى اليهود الذين قام بطردهم منذ خمسة وعشرين عامًا خلت. فى عام ١٣١٧، فى مارسيليا، شهد فى صالح المدعو بوندافان Bondavin– يهودى من مدينة دراجوينيان Draguignan عشرون شاهدًا مسيحيًا[٢٨٢]. كان هذا الهدوء قصير الأجل: فى عام ١٣٢٠، قام أربعون ألفًا من صغار الرعاة، المزارعين والثائرين بالقضاء على اليهود الذين صادفوهم فى طريقهم– كان ذلك أحد اهتماماتهم المفضلة – خاصة فى مدينة بوردو. فى عام ١٣٢١، طالبت بعض بلديات دائرة عدل مدينة كاركسون Carcasonne فيليب الرابع، الطويل، بطرد آخر اليهود المتواجدين فى المدينة، المتهمين باغتصاب بعض المدينات لهم المسيحيات. فى نفس العام، وضع يهود روما، المهددون بالطرد من جان الثانى والعشرين Jeanxxıı، المقيم فى أفنيون، تحت حماية روبير دانجو Robert d'Anjou، النائب الرسولى العام للولايات البابوية. فى عام ١٣٣٧، تعرض يهود بوردو مرة أخرى لمذابح جديدة لأنهم قد دنسوا خبز القربان، كما جرى ذلك لليهود فى بوهيميا، فى مورافيا، فى النمسا. فى عام ١٣٣٩، قامت عصابات من الأشقياء، كانوا يصفون أنفسهم بأنهم "قتلة اليهود" بالقضاء على بعض جاليات اليهود فى الألزاس وفى فرانكونيا Franconia.

فى كل مكان فى أوروبا، اتهم اليهود من جديد بتسميم الآبار، هذه المرة بالتواطؤ مع مرضى الجذام. انتشرت الشائعة سريعًا، المال والمرض. كلاهما ينتقل، مثل الدماء، ويختلطان فى أذهان الجماهير. دم، مرض، مال؟ ها هو الطاعون الأسود قادم.

فى عام ١٣٤٦، أدخلت سفينة قادمة من كافا **Caffa**، مركز تجارى تابع لجنوة فى البحر الأسود يحاصره المغول، إلى فينيسيا مرض مروع: الطاعون(٦٩). أودى المرض بحياة نصف سكان المدينة وانتشر فى أوروبا بسرعة هائلة، بطول الطريق المؤدى إلى الرينلاند **La Rhénanie**(*) باتجاه بحر الشمال.

حتى وإن كان الأطباء اليهود والمسيحيون قد ناضلوا سويًا– بوسائل تلك الفترة المتواضعة– من أجل إنقاذ حياة الناس، فقد استنكر بعض القساوسة على الفور "عملًا شيطانيًا" يدبره اليهود للقضاء على الديانة المسيحية بتسميم الهواء والماء. يدور الحديث عن مؤامرة حيكت خيوطها فى طليطلة بواسطة حاخام يدعى بيرات **Peyrat**، كان مركز قيادته فى شامبرى **Chambery**؛ من هناك، ربما كان قد أرسل رجاله لتسميم كل أنحاء أوروبا من فينيسيا إلى هامبورج! ألقى كونت سافوى، أميديه السادس **Amédée VI**، القبض على يهود شامبرى؛ اعترفوا تحت التعذيب. فى سويسرا وفى ألمانيا، أبيدت بعض الجاليات اليهودية دون أن يكون الوباء قد توقف بالطبع. فى ستراسبورج، حيث لم يكن الطاعون قد انتشر بعد، شرعت نقابات القصّابين والدبّاغين فى اغتيالهم بمشاركة بعض النبلاء المديونين، لم يمنع ذلك الطاعون من الوصول إلى المدينة وحصد أرواح ألف وستمائة شخص من أهلها. فى أبريل من عام ١٣٤٨، تعرض يهود مدينة تولون **Toulon**، إحدى مدن أوروبا النادرة التى قبلت باليهود أعضاءً فى مجلسها المحلى، لعمليات قتل جماعى.

خلال شهرى يوليو وسبتمبر من عام ١٣٨٤، وضع البابا كليمن السادس **Clemen VI**، يهود أفنيون وكومتا **Comtat**، تحت حمايته مذكرًا بأن اليهود أيضًا قد تعرضوا للإصابة بالمرض وأن هذا المرض قد انتشر حتى فى المناطق التى خلت منهم. فى عام ١٣٤٩، قتل ٢٠٠٠ من اليهود فى ستراسبورج، ٤٠٠ فى فورمز، ٢٠٠٠ فى أوبنهايم، أعدم ٦٠٠٠ حرقًا وهم أحياء فى مايتس، قتل ٣٠٠٠ فى إيرفيرت **Er furt**، فى فيينا، ميونخ،

(*) الراينلاند. أرض تاريخية تقع على طول نهر الراين وتمتد غربًا حتى حدود بلجيكا، فرنسا، هولندا، لوكسمبرج.. كانت جزءًا من فرنسا حتى أواخر القرن ١٨ – ثم صارت جزءًا من مقاطعة بروسيا عام ١٨١٥... هى ألمانيا اليوم... (المترجم: عاصم).

أوجسبورج، فورسبورج، نورمبرج، شهدن مجازر، معارك، عمليات انتحار. إجمالًا، حصدت المذبحة الجماعية الثالثة فى الراينلاند خلال قرنين على الأقل أرواح ٣٠٠٠٠ ألف يهودى على الأقل. مرة أخرى غادر الناجون المنطقة، فى هذه المرة اتجه اليهود إلى بولندا **polonge** ، وبوميرانيا **La poméranie** وروتينيا **La Ruthenie** .

واصل الطاعون اجتياح أوروبا. يتم إحراق الموتى والأحياء. كانت إسبانيا، فرنسا، جنوب إيطاليا وهولندا، أقل تأثرًا بالمرض من ألمانيا، وظلت بموافقة بعض الباباوات والتجار، ملجأ لبعض اليهود. إلى أن توقف المرض عام ١٣٥٢، بنفس الطريقة الغامضة التى بدأ بها. إجمالًا، ربما كان الطاعون قد سلب حياة أكثر من ثلث سكان القارة. ولسوف يعود المرض مرات عديدة.

لم يكن ذلك مجرد مأساة لا يمكن وصفها، فقد كان أيضًا، بطريقة غريبة. غير مباشرة، إسقاطًا للنظام الإقطاعى: لكون العمال قد صاروا أكثر ندرة، ارتفعت الأجور بالضرورة؛ لم يتمكن نظام الاتحادات المهنية من المقاومة. يمكن الآن للنظام التجارى أن يعلن عن وصوله؛ ربما كان الطاعون الأسود قد أنهى النظام القديم.

فى ذلك الوقت بالتحديد، عام ١٣٥٣، فى فلورنسا، تكلم أحد أوائل نصوص عصر النهضة تحديدًا عن العالم، اليهود والمال. ثم، وللمرة الأولى، تحدثنا عنهم بصورة إيجابية: فى قصة غريبة للديكاميرون(*) (اليوم الأول، القصة الثالثة: "الحلقات الثلاث أو الديانات الثلاث") يقول بوكاس **Boccace** كيف إن صلاح الدين قد فاوض بشأن قرض "فى مدينة الإسكندرية مع أحد أثرياء اليهود، المدعو ملشيسديك **Melchisedech**، كان يقرض بالربا. كان هذا اليهودى من أكثر رجال زمنه طمعًا وبخلًا. استدعاه صلاح الدين وتملقه: "ملشيسديك، لقد حدثنى كثير من الناس عن حكمتك وعلمك وأنك على وجه الخصوص متبحر فى الأمور الآلهية: إننى أود أن أعرف منك أى من هذه الديانات الثلاث، اليهودية، المسيحية، الإسلام تبدو لك الأفضل والأحق(٦٣)".

(*) الديكاميرون، كتاب حكايات رمزية يعود للقرن ١٧ -. ويعنى اسمه الحكايات العشر. (المترجم: عاصم)

أجاب اليهودى باستعارة جاء فيها إن أحد الآباء لم يرد أن يقسم جوهرة رائعة بين أبنائه الثلاثة، فاصطنع اثنتين مماثلتين لها تمامًا لدرجة أن ورثته قد تنازعوا بعد موته فيما بينهم ليعرفوا أى واحدة من الثلاث كانت الحقيقة، بينما كانت جميعها جميلة. أثنى صلاح الدين على براعة الإجابة. "قام اليهودى، وقد انتابه الكرم، بإقراضه كل ما كان يريده، وأبدى السلطان، متأثرًا بالموقف، امتنانه العميق. لم يكتف برد مستحقات اليهودى، بل وأغدق عليه الهدايا، وأبقاه إلى جواره، عَامَلَه بكثير من التقدير وشرّفه بصداقته[٦٢] دائمًا." نص جديد تمامًا قُدِمَ فيه الإسلام كنموذج للتسامح والاحترام المتبادل: عصر النهضة الإيطالى يجد السير.

ابتداء من العام ١٣٥٥، وبرغم ذكريات الطاعون الكبير الأليمة، عاد بعض التجار اليهود إلى تورانج Thuringe، إلى بافاريا Baviere، وإلى بوهيميا Bohéme ليبيعوا فيها التوابل والملابس، دون أن يستقروا فيها بالفعل. فى نورمبرج، عاصمة المال، وموطن المذابح الثلاث الكبرى، لم يتبق سوى ثمانية وسبعين راشدًا يهوديًا كانت المهنة الوحيدة المسموح لهم ممارستها لا تزال هى الإقراض بالرهون، كانت ثلاث عائلات مثّلث نصف تعداد تلك الجالية، ضمت كل عائلة ما بين ثمانية وأحد عشر شخصًا راشدًا. كان أحد موظفى البلدية يذهب إلى المعبد سنويًا، فى أحد أيام السبت من شهر أبريل، ليضع قائمة بالحضور، ويتأكد من الجميع يتمتع بحق المواطنة[٣٤]: كان هناك تسعة من خدم المعبد، عشرة معلمين للتوراة، جزار شرعى، شماس وبعض الأطفال.

فى عام ١٣٧٦، فى إنجلترا، بعد موت الأمير الأسود، دار الهمس بأن هؤلاء المصرفيين اللومبارديين، الذين لم يكن الملك قد أعاد إليهم مستحقاتهم عليه منذ ثلاثين عامًا خلت، قد كانوا يهودًا متخفين[٤١٧]: كان من الطبيعى بناءً على هذا، ألا يسدد لهم ديونهم. فى عام ١٣١٧، تم القضاء على يهود بروكسل بزعم أنهم "دنسوا القرابين المقدسة". فى ٥ يوليو عام ١٣٩٤، بينما أثيرت حرب المائة عام مرة أخرى فى زواج ملكى، طرد اليهود القلائل الذين كانوا قد عادوا إلى إنجلترا بعد طردهم فى عام ١٣١٥ مرة أخرى بأمر ريتشارد الثانى تحت الاتهام المزدوج بالربا والتبشير باليهودية. من المحتمل أن يكون هؤلاء قد حاولوا إيقاظ عقيدة أصدقائهم المتحولين إلى المسيحية. سمح لهم بالبقاء لمدة اثنى

عشر عامًا لتصفية أعمالهم، حظر عليهم الإقراض بالربا، استولى الملك لنفسه على ديونهم الجارية. هذه المرة، كانت النهاية: بعد قرن من عمليات الطرد المتكررة، لن يجرى تذكرها، كانت تهمة التبشير جريمة عظمى فى نظر الكنيسة.

رحل البعض إلى ألمانيا حيث تعرضوا للاضطهاد، متهمين أيضًا بأنهم "شاربو الدماء"، طوال القرن الرابع عشر، اختفى اليهود من أوروبا، ولم يتمكنوا من العيش إلا فى ألمانيا، وفى إيطاليا. فى عام ١٤٥٨، فى فرانكفورت، كانوا محبوسين خلف أوصاف رسمت لهم وحاصرتهم داخل حيهم. أولى صور الاحتجاز. لجأ آخرون إلى لومبارديا، حيث كانوا يكسبون عيشهم عن طريق بيع الكمبيالات المسحوبة على مديونين إنجليز إلى المرابين ورجال البنوك المحليين. بلا شك أن بعضهم قد استأنف علاقات قديمة مع المصرفيين اللومبارديين الذين رحبوا بهم كثيرًا، لعلهم قد كانوا أيضًا من المتحولين إلى المسيحية. لعبة تبادل الأقنعة من أجل البقاء على قيد الحياة دون فقدان الهوية...

توسكانيا والبندقية

فى بداية القرن الخامس عشر، غاصت بروج **Bruges** فى الرمال، وتوقفت عن كونها أهم ميناء فى العالم، تراجعت هانس **La Hanse**، مازالت أنفرس مترددة، كانت التجارة ابتداء من ذلك الوقت، تمر تقريبًا بمعظمها عبر جنوة، فلورنسا، فينيسيا. فى كل أنحاء إيطاليا، لم يكن عدد اليهود يتجاوز خمسة عشر ألفًا بين شعب تعداده أحد عشر مليون نسمة. بفضل الصكوك والمواثيق الممنوحة منذ القرن الثالث عشر من جانب مدينة فيرارى **Ferrare**، بولونيا **Bologne**، بادو **Padoue**، مانتو **Mantoue**، بيروزى **Pérouse**، جنوة **Genes**، فلورنسا، وفينيسيا وبالرغم من الفرانسيسكان والدومينكان الذين يرغبون فى إبعادهم عن شبه الجزيرة الإيطالية بأكملها، ظل اليهود موجودين هناك حرفيين، صُياغًا ومرابين.

كانت فينيسيا قد أصبحت فى ذلك الوقت أهم مدينة اقتصادية فى العالم[٦٩]. تتحدد هناك أسعار السلع الأساسية، تبنى أفضل السفن، السفن الشراعية التجارية **Les galéres**

da mercat، من هناك سيُصّدِر تجار مسيحيون ويهود نحو الشرق أصواف الفلاندر، قطيفة جنوة، منسوجات ميلانو وفلورنسا، مرجان برشلونة. وهناك أيضًا يصل عبيد تانا Tana، حرير القسطنطينية، معادن الأناضول، حرائر الفرس (إيران)، فلفل سواحل الهند الجنوبية. كانت الطائفة اليهودية الصغيرة مزدهرة(٧٥). طبعت أول توراة بالعبرية فى عام ١٤٨٨ بواسطة أبراهام بن حاييم Abraham ben Hayyim على مطابع أقامتها عائلة تمتهن الأعمال المكتبية، آل سونشينو Soncino، بعد أن طبع أول كتاب للصلوات باللغة العبرية فى عام ١٤٧٥ فى مدينة رادجيو دو كالابر Reggio de Calabre(٧٥).

مثلت المطبعة ثورة حقيقية لليهودية كما كانت بالنسبة للمسيحية:(١٩) أخيرًا، يمكن للكتب، المهمة جدًا فى الحياة العامة، أن تتوافر بأعداد كبيرة وبأسعار منخفضة. لن تعد أى طائفة كبيرة ترى نفسها بدون مطبعتها الخاصة. السوق شاسع: لغة واحدة لكل اليهود المنتشرين فى العالم؛ لم تكن هناك أى لغة محكية أخرى بخلاف الصينية واللاتينية لها تقريبًا فى ذلك الوقت هذا العدد من القراء! لكن، فى المقابل، فإن تفاسير كبار الحاخامات، التى صارت بذلك فى متناول الجميع، حدّت من التفكير والتأمل. من الآن لن يتجاسر إلا القليل على إضافة شروحهم وتفاسيرهم على الشروح المطبوعة من قبل.

كان يهود البندقية منذ ذلك الوقت، مع بعض التجار الآخرين المستقرين فى البندقية، من بين الوحيدين الذين يمكنهم اجتياز الحدود والاتجار مع إسطنبول (الاسم الجديد للقسطنطينية ابتداءً من ١٤٣٥) ومع إيران (الفِرس). كان لهم ممثلون تجاريون فى المراكز التجارية المتواجدة بانتظام بطول البلقان وعلى طريق الحرير حتى الصين: سمرقند، بخارى،.. كان الألفا يهودى قد تمرسوا فى مختلف أشكال التجارة لدرجة أن الدوج (حاكم البندقية) قد انتابه القلق منهم وفرض عليهم ابتداءً من عام ١٤٢٠، اعتمار قبعة صفراء لتمييزهم عن المسيحيين(٧٥).

فى فلورنسا، اجتذب كوم دوميدتشى Come de Médicis، الذى امتدت ولايته من ١٤٣٤ إلى ١٤٦٤، الفلاسفة اليهود والعرب حول مارسيليو فيسينوMarsile Ficin(*) فى عام ١٤٣٧، منح التجار اليهود صكًا (ميثاقًا) يسمح لهم بممارسة الائتمان. ثم ضمن لهم لوران الرائع Laurent le Magnifique حرية الدراسة والتجارة. نقل بعض المتروّمين من إسطنبول ترجمات النصوص العربية والإغريقية، ولعبوا دورًا أساسيًا فى انتشار الطباعة. أنشئ أول كرسى للغة العبرية بجامعة بولونيا Bologne. كان الحاخام إيليا ديلماديجو، المسئول عن كرسى الفلسفة فى جامعة بادو Badoue، يمارس نفوذًا كبيرًا على بيك دولاميزاندول pic de la Mirandole، الذى سوف يبحث فى القبالة La Kabbale (تعاليم الديانة اليهودية وأسرارها) عن دليل حقيقة الديانة المسيحية. فى توسكانيا، سوف يتجاوز عدد اليهود بعد قليل الخمسين ألفًا.

فى الإمارات البابوية - خاصة فى روما وميناءها، أنكون Ancone - منح مارتان الخامس Martin V فى عام ١٤٢٠، حمايته لبعض المصرفيين اليهود فى مقابل إتاوة سنوية(٢١٣). فى ١٤٤٢، حرّم إيوجين الرابع Eugéne IV على اليهود بناء المعابد، الاشتغال بالوظائف العامة، الشهادة فى دعاوى ضد مسيحيين، الأمر الذى يمنعهم فى الحقيقة من اللجوء إلى القضاء لتسوية الخلافات التجارية. فى ١٤٦٢، أنشأ الفرنسيسكان مؤسسة جبال الرحمة لتقدم قروضًا بدون فائدة ولإجبار البابا على التخلص من مصرفييه اليهود- وهو ما لم يفعله البابا- مفارقة غريبة: فى أوروبا المسيحية هذه، التى يطرد فيها اليهود فى كل مكان، يحتفظ الباباوات بعدد منهم لممارسة مهنة البنوك (التسليف) دون أن يحرموا أنفسهم من مطالبة الأمراء المسيحيين بالتخلص منهم!

فى عام ١٤٩١، مرة أخرى بإيعاز من الرهبان الفرنسيسكان والدومينكان، تم طرد اليهود من رافينا Ravenne التى دمرت فيها المعابد اليهودية قبل عام من انتهاء قصة يهود إسبانيا المدهشة...

(*) أحد الفلاسفة الإنسانيين الأكثر نفوذًا فى أوائل عصر النهضة الإيطالية. كان أحد علماء الفلك وقام بترجمة أفلاطون إلى اللاتينية. (١٩ / ١٠ / ١٤٣٣ - ١ / ١٠ / ١٤٩٩). (المترجم: عاصم)

٤ ـ من بلاد الإسلام ومن بولندا

(١٢٦٠ـ ١٤٩٢)

مماليك، عثمانيون، مغول

من أجل السيطرة على الشرق الأوسط، نازعت مصر المماليك تركيا العثمانية، وفارس المغولية: ثلاث إمبراطوريات إسلامية تتداعى، حاول كثير من اليهود الهروب منها والنجاة بأنفسهم.

المماليك، ضباط من أصول تركية، اغتالوا فى عام ١٢٥٠ آخر سلطان من آل سليمان وأقاموا نظامًا عسكريًا فى مصر، سوريا، ثم فى فلسطين. واجهت الإسكندرية، مثل مصر كلها، القوة العثمانية. احتفظ آخر التجار اليهود فيها بالسيطرة على سوق التوابل، التى يعيدون بيعها إلى تجار ووسطاء من جنوة، من بيزا، من فينيسيا، من مارسيليا أو من كتالونيا.

فى نهاية القرن الرابع عشر، تحت حكم بايزيد الأول Bajazet 1er ، امتدت الإمبراطورية العثمانية إلى الأناضول، جزء من صربيا (بعد معركة كوسوفو Kosovo الظافرة فى عام ١٣٨٩)، بلغاريا، مقدونيا، جزء من تراقيا Thrace لم يكن قد تبقى له إلا الاستيلاء على القسطنطينية، عندما هاجمه المغول الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام منذ قرن مضى. فى عام ١٣٨٦، شرع قائدهم، تيمورلنك، حفيد جنكيز خان، فى غزو بلاد فارس، قضى على سكان أصفهان وشيراز، مبقيًا فى نفس الوقت على الحرفيين والمتعلمين، من بينهم اليهود الذين نقلهم إلى سمرقند ليعملوا من أجل رفعة عاصمته (مشغولات خشبية، سجاد، منسوجات حريرية). فى عام ١٣٩٣، دخل المغول بغداد، حيث لا يزال يقيم عشرون ألفًا من اليهود. أمروا فى عام ١٤٠١ بالقضاء على كل السكان: كان على كل جندى أن يحضر رأسًا؛ تم تدمير كل العمائر، من بينها المعابد اليهودية. كانت نهاية أقدم طوائف الشتات، طائفة المنفى الأول، عام ٧٢٢ ق.م. لم يبق على قيد الحياة فى المنطقة غير بعض الجاليات المتناثرة التى ستعود بعد ذلك إلى بغداد المكلومة.

فى نفس العام، استولى تيمور لنك على حلب، معبر تجارى أساسى، ثم على بعلبك. دمشق التى فتحت له أبوابها لم تنج من الدمار على يد قواته. فى يونيو عام ١٤٠٢، واجّه تيمورلنك بايزيد فى معركة أنقرة Ankara، وقام بأسره واستولى من العثمانيين على الأناضول وسيمرن Smyrne قاضيًا فى طريقه عَرَضًا على اليهود والمسيحيين. مات الإمبراطور المغولى فى ١٤٠٥، عندما كان يتهيأ لغزو الصين التى كانت تحكمها أسرة مينج Ming، بعد أن أسس أسرة حاكمة منغولية فى الهند. يستطيع العثمانيون الآن التقاط أنفاسهم والانتهاء من أمر الإمبراطورية البيزنطية. لم يكن تيمورلنك قد نجح إلا فى الحصول على مهلة للمسيحيين المحاصرين فى شبه جزيرة بيلوبونيز Péloponnése وفى مدينة القسطنطينية المعزولة داخل الأراضى العثمانية.

فى ٢٩ مايو ١٤٥٣، أزاح السلطان محمد الثانى (الفاتح) آخر أباطرة الرومان فى الشرق، قنسطنطين باليولوجوس Constantin Paléologue، ودخل إلى المدينة. تحولت الكنائس إلى مساجد. أما المعابد اليهودية فلا. قانون الذميين المُذل، "المحميون" كما وصفهم الإسلام منذ القرن الثالث عشر، كان ساريًا على هؤلاء وهؤلاء. احتفظ المتروّمون بالحق فى تلاوة صلواتهم باللغة اليونانية، غادر يهود آخرون فرنسا، ألمانيا، المجر، صقلية، لينضموا إلى الذميين المحميين فى بلاد الإسلام. استمرت الحرب فترة، إلى أن تعثر محمد الثانى على أبواب بلجراد ورودس، عقد آنذاك معاهدة مع فينيسيا، ٢٥ يناير عام ١٤٧٩.

فى الإمبراطورية العثمانية التى تمتد الآن من الجزائر إلى بلاد فارس مرورًا بفلسطين، كان اليهود على وجه الخصوص حرفيين ومزارعين. بالعربية أو بالتركية كانت أسماؤهم تعكس مهنهم[٤٥٩]: حدّاد، صايغ (صانع حلى)، نحّاس (صانع قدور وتاجر نحاس)، فلاح (مزارع)، جباس، صبّاغ، خياط، نجّار، عتّال. أحيانًا كانت الأسماء المختارة تشير عمدًا إلى مهن متواضعة لإخفاء الثروة. مارس بعضهم التجارة عبر كل البحار، بالرغم من وجود القراصنة. آخرون أصبحوا ممولين حتى للبلاط السلطانى. قدم الحاخام إسحاق إيلوس Isaac ILos وصفًا جيدًا لأوضاع اليهود فى القرن الخامس عشر الإسلامى فيما يخص آخر يهود أورشليم: "كان الكثير منهم حرفيون (...) اشتغل البعض

بتجارات كبيرة، كرس البعض أنفسهم للعلم (...) تفرغ أغلبهم لدراسة الشريعة. كان تعداد يهود الجليل كبيرًا ومارسوا تجارة القطن على نطاق واسع وكانوا أيضًا يقومون بنسجه وصباغته[٤٥٩]." في الجزائر والمغرب كانت الطوائف اليهودية تعيش حالة ازدهار، كانت المدارس اليهودية متقدمة بصورة خاصة، كتب الحاخام سمعان بن تسماح Simon ben Tsemah فيها، تعليمات سوف تحدد لمدة قرون قواعد الزواج في معظم بلاد الشتات الإسلامي.

بخلاف هذه الاستثناءات النادرة، لم يعد اليهود يشغلون تقريبًا أي مناصب مهمة في البلاد الإسلامية، وقد غادروها شيئًا فشيئًا. مركز جاذبية اليهودية يتجه الآن إلى بولندا.

الوصول إلى أوروبا الشرقية

كان أول اليهود الذين وصلوا إلى بولندا قد جاءوا من ديار الإسلام: في عام ٩٦٥، وصل إليها بعض التجار الرذنّية radhanites– وربما الخزر Khazars– حيث عثر على آثار لهم في رواية إبراهيم بن يعقوب، تاجر يهودي من طليطلة Toléde (التي كانت آنذاك مدينة مسلمة)[٤١٤]. ثم، في عام ١٠٩٧، بعد الحملة الصليبية الأولى مباشرة، استقرت في صقيلة بعض العائلات اليهودية القادمة من راينلاند أو من براغ، تجار، مزارعون أُحسن استقبالهم جدًا: وحديثًا جدًا، لم تخلق عملية تمسّيح المنطقة التي قادها ميزكو الأول Mieszko Ier، دوق البولنديين Les polonaise (شعب الحقول) لدى الشعب البولندي ميلًا لتبني أفكار الكراهية الغربية. وتبعًا للوقائع التي سجلها المؤرخ فنسان كادلوبا[٤١٤] Vincent Kadluba، فإن اليهود قد عاشوا في كاراكوفي Cracovie بلا منغصات، نحو عامي ١١٧٠، ١١٨٠. وأنهم مارسوا هناك مهن النحت، الصباغة، تصنيع الحرائر، الإقراض بالرهون، التجارة، السمسرة. من البلطيق إلى تركيا، زرعوا في ليتوانيا، أوكرانيا والبلقان طوائف يهودية كانت تستخدم كمحطات خدمة ووفادة للتجار. عثر في بولندا Polonge، سيلزي Silesie ومازوفيMazovie، على عملات نقدية فضية تحمل شعارات بالعربية تثبت أن بعضهم قد ضرب النقود للأمير ميزكو الثالث، أمير بولندا العظمى، في الفترة من ١١٣٨، إلى ١٢٠٢[٤١٤].

فى عام ١٢٦٤، وفقًا للأعراف الجرمانية، جعل الملك بوليسلاس **Boleslas** منهم "عبيدًا لخزانة الدولة". أقر لهم بالحق فى تنظيم حياتهم الطائفية، ممارسة التجارة، الإقراض بالرهون المنقولة والعقارية، وحتى العمل فى مهنة الزراعة[٤١٤]. ثم بمرور خمسين عامًا، حاولت الكنيسة البولندية فرض تطبيق قرارات مجلس لاتران البابوى عام ١٢١٥. فى المجمع الكنسى (سنودس) عام ١٢٦٧، سعت جادة إلى حظر زراعة الأرض على اليهود، استخدام المسيحيين، أن يكون لهم أكثر من معبد واحد فى كل مدينة، إلى أن تفرض عليهم حمل شارة خاصة مميزة وعزلهم داخل حى خاص بهم. إجراءات لن تطبق بأكثر من إجراءات روما ولابد أن تتكرر بلا طائل فى مجالس مدينة بودا **Buda** (فى المجر) فى عام ١٢٧٩، ومدينة لكزيكا **Leczyca** (فى بولندا) عام ١٢٨٥: لم تستطع الكنيسة أن تمنع الأمير والشعب من استقبال اليهود بالترحاب. فى سيلزى، اعترف بعض النبلاء المحليين لليهود بنفس الحقوق: هنرى بروبُس- من وروكلاو **Henri Probus de Wroclaw**، هنرى – جلوجو **Henri de Glogow** فى عام ١٢٧٤، هنرى- لينيكا **Henri de Legnica** فى عام ١٢٩٠ وبولكو – وركلاو **Bolko de wroclaw** فى عام ١٢٩٥.

فى عام ١٣٣٤، بعد عام من اعتلاء جازمير الأكبر **Gasmir Le Grand** العرش ، أكد على الحماية التى غطّاهم بها بولسيلاس التقى منذ سبعين عامًا مضت. وحتى أن يعترف لهم بحق امتلاك الأرض، فقد أسس لهم مدينة خاصة لهم، كازيميرز **Cazimierz**، بجوار كراكوفى. اعترضت الكنيسة مرة أخرى، بل إنها كانت تهمس بأن الملك واقع تحت تأثير عشيقة يهودية، إستيركا الجميلة **Esterka**[٤١٥].

انتقلت الأخبار سريعًا بين الطوائف. اندفع عدد كبير من اليهود إلى بولندا، هاربين من أوروبا الغربية ومذابحها المواكبة للحملات الصليبية، كانوا لا يزالون يمثلون ٠،٦٪ من تعداد سكان البلاد، لكننا نجد الآن طوائف كبيرة نوعًا ما فى خمسة وثلاثين مدينة فى بولندا، فى سيلزيا وأوكرانيا المدمجة فى المملكة البولونو- ليتوانية **Polono-Lituanien**. اشتغل معظم اليهود بالمهن الحرفية (الفراء، الصباغة، الملابس)، فى تجارة الملح، النحاس، أسماك الرنجة وكوسطاء للبلطيق فى سيلزيا، المجر، تركيا، وحتى إلى المستعمرات التابعة لفينيسيا فى البحر الأسود. قام البعض بإقراض المزارعين،

وآخرون بإقراض كبار التجار وصاروا من كبار رجال البنوك: مثل لويك دوكاركوفيا Lewek de Carcovie إبراهام نيجر Abraham Niger، ولكزكو دو- دروهوبيكز Wolczko de Drohobycz وجوسك دوليوبلان josek de Lublin[٤١٤].

عندما تضاعفت الاضطهادات ضدهم في الغرب، تزايدت أعداد اليهود المتوجهين إلى الشرق تدريجيًا: في سيلزيا أولا، عام ١٣٤٩، بعدها مباشرة، أثناء الطاعون الكبير، في بولندا، اتهموا هناك أيضًا بتسميم الآبار، دون طردهم بسبب ذلك ولا القضاء عليهم جميعًا. بعد جازمير، ابتداءً من عام ١٣٨٧، وحدّت أسرة حاكمة جديدة، آل جاجيلّون les jagellons، بولندا وليتوانيا[٤١٤]. استخدمت الأنظمة الملكية اليهود غالبًا في جباية الضرائب الملكية داخل مقاطعات النبلاء، كبار الأثرياء. إننا نجدهم أيضًا في خدمة مُلاك الأراضي هؤلاء كمديرين للإقطاعية، مشرفين على العمال، فلاحين، حرفيين، أصحاب نُزل. بعض هؤلاء المدراء أصبحوا من الأثرياء واشتروا برك مياه، طواحين، قصور ريفية، قرى. امتلك المدعو ولكزكو Wolczko- من مدينة دروهوبيكز، بهذه الطريقة العديد من القرى في روتانيا Ruthénie.

بدءًا من بداية القرن الخامس عشر، قام بعض الرجال الأحرار ممن صاروا نبلاء ريفيين أي أعضاء في طبقة Szchlachta، بهذه الوظائف المُربحة للغاية. وكما حدث في أماكن أخرى، بعد أن استُخدِم اليهود "كمخاطرين مؤقتين"، يجرى الآن التفكير في التخلص منهم. دُفِعَ البعض، ممن صاروا مُلاكًا، إلى بيع أراضيهم ومنازلهم. نشأت جامعة مسيحية في قلب كازيميرز وأجبر الطلاب المرابين اليهود على إقراضهم بدون فائدة، كان سدادها أحيانًا محل شك. كما وصلت من الغرب الاتهامات بالقتل الطقسي المرتبط بشريعتهم ظنًا. في عام ١٤٢٣، منع الممولون من إصدار سندات الائتمان، أخذ الرهون العقارية؛ لم يعد بإمكانهم إلا تقديم قروض متواضعة مضمونة برهون منقولة (ملابس، براميل نبيذ). في عام ١٤٥٤، بينما كان الراهب الفرنسيسكاني جان دو كابيستران jean de Capistran، يقاوم الهرطقة في بوهيميا، كقاضٍ في محكمة التفتيش ، ألقى بالمسئولية عَرَضًا على يهود وروكلاو Wroclaw. في عام ١٤٩٠، طرد اليهود من سيلزيا الواطئة Basse – Silésie، ثم من كراكوفيا وحتى من كازيميرز نفسها.

تحت ضغوط هذه الاضطهادات، تحول البعض عن ديانته إلى المسيحية، ليصيروا هم الآخرون من الأحرار. خرج آخرون من بعض المهن التى أُلزِموا بها حتى ذلك الوقت، واستثمروا فى المناجم أو فى وظائف محصلى الضرائب ومع ذلك يبدو أنهم كانوا أفضل حالًا هناك عن أى مكان آخر. وخاصة أفضل من إسبانيا.

٥ـ تمويل الاكتشافات

الانزواء (١٠٠٠ـ ١٤٩٢)

الزمن الإسبانى

فى بداية العام الألفى، بدأت الكلمة العبرية "سِفارد" **Séfard** فى الإشارة إلى إسبانيا، نقطة التقاء بين الإسلام والمسيحية. جاءت اللفظة من سفر **Obadiah**. التوراتى الذى يتناول "الخروج من أورشليم إلى سِفارد" مشيرًا بذلك إلى طوائف آسيا الصغرى فى زمن نبوخذ نصر. فى نفس الآية نجد كلمة **"Tsarfat"**، المستخدمة خلال الألفية الأولى للإشارة إلى "بلاد الغال"، ثم إلى مملكة الفرانك (الفرنجة).

فى شمال شبه جزيرة أيبير، تواجد المسيحيون فى الشمال، المسلمون فى الجنوب. وهنا وهناك تواجد اليهود. فى انسجام وتوافق كبير. بسرعة جدًا استقرت هناك أكبر الجاليات اليهودية فى أوروبا الغربية. شكلت قصة إقامتهم فيها ثم طردهم منها أكثر المغامرات غرابة وروعة فى مشوار المصير اليهودى.

فى القرن الحادى عشر، كان الحاخام سمعان ليفى، السابق ذكره، (مرشد) "نجيب" الطائفة اليهودية وفى نفس الوقت أهم معاونى ملك غرناطة، المسلم. نقل إليها الكُتاب اليهود الفكر الإغريقى القادم من الشرق، قاموا بترجمته إلى العربية، شرحوه وكشفوا عنه أمام العالم الغربى. فى عام ١١٥٠، بعد أن استعاد الفونس السابع دو كاستيل **Alphonse VII de Castille**، جزءًا كبيرًا من إقليم الكاستيل "قشتالة" من المغاربة، أعلن

نفسه "إمبراطورًا على إسبانيا كل" و "ملكًا للديانات الثلاث". فى عام ١١٧٠، عندما احتدمت الحملات الصليبية، استقدم ابنه سانش الثالث Sanche III ملك قشتالة، من مصر ومن بابل علماء ودكاترة فى الشريعة اليهودية. فى مدينة طليطلة، شمال ساراجوس (سرقسطة) Saragosse، قامت محاكم مسيحية بالفصل فى النزاعات التى تنشب بين اليهود وبعضهم على أساس القانون (الشريعة) التلمودية[٤٠٦].

فى تلك الفترة، فى الشمال كما فى جنوب شبه الجزيرة رأينا اليهود يمارسون كل المهن: الحرف اليدوية، التجارة وحتى الزراعة. فى سيجوفى Ségovie، مثلًا، فى الجزء المسيحى، كان نصف أرباب العائلات اليهودية من النسّاجين، الإسكافيين، الحائكين، الصُيّاغ، الحدادين، الخزّافين أو الصباغين. فى برشلونة أيضًا، مَثَّلَ الحرفيون نصف أفراد الطائفة[١٩] (مُجّلدون، نحّاتون، صُيّاغ). فى طليطلة، كانوا إما حرفيين أو أطباء، خارجها أيضًا كانوا مزارعين، مزارعى كروم، أصحاب بساتين زيتون أو حقول قمح، يقومون أحيانًا بزراعتها بأنفسهم أو يقومون بتأجيرها إلى مسلمين أو مسيحيين. وفى أماكن أخرى أيضًا، كانوا يعملون بالصوف أو الحرير.

فى إسبانيا، كما فى باقى أنحاء العالم، بسبب محظورات الكنيسة ومطالبات الأنظمة الملكية الحاكمة، كانت القروض حكرًا إجباريًا على اليهود. كان الكثير يقرضون النقود، الحبوب، الزيت، محررين سنداتهم وفواتيرهم بالعبرية أو بالعبرية القشتالية Judéo- Castillan، والتى كانت توجه حتى إلى البلاطات الملكية. فى كل مكان من إسبانيا تشكل القاموس الاقتصادى ابتداءً من العبرية[١٩]. لهذا سُميت فائدة القرض فى اللغة (القشتالية) كوينو quino، المتحدرة من quenesh العبرية. "يهودى"، "مرابى" كانا، كما فى أى مكان آخر، مترادفين.

عمل بعض اليهود كمستشارين للأمراء، مسئولين عن ضرب العملة، ممثلين ماليين للبلاط. كان يوسف بن صدوق joseph ben Zadok محصلًا لضرائب الفونس العاشر Alphonse x، أبراهام البرشلونى Abraham le barchilon مموِّلًا لسانش الرابع، بنفستى

دى بورتا **Benveniste de porta**، ممول جاك الأول ملك أراجون **jaques d'Aragon**، وكان يهودا حاليفى **Judah Halevi**، وأبراهام بن يوسف **Abraham ben joseph** الملتزمين العموميين لشارل الثالث **Charles III** ملك نافار **Navarre**.

كانت بعض العائلات اليهودية منابت حقيقية للكفاءات الإدارية التى يجرى توظيفها فى مناصب عليا: آل ناشمان وآل أبرافنال (أو أبرابنال بحسب المصادر) فى مدينة أشبيلية **Séville**؛ بنى وَكار وبنى شوشا فى طليطلة، آل حاليفى وآل بنفنيستى فى مدينة بورجوس **Burgos**؛ آل كاباليرا وآل اليعاذر فى مدينة ساراجوس (سرقسطة)- **Saragosse**. لم يكونوا مستشارين ولا وزراء مالية، كان يخدمون شخص الملك بصورة خاصة أكثر من الدولة. كان من النادر القبول بوجودهم فى الحكومات أو فى البلاطات الملكية. صاروا المنفذين الفعّالين لسياسة لم يكونوا يشاركون فى وضعها إلا نادرًا، بصورة رسمية على أى حال.

أنكر بعض هؤلاء التجار ديانتهم علنًا ليندمجوا بصورة أفضل فى مجتمعاتهم الجديدة: فى الجنوب، اعتنق صامويل يهودا الإسلام وصار اسمه أسموريل ونشر عام ١١٧٤ كتابًا اتهم فيه اليهود بتحريف التوراة، وفى المسيحية، كان طبيب الفونس السابع ملك كاستيل (قشتالة) وليون، يهوديًا متحولًا. عندما شرعت ممالك الشمال المسيحية الصغيرة فى غزو الأراضى الإسلامية، يعاونهم بعض الفرسان القادمين من فرنسا، كان اليهود يعملون فى المستعمرات الزراعية فلاحين أو إداريين.

وبينما تتضاعف المذابح وقرارات الترحيل فى شمال البيرنيه **Les Pyrénées** كان اليهود والمسيحيون يعيشيون فى إسبانيا فى وئام. فى عام ١٢٥٠، أثناء ولاية جاك الأول ملك أراجون، كان كاهن اعتراف الملك جريجوار التاسع **Gregoire IX**، الرئيس العام للرهبان الفرنسيسكان، يقوم بتدريس اللغة العبرية والعربية لكثير من القساوسة حتى يكون بمقدورهم التحاور مع الحاخامات[١٩]. فى كاستيل (قشتالة)، كان الفونس العاشر، الذى كان مدير شئونه المالية يوسف بن صدوق، يستقبل علماء من كل الديانات. شجع ملوك قشتالة الآخرين حتى اليهود على احترام دينهم، وسوف تذهب بعض المحاكم فى

قشتالة حتى إلى توقيع غرامات على اليهود غير الملتزمين. كانت عقوبة مقتل يهودى هى نفسها عقوبة قتل أحد النبلاء. فى منتصف القرن الثالث عشر، كان الدون خوان نونيز دى لارا juan Nunez delara، أحد كبار السادة فى المملكة، يلعب النرد مع اليهود فى دير الرهبان الدومنيكان فى طليطلة(٤٠٦). جاء جزء من يهود فرنسا الذين تعرضوا للطرد بقرارات من فيليب الوسيم ليستقروا خلف جبال البيرنيه، سعداء لأنهم وجدوا هنا طائفة مزدهرة الأحوال والعديد من المدارس التلمودية. ولأن الأسواق الإسبانية كانت مغلقة أمام اللومبارديين وأمام ممولين مسيحيين آخرين، فقد استمر الائتمان اليهودى هناك زمنًا أطول عنه فى أماكن أخرى كما كان أيضًا أكثر قبولًا عنه فى أماكن أخرى، بدون مصادرة ممتلكات ولا مذابح. وهكذا صار يهودا أبرافنال أمين خزانة سانش الرابع ملك قشتالة فى عام ١٢٨٤، ثم لخليفته فرديناند الرابع Ferdinand IV.

فى نهاية القرن الثالث عشر تلك، بعد طرد معظم الأمراء المسلمين، شعرت الكنيسة بالاطمئنان وأرادت إجبار الأمراء على الانصياع لتعليمات روما. بعد قرن من قرارات مجمع لاتزان البابوى الرابع التحريضية، سعت جاهدة إلى جعلهم يقومون بعزل اليهود عن المسيحيين. قام مطران طليطلة بناءً على ذلك باتهام اليهود بالتآمر لصالح العرب المسلمين، متسببًا فى حركة تمرد ومهيئًا لسلب المعابد اليهودية ونهب ممتلكاتها. فى برشلونة، طرطوشة Tortosa، تحولت "المجادلات" إلى دعاوى موجهة ضد النصوص الدينية العبرية.

بالرغم من أنه قد أصاب إسبانيا بأقل مما كان فى باقى أنحاء أوروبا، فإن الطاعون الأكبر لم يفد بشىء وتدهورت أوضاع اليهود فى قشتالة. هناك، فى عام ١٣٦٨، وضع صراع على خلافة العرش، الوريث الشرعى بيير القاسى Pierre Le Cruel فى مواجهة أخيه، هنرى أمير تراستمارا Henri de Trastamare. غير متأكدين من نتيجة الاقتراع بالأسلحة، قام المرابون اليهود بتمويل المعسكرين معًا. عندما ربح هنرى المعركة فى ١٣٦٩، اتهم أخاه بأنه قد "تهوّد"، وأمر بقتله وحظر على اليهود أى وظائف تابعة للدولة. عام ١٣٧٠، قامت الكنيسة بملاحقة تجار مسيحيين من جيروت Gerone، لأنهم قد قاموا فى يوم الخميس المقدس بلعب النرد داخل أحد حارات اليهود. فى ١٣٧٨، طالَب فيرناندو

مارتينَز Fernándo Martinez، كبير شمامسة مدينة إكيجا Ecija، النائب الرسولى العام لأسقفية أشبيلية Séville، بطرد اليهود، على غرار ما يحدث فى كل أنحاء أوروبا[٢٧٤]. فى يوليو ١٣٩٠، مات آخر ملك كان لا يزال يحميهم قليلًا، چان الأول ملك قشتالة. بدا القرن الخامس عشر مظلمًا كئيبًا أمامهم، فى منفاهم الإسبانى الأخير. كان رسم الخرائط أحد العلوم المهمة، كل خريطة كانت سرًا من أسرار الدولة وتمثل وسيلة إعلام، مدخل إلى الثراء. وعليه فقد كانت الخرائط أشياء عظيمة القيمة. وكانت تجارتها مغلقة، معقدة ومربحة، مرتبطة دائمًا بالدبلوماسية والجاسوسية.

بحارة ومكتشفون

كان التجار اليهود، منذ عهد سليمان، بحارة بارعين، رأيناهم من قبل، على مدى الألفيتين السابقتين، يبحرون من إسبانيا إلى الهند على متون سفن فارسية، إغريقية، مصرية، عربية وعلى أساطيلهم الخاصة. اكتسبوا بذلك معرفة واسعة، وفى كل مكان كان كثير منهم رسامى خرائط ماهرين.

إننا نتطلع الآن من شواطئ إسبانيا والبرتغال إلى عرض البحار: ابتداءً من هناك سوف ندور حول إفريقيا وسوف نصل إلى آخر العالم. كان البحارة المغامرون نحو الجنوب فى حاجة متزايدة إلى معدات ملاحة وخرائط أكثر دقة. فى بداية القرن الرابع عشر قام بعض الفلكيين اليهود بتحسين عدد من المعدات البحرية. وعلى هذا النحو، ابتكر يعقوب بن ماشير ابن طيبون jacop ben Machir ibn Tibbon نحو عام ١٣٠٠، آلة عرفت أولًا باسم "الرُبعية اليهودية"، كانت تسمح بقياس مواقع النجوم. نحو عام ١٣٣٠، اخترع ليفى بن جيرشون، مفسر توراتى، عالم رياضيات وفلكى، "قبّان يعقوب"، ربع دائرة "ربُعية" بسيط للغاية يتيح للبحارة قياس البعد الزاوى بين جرمين سماويين. قرب عام ١٤٧٥، وضع أبراهام زاكوتو، Abraham Zacuto، فلكى من سالامتكا Salannanque، أول الجداول الفلكية التى تقدم المواقيت الدقيقة تقريبًا لظهور الكواكب والنجوم، تُرجِم جدوله للتقويم الفلكى من العبرية إلى اللاتينية بواسطة يهودى آخر وهو جوزيف فيزنهو

دييجو مندس joseph Vezinho Diego Mendes، ونشر تحت اسم "التقويم الأبدى" قام بعض البحارة والتجار اليهود المقيمين فى البرتغال، بدءًا من ولاية جان الأول الكبير، نحو عام ١٤١٠، فى فترة الفتوحات الكبرى فى أعالى البحار، بالمشاركة فى تنظيم التجارة الخارجية للملكة. بعدها بقليل، فى برشلونة، أدارت عائلة كرسكاس Crecas– سماسرة فى التوابل– مركزًا يهوديًا لرسم الخرائط كان يسمى الأكاديمية الوطنية لبالما دى مايوركا Palma de Majorque. مُرغمًا على التحول إلى الكاثوليكية، دخل يهودا ابن أبراهام كرسكاس، بعد تغيير اسمه إلى چايمى ريبا Jaime Riba، فى خدمة هنرى البحّار، ابن چان الأول ملك البرتغال، الذى كان يحلم بغزو إفريقيا دون أن يكون قد أبحر قبل ذلك مطلقًا. أصبح مدير مدرسة الملاحة فى مدينة ساجرس Sagres، وبهذه الصفة انضم إلى منظمى الحملات البرتغالية بطول سواحل إفريقيا التى سعت – دون جدوى – إلى الدوران حولها. ابتداءً من ١٤٤٨، حطت هذه الحملات على شواطئ إفريقيا الغربية وانتهت بتجارة العبيد، الذين يقتنصهم العرب من ممالك مالى وسونجهاى ليتم مبادلتهم مع البرتغاليين فى أرجوان، على ساحل غينيا، مقابل الحرير. لا يبدو أن التجار اليهود قد لعبوا دورًا خاصًا فى هذه التجارة، حتى وإن كان من الجائز أن يكونوا قد شاركوا فيها.

خلف البحث عن ممر فى جنوب إفريقيا نحو آسيا، كان اعتقاد اليهود أيضًا بوجود أرض غير معروفة، أرض موعودة، جنة عدن أو الفردوس المفقود. حملت بعض نصوص "الميدراش" Midrash، فكرة أن بعض عشائر مملكة إسرائيل العشرة – التى فقدت بعد المنفى الأول عام ٧٢٢ ق.م – قد رحلت لتعيش على الضفة الأخرى من نهر أسطورى، نهر السباتيون Le Sabbatyon، الذى تتلاطم مياهه خلال أيام الأسبوع ثم تتوقف يوم السبت. ادعى أحد البحارة اليهود من القرن الثانى عشر، إلداد ها دانى Eldad ha Dani، أنه قد جاء من مكان مجهول، وأنه ينتمى إلى إحدى هذه العشائر، عشيرة دانى "Dan". يصف بنيامين التطيلى Benjamin de Tudele، الرحالة الإسبانى الذى عاش فى القرن الثانى عشر والذى رأيناه من قبل فى الإسكندرية وفى بغداد، عشائر دان، آشر Acher، زابولون Zabulon ونيفتالى Nephtali، الذين قابلهم بالقرب من أحد الأنهار، نهر الجوزان Le Gozan، أما بالنسبة لعشائر روبن Ruben، جاد Gad، ونصف عشيرة مناسيه Manassé، فإنه قد رآهم

فى خيبر، فى اليمن كما يقول. نتيجة مدهشة لثقافة الترحال هذه: كان كل من نظم وموّل اكتشاف أمريكا تقريبًا من اليهود أو كانوا من قبل يهودًا. ها هى ملحمة يهود إسبانيا المذهلة، مطرودين من العالم القديم ومكتشفين للعالم الجديد.

متحولون وخنازير

بموت جان الأول ملك قشتالة، فى يونيو ١٣٩٠، لم يعد هناك حام، رُفع باب الحصن الذى احتموا خلفه. أصبح حوالى ألف يهودى إسبانى تحت المراقبة، شاعرين بتصاعد الخطر. فى ٤ يونيو عام ١٣٩١، وكما لو كان نثارًا من البارود: دُمِرَ الحى اليهودى (حارة اليهود) فى أشبيلية، ثم كانت الدورة، فى الأيام التالية دمرت أحياؤهم فى قرطبة، مونتورو Montoro، تطيلة Tudele، مدريد، سجوفى Segovie، فالنس Valense، برشلونة، بالما Palma وجيرون Gerone. الحصيلة، خمسون ألف قتيل، أى سدس عدد الطائفة. بمثل مقدار مذابح القرن الماضى. غادر خمسون ألفًا ممن بقوا على قيد الحياة إلى بلاد الإسلام إلى غرناطة، فاس، مراكش، الجزائر، مستغانم، تلمسان، وهران، تونس و طرابلس. صمد مائة ألف على عقيدتهم وظلوا فى إسبانيا، مائة ألف أخرى تحولت إلى المسيحية، لكن ظل بعضهم على يهوديته سرًا.

فى إسبانيا، وبأكثر مما فى غيرها أيضًا، كانت ممارسة طقوس اليهودية أمرًا خطرًا: يمكن للكنيسة إن اقتضى الأمر التسامح مع اليهود، لكنها كانت تحرق "المرتدين" أحياءً. كان التراوح بين المسيحية واليهودية محتملًا أحيانًا فى أماكن أخرى، لكن ليس هنا. كان الوقوع بين أيدى الكنيسة متلبسًا بممارسة طقوس اليهودية بعد اعتناق المسيحية، يؤدى إلى الموت بعد تعذيب ومحاكمة. إضافة إلى ذلك، كان المتحول يفقد أصدقاءه من اليهود دون أن يكون ذلك سببًا فى اكتساب صداقة "المسيحيين القدامى" كان يطلق عليه باحتقار marrano، (خنزير). وبناء على ذلك، فإن عددًا من هذه الخنازير عاشت وتزاوجت فيما بينها، ما عزز شكوك الكنيسة تجاههم.

وهكذا بدأت، مع مذابح عام ١٣٩١، حياة الخنازير المزدوجة، يهود في السر، حياة قوامها القلق والعذاب، اللعب على حبلين، والمخاطر اليومية لتوريث هوية محظورة. في بعض الأسر يتحول الأبوان دون الأبناء، زوج بدون زوجته، وأطفال يرحلون دون آبائهم. في تطيلة، التمس بعض الحاخامات التعميد، بينما قرر أثنان آخران إيزاك بن شيشت IT Zhak ben Sheshet، ويوسف بن منير Josef ben Menir، الرحيل إلى المغرب، في سرقسطة تحول ابن أحد الحاخامات أليعازر جالوف Alazar Galluf متخذًا اسم خوان سانشيز. في بورجوس Burgos، اعتنق الحاخام الأكبر نفسه سالمون ها- ليفي Salmon ha- Levi المسيحية هو وكل أسرته وصار اسمه بابلو دى سانتا ماريا، أسقف بورجوس وكتب كتابات هجاء معادية لليهود.

كان من هاجر يستنكر المتحولين ويندد بهم؛ من بقي استنكر المتعلمين، أتباع ابن ميمون الذى، بسبب ميله إلى الفلسفة الأرسطية وشغفه بالحداثة، قد تسبب في بلبلة النفوس ودفع مسئولي الطوائف إلى التأقلم مع مجتمعاتهم والاندماج فيها، والتقرب من الأمراء، مثيرين لمشاعر الغيرة والحسد، أصل كل المآسي والكوارث[١٩].

بعد عدة أشهر، هدأت وتيرة العنف. في ١٣٩٤، بينما طُرِدَ آخر اليهود من إنجلترا، عادت الحياة في إسبانيا لتكون أكثر وداعة. في سرقسطة، عام ١٣٩٤، ازدهرت الطائفة من جديد. غير أن من تحولوا إلى المسيحية أثناء فوضى ورعب صيف ١٣٩١، كانوا قد وقعوا في الفخ: المتحول إلى المسيحية لا يمكن أن يعود يهوديًا، اليهودى لا يمكنه إقناع متحول بالعودة إلى اليهودية. وُضِعَ هؤلاء وهؤلاء تحت رقابة لصيقة.

أصبحت فكرة منع اليهود من نقل عدواهم إلى المتحولين تسيطر الآن على الكنيسة في إسبانيا. وضد كل اعتبار للمصلحة الاقتصادية، وأحيانًا ضد إرادة الملوك أنفسهم، وبعكس إرادة البابا، سوف تسعى الكنيسة إلى حماية "المتحولين إلى المسيحية" من اليهود: إنهم- كما يقولون – يحملون مرض الطاعون، اليهودية نفسها، التي يمكنهم في أي وقت أن يصيبوا بعدواها المتحولين إلى المسيحية، الذين لا يزالون في مرحلة النقاهة. لن تتخلى بعدها الكنيسة عن استخدام استعارة الطاعون أو الورم للإشارة إلى اليهود.

شيئًا فشيئًا سوف تخلى الكنيسة الإسبانية البلاد من اليهود، لكيلا تبقى – مع مراقبتهم عن كثب – إلا على من اعتنق المسيحية منهم. ومن أجل هذا لن تتردد بعد الآن فى تدمير البنية الاقتصادية، الثقافية، التجارية والمالية لمختلف الدول، مقدمة فكرتها الجامدة المسيطرة على مصالح التجار والأمراء.

فى ١٤١١، حرضت عظات أحد القساوسة المتعصبين فى فلانس Valance، فنسانت فيرير Vicente Ferrer، الجماهير المسيحية على قتل اليهود، الذين اتهمهم بتسميم آبار المياه، كما حدث فى سائر أنحاء أوروبا. قام بعضهم بالفرار بعيدًا وذهبوا حينها إلى بولندا.

فى الثانى من يناير عام ١٤١٢، خضع أول ملك لشبه الجزيرة للكنيسة ولفيرير (Ferrer): قرر جان الثانى jean II تطبيق القرارات التى اتخذها بالأحرى مجمع لاتران البابوى الرابع منذ قرنين من الزمان، وعزل كل يهود مملكته فى أحياء مغلقة.

يقول دى فالا دوليد ValladolidDe : إن نص هذا المرسوم بالغ الأهمية قد تناول مطولًا الظروف الاقتصادية والاجتماعية لليهود فى تلك الحقبة: "يجب على كل يهود المملكة العيش بمعزل عن المسيحيين فى حى يحيطه سور له باب دخول واحد. أمامهم ثمانية أيام ليستقروا داخله، وإلا فقدوا كل ممتلكاتهم. لن يستطيع أى يهودى تناول الطعام أو الشراب مع مسيحيين. لن يحق لهم التخاطب معهم ولا التواجد فى الاحتفالات والمناسبات الدينية المسيحية، ولا استخدامهم فى طهو الطعام، ولا فى تربية الأطفال ولا فى أى عمل مهما كان. لن يحق لهم لا استخدام مسيحى لحراثة الحقول أو الكروم، ولا فى بناء المنازل أو أى عمائر. لن يكون بإمكان أى يهودى شراء ملاءة تزيد قيمتها على ٣٠ مارافيدس (عملة إسبانية قديمة) لكل فارا منها (الفارا Vara وحدة قياس). يرتدى اليهود معاطف طويلة تصل إلى أقدامهم، بدون حاشية مطرزة ولا ريش، وقلنسوة بدون ذهب. لن يحق لأى يهودى أن يحلق لحيته ولا أن يشذب شعره. لن يحق لأى يهودى ممارسة مهن العطّار، النائب العام، محصل الضرائب والرسوم الجمركية، الصرّاف (فى أى مدينة)، الصيدلانى، الجرّاح، الطبيب، البيطرى، القصّاب، الدّباغ، الحدّاد، النجّار، البنّاء، السبّاك، تاجر الأقمشة، الأحذية، صدريات النساء، صانع الجوارب أو صدريات الرجال، ولا حياكة

ملابس المسيحيين، ولا أن يكونوا بغّالين أو ناقلين لأى بضائع، وأن يتوقفوا بشكل خاص عن بيع الزيت، العسل، الأرز والسلع الغذائية الأخرى، ولا حمل أو استخدام أى سلاح. كل من يُبلِّغ بانتهاك أى يهودى لمنطوق هذا المرسوم سوف يحصل على ثلث الغرامة المفروضة على اليهودى المدان. لن يحق لأى يهودى أن يعيق من يريد من بينهم، مُلهمًا بالروح القدس، أن يصبح مسيحيًا، مهما كانت الصلة التى تربط بينهما. لن يكون لأى طائفة يهودية الحق فى زيادة الضرائب على أفرادها دون تصريح ملكى. لن تستطيع أى طائفة يهودية أن توزع من أملاكها بأكثر ما أمر به الملك تحديدًا، وإلا تعرض المسئولون عن ذلك لمصادرة أموالهم وفقدان حياتهم[٣٩]".

لا يمكن إصدار عقوبة أكثر استفاضة واشتمالًا وانغلاقًا: إقراض المال ظل المهنة الوحيدة المسموح بها لهؤلاء المُحاصَرِين المحرومين من أى مخرج.

هاجر آنذاك إلى البرتغال، أحد أفراد أسرة أبرافنال، عائلة من رجال المال منذ أكثر من قرنين، كانت تضمن قروض التاج لتمويل حصار "الجيسيراس" Algiseras".

سوف نرى أن عائلته قد عادت مرة أخرى إلى إسبانيا بعد قرن من ذلك[٣٩٠].

فى مدينة الكانيز Alcaniz، تحول أحد الأطباء اليهود جوشوا ها لوركى Jushua Ha- Lorki إلى الديانة المسيحية تحت اسم جيروم دى سانتا فَى Gérome de Santa fé.

فى ١٤١٢، نظم البابا بينوا الثالث عشر Benoit XIII، مناظرة بين المتحول إلى المسيحية جيروم دى سانتا فَى، الذى صار طبيبه الخاص، وأربعة عشر حاخامًا من أراجوان. دامت تلك المناظرة لمدة عامين تعارض فيهما الطرفان. فى صيف عام ١٤١٤، سوف يقرر البابا أن المناقشة قد انتهت بفوز المسيحى الجديد[٢٦٦].

ومع هذا، وبفضل بعض الأمراء، فقد كانت اليهودية الإسبانية هى الوحيدة فى أوروبا، التى لا ظلت على قيد الحياة. نحو عام ١٤٢٠، أتم مائير الجواديز Meir Alguadez، كبير حاخامات قشتالة، التى دارت فيها للتو مذبحة كبرى، ترجمة جديدة لكتاب أرسطو "الأخلاق" إلى اللغة العبرية. قام آخرون بترجمة أعمال توما الأكوينى، جيوم الأوكامى

Guillume d'Occme. بناءً على طلب المسيحيين، قام موسى أجانجيل Moise Ajangel بترجمة التوراة إلى لغة قشتالة. فى بداية القرن الخامس عشر هذه، كان الممولون اليهود لا يزالون يلقون تقديرًا كبيرًا فى بعض البلاطات الملكية بعينها، وكان آخرون مفسرين، مترجمين، مفاوضين تجاريين، جواسيس، سفراء، الأمر الذى استحقوا عليه تجدد مشاعر الغيرة من جانب النبلاء ومن عامة الشعب خاصة من رجال الكنيسة. فى عام ١٤٣٢، تمكن إبراهام بنفنيستمى، الحاخام الأكبر، أمين خزانة الملك جان الثانى، من إلغاء مرسوم عام ١٤١٢، وأعاد تنظيم الجاليات اليهودية. فى ذلك الوقت، آل جزء كبير من السلطة فى أراجون وقشتالة إلى أيدى المتحولين إلى المسيحية.

مفارقة: لقد بذلت كل الجهود لهداية اليهود وحملهم على اعتناق المسيحية، ولكن أحدًا لا يتحمل هؤلاء المهتدين ويتسامح معهم. فى عام ١٤٤٦، بناءً على طلب الكنيسة، حظر ملك قشتالة على المهتدين (المتحولين) شغل الوظائف العامة كلها، ما أدى إلى استبعاد أسرة كاباليريا Caballeria من العمل فى خدمة الدولة، مثلها مثل الكثير من العائلات المسيحية الكبيرة التى صاهرت يهودًا متحولين إلى المسيحية. أفصح البابا نيقولا الخامس Nicolas V، عن وجهة نظر مخالفة، قال لأساقفته: إن مسيحيًا جديدًا هو مسيحى كالآخرين، إلا إذا ثبت أنه يعتنق اليهودية سرًا. استمرت الكنيسة فى الممالك الإسبانية فى الصمود والمقاومة. سوف يلزم مرسومان بابويان آخران كى تكف عن عنادها وعنفها[٤٠٦].

وضع غريب: فى بعض المدن يتعرض اليهود للقتل، للتعذيب، للطرد، وفى بعضها الآخر لا يزال مسيحيون ينصتون إلى مواعظ الحاخامات المعروفين، يشارك يهود فى قداسات أعياد ميلاد المسيح، يأتى كبار السادة ليتناولوا العشاء – حلالًا على طريقة اليهود – لدى التجار اليهود، يُدعى ممولون يهود إلى بلاطات القصور الملكية ويشغلون فيها مناصب رفيعة، متحولون جدد إلى المسيحية يعملون جنبًا إلى جنب مع يهود، وبوصفهم مسيحيين قدامى، وزراءً، تجارًا، صناعًا للحلى، مزارعين أو حرفيين.

إليكم بعض مسيرات الحياة المتميزة ليهود عاشوا فى النصف الثانى من ذلك.

القرن الخامس عشر:

دييجو أرياس دى أفيلا Diego Arias de Avila، ثم ابنه من بعده، أصبحا كاتمى سر الملك هنرى الرابع ملك قشتالة، أخو وخليفة إيزابل الكاثوليكية Isabelle La Catholique. تحول الابن، خوان، إلى المسيحية وأصبح أسقفًا لمدينة سيجوفيا Ségovie.

إبراهام صنور Abraham Sénor، كان فى البداية حاخامًا، ثم ممولًا لألفونس الخامس فى حربه ضد غرناطة، صار ملتزمًا عامًا ورئيسًا للطائفة اليهودية فى قشتالة فى عهد هنرى الرابع. فى عام ١٤٦٩، شارك مع بعض اليهود الآخرين النافذين، فى الإعداد لزواج أخت الملك، إيزابل، من فرديناند Fredinand ابن جان الثانى ملك أراجون. بموت هنرى الرابع، عام ١٤٧٤، ساعد على التخلص من ابنته لا بلترانجا La Beltraneja، ما فتح لإيزابل الطريق لاعتلاء العرش[٣٠٤]. وبهذا أتاح توحيد مملكتى أراجون وقشتالة، بعد موت جان الثانى ملك أراجون فى عام ١٤٧٩. آنذاك صار صنّور حاخام (راب) البلاط الملكى وجاون (لقب كان قد اختفى منذ أمد بعيد) لطوائف اليهود جميعها فى المملكتين الموحدتين، أعفى من دفع الضريبة وارتداء الملابس المفروضة على بقية اليهود.

تحول إلى المسيحية ثمانية من أبناء لويس دى لا كابالريا Luis De La Caballeria، أمين خزانة جان الثانى ملك أراجون، والد فرديناند، شغل كثير منهم وظائف مهمة فى الكنيسة وجهاز الدولة، أحدهم ، ألفونسو- كابالريا، بدأ وظيفة مستشار البلاط فى أراجون، نحو عام ١٤٦٠، المملكة التى سيصبح نائب رئيس ديوانها. يبدو أن الجميع قد ظل يهوديًا فى الخفاء، وكانت معظم زيجاتهم تجرى بين متحولين إلى المسيحية.

شغل العديد من المتحولين مناصب رفيعة جدًا فى المملكتين الجديدتين، كان هيرناندو - دى تالافيرا Hernándo de Talavera، قس اعتراف الملكة، قد ولد لأم يهودية، جابريل سانشيز Gabriel Sanchez، ابن خوان سانشيز، حفيد الحاخام أليعاذر جالوف- كاهن سرقسطة، وأصبح فيما بعد أمين خزانة أراجون، عُين لوريس دى سانتانجل Luis de Santangel- الذى كان جده أزارياس شينيلّو Azarias Chinillo، قد تحول إلى المسيحية

فى بداية القرن الخامس عشر قبل أن يصبح أسقفًا لمايوركا مسئولًا عن الضرائب، وكان المفضل لدى فرديناند ملك أراجون، الذى عينه، عام ١٤٨١، مشرفًا عامًا على بلدية أراجون، بعبارة أخرى أيضًا المحصل الأساسى لضرائب الملك غير المباشرة، ثم أمين الخزانة العامة فى قشتالة، ثم الأمين العام لخزانة سانتا هيرمانداد **Santa Hermandad**، منظمة شبه عسكرية للمحافظة على النظام، أحد أكثر المناصب رفعة فى المملكة.

لم توضع تلك القائمة مصادفة: كما سنرى بعد قليل، فإن هؤلاء المهتدين الذين مثلوا قلب الجهاز الإدارى والمالى للدولة، قد ظلوا فى الواقع يهودًا فى السر. إنهم سوف يمولون سويًا مشروع بحار مجهول من جنوة، يقول البعض إنه كان يهوديًا(٢٥٩): حينذاك وكان هذا البحار موجودًا فى البرتغال باحثًا عن تمويل رحلة بحرية صوب الغرب، كان يناقش مسارها الملاحى مع راسمى خرائط برتغاليين، كان معظمهم من اليهود: كريستوف كولمب.

فى غضون ذلك، لم تكن الكنيسة فى إسبانيا قد توقفت عن مراقبة "المهتدين"، خاصة من ارتقى منهم إلى قمة جهاز الدولة. عن كثب كانت تراقب اتصالاتهم مع اليهود، تتجسس على عاداتهم المعيشية، تترصد أقل إشارة أو دليل: طريقة غريبة لذبح الدواجن، إيقاد الشموع، إطفاء المداخن يوم السبت، السلوك على مائدة الطعام، طريقة كسوة الموتى، مراسم وطقوس الدفن. بل إن مجلس فرسان مدينة الكانتارا **Alcantara** قد أكد أن أى رقابة كانت عديمة الجدوى، وأن كل متحول إلى المسيحية قد ظل بالضرورة يهوديًا فى السر، وبالتالى فمن الواجب أن يُطرد من قشتالة ومن أراجون أى شخص كان له نسب مع اليهود وأن يتحقق ما يسميه النظام "نقاء الدم". غير أن روما، كما رأينا، لم تكن لها وجهة النظر تلك؛ إنها تود فقط أن تتأكد من صدق عقيدة المهتدين الجُدد وضمان قبولهم بين المسيحيين. فى أول نوفمبر، عام ١٤٧٨، طالَب البابا الجديد، سيكست الرابع **Sexite**، الذى تم اختياره فى عام ١٤٧١، الملوك الكاثوليك بأن يعينوا قضاة محاكم تفتيش فى ممالكهم بغرض التأكد من إخلاص المهتدين الجدد لعقيدتهم ومراقبة اليهود الذين يحرضونهم على اعتناق اليهودية من جديد. ابتداءً من ذلك الوقت، سوف تتم الوشاية، بكل من يشك فى اعتناقه اليهودية سرًا أو حمل "مهتديًا" جديدًا على العودة إلى ذلك، وسوف

يقدم للمحاكمة وينتهى به الحال إلى المحرقة. سوف يظهر تحقيق أجرى فى مدينة أشبيلية فى ذلك الوقت أن كثيرًا من معتنقى المسيحية الجدد قد ظلوا يهودًا فى الخفاء(٢٧٤). فى مايوركا، سوف يتحول الطبيب بونيث بونجورن **Bonet Bonjorn** وراسم الخرائط الشهير يهودا كرسكاس **Yahouda Crescas**، بدورهما إلى المسيحية.

سرعان ما تعرضت محاكم التفتيش لهجوم: فى نفس العام الذى بدأت فيه العمل، عام ١٤٨٠، اغتيل بدرو دى أربويس **Bedro de Arbues**، كاهن كاتدرائية سرقسطة القانونى. أجرت محكمة التفتيش تحقيقًا واعتقدت أنها كشفت عن مؤامرة تورط فيها أشهر اليهود الذين تحولوا إلى المسيحية فى المملكة: لويس دى لاسيردا **Luis de La Cerda**، بيدرو جونزاليس دى ميندوزا **Bedro Gonzales de Mendoza**، لويس دى سانتا جال **Luis de Santagal**، ألفونسو دى لاكابالريا **AL fonso de la Caballeria**، ماركيز دى مويا **Le Marquis de Moya**، خوان سانشيز **juan Sanchez**، سانشو دى بانتوى **Sancho de Patenoy** وخوان دى كولوما **juan de Coloma**

كلهم من كبار السادة والمقربين من الملوك.

كان التحقيق مروعًا: أخرجت جثة جدة ألفونسو كابالريا للتأكد من الطريقة التى دفنت بها؛ اقتيدت زوجته بعد توبتها إلى المحرقة، وأحرق أخوه چايمى **Jaime**. حُكِمَ بالإعدام على والد زوجة جابريل سانشيز، المتهم أيضًا باعتناق المسيحية سرًا، وتم تنفيذ الحكم. حكم على سانشو دو بانتوى بالإعدام، لكنه أُعفى من التنفيذ بتدخل من حفيده خوان كابريرا **juan Cabrera**، رئيس خدم الملك، الذى تمكن من تخفيف الحكم إلى السجن مدى الحياة. نجا الآخرون – جميعهم من كبار رجال الدولة – بناءً على رغبة الملك الذى دافع عن مقربيه. فى العام التالي، عقب الدعاوى الموجهة، بدون إرادته، ضد بعض "المتحولين" ممن كانوا مقربين إليه، وبعد عدة اعتداءات على يهود من المفترض أنهم مقربون منهم، قام فرديناند، دليلًا على ثقته فيهم، بتعيين أحد المتهمين الأساسيين، لويس دى سانتا جيل، مشرفًا عامًا على أراجون، وذكّر بأن « اليهود هم أتباعنا. واتخاذ قرارات تتعلق باليهود، الذين هم خزائننا وينتمون إلى تراثنا، يعتمد علينا فقط.» "اليهود الذين هم

خزائننا": نادرًا ما قيلت الأشياء بمثل هذه الفجاجة. تجاهلت محكمة التفتيش هذا الحظر: في بحر عدة أشهر، تعرض خمسة آلاف من "المتحولين" للتعذيب، ثم أطلق سراحهم بعد إعلان توبتهم، أحرق سبعمائة آخرون أحياءً.

وإلى إسبانيا المتوترة هذه، في ذروة الأزمة الاقتصادية، رجع عام ١٤٨١ أحد كبار المصرفيين اليهود البرتغاليين، ألدون إسحاق بن يهودا أبرافانل[٣٩١]، سليل آل يهودا أبرافانل، الذي رحل من قبل لاجئًا إلى البرتغال. هرب إسحاق خوفًا من غضب چان الثاني ملك لشبونة، الذي ارتاب في مشاركته في مؤامرة وجهت ضده بعد أن كان مستشارًا ثم وزير مالية الملك السابق ألفونس الأول. هكذا عاد إسحاق أبرافانل، في الرابعة والأربعين من عمره، إلى أرض أجداده، ووضع كل أملاكه في خدمة إيزابل وفرديناند. فقد قام على سبيل المثال بتمويل الحرب الجديدة ضد المغاربة للقضاء على مملكة غرناطة[٣٩١]، ثم أصبح أمينًا لخزانة المملكة تحت أنظار محاكم التفتيش المتربصة والمرتابة، الغاضبة لرؤية يهودي آخر يحتل مكانة سامية في حاشية الملوك الكاثوليك.

إن كان البابا سيكست الرابع، في عام ١٤٨٢، قد سعى حثيثًا لإيقاف جموح محاكم التفتيش القشتالية قليلًا، تلك التي أوجدها بنفسه، فإن الدومينيكاني توما دي توركمادا Tomas de Torquemada، قس اعتراف الملكة، القاضي العام لمحاكم التفتيش ابتداءً من عام ١٤٨٣، لم يغير موقفه [١٠٧]. بل إنه اقترح على الملوك الكاثوليك إقصاء كل اليهود عن البلاد حتى لا يتمكنوا بعد ذلك من حمل "المتحولين إلى المسيحية" على ترك الإيمان الحقيقي.

لم يكن، فرديناند، الذي لا يزال راغبًا في أن يكون ملك الديانات الثلاث، مقتنعًا، لا سياسيًا، ولا اقتصاديًا، بضرورة طرد اليهود[٣٠٤]. لم يناد به لا الشعب، ولا طبقة الأغنياء، ولا طبقة النبلاء. مَثَّلَ اليهود قوة اقتصادية أساسية كبرى، كانوا وحدهم المرابين المسموح لهم بذلك، وكانوا ينعشون التجارة العالمية. أوضح وصول أبرافانل ذلك: يمكن لليهود أن يجلبوا إلى البلاد ثروات كبيرة وأن يحرموا منها الممالك المنافسة. إنهم يمثلون "الذمة المالية" للملك ويشكلون مع "المهتدين" ومختلف السادة الآخرين

والتجار المسيحيين، الهيكل الإدارى، المالى للبلاد، وعلاقتها الوحيدة مع الإمبراطورية العثمانية وأسواق الهند. لم يكن ممكنًا بالنسبة له أن يفقدهم، فضلًا عن ذلك، فإن البابا لم يطلب منه هذا.

إيزابل، من جانبها، كانت مقتنعة ومنبهرة أكثر بأفكار توركمادا: "التطهير" هو الفكرة المسيطرة عليها، فضلًا عن أنها كانت على قناعة بأن كل اليهود، إذا لم يعد أمامهم خيار آخر، سوف يعتنقون المسيحية(٣٠٤).

تردد الملوك الكاثوليك، وبطريقة مثلت تحذيرًا للثلاثمائة ألف يهودى إسبانى – تضاعف عددهم ثلاث مرات تقريبًا خلال قرن من الزمان– قرروا فى أول يناير عام ١٤٨٣، أن يخيّروا الأربعة آلاف عائلة يهودية المقيمة فى مطرانية أشبيلية حيث كانت الشكوك فى مصداقية المتحولين الجدد إلى المسيحية أقوى مما فى غيرها(٢٧٤) وأسقفيات كاديكس Cadix، وقرطبة بين مغادرة مدينتهم وبين اعتناق المسيحية. ولدهشة إيزابل الكبرى، اعتنق المسيحية نفر قليل جدًا، وغادر الجميع تقريبًا نحو أماكن أخرى فى شبه الجزيرة بشكل عام(٢٧٤). لم يكتف توركمادا، مد صلاحياته إلى طليطلة، إلى الأراجون ثم إلى قشتالة، وشرع فى التحقيق فى قضايا المتحولين إلى المسيحية من اليهود المفترض أنهم قد تعاملوا معهم عن قرب. خلال خمسة عشر عامًا، حقق فى مئة ألف حالة وأرسل بأكثر من ألفى متهم إلى المحرقة(١٠٧).

فى تلك الأثناء، واصل كريستوف كولمب محاولة إيضاح صحة مشروعه للبرتغاليين: الوصول إلى الهند عن طريق الغرب. جزئية غريبة: كان الكثير ممن قابلهم يهودًا أو من اليهود المتحولين إلى المسيحية. أولًا، فى لشبونة عام ١٤٨٤، واضع الخرائط المتمسح يهودا كرسكاس الذى قابله قبل عرض مشروعه على جان الثانى مباشرة، سوف يُزعم بعد ذلك أن الجغرافى ربما أراه رسمًا تخطيطيًا لسواحل عالم جديد يقع فى الغرب. ثم جوزيف دييجو ماندس فزينهو joseph Diego Mendes Vezinho، راسم خرائط يهودى يعمل ببلاط ملك البرتغال، على رأس لجنة من الخبراء مكلفة من قبل هذا الأخير بتقييم اقتراح كولمب. رفضت لشبونة المشروع فى نهاية الأمر.

في عام ١٤٨٥، غادر كولمب البرتغال، محبطًا، واتجه إلى إسبانيا. في ذلك العام، في جزر الجواللوب، أحرق اثنان وخمسون متمسحًا باعتبارهم مرتدين بعد أن تعرضوا للتعذيب حتى الموت. أحرق أحد الحاخامات حيًا، أبراهام دى هيوسكا **Abraham de Huesca**، لأنه أجرى الختان لبعض المتمسحين.

في عام ١٤٨٦، قابل كولمب في سرقسطة عالم الفلك اليهودى أبراهام زاكوتو **Abraham Zacuto**، مستشار الملك للحملات البحرية، الذى يبدو أنه قد اقتنع بالفكرة ولكنه لم يحظ بموافقة الملوك.

شرع كولمب آنذاك في البحث عن تمويل خاص. مصادفة غريبة: قابل من ضمن كل رعاة العلوم الآخرين، جميع من شارك بصورة أو بأخرى في مقتل قاضى التفتيش أربويس. أولًا لويس دى لاسيردا **Luis de La Cerda**، كونت دى مدينا سيلى، **Compte de Medinaceli**، الذى قدمه بدوره إلى واحد من أبناء عمومته، الكاردينال بيدرو جونزاليس دى ميندوزا مطران طليطلة، الذى يشترك معه في الانتماء إلى جدة يهودية، كان كلاهما مشتبهًا في ممارسته اليهودية سرًا، دون أن يضبطا متلبسين أبدًا. ترأس ميندوزا لجنة ملكية وافقت على مشروع كولمب، بينما كان لاسيردا يُلح على الملوك حتى يستقبلوا تجار جنوة، ويصف خوان كابريرا، بألفة تمنحها وظيفته كرئيس للخدم، للثنائى الملكى الكنوز التى يمكن أن يأتى بها البحار إلى العرش.

في ١٤٨٦، استقبل كولمب أخيرًا في البلاط المجتمع في قرطبة. غير أن لجنة جديدة من الخبراء يترأسها قس اعتراف ملكة قشتالة، هيرناندو دى تالافيرا رئيس دير مدينة برادو، ثم مطران غرناطة من بعد، والذى كانت إحدى جداته كما قلنا من قبل يهودية، رفضت مشروعه.

في ١٤٨٨، تقابل كولمب مع متمسح آخر، كان هو الآخر قد تعرض للتحقيق بعد موت قاضي التفتيش: إنه لويس دى سانتا جيل، الذى كان آنذاك أمينًا عامًا لخزانة قشتالة، أقوى رجال إسبانيا نفوذًا، الذى وافق على خططه.

في بداية ١٤٩١، عندما رفض مشروع كولمب مرة أخرى من جانب الملوك، تمكن سانتا جيل من الحصول على مقابلة ملكية أخرى لكولمب. شرح سانتا جيل للملوك أن

السانتا هيرماناداد، التى يقوم على إدارتها، يمكنها أن تضمن رأسًا قرضًا يمول الرحلة وأن مدينة بالوس **Palos**، المدينة بالمال إلى العرش لأنها تقوم بعمليات تهريب، يمكنها أن توفر سفن الحملة الثلاث المطلوبة[١٩] (سفن شراعية سريعة كانت تسمى كارافيل).

أذعن الملوك الكاثوليك لممولهم الأساسى[٣٠٤]. قاموا بمنح كولمب خطابات التكليف وسفن (كرافيل) بالوس. إشارة إضافية: كان خنزيرًا آخر، خوان دى كولوما، الذى انتمت زوجته إلى آل كابالريا، هو من حرر العقد المبرم بين كولمب وملوك إسبانيا، الذى كان يوضح نسب توزيع ثروات الأراضى المكتشفة الجديدة.

شارك سانتا جيل بنفسه فى تمويل مشروع كولمب بـ ١٧٠٠٠ دوكات — مع اثنين آخرين من المتمسحين: الفونسو دى كابالريا (أمين خزانة قشتالة، المتهم أيضًا من قبل قاضى التفتيش باعتناق اليهودية سرًا)، وخوان أندرياس كابريرا، كبير خدم فرديناند، والذى أصبح ماركيزًا لمويا، صديق إيزابل والذى كان من شبه المؤكد خنزيرًا هو الآخر.

كان هناك لقاءان يهوديان آخران مع كولمب: فى ربيع ١٤٩١، تقابل فى مالاجا، التى تم استعادتها للتو من المسلمين، مع المصرفى ورئيس الطائفة فى قشتالة، أبراهام صنّور، الذى قدمه بدوره إلى الدون إسحاق بن يهودا أبرافانل، فى منتصف عام ١٤٩١، اليهودى البرتغالى الذى أصبح وزير مالية مملكة إسبانيا. غير أنه لم يتمكن من مساعدته، لأنه كان منشغلًا بشىء آخر تمامًا[٣٩١]. فى منتصف ديسمبر من عام ١٤٩٠، تم إيقاف أحد المتمسحين بسبب تلبسه بحمل "خبز قربانى مقدس" فى خُرجه، وقد اعترف لقاضى محكمة التفتيش، تحت التعذيب، أنه فى أحد أيام الجمعة المقدسة، منذ عدة سنوات خلت، كان قد قام بصحبة بعض اليهود وبعض المتمسحين الآخرين، بانتزاع قلب طفل مسيحى بعد أن قاموا بصلبه ووضع تاج من الشوك فوق رأسه. بدأ التحقيق فى هذه القصة الغريبة، فى ١٧ ديسمبر عام ١٤٩٠، وانتهى بعد مرور عام، ١٦ نوفمبر عام ١٤٩١، بسلسلة من أحكام الإعدام وتنفيذها.

فى يوليو ١٤٩١، تم توجيه الاتهام إلى لويس دى سانتا جيل، الأمين العام لخزانة قشتالة، الذى كان منهمكًا للغاية فى الإعداد لمشروع كولمب، بأنه هو الآخر وللمرة

الثانية كان يهوديًا فى السر. ومرة أخرى نجح فرديناند فى انتزاعه من براثن محكمة التفتيش.

أراد توركمادا الانتهاء من الأمر وفرض قراره على ملوك إسبانيا: لقد كانت إسبانيا، مع بعض المدن الألمانية والإيطالية – التى رأيناها – من ولايات البابا ! – واحدة من آخر الأماكن فى أوروبا الغربية التى تتسامح مع اليهود. إن عليهم مغادرة إسبانيا.

فى يوم الثلاثاء ٢٠ مارس ١٤٩٢، عندما انتهى الغزو الظافر لغرناطة، التى استعيدت من المسلمين، طلب توركمادا من المجلس الملكى المنعقد فى هذه المدينة الانتهاء من أمر آخر هؤلاء الكفرة وتخيير اليهود بين اعتناق المسيحية أو الطرد من إسبانيا. دافع عضو المجلس، لويس سانتا جيل، بشجاعة عن الطائفة اليهودية، حيث إنها اقتصاديًا، أخلاقيًا، ثقافيًا تعتبر ضرورية للأمة. رد توركمادا بأن "الهرطقة اليهودية ورم خبيث ينبغى استئصاله". وكانت استعارة المرض دائمًا شديدة الفعالية.

فى يوم الأربعاء ٢٨ مارس، بعد أسبوع من التفكير ودون أن نعرف بالضبط تحت أى ظروف جرى هذا التفكير، خضع فرديناند لإيزابل: وافق ملوك إسبانيا الكاثوليك على طرد اليهود[٣٠٤]. فى ١٢ أبريل، طلب إسحاق أبرانافل، حاخام وأمين الخزانة الملكية، الذى قام لتوّه بتمويل الحرب الناجحة ضد المسلمين، مقابلة مع الملوك الكاثوليك ووفد من اليهود – ومن غير اليهود – تجار، دبلوماسيين، أطباء، رجال بنوك، موظفين كبار، نبلاء وأساقفة. جاءوا لالتماس إلغاء القرار، بلا ريب أنهم قد عرضوا فى الواقع افتداءه، كما كان يجرى غالبًا فى الماضى، فى أوروبا، انتهى النقاش سريعًا. فى الثلاثاء الأول من مايو، ألصق نصف مرسوم طرد اليهود على الحوائط فى المملكتين.

كما كان الحال دائمًا، فى أماكن أخرى، منذ قرون، استولى الفزع على الطوائف اليهودية، ما العمل؟، هل لا يصدقون الأمر، كالعادة؟، يحاولون طمأنة أنفسهم: بكل تأكيد فإن مسئولينا، وعلى الأخص، حاخام البلاط، إبراهام صنّور، النافذ للغاية فى البلاط، سوف ينقذوننا من هذا. لا ليس نحن! لا ليس هذا! لا ليسوا هم!

ثم ترسخت الشكوك، صارت الأخطار أكثر تحديدًا: بدا مسئولو الطوائف عاجزين. أدرك اليهود الإسبان آنذاك أنهم سوف يلاقون نفس مصير يهود باقى أوروبا. هل يعتنقون

المسيحية؟ ليس هناك أخطر بعدها من القبض عليهم متهمين بالبقاء على يهوديتهم. هل يرحلون؟ لكن من أجل الذهاب إلى أين؟ إلى البرتغال؟ إلى نافار؟ لكن مشاعر معاداة السامية تهددهم هناك أيضًا. إلى الفلاندر؟ إلى إيطاليا؟ إلى فرنسا؟ إلى تركيا؟ إلى بولندا؟ إلى أورشليم؟ كانت الأخطار تتهددهم فى كل مكان.

اقترح بعض كبار نبلاء أراجون إخفاء المُبعدين اليهود، إلى أن تهدأ الأوضاع: بذل أقصى مساعيهم، بمساعدة أبراهام صنّور، للحصول على إلغاء لأمر الطرد لاحقًا. عرض عليهم آخرون تصفية أملاكهم بأفضل ما يمكن قبل أن تنهار أسعارها، والرحيل بأقصى سرعة.

فى شهر مايو، سرى الذعر: لا يحق لليهود أن يحملوا ذهبًا ولا فضة، ينبغى عليهم التخلص من كل شيء بأزهد سعر ودفع مبالغ باهظة لأصحاب السفن مقابل نقلهم. فى كاديكس، بددت ثمانية آلاف أسرة يهودية تقريبًا أملاكها على عجل وتفاوضت بشأن رحيلها مع قباطنة مصممين على أن ينتزعوا منهم كل الذهب الذى يمكن أن يحملوه. حاول كل منهم أن يحمل معه معدات عمله. حاول أصحاب المطابع المستحيل للرحيل مع مطابعهم، حاولت الطوائف مساعدة أكثر أفرادها فقرًا. عندما حاولت طائفة بالنسيا Palancia بيع معبدها لتمويل رحيل أفقر أفرادها، منعت البلدية أى شخص من شرائه. وبالعكس، عهدت طائفة فيتوريا Vitoria إلى البلدية برعاية مدافنها متوسلة إليها الالتزام بعدم البناء فيها انتظارًا لعودتها، قبلت البلدية الالتزام بذلك– لن تقوم البلدية بخرق تعهدها إلا غداة اندلاع الحرب العالمية الثانية...

أعلن الملوك الكاثوليك، حرجًا أو تهكمًا أنهم يضعون هذا الرحيل "تحت حمايتهم"؛ لكن الكلام لا يغير من الأمر شيئًا: محاكم التفتيش المكلفة من قبل السلطة بالإشراف على مجمل عمليات الترحيل، تحث اليهود على الرحيل وتسد أمامهم بقدر ما تستطيع الطريق إلى اعتناق المسيحية.

تطور مفاجئ: فى الثلاثاء الخامس من يونيو، كان رجل البنوك والحاخام الأكبر أبراهام صنّور، الذى ساهم فى توحيد شطرى شبه الجزيرة الإسبانية، عبر ترتيبه لزواج

فرديناند وإيزابل، والذى يأمل الجميع فى أن يتمكن من إقناع الملوك الكاثوليك بتأجيل قرارهم، قد أعلن اعتناقه للمسيحية فى احتفال ضخم دار فى كاتدرائية قرطبة بحضور الملوك الكاثوليك. اتخذ اسم فرناندو بيريز كورونيل Fernando Perez Coronel. ثم انقطعت علاقاته مع كل أقربائه،

ثم مات بعدها بعدة شهور. بعد موته، سيجرى اكتشاف أنه قد استمر على يهوديته سرًا وأنه لم يتحول إلى المسيحية إلا من أجل مساعدة من لا يستطيع الرحيل بأفضل ما يمكنه.

تطور مفاجئ آخر: الأحد ١٧ يونيو، اعترف ليفى ابن سانتو Levi Ibn Santo، أحد حاخامات سرقسطة تحت التعذيب بأن ألفونسو دى كابالريا، نائب حاكم أراجون ورجل إسبانيا القوى - الذى رأينا أسرته تتحول إلى المسيحية منذ ١٤١٤ - وأحد اثنين تم التحقيق معهما فى قضية مقتل أبويس، وأحد ممولى كريستوف كولمب، كان قد ظل على يهوديته سرًا. بعد إطلاق سراحه، رحل ليفى ابن سانتو إلى البرتغال. سيجرى اغتيال ألفونسو كابالريا بعدها بقليل.

كان الفزع والتوتر فى أوجهما لدى اليهود. لقد انتهى الأمر: ينبغى الرحيل، إخفاء وتمويه الممتلكات القليلة الباقية التى يتوافر وقت وإمكانية حملها، بقدر المستطاع. سيقول أحد الشهود المسيحيين، الراهب أندريه برنالديز André Bernaldez، الذى لم يكن يفهم رفضهم لاعتناق المسيحية[٤٠٦]: "كان يهود إسبانيا يعيشون فى رخاء، وكان بينهم رجال غاية فى الثراء، ملاك أراضٍ، رجال بنوك مثل أبراهام صنّور، الذى تولى ضرائب قشتالة، وآخرون برعوا فى التجارة. تركوا هذه الأملاك وهذا النعيم العظيم، واتكلوا على آمال عماهم الكاذبة. لقد باعوا خلال أشهر كل ما استطاعوا؛ أعطوا منزلًا لقاء حمار، بستان كروم فى مقابل قطعة من النسيج أو القماش السميك. قاموا، قبل رحيلهم، بتزويج أولادهم فيما بينهم، كل من يتعدى الثانية عشرة حتى تكون كل فتاة من فتياتهم فى صحبة زوج."[٤٠٦]

فى الثانى من أغسطس (الذى وافق فى نلك العام بالتحديد، التاسع من شهر أب أبريل، يوم الذكرى السنوية لتدمير الهيكلين الأول والثانى فى أورشليم)، غادر آخر اليهود الإسبان بلادهم عبر الطريق البرى إلى البرتغال أو إلى نافار، وبحرًا صوب بلاد الإسلام فى المغرب أو تركيا.

ترصد قراصنة جنوة والبرابرة سفن المطرودين، لدى خروجها من الموانئ، وقاموا بتفتيشها. شاهد آخر، يهودى هذه المرة، جوزيف ها كوهين joseph Ha- Cohen، يقول متشدقًا:

"ذهب اليهود إلى حيث ألقت بهم الريح، إلى إفريقيا، إلى آسيا، إلى اليونان إلى تركيا (...). معاناة شديدة وآلام قاسية انقضت عليهم. عاملهم بحارة جنوة بقسوة شديدة. ماتت تلك الكائنات التعسة يأسًا على الطريق، شق المسلمون بطونهم ليخرجوا من أحشائهم ما ابتلعوه من ذهب، بغية إخفائه عن الأعين، وألقوا بآخرين فى لجة البحر، هناك من تعرض لأن يأكله الباقون درأ للجوع، هناك من ألقى بهم القباطنة عرايا من على ظهر السفن فوق جزر غير آهلة، وتعرض آخرون أيضًا فى عام المحنة هذا، للبيع كعبيد فى جنوة العظيمة أو فى المدن الخاضعة لها."[٣٠٨]

أغنياء وفقراء غادروا معًا، دون أى متاع أو تقريبًا هكذا، ودون أن يفهموا لماذا يتم طردهم. فى عام ١٤٩٦، ومن منفاه فى نابولى، قدم إسحاق أبرافانل روايته عن قرار الملوك الكاثوليك بسخرية مريرة ورائعة. كان يرى أن محض نزوة غامضة قد جعلت فرديناند يخضع لإيزابل. هاكم كيف سخر من ملك إسبانيا:

"عندما استولى ملك أراجون على قرطبة، مدينة قوية ذاخرة بالسكان، قال لنفسه: "كيف أن أشكر ربى، أن أظهر طاعتى المتلهفة تجاه من أخضع هذه المدينة لسلطانى؟ أليس بأن أوى تحت جناحى هذا الشعب الذى يسير فى العتمة، تلك النعاج الضالة من بنى إسرائيل، أو بإبعادها نحو بلاد أخرى بلا أمل فى العودة؟ هكذا قال الرسول فى كل مكان: "إليكم، يا كل عائلات بنى إسرائيل، إننا نخبركم: إن تلقيتم ماء العماد المقدس وركعتم أمام خالقنا، فستتنعمون مثلنا بخيرات هذا البلد. وإذا رفضتم، فأخرجوا خلال أشهر ثلاثة من مملكتى!"[٣٠٩]

بعدها وضع خطوط ميزانية اقتصادية لهذا الرحيل:

"مخافة لله وتمجيدًا لذاته المقدسة، أشهد أن عدد أبناء إسرائيل فى إسبانيا بلغ ثلاثمائة ألف فى العام الذى استلب فيه عزهم، وأن قيمة ممتلكاتهم وثرواتهم المنقولة والعقارية، وخيراتهم الوفيرة كانت قد بلغت أكثر من ألف دوكات من الذهب الخالص، ثروات أدخروها للأيام الصعبة. واليوم، بعد أربعة أعوام من نفينا ومن تدميرنا، يندثر كل شىء فى نفس الوقت فى نهاية محزنة، لأنه لم ينج منا إلا نحو ألفى رجل وامرأة و طفل فى البلاد التى يسكنونها، وها هم يستنفدون فى مناطق منافيهم كل ما يملكونه وكل ما كان يحملونه فى أياديهم من أوطانهم الأم.(٣٩١)

آنذاك كانت مملكة إسبانيا، تعتقد أن زمان مجدها قد آن، مع اكتشاف أمريكا وذهبها. واقع الأمر أنها، محرومة من شريحة واسعة من نخبتها الثقافية، التجارية والإدارية، لم تشهد إلا فترة ازدهار عابرة، بصرف النظر، عن "قرن الذهب" فإن تاريخ إسبانيا يظهر، بأفضل من أى بلد آخر، كم كانت الجاليات اليهودية مفيدة فى نمو وتطور بلد ما.

تغيير ديانات، منافى أمريكا

أصبح عدد ممن بقى فى إسبانيا وغيّر ديانته مسيحيين حقيقيين. ولدت القديسة تريزا دافيلا Santa thérése d'Avila فى بداية القرن السادس عشر فى أسرة من "المهتدين". كان خليفة أغنياس دى لويولا Agnias de Loyola، دييجو دى لانّيز، وسكرتيره من "المهتدين" قبل عام ١٤٩٢، دون أن يتمكن أحد من التشكيك فى إخلاصهم لعقيدتهم. ولم يتحول آخرون إلى المسيحية سوى من أجل البقاء فى إسبانيا، انتظارًا لإلغاء القانون. رغم الذهاب علانية إلى القداس يوم الأحد، كانوا يصلّون سرًا، عشية الجمعة والسبت، فى أقبية رملية الأرضيات تجنبًا لإصدار أى ضوضاء. لكن كان من الصعب عليهم أن يأكلوا "حلالًا"، أن يلتزموا بالصيام، ألا يشعلوا نارًا فى يوم السبت، ألا تتشبع أرواحهم بترانيم الصلاة فى الكنيسة فى حين لم يعد هناك يهودى واحد ممن حولهم. تشبعوا بمفردات اللغة، وانتهت مفاهيم ديانتهم الظاهرية بدمغ أرواحهم. الرقابة الصارمة الدائمة لمحاكم

التفتيش تترصّدهم وتجبرهم على التخلص من نسخ التوراة العبرية. وهكذا، قام قاضى محكمة التفتيش فى قرطبة، لوثيرو Lucero، بالقبض على عائلة هيرناندو دى تالافيرا بتهمة ممارسة طقوس اليهودية سرًا، توفى هيرناندو على إثر ذلك(٣٨٠).

مع ذلك، فسوف يستمر الكثير فى التحاور والاتجار سرًا مع متحولين آخرين ممن رحلوا إلى أراض أخرى تابعة لإسبانيا. بعضهم سيذهب بعد قليل للانضمام إليهم، إن تمكن من النجاة. معظم من بقى انصهر فى المشهد.

حتى عام ١٥٧٢، عندما حصل جان مارتينز سيليثو jean Martinez Siliceo، مطران طليطلة، وكبير مطارنة إسبانيا، على الإذن بطرد جميع "الخنازير" - المعروفين بأنهم "كل من كان له سلف من اليهود على الأقل" غادر الكثير حينها نحو ولايات البروفانس المتحدة أو إلى تركيا. وبقيت أيضًا أسر قليلة فى إسبانيا.

بعد ذلك بعشرين عامًا، فى ١٥٩٢، أى بعد قرن من أمر الترحيل، سيقوم اليسوعيون، آخر بؤرة مقاومة فى الكنيسة، بطرد آخر سلالات الخنازير من صفوفهم، حتى بعد وفاتهم، ذاهبين فى ذلك إلى حد تزوير شجرة عائلة دييجو دى لاينّز حتى يتم نسيان أن خليفة أغنياس دى لويولا كان له جد يهودى(٣٨٠).

فى عام ١٦٠٩، تم طرد "خنازير" الإسلام، الموريسك، الذين رفض أجدادهم التحول إلى المسيحية، فى نفس العام، مثلهم مثل اليهود - كان عليهم أيضًا مغادرة إسبانيا التى صارت "نقية من أى دم غير كاثوليكى"، كما يقول اليسوعيون (الجيزويت).

تفرق من رحل من اليهود فى عام ١٤٩٢(٦٦). بعضهم مثل إسحاق أبرافانل، سافر مباشرة إلى نابولى عند فرديناند Ferdinand، ملك الصقليين، الذى صار أمين خزانته. عندما أسقط شارل الثامن Charles VIII ملك فرنسا، ألدون بيدرو، فى عام ١٤٩٤، رافقه أبرافانل (بيدرو) إلى صقلية(٣٩١). بموت الملك، رحل إلى كورفو Corfo، ثم عاد منها إلى نابولى قبل أن يستقر فى البندقية، عام ١٥٠٠، تحت إلحاح ابنه جوزيف. قام هناك بنشر بعض الكتب الدينية المكتوبة بالعبرية، منها تفسير للتوراة، وعمل فى خدمة صاحب السمو كدبلوماسى حتى وافته المنية عام ١٥٠٨. سوف نجد أبناءه فى خدمة آل مديتشى.

سافر البعض إلى الولايات البابوية، التى يجرى التعامل معهم فيها بتسامح، خاصة فى أنكون وفى روما. غير أن الجاليات اليهودية هناك، المزدحمة بالفعل من قبل، لم تتمكن من احتوائهم جميعًا. وبصورة أكثر ندرة، اتجه آخرون أيضًا إلى أماكن لم يكن لهم الحق فيها فى أن يكونوا يهودًا بصورة علنية، لأن لهم فيها معاملات تجارية، مثل آل بينتو **les pinto**، آل لوبيز سيوسا **Lopez Suissa**، وآل ماتدس **Les Mendes** الذين سعوا إلى اللجوء إلى أنفرس. وديبجو تكسيرا دى سامبايو **Diego Texeira de Sampaio**، الذى صار مستشارًا ماليًا لكريستين ملكة السويد، استقر ابنه، اليهودى فى السر، مانويل **Manuel**، فى هامبورج. رحل آل جراديس وآل بينتو إلى بايون **Bayonne** وبوردو **Bordeaux**، اندفع آخرون نحو تولوز وروان. سوف نجدهم بعد ذلك أيضًا فى إنجلترا، أمستردام وأماكن أخرى تسللوا إليها خلسة.

فى البداية سعى معظمهم إلى اللجوء إلى البرتغال، حيث لا يزالون يلقون معاملة طيبة متسامحة: كان لديهم أحيانًا أصدقاء أو أقرباء من بعض اليهود البرتغاليين، اللغة مشابهة، من هناك سوف يمكنهم الإبقاء على الاتصال مع من قرر اعتناق المسيحية. سمح لهم الملك جان الثانى بالإقامة فى البلاد مقابل سداد ثمانية كروزادوس عن كل شخص مرة كل ستة شهور: لا توجد مصالح صغيرة... حاولوا بدء حياتهم من جديد عندما، فرض عليهم خليفة الملك جان، مانويل الأول **Manuel 1er**، فى ٥ ديسمبر ١٤٩٦، بعد أن تزوج من بنت الملوك الكاثوليك، الاختيار بين مغادرة البلاد أو التحول إلى المسيحية، ثم غيّر رأيه ومنعهم من الرحيل: اعتنق جميعهم المسيحية قسرًا، إنه فى حاجة إليهم، وخاصة من أجل الرحلات البحرية التى يعدها ويرتب لها فاسكو دا جاما **Vasco de Gama**، كابرال **Cabral** وآخرون.

حصل من خضع لشروط الدخول فى المسيحية، من يهود إسبانيا والبرتغال، فى المقابل على امتيازين: امتياز عدم تعرضهم للتحقيق من جانب محاكم التفتيش لمدة عشرين عامًا، وبالنسبة للتجار، احتكار تجارة الفلفل، من الهند إلى الفلاندر. ظل هؤلاء التجار غالبًا يهودًا فى السر، وتشاركوا مع "مسيحيين جدد" أو أيضًا مع يهود متكتمين لاجئين فى أنفرس وأمستردام. أبلوا بلاءً حسنًا إلى حد أن مانويل الأول، ومن بعده خليفته

جان الثالث قد فضلوا اللجوء إليهم بدلًا من بيوت التجارة الألمانية والإيطالية (آل فلسر Welser، فيوجر Fugger، هاهستلر Hahasteller، مارشيوني Marchioni، كاردوتشي Carducci) التى كان لها فروع فى لشبونة. سنجد أن عددًا من اليهود المعتمدين سوف يساهمون وقتها فى تجارة البرتغال الخارجية. سوف نجدهم بعدها، يهودًا متخفين، فى كل صور التجارة المتجهة إلى أمستردام، لندن، إلى الهند، إلى أمريكا. غير أن الكراهية والغيرة كانتا موجودتين: فى ١٥٠٦، تعرض ألفان من "المسيحيين الجدد" البرتغاليين للقتل. فى ١٥٠٧، سمح لمن بقى على قيد الحياة بالرحيل، عندما أقيمت محاكم التفتيش فى لشبونة عام ١٥٤٧، كان عليهم الذهاب إلى فرنسا، هولندا، هولندا، شمال إفريقيا[٢٨٠].

إجمالًا، انتهت رحلة السواد الأعظم من اليهود الذين غادروا شبه جزيرة أيبيريا، البالغ عددهم ١٤٥٠٠٠ نسمة، فى البلاد الإسلامية، منهم ٩٣٠٠٠ فى تركيا، ٣٠٠٠٠ فى بلاد المغرب (١٠٠٠٠ فى الجزائر، ٢٠٠٠٠ فى المغرب)، استقر ٩٠٠٠ آخرون فى إيطاليا، ٣٠٠٠ فى فرنسا، ٢٠٠٠ فى هولندا، ٢٠٠٠ فى مصر، ١٠٠٠ فى اليونان، المجر، بولندا وفى البلقان. و ٥٠٠٠ فى أمريكا.

لأنه، على متون سفن كولمب السريعة (كارافيل) التى خلّفت وراءها ميناء بالوس Palos فى الثانى من أغسطس ١٤٩٢ - حاملة آخر المطرودين من يهود إسبانيا - كان هناك على الأقل خمسة من اليهود تم تعميدهم على عجل قبيل الرحيل مباشرة: ألونسو دى لا كالى Alonso de La calle؛ رودريجو سانشيز RodrigoSanchez؛ أحد أقارب جابرييل سانشيز Gabriel Sanchez؛ أحد ممولى المشروع؛ ماركو Marco الجرّاح، برنال دى تورتوسا Bernal de Tor Tosa؛ طبيب أطلقت محكمة التفتيش سراحه بعد إجباره على مشاهدة إعدام زوجته، ولويس دى تورّيس Luis de Torres، مترجم، يعمل لحساب حاكم مورسى Murcie، كان يتحدث العبرية، الكلدانية والعربية، الذى لم يكن لوجوده على متن سانتا ماريا Santa Maria(*) أى مغزى سوى أن كولمب يأمل أن يصل إلى الشرق وقبائله

(*) سانتا ماريا : اسم سفينة القيادة فى أسطول الرحلة الأولى إلى الشرق بقيادة « كولمبس » والذى تكون من ثلاث سفن، كانت هى أكبرهم (المترجم : عاصم)

المفقودة، أو الوصول إلى أراض أخرى زارها من قبل رحالة يهود: ما الذى تعلمه إذن من رسّامى الخرائط؟

عند النزول على أول جزيرة كبيرة، أطلق عليها كولمب "هيسبانيولا" Hispaniola، (اليوم سان دو مينجى Saint Dominque)، أرسل الأميرال لويس دى تورّيس للاستكشاف، وزوده بأوراق اعتماد من الملكة إيزابل وهدايا لأمراء الداخل فى هذه الأراضى الجديدة. لم يكشف لويس شيئًا يشبه قصور سيبانجو - اليابان - ولا قبائل إسرائيل المفقودة. سجل عادة تدخين أوراق التبغ. بعدها بقليل، سيعود إلى الجزيرة وكيلًا للملك، سوف يستولى على أراضى الملك المحلى ويقيم فيها ما يشبه إمبراطورية صغيرة مع ألونسو دى لا كالى، واحد من خمسة يهود كانوا على متن لاسانتا ماريا "القديسة ماريا"، سفينة القيادة.

لدى عودته، كتب كولمب إلى لويس دى سانتا جيل أهم ممولى المملكة على الإطلاق، خصوصًا منذ رحيل أبرافانل وكذلك إلى جابربيل سانشيز ليحيطهم علمًا باكتشافاته، وسيقوم سانتا جيل بإبلاغ الملوك بها: لقد كان رئيس الحملة الفعلى والحقيقى أما سانشيز، الذى كان له أحد الأقارب على ظهر السفينة، فقد كان ممولها الحقيقى بلا شك.

مصير رسالة: أرسل سانشيز نسخة من الرسالة التى تسّلمها من كولمب إلى أخيه خوان، متحول منفى فى فلورنسا، حيث لا يزال يُقبل بوجود اليهود لمدة عامين قادمين، مرر خوان الرسالة إلى أحد أبناء عمومته كان يعمل بالطباعة، ليوناردو دى كوسكو Lenardo de Cosco، الذى قام بترجمتها إلى اللاتينية وطباعتها. فى بحر عام واحد، ستشهد هذه الترجمة تسعة إصدارات (طبعات): اجتاح خبر اكتشاف هذه الأرض الجديدة العالم من خلال اليهود واليهود المتحولين إلى المسيحية...

وصل بعض المتحولين مع كورتيس Cortés إلى المكسيك فى ١٥٢١، ومع بيزارّو Pizarro إلى البيرو Pérou عام ١٥٤٠. مصائر رائعة لتجار، مغامرين، مكتشفين، بحارة. كلهم تقريبًا، مخلصون إلى حد الموت لعقيدتهم المخفية، سوف يقومون بنقل تعاليمها السرية إلى الأجيال التالية.

إحدى أروع مغامرات المكتشفين - التى لا نعرف الكثير عنها[٣٢٦] - كانت مغامرة جاسبار دى جاما. المولود نحو ١٤٤٥ فى بوسن Posen (بوزنان)، فى بولندا، تحت اسم لا نعرفه، رحالة وتاجر، وصل بتجارته إلى أورشليم والإسكندرية، ثم أصبح قرصانًا فى البحر الأحمر، تم بيعه كعبد فى الهند، ثم حصل على حريته نحو عام ١٤٩٠ وعمل فى خدمة أمير چاو Gao المسلم باسم يوسف عبدالله. تبعًا لبعض المصادر، قد تكون أسطورية[٤٧٠]، أنه قد اكتسب خلالها معرفة ممتازة بالمحيط الهندى. فى عام ١٤٩٨، عندما وصل فاسكو دى جاما إلى الجزيرة، استقبله يوسف عبد الله نائبًا عن سيده، صار يقدم نفسه باعتباره يهوديًا بعد عامين من التَمَسُّح الإجبارى فى البرتغال. معمد على عجل تحت اسم جاسبار دى جاما، أصبح الرجل قبطانًا للأسطول اللوزتيانى وقاده إلى البرتغال، تلقى مكافأة من الملك، الذى لم يبد اهتمامًا بمعرفة عما إذا كان قد ظل يهوديًا أم لا. فى العام التالي، عام ١٥٠٠، رافق جاسباردى جاما كابرال فى رحلته صوب أمريكا الجنوبية وقد كان الأول، مع نيقولا كويلهو Nicola Coelho، فى وضع أقدامه فوق ما سوف يسمى فيما بعد "البرازيل". فى طريق العودة، قابل فى الرأس الأخضر Cap Vert، مرًا صغيرًا، أميرجو فيسبوتشى Amergo Vespucci، الذى سيعطى اسمه يوما ما إلى القارة. فى عام ١٥٠٢، ربما لأنه يفتقد البلاد، رحل فى صحبة فاسكو دى جاما إلى الهند، التى سيعود إليها مرة ثانية عام ١٥٠٥، هذه المرة مع فرانشيسكو دو ألميدا Francisco de Almieda الذى سيطلق عليه اسم جاسبار دو ألميدا.

فى عام ١٥١٠، اختار لنفسه مرة أخرى اسمًا جديدًا، جاسبار دو لاس أندياس. Gasbar de las Indias وأبحر إلى كالكوتا Calicut، التى يبدو أنه بقى فيها حتى موته.

هكذا كان الرجل ذى الأسماء الخمسة، يهوديًا بولنديًا، مكتشف الهند والبرازيل والذى لم يؤت تقريبًا على ذكر وجوده غير المؤكد فى كتب التاريخ.

٦ - يهودية الشرق

تجار بدلاء

(١٤٩٢ - ١٧٠٠)

فى نهاية القرن الخامس عشر، تناثر قرابة ثلاثة ملايين يهودى، أى أقل عددًا مما كانوا عليه فى العام الألفى، على سطح الكرة الأرضية. اندثر آخرون فى الأوبئة والمجازر. وأخيرًا، فإن كثيرًا قد تحولوا إلى المسيحية.

بينما برزت الرأسمالية، أساسًا فى أوروبا الغربية، كان ثلاثة أرباع الشعب اليهودى منفيين فى بلاد الإسلام بعد الترحيل من إسبانيا والفرار من بولندا إثر المذابح الجرمانية.

ديار الإسلام

كانت كل الأماكن اليهودية المقدسة واقعة فى ذلك الوقت تحت السيطرة الإسلامية: بابل، التى جاء منها إبراهيم، مصر التى جاء منها موسى، يهودا حيث جاء الرُسل. امتدت المملكة العثمانية من جنوب النمسا إلى تخوم المغرب، فى أوروبا، كانت تضم بلغاريا، رومانيا، إسطنبول، سالونيكى Salonique، أندرينوبلى Andrinople والجزر اليونانية، كانت سيدة موانئ البحر المتوسط الإسلامية، فيما عدا المغرب، كانت تتحكم فى كل المنافذ فى البحر الأحمر، الخليج الفارسى والبحر الأسود؛ وفوق ذلك، من خلال حلب، دمشق والقرم، كان العثمانيون سادة النقل البرى، يتحكم تجار يهود وأرمن، لحسابهم، فى التجارة نحو الشرق الأقصى وعملوا كوسطاء لتحرير الأسرى المسلمين المقبوض عليهم فى البلاد المسيحية أو لافتداء المسيحيين الأسرى لدى المسلمين.

عاشت الطوائف اليهودية، العديدة، فى هذه الإمبراطورية، حرة تقريبًا. أحيانًا مضطهدة، لكنهم لم يطردوا مطلقًا، ذميين فقراء ومحتقرين بشكل عام، لم يكن مسموحًا

لليهود ببناء معابد جديدة وظلوا خاضعين لضرائب خاصة ضريبة الرأس (الجزية) وضريبة عسكرية (البدل) تقدم إلى السلطان أو إلى حكام الأقاليم فى مواعيد الأعياد الإسلامية الكبرى، مصحوبة أحيانًا بالتحقير أيضًا: يُصفع دافع الضريبة بعد سداد الرسوم المقررة عليه[٤٥٤]. اجتهد المسئولون فى توزيع الأعباء الضريبية بأعدل ما يمكن، خضع الأكثر ثراءً للضرائب مثلهم مثل غيرهم حتى لا يكون هناك تمييز داخل الطائفة. قام جباة الضرائب، الذين تقوم الحاخامية بتعيينهم، بتقدير ثروات أفراد الطائفة وقدراتهم على المساهمة فى سداد الضرائب. أحيانًا كان أكثر أعضاء الطائفة ثراءً يحاول أن يملى على الطائفة تقديره الشخصى لثروته، الأمر الذى كانت المحاكم اليهودية (بيوت الدِين) ترفضه. مارس اليهود كل المهن، من البائع المتجول إلى مستشار الأمير، لكنهم كانوا دائمًا فى مرتبة أدنى من غيرهم. حتى الأغنياء منهم، لم يكن لهم الحق فى امتلاك ما يمثل الجاه والأبهة الحقيقية، لا عبيد من المسلمين (ماعدا فى القاهرة وفى دمشق)، لا قصور، لا جياد، لا سفن لها أكثر من ستة مجاديف، لا ملابس مترفة[٢٤]. وفى المقابل، كان لهم الحق فى اقتناء عبيد من غير المسلمين.

بعد عام ١٤٩٢، كان الحال قد انتهى بأربعة وثمانين ألف يهودى من يهود شبه الجزيرة الأيبيرية بالتواجد، بطريقة أو بأخرى، فى الإمبراطورية العثمانية. تبعًا لمصادر يهودية[٦٦]، فإن الحاخام كابسالى **Capsali**، ممثلًا لليهود المنفيين، قد التمس من بايزيد الثانى **Bajazet II** السماح لهم بالتواجد فى الإمبراطورية، وأن العاهل العثمانى قد استقبله فى إسطنبول بترحاب كبير قائلًا: "كيف يمكن أن يكون هذا الملك حكيمًا وذكيًا عندما يقوم بإفقار مملكته وإثراء مملكتى؟"

تكدس اللاجئون أولًا فى إسطنبول، حيث استقبلتهم بترحاب الجاليات الصغيرة من الحرفيين المتروّمين والبغداديين. وبينما لم يكن هناك، فى ١٤٧٧، سوى ١٦٤٧ بيتًا يهوديًا فى هذه المدينة، أى عشرة بالمائة من تعداد المدينة، أصبح عددهم ٨٠٧٠ فى عام ١٥٣٢، أى أكثر من الثلث دون أن يتسبب ذلك فى إثارة ردود فعل مناهضة.

بمجرد وصولهم، انطلق التجار والحرفيون الإسبان فى ممارسة المهن التى يعرفونها والتى لا تتطلب رؤوس أموال كبيرة: صناعة بارود الأسلحة النارية، الغزل،

النسيج، الصباغة، الحياكة، الدباغة، صناعة الأحذية، تجارة الأحجار الكريمة، الذهب والفضة، السمكرة، البقالة والعطارة. بل إن السماسرة اليهود قد تمكنوا من السيطرة على، واحتكار تجارة النبيذ، شمع النحل، وفى بعض المناطق، احتكار ضرب النقود، الأكثر أهمية. سرعان ما أصبحت علاقتهم بالاقتصاد العثمانى استثنائية ولا حدلها.

فى عام ١٤٩٣، ما إن وصلوا من إسبانيا مع آلات الطباعة وأحرف الطباعة اللاتينية والعبرية حتى أنشأ دافيد وصامويل بن نحمياس أول مطبعة فى إسطنبول(٦٦). قاما أولًا بطباعة التوراة خماسية الأسفار مع حاشية مفسرة: كانت الطوائف الجديدة فى حاجة شديدة إلى ديانتها. افتتح الأخوان نحمياس بعد ذلك مطابع أخرى فى أنحاء الإمبراطورية العثمانية وقاما بنشر أعمال دينية وعملية. صار ذلك بسرعة صناعة مزدهرة. خلال قرنين من الزمان سوف تظل كل المطابع التى جرى إنشاؤها فى الإمبراطورية العثمانية يهودية: فى ١٥٠٤ فى إسطنبول، ١٥١٠ فى سالونيك، ١٥٤٤ فى أندرينبول، ١٥٥٧ فى القاهرة، ١٦٠٥ فى دمشق، ١٦٤٦ فى سميرنا (أو إزمير) ميناء جنوب تركيا الكبير. لن تظهر أول مطبعة غير يهودية فى تركيا إلا فى عام ١٧٢٨، ما يؤكد التفوق والسبق الفكرى للمجتمع اليهودى على المجتمع العثمانى فى تلك الفترة.

التحق بعض هؤلاء القادمين الجدد أيضًا بالطوائف المستقرة قبلًا فى المدن – المحطات على طريق الحرير: فى أزمير، فى طرابازون، فى سمرقند، فى بخارى. رأيناهم كذلك فى التجارة الواسعة مع البندقية، الهند والصين(٦٦).

استعاد البعض مهنهم القديمة، فلكيين، ممولين، تجار. استخدمهم الأمراء العثمانيون كدبلوماسيين لأنهم يدركون أن اليهود ليسوا مستعدين لخيانتهم لصالح الأمراء المسيحيين. أحاط السلاطين أيضًا أنفسهم بالأطباء اليهود. فى عام ١٥٥٣، كتب أحد الرحّالة الفرنسيين، بيير بيلون pierre Belon، قائلًا:

"إن السواد الأكبر ممن يمارسون الطب فى تركيا، مصر، سوريا، الأناضول، ومدن أخرى فى بلاد الأتراك قد كانوا من اليهود. كان من السهل على اليهود اكتساب بعض المعارف الطبية، لأنهم تمكنوا من الحصول على المراجع والكتب اليونانية، العربية

والعبرية التى تمت ترجمتها إلى لغتهم مثل أبو قراط Tlippocrate، جالينوس Galien، ابن سينا، المنصور، راسيس، سيرابيون ومؤلفين عرب آخرين[٣٤٥]".

فى كل مكان ساد فيه الإسلام - من المغرب إلى فلسطين - نجح المائة وعشرون ألف يهودى القادمون من إسبانيا فى الاستقرار والإقامة بشكل تقريبًا حر. ظلت اللاتينية لوقت طويل هى لغة التعبير الشائعة، حررت معاملاتهم بالعبرية، بالعربية وبلغة قشتالة.

فى عام ١٥١٧، ضم سليم الأول أذربيجان، سوريا، بلاد ما بين النهرين ومصر إلى الإمبراطورية العثمانية. غادر اليهود آنذاك إلى رشيد، القاهرة، حلب (حيث نمت وتطورت ما سوف يصبح طائفة واسعة من التجار ورجال الفكر)، بغداد، أصفهان، تبريز فى أرض فارس، وإلى كل المدن التركية فى إفريقيا، آسيا والبلقان. استولى سليم الأول على أورشليم عام ١٥١٨. بعد قليل سيصل عدد المعابد اليهودية فى القاهرة إلى ثلاثين معبدًا وطائفة تحولت كليًا إلى التجارة الخارجية؛ فى يوم السبت، تظل مكاتب الجمارك مغلقة، ولم يكن ممكنًا للبضائع اليهودية ولا بضائع المسلمين ولا بضائع المسيحيين أن تدخل إلى المدينة.

بعد قليل، سوف تستولى الإمبراطورية الجديدة على جزيرة العرب ومكة المكرمة: اتّخذ السلطان - سليمان ابتداءً من ١٥٢٠ - لقب الخليفة، زعيم كل المسلمين فى العالم بأسره. غير أنه سقط أمام فيينا فى أغسطس ١٥٢٩. بعد ضم فلسطين، حيث يعيش الآن أقل من مائة ألف يهودى، تم إلحاقها بالإقليم السورى. تعايش الجميع فى فلسطين: أكراد، دروز، يونانيون أرثونكس، أرمن، أحباش، جورجيون ورومانيون كاثوليك. تراجعت طائفة أورشليم، وقد عوّض ذلك امتداد وتوسع الطائفة الصفدية فى الجليل، التى التحق بها بعد الكثير من المتاعب بعض المطرودين من إسبانيا: مثل الحاخام موسى الطرانى Moise de Trani والحاخام يوسف كارو joseph Caro، الذى كتب عام ١٥٥٥، "الشولخان أروخ" shulkhan Arukh، الذى يلخص القواعد الأخلاقية الممكن تطبيقها فى الشتات. للتمكن من البقاء، أرسلت الطوائف الكاباليستية (التلمودية) هذه بعض الحاخامات إلى أوروبا ليبيعوا هنا كتبهم التى قاموا بطباعتها بأنفسهم مع أكياس من تراب الأرض المقدسة ليُنثر فوق المقابر.

فى هذه الإمبراطورية، شهدنا مصيرين يهوديين استثنائيين: كانت جراثيا ها ــ ناسى Gracia Ha - Nassi ، المولودة فى البرتغال عام ١٥١٠ فى أسرة من المتحولين باسم مسيحى، بياتريز دى لونا Béatriz de Luna، قد تزوجت بتاجر أحجار كريمة ومصرفى، فرانشيسكو منديس، المتحول هو الآخر مثلها(٣٤٤). بموت زوجها فى عام ١٥٣٦، التحقت بياتريز بأخى زوجها، جوزيف دييجو منديس، الذى كان قد رحل إلى أنفرس فى العام السابق، يهودى دومًا فى الخفاء. فى المدينة التى لا تزال تحت وصاية إسبانيا، تعرض جوزيف للسجن – سوف نرى فيما بعد الظروف المحيطة بذلك – ثم جدد صلاته بالسلطة: منحه شارل كانت Charles Quint لقب نبيل، فأصبح مموِّلًا للعديد من ملوك أوروبا. إلى جواره، قامت بياتريز بمساعدة بعض اليهود سرًا، فى الفرار من محاكم التفتيش البرتغالية. فى عام ١٥٣٤، لدى موت أخى زوجها، غادرت بياتريز أنفرس مع ابن دييجو الشاب، كان اسمه خوان ها – ناسى دييجو منديس، المولود فى البرتغال عام ١٥١٤، الذى كان فى أنفْرس رفيق الصبا لمن سيصبح الإمبراطور القادم، ماكسيمليان Maximilien(٣٤٥). سافر الاثنان إلى فرنسا، مرورًا بالبندقية، واستقرا فى فيرارى Ferrare، حيث سيعودان إلى يهود يتهما ويصيران من أصحاب البنوك. قاما بالتخلى عن اسم لونا Luna: اتخذت هى اسم جراثيا ها – ناسى وهو اسم خوان ها – ناسى، اسم خالته أو عمته عندما كانت فتاة شابة. استمرا فى مساعدة اليهود سرًا وأنفقا فى سبيل هذه الغاية قدرًا هائلًا من المال، حتى أن أختًا لجراثيا، متحولة تعيش فى البرتغال، قد وشت بها إلى محاكم التفتيش. هربت جراثيا وخوان مرة أخرى واستقرا هذه المرة فى تركيا، عام ١٥٥٣. ولأنهما مصرفيان، فقد تخصصا فى توظيف أموال التجار اليهود العثمانيين فى الخارج، الذين كانوا فى معظمهم أصدقاء قدامى من إسبانيا والبرتغال. تمكن خوان منفردًا من تدبير ١٥٠ ألف دوكات أقرضها لملك فرنسا، هنرى الثانى Henri II، الذى سوف يقوم بسدادها. بعد أن صار من المقربين من السلطان سليمان الثانى وأحد مموليه، أغراه ذات مرة بمصادرة أحد الأساطيل الفرنسية العابرة بأحد الموانئ العثمانية لحين الوفاء بقرض العاهل الفرنسى غير المسدد. فى ١٥٥٥، أقنع سليمان أيضًا بأن يطلب من البابا – فى ظروف سنتحدث عنها لاحقًا – إطلاق سراح اليهود الرهائن فى أنكون، يبدو

أن جراثيا ها – ناسى قد اشترت من السلطان أراض فى محيط مدينة طبرية، فى فلسطين لتدفن فيها يومًا ما. استثمرت جراثيا كثيرًا من المال هناك لتجتذب إلى هذه الأراضى يهود أيكون، الذين كانت قد تعرفت على أوضاعهم البائسة منذ ثلاثة أعوام خلت. غير أن أول سفينة تحمل المهاجرين تعرضت لهجوم القراصنة، نُهب مسافروها، وتعرضوا للقتل، أُجهِضت الفكرة. فى عام ١٥٦٦، رفع سليمان القانونى خوان إلى رتبة دوق ناكسوس Duc de Naxos وأقطعه جزيرة إيبونيم éponyme(٣٤٥)

كان ناسى ساعتها –تحت خمسة أسماء مختلفة – رجلًا نافذًا سواء عند اليهود (بسط حمايته على يهود سالونيك) أو لدى السلطان ذاته (استخدم علاقاته مع يهود أمستردام لمساعدة الباب العالى فى مواجهة فيليب الثانى ملك إسبانيا، الذى أمر بإحضاره إلى صقلية حيًا أو ميتًا(٣٤٥)). عندما ماتت جراشيا فى ١٥٦٩، أشار خوان ناسى على السلطان سليمان بمهاجمة فينيسيا (البندقية) للاستيلاء على قبرص، التى أراد أن يجعل منها ملجئًا لليهود. كارثة: انتهت هذه الحرب، ١٥٧١، بهزيمة سليمان أمام جيش البندقية بقيادة خوان ملك النمسا، فى مدينة ليبانت Lépante، ابن شارل كانت غير الشرعى، برغم أن هذه الحرب، التى تحالفت فيها كل القوى الكاثوليكية باستثناء فرنسا ضد العثمانيين، قد تجاوزت مصير قبرص بمراحل، فقد أعتبر يهود البندقية شركاء فى مؤامرة خوان ها – ناسى الذى فقد حظوته لدى سليمان ومات فى ١٥٧٩.

بعد آل ها – ناسى، أصبح يهود آخرون من الإسبان رجال بنوك، دبلوماسيين أو أطباء مهمين فى البلاطات السلطانية: مثل إستير كيرا فى عهود مراد الثالث، محمد الثالث وأحمد الأول، ألوارومنديس Aluaro Mendes، الذى أنعم عليه مراد الثالث بلقب دوق ميتلِن Due de Mytilen، سالومون روف Salomon Rophe، الذى عهد إليه السلطان بمهمة إدارة مفاوضات السلام مع جمهورية البندقية بعد موقعة ليبانت، سالومون بن ناثان إشكنزى Salomon ben Nathan المكلف بإقامة أولى العلاقات الدبلوماسية مع إنجلترا.

غير أن حقبة المجد الزاهية كانت قد ولت. وكما يحدث دائمًا فى مرحلة التراجع والتهاوى، عاد اليهود إلى أيام الاضطهاد. بتزايد الاحتياجات المالية للسلطنة العثمانية،

ارتفعت الضرائب المفروضة على اليهود تباعًا. بل إن مراد الرابع قد أمر، فى عام ١٦٣٦، بإعدام يهودا كوفو Juda Kovo، رئيس طائفة سالونيك، لأنه لم يجلب إليه قيمة الضرائب المقررة قانونًا على الأجواخ. انخفض مستوى معيشة الطوائف اليهودية، فضلًا عن أن بعض الأقليات الأخرى، خاصة اليونانية والأرمنية قد شرعت الآن فى منازعتهم تفوقهم التجارى.

مغامرة أخيرة قضت على مصداقية اليهودية العثمانية فى نظر باقى شعوب العالم، مع تأثيرات هائلة على المستويات الاقتصادية، السياسية والاجتماعية.

فى أواسط القرن السابع عشر. دفع تراجع الإمبراطورية العثمانية الطوائف اليهودية إلى حالة من التصّوف. حتى إن بعض علماء مدرسة صفد، المتمتعين باحترام عميق، قد أعلنوا فى كل أنحاء الإمبراطورية عن مقدم المسيح المحتمل عام ١٦٦٦. تكررت مثل هذه النبوءة مرات عديدة عبر قرنين من الزمان. أخذت هذه المرة أيضًا على محمل الجد. ضاعفت الاضطهادات التى واجهتها فى نفس الوقت الطائفة اليهودية الكبرى الأخرى فى بولندا من الرجاء المنتظر عشر مرات.

لذلك، لم يستغرب أحد عندما أعلن فى ١٦٦٦ أن المسيح قد عاد: كان يدعى شاباتاى زيفى Shabatai Zvi[٣٦٦]. ولد هذا الرجل عام ١٦٢٦ فى مدينة إزمير، أهم موانئ الإمبراطورية، حيث تزدهر طائفة يهودية متألقة بصورة خاصة. رحّالة زاهد يدعى الرؤيا، زعم شاباتاى زيفى أنه "الرجل الذى اختاره الله"، اجتذب إليه العامة وأثار غضب الحاخامات، قام بتدريس القبالة (التلقى) على الطرقات المؤدية إلى أورشليم وصفد حيث أثار علمه دهشة المتصوفين. ادعى أحد مرافقيه فى السفر، ناثان الغزاوى Nathan de Gaza أنه المسيح. لم يكذّب حكماء القبالة هذا الزعم. فى عام ١٦٦٥، وصل النبأ إلى إيطاليا، هولندا، ألمانيا، بولندا. دفع الحماس عشرات الوفود للذهاب إلى إزمير حاملين الرسائل إلى شاتاى زيفى وكذلك هدايا من مسئولى أكبر الطوائف اليهودية فى أوروبا، طوائف البندقية، ليفورن Livourne وأمستردام. تحول الشغف إلى جنون: تجار، حاخامات، أطباء تخلوا عن كل شىء للانضمام إلى شاتاى. لم يدم ذلك طويلًا: فى ١٥ سبتمبر ١٦٦٦،

أمر السلطان بالقبض عليه ونقله إلى إسطنبول. طلب منه أن يختار بين قطع رقبته وبين الإسلام. بلا تردد اختار شاتاى الإسلام ومنح لقب "حارس أبواب القصر" بمعاش يومى قدره مائة وخمسون قرشًا.

مذهولة، رفضت جميع الطوائف أولًا هذه النهاية المزرية. قال ناثان الغزاوى: إن تحول أستاذه لم يكن إلا حيلة ماكرة تهدف إلى تمكينه من متابعة مهمته، بل إن بعض أتباعه قد تحولوا مثله إلى الإسلام، "خنازير" مسلمة تثير الشفقة، مستمرة فى تلاوة التوراة وإقامة صلواتها وقداساتها فى الخفاء.... فى كل مكان كان الجميع موزعًا بين كراهية الذات، الخوف من السخرية واستنكار موقف الحاخامات الذين جعلوا من الرجال مسيحًا. مزق التجار الوثائق التى اعترفوا فيها به ابنًا لداوود وأحرقوا الكتابات التى تتحدث عنه.

ستكون للواقعة ردود فعل عميقة على مجمل المجتمعات اليهودية فى العالم بأسره ومكانة اليهود فى اقتصاد العالم. تزعزعت من وقتها فصاعدًا سلطة الحاخامات: تقدم العلمانيون على رجال الدين، التجار على المتعلمين والمفكرين، الأخلاق الحديثة على أخلاقيات العقيدة الدينية. فى جالية الأطباء وبعض الحاخامات، مثل ابن ميمون الحاخام – الطبيب، تأكد التفكير اليهودى العلمى. تردد صدى هذا التفكير على يد سبينوزا Spinoza فى هولندا، وفى إنجلترا على يد لوك Locke، فى فرنسا على يد فولتير الذى تهكم على اليهود الذين جعلهم واحد منهم أضحوكة العالم[٤٣٢]. المغرب، كانت البلد المسلم الآخر خارج الفلك التركى، الذى يتولى فيه اليهود لعب أدوارٍ مهمة. هناك أيضًا، كان اليهود سماسرة، حرفيين، ممولين للملوك، قائمين على إدارة الشبكات التجارية والدبلوماسية. فى عام ١٤٩٢، استقر فيها عشرون ألفًا منهم. كانت شواطئه آنذاك تحت سيطرة البرتغاليين، الذين دفعوا (بنى مرين) Les Merinides نحو الداخل،الذين كانوا قد حلوا محل الموحدين فى عام ١٢٤٨. حاول معظم المطرودين أولًا الإقامة فى فاس، غير أن المدينة رفضتهم. رحل بعضهم إلى الجزائر وإلى الدولة العثمانية. عاد آخرون إلى إسبانيا، يائسين، ثم تحولوا إلى المسيحية دون أن يستردوا ممتلكاتهم. وانتهى الأمر بمن بقى فى المغرب بالاستقرار فى ساليه Salé، فى مراكش، حيث سرعان ما تقدموا على الجاليات اليهودية التى كانت قد سبقتهم إلى هناك.

استولى السعديون على السلطة، نحو عام ١٥٥٠، إلى أن استقر الطويون فى بلد قد تحرر أخيرًا من البرتغاليين، فى ١٦٠٣. آنذاك ابتدأ عصر جديد، بالنسبة ليهود مملكة الأشراف [٤٥٨]. مكدسين فى حارات خاصة بهم، الملاَح، مارس اليهود كل صنوف التجارة: مواد خام، القمح، اللوز، الشمع، التين. صار آخرون حرفيين، صاغة أو باعة جائلين، وجد آخرون أنفسهم أيضًا وقد انحدر بهم الحال وتحولوا إلى حمّالين أو إلى متسولين يعيشون على الصدقات. عمل بعض الحاخامات ببيع الورق، صناعة الحبر، عيدان الثقاب، كتبة التعاويذ، اكتسب آخرون عيشهم بالعمل منشدين، خطّاطين، نسّاخًا، صناع سيور جلدية، عقّادين، صُناع شيلان الصلاة، قصابين شرعيين ومُختنيين. كانت الحياة الدينية تختلط بالحياة الاقتصادية وترتبط بها ارتباطًا لصيقًا. يتدارس الناس التلمود دائمًا، يجتمعون أحيانًا فى أحد المتاجر، عندما تهدأ حركة العمل، لمناقشة نص الأسبوع [٤٥٨]. نسهر إلى ساعات متأخرة، لأن التأملات الدينية تكون أكثر إبداعًا وخيالًا فى الليل.

مثلما كان الحال فى أى مناطق أخرى، كان على الأغنياء العيش بطريقة متواضعة ومتوارية، يجب تفادى الإسراف فى إنفاق المال حتى لا تتعرض أموال الجميع لطمع الأغراب. حددت المحاكم بتفصيل مفرط الملابس والحلى التى يمكن استخدامها، كيف يجب أن تكون احتفالات الزواج، طقوس الختان، افتداء الابن البكر. وقد ذُكِرَ عرضًا فى أحد قرارات المحكمة الربانية فى فاس، عام ١٠٦٣، وجود أسرى مسيحيين لدى كبار تجار حارة اليهود وذلك فى معرض تفسيرها لجواز تقديم المشروبات الكحولية إلى المسيحيين الأسرى أو المسبيين فى حضور المسلمين [٤٥٨]. وفى مدينة موجادور Mogador، مدينة جديدة أنشأها مولاى حسن وأقام فيها طائفة يهودية قوية لمواجهة الاعتداءات البرتغالية، امتلك بعض اليهود أيضًا، مثل النبلاء العرب، حريمًا من الجوارى السود [٤٥٩].

تفنن التجار اليهود فى الالتفاف على الحظر المفروض على فوائد القروض التى تجرى بينهم. كانوا، على سبيل المثال، يخبرون الحاخامات، عندما يرتاب هؤلاء فيهم، بأن المقترض قد دفع بشكل تلقائى مبلغًا إضافيًا إلى المقرض، أو يرتبوا لسداد القرض بعملة أخرى، غير الأولى، بسعر صرف وهمى، وفاءً لقيمة الفائدة. أو أن يجرى السداد

أيضًا بالذهب، أو بأى مادة أولية أخرى، بسعر يفى بقيمة الفائدة. لم تكن المحاكم غافلة عما يدور: منع حكم صدر عام ١٦٠٣ كُتاب العدل القانونيين من تحرير عقود تتعلق ببعض السلع المستخدمة فى مثل تلك التعاملات (القمح، الشمع، الزبد، العسل، زيت الزيتون، الحرير) وأدخل إلى دائرة الاتهام "كل شخص غير متخصص فى الاتجار بها"[٤٥٨]. أحيانًا يكون اختلاف سعر الصرف حقيقيًا، ويجب أخذ ذلك فى الحسبان: مثلما جرى فى عام ١٦٠٩، فعندما استولى مولاى عبدالله على فاس، تباينت أسعار الذهب صعودًا وهبوطًا، قررت السلطات الحاخامية حينذاك توزيع الخسارة الناجمة بالتساوى بين المقرض والمقترض.

أديرت شئون الطوائف بواسطة تجار مترابتين تسلسليًا وفقًا لعطاياهم فى فئات "أفضل رجال المدينة" "أفضل رجال المعبد"، "نخبة المجتمع" و "الطبقة السائدة"

بصفة عامة، مورست المهام المتعلقة بالطائفة تطوعًا. رفض الكاهن (حاخام) يهود بن عطار Judah ben Attar، صائغ شهير، أن يُكافئ ماليًا مقابل رئاسته محكمة فاس الربانية.

تختار الطائفة بأكملها، ما بين الأعيان، أميرًا (نجيدًا أو مرشدًا) يقوم بتنظيم العلاقات مع الملك. مثل أمير أو حاكم المنفى فى بلاد ما بين النهرين، النجيد (المرشد) فى مصر أو الستدلان Stadlan فى ألمانيا، صار النجيد فى المغرب، فى الغالب من مستشارى الملك، سفيرًا، وأحيانًا حتى معتمدا للجيوش. يساعد الأمير بعض الرجال، مُخازانى، ما يشبه شرطة يهودية تعمل على حفظ النظام واستتباب الأمن داخل الطوائف وتقوم بحماية حارات اليهود (الملاح) من اعتداءات المسلمين (المتكررة)[٤٥٩].

لمساعدة الفقراء، منع تغيير الديانة القسرى وإعادة شراء العبيد الذين أجبروا على تغيير ديانتهم – ما كان مسموحًا به فى بلاد المغرب المسلمة – موّلت الطوائف نفسها عن طريق الضرائب (على الملح، على المواد الغذائية، على النبيذ) وبواسطة غرامات تفرض على من ينتهك المحظورات المفروضة على مظاهر الثراء الخارجية، بيع حق اعتلاء المنصة (لتلاوة الصلوات فى المعبد) بالمزايدة، وبتبرعات نصف سنوية يقدمها المؤمنون. فى المدارس اليهودية، يدفع أولياء الأمور أجرًا للمعلم، ليس لقاء قيامه بالتدريس، الذى

يكون مجانيًا، ولكن من أجل رعاية الأطفال، "تعويضًا عن الوقت الذى يقتطعه من مشاغله الاعتيادية[٤٥٩]" . يؤكد العرف، فى جنوب المغرب، أنه كان يتلقى فى أيام الجمعة "خبز المعلم" . هنا كما فى غيرها من البلاد، كان التصدق فعّالًا: يشير خطاب يعود إلى عام ١٦١٣، أثناء إحدى المجاعات، فى فاس، إلى أن "أكثر من ستين شخصًا من المسلمين كانوا يموتون يوميًا من الجوع، لكن، حمدًا لله، لم يهلك فيها يهودى واحد[٤٥٩]" .

كان لكبار التجار اليهود المغاربة منافذ تجارية وفروع فى كل مدن الإمبراطورية العثمانية، من الجزائر إلى صوفيا، من سراييفو إلى المونستير، من باتراس Patras إلى إزمير، من فولوبيليس Volubilis إلى جاليبونى Gallipoli. قاموا لدى الملوك المسيحيين بدور دبلوماسى مع البرتغال، هولندا، وإنجلترا[٤٥٩]. وعلى هذا النحو، أرسل خليفة بن مالكا Khlifa ben Malka، وسيط تجارى عام، عالمًا تلموديًا وشاعرًا، إلى ممثله التجارى فى أمستردام، الحاخام إسحاق بن سالومون يشوروم Issac ben Salomon Yeshurum مجموعة من التفاسير حول طقوس السفارديم وشعائرهم الدينية. كلَف خليفة مولاى إسماعيل، عام ١٦٨٤، يوسف الطليطلى joseph de tolede بإدارة مفاوضات السلام مع الأقاليم المتحدة. كان للتاجر يوسف بلاّخ ثلاثة أبناء: إسحاق، سمسار فى أمستردام ومدرس للغة العبرية فى جامعة لايد Leyde، موسى، كاتم أسرار سلطان المغرب، دافيد (داوود)، كان من الرعايا الهولنديين والمغاربة فى نفس الوقت، سفير دولة المغرب فى لاهاى، ثم فى القسطنطينية.

أحيانًا، كان البعض كما يبدو ينغمس فى أعمال مسيئة معقدة فى غير مصلحة الملك: كما حدث فى مايو ١٦٢٤، عندما قام أحد التجار اليهود من مدينة ساليه، أرون كريدو Aaron Querido. بشراء أسلحة وذخائر، من اثنين من تجار أمستردام، دييجو نونيز ديل مونتى Diego Nunez del Monte وفرنشيسكو فايز دى ليون Francisco Vaez de Léon، وقام بإرسالهم على سفن إلى أحد قواد القصبة المتمردين حينها على الملك. أمر الملك بإلقاء القبض عليه والاحتجاج لدى سفير هولندا، جوزيف بيسكانيو joseph Biscayno، اليهودى هو الآخر، على إرسال تلك الأسلحة إلى واحد من أعدائه على ظهور سفن هولندية. فى نفس الوقت تقدم هذا القائد بالشكوى لدى السلطات الهولندية من هؤلاء

التجار أنفسهم قد "اختصوا العدو (ملك المغرب) ببعض الامتيازات من خلال إرسالهم له بالبارود والبنادق والذخائر على ظهر سفن تابعة لسموكم، بفضل بنجامان كوهين Benjamin Cohen وأرون كريدو[٤٥٩]" : لقد قام أرون كريدو هذا إذًا بتدبير الأسلحة إلى طرفى النزاع. من المفهوم والطبيعى أن جلالة الملك لم يحبذ ذلك...

القرنان الذهبيان فى بولندا

بعد أن اتحدت مع أوكرانيا ثم مع ليتوانيا، امتدت بولندا على ما مجموعه ٨٠٠٠٠ كيلو متر مربع ابتداءً من البلطيق إلى القرم Crimée التتارى (من البحر إلى البحر). رحبت الدولة بالجميع: مسيحيين شرقيين، كالفنيين مثلهم مثل اليهود القادمين من ألمانيا، بوهيميا، المجر، سيليزيا السفلى، النمسا، إسبانيا وسواحل البحر الأسود التركية. إن لم يخلُ الأمر من المنازعات الدينية، فإنها قد دارت بلا عنف، أما الكنيسة؛ وحتى الاسترجاع البطىء لأرواح المؤمنين التى يقوم بها اليسوعيون بعد حركة الإصلاح المعاكس، فقد خضعت تمامًا للأمراء الذين كبحوا جماحها[٤١٤]. أديرت كل جنسية أولًا وفق قانونها الخاص، تلقت مزايًا عامة و فردية انصهرت شيئًا فشيئًا فى قانون واحد [٤١٤].

فى عام ١٤٩٥، بعد ثلاثة أعوام من طرد اليهود الأخير من إسبانيا، أقر أليكسندر جاجيلون Alexandre Jagellon مجددًا بحقهم بالعيش فى بولندا[٤١٤]، على رغم بعض الاعتداءات المناهضة لليهود. نحو عام ١٥٠٠، لم يتجاوز عددهم الثلاثة وعشرين ألف نسمة، أى ٠,٦٪ من تعداد السكان متناثرين فى ٨٥ مدينة وقرية[٤١٤]. بعد قرن ونصف القرن سوف يصبح العدد أكثر من ٥٠٠٠٠٠، مثلث ٥٪ من تعداد السكان، فى مساحة من الأرض أكثر اتساعًا.

تنوعت المهن التى يمارسونها تنوعًا كبيرًا من مدينة لأخرى. كانوا مزارعين، تجارًا، باعة جائلين، أصحاب طواحين، حانات ونزل، موسيقيين، سائسى خيل، خدم فى البيوت – لدى اليهود الأكثر ثراءً – مُصَنِّعى جلود، منسوجات، ملابس، موظفين فى خدمة الطائفة. فى بعض المدن كان حرفيوهم وخبراؤهم (صاغة، حلاقين، صيادلة، أطباء، مصنعى سلع

ومنتجات غذائية) مرغمون على دفع ضرائب باهظة للنقابات المحلية فى مدن أخرى، كانت الحرف اليدوية ممنوعة عليهم وظلوا يعملون بها سرًا. وفى مدن أخرى أيضًا، كان من المسموح لهم الدخول فى النقابات العمالية مع الحرفيين المسيحيين. وأخيرًا، كان لهم الحق، فى مدن أخرى، فى إنشاء نقاباتهم الخاصة. حرّم عليهم الحاخامات ممارسة بعض المهن. فى منتصف القرن السادس عشر، على سبيل المثال، أباح الحاخام موسيس أيسريل، كبير معلمى الطائفة، تجارة أدوات أداء طقوس العبادة الكاثوليكية مثل المسابح، بينما حرّم آخرون ذلك. بعد ذلك، أفتى الحاخام يهودا لويو Judah Loew، الشهير بمهرال براغ – واسع النفوذ فى بولندا طول نصف قرن – معتمدًا على تفسيرات نصوص "القبالة" بأن تجارة الجلود مع غير اليهود تطرد من يمارسها من "ملكوت إسرائيل السماوى".

كانوا أحيانًا يقومون بإدارة تجارة الملح لحساب الدولة، مثلما حصل شاؤل فروديكز Saul Frudycz، الذى وكّله الملك بإدارة تجارة الملح فى مدينة كودون Koden (على بعد ٦٠ كيلو مترًا من برست – ليتوفسك Brest - Litovesk)، على قروض منخفضة الفائدة جدًا من الخزانة الملكية، لبناء وتجهيز برج للتبخير وصهريج لإنضجاج عجائن الملح[٤١٤].

استخدمهم الملوك أيضًا كجباة للضرائب أو لرسوم الجمارك: هنا أيضًا كان تشكيل الدولة يتطلب تمويلًا خارجيًا.

استخدم كبار الملاك العقاريين، المتنافسين مع الملوك، بعض اليهود كوكلاء أو متعهدين لإدارة أراضيهم الزراعية. فى مقابل رسم معين على المحصول، كان المتعهدون يدفعون لأصحاب الأراضى مقدمًا قيمة المحصول، ثم يحصلونها من المزارعين، وقد صاروا أصحاب نفوذ كبير أمكنهم من استقدام يهود آخرين إلى الأراضى التى يقومون بإدارتها للعمل كأصحاب نُزل (مهنة مميزة جدًا)، عمال مطاحن، خدم. بل إن بعض القرى قد تكونت حول هؤلاء المتعهدين الكبار.

صار حجم نشاط الإقراض كبيرًا وكان على حاخامات بولندا أن يجيزوا ممارسته بشكل واضح: بالنسبة للحاخام يهودا لويو، فإن الحق فى الإقراض بالفائدة يتأتى من

أن القيمة العددية لكلمة فائدة فى العبرية ٦١٢، مما يثبت، تبعًا له، أن الإقراض يعادل فى حد ذاته الاستجابة لـ ٦١٣ التزامًا من التزامات الشريعة[٤١٤]. وكما فى غير بولندا من الأماكن، بخلاف إقراض التجار الأثرياء، قدم اليهود قروضهم إلى الحرفيين والتجار المسيحيين الأغنياء مستخدمين المامران mamram (فى اللغة البولندية membran joly)، ذلك السند المختصر للغاية، الذى ابتكره وطوّره اليهود الفرنسيون فى القرن الثانى عشر، الذى يحدد قيمة القرض، تاريخ السداد ويحمل توقيع المقترض.

تداخلت مهنتا الوسيط والمرابى فى بولندا، كما فى غيرها من البلاد. كتب أ.جاربسكى A.jarbeski، شاعر ومؤلف موسيقى فى بلاط براندبورج Brande bourg ثم فى بلاط بولندا، فى القرن السادس عشر:« إن اليهود يسدون إلينا بعض الخدمات عندما يجلبون إلينا الفراء، الذهب، الفضة، الحبال، الأذرار، لأن كل شيء رخيص فى بلادهم. يمكننا أن نحصل على كل شيء إما عن طريق القروض، أو عن طريق المقايضة. إنهم يقيمون الأسواق فى بلادهم كل أيام الأسبوع ما عدا يوم السبت. لكن إن كان من الحقيقى أنهم يحققون قليلًا من الربح فيما يبيعونه، فإنه من الحقيقى أيضًا أنهم يقدمون الكثير فى مقابل هذه النقود[٤١٤].»

ما قام به اليهود كان تجديدًا بالنظر إلى ما كان يجرى فى أماكن أخرى من أوروبا: كان اليهود يؤدون بحق وظيفة البنوك: لا يقومون فقط بتقديم القروض بل إنهم يديرون ويوظفون مدخرات عملائهم المسيحيين. لقد بدأ هذا بقروض قدمها النبلاء للوكلاء أو المديرين القائمين على إدارة أراضيهم وإقطاعياتهم للإنفاق على صيانتها وتشغيلها. بل إن بعض النبلاء قد قدموا قروضًا لليهود تجاوزت قيمتها أربعة أمثال ما كان اليهود يقدمون لهم من قروض. واستمر هذا من خلال استثمار اليهود لتلك الأموال فى صورة قروض عامة (للدولة) أو فى مشروعات خاصة، وبالذات فى التجارة الداخلية. وبذلك كانوا يجازفون بخسارة الأموال التى عُهد بها إليهم، آملين أن يحققوا أرباحًا تتجاوز معدلات الفائدة التى تعهدوا بدفعها لعملائهم.

قام بعض التجار اليهود – رأينا ذلك من قبل فى مشوار حياة جاسبار الهندى الأسطورى نحو عام ١٤٩٠ – بالاتجار فى كثير من السلع (الفراء، الخشب، الملح، الماشية، الملابس) مع إنجلترا، هولندا، المجر، تركيا، فلسطين، مصر والهند. كان لهم وكلاء ومراسلون تجاريون فى البندقية، فلورنسا، ليبزج، هامبورج، فرانكفورت، وارسو، جدانسك، بريست – ليتوفسك، تايكوكان، جووندو، سليدزيو، مُكَوِّنين فيما بينهم شركات، ومشاركين لتجار غير يهود واستثمروا فى تلك المدن رؤوس أموال مسيحية. كان أكثرهم ثراءً (آل فيزيل فى كراكوفى **les Fiszel â Carcovie**، آل ناكما نوجويكز **Nachmanowicz** فى مدينة لفوف **Lvov**، ميندل إزاكوجويكز **Mendel Izakowicz** إيزاك برودا جوكا **Issac Brodawka** من ليتوانيا[٤١٤]) يحصل على التمويل اللازم من خلال قروض ملتزمين آخرين، يهود أو غير يهود. فى عام ١٥٢١، كتب أحد كتاب رسائل الهجاء، جوستوس لودجويك دسيوس **justus Ludwik Decius**، غاضبًا فى "أخبار سيجموند العجوز". "إن نفوذ اليهود يتزايد، ليس هناك ضرائب أو جمارك لا يتولى أمرها اليهود، أو يتوقون إلى ذلك. المسيحيون خاضعون لهم بشكل عام، إننا لا نجد مِنْ بين أكثر العائلات المسيحية ثراءً مَنْ لا يفضّلهم ويشجّعهم ويقدّمهم على المسيحيين[٤١٤]".

من أهم وألمع المصرفيين اليهود فى تلك الفترة: كان الأشقاء إزوفوجويكز **Ezofowicz** الثلاثة من منطقة برست – ليتوفسك. الابن البكر، أبراهام، اعتنق المسيحية عام ١٤٩٠، عين مسئولًا عن الميدان العسكرى فى كونو (كاوناس) **Cowno**، تم منحه لقب نبيل وعهد إليه بتحصيل جمارك مدينة كونو وأصبح كبير الموظفين فى سمولينسك ومينسك **Smolensk et Minsk**، فى عام ١٥١٠، عينه سيجموند الأول وزيرًا لمالية ليتوانيا. بعد موته، تزوجت امرأته من نبيل آخر. لم يعتنق أخواه ميشال **Michal** وأيزيك **Ajzyk** المسيحية، وحققا نجاحًا كبيرًا فى مجال المال مع الإبقاء على علاقاتهما مع أخيهما. أصبح ميشال على وجه الخصوص أحد مصرفىّ مملكة ليتوانيا فى عام ١٥١٤، ثم كبير موظفى مدينة كونو، بعدها صار كبير جباة الضرائب فى ليتوانيا، منح لقب نبيل عام ١٥٢٥ وصار كونت مقاطعة ليليفا **Leliwa**. لقد كان آخر رجال البنوك المهمين فى تاريخ بولندا قبل أن تصبح جزءًا من روسيا.

كانت الزيجات تُعقد عادة فى فترة الأسواق الموسمية حيث يتقابل آباء الشابات مع شباب المدارس التلمودية، المفضّلين بصفة خاصة عن غيرهم. كان الفتيان يتزوجون عادة قبل بلوغ الثامنة عشرة، والفتيات قبل الرابعة عشرة. يذّكر الحاخام سالومون لوريا Salomon Luria بالقاعدة التلمودية: يعتبر الزواج شرعيًا بمجرد أن يقول الفتى: "أُريدك زوجة"، وأن تقبل الفتاة منه هدية، حتى بدون موافقة الآباء. عرفت نسبة المواليد عند اليهود آنذاك قفزة هائلة(٤١٤). وبما أن القواعد التلمودية فى مجال الطعام والصحة العامة كانت صارمة للغاية، برغم الفقر الشديد وضيق المساكن، فإن نسبة الوفيات عند الأطفال ظلت أقل منها لدى المسيحيين. لم يكن من النادر إذًا أن نجد أسرًا تنجب عشرة أطفال يبقى منهم على قيد الحياة ستة أو سبعة. تزايد تعداد اليهود بسرعة كبيرة(٣٥) جدًا وقد دعم ذلك الهجرات اليهودية إلى المنطقة. تكدست الطوائف فى المدن حيث صاروا أغلبية فى كثير منها. كان لكل طائفة مدرسة دينية واحدة على الأقل (بدأت هذه الطوائف بأعداد من الأفراد تراوحت بين مائة وألف شخص ثم وصل تعدادها فيما بعد إلى عشرة آلاف عضو وأكثر) يتعلم فيها صبيان الطائفة قواعد التلمود، وكذلك مطبعة لطباعة كتب الصلاة: هكذا أمّنت كل طائفة انتقال ثقافتها من جيل لآخر. كان النظام واحدًا هنا كما فى البلاد الأخرى: فهناك "بيت دين" – محكمة تلمودية لمراقبة تطبيق أخلاقيات الشريعة، توفيم وبرناسيم لتحديد أساس الضريبة – جباة الضرائب – الواجب سدادها إلى الأمراء وإلى الهيئات التابعة للطائفة، المديونيم "حُراس الأسواق" – لمراقبة الموازين والمكاييل والمعايير فى الأسواق، ستدلان واحد un Stadlan – "المتفاوض مع سلطات المدينة" – لتقدير التهديدات التى تتعرض لها، التفاوض مع السلطات العامة بشأن الضرائب، الغرامات أو إلغاء مراسيم الطرد.

فى عام ١٥٠٣، أقر الملك أليكسندر جاجيلون لحاخام بولندا الأكبر بسلطة المحاكم الربانية اليهودية على الفصل فى النزاعات التى تنشب بين اليهود وبعضهم. نحو عام ١٥٢٠، قام الملك سيجسموند بتقسيم البلاد إلى خمس مناطق يهودية: بولندا الكبرى، بولندا الصغرى، روسيا الحمراء، بودوليا وليتوانيا. ابتداء من ١٥٣٣، كانت المحاكم تقوم مرة فى العام بتجميع كبار الحاخامات القادمين من كل نواحى البلاد بمناسبة

الأسواق الموسمية الكبرى فى مدينة لوبلين Lublin بصفة عامة، أحيانًا فى ياروسلاف أو فى تسيزوجيك Tsyzowce، لمناقشة الموضوعات المتعلقة بمجموع الطوائف.[٤١٤] فى تلك الأوقات اعتاد كبار الأعيان، الحاخامات والتجار على التجمع هناك وأن ينتخبوا بهذه المناسبة مجلسًا "لعموم اليهود" يكون على رأسه حاخام عام لبولندا وحدها. كان أولهم فى نحو عام ١٥٤٠ هو الحاخام موسيس إسرليس Moses Isserles. بالتدريج قام هذا المجلس بتحديد ضرائب الطائفة، تنظيم مساعدة الفقراء، والحياة الدينية، الإشراف على النظام المدرسى، الأكاديميات التلمودية وطباعة الكتب العبرية. منح نفسه السلطة المطلقة، سلطة الحكم بالطرد من الطائفة. ناقش بعض العلاقات مع المسيحيين: هل يمكن المشاركة فى تجارة منتجات الدولة؟ أى ضمانات يمكن طلبها؟

ابتداءً من عام ١٥٤٠، أوفد هذا المجلس ممثّلًا عنه لدى الملك أو الوصى على العرش يقوم بتطبيق القرارات الملكية داخل الطائفة ويناقش مع السلطات البولندية القيمة الإجمالية للضرائب التى يقوم بعدها بتقسيمها بين اليهود. اعترض بعض الأعضاء الأكثر فقرًا أحيانًا على هذا النظام الذى كانوا يرونه محابيًا جدًا للأغنياء على حسابهم.

فى عام ١٥٥٠، بسط هذا المجلس سلطانه على كل الطوائف فى بولندا، وكذلك فى ليتوانيا. كان عدد اليهود قد وصل الآن إلى مائة وخمسين ألف نسمة، أى ٢٪ من تعداد السكان الإجمالى.[٤١٤] بدأت بعض المدن البولندية فى النظر إلى "هؤلاء الناس" باعتبارهم غزاة مزعجين بأكثر مما يجب.

حصلت أكثر من عشرين مدينة بولندية على حق "عدم التعامل مع اليهود" :أولًا فى ميتسرزيك Miedzyrzec عام ١٥٢٠، ثم فارصوفيا Var Sovie فى ١٥٢٥، سامبر Sambor فى ١٥٤٢، جروديك Grodek فى ١٥٥٠، فيلنا Vilna (فيلينوس) فى ١٥٥١، بوجدفشاس Bygdoszcz فى ١٥٥٦، سترای Stryj عام ١٥٦٧، بیاز Biez، ثروسنو Crosno، ترانوجورد Tranogord فى ١٥٦٩. قامت نفس هذه المدن وغيرها بدفع اليهود إلى أحياء مخصصة لهم: مثل مدن لوبلين، بتركوف Piotrkow، بيدوجوفشيس Bydgoszcz، دراخوليس Drohobycz، وسامبر Sambor. كانت الرغبة فى الانفصال أحيانًا من الجانبين: فى عام

١٥٦٤، حصلت مدينة كازميريز **Kazimierz**، على حق عدم التعامل مع المسيحيين. هكذا تحقق فى بولندا الفصل بين اليهود والمسيحيين الذى قرره مجمع لاتران البابوى عام ١٢١٥ بعد تأخير دام ثلاثة قرون ونصف القرن.

فى عام ١٥٦٩، قام سيجموند الثانى بتوحيد بولندا وليتوانيا قبل وفاته عام ١٥٧٢، دون أن يترك وريثًا. حينذاك بدأت ملكية منتخبة بولاية هنرى دوفالوا **Henri de Valois**، التى استمرت عدة أسابيع قبل أن يتنازل هذا الأخير عن عرش بولندا، إلى إيتيين باتورى الأول **Itienne 1er Bathory**، بعد أن صار ملك فرنسا. فى عام ١٥٧٩، أعطى إيتيين الأول مجلس "عموم اليهود" الصفة الرسمية، تحت اسم "مجلس الدول الأربع" (الفاد **Vaad**). لم تتحسن سمعة المجلس بهذا القرار عند اليهود الفقراء: ما أن تم إنشاؤه حتى أرغم الفقراء بالقبول بالعمل عند الأغنياء كخدم منزليين: لا معونة اجتماعية للعاطلين[٤١٤] ! فى العام التالى (١٥٨٠)، فى مدينة بال، قام أحد الحاخامات البولنديين، سالومون إفرايم **Salomon Efraim**، بنشر هجوم ضد هذا المجلس، ضد "هؤلاء الحاخامات الذين يجاملون الأغنياء". كما اعترض أيضًا الحاخام الأكبر لويو، المشهور باسم مهرال براغ، الذى تعاظم نفوذه شيئًا فشيئًا فى أوروبا الشرقية كلها وفى بولندا على وجه الخصوص: "توفير المواد الأساسية للفقير، ليتمكن من العيش، هذا هو جوهر الحياة ذاته. كل من يتملص من هذا الواجب، يصبح كافرًا (....) وحدانية الله تقتضى وحدة الشعب"[٣٦٠]. كان الحاخام يدرك جيدًا أن عدم المساواة والثراء الفاحش للبعض يمثلان تهديدًا للجميع. فى عام ١٥٨١، حرّم المجلس على أى شخص، وإلا كان جزاؤه الحرمان والطرد من الكنيسة، إدارة مناجم الملح، تحصيل الضرائب، الرسوم على الكحول، الرسوم الجمركية، "لأن هذا يمكن أن يتسبب فى خطر كبير للشعب اليهودى كله"[٤١٤]. ومع ذلك فقد أصرّ البعض على مخالفة هذا المنع فى روتانيا، فى بودوليا، فى فولهينيا **Volhynie**، فى أوكرانيا وفى ليتوانيا[٤١٤]. استمر اليهود فى أداء دور بورجوازية بديلة فرضه عليهم النبلاء، الذين كان يخشون المطالب السياسية لطبقة بورجوازية وطنية.

أصبح تنظيم الطوائف بالتدريج أكثر تعقيدًا وتطورًا. فعلى سبيل المثال، كان مجلس من أربعة عشر شخصًا يتولى إدارة شئون طائفة كراكوفيا، يعاونه أربعة عشر حاخامًا

وتسعة من القضاة؛ تولى خمسة من الأعيان مهمة رعاية الأيتام، الفقراء، ضريبة الدولة، بيع أماكن الجلوس فى المعبد (إلى الأكثر ثراءً، لم يعد إلى الأكثر علمًا) الإشراف على المشروبات الكحولية، الحمامات العامة، القصّابين، معدلات الفائدة، الإشراف على المقرضين والرقابة عليهم، إدارة فضلات الطائفة، تصاريح المرور فى الشوارع غير اليهودية.

لأن المسيحيين كانوا يستثمرون أموالهم المدخرة بصورة متزايدة لدى اليهود، كان على الطوائف أيضًا أن تضمن استعداد وأهلية رجال بنوكها للسداد لتفادى غضب المسيحيين فى حالة عدم السداد. غير أن تقديم مثل هذه الضمانة كان مجازفةً: إن لم تستطيع الطائفة الوفاء بمستحقات المقُرِض المسيحى، فإن هذا الأخير بإمكانه أن يغلق المعبد أو يسجن مسئولى الطائفة. لتفادى وقوع ذلك، منع بعض المسئولين على كل أفراد طوائفهم إدارة المال المسيحى؛ قام آخرون، أكثر جراءة، بإنشاء بنك للطائفة يتلقى الاستثمارات المسيحية ثم يعيد إقراضها مرة أخرى بعد ذلك، بمعدل فائدة أكثر ارتفاعًا، إلى مصرفيين من الطائفة، يقومون بدورهم بإقراضها فى النهاية إلى مقترضين مسيحيين بفائدة أكثر ارتفاعًا أو يقومون بتوظيفها فى عمليات تجارية دولية. بما أن أرباح بنوك الطوائف لاتستخدم إلا فى الإنفاق على الأعمال الاجتماعية، فقد أجاز الحاخامات اقتطاع الفوائد بين اليهود وبعضهم.

فى نهاية القرن السادس عشر، كان هناك ثلاثمائة ألف يهودى فى بولندا، فى ليتوانيا وفى أوكرانيا ، كان الاندماج فى تلك المجتمعات فى أوجه: أسس بعض التجار اليهود شركات تجارية وشركات بنكية مع تجار مسيحيين.

وبالرغم من تلك المحظورات، فإن يهود كازميرز قد مارسوا التجارة فى كاركوفى. كان النبلاء البولنديون، غير الراغبين بصفة مستمرة فى السماح بتكوين طبقة بورجوازية وطنية، قانعين برؤية اليهود يقومون بأداء هذه الأدوار.

قامت الحروب التى نشبت فى بداية القرن السابع عشر بتوجيه اليهود نحو مهن جديدة. أصبح بعضهم ضباطًا لدى الملك باتورى. هكذا علمنا بقصة المدعو منذك

إيزاكوجويك المقيم فى كازميرز، كان مهندسًا متخصصًا فى تشييد الجسور، خلال فترة الحرب ضد مسكوفيا La Moscoxie فى عام ١٦١٠، خدم بعضهم أيضًا فى سلاح الفرسان فى ليسوجيسكى Lisowski. وعمل آخرون ضباطًا فى أثناء حرب الثلاثين عامًا. أصبح كثير من الحرفيين موردين للجيوش. كانوا حدادين، فنيى زجاج، تجار فراء وحائكين، بنائين، صناع برونز وصناع أسلحة، صناع سجاجيد، نجارين، طباّعين، صباّغيين. بل إن بعض المدن مثل كاركوفى، لوفوفLvov قد شهدت ظهور نقابات يهودية للحرفيين متعهدى الدولة. فى عام ١٦٤٠، ظهرت أول جمعية للجراحين والحلاقين اليهود، كانت تعمل أساسًا فى خدمة الجيوش.

بغرض حماية البلاد والدفاع عنها، أقام الأمراء البولنديون تسعمائة بلدة "خاصة" ومُحصّنة، كان أغلب سكان بعضها من اليهود. ضمت بولندا فى ذلك الوقت أكبر طائفة يهودية فى العالم. فى عام ١٦٨٤، وما بين ليتوانيا، بولندا وأوكرانيا قارب عدد اليهود الخمسمائة ألف نسمة. قاموا بتأجير وإدارة الطواحين، النزل، الحانات والمقاهى، برك المياه. امتهنوا حياكة الملابس، البقالة، الحرف اليدوية. كان نظامهم الطائفى "الفاد" يعمل بصورة جيدة.

سجل النصف الأول من القرن السابع عشر أوج ازدهار الطائفة اليهودية فى بولندا مثلها مثل بولندا بأسرها. ابتداءً من العام ١٦٤٨، أدى تصاعد القوى السويدية والموسكوفية إلى دخول الطائفة اليهودية وبولندا كلها فى حالة احتضار طويلة.

بدأ كل شىء مع اجتياح التتار لمنطقة القرم La Crimée الروسية، الأوكرانية والعثمانية. أبيد معظم يهود أوديسا والبحر الأسود. بيع الناجون من المجزرة عبيدًا فى أسواق إسطنبول، واشتراهم فيها من جديد يهود سالونيك.

فى العام المذكور، أدى تمرد قوازق أوكرانيا الجنوبية – بقيادة بوجدان شمايلنكى Bogdan Chmielnicki، الذى عمل أولًا فى خدمة بولندا – بعد العديد من المعارك وحركات التمرد، إلى مذبحة هائلة، الأكبر حتى ذلك الحين فى التاريخ اليهودى الأوروبى بأكمله: أكثر من مائة ألف قتيل فى غضون بضعة أشهر. ومن بين الثلاثمائة وخمسين ألف يهودى

الباقين على قيد الحياة اتجه أكثر من مائة وخمسة وعشرين ألفًا مرة أخرى إلى بولندا الوسطى، موارفيا، ألمانيا، النمسا وإيطاليا. انضم آخرون إلى صراع البولنديين ضد روسيا فى عام ١٦٥٤، ثم فى مواجهة السويد عام ١٦٥٥، وأخيرًا أمام تركيا فى عام ١٦٦٧. استعادت بولندا آنذاك جزءًا كبيرًا من أراضيها التى كانت قد فقدتها فى الشرق. بالتدريج تزايد عدد التجار والحرفيين اليهود الذين تحولوا إلى متعهدين للجيوش البولندية؛ وتمتعوا فى ذلك بوضع كان فى نفس الوقت مثيرًا للغيرة ومعرضًا للخطر بصورة متزايدة. تضاعفت حوادث الصدام بين الطوائف، زاد التراجع الاقتصادى والبطالة من حدة المنافسة. مات الكثير من رجال البنوك اليهود فى تلك المذابح ولم يعد من الممكن سداد قيمة الاستثمارات التى عهد بها المسيحيون إليهم. مصدومًا من جراء صور الاضطهاد والتنكيل، منع مجلس الدول الأربع "الفاد" كل علامات الثراء ومظاهر الخارجية: ينبغى على كل يهودى أن يحدد عدد المدعوين إلى حفلاته وفقًا لمقدار الضريبة التى يدفعها للطائفة.

فى مواجهة الاعتداءات التى عانوا منها من قبل الإقطاعيين والمزارعين، قام الملوك بدعم وحماية اليهود فى عام ١٦٦٩، أقر الملك ميشيل وسنيوفيكى **Michel Wisniowiecki** وضع اليهود القانونى فى ليتوانيا. سمح لهم خليفته جان سوبيسكى الثالث **Jean Sobieski III** بتأجيل سداد ديونهم (لمرة واحدة لم يحدث العكس !)، وأجبر المدن على حماية طوائفها اليهودية. بل إنه قد منع مدينة كاركوفى، فى عام ١٦٧٤، من زيادة الضريبة على اليهود الموجودين فيها.[٤١٤] ندد النبلاء البولنديون آنذاك بحكومتهم ونعتوها بأنها "حكومة إسرائيلية". فى عام ١٦٨٣، اتهم خياطون مسيحيون منافسيهم اليهود بعدم الأمانة. مذابح جديدة. فى عام ١٦٩٤، رفض مقطرو الكحول المسيحيون بيع المشروبات الروحية إلى أصحاب الحانات والملاهى اليهود.[٤١٤]

شيئًا فشيئًا صارت تهديدات روسيا لبولندا أكثر قوة، بينما سرى الضعف فيها أكثر فأكثر. لم تكن الإمبراطورية الأرثوذكسية الشاسعة تأوى أحدًا من اليهود. فى عام ١٦٦٥، عندما أصبحت مدينة سمولينسك **Somlensk** فى قبضة روسيا الغازية، أجبر اليهود المقيمون فيها على الاختيار بين اعتناق المسيحية وبين النفى منها دون أن يأخذوا

شيئًا من ممتلكاتهم. تحول أغلب يهود المدينة إلى المسيحية مكّونين سلالة من المتحولين (الخنازير). استمر المدعو صامويل فيستريتزسكى Samul Vistritzki، المتحول إلى المسيحية، فى كتابة وتوقيع عقوده باللغة العبرية. صار شخص آخر، المدعو شافير Chafir (سفير بالعبرية: "وسيم" ، "رائع")، أحد كبار التجار. بعد فترة قصيرة، سوف نجد حفيده، باسمه الجديد بافل فيليبوفيتش Pavel Filipoovich، "مهتديًا" فى حاشية الملك، مثله مثل الكثير من قبله ومن بعده. فضلًا عن أننا سوف نقابل فى روسيا أيضًا بعض الأرثونكس ممن يحملون أسماءً غريبة والقادمين، كما يقال، من مملكة الخزر، تلك التى ربما تحولت طبقتها الأرستقراطية إلى اليهودية فى القرن السابع. والذين حملوا أسماء خزارينوف Kazarinov وشالديف Chaldeev...

٧- يهود الأمير وأمراء

بلا يهود (١٤٩٢ - ١٧٠٠)

جيتو أو ليفورن

فى إيطاليا، كان هناك شكلان للمجتمع السياسى وبالتوازى، صورتان لحياة اليهود: إحدا المدن الإقطاعية، تأوى المرابين والحرفيين، وتغلق عليهم فى الليل أبواب حاراتهم (الجيتو)؛ الأخرى، مدن التجار، تقبلهم بوصفهم وكلاءً لكبار الكيانات التجارية، وتسمح لهم بالعيش بمطلق الحرية. من ناحية، فينيسيا والإمارات البابوية؛ ومن الناحية الأخرى توسكان وفلورنسا التابعتان لحكم أسرة مديتشى.

فى عام ١٤٩٢، استقبل البابا أليكسندر الرابع فى إماراته بعض المطرودين من إسبانيا ومن البرتغال، خاصة بعض رجال البنوك ممن يستطيعون أن يدفعوا غاليًا رسوم تصاريح الإقامة والعمل.(٣) كانوا بالنسبة له بمثل نفع وضرورة جمعية "جبال الرحمة" الخيرية مسيحية الإلهام، التى أشهرت إفلاسها، على غرار تلك التى أنشئت عام ١٦٦٢ فى مدينة بيروز Perouse بواسطة بارنابيه دو تارنى Barnabé de tarni. وصل اليهود

القادمين من إسبانيا إلى هناك بأعرافهم وشعائرهم؛ شعروا بأنهم مختلفون بشكل عميق عن إخوانهم فى الدين المقيمين فى تلك الأماكن أحيانًا منذ أكثر من خمسة عشر قرنًا، حتى إنهم لم يختلطوا بهم؛ قامت بعض الطوائف القديمة، حمايةً لنفسها، بإبعاد القادمين الجدد وعدم استقبالهم. غير أن الاندماج قد تم، بعد ٢٠ عامًا: فى عام ١٥٢٤، قبل يهود روما، المستقرين منذ زمن بعيد جدًا، أخيرًا بتقاسم إدارة شئون الطائفة مع اللاجئين الجدد القادمين حديثًا من إسبانيا، من فرنسا ومن ألمانيا.

استقبلت فينيسيا اليهود الإسبان استقبالًا طيبًا، كما كان الحال فى الإمارات البابوية. من ناحية، لم ينس أحد الخدمات التى أسدوها إبان الحروب ضد تركيا، خاصة أثناء حصار كاندى **Candie**. ومن ناحية أخرى كانت فينيسيا تحتاج إليهم ليس كمصرفيين، لكن كتجار دوليين من أجل الحفاظ على علاقاتها مع الشرق ولكى تصدر إليه المنسوجات الإيطالية.[٦٩] لكن، هناك أيضًا، ساور القلق الطوائف اليهودية الموجودة قبلًا. أراد مجلس طائفة مدينة بادو **Padoue**، الذى أخافه هذا التدفق البشرى، أن يمنع دخول أى قادم جديد إلى المدينة، "بسبب الأوضاع الاقتصادية"، حتى وإن كان أقارب أحد أفراد الطائفة[١٩٣]. غير أن الحاخامات، هناك أيضًا، قد تدخلوا لتدارك الأمر: أمرت محكمة فينيسيا الربانية، التى تتبع لها "بادو" بالسماح لهم بدخول المدينة. جرى اللجوء، أحيانًا، إلى بعض الطرق الملتوية. فى عام ١٥١١، وصل إلى فينيسيا قادمًا من أنفرس المدعو دافيد بامبرج **David Bamberg** لنيشئ فيها مطبعة عبرية كبيرة؛ ستكون تقريبًا أول مؤسسة صناعية يهودية، استخدمت حوالى مائة عامل وموظف.[٧٥]

أمام تيار المهاجرين المتدفق – عدة آلاف –عام ١٥١٦، ومن أجل الإبقاء عليهم دون أن يبدو كضيوف مزعجين جدًا، اضطر الخمسة آلاف يهودى المقيمين فى فينيسيا إلى التكدس فى أحد الأحياء الصغيرة غير الصحية فى جيودتشا **Giudecca** والذى اتخذ بعدها اسم "جيتو" **ghetto**.(٧٥) لا يمكن الجزم بأصل الكلمة: ربما جاءت من "**geto nuvu**" (تعنى المسبك الجديد بالإيطالية)، أو من **borghetto** (تعنى البلدة الصغيرة بالإيطالية أيضًا) أو ربما من. **Ghet**. (تعنى الانفصال بالعبرية أو العزل). لم يكن هذا أول الأحياء المعزولة (حارات اليهود): فقد تواجدت حارات أخرى فى فالادوليد **Valladolid** عام

١٤١٢، فى بولونيا فى ١٤١٧، فى تورينو turin عام ١٤٢٥، فى فرانكفورت عام ١٤٥٨. سوف يفرض الاسم البندقى "جيتو" نفسه ولسوف يستخدم للإشارة إليها كلها.

همش الجيتو اليهود، غير أنه قام أيضًا بحمايتهم. تم عزلهم وحبسهم فى حاراتهم، لم يعودوا عرضة للطرد، وخفتت وتيرة اندماجهم فى المجتمع المضيف. فرض الجيتو نمط حياة بائس قوامه الشقاء، العمل المضنى والإهانات ابتداءً بالتوبيخ والحض على تغيير الديانة وصولًا إلى اختطاف الأطفال. غير أنه كان بالنسبة لهم مملوءًا بمباهج الحياة العائلية، الفنية، الفكرية[٧٥]: مثلت فيه وللمرة الأولى المسرحيات اليهودية: فى الفترة ما بين ١٥٢٨ و ١٥٧٥، شيدت فيه خمسة معابد مزينة بزخارف رائعة[٧٥] وكتابات بديعة: طبع فيه العديد من الكتب – التلمود ابتداءً من عام ١٥٢٥ – ونظمت فيه ندوات ومناقشات فلسفية محتدمة.

راقت تجربة البندقية فى عيون روما. ولأن البابا قد استمر فى تلقى عوائد سخية من رجال البنوك اليهود المقيمين فى إماراته، من الوارد أن يطردهم منها. حينذاك تم اتخاذ القرار: العزل. فى عام ١٥٥٣، أدان جول الثالث Jules III التلمود – المطبوع فى فينيسيا – بزعم أنه كان يهاجم المسيح. بموجب مرسوم بابوى، يعود تاريخه إلى يوليو ١٥٥٥، سحب خليفته، بول الرابع Paul IV، من يهود إماراته "الذين حكم عليهم الرب بالمذلة والخضوع الأبدى بسبب خطاياهم"[٢١٢] الحقوق التى منحها إياهم بول الثالث ومن بعده جول الثالث، وحظر عليهم ممارسة الطب، التجارة، الالتزام بتحصيل العوائد البابوية ورسوم العبور والمرور، وكل المهن الأخرى فيما عدا تجارة الملابس المستعملة، السلع المستعملة وتقديم القروض الربوية. أجبرهم على اعتماد قبعة صفراء وأمر بتعميم "الجيتو" فى إماراته. أقام واحدًا فى روما، فى أغسطس ١٠٠٠ (ضم ألفى شخص)، ثم آخر فى أنكونا، ميناء روما (ألف شخص)، ثم آخر فى بولونيا؛ وأخيرًا حارات يهود أخرى أطلق عليها اسم "المحاجر" فى المدن التابعة لفينيسيا: فى كاربنترا Carpentra (٨٠٠ شخص)، فى أفنيون Avignon (مائتان)، كافايون Cavaillon (مائة شخص).

أدى إنشاء حارة اليهود فى أنكونا فى شهر أغسطس عام ١٠٠٠ إلى صدام دبلوماسى خطير: بتجميع يهود المدينة، وجدت محكمة التفتيش فى الميناء بعض المتحولين البرتغاليين غير المعروفين وقامت بإيداعهم السجون ومحاكمتهم باعتبارهم مرتدين. من بينهم أحد وكلاء جراثيا ها-ناسى- من إسطنبول؛ كانت رعية عثمانية، ومعه كمية كبيرة من السلع. طلبت جراثيا مندس من سليم الثانى العظيم التدخل لإطلاق سراح وكيلها التجارى. رفع السلطات إلى الباب هذا الالتماس وعلى سبيل القصاص، صادر أموال وسلع بعض تجار أيكون المسيحيين المارين بأحد موانئ الإمبراطورية العثمانية. وصل خطاب سليمان الأول إلى البابا بعد أن اقتيدت أول مجموعة من المتحولين البرتغاليين إلى المحرقة؛ رفع البابا الحجز على ممتلكات جراثيا ها- ناسى، لكنه لم يطلق سراح وكيلها، الذى اقتيد هو الآخر إلى المحرقة[٣١٤]. طالبت جراثيا آنذاك بمقاطعة ميناء أيكوفا تمامًا وأقنعت الحاخام جوزيف بن ليفى **Joseph ben Levi**، مسئول المدرسة التلمودية التى كانت قد أنشأتها فى إسطنبول بأن يوقع أمرًا ينهى كل اليهود عن الاتجار مع أيكونا. غير أن هذا الأمر لن يستمر طويلًا، كان يهود أيكونا أول ضحاياه. سوف يحاول البعض بعدها بقليل إنقاذه من جديد، لكن بلا جدوى دائمًا.

تأمل عقائدى مهم: فى عام ١٥٥٦، ما أن أبعد الحاخام والمصرفى يائيل نيسيم **Yehiel Nissim** إلى داخل الجيتو حتى شرع فى التأمل، من خلال رسالة لاهوتية حملت عنوان "الحياة الأبدية"، فى أخلاقية العمليات المالية التى لم يأت التلمود على نكرها. تلك العمليات التى تتناول موضوعات محددة (السندات أو الكمبيالات، عقود الشراكة، التأمين البحرى) ظلت مصرحًا بها؛ وتلك التى تفتقر إلى الأساس الاقتصادى الصحيح أو النفع الاجتماعى (مثل المضاربة على النقود) كانت ممنوعة. فشراء الماركات، مثلًا، لضرورات التجارة كان جائزًا؛ لكن القيام بذلك "على أمل أن سعر صرف هذه العملة سوف يرتفع عند انعقاد الأسواق الموسمية الكبرى" فقد كان "النوع الذى ترفضه التوراة من الربا"[٤٥٦]. لقد صاغ الحاخام نيسيمر هنا تحريمًا عبر عنه بطريقة أخرى، لكن وفى نفس الوقت، قال حاخامات المغرب: إن اقتصاد المضاربة مُحرّم لأنه لا ينتج شيئًا. وللوصول إلى هذا الاستنتاج، فإن علماء التلمود لابد أن يكونوا قد تبادلوا بلا شك الكثير من المراسلات بين

فاس وبيزا. سوف نرى أفكار الحذر المالى هذه لدى رجال المصارف فى أمستردام فى القرن السابع عشر وفى لندن فى القرن التالى.

فى عام ١٥٥٩، بعد سنوات من المناقشات اللاهوتية، تم التصريح بطباعة التلمود والزوهار Zohar فى الإمارات البابوية، لقاء مقابل مالي. لم يغير هذا شيئًا فى وضع اليهود: فى عام ١٥٦٩، اتهمهم البابا بى الخامس Pie V مرة أخرى بـ"التزوير"، "الخيانة"، "إفلاس وانهيار ولايات الكنيسة بسبب نهب ثرواتها"(٣١٣) أزال كل حاراتهم من المدن الإيطالية، ما عدا فى روما وأيكونا، "لأن قدسية المكان ربما ساعدت على لاعتناقهم المسيحية". فى الحقيقة كان ذلك بسبب الحفاظ على تجارة الشرق المربحة للغاية وكذلك بعض البنوك التى كان فى حاجة إليها. سوف يقر البابا التالى سيكستب كانت Sixteb Quint من ناحية أخرى بأن النقود التى يحصلها من التجار اليهود هى ما يحمله على التسامح معهم فى أيكونا.(٣١٣)

اتخذ الكثير من العائلات اليهودية آنذاك طريقها نحو الشمال آل بيسا، آل نيسيم، آل ديل بانكو، آل فولتيرا، آل ريتى، آل تيفولى، بعد أن تم طردهم من بيزا عام ١٥٦٩. من بين هؤلاء، كان هناك المدعو أندريا ديل بانكو Andrea del Banco، صاحب مكتب صرافة، الذى سوف نجد أحفاده فى ألمانيا، تحت اسم البلدة التى سوف يهاجرون إليها: فاربورج War bourg.(١٨)

بعد ذلك بعامين، بعد انتصار ليبانت Lépante، قررت حكومة فينيسيا بدورها أن تقصى عن "الجيتو" كل اليهود الذين اتضح أنهم متواطئون مع تركيا وعملاء لدوق ناكسوس Duc de Naxos؛ بعدها، وكما حدث كثيرًا من قبل، أجلت الحكومة تنفيذ هذا القرار فى مقابل دفع ضريبة جديدة.

تكاتفت الطوائف ووحدت صفوفها. قام مجلس طائفة بادوو Vénéntie، فى عام ١٥٧٧، بطرد أى شخص كان قد لجأ إلى المحاكم المدنية بدلًا من "بيت دين" - المحكمة التلمودية - فينيسيا(٧٥). إدانة خطيرة تستتبع المنع من دخول أى معبد، الاتجار مع أى يهودى آخر وشراء الأطعمة الحلال (كاشير). بل إن آخر الطوائف الإيطالية قد حاولت

أن تختص لنفسها بتنظيم واحد، كما كانت طوائف بولندا والمغرب قد قامت لتوها بذلك. غير أن الفكرة قد فشلت: فى عام ١٥٩٣، أكد كليمنت الثامن Clement VIII إقصاء اليهود من كل ولاياته (بابا متشدد سوف يثير فضلًا عن ذلك الكثير من المصاعب أمام القبول بتحول هنرى دو نافار Henri de Navarre، الذى صار هنرى الرابع على عرش فرنسا، والذى سوف يرفض مرسوم نانت Nantes) – باستثناء يهود روما وأنكونا مرة أخرى الذين كان الفاتيكان لا يزال يبيع لهم رخصة ممارسة مهنة المصارف فى مقابل ٢٥٠ إيكو écu سنويًا.[٣١٢]

سابقة أولى. فى محاولة لإظهار الولاء (الذى صار محل ارتياب بعد أن حرض دوق ناكسوس الأتراك على مهاجمة فينيسيا)، طلب يهود البندقية من سيمون لوزاتو Simone Luzatto، حاخام المدينة لمدة ٥٧ عامًا، أن يكتب "رسالة حول يهود فينيسيا" تشيد بجديتهم، كفاءتهم، سرعتهم، فاعليتهم، إخلاصهم، وخاصة وفائهم.[٧٥] فضلًا عن ذلك، أضافت الرسالة، لعدم وجود وطن أم لليهود، فليس لليهود أحد يرسلون إليه المال الذى يربحونه، بعكس التجار الآخرين المقيمين فى المدينة. ثم تستشهد بأحد مزامير التلمود: لا شيء يفيد اليهود إن لم يكن مفيدًا أيضًا لكل من يعيش حولهم. إننا سوف نجد هذه الحجة دائمًا: وسوف تسعى الطوائف فى كل مكان إلى أن تقدم وتوضح الخدمات التى يمكنها أن تسديها.

فى ١٦٩٢، حرّم إنوسنت الحادى عشر Innocent XI على آخر اليهود المقيمين فى ولاياته – يهود روما وأنكونا – أن يقرضوا بالربا. قام بإغلاق مصارفهم، دون أن يفتح لهم لهذا السبب أبواب مهن جديدة.[٣١٣] حاول يهود أنكونا، بعد أن ضاقت بهم السبل، الصمود دائمًا عن طريق مقاطعة ميناءهم ذاته. بلا جدوى: لقد كانوا أول ضحايا هذا الإجراء. لم يعد مسموحًا لهم إلا بمزاولة مهنة بيع الملابس والأشياء المستعملة. غادر الكثيرون. صارت حياة من بقى فى حارتى اليهود فى هاتين المدينتين التى كان قوامها البؤس و الشقاء و المزلة، غير محتملة.

كانت توسكانيا، هى المنطقة الوحيدة فى شبه الجزيرة التى ظل اليهود فيها أحرارًا – عندما لا يمارس الكرسى البابوى فيها نفوذًا كبيرًا – وخاصة ميناءها الرئيسى، ليفورن

Livourne. لقوا هناك استقبالاً طيبًا ووصل تعدادهم هناك إلى قرابة الخمسين ألف يهودى عندما تدفق إليها فى عام ١٤٩٢، اليهود الإسبان الذين اجتذبهم حكام فلورنسا، آل مديتشى.[٢٦٣] ما إن حل عام ١٤٩٤، حتى طرد سافونارول Savonarole كلا من هؤلاء وهؤلاء. فى ذلك اليوم، كتب فرديناند Ferdinand إلى حكام فلورنسا الجدد معترضا على طرد رعاياه[١٩] ! ناسيًا أنه قد أبعدهم بنفسه من إسبانيا منذ عامين قد مضيا.

فى عام ١٥١٢، عاد إلى فلورنسا مع وصول آل مديتشى إلى الحكم قلة قليلة من اليهود (مائتا شخص): كان عليهم أن يغادروها سويًا فى عام ١٥٢٧ ليعودوا إليها سويًا أيضًا عام ١٥٣٠، ويظلوا بها خلال فترة حكم سبعة أجيال من آل مديتشى. بدأت حينها حقبة حرية اقتصادية وعقائدية بالنسبة لبضعة المئات من هؤلاء اليهود التوسكان.

ابتداءً من عام ١٥١٢، إقترح كوزمى الأول ، Cosme المديتشى (المرتبط جدًا بيهودا أبرافانل، ابن إسحاق، الذى كان قد تعرف به فى نابولى) على تجار البلقان اليهود ميثاقًا– تصريحًا بالإقامة – حتى يجتذبهم إلى توسكانيا ويبعدهم عن نابولى، فينيسيا وأنكونا. بعد عملية ترحيل جديدة – الرابعة – من نابولى، وبعد إنشاء حارات (أحياء) اليهود فى الولايات البابوية فى عام ١٥٥٥، اتجه بضع مئات منهم إلى توسكانيا.[٢٦٣]

انقلاب: عندما أراد كوزمى الثانى، فى عام ١٥٧٠، أن ينال اعتراف الفاتيكان بلقبه – دوق توسكانيا الأكبر – كان عليه أن يذعن للكنيسة، وأن يأمر بعزل يهود فلورنسا وسيينا Sienne فى "جيتوهات" (حارات اليهود). فى العام التالى كان على يهود الدوقية الكبرى الخمسمائة أن يحبسوا أنفسهم داخل الجيتو مع هبوط الليل.

خلال تلك الفترة، لم يبق متمتعًا بالحماية سوى يهود ليفورن: كانت المدينة قد أعلنت ميناءً حرًا مفتوحًا فى عام ١٥٤٨ (أرادت أسرة مديتشى أن تجعل من المدينة منافسًا لأيكونا)، ظلت المدينة تستقبل اليهود بالترحاب. كان بإمكانهم أن يزاولوا فيها كل المهن، بل وأن يشغلوا فيها بعض الوظائف العامة. امتياز رفيع: ضمنت لهم المدينة الحماية من تجاوزات محاكم التفتيش السابقة؛ بمعنى آخر، كان المتحولون إلى المسيحية من يهود ليفورن قد احتفظوا بالحق فى العودة من جديد إلى ديانتهم الأصلية بدون أن يعتبروا "مرتدين".

من كل صوب وحدب، أتى اليهود إلى تلك المدينة الوحيدة فى أوروبا التى تخلو من حى مخصص لليهود "جيتو" : بينما كان عددهم فى عام ١٦٠٠ حوالى مائة شخص، أصبحوا حوالى ثلاثة آلاف فى عام ١٦٨٩ وحوالى الخمسة آلاف فى نهاية القرن. بعد قليل سوف يعتبرون أنفسهم نخبة يهودية كما سيفعل ذلك أيضًا يهود ألمانيا لاحقًا. فى عام ١٦٠٠، عاش فيها موسى كوردفيرو **Moise Cordovero**، وكان الطبيب الذى أيضًا من كبار رجال البنوك. أقام البعض معامل لنسج الحرير، معامل لصناعة الأوانى الزجاجية، لتصنيع وتشكيل المرجان. تاجروا مع الجزائر، تونس، الهند والبرازيل التى استوردوا منها القهوة للمرة الأولى إلى إيطاليا فى عام ١٦٢٣. قامت مطابعهم بإصدار كل كتب الصلوات المستخدمة فى شمال إفريقيا. كان هناك تبادلات ثقافية هائلة بينهم وبين الشرق، أمريكا، شمال إفريقيا. بعد أمستردام صارت ليفورن ثانى أكبر مراكز التجارة، الطباعة، الحياة الفكرية اليهودية.

من لوثر إلى يهود البلاط

بالنسبة لآل هابسبورج **Les Habsbourg**– المسيطرين على عروش النمسا، ألمانيا، الفلاندر، إسبانيا وجزء من إيطاليا، منذ انتخاب الإمبراطور شارل كان عام ١٥١٩ كان اليهود بالكاد محتملين. لم يكونوا مقبولين إلا كمقرضين بالرهون، فيما عدا فى بوهيميا وفى مورافيا التى كان مسموحًا لهم فيهما بممارسة الحرف اليدوية. استخدمهم الأمراء أيضًا لجباية الضرائب وفى نفس الوقت أجبروهم على تقديم القروض الربوية، مرة أخرى تعرض اليهود لكراهية الشعوب المضيفة بسبب الخدمات التى يسدونها إليهم. فى عام ١٥٣٨، شَبّه رجال الدين فى مقاطعة هيس **Hesse** المقرضين اليهود فى فرانكفورت بـ "إسفنجة تمتص ثروات الشعب ثم تلفظها فى خزينة الأمير".[١٩٣] ابتداءً من عام ١٤٥٨، حوصر بضع مئات من يهود فرانكفورت، فى مقاطعة هيس، فى شارع واحد معزول بأسوار عالية، ويتم إغلاقه من طرفيه كل مساء. مساكن ضيقة. أوضاع غير صحية على الإطلاق. ساعات سهر طويلة تكرس للدراسة.

فى براغ، كانت الطائفة اليهودية أكبر عددًا وأكثر حرية من غيرها من طوائف أوروبا الوسطى. ضمت تلك الطائفة حرفيين، تجار، أطباء، مدارس تلمودية. بل إنها كانت أول مدينة تقع شمال جبال الألب، تطبع فيها، منذ ١٥٢٦، كتب بالعبرية.

أدى التطور العام فى فن الطباعة فى أوروبا إلى نتيجة أخرى غير متوقعة: عند قراءة الأناجيل مباشرة شكك بعض المسيحيين فى صحة قراءة الكنيسة لها؛ ظهرت قيم أخلاقية مسيحية جديدة، انطوت على مقاربة مختلفة تماما للعلاقة مع المال، علاقة تقترب أكثر من المفهوم اليهودى.

فى أكتوبر ١٥١٧، قام مارتن لوثر **Martin Luther**، قس أغسطى فى الرابعة والثلاثين من عمره، بلصق منشور على باب كنيسة فيتنبرج **Wittenberg** المجمعة، تضمن خمسة وتسعين موضوعًا ضد التساهل البابوى، تنتقد الاستغلال الكبير لهذه التساهلات التى قام بها البابا چول الثانى **Jules II**، خليفة أليكسندر السادس **Alexander VI**، من أجل تشييد كنيسة القديس بطرس الرومى **Saint Pierre de Rome**.[٩٣] معتمدًا على المشاعر المعادية لروما من جانب الكنيسة والملوك، فى ألمانيا وفى بعض المقاطعات السويسرية، نشر مارتن لوثر دعوته. فى عام ١٥٢١، تعرض لوثر للحرمان – الطرد من الكنيسة. فى مارس ١٥٣٦، فى مدينة بال **Bale**، احتج جان كالفن **Jean Calvin** كما فعل لوثر على اشتراط الكنيسة لعذوبية رجال الكنيسة، على تقديس مريم العذراء، على الأديرة. أراد المناداة بالكهنوت الكلى والعودة إلى قراءة مباشرة لنص الأناجيل، بدون وساطة الأكليريكيين (الكتاب المفسرين).

تميز موقف البروتستانت الأوائل حيال اليهود بالميل أولًا إلى التسامح.[٢١٤] كان لوثر يرى أن الاضطهاد الذى يتعرض له اليهود هو ما أدى إلى تأخر اعتناقهم للمسيحية؛ وبالتالى كان من الواجب التحاور معهم. استنكر أحد رجال الدين الكاثوليك، يوهان ليك **Johann Eck**، موقف لوثر ونعته بـ "عاشق اليهود". انتعش الأمل فى الطوائف اليهودية الألمانية[١٩٣]: "بفضل الله وبفضل الإصلاح، كتب الحاخام دافيد ليفى **David Levy**، فى عام ١٥٣٧، : إننا نمتلك اليوم فى كثير من الولايات التى نعيش فيها، حقوقًا وامتيازات لم يعرفها أسلافنا منذ شتاتهم".

فى عام ١٥٤٠، ردت الكنيسة على لوثر، من بين آخرين، بإنشاء رهبانية اليسوعيين (الجزويت) وبتنظيم هيئتها التعليمية حول إنياس دو لويولا Ignace de Loyola. (إغنياس دى لويولا).

بعد ذلك عرض الإصلاحيون مراجعة جوهرية للمحتوى الأخلاقى للاقتصاد. لم يعد المال دنسًا (قذارة)؛ صار من المسموح القيام بتشغيله، أجاز كالڤن Calvin للقساوسة البروتستانت ممارسة الإقراض بفائدة "بسبب ما توفره من وقت فراغ لرجال الدين". ما كان يقوله الحاخامات بالضبط منذ خمسة عشر قرنًا !

كان ذلك تغيرًا جذريًا بالنسبة للمسيحية: بخلاف رجال المصارف الكاثوليك الأوائل، المتخفين بصورة ما فى صورة تجار، وجد المرابون اليهود أنفسهم، ابتداءً من ذلك الوقت فصاعدًا، فى مواجهة منافسة مفتوحة علنية ومباشرة: منافسة البروتستانت كلهم وليس فقط القساوسة البروتستانت.

ظهر عنف البروتستانت ضد اليهود أولًا فى خطابات لوثر المعادية لليهودية بكل وضوح[٢١٤]. فى عام ١٥٤٣، قام لوثر بنشر مجموعة من المقالات "ضد اليهود وأكاذيبهم"، استعادت الاتهامات التقليدية: القتل الطقسى، تسميم آبار المياه، السحر. إضافة إلى اتهامهم بممارسة الربا. طالب بإحراق معابدهم ومنازلهم، وبمصادرة تلاميذهم وكتب صلواتهم، وأن يحكم عليهم بالأشغال الشاقة.

فى كل أنحاء الإمبراطورية، صارت أوضاع الطوائف القليلة الباقية صعبة وغير مستقرة. نحو عام ١٥٥٠، تم انتخاب المدعو جوزيل روشايم Josel de Roshiem "رئيسا ليهود الإمبراطورية"[١٩٣]، الذى استعاد المهام القديمة التى كان يقوم بها "حاكم المنفى" و"الاستادلان" للتفاوض بشأن صكوك الإقامة والدفاع عن اليهود أمام السلطات الحاكمة.

فى مدينة كاسل Cassel، العاصمة الانتخابية لمقاطعة هيس-كاسل Hesse-Cassel، يعيش الآن بعض اليهود الذين يقومون بإقراض أثرياء المزارعين وتجار القمح. كان من بينهم، آل ديل بانكو، مصرفيون من بيزا، كانوا قد استقروا هناك فى عام ١٥٥٦ بعد أن تم

ترحيلهم. قاموا آنذاك بتغيير اسم العائلة ليصيروا آل فون كاسيل Les von Cassel.(١٨)
فى بعض الولايات الألمانية، كان على اليهود أن يسبقوا أسماءهم بكلمة بن مقترنة بأسماء آبائهم. وفى مقاطعات أخرى كان ينبغى عليهم أن يتخذوا أسماء المدن التى يقيمون فيها مسبوقًا بكلمة "فون" Von (تعنى مِن). منذ عام ١٥٥٩، انتقل المدعو سيمون فون كاسل، "صرّاف نقود ومقرض زراعى"، من مدينة كاسل إلى مدينة فاربورج فى ولاية وستفاليا Westphlie، حيث عاد عدة مئات من اليهود بعد المجازر التى تعرضوا لها فى القرن الرابع عشر. منحه الوصى على مدينة فاربورج، الأسقف الأمير لمدينة بادربورن Paderborn المجاورة، حق الإقامة هناك لمدة عشر سنوات. بعده، قام ابنه صامويل Samuel ومن بعده حفيده جاكوب سيمون Jacop Simon (يعقوب سمعان) بإدارة مؤسستهم العائلية الصغيرة للإقراض بضمان الرهن. اتخذوا آنذاك أسماءهم المحلية؛ جاكوب سيمون فوت فاربورج، الذى صار فيما بعد رئيس الطائفة اليهودية الصغيرة فى مطرانية بادربورن.(١٨)

برغم انتشارها فى أنحاء الإمبراطورية، ظلت الطوائف اليهودية قليلة العدد. فى مدينة فرانكفورت، زادت أعداد أفراد طائفتها التى تعد الأكبر فى الإمبراطورية من ٤٠٠ إلى ١٣٨٠ فردًا فيما بين عامى ١٥٤٢، ١٦١٠، مكدسين باستمرار فى نفس الشارع. لتجنب استقبال المزيد منهم، قررت السلطات المحلية هناك، مثل كل السلطات المحلية الأخرى فى كل المدن، تحديد عدد الزيجات باثنى عشر زواجًا فقط فى كل عام (المسموح به لمن تجاوز الخامسة والعشرين من عمره فقط) وبزواجين سنويًا للقادمين الجدد المسموح لهم بالإقامة. منعتهم سلطات ولاية هيس باستمرار العمل بالزراعة، الاتجار بالأسلحة، تجارة التوابل، النبيذ والقمح. كان ممنوعًا عليهم الخروج من الجيتو أثناء الليل، أيام الأحد، وأيام الأعياد المسيحية؛ فى الأيام الأخرى، لم يكن بإمكانهم التجول فى المدينة فى جماعات تتجاوز الشخصين ولا الدخول إلى المتنزهات العامة ولا الحانات. داخل هذه الطائفة المصغرة والتى كانت مع ذلك مركز اليهودية فى الإمبراطورية، اجتمع سرًا بعض المندوبين القادمين من كل أنحاء ألمانيا لبحث وسائل الحفاظ على وحدتهم وتفادى الاندماج والذوبان فى مجتمعاتهم المحلية، وحتى يمنعوا على وجه الخصوص أفراد طوائفهم من اللجوء إلى المحاكم غير اليهودية لتسوية النزاعات التى قد تنشب

بينهم؛ فى هذا الاجتماع تم النظر فى اختيار مندوب عام جديد؛ نوقش فيه إنشاء صندوق للتكافل الاجتماعى، أشير فيه إلى ضرورة مراقبة أخلاقية المعاملات التجارية. غير أن شرطة الإمبراطورية قد داهمت الاجتماع وألقت القبض على بعض المندوبين بتهمة الخيانة العظمى: اتهموا بالتواطؤ مع "قوى الشمال". انفض المؤتمر؛ أهملت الأفكار والمشروعات التى نوقشت فيه، ظلت كل طائفة بمفردها.

فى عام ١٦٠٧، غادر يهود فاربورج مدينتهم مرة أخرى. استقر جاكوب سيمون فى مكان أبعد فى شمال ألمانيا، فى مدينة ألتونا Altona؛ ذلك الميناء الحر المفتوح على بحر إيلب L'Elbe الخاضع للسيادة الدنماركية، والتى كانت أكثر تسامحًا من المدن المحيطة المجاورة. كان بعض اليهود الأشكناز والبرتغاليين قد توطنوا هناك منذ عدة قرون. كانت هذه المدينة، الواقعة فى مقاطعة الهانز Hanse، عاصمة طوائف المنطقة بأكملها، مقرًا للمحكمة الشرعية اليهودية لطوائف المحليات المجاورة. فى هذه المرة لم تغير العائلة اسمها. نحو عام ١٦١٥، أقام جاكوب فاربورج (لم يعد هناك كلمة Von– فون) فى داره الخاصة فى ألتونا معبدًا يهوديًا جميلًا، كان أول معبد يقام فى مطرانية ألتونا.[١٨]

فى مدينة هامبورج المتاخمة كانت الأوضاع مختلفة تمامًا: لم يقبل مجلس شيوخ المدينة بوجود أكثر من خمسة وعشرين يهوديًا من السفارديم (الشرقيين)، وذلك لقاء ضريبة كبيرة قدرها ألف مارك إضافة إلى منعهم أيضًا من ممارسة شعائر ديانتهم، حتى بصورة غير علنية. من بينهم، كان هناك تاجر توابل، مستورد سلع ومنتجات برازيلية، وكيل صرافة، ومستورد للسكر.

يبدو أن الأحوال قد هدأت بعد ذلك فى ألمانيا. بدأ بعض التجار اليهود فى تكوين قليل من المدخرات، فى الاستثمار، واثقين فى المستقبل. عادت إحدى الطوائف إلى مدينة فينيا، عام ١٦٢١، بعد قرنين من المنفى. من بين أفرادها وجدنا آل أوبنهايم، آل وريثماير، آل أجيولار، الذين تحولوا إلى مقرضين صغار إلى ممولين للبلاط الملكى وقدموا قروضًا هائلة للدولة. تم اختيار جاكوب باسفايد Jacop Bassevide، عام ١٦٣٠، موردًا للمنتجات الزراعية لجيوش الدولة.[٣٧٢] بعدها بقليل، عام ١٦٤١، منح فرديناند الثالث اليهود،

فى براغ، الحق فى العمل بالتجارة عرفانًا لهم لمشاركتهم فى الدفاع عن المدينة ضد السويديين. فى عام ١٦٥٠، سمح لليهود فى مدينة هامبورج بممارسة شعائرهم بمعزل عن الآخرين.

فى عام ١٦٤٨، بانتهاء حرب الثلاثين عامًا، فى أوروبا الوسطى، كان نظام الاتحادات المهنية قد اندثر؛ فقدت مقاطعة الهانز أهميتها؛ اختفت النقابات العمالية. اندفع اليهود آنذاك إلى الحرف اليدوية والصناعية. فى مدينة براغ، أقام يهودى يدعى ليوبولد بورجيس Leopold Porges، المنحدر من أسرة قادمة من إسبانيا، أول معمل للمنسوجات القطنية.[٣٤] كان أول رجل صناعة يهودى تم تسجيل اسمه. انهيار أسطورة أخرى: لم يحصر اليهود أنفسهم طوعًا فى التجارة وأعمال البنوك؛ ما أن اختفت النقابات العمالية، ما أن تلاشت الضغوط والقيود الدينية، حتى قدموا أيضًا للعمل فيما لم يطلق عليه بعد مسمى "الصناعة".

بدا أن هذا التحرر يبشر بعصر من الانعتاق والاندماج فى مجتمعات الشتات: فى سبا Spa جاء أطفال التجار اليهود للعلاج فى المستشفيات المسيحية؛ فى فرانكفورت، فى ١٦٨٥، خرج بعض التجار اليهود من الجيتو أثناء النهار للعمل فى البورصة.

غير أن الوقت لم يكن قد حان بعد، وتوقفت حركة التحرر بمجرد أن بدأت: ما أن ظهر الوسطاء اليهود فى بورصة فرانكفورت، حتى بدأت شكاوى رجال المال البروتستانت من أن "اليهود قد انتزعوا منهم كل الكمبيالات والسندات". تم إبعادهم من البورصة، منعوا من الإقامة "فى أرقى شوارع المدينة"[٣٤]، أعيد عزلهم فى "الجيتو". لمدة أكثر من قرن... كان هناك فى فيينا حينذاك مائة وإحدى عشرة عائلة وكان هناك ثلاثة معابد يهودية؛ فى ١٤ فبراير من عام ١٦٧٠، تحت تأثير زوجته مارجريت تريزا، ابنة ملك إسبانيا، داعم الجيزويت المخلص، قرر الإمبراطور ليوبولد الأول – آل هابسبورج إبعادهم من جديد. فى خلال خمسين عامًا، سيكون المقرضون اليهود قد قدموا قروضًا قدرها ٢٥ مليون فلورين للحكومة التى قامت بطردهم.[٤٠٣] فى ٨ أغسطس من نفس العام، قام ليوبولد الأول ببيع الحى اليهودى لقاء ١٠٠٠٠٠ ألف فلورين، الذى أعيد تسميته إلى

ليوبولدستات. لم يعد يقبل بوجود إلا بعض رجال المال الذين يدينونه بمبالغ طائلة والذين لا يزال يأمل فى اعتصارهم.

على العكس، قبل فردريك جيوم Fréderic – Guillanme، حاكم (ناخب) براندبورج Brandebourg، فى ٢١ مايو ١٦٧١، إقامة بعض اليهود فى برلين لقاء عائد سنوى قدره ٨ تالر "من أجل حمايتهم" وفلورين ذهبى واحد عن كل زواج وكل عملية دفن.

قدر: أصبح صامويل أو بنهايمر(٤٠٣)، المولود فى فورمز فى ١٦٣٠، والذى هاجر إلى فيينا، موردًا للجيش، نحو عام ١٦٦٠. نصيرا للدراسات التلمودية، أسس العديد من المعابد والمدارس الدينية. فى عام ١٦٧٣، فى حين تم ترحيل الطائفة من فيينا، استمر فى توفير الموارد المالية للإمبراطور لينفق على الحرب ضد فرنسا؛ ثم لتمويل الحرب ضد الأتراك فى عام ١٦٨٢. لم يسترد صامويل ديونه، اتهم – زورًا – فى عام ١٦٩٧، بالتآمر لاغتيال شريكه، سامسون ورثايمر Samson Wertheimer. فى عام ١٧٠١، قام كذلك بتمويل حرب وراثة العرش فى إسبانيا ولم يكن قد استرد ديونه الأولى. عند موته فى عام ١٧٠٣، كانت الخزينة الإمبراطورية مدينة له بخمسة ملايين جلدن، وقد رفضت سدادها إلى ورثته، ما أدى إلى إفلاس مؤسسته المالية، آخر المؤسسات اليهودية فى فيينا، التى لن يعود إليها اليهود قبل ثلاثين عامًا آتية.

يهود غير شرعيين فى قلب العاصمة (١٤٩٢ ــ ١٧٠٠)

خاطر نفر من بين أكثر المبعدين عن إسبانيا ثراءً بالهجرة إلى البلاد التى تمثل قلب النظام الرأسمالي، هناك حيث يكون العيش كيهود أمرًا خطيرًا بشكل خاص: إلى الفلاندر، إلى إنجلترا وفى المستعمرات الأمريكية. يهود، لم يكن باستطاعتهم الانتقال إلى هنا إلا بطريق غير شرعى.

عقلية غريبة لقوم يجازفون بالتعرض للطرد من جديد أو، للأسوأ من ذلك، إن قدموا أنفسهم كمعتنقين جدد للمسيحية، بأن يتعرضوا للوشاية والتنديد والتعذيب. اعترف المتحولون بأنهم قد ظلوًا يهودًا فى السر. أعلنوا توبتهم، مبتكرين الحيل والشفرات الخاصة حتى يظلوا على عقيدتهم. كان المرتدون يتعرضون أحيانًا للطرد، وغالبًا ما يحكم عليهم بالحرق أحياءً فى محارق عامة كبيرة؛ بينما يتمتع التائبون بامتياز قتلهم قبل إلقائهم فى النار.

فى غالب الأحوال، خلط هؤلاء المتحولون بين المعتقدات المسيحية واليهودية، وكانوا يجهلون بصورة متزايدة الفوارق الجوهرية بين هذى وتلك. كبروا فى مناخ من الارتياب، تتنازعهم الحيرة والتأرجح بين عقيدتين، دائمًا مرصودين، باحثين عن الجديد فى أوجه النقص التى تركتها قناعات الآخرين، رافضين للتعريفات أحادية المعنى للحق، للعدل، للجمال، الطبيعى، قادرين على التقدير، القبول، والإيمان بالأشياء المتعارضة، أوجد هؤلاء المتحولون الروح العلمية وأصبحوا أكثر العقول تحررًا فى زمانهم[٤٥٧].

من مونتانى Montaigne

إلى كولبير Colbert

مبدئيًا، لم يعد هناك يهود فى مملكة فرنسا منذ عام ١٣٩٤؛ لم يعرف الفرنسيون عنهم سوى ما يقدمه ممثلو البانتوميم (التمثيل الإيمائى الصامت) وعروض آلام المسيح[٦١]. تمكن بعض يهود الولايات البابوية – المكدسون بطريقة بشعة، مهانون، يتلقون أسوأ معاملة – من التسلل خلسة أحيانًا إلى نيم Nime، مونبلييه Mont Pellier، ناربون Narbonne وحتى إلى المرتفعات الوسطى. كانوا باعة جائلين، تجار خيول، يقتلهم الخوف من أن يلقى القبض عليهم، ثم يعودون إلى الجيتوهات (حاراتهم) بمجرد أن ينجزوا أعمالهم[٢٠٤]. عاش آخرون منسيين فى بعض المدن: فى مدينة روان Rouen، فى مقاطعة برتانى Bretagne أو فى مدينة تولوز Toulouse، حيث قام بعض متحوليها من اليهود بتمويل رحيل اليهود نحو أمستردام وليفورن سرًا.

بعد عام ١٤٩٢، كانت غويان **La Guyenne** وحدها هى من تستقبل اليهود علانية: ابتداءً من عهد لويس الحادى عشر كان برلمان مدينة بوردو قادرًا فى الواقع على السماح باستثناء الأجانب من حق وراثة الطارئ الذى تؤول بمقتضاه ممتلكات هؤلاء إلى الدولة عند موتهم. وعليه فقد سمح لمائتى وستين تاجرًا من شبه جزيرة أيبيريا، قادمين بشكل أساسى من شمال إسبانيا ومن البرتغال، بأن يصبحوا "بورجوازيين" تحت اسم "تجار برتغاليين" أو "مسيحيين جدد". كان من المعروف أنهم يهود، وتم قبولهم على أنهم كذلك؛ بل لقد سمح لهم بالعودة إلى اليهودية بطريقة شبه علنية. بعد ذلك بفترة قصيرة ضمنت لهم مراسيم هنرى الثانى – فى غويان دائمًا – حرية التنقل وممارسة التجارة، الحق فى امتلاك العقارات بل وحتى الوضع القانونى للمولودين داخل البلاد. استقروا فى بايون **Bayonne**، فى بوردو **Bordeaux**. أعادت عائلات جراديز **Les Gradis**، لوبز **Leslupes** ، متمير **Les Memir** تكوين شبكاتهم التجارية مع هولندا. سوف يظلون يهودًا فى السر، أحيانًا لمدة ثلاث قرون، قبل أن يكشفوا عن حقيقتهم شيئًا فشيئًا. أصبح آخرون مسيحيين وتشبهوا واندمجوا مع المجتمعات المسيحية.

ظل أغلبهم منفتحى الأرواح والعقول، رحالة أحرار، مثل ميشيل دو مونتانى **Michelde Montaigne**، حفيد أحد هؤلاء المهاجرين، من جهة الأم، التاجر أنطوان دو لوبز **Antoine de Lupes**، الذى انتقل من تولوز قبل أن يستقر فى بوردو. أصبح مونتانى عمدةً لهذه المدينة فى عام ١٥٨١. متشربًا بأصله، مطبوعًا بطابع أسلافه وعلاقاته مع اليهود – شارك يومًا ما فى حفل ختان –، جسد الرجل بكتاباته[٢٧٨] فلسفة اليهود المتحولين إلى المسيحية. متشائم: "كل ما حولنا يتراجع، فى كل الدول الكبرى التى نعرفها، سواءً المسيحية، سواءً غيرها. انظروا فى ذلك. سوف تجدون فيها تهديدًا واضحًا بالتغيير والخراب". كلى التفكير، شامل: "أنا أعتقد أن كل الرجال هم أبناء وطنى..." الكتابة هى ثروته الوحيدة: "لقد اتخذت طريقًا سوف أمضى فيه بلا توقف ولا تمهل ما دام سيكون هناك ريشة (قلم) وأوراق فى هذا العالم[٢٧٩]". رحالة: "يبدو لى السفر تجربة مفيدة (...) إننى أتجول كى أتجول". على معرفة تامة بهشاشة الوضع الإنسانى وعدم استقراره: "مصيرى، قابل للتقسيم فى كل مكان؛ ليس ثمة آمال كبيرة، كل يوم بداية أو نهاية".

فى باريس، لم يكن من حق اليهود المجيء للإقامة. يجازف بعض الزوار بذلك، خاصة طلاب جامعة السوربون الذين يقدمون أنفسهم باعتبارهم مهتدين أو متحولين. نحو عام ١٥٤٠، عرض سفير فرانسوا الأول فى فينيسيا، الأسقف جورج دوسليف George de Selve، منصب أستاذ اللغة العبرية فى الكلية الملكية الجديدة تمامًا (كلية فرنسا لاحقًا) على الحاخام إيليا باهور لفيتا Eliya Bahour Lévita، رفض الأخير العرض ودعاه إلى الاعتراض على منع اليهود من الإقامة فى البلاد(٢١١). قام كليمن مارو Clement Marot بتوفيق بعض مزامير داوود؛ درس رابليه Rabelais التلمود. يذكر أيضًا، انتقال أحد الأطباء اليهود من فينيسيا إلى باريس، الدكتور مونتالدو Montaldo، عام ١٦١٥. ربما أيضًا كان هناك يهود آخرون يعيشون فى باريس سرًا فى تلك الفترة. واقع الأمر، أن الشائعات كانت جاهزة للانطلاق بمجرد أن يبتعد أحد وجوه المجتمع عن الكنيسة. فعلى سبيل المثال، وفى شهر أبريل من نفس ذلك العام ١٦١٥، وعندما رفض رئيس دير سان ماهيه Sanit-Mahé، كوزم روجير Cosme Ruger، المقرّب من كونشيني Concini، تناول الأسرار المقدسة الأخيرة وهو على فراش الموت، مفضلًا الموت كافرًا، سرعان ما انتشرت الشائعة بأنه كان يهوديًا وأن يهودًا آخرين يسيطرون على كونشيني وأنهم سادة البلاد المتحكمون(٢١١). لتهدئة مشاعر الغضب التى استبدت بالشعب، جددت مارى دو مديتشى، الوصية على العرش والملك الشاب لويس الثالث عشر، مرسوم الطرد الصادر عام ١٣٩٤ "بدون أى استثناء أو امتياز" : مرسوم بترحيل اليهود دون أن يكون هناك يهود !

بعد حوالى عشرين عامًا، سوف يسمح نفس الشخص، لويس الثالث عشر لـ "التجار البرتغاليين فى الأقاليم المتحدة" بالتنقل داخل فرنسا، دون حق الإقامة فيها.

نحو عام ١٦٥١، كان باسكال Pascal، الذى صادق بعض المتحولين فى مدينة روان حوالى عام ١٦٤٥، أحد أوائل من اعترفوا بفضل اليهود على الإنجيل وعلى المسيحية: سوف يتناول ذلك عرضًا فى "البخيل" : كانت الكلمة تعد سبة فى ذلك الوقت، فى المسرح مثلما كانت فى اللغة الشعبية.

سبة يمكن أن تؤدى إلى سوء العاقبة: فى عام ١٦٥٢، كشف حادث عن وهم وجود يهودى فى باريس[٦١]. يومًا ما، سخر المدعو جان بورجوا علانية من رابطة تجار الملابس المستعملة وأشار إليهم بقوله "سادة المعبد هؤلاء". شاعرًا بالإهانة، قام أحد هؤلاء التجار بقتله. فضيحة. اتهمت بعض المنشورات القاتل بأنه يهودى. أظهرت التحقيقات عكس ذلك، فقد ثار الرجل لاتهامه بأنه يهودى، بينما كان تجار الملابس المستعملة "مسيحيين كاثوليك صالحين أخطأوا حين اتخذوا مهنة من مهن اليهود" (كانت الملابس المستعملة تستخدم كرهون لدى المقرضين). مع أنه، لم يعد هناك أى مرابين يهود فى باريس، مبدئيًا منذ مائتى وستين عامًا !

بعد ذلك بقليل، فى أكتوبر ١٦٨٤، فى باريس حيث لا يوجد يهود دائمًا، سوف يتهمون مجددًا بالمسئولية عن اختفاء بعض الأطفال ! فى العشرين من نوفمبر، أصدرت الشرطة أمرها إلى ثلاثة وتسعين حرفيًا وعائلاتهم بمغادرة البلاد، بعد وشاية من مجهول وصفتهم باليهود، فى خلال مدة لا تزيد على شهر[٦١].

ربما اعتقد أنهم قد جاءوا من الشرق حيث لم يدخل يهود إلى فرنسا بصورة شرعية إلا بعد ضم ميتز **Metz** فى عام ١٥٥٢. فى عام ١٦٥٧، وضع لويس الرابع عشر يهود مقاطعة الألزاس تحت حمايته، بمرسوم ملكى صادر فى ٢٥ سبتمبر، ملتحقين بذلك بيهود ميتز الذين حصلوا على الجنسية الفرنسية منذ مضى. طوائف فقيرة وكثيرة العدد: أكثر من عشرة آلاف شخص مجبرون على الاعتماد بصورة أساسية على إقراض الآخرين بضمان الرهن وعلى التجارة المتواضعة كمصدر وحيد للعيش[٦٧]. مثل يهود إقطاعية "كومتا فاتيسان" تجولوا قليلًا فى باقى أنحاء المملكة، حيث لم يكن لهم حق الإقامة وأدخلوا تطبيقات جديدة، بيع سلع غير مطابقة للنموذج النقابى، أكثر اقترابًا وملائمة لحاجات المستهلكين بهامش ربح ضئيل، كانوا ملمين بطرق الترويج لها، متخطين إطار مبدأ الكسب التجارى الضيق (المركانتيلية)[٦٧]. حتى وإن كانوا قد حصلوا على موافقة الملك، وإن كان كولبير **Colbert** قد امتدحهم أحيانًا وأشاد بالنفع الذى يعود على الدولة من وجودهم[٦٨]، فإن أحدًا لم يجرؤ حتى ذلك الوقت على السماح لهم بالعودة العلنية إلى باريس وغيرها من المدن.

من شيلوك Shylock إلى كرومويل Cromwell

فى عام ١٤٩٣، استقر فى لندن وبريستول نفر قليل من اليهود المتحولين، متخفين بأكثر مما كانوا عليه فى بوردو، حيث كان اليهود ممنوعين من الإقامة منذ عام ١٣٩١. أطباء وتجار، تم القبول بوجودهم دون الانخداع بحقيقتهم. اعتقد بفائدتهم فى المجال الدبلوماسى وفى مجال التجسس، فى اللعب على الحبلين وفى الأعمال التجارية. كان من المعروف أنهم يكرهون إسبانيا وهناك حاجة إليهم كعملاء سريين فى الحرب التى تبدو نذرها مع ذلك البلد. فى عام ١٥٣٦، لم يكن هناك أكثر من سبع وثلاثين أسرة – أطباء وتجار – كانت تنظم يوميًا فى منزل إحداها قداسًا دينيًا. كانت الشرطة، على دراية تامة بما يدور، تسمح لهم بالقيام بذلك، بناءً على أمر من هنرى الثامن، الذى استخدم بعض رجال اللاهوت اليهود لتبرير طلاقه، عبر تفسير النصوص التوراتية، من كارترين دأرجون Catherine d'Aragon وكذلك لتسويغ زواجه من أن بولين Anne Boleyn.

فى نفس الوقت، مع تطور التجارة والمهن الحرفية والمناجم والتعدين، أصبح الاستثمار والائتمان ضروريين بصورة متزايدة. فى عام ١٥٤٥، فى الانقلاب الإنجيلكانى، سمح هنرى الثامن بالقروض الربوية – قرار سوف يرفض البرلمان إصداره فى عام ١٥٥٢. فى عام ١٥٧١، تم السماح بالائتمان بصورة نهائية وخضع النبلاء لذلك، دون الاهتمام بمن كان يمارس تلك التجارة. فى ذلك العام، نشر توماس ولسن Thomas Wilson "رسالة حول الربا" انتقد فيها "الفائدة التى يمكن أن تؤدى إلى انهيار المجتمع من خلال تشجيع الناس على الاقتراض". نفس اللوم ذاته دائمًا ومنذ خمسة عشر قرنًا... لا مجال حتى الآن للقبول بوجود اليهود علانية فى لندن.[١٥٢]

ابتداءً من عام ١٥٥٨، سمحت إليزابيث الأولى Elisabeth، بوجود بعض المتحولين، القادمين من روان ومن بوردو، بالقرب منها. أصبح أحدهم، رودريجو لوبيز Rodrigo Lopez، فى ١٥٧٠، الطبيب الخاص للكونت دو لايسستر Compte de Leicester، المقرّب آنذاك من المملكة.

نحو عام ١٥٨٠، وصل إلى لندن، قادمًا هذه المرة من براغ، مهندس مناجم يهودى من بوهيميا، بناءً على طلب شركة المناجم الملكية، وكان يدعى جواكيم جانز Joachim Ganz (أو جانس Gans أو جوانز)، أحد أقرباء الفلكى دافيد بن سالومون (داوود بن سليمان) جانز David ben Salomon الذى كان يعمل فى براغ مع كيبلر Kebler وتيكو براهيه Tycho Brahe. فى إنجلترا، ظل جواكيم جانز يهوديًا فى السر، وعمل فى مناجم النحاس الذى كان أوان ذلك معدنًا إستراتيجيًا، الأساس فى صناعة البرونز الذى تُسبك منه أفضل المدافع. أحدث الرجل ثورة فى التعدين، مقلصًا فترة عمليات تنقية المعدن من ستة عشر أسبوعًا إلى أربعة أيام، بل إنه وجد استخدامًا للشوائب فى صياغة المنسوجات. ضمن جانز بذلك لمدفعية البحرية الإنجليزية تفوقًا كبيرًا على مدافع الأساطيل الإسبانية البسيطة المصنوعة من الحديد. لن يخطئ فرانسيس بيكون Francis Bacon عندما سوف يجعل من جواكيم المثل الأعلى لنموذج العالم، فى يوتوبيا "أطلانتيس الجديدة" التى كتبها بعد ذلك بأربعين عامًا.

فى عام ١٥٨٨، كان متحول آخر، الدكتور هيكتور نونس Hector Nunes هو من علم، من خلال شبكته التجار المتحولين، بالوصول الوشيك للأسطول الإسبانى وأبلغ ملوك إنجلترا بذلك، فاتخذوا الاحتياطات الضرورية اللازمة للدفاع عن البلاد.

اثنان من المتحولين، أغفل التاريخ ذكرهما تمامًا، نونس وجانز أتاحا بما قدماه للإنجلترا أن يلحقوا الهزيمة بما كان يسمى "الأرمادا" أى الأسطول الذى لا يقهر...

فى العام التالي، ١٥٢٩، عرضت فى لندن للمرة الأولى مسرحية "يهودى مالطة"، مسرحية كريستوفر مارلو Christopher Marlowe،[٢٦٨] التى تروى قصة يهودى قاس وبخيل، دعاه الكاتب باراباس Barabas، أغرمت ابنته بمسيحى، وانتهى بها الحال إلى اعتناق المسيحية. قصة معادية لليهودية – يقرأها البعض الآن باعتبارها مجرد زندقة –، بقدر ما كانت سخيفة ومنافية للعقل لأنه لم يكن هناك يهودًا فى مالطة فى ذلك الوقت سوى بعض التجار الفقراء الذين اختطفهم، ما بين تونس وليفورن، قراصنة فرسان مالطة، وأرغموا على العمل فى فاليتا La Valette (عاصمة مالطا) فى ظروف مضنية وبائسة انتظارًا لأن ترغب إحدى الطوائف فى دفع فديتهم.

فى عام ١٥٩٣، كان كونت إيسيكس Comte d'Essex، الذى يتخوف من نفوذ الدكتور رودريجو لوبيز على الملكة – كان قد صار طبيبها الخاص – قد اتهمه بمحاولة تسميم إليزابيث. ألقى القبض على لوبيز، عذب وأعدم شنقًا بالرغم من تدخل طائش من الملكة فى صالحه.

فى ذلك الوقت بالتحديد، فيما بين عامى ١٥٩٤ و ١٥٩٧، كتب وليم شكسبير مسرحية "تاجر البندقية"(٣٨١). التى تداخلت فيها كل رهانات العلاقات بين العالم، اليهود والمال. فى فينيسيا المسرحية، استعارة عن لندن فى ذلك الوقت، وكانت ميناء يضج بالحركة والنشاط، تعلق الأمر بقضايا العدل والحرية، بالحق فى الإقراض وبالحق فى الاستثمار، بالحب وبالفساد. باسانيو Bassanio، شاب مسيحى يتودد إلى بورتيا Portia، وريثة جميلة غنية. لينال يدها، كان عليه أن يحل لغزًا مخفيًا فى ثلاث خزائن. ليخطب ودها، اقترض باسانيو بضع من آلاف الدوكات من أحد التجار اليهود، شيلوك Shylock، بضمانة أقرب أصدقائه، التاجر المسيحى أنطوان. ولأن السفن التى كان هذا الأخير يأمل فى سداد القرض عن طريقها لم تدخل إلى الميناء، أصر شيلوك على تطبيق الشرط كما جاء فى العقد المبرم بينهما بشأن القرض: رطل من لحم أنطونيو. عرضت القضية أمام القاضى – كان فى الواقع هو بورتيا الجميلة متخفية – الذى أصر على تطبيق الشرط حرفيًا: ينبغى على شيلوك أن يقتطع من لحم أنطوان رطلًا كاملًا، لكن دون أن يريق قطرة واحدة من الدم. وإلا تعرض لحكم الإعدام. لم يكن بإمكان شيلوك بالطبع المجازفة بفعل ذلك؛ صودرت أملاكه؛ حكم عليه باعتناق المسيحية؛ هربت ابنته جيسيكا Gessica مع أحد أصدقاء باسانيو.

استعاد شكسبير فى المسرحية عناصر قديمة جدًا للعداء المسيحى لليهودية؛ جاءت أسطورة الخزائن الثلاث بصورة خاصة من قصة إيطالية كتبها جيوفانى فيورونتينو Giovanni Fiorentino فى عام ١٣٧٨؛ أما قصة رطل اللحم فقد استُلهِمت من قصيدة معادية لليهود ظهرت فى القرن الرابع عشر Le Cursor Mundi، موندى الوغد.

عرفت المسرحية نجاحًا باهرًا فى العالم كله على مر قرون. وبالتأكيد سوف يقول أحدهم، بيتر بروك Peter Brook: "إننى لن أعدها مطلقًا ما دام بقى فى العالم شخص واحد معاد للسامية". واقع الأمر أن سلوك شيلوك ليس من اليهودية فى شيء الأخلاق اليهودية تحرم كما رأينا، الثأر وترفض شريعة تالون (العين بالعين)؛ كما أنها لا تقر اقتطاع لحم حيوان حى. شيلوك، المُضطهَد صار مُضطهِدًا، كان فى الحقيقة تمثيلًا نموذجيًا للتزمت الإنجليزى (الذى يشترط التطبيق الحرفى للقانون ويعترض على تعسف المحاكم الاستثنائية) وللرأسمالية التمويلية (التى تتعارض مع الرأسمالية المغامرة لأنطوان، الذى أثرى من الاتجار غير الشرعى فى العبيد الذى يدينه شيلوك). كان أنطوان وشيلوك، يوحدهما نفس الحزن (إحدى آخر كلمات المسرحية)، يشتركان فى نفس الموقف: اثنان من رجال المال تخلى عن كل منهما فى نهاية الأمر من كانا يحبانهما. "أنا يهودى، يقول شيلوك: أليس لليهودى عينان (....) يدان، أطراف (.....)، مشاعر، أحاسيس، عواطف أشواق؟ ألا يأكل نفس الطعام، تجرحه نفس الأسلحة، تصيبه نفس الأمراض، تشفيه نفس الأدوية، يعالج بنفس الطرق، يشعر بالحر والبرد فى نفس الصيف ونفس الشتاء مثل أى مسيحى؟ جراءة خارقة فى ذلك الوقت: اليهودى إنسان، يمكن أن يكون نافعًا.

كان درس تاجر البندقية، فضلًا عن ذلك، هو الدرس الذى تحتاج إنجلترا فى تلك الفترة إلى إدراكه: ينبغى أن تتعلم كيف تستقبل الأجانب وتقبل بوجودهم، لأن ازدهار الدولة يعتمد عليهم. بعد قليل سيأتى آخرون ليقولوا ذلك بطريقة أخرى.

حتى وإن طرد بعض التجار البرتغاليين، عام ١٦٠٩، من لندن لأنهم أظهروا يهوديتهم بأكثر مما كان يجب، فقد تزايد عدد المتحولين الذين يجازفون بأنفسهم فى إنجلترا. كان معظمهم من المفكرين الذين وصفهم فرنسيس بيكون فى "يوتوبيا" أو المدينة الفاضلة فى عام ١٦٢٧ بأنهم "علماء مثاليون"(٣٦).

تسارعت وتيرة كل شيء بحلول عام ١٦٤٩ وعندما وصل أوليفر كرومويل Oliver Cromwell إلى السلطة. استخدم هذا الأخير فى البداية شخصًا يدعى أنطونيو فرنانديز كارفجال Intonio Frenandez Carvejal كجاسوس فى هولندا، ثم تلقى بعد ذلك فى

سبتمبر من عام ١٦٥٥ زيادة شخصية غير عادية سوف نتحدث عنها لاحقًا، الحاخام منَساه بن إسرائيل **Menasseh Ben Israël**، القادم من أمستردام ليقول له إن المسيح لن يعود إلى الأرض إلا بعد أن يُسمح لليهود بالعيش فى إنجلترا. فضلًا عن أنه قد نوّه مستعيدًا نفس الحجج التى استخدمها الحاخام لوزاتو وفى فينيسيا عام ١٦٣٨، بأن اليهود سوف يكونون نافعين للغاية فى تطور البلاد، نظرًا لأنهم بلا وطن يرسلون إليه أموالهم وأنهم ينفقونها فى البلد الذى يعيشون فيه. متحمسًا، استدعى كرومويل بعض التجار ورجال الدين فى الرابع من ديسمبر ١٦٥٥، للاجتماع بغرض اتخاذ قرار بعودة اليهود. غير أن أعيان إنجلترا اعترضوا على ذلك. علق كرومويل المؤتمر آنذاك ابتداءً من الثامن عشر من ديسمبر وعرض على منساه معاشًا سنويًا قدره مائة جنيه. عالمًا بمرض كرومويل، قال له الحاخام إنه يفضل الحصول على ثلثمائة جنيه دفعة واحدة والآن. لن يحصل على شىء من هذا، سوف يموت مفلسًا. بعد عام ونصف العام من هذا، فى عام ١٦٥٧، سوف يسمح كرومويل ببناء معبد فى لندن، أول معبد فى إنجلترا منذ قرنين ونصف القرن: بعد ثلاثة أجيال من "الإقامة غير الشرعية" أكثر من قرن ونصف القرن بعد أن كان على أسلافهم مغادرة إسبانيا، يعلن الآن عدة مئات من المتحولين بوضوح أنهم يهود.

موت كرومويل فى عام ١٦٥٨، الذى أعقبه عودة النظام الملكى فى ١٦٦٠ وزواج تشارل الثانى **Charles II** بكاترين دوبراجنس **Catherine de Bragance**، لم يمنع وصول متحولين جدد إلى لندن، بل ويهود عادوا من قبل إلى ديانتهم، مثل رجال البنوك الهولنديين جاكوب هنريك **Jacop Henriques** وسامسون جيدون **Samson Gidon**، الذين اجتذبهم "قلب"(١٥٢) العالم.

الحقيقة، أن تصويت برلمان وستمنستر **Westminster**، فى ٩ أكتوبر ١٦٦١، على قوانين الملاحة، مختصًا السفن البريطانية وحدها بنقل السلع المستوردة، قد أشعل حربًا مع الأقاليم المتحدة. هزم الهولنديون فى هذه الحرب. صار البحر من وقتها إنجليزيًا. أقام شارل الثانى الكنيسة الإنجليكانية من جديد واستقدم حاخامًا من هامبورج. فى عام ١٦٨٤، تم القبول باليهود واعترف بهم البرلمان تحت مسمى "الأجانب غير المؤمنين". فى عام ١٦٨٩، طرح جون لوك **John Locke** فى رسالته حول التسامح، فكرة أن الديانة

قضية خاصة ليس على السلطة المدنية أن تتدخل فيها، إلا لتأمين حرية الجميع. فى ذلك العام صار جيوم الثالث، ملك أورانج – ناسو Orange-Nassau ومستشار هولندا منذ عام ١٦٧٢، ملكًا لإنجلترا. اندمجت القوتان البحريتان الأقوى فى العالم سويًا.

لم يكن عدد اليهود فى إنجلترا حتى ذلك الوقت إلا ستمائة شخص. أغلبهم من التجار: احتكر بعضهم تجارة المرجان؛ كان الآخرون من رجال المصارف، أمثال جوزيف سلفادور Joseph Salvador وسامسوم جيدون، الذى أصبح وزيرًا لمالية إنجلترا. فى عام ١٦٩٠، تم قبول اثنى عشر يهوديًا، قادمين من أمستردام أيضًا، فى سوق لندن للأوراق المالية (البورصة) وحملوا إليها خبرتهم الهولندية؛ أداروا بعد قليل ربع إجمالى القروض الحكومية فى تلك الحقبة[٣٤]. حرفيون أو مصرفيون، شيد بعض اليهود الأشكناز القادمون أيضًا من أمستردام أول معابدهم. بعدها بقليل، اقترح جورج الثانى على البرلمان منح الجنسية البريطانية لكل اليهود المقيمين فى البلاد منذ ثلاث سنوات على الأقل. أوضحت الأسباب التى ساقها، بجلاء، "أن جانبًا كبيرًا منهم من الأجانب؛ ينبغى حثهم على إنفاق مواردهم فى المملكة (....). إن كان لليهود نفس الحقوق المدنية التى يتمتع بها المواطنون الآخرون، فسوف يرتبطون بالبلاد. وأخيرًا فإن علاقاتهم بأهم رجال المال والمصرفيين فى أوروبا سوف تكون ميزة عظيمة فى حالة الحرب، لأنهم سوف يسهلون قروض الحكومة[١٥٢]".

لقد اهتدى بذلك إلى أساس فكرة الإيثار اليهودى ذاتها: لا شىء ينفع اليهود إن لم يكن نافعًا لمن حولهم. هكذا انتصرت البراجماتية الإنجليزية مدعومة بالحجج التى ساقها منساه بن إسرائيل منذ نصف قرن مضى، انتصرت على ثلاثة قرون من المنع والإبعاد: يحتاج الإنجليز إلى اليهود الذين يعرفون ما قاموا به فى هولندا.

وسط أموال الآخرين

فى الفلاندر(*):

فى عام ١٤٩٢، كانت كل أراضى الفلاندر تحت سيطرة آل هابسبورج وكان اليهود ممنوعين من الإقامة بها. فى عام ١٥١٦، وجد شارل كانت، ملك جاند Gand، نفسه فى نفس الوقت معتليًا عرش إسبانيا بعد سلسلة من الميتات المبكرة (كان حفيد فرديناند)، صار الوضع أكثر صعوبة بالنسبة لتلك الحفنة من المتحولين النين قدموا إلى الفلاندر بعد إبعادهم عن إسبانيا: فجأة وصلت محكمة التفتيش وألقت القبض عليهم. ولهذا لم يتبق فيها إلا من كان مقتنعًا باعتناقه المسيحية مؤمنًا بها أو من كان لديه أسباب حتمية ليقدم على مثل هذه المجازفة.

كان منهم فى مدينة بروج Bruges، تجار وأساتذة(١٤٣). من بينهم، خوان لويس فيفس Jaun Luis Vives، المولود فى فالنس Valence عام ١٤٩٢، قبل الطرد مباشرة(٤٦٩). بعد أن أتم دراسته بجامعة السوربون – كان من تلك القلة من المتحولين التى انتقلت إلى باريس – قام بالتدريس فى ليفورن وفى أوكسفورد، التى صار فيها صديقًا لتوماس مور Thomas More (**). وفى بحث مفصل للغاية عن «المساعدة الاجتماعية للفقراء» وجهه إلى القضاة المحليين، طالب بأن يكون للجميع حقوق متساوية فى الثروات الطبيعية واقترح إيجاد معاش مضمون للجميع – ليس فقط من أجل الفقراء: "بما فى ذلك العاهرات والمقامرون"(١٤٣). وفى المقابل فالجميع مطالب بالعمل فى خدمة المجتمع بما فى ذلك المسنون.. حتى أكبرهم عمرًا. عن خطأٍ، سوف ينسب التاريخ إلى توماس مور فكرة الحد الأدنى المضمون من الدخل؛ لقد جاءت مباشرة من متحول مدينة بروج هذا، نابعة من فكرة التصدق التوراتية.

(*) مقاطعة فى شمال فرنسا تقع على بحر الشمال عند حدود بلجيكا. عاصمتها مدينة ليل. تاريخيًا ضمت أراضى من بلجيكا وهولندا. (المترجم: عاصم عبد ربه)

(**) هو السير توماس مور المولود فى لندن عام ١٤٧٨ والمتوفى بها فى عام ١٥٣٥. كان مفكرًا سياسيًا ومؤلفًا وعالمًا إنجليزيًا – عاش فى القرن ١٦ م – تعلم فى جامعة أوكسفورد ثم درس بها.. له الكثير من المؤلفات الإنسانية، الاقتصادية والسياسية.

بعد بروج، وقبل أمستردام ولندن، كانت أموال العالم تتركز أولًا فى أنفرس وفى بعدها فى الفلاندر بأكملها (هولندا وبلجيكا). واقع الأمر أنه كما كانت فينيسيا هى المستفيد الحقيقى من الحروب الصليبية، كانت أنفرس مع أشبيلية Seville المستفيدتين الحقيقيتين من اكتشاف أمريكا ومن التجارة مع الهند. فهناك رست أولى السفن البرتغالية القادمة من كالكوتا Calicut محملة بالتوابل المتوجهة إلى أوروبا الشمالية. أصبحت أنفرس آنذاك عاصمة العالم الاقتصادية.(٦٩)

خضعت القلة النادرة من المتحولين الذين غامروا بالبقاء هناك لرقابة صارمة(٦٦) فى عام ١٥٣٢، تعرض أحدهم للوشاية ، دييجو مندس Diego Mendes، شقيق أحد التجار اليهود الذين اعتنقوا المسيحية والذين بقوا فى ليفورن، ألقى القبض عليه باعتباره "متهودًا" فى السر، من المحتمل أن يكون ذلك قد حدث بسبب بعض المنافسات التجارية. وجد فى أحد المخازن التابعة له ما قيمته ١٧٠٠٠٠ ألفًا من الدوكات من التوابل القادمة من البرتغال. حصل ملك البلاد جان الثالث من شارل كانت على أمر بإطلاق سراحه. سوف يصبح من كبار رجال المصارف، وابنه أيضًا بأكثر منه: سوف يصبح بعد ذلك خوان ها-ناسى دوق دو ناكسوس، فى إسطنبول. فى العام التالى أطلقت ملاحقات قضائية أخرى ضد "مسيحيين جدد" آخرين بسبب اتهامهم باحتكار تجارة التوابل. انتهت تلك الملاحقات بمصادرة ممتلكاتهم، بعد ما ثبت أنهم استوردوا من البرتغال ما قيمته ٣٠٠٠٠٠ ألف من الدوكات من التوابل(٦٦).

فى عام ١٥٧٨، قرر ملك لوسيتانيا سحب امتياز احتكار تجارة الفلفل من آخر التجار المتحولين المتبقين فى لشبونة، بسبب اتهامهم بممارسة طقوس اليهودية سرًا. ممنوعين من تلقى البضائع، اتجه مراسلوهم ووكلاؤهم التجاريين فى هولندا آنذاك إلى تجارة الحرير والماس كانوا يستوردونها أيضًا من الهند ولكن عن طريق فينيسيا. ولنقص وجود الفلفل، حولوا أنفرس فى خلال عدة عقود إلى عاصمة الماس فى العالم.

مرحلة أخرى غاية فى الخطورة: برغم الأزمة المالية(٦٩) فى ١٥٥٧ التى أدت إلى إفلاسهم مع تجار جنوة فى نفس الوقت، فإن الإسبان بقيادة أليكسندر فارنيس

Alexandre Farnese وجدوا القوة لاسترجاع أنفرس المتمردة، التى فر منها المتحولون اليهود على عجل. لن يعودوا إليها إلا بعد جلاء الإسبان نهائيًا فى عام ١٦٠٩. نقلوا إليها تجارة الماس[٣٨].

مع ذلك، فقد كانوا بالكاد مقبولين فى المنطقة.. وعلى مضض. سوف يجبر قساوسة فيلفوورد Vilvoorde، مدينة بلجيكية صغيرة بالقرب من بروكسل، السلطات المدنية على رفض استقبال اليهود، بالرغم من عرضهم تقديم ضرائب باهظة. وسوف يكون علينا أن ننتظر عام ١٧١٦ لكى يتم القبول بإقامة أول يهودى فى بروكسل، التى غادرها اليهود فى عام ١٣٤٩: سيتعلق الأمر بالمدعو جوزيف هارتوج Joseph Hartog ، الذى كان، بالطبع، تاجر أحجار كريمة، قادمًا من أمستردام.

لأن كل شيء كان يجرى من الآن فصاعدًا فى هذه المدينة الأخيرة. بحلول عام ١٥٢٠، وصل إليها بعض يهود البرتغال المتحولين، بالرغم من أن البلدة كانت تحت حكم الإسبان. خلال هذا القرن، كانت المدينة فى أوج قوتها؛ حوالى ١٥٨٠، كان أسطولها فى مثل قوة كل الأساطيل الأوروبية مجتمعة: ٤٨٠٠٠ بحار يمتلكون نوعًا جديدًا وغير عادى من السفن التجارية وسفن نقل العتاد الحربى "La Flûte"[٦٩]. وجد المسيحيون الجدد الذين جاءوا إليها خلال القرن السادس عشر أصدقاءً من المسيحيين ومتحولين آخرين، علاقات تجارية قديمة، قبلوا بأن يعيروهم أسماءهم فى التجارة البعيدة، حتى لا يعرضوا متحولى "خنازير" إسبانيا، والذين استمروا وكلاء تجاريين لهم، للخطر.

يجب الانتظار حتى تحصل المقاطعات المتحدة (هولندا القديمة) على استقلالها فى عام ١٥٩٣، ويرحل عنها الإسبان حتى يتمكن اليهود من الإقامة بها بصورة علنية. كشفت الأجيال التالية من المتحولين الموجودين فى البلاد عن يهوديتهم؛ وجاء آخرون من ألمانيا. صار بعضهم حتى حاخامات تقليديين جدًا، مثل بالتازار أوروبيو دو كاسترو Balthzar Orobio de Castro.

لن يتأخر هؤلاء المسيحيون الجدد فى تكوين طائفة صغيرة مزدهرة. فى عام ١٦٠٩، شارك أربعة وعشرون من البرتغاليين والإسبان فى إنشاء بورصة أمستردام مع

٧٠٠ من المساهمين الآخرين(٥٨): من بينهم كان هناك دييجو ديازكوريدو Diego Dias Querido، دوراتو وأنطونيو سيراى Durato et Antoino Seraye، فيليب دياز فيتوريا Philippe Dias Vittoria، فرانشسكو رودريجز، جارسيا جوميز Garcia Gomez، جاسبار سانشيز، جاسبار ومانويل لوبيز سورو Gasbar et Manuel Lopes Souro. لم يكونوا فى ذلك الحين أكثر من مائة أسرة. وصل فى ذلك العام إلى طائفتهم أحد المسيحيين الجدد، جاسبار رودريجز نونس Gasbar Rodrigues Nunes، المولود فى لشبونة من والدين وجدين من المتحولين، فر من البرتغال حيث ثارت الشكوك فى أنه قد ظل يهوديًا فى السر لأنه كان قد سافر إلى إسبانيا .. كان هذا أحد الأدلة التى تمسكت بها محكمة التفتيش... تعرض للتعذيب، تم ترحيله عام ١٦٠٤ إلى مادير Madére، حيث ولد ابنه الثالث منساه، حط جاسبار نونس رِحاله إذًا فى أمستردام مع زوجته وأطفاله الثلاثة بعد إقامة فى مدينة لاروشل La Rochelle. بعد أكثر من قرن، من إعلان أجداده رسميًا التخلى عن ديانتهم، عاد علنًا إلى يهوديته تحت اسم جوزيف بن إسرائيل. كان والد الحاخام منساه بن إسرائيل، الذى كان موضوع الحديث بشأن اتصالاته مع كرومويل. فى عام ١٦١٥، سمحت المجالس العامة فى المقاطعات المتحدة لهذه الطائفة الصغيرة أن تمارس طقوس عبادتها علانية. تنوعت المهن التى مارسها اليهود. إنهم يهيمنون الآن على صناعة الحرير[٢٨]. فى عام ١٦١٦، أنهى المدعو سالمون فرانكو Salomon Franco، تدريبه كنحات للأحجار الكريمة لدى أحد نحاتى الماس البروتستانت، دافيد بولسينك David Bulsinck. استمر كثير من التجار اليهود فى الاتجار مع البرتغال (سكر، زيت، منسوجات وعملة) ومع إسبانيا، لكن عن طريق الوكلاء. أصدر دافيد دو كاسترو تارتاس David de Castro tartas، جريدة بالإسبانية، جريدة أمستردام، تتضمن أخبارًا سياسية، تجارية، بحرية، كان يقوم بإرسالها إلى المتحولين فى إسبانيا وفى البرتغال.[٥٨] لم يكن هناك أى خبر منشور يمكن أن يثير الشك فى أن الجريدة تعبر عن اليهود المتحولين إلى المسيحية. ومع ذلك فقد كانت هى الرباط الذى يجمع بين كل العائلات المشتتة هنا وهناك.

قدر: صار منساه بن إسرائيل حاخامًا فى عام ١٦٢٢ وكان وقتها فى الثامنة عشرة من عمره؛ فى ١٦٢٦ استهوته الطباعة وأولاه مسئولو الطائفة مسئولية إدارة مطبعة

تستخدم الحروف العبرية واللاتينية، أنشئت بمال جماعى. نجاح: ابتداءً من عام ١٦٢٨، مستخدمًا عمالاً مسيحيين، كان يصدر خمسة أو ستة مجلدات سنويًا(٢٤) وصار صديقًا لجروتيوس Grotius ورامبرانت Rambrandt (*) ، الذى رسم له صورة شخصية.

فى عام ١٦٣٤، كان اليهودى الوحيد، وسط مائة وتسعة وخمسين مسيحيًا، من الذين شاركوا فى معرض الكتاب والناشرين الذى كان يقام فى فرانكفورت.(٥٨)

وعلى العكس، وجد متحولون آخرون صعوبة كبرى فى الاندماج فى المجتمعات والديانة الجديدة. لم يتمكن معظمهم من الارتباط بممارسات لم يعرفوها من قبل مطلقًا. رفض الحاخامات من غير المتحولين الاعتراف بهم كيهود: كانوا قد توقفوا عن إجراء الختان منذ عدة أجيال وكذلك عن الزواج طبقًا للشريعة. تمرد البعض على أصولية الحاخامات(٥٧) وتعنتهم: الطبيب خوان دو برادو، الفليسوف بدور نونيز، الكاتب إسحاق دولا بيرير. لمتابعة أبحاثهم بحرية تعرضوا لغضب الطوائف. كان المدعو باروخ سبينوز Baruch Spinozal هو أهم رجل فى هؤلاء المتحولين المتمردين، المولود عام ١٦٣٢ فى عائلة من المتحولين البرتغال الذين عادوا مرة أخرى إلى اليهودية فى أمستردام.(٤٥٧) درس فى المدرسة اليهودية، تعلم العبرية والإسبانية، اكتشف ابن ميمون Maimonide وكريسكاس Crescas مع أحد أصدقائه المتحولين، الطبيب خوان دى برادو الذى كان أيضًا من الثائرين على الحاخامات.

صار عدد اليهود الآن ألفًا وخمسمائة شخص من بين تعداد المدينة الذى وصل إلى مائة وأربعة عشر ألفًا. كان أغلبهم من السفارديم المتحدرين من عائلات من اليهود المتحولين؛ انضم إليهم بعض الأشكناز القادمين من ألمانيا. وبرغم أنهم مازالوا يعتبرون كالأجانب فإنهم قد شعروا بارتياح أكثر منذ وصولهم واستثمروا مدخراتهم فى اقتصاد المدينة. بينما امتلك ١٪ فقط من أرباب العائلات المسيحية حسابًا بنكيًا، كان ٩٪ من اليهود من أصحاب الحسابات البنكية.(٥٨) تدفقوا من كل صوب لإنشاء الشركات والمؤسسات: فى

(*) واحد من أشهر رسامى هولندا فى كل العصور. ولد فى ليدن عام ١٦٠٦، وتوفى بأمستردام عام ١٦٦٩.. (المترجم: عاصم)

عام ١٦٤١، وصل إلى فينيسيا إيمانويل بنفنيستى **Emmanuel Benveniste** لينشئ مطبعة برؤوس أموال خاصة منذرًا بأن يصبح منافسًا خطيرًا لمنساه بن إسرائيل، الذى تشارك فى عام ١٦٤٠ مع بعض مجلدى الكتب المسيحيين حتى يستطيع الصمود، أثار ذلك غضب الطائفة اليهودية التى قامت بتمويله. كان يعالج ويطبع نحو ثمانى آلاف نسخة من كتب الصلاة كل ستة شهور، يتم تصديرها إلى كل أنحاء أوروبا. فى عام ١٦٤٨، طلب الاشتراك فى اتحاد الناشرين – الذى، لخيبة أمله الشديدة، رفض طلبه. فى عام ١٦٥٠ أصدر كتابه الخاص "أمل إسرائيل"(٤٤) نص رائع قدم فيه بنفنيستى للمسيحيين عرضًا لأخلاق اليهود. فى عام ١٦٥٥، قبل سفره إلى لندن، حيث يأمل أن يجد معاملة أفضل، نشر دفاعًا عن اليهود قدم فيه صورة ليهود قدموا لأمرائهم خدمات جليلة، ابتداءً من أنتيباتير فى خدمة قيصر إلى خوان ها–ناسى مع سليمان **Soliman**. أوضح أن الأربعمائة عائلة يهودية المقيمة فى هولندا تجلب كثيرًا من المال للدولة وأن اليهود حيثما قُبِلَ بهم كانوا مواطنين صالحين لا يرغبون فى شىء إلا أن يحملوا الخير والرخاء إلى كل من حولهم. "إنهم خدم مخلصون". فى تلك السنة طرد حاخامات أمستردام باروخ سبينوزا من الطائفة.(٤٥٧)

عندما رحل منساه بن إسرائيل إلى إنجلترا، كلفت الحكومة الهولندية، قلقة من فكرة فقدان "يهودها"، سفيرها فى لندن بمراقبته. لدى عودته، خائبًا، فى ٢ يونيو ١٦٥٧، بادر مجلس المدينة، مقدرًا حجم الخطر، بمنح الجنسية لكبار التجار اليهود. مات منساه بن إسرائيل فى تلك السنة، فقيرًا بائسًا. فى العام التالي، أنشأ جوزيف أتياس **Joseph Attias** مطبعة جديدة وأعلن فى الجرائد عن تشكيلة الحروف المطبعية الجديدة التى يقدمها لعملائه. فى عام ١٦٦١، تم قبوله فى اتحاد الناشرين المسيحيين الذى كان قد رفض انضمام منساه منذ ثلاثة عشر عامًا خلت.(٥٨) لم يكن تحامل النقابات ضد الحرفيين اليهود متعلقًا بمهنة الطباعة وحدها. أقيم فى ذلك العام أيضًا اتحاد للعاملين فى مجال الحرير، كان يسعى إلى مساعدة صناع الحرير المسيحيين الجدد فى إبعاد اليهود عن هذا السوق الذى يهيمنون عليه منذ نصف قرن. آنذاك، قرر هؤلاء نقل معاملهم وموظفيهم المسيحيين إلى إحدى القرى الصغيرة، حيث توجد مساكنهم الصيفية، بعيدًا عن اختصاصات الاتحادات النقابية.(٥٨) سيدوم هذا التدبير سبعة أعوام، بعدها سوف يشهرون إفلاسهم.

أكبر ملاجئ الهاربين من الحروب ومن الاضطهادات الدينية، استقبلت أمستردام حينها البروتستانت الفرنسيين والبلجيكيين، اليهود السفارديم والأشكناز(٥٨). نحو عام ١٦٦٠ كان ثلث السكان، أي مائة وخمسون ألفًا، من أصول أجنبية(٦٩). ومع هذا فلم يكن هناك سوى ألفي يهودي ألماني وبولندي، ومثلهم من السفارديم. لم يكن مستوى معيشتهم مرتفعًا جدًا.

في عام ١٦٦٠، كانت سبع أسر فقط من اليهود، كلها من السفارديم، تمتلك مساكنها (من بينهم آل دي بنتو De Bento، وآل سوزا كوتنهو Souza Cotinho). أخذ أغلبهم بقواعد وأعراف المجتمع البروتستانتي وشرعوا في توظيف اليهود الألمان والبولنديين، الذين لم تكن علاقاتهم بهم دائمًا ودية...

نحو عام ١٦٦٠، ضجرًا من الخضوع لقواعد اليهودية المتزمتة، كتب أوريل أكوستا Uriel Acosta– ابن أحد المتحولين الذين قدموا للإقامة في أمستردام في بداية القرن السابع عشر في نفس الوقت مثل والد منسّاه بن إسرائيل–: "أي شيطان دفع بي إلى اليهود(٤٥٧)؟"، جاءت العبارة في نهاية سيرته الذاتية المثيرة للشجن التي كتبها بنفسه. مطرودًا من الطوائف بأمر الحاخامات، انتهى به الحال إلى الانتحار.

ظلت العلاقات التجارية بين يهود هولندا ويهود البرتغال وإسبانيا المتحولين إلى المسيحية خطرة. مأساة: في عام ١٦٥٥، تمكن قنصل إسبانيا في أمستردام من الحصول خلسة على القائمة التي تضم أسماء متحولي إسبانيا الذين يعملون مع يهود هولندا وأرسلها إلى الملك فيليب الرابع، الذي قام بنقلها إلى محكمة التفتيش(٥٨)...

كما كان الحال في أماكن أخرى، كان التجار اليهود دبلوماسيين في نفس الوقت. كان موسيس كوريل Moses Curiel، وشهرته جيرونيمو نونيس دا كوستا Geroniono Nunes Da Costa، ممثلًا تجاريًا لهولندا في البرتغال – في قلب الخطر! كانت عائلة بلمونت Belmont تلعب دور الممثل الدبلوماسي في إسبانيا – في قلب الخطر بصورة أكبر هي الأخرى(١٧٢)! في عام ١٦٥٠، كلف جيوم الثاني المدعو موسيس ماكادو Moses Machado، أحد متعهدي الجيوش الهولندية والفرنسية، بمهام دبلوماسية أثناء الصراع... الهولندي

الفرنسى ! فى عام ١٦٥٩، كلفت الحكومة الهولندية هنريكو أزفيدو Henrico Azevedo بإبرام اتفاقية مع الجزائر.

فى عام ١٦٦١، بعد أن مرت واقعة المسيح الدجال، شبتاى تسفى، المثيرة للرثاء والتى جعلت كثيرًا من مسئولى طائفة أمستردام موضع سخرية الجميع، أصبح بإمكان الأفكار الفلسفية التعبير عن نفسها بحرية أكثر. لم تكن صدفة أن ظهر بعد أربع سنوات كتاب باروخ أسبينوزا(*) Le tractataus theologico Politicus، "أطروحة اللاهوتية السياسية(٤٥٧)". الذى أشاد فيه بالديمقراطية والحرية الدينية. ووضع فيه أسس النقد التوراتى المنظم، مستراشدًا بأفكار وحجج عقل مستنير آخر، أبراهام بن عذراء، الذى كان قد خلص إلى أن توراة العهد القديم لم تكن من وضع موسى وحده. كان سبينوزا يرى أن شرائع التوراة ليست أحكامًا منزلةً، أملاها الرب على موسى، لكنها نصوص بشرية ينبغى على كل شخص مقارنتها بمعتقده الخاص، الذى يعتمد على كلية السبب، حتى يستطيع أن يجد طريقه الخاص إلى الله. لكن الله هنا ليس إله ديانة منزلة، مصدرًا للنزاعات وسببًا للتعصب، وإنما إله عام... للجميع، إله كونى شامل، الكون ذاته مجسدًا فى الطبيعة. فى عام ١٦٧٢، رفض أسبينوزا كرسى أستاذ الفلسفة بجامعة هايدلبرج Heidel berg الذى عرض عليه، كما رفض المعاش الذى عرض لويس الرابع عشر أن يمنحه إياه إذا أهدى إليه أحد مؤلفاته. تخلى عن نشر كتابه "الأخلاق"(٣٩٦) وانعزل فى مدينة لاهاى، حيث كان يكتسب فيها عيشه من صقل العدسات الطبية، مستمرًا فى التراسل مع ليبنيز Leibniz. مات سبينوزا عام ١٦٧٧، بينما كان عاكفًا على ترجمة التوراة إلى اللغة الهولندية.

سنجد مصائر مشابهة لبعض أبناء التجار اليهود الذين رفضوا أن يخلفوا آباءهم فى أعمالهم. أصبح بعضهم شعراء (دانيال ليفى دى باريوس Daniel Levi de Barrios، دافيد جيسيروم D. Jessurum، أبناتار ميلّو Abenatar Mello، أنطونيو أنريكوس جوميز Antonio Anriques Gomez)،كُتابًا (إضافة إلى منساه بن إسرائيل وباروخ أسبينوزا،

(*) أسبينوزا: فيلسوف هولندى يهودى الأصل تحولت أسرته إلى المسيحية بعد الهجرة من إسبانيا – ولد فى أمستردام ١٦٣٢ ومات فى لاهاى ١٦٧وهو أهم فلاسفة القرن ١٧. (المترجم – عاصم عبد ربه)

نذكر دافيد كوهين دى لارا David Cohen de Lara، موسيس إسرائيل دى ميركادو Moses Israel de Mercado، ألونسو دى هيرارا Alonso de Herrera) أو خطاطين (أبراهام فيدانك Abraham Fidanque، جاكوب جوديلا Jacop Guedella، بنجامان سنيور جودينز (Benjamin Senior Godines.[٤٥٧]

بيد أن آخرين قد ظلوا تجارًا وفضلوا الاعتماد لا على الأفكار، وإنما على الأموال: قدم دى بنتو، ديل مونتى، سواصو، بينو دى ميسكيتا، قروضًا للحكومات، لاعبين على معدلات الفائدة وأسعار صرف العملات. لم يكن من النادر أن يقترض مصرفى بفائدة قدرها ٣٪ فى هولندا، ثم يقوم بإقراض هذه النقود بفائدة قدرها ٧٪ فى إنجلترا. فى سوق الأوراق المالية، أصبحت المضاربة على الأسهم والسندات متطورة للغاية؛ شارك فيها بالفعل قرابة أربعة آلاف وخمسمائة "مضارب" من بينهم كان هناك خمسمائة يهودى[٥٨] أعاد التجار اليهود النظر فى الخطاب الذى كتبه الحاخام يائيل نيسيم عام ١٥٥٦، فى مدينة بيزا، والذى حذّر فيه من المضاربة دون خلق ثروات.[٤٥٦] فى عام ١٦٨٨، أصدر فى أمستردام، أحد الممولين اليهود غريبى الأطوار، جوزيف دى لافيجا، أول رسالة كتبت عن أسواق البورصة تحت عنوان "تداخل الالتباسات" Confusion de Confusiones محذرًا هو الآخر من المضاربات العقيمة "لقد بعنا بالأجل سمك الرنجة قبل أن نصطاده، قمحًا لم يكن قد نبت بعد، فضلًا عن سلع أخرى نأمل فى الحصول عليها من العالم الجديد[٥٨]. صارت أمستردام كعبة المضاربات، مكانًا تتكون فيه "فقاعات" مالية.

ولأن الطائفة قد شيدت معبدًا رائعًا فقد أدى ذلك لأن تبالغ المدينة فى تقدير ثروات اليهود. يقال إن أرضية إحدى الغرف فى دار إقامة دى بينتو De Pinto كانت مغطاة بالدوكات الفضية. عندما مات الثرى اليهودى، جاكوب ديل مونتى Jacop Del Monte– شهرته جاكوب ديل سوتو Del Sotto، أو جاكوب فان دين بيرج Jacop Van Den bergh أو كورنليوس فان ديك Cornelius Van Dic– توقعت الطائفة الحصول على نصيب كبير من التركة التى تقدر بأنها كانت طائلة، غير أن أرملته اعترضت، زاعمة أنه لم يبق من ثروته شىء، وأن المتوفى كان على أى حال قد أحرق وصيته. بعد عامين من المنازعات القضائية، حصلت الطائفة على ٤٠٠٠٠ ألف جيلدر وشطر من مقبرة ديل مونتى الخاصة التى كان قد اشتراها قبل وفاته مباشرة.

واقع الأمر أن ثروة اليهود تبدو ظاهرة بأكثر مما هى فى الحقيقة. فى عام ١٦٧٤، كان هناك ٢٥٠ يهوديًا برتغاليًا فقط من بين ٢٥٠٠؛ خاضعين للضريبة؛ أحصى ثلاثة فقط من اليهود الأشكناز من بين ٢٥٠٠ أشكنازى باعتبارهم أصحاب الأعمال. فى عام ١٦٨٣، كان ٢٠٠ يهودى هولندى فقط (منهم اثنان من الأشكناز) من أصل ٥٠٠٠ يمتلكون مساكنهم.[٥٨] وكان أغنياء المسيحيين أكثر ثراءً من أثرياء اليهود، بدليل أن ثروة أغنى أغنياء المسيحيين كانت تتجاوز ثروات أغنى عشرة من أغنياء اليهود مجتمعة.

٩- العوالم الجديدة الثلاثة
(١٤٩٢ – ١٧٠٠)
من إفريقيا إلى الهند:
مجهزو السفن اليهود

منذ ألف وخمسمائة عام، فضّل كثير من اليهود أن يكونوا بحارة على أن يعملوا بالزراعة، العمل على سفن على أن يكونوا من رجال البنوك. وبالرغم من أن أكثرهم كان يعيش آنذاك فى بولندا، فإن بعضًا من هؤلاء الذين استقروا على ضفاف الأطلنطى قد عبروه للمشاركة فى اكتشاف الأمريكتين، أولًا بواسطة الإسبان والبرتغاليين، ثم الهولنديين والإنجليز.

أقيمت حينها شبكة علاقات خفية مذهلة بين اليهود والمتحولين إلى المسيحية المستقرين فى كل البلاد التى تعتنق المسيحية.

تقاسمت مجموعتان من التجار أولًا تجارة التوابل الشرقية المتوجهة نحو أوروبا. الأولى تتجه من الهند إلى لشبونة (مجموعة العقد الهندى)، الأخرى من لشبونة نحو باقى بلاد أوروبا (جماعة العقد الأوروبى). لدى وصولها إلى لشبونة، يعاد بيع بضائع "العقد الهندى" إلى المساهمين فى "جماعة العقد الأوروبى"، تذهب نصف الأرباح إلى ملك

البرتغال.[٣٥٨] كان اليهود "المتخفون" متواجدين فى كل من الجماعتين، المكونتين إلى حد بعيد من تجار متحولين انطلاقًا من بوردو ومن أنفرس، ثم من أمستردام ومن لندن. كانوا يستوردون، يبيعون، وأحيانًا يحولون التوابل، المخدرات، القطن، الحرائر، اللؤلؤ، الماس. أخفوا آثار عملياتهم حتى لا يعرف من هو المالك الحقيقى لشحنات البضائع التى ينقلونها. فى عام ١٥٧٦، كان كونراد روت Conrad Rott أحد المشاركين الأساسيين فى «العقدين»، قد اعترف فضلًا عن ذلك بأن تجارًا متحولين كانوا يقومون بتمويله وأنه يظن أنهم ما زالوا على يهوديتهم. أضافت عائلة جراديس Gradis فى بوردو، متحالفة مع عائلة بينتو Pinto فى لندن وأمستردام، إلى تلك التجارة تجارة النبيذ البرتغالي. فى عام ١٦٠٣، كتب أحد التجار الهولنديين فى مذكرات رحلته (١٥٩٨ – ١٦٠١)، ج.و. عزرمان J.W.Ijzerman: "إننى اعتقد، أن التجار اليهود، باحتكارهم لبضائع الهند الشرقية التى يستأثرون بها وحدهم، يتغلبون علينا فى كل مكان".[٥٨]

إنهم لا يقومون فقط بالتمويل، بل إنهم يسافرون. يؤمنون المخاطر بابتكارهم عرضًا للتأمينات البحرية الهولندية التى كانت أقساطها الباهظة، مقياس الأخطار المحتملة، تصل إلى ٧٠ جيلدرًا لكل ما قيمته ١٠٠٠ جيلدر من البضائع المشتراة لرحلة تتجه إلى أوروبا، وأكبر منها بعشرة أمثال للرحلات المتجهة إلى الهند أو إلى الأمريكتين. هكذا كانت أقساط التأمين تضاعف عمليًا أسعار تكلفة المنتجات، وكانت سببًا فى إثراء شركات التأمين. إنها توضح أن سعر البيع النهائى لهذه المنتجات القادمة من بعيد سيكون مضاعفًا مرتفعًا لأسعار شرائها.

شركات الهند

فى نهاية القرن السادس عشر لم يعد باستطاعة الهولنديين بعد حرب الاستقلال ضد إسبانيا ونزاعهم مع البرتغال، استخدام لشبونة كمحطة تجارية. قاموا بممارسة التجارة بأنفسهم ولأنفسهم وحلوا محل البرتغاليين على السواحل الإفريقية. قاموا حينذاك بتكوين شركات عامة كانت الدولة تبيعها ثم تسحب منها، إلى ما لا نهاية، امتيازات احتكار التجارة بغرض الحصول على مزيد من الأموال.

فى عام ١٦٠٢، حصلت شركة الهند الشرقية على امتياز احتكار التجارة مع الهند. وبما أنه كان ينبغى أن يكون الشخص أحد مواطنى المقاطعات المتحدة حتى يكون مساهمًا فى تلك الشركة، لم يكن هناك إلا مساهمين فقط من اليهود[٥٨]: رجل، ستيفان كاردوزو Stephan Cardozo، وامرأة، إليزابيث بينتو Elisabeth Pinto، يمتلكان ٥٪ من رأس مال الشركة. انضم إليهما آخرون فى السنوات التالية: ملشوار مندس Melchoir Mendes، مانويل توماس Manuel Tomas، ميجل لوبيز فرنانديز Miguel Lopez Fernandez، مانويل كارفالهو Manuel Carvalho ودييجو دياز جوريدو Diego Dias Guerido.

فى عام ١٦٠٩، وقعت اتفاقية هدنة مدتها ١٢ سنة مع حكومة إسبانيا؛ ولم يتم تجديدها عام ١٦٢١. أنشأ الهولنديون حينذاك شركة الهند الغربية وانطلقوا فى حرب خاصة مع إسبانيا حول السيطرة على المحيط الأطلنطى.[٦٩] لقاء تقديم مليون جيلدر (قيمة تتزايد باستمرار) حصلت الشركة، لمدة أربعة وعشرين عامًا على امتياز احتكار التجارة على طول السواحل الإفريقية والأمريكية، "على الجزر المتواجدة على جانبى أمريكا" و "الأراضى الجنوبية والجنوب". كان لها على الأخص، حق "القيام بكل ما ستطّلبه التجارة من خدمات وتطور ونمو والحصول على أرباح ذلك". بصورة أوضح، كان لها الحق فى الاستيلاء على كل السفن الإسبانية والبرتغالية التى سوف تصادفها فى البحر. بل لقد كان فى حسابات مؤسسة القرصنة هذى، بندًا رسميًا يسمى بند "أرباح وخسائر أعمال القرصنة والسلب البحرى".

فى بحر خمسة عشر عامًا، سوف تتمكن الثمانمائة سفينة التى تمتلكها الشركة من الاستيلاء على خمسمائة وأربعين سفينة إسبانية مع حمولاتها من الذهب.[٦٢] فى عام ١٦٢٧، بعد أن تم تنظيف البحر، قام القبطان الهولندى بايت هاين Piet Heyn بغارتين على باهيا، عاصمة البرازيل البرتغالية، كانتا مجزيتين إلى حد كبير مما سمح للشركة بالتقاط أنفاسها. ألد أعداء إسبانيا والبرتغال، ساهم المتحولون فى هولندا فى الشركة بلا مضايقات ابتداءً من عام ١٦٣٣، بل إنهم قد وجدوا أنفسهم فى مواجهة مع متحولين آخرين، كانوا تجارًا على بعض السفن القادمة من البرتغال.

فى التاسع والعشرين من أبريل عام ١٦٣٨، بعد أن استقر الهولنديون فى رسيف Recife، بعد كثير من النزاعات ومثلها من حالات الإفلاس، قلصت حكومة هولندا مجال اختصاص الشركة إلى تجارة العتاد الحربى، أخشاب الصباغة، وتجارة العبيد على وجه الخصوص (فرع كان يحمل إلى الشركة ٢٤٠٪ من الربح الصافى عن كل رأس). لم يصبح دور مجهزى السفن اليهود مهمًا مؤثرًا إلا فى عام ١٦٥٢، حين صار مصدر الدخل الرئيس لطائفة أمستردام هو الضريبة المفروضة على عوائد الأسهم اليهودية فى الشركة.(٥٨)

استمر يهود آخرون فى تجهيز السفن التجارية: فى مايو ١٦٥٧، كان صامويل نونس دى ميركادو المالك الوحيد للسفينة "مَرْسى يعقوب" L'echelle de Jacop. كان أنطونيو لوبيز بيريرا Antonio Lopez Pereira، سيمون دراجو Simon Drago، دييجو مارتينز Diego Martinez يمتلكون سويًا أسطولًا من السفن كانت تبحر من أمستردام ثم تستكمل حمولاتها فى إنجلترا، وتقوم بنقل البضائع الأوروبية إلى موانئ البرازيل الهولندية وتحمل فى طريق عودتها بالبضائع المجلوبة من هناك. بل إنهم كانوا أول من استورد التبغ، القطن، سكر القصب، والقهوة فى إيطاليا، فى ألمانيا، وفى أوروبا الشمالية، متفادين بكل حرص السفن والموانئ الأيبيرية (الإسبانية والبرتغالية).

بما يدعو للاستغراب، لم يقوموا بكثير من التجارة مع تركيا، بالرغم من علاقاتهم الثقافية الحميمة مع طوائف إسطنبول، أزمير وسالونيك. لقد طويت هذه الصفحة: إنهم ينظرون من الآن فصاعدًا صوب الشرق. فى عام ١٦٥٨، لم يعد هناك سوى سبعة يهود من بين مائة وسبعة وستين مساهمًا فى شركة الهند الشرقية؛(١٤٣) لم يكونوا أكثر من ١١ فى عام ١٦٥٨ وفى عام ١٦٧٤. كل أصولهم من اليهود المتحولين إلى المسيحية؛ من بينهم أنطونيو لوبيز سواسو، أبراهام ألويجن Abraham Alewijn، دافيد وايزاك دى بينتو، جاكوب نونس هنريكز Jacop Nunez Henriques، أتياس هاالفى Athias Halevy.

الهند والصين

الفلفل الذى، كما قال أحد تجار البندقية فى تلك الفترة، "يجلب معه كل أنواع التوابل"،(٦٩) كان يأتى أيضًا من ساحل الهند الشرقية (مالابار). لقرون طويلة كان اليهود

يسيطرون على تجارته بالكامل، لكن الحال لم يعد الآن كذلك. فى عام ١٥٢٤، تم القضاء على آخر من تبقى منهم فى أنجوفانام Anjuvannam بزعم أنهم كانوا لا يزالون يهيمنون على سوق الفلفل. فى مدينة كوشن، كانت الطائفة التى أقامها عام ١٣٤٤ مهاجرون من بلاد ما بين النهرين، قام حاكم المدينة بحمايتها بعد ذلك، قد دخلت حالة احتضار وأوشكت على الاندثار. عندما وصلت محكمة التفتيش على متن سفن برتغالية فى عام ١٥٠٢، قام الحاكم المحلى المسلم مرة أخرى بحماية القلة الباقية من اليهود المتحولين، الذين صاروا من وقتها فصاعدًا لاعبين هامشيين فى تجارة الفلفل، أمام المحتل المسيحى.

عندما استولى الهولنديون، فى ٩ أغسطس ١٦٦٣، على مدينة كوشن من البرتغال وكذلك باقى الساحل الشرقى للهند، كان هناك بعض اليهود لا يزالون موجودين وإن لم يعودوا يطالبون بإعلان يهوديتهم. كان هؤلاء من رجال المصارف، التجار، الدبلوماسيين، المترجمين؛ بعضهم من السود وبعضهم من البيض. حررهم وصول الهولنديين من الخوف من أن يكتشف أمرهم (لا يزال السكان هناك يحتفلون بالذكرى السنوية لوصول الهولنديين إلى كوشن). فى عام ١٦٨٦، أحضر بعض يهود أمستردام إلى كوشن بعض الكتب المطبوعة بالعبرية؛ لم يكن الهنود قد رأوها من قبل مطلقًا. أقيمت طائفة جديدة صغيرة. سوف يستمر يهود هولندا ويهود كوشن فى العمل سويًا، لكن دون أن يتخالطا، لا فى الزواج ولا فى الصلاة، ولا حتى أثناء تناول الطعام.

أكثر بعدًا، فى الصين، التى كانت آنذاك أكبر قوة سكانية بشرية فى العالم. لم يعد هناك وجود للطوائف اليهودية التى كانت قد استقرت هناك نحو العام ١٠٠٠ والتى كانت قد فقدت اتصالها بالخارج منذ عام ١٣٠٠. فى عام ١٦٠٥، كان الأب اليسوعى ماتيو ريتشى Matteo Ricci، مؤسس الإرسالية الكاثوليكية فى بكين، قد قابل أحد الشباب القادمين من كايفنج Kaifeng حيث تعيش، كما أخبره الشاب، اثنتا عشرة أسرة تمارس طقوسًا وعادات غريبة والتى تعتقد أنها مسلمة (قدم ريتشى وصفًا لطقوس وممارسات تتعلق باليهود). لم تكن تعرف شيئًا عن أصولها ولم تكن قد سمعت شيئًا عن المسيحية من قبل. سيكون من اللازم إذًا أن تمر ثلاثة قرون من العزلة حتى تبتلع الصين الشاسعة طائفة لم تستطع تجديد نفسها، كما حدث فى الهند، عبر وصول قادمين جدد.

المستعمرات الإسبانية

فى أمريكا، على عهد كولمب، بيزارو Pizarro وكورتيس كوّن بعض المتحولين ثروات طائلة من العمل فى مناجم الفضة فى بوتوسى Potosi، أو كتجار عبيد؛ ظل البعض حرفيين متواضعى الحال، حمّالين بؤساء. فى عام ١٥٩٠، عندما وصلت محكمة التفتيش، أقامت ثلاث محاكم كهنوتية فى ليما Lima، مكسيكو Mexico وقرطاجنة Carthagene. بدأت الاعتقالات.

مصائر محطمة[٤٢٤]: مانويل بوتيستا بيريز Manuel Bautista Perez الشهير بالقبطان الكبير، الذى كان تاجر عبيد ثريًا، وعميدًا المتهودين سرًا فى ليما، تعرض للحرق حيًا. أما خوان فانسنتى Juan Vincente، أحد المتشردين، فتمت استتابته مرتين، قبل أن يحكم عليه بالإعدام حرقًا فى عام ١٦٢٦. فرانشسكو مالاونادى سيلفا Francisco Maldonna de Silva، تحدى قضاته، خلط بين عقيدته وشغفه بالمنطق، مسترشدًا بأرسطو أثناء تعذيبه قبل أن يحرق حيًا فى مكسيكو عام ١٦٣٩. لاقت بعض النساء نفس المصير، مثل ليونورنونيز Leonor Nunez، التى كان المتهودون سرًا يطلبون خدماتها لتغسّيل موتاهم. وأخيرًا زوجة التاجر فرانشيسكو بوتيلّو Francisco Botello التى رفضت كل محاولات استتابتها وجاهرت بيهوديتها وماتت بالحرق حية وسط ساحة مكسيكو الكبرى Mayor de Mexico فى عام ١٦٥٩.

مستعمرات البرتغال

بعد اكتشاف البرازيل عام ١٥٥٠ بواسطة كابرال Cabral يرافقه اليهودى البولونو- هندي- جاسبار دى لاس إندياس Gasbar bar delas Indias، لم يتعجل أحد فى الاستقرار هناك: لم يكن هناك لا ذهب ولا فضة، ولا توابل. كان أحد المتحولين هو من حصل من ملك البرتغال على امتياز المنطقة. كان يدعى فرناندو دى نورونها Fernando de Noronha. ونظرًا لعدم وجود متطوعين للذهاب إلى هناك، فقدْ أرسل إليها بعض المحكوم عليهم

قضائيًا (بالقانون العام). سارع بعض المتحولين بالاندفاع إلى هناك معتقدين أنهم سوف يكونون أيضًا بمأمن من محاكم التفتيش. كانوا من الأطباء، المحامين، التجار، جباة ضرائب. نحو عام ١٥٥٠، استورد البرتغاليون من جزر ماديرا **Madere** تقنية صناعة السكر وأنشأوا على السواحل الشمالية الشرقية أول حقول قصب السكر فى أمريكا. بدأت بذلك صناعة ضخمة جدًا. خلال أكثر من قرن من الزمان، سوف تورد البرازيل إلى أوروبا فى المتوسط ألفًا وستمائة طن من السكر الخام سنويًا.

فى عام ١٥٨٠، بعد اتحاد البرتغال وإسبانيا وصلت محاكم التفتيش إلى البرازيل؛[٣٢٦] فَضَّل بعض المتحولين الفرار منها، ومن تبقى منهم كان مهددًا، كما حدث فى مكسيكو. وهكذا ارتابت محاكم التفتيش فى أن بعض أصحاب السفن البرتغاليين المبحرين على ظهر نهر الفضة "ريو دى لابلاتا" **Le Rio de La Plata**، والذين يقومون بشراء السكر، الأرز، المنسوجات بريالات فضية، قد كانوا من "المسيحيين الجدد" وبأنهم متهورون فى السر. كان هؤلاء المتحولون البرتغاليون الذين قادوا حملات اكتشاف البرازيل لحساب البرتغال يأملون كثيرًا من الهولنديين الذين شرعوا فى التسكع والتحويم تحت خطوط العرض تلك. انضم إليهم عدد من اليهود البرتغاليين عندما استولى الهولنديون على رسيفى **Recife** عام ١٦٣٠. تم استقبالهم هناك بترحاب؛ فى عام ١٦٣٤، سمح لهم الحاكم العام الهولندى موريس دى ناسو **Maurice de Nassau** بحرية التعبير الدينى هناك. أقامت حينها طائفة يهودية بصورة علنية فى رسيفى، ضمت مسيحيى باهيا الجدد وبعض يهود أمستردام.

مصير مأساوى للمدعو إيزاك دى كاسترو **Issac de Castro**، الذى وصل عام ١٦٤١، فى السادسة عشرة من عمره، قادمًا من أمستردام. فى عام ١٦٤١، أرسلته طائفة رسيفى الجديدة إلى باهيا، عاصمة البرازيل البرتغالية، للبحث عن متحولين ونقلهم إلى رسيفى، حيث الأمان. هناك تم اكتشافه وألقى القبض عليه؛ ماثلًا أمام أسقف باهيا، ادعى أنه يدعى جوزيه دو ليز **Jose de Liz**، يهودى فرنسى قدم إلى البرازيل ليُلم أكثر بأصول الكاثوليكية. تم نقله إلى لشبونة، حيث غير أقواله: زعم أنه ابن أحد المتحولين البرتغاليين الذين قدموا إلى فرنسا، ولكن، ليعفى من تهمة "الارتداد"، أقر بأنه لم يُعَمَد. تم تخييره:

إما أن يصير كاثوليكيًا ويسجن لمدة خمس سنوات، أو أن يعيد الإقرار بيهوديته ويحكم عليه بالإعدام. صمد الفتى. ويقال إنه كان يصلى ٧ مرات يوميًا. عملًا بوصايا التلمود الـ ٦١٣. حاول القساوسة، خلال عامين، إقناعه باعتناق المسيحية. دونما جدوى. فى عام ١٦٤٧، بينما كان فى الثانية والعشرين، حكم عليه بالإعدام وأحرق وهو يترنم بالصلوات اليهودية.

لم يلبث أن وصل يهود آخرون إلى البرازيل الهولندية. جاءوا من المجر، من بولندا، من تركيا، من المغرب، من إسبانيا، من البرتغال، من هولندا ومن ألمانيا. قام أحد المهندسين اليهود، بلتازار دال فونسيكا Bathazar dal Fonseca، ببناء الجسر الذى يربط بين رسيفى وموريسيوس Mauriclus. تدفق إلى رسيفى مئتا يهودى من يهود أمستردام، تحت إشراف الحاخام إيزاك أبوب Issac Abob، والمعلم موسيس رفائيل أجويلار Moses Raphael Aguilar[٣٣٦]: ها هى طائفة تكونت بالكامل، بحاخاماتها ومعلميها.

من بين الاثنى عشر ألفًا من الأوروبيين المقيمين فى البرازيل الهولندية، كان هناك ألف وأربعمائة وخمسون يهوديًا، يقيم كلهم تقريبًا فى رسيفى[٣٣٦]. بعضهم من أصحاب معامل تكرير السكر أو وسطاء، قاموا بشراء مزارع قصب شاسعة فى وادى برنام بوك Pernam bouc. لعب آخرون دورًا مهمًا مؤثرًا فى تجارة العبيد الذين يقومون بشرائهم من سفن شركة الهند ليعيدوا بيعهم بالأجل إلى أصحاب مزارع القصب، بأسعار مرتفعة جدًا، مقابل زيادة فائدة قدرها ٣ أو ٤٪ شهريًا، تدفع عند حصاد محصول القصب كانت أرباحهم تصل أحيانًا إلى ٣٠٠٪ على كل رأس. لعبوا فى هذا السوق دورًا أساسيًا لدرجة أن مزايدات بيع العبيد لم تكن تقام أثناء الأعياد اليهودية. فى عام ١٦٨٤، كتب حاكم رسيفى، أدريان ليمس Adriaen Lems، إلى شركة الهند: "لا يمكن لغير اليهود أن يزدهروا، لأن الزنوج يباعون لهم بأسعار باهظة للغاية وبمعدل فائدة مرتفع جدًا[٣٣٦]". فى نفس ذلك العام اشترطت لوائح طوائف رسيفى وموريسيوس أن يسدد تجار العبيد ضريبة قدرها خمس سولدات (Soldos) على كل عبد يتم شراؤه من شركة الهند وضريبة تقدر بـ ٤٪ من أسعار كل البضائع المستوردة.

تبــغ وسكــر

كان سكر القصب يكرر فى هولندا، ثم يوزع فى أنحاء أوروبا كلها. كانت حركة النقل التجارى هائلة: باستمرار، كانت خمس سفن تقوم برحلات مكوكية بين رسيفى وأمستردام، حيث تجلب معامل تكرير السكر ربع الضرائب غير المباشرة لهولندا بأكملها(٦٩). كان أحد أهم تجار السكر المقيم فى ساوسلفادور **Sao Salvador** وفى رسيفى، والمدعو مانويل رودريجيز فيجا (متحول) **Manuel Rodrigues Vega**، قد أقام مستودعين كبيرين فى أمستردام لتخزين السكر القادم من جزيرة سان ميشيل. فى عام ١٦٥٥، أنشأ أبراهام وإسحاق بريرا، "تجار برتغاليون من الأمة اليهودية"، معملًا لتكرير السكر فى أمستردام(٥٨). كان آخرون يحصلون على السكر الخام عن طريق البرتغال، التى كانت مع هذا فى حرب مع هولندا. سر شبكات المتحولين إلى المسيحية: فى يوليو عام ١٦٥٧، وفى مدينة أمستردام، تلقى سيمون ولويس رودريجيز دى سوزا **Simon et Luis Rodrigues de Sousa**، من بورتو، من بين بضائع أخرى، ١٣٥ صندوقًا من السكر مرُسلة من أحد التجار (اليهود سرًا) المقيمين فى البرازيل البرتغالية، يدعى أنطونيو دى سيلفا **Antonio de Silva**. فى نوفمبر ١٦٥٨، تسلم المدعو سيباستيان كوتينهو **Sebastian Coutinho** ستة صناديق من هذا السكر. فى نفس العام أقام سالومون **Salomon**، موسيس وإيزاك ديل بينا **Moseset Issacdel Pina** ، معمل تكرير آخرًا فى أمستردام، سوف يبيعونه عام ١٦٦٩ إلى مسيحيين(٣٢٦). عندما بُدء فى إنتاج السكر خارج أوروبا، توقع اليهود تراجع هذه المهنة، فتحولوا عنها.

حينئذ صار التبغ شأنًا يهوديًا بأكثر من ذى قبل وعامل نمو لاقتصاد الآخرين. بل إن التاريخ أراد أن يكون أول رجل أبيض يطأ الأرض الأمريكية وأول من يقوم بتدخين التبغ من البيض هو اليهودى المتحول إلى المسيحية لويس دى توريسّ **Luis de Torres**. فى عام ١٦١١، بيع أول برميل من التبغ المستورد إلى أوروبا، بواسطة أحد التجار اليهود، دافيد أبندانا **David Abendana**، إلى أحد التجار المسيحيين فى مدينة هورن**Hoorn** . بعد ذلك بتسعة أعوام، كان فى أمستردام اثنان من سماسرة التبغ اليهود من بين ثلاثين

مؤسسة تجارية كبرى تعالج وتبيع التبغ، كان هناك عشرة من اليهود(٥٨). كانت أهمها مؤسسات إيزاك إيتاليندير Issac Italiander، جاكوب فرانكو ميندس، إيزاك ميندس، ومؤسسة سارة دياس دى فونسيكا، التى كانت تمتلك "معمل تصنيع" للتبغ يعمل به أربعة عشر عاملًا. كان الأمر يتعلق بصناعة حقيقية، تعمل خارج إطار النقابات(٤٥١). من بين الأربعة عشر مستوردًا للتبغ الذين وقعوا التماسًا لصالح المدعو مانويل لوبيز دى أزفيدو Manuel Lopez de Azevedo، كان هناك أحد عشر يهوديًا. استخدم جاكوب دى يهودا ليون Jacop de Jehua Lyon، - الشهير أيضًا بجان بورترميل Jan Portremiel– فى معامل التبغ الخاصة به العديد من العمال اليهود الألمان. فضلًا عن أن ذلك كان تخصصًا لليهود الشرقيين: من بين أربعة وعشرين زيجة عقدت بين يهود أشكناز، أقيمت مراسيمها فى ابريل عام ١٦٤٩، فى أمستردام، كان لدينا أربعة عشر زواجًا يعمل الرجال فيها فى "فرم" التبغ. ولم يكن اليهود السفارديم ممنوعين من العمل فى هذا النشاط. مناساه جاون Menassah Gaon، أحد رجال صناعة التبغ، استخدم فى عام ١٦٦١، "غزّال تبغ" أشكنازى، مواسيس هيمان Moises Hayman، وثلاثة من السفارديم: دافيد دى أوليفيرا، مواسى سدا فونسيكا وأبراهام ليفى. لكن بشكل عام، كان السفارديم من أرباب العمل والأشنكاز من العمال.

فى عام ١٦٢٤، بعد أربعة وعشرين عامًا من الوجود الهولندى، استعاد البرتغاليون رسيفى. فر الألفا يهودى الذين كانوا يعيشون فيها على ظهور خمس عشرة سفينة إلى كاين Cayenne، كوراكاو Curacao، جاميكا، البارابادى، بنما، كوستاريكا وجزر الآنتى الفرنسية Lesantilles، التى كان عليهم أن يغادروها، بعد قليل، بناءً على أوامر ملك فرنسا. فى منطقة الكاراييب تلك Les Caraibes، أصبحت عمليات تسليح القراصنة البحرية تقريبًا حكرًا على اليهود، بأطقم وقباطنة من اليهود.

فى عام ١٦٥٤، بدل الهولنديون أمستردام الجديدة بسورينام، التى كان الإنجليز يحتلونها، بعد ذلك بعام، تواجد فيها بعض اليهود البرتغاليين الذين امتلكوا فيها تسعة مزارع: آل بيريرا، دا كوستا Da Costa، داسيلفا Da Silva، كاسيرس Cassers، ألونزا دا فونسيكا، ميسا Mesa امتلكوا سويًا ٢٣٣ عبدًا، ٥٥ قدرة من قدور السكر، ١٠٦ من رؤوس

الماشية[٣٤]. العام التالى أضيفت إليها ست مزارع يهودية أخرى، ضمت ١٨١ عبدًا، ٣٩ قدرًا للسكر، ٦٦ حيوانًا. عند نهاية القرن، من بين الأربعمائة مزرعة من مزارع قصب السكر فى سورينام، كانت مائة وخمس عشرة مزرعة تعود إلى يهود. فى عام ١٦٩٠، كان بعضهم أحيانًا على راس طليعة قوات قمع حركات تمرد العبيد. طالب عشرة منهم بالهجرة إلى جامايكا مع ٣٢٢ عبدًا، غير أن الحاكم الهولندى لسورينام، حرصًا على ازدهار مستعمرته رفض الطلب واستبقاهم لمدة ثمانى سنوات أخرى.

وقعت واحدة من السفن التى أبحر عليها اليهود هربًا من مدينة رسيفى، التى استعادها البرتغاليون عام١٦٥٤، فى قبضة القراصنة الإسبان. عندما استعد هؤلاء لبيع اليهود كعبيد، هوجمت سفنهم بدورها بواسطة السفينة الفرنسية "القديس شارل **Saint-Charles**"، بقيادة القبطان.جاك دو لاموت **Jacques de La Motthe**، التى كانت فى طريقها إلى مستعمرة هولندية صغيرة للغاية. حطوا رحالهم فيها؛ كانت تسمى "أمستر دام الجديدة". بعد ذلك بثلاثة عشر عامًا، تم مبادلتها مع الإنجليز فى مقابل سورينام وصارت نيويوك...

المستعمرات الإنجليزية

فى عام ١٥٨٤، حصل السير والتر رالايت، أحد المقربين من إليزابيث الأولى، على الإذن الملكى باكتشاف فرجينيا **Virginie** وإقامة مستعمرة فيها، أملًا فى العثور على الذهب، وعلى ممر إلى الشرق كان رالايت يرغب أيضًا فى التنقيب عن النحاس، معدن إستراتيجى آنذاك. اصطحب فى تلك الرحلة، فى المقام الأول، يواكيم جانز(أوجوانز) المهندس القادم من بوهيميا، بناءً على طلب شركة المناجم الملكية، الذى رأيناه، يحدث انقلابًا فى صناعة تعدين النحاس فى إنجلترا.

أبحرت الحملة من بلايموث**Plymouth**، تحت قيادة الأميرال ريتشارد جرينفيل **Richard Grenvill**، وصلت فى عام ١٥٨٤ إلى**Roanoke** (كارولينا الشمالية الآن). عمدت المنطقة باسم فرجينيا، تكريمًا لـ "الملكة العذراء"، إليزابيث. كانت هذه أول مستعمرة

إنجليزية فى أمريكا الشمالية، قبل أن ترسو البارجة "زهرة مايو May Flower، بخمسة وثلاثين عامًا – فى منطقة أبعد إلى الشمال قليلا، والتى سوف تصبح الماساشوستس Le Massachausetts. عثر جانز على النحاس، لكن المستعمرة لم تصمد: أمراض، مخاوف، نزاعات مع الهنود. فى ١٩ يونيو ١٥٨٦، استدعاهم السيرفرانسيس دراك Francis Drake. [٦٤] التجأ جانز عندها إلى بريستول Bristol، حيث تابع دروسًا فى العبرية والألمانية. فقد سير والتر حظوة الملكة بسبب ذلك الفشل، ولأنه شكك فى قدسية المسيح، ما لفت الانتباه إلى جانز: ألا يكون هذا اليهودى من أوحى إليه بهذه الأفكار الجهنمية؟ ألا يكون هو من تسبب فى هذا الفشل، بزرع الشكوك فى نفس والتر، المسيحى الصالح؟ ألا يكون كلاهما من اليهود؟ فى عام ١٥٨٩، متهمًا بالتجديف – عقب الانتصار على الإسبان الذى جعله ممكنًا –، اعترف جانز بيهوديته ليتفادى أن يعتبر "مرتدا". أحيل ليمثل أمام المجلس الخاص. ويبدو أن المجلس قد أقر الإبقاء على حياته على أن يتم ترحيله إلى بوهيميا.

بعد أن نال العفو، سيرحل رالايت إلى أمريكا وسوف يتجه إلى منابع نهر أورينكو فى ١٥٩٥. بعدها سيحكم عليه بالإعدام بتهمة الإلحاد، ثم سيعفى عنه. بعد خمسة عشر عامًا من السجن، سيرحل مرة أخرى بحثًا عن الذهب، لكنه سيفشل من جديد. سيأمر جاك الأول Jacques 1er بإعدامه فى عام ١٦١٨.

أما بالنسبة لجانز، فسوف يتيح لإنجلترا الانتصار على إسبانيا وأن تثبت أقدامها فى أمريكا الشمالية وأن تبدو الثورة الصناعية. من يتذكره الآن؟

بعد سبعين عامًا، فى ١٦٥٤، عند الوصول إلى أمستردام الجديدة، وجد ركاب "القديس شارل" (ليفى، دى بيزا، تارو، لومبروزو، ميركادو، نونيس[٥٥]) من بين أوائل المستعمرين المقيمين هناك، يهوديًا ألمانيًا يدعى بار سيمون Bar Simon. ألقى الحاكم الهولندى، بيتر ستيفسنتPeter Stuy Vesant. بالقادمين الجدد فى السجن، ثم أطلق سراحهم بناءً على أمر الشركة التى كان كثير من مساهميها من اليهود. وسطاء من جديد، شرعوا فى الاتجار مع الهنود، مقايضين التبغ، الفراء، الأسماك بالمنسوجات والمعدات. فى العام التالي، انضم إليهم يهود آخرون قادمون من أمستردام. كالعادة دائمًا، عاش

اليهود أوضاعًا أفضل هناك حيث لا تلاحقهم الكنيسة. اعترف لهم بالحقوق المدنية، ابتداءً من ١٦٢٧، "شريطة ألا يمثلوا عبئًا على الشركة الهولندية للهند الشرقية، وأن تقوم طائفتهم بالإنفاق على فقرائهم ورعايتهم".[١٠٦] هكذا وصلت فكرة التصدق إلى أمريكا. أسس بعضهم هناك بعض الأسر التى ستكون من أكبر عائلات الولايات المتحدة لاحقا[٥٥]: عائلة ناتان Nathan، عائلة لازاروس Lazarus، عائلة لوبيز Lopez، لومبروزو، وعائلة سياكس Seixas.

فى عام ١٦٦٧، كما رأينا من قبل، بادل الإنجليز سورينام بأمستردام الجديدة، التى سوف تصير نيويورك. لم يكن هناك ما يثير قلق المستعمرين: كان اليهود يعاملون بكثير من التسامح آنذاك فى إنجلترا بينما لم يكن الحال كذلك قبل عشر سنوات خلت. وصل آخرون - بضع عشرات - من أوروبا الشرقية؛ من طليعة السماسرة، استقروا فى الميريلاند، بنسلفانيا، جورجيا وفى كارولينا.[١٠٦]

حياة وموت الأمم
فى القرن الثامن عشر

فى بداية القرن الثامن عشر، بلغ عدد اليهود فى العالم حوالى ثلاثة ملايين ونصف المليون شخص، أى أقل مما كانوا عليه فى العام الألفى. انتقل غالبيتهم إلى البلاد التى تعتنق المسيحية. بدأت كل الطوائف فى الهند، فى آسيا، فى الشرق الأدنى وفى شمال إفريقيا فى التراجع والاندثار. نهضت الطوائف الأوروبية، منهم طائفة بولندا، المزدهرة المتألقة، والطوائف، الواعدة، على جانبى الأطلنطى. اختفى عالم كان يؤمن به كثير من الناس فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه طريقة جديدة للتعبير عن كونك يهوديًا فى الثورة الصناعية التى بدت بشائرها. طريقة أخرى أيضًا فى أن تكون نافعًا، التى تظل شرط القبول بك.

لم يهتم الغرب إلا بالغرب؛ لقد نسى الإسلام، الذى كان نفسه قد نسى الشرق.

فى عام ١٧٣٩، استولى الأتراك على بلجراد، التى كانت قد احتلت من قبل، عام ١٥٢١ وتنازعوا عليها مع النمساويين؛ وكانت فتحهم الأخير. بدأ انحسارهم فى عام ١٧٧٤، التاريخ الذى تخلّوا فيه للروس عن القرم **La Crimée** وعن جزء من محيط البحر الأسود، حيث يعيش أكثر من ثلاثمائة ألف يهودى. انفتحت الطوائف التى بقيت فى الإمبراطورية العثمانية، مهمشة ومهانة باستمرار، على الروح والعقل الغربى وتركزت فى بعض الأقطاب:إسطنبول (التى ظلت حينها بسكانها البالغين ٤٥٠٠٠٠، واحدة من أوائل مدن العالم بعد بكين وكانتون)، سمرين(أوإزمير)، الجزائر، تونس. مشغولين فى المقام الأول بتأمين حدودهم الغربية، ترك الأتراك أقاليم المشرق لأقدارها.[٣٨٣]

معزولة عن كل التيارات التجارية الكبرى، كانت فلسطين تعانى اقتصاديًا. كانت صناعة النسيج، النشاط المحلى الوحيد المعتد به، تزوى بسبب الكساد. أقل من مائة ألف يهودى ومثلهم من العرب كانوا يعيشون فيها آنذاك. استأنف البدو تجاوزاتهم فيها بأكثر مما كان؛ تقلص عدد الحجاج إلى حد الندرة. بدت مدينة سان جان داكر **Saint Jean d'Acre** كعاصمة محلية متواضعة. لا يختلف هذا الركن المعزول من الإمبراطورية العثمانية كثيرًا، فى ذلك الوقت، عن المنطقة السورية التى ينتمى إليها جغرافيًا وإداريًا.

فى المغرب، عاش اليهود، تدريجيًا، فى دوائر أقل انغلاقًا وتدريجيًا تحسنت علاقة الملوك العلويين بهم.[٤٥٩] تعامل التجار والحرفيون اليهود مع جيرانهم العرب. صارت النقود أكثر حضورًا، بصورة متزايدة، فى التبادلات التجارية. للالتفاف على حظر اللجوء إلى التسليف فيما بينهم، نظم التجار طرق سدادها بالعملات الأجنبية، بالغلال أو بأحد المعادن الثمينة من طبيعة تختلف عن طبيعة القرض. ما أتاح لهم تحديد سعر الصرف بحرية فى تاريخ استحقاق القرض، وأن يضمنونه معادل قيمة الفائدة. فى أحد الأحكام القضائية الصادرة فى مدينة فاس عام ١٧٢٣، فى عهد مولاى إسماعيل، ندد الحاخام يهود

ابن عطّار أيضًا بـ "إن هذه الممارسة تمتد كأنها آفة" تحاول أن، يقول فى بلاغة، "تغطى الشمس بغربال".[٤٥٩] قرار آخر من نفس المحكمة الربانية، فى عهد مولاى عبد الله، صدر فى فاس عام ١٧٣٥، ينص على: "أن سداد القرض ينبغى أن يتم على النحو التالي: كل من يقترض مالًا أو سلعة سيكون عليه ردها بأسعارها المحددة فى تاريخ القرض. ليس هناك أى ضرورة لتقديرها من جديد سواء ارتفعت الأسعار أو انخفضت".[٤٥٩] فى عام ١٧٦٠، عندما اعتلى مولاى محمد العرش، أمر بإعادة بناء وترميم كل المعابد واختار يهوديًا ليكون أمين خزينته ووزيره الأول. قام بتشييد موانئ أنفا Anfa (فى عام ١٧٦٠) والسويرا Essaouira(عام ١٧٦٥) وسمح لليهود بالاستقرار فيها بأعداد كبيرة.

نهاية بولندا

فى بداية القرن الثامن عشر، كان هناك أكثر من ستمائة ألف يهودى يعيشون فى بولندا، فى أوكرانيا وفى ليتوانيا، فى منطقة أهلكتها الحروب، حيث أفلس حتى المزارعون الأحرار ووقعوا فى أسر العبودية. لم تعد البلاد سوى دمية بين أيدى القوى الخارجية. بدا أن القرن سيكون مظلمًا كئيبًا بالنسبة لجميع البولنديين سواء كانوا يهودًا أو غير يهود.

مجبرين فى عام ١٦٩٧، على القبول باختيار أوجست الثانى Auguste II، ملك ساكس Saxe، الذى تدعمه فرنسا، النمسا، روسيا، ملكًا على عرش البلاد والذى موّله عبر فيينا اثنان من المصرفيين: أوبنهايمر Oppenheimer وليهمانLehman،[٤١٤] وجاء بعده ستانيسلاس لسزينسكى Stanislas Leszczynski، الذى اختير (فى عام ١٧٠٤، وأعيد اختياره فى ١٧٣٣) بدعم من فرنسا ومن مارى لسييزينسكا؛ ثم اعتلى العرش أوجست الثالث، ملك ساكس، فى عام ١٧٢٣؛ وفى عام ١٧٦٤، وبتأثير النفوذ الروسى وصل إلى العرش ستانيسلاس الثانى أوجست بونياتوفسكى، الذى سيصبح آخر ملوك بولندا.[٤١٤]

كان ثلثا اليهود البولنديين يتكدسون منذ ذلك الوقت فصاعدًا فى المدن التى لا تزال تبسط عليهم حمايتها. لم يعد الملوك ولا الأمراء فى حاجة إليهم. يرغب البرجوازيون فى أن يحلوا محلهم. كانوا لا يزالون من ممتلكات المدن، التى لم تمنحهم أى حق، خاصة

فى مواجهة الشرطة. قفزت الإيجارات بوصول المهاجرين الجدد وبنموهم الديموغرافى غير العادى. أصبح الحق فى الزواج حينذاك تحت رقابة صرامة حتى لا يتزايد الطلب على المساكن. لم يعد أحد من اليهود، أو تقريبًا كذلك، يعمل فى الزراعة. كان سدسهم من أصحاب (أو مديرى) الحانات والنزل، الثلث يعمل بالتجارة (الشمع،الصابون،الملح، التبغ، الكحول)، الثلث كانوا من الحرفيين. من بين هؤلاء الآخرين كان اثنان من بين كل ثلاثة يعملون بالجلود والمنسوجات.(٤١٤) فى عام ١٧١٢، فى مدينة فيلنا Vilna، منع الخياطون اليهود من العمل أثناء الأعياد المسيحية، ومن استخدام عمال مسيحيين، بل ومن أن يكون لديهم عملاء من المسيحيين.(٤١٤) ومع ذلك فقد تطورت بعض الورش وقامت بتوظيف عمال – أجراء ، خياطين، موظفين– فى خدمة أصحاب رؤوس أموال، كانوا أحيانًا من اليهود. ظل بعض اليهود مديرين للقصور، مثل إسرائيل روبينويكز RubinowiczIsrael، مدير قصر إليزابيث سينياوسكا لأكثر من أربعة عشر عاما.(٤١٤) لم يعد هناك أى من رجال المال اليهود لدى الأمراء، لكن بعض مستشارى الطوائف استمر فى إدارة أموال النبلاء والكنيسة.(٤١٤)

أمام هذا التفاوت الشاسع فى الدخول بين تلك القلة من الأغنياء وبين كل الفقراء فقد حدث– فى مدينة كراكوف، فى مدينة ليزونو Leszno، فى مدينة Drohobyez، فى أوكرانيا– أن ثار البعض ضد مسئولى الطوائف. ظهر بين اليهود البولنديين آنذاك ردا فعل متناقضان.

من ناحية، وكما هو الحال فى كل أنحاء أوروبا، ظهر طلب على الحرية الشخصية ضاعفه اتهامات وجهت لمسئولى الطوائف باللجاجة والتشدد. كان هذا المزج بين المطلب العلمانى والاجتماعى، من عمل «الداعين إلى الذوبان فى المجتمع المحيط والتشبه به» الذين يشعرون بأنهم بولنديون فى المقام الأول. بل إن بعضهم، يعتقد أن مصيرهم لا يمكن أن يتحسن إلا مع تحسن مصير هؤلاء المزارعين، فانضموا إلى الثوار الوطنيين.(٤١٤) ومن ناحية أخرى فقد انطلقت حركة أخرى معاكسة، نحو عام ١٧٥٠، فى منطقة بودوليا Podolie حول إسرائيل بن إليعاذر، الحاخام الشهير المعروف باسم بال شيم نوف Baal Chem tov، الذى استعاد أفكار زوهار Zohar التى تدعو إلى الخروج من عالم لا يرحب

بهم: إنهم جماعة الهاسيديم Les Hassidim الذين يدعون إلى السعادة والحمية الدينية من خلال الاحتفال والرفض داخل المجتمع التجارى. كان "الأرثوذكس" يخرجونهم أحيانًا من الملة، مثلما حدث فى فيلنا Vilna، حيث كان الحاخام سالزمان Salzmann، الجادون "المرشد" الشهير، يجاهر بكراهيتهم؛ غير أن الأرثوذكس كان يتحالفون مع الهاسيديم طواعية فى مواجهة "المتشبهين بالمسيحيين"، عدوهما المشترك.

دعا كثير من المسئولين الكاثوليك البولنديين مثل تاديوسزكزاكىtadeuszCzacki وماسيج توبور بوترايموفيك Macieg Topor Botramowiez، إلى اندماج اليهود فى المجتمع، زوال المحاكم الدينية، تقليص اختصاصات "الفا- Vaad" وإعادة توجيه الحرفيين نحو الصناعة والزراعة. كل المواطنين البولنديين متساوون.

فى عام ١٧٦٤، قامت الجمعية السياسية البولندية بحل "الفاد" لكن الأزمة الاقتصادية أدت إلى زيادة حدة العداء لليهودية من جانب الحرفيين البولنديين تجاه منافسيهم اليهود،(٤٥١) وتوقفت إجراءات ومساعى إدماج اليهود فى المجتمع البولندى. فى ١٧٦٨، قامت حركات شعبية عنيفة ضد اليهود فى كراكوف، بوزنان Poznan، لفوف، فيلنا وبريست- ليتوفسك؛ راح ضحيتها أكثر من عشرة آلاف يهودى. فى أوكرانيا، طالب المزارعون الأرثوذوكس باستقلال بلادهم وقاموا بالقضاء على آلاف البولنديين الكاثوليك وعشرات الآلاف من اليهود الأوكرانيين، الذين يعتبرونهم حلفاء للمحتلين البولنديين. وعليه كان طريق الاندماج فى تلك المجتمعات مغلقا لدرجة أن جزءًا من يهود بولندا انتقلوا إلى روسيا.

فى الخامس من أغسطس ١٧٧٢، حسب شروط التقسيم الأول، فقدت بولندا أربعة ملايين ونصف المليون من سكانها؛ وجد مائة وخمسون ألف يهودى أنفسهم من رعايا النمسا، وخمسة وعشرون ألفًا انضموا إلى روسيا وآخرون فى بروسيا، من ذلك الوقت فصاعدًا انتقلت الحدود البولندية - النمساوية من جاليسى Gallcie، بين كراكوف، التى ظلت بولندية، كازيميرز التى صارت نمساوية. رحل كثير من اليهود المقيمين فى مناطق الصراع آنذاك إلى ليتوانيا. لم تستقبلهم الطوائف المحلية بترحاب كبير: بل إن مجلس

يهود ليتوانيا قد اقترح إبعادهم قسرًا، لنقص الأمكنة،عندما رفض "الجاون Gaon" فى فيلنا الانعقاد، لافتًا النظر إلى عدم الحاجة إلى اتخاذ قرار كهذا: لقد سبق اتخاذه... فى سدوم وفى عمورية،Gomorrhe.

فى عام ١٧٩٠، بلغ عدد اليهود فى بولندا وليتوانيا تسعمائة ألف نسمة. ومائة وخمسين ألفًا فى الإمبراطورية. كان عددهم قد تجاوز الضعف خلال قرن من الزمان. بحكم العامل السكانى وحده. صار التكدس شيئًا فشيئًا صعب الاحتمال.

فى الثالث من مايو ١٧٩١، استولى البورجوازيون على السلطة فيما تبقى من بولندا؛ أقامت الجمعية السياسية نظامًا ملكيًا وراثيًا وتحرريًا فى نفس الوقت. أقر هذا النظام للبورجوازيين بنفس حقوق النبلاء؛ وقرر أيضًا عدم خضوع اليهود لملكية المدن، من وقتها فصاعدًا، وبالتالي، لم يعد بإمكان أحد، على سبيل المثال، سجنهم دون محاكمة، كما كان الحال منذ قرون خلت. عم الفرح الطوائف اليهودية. فى الذكرى السنوية الأولى لصدور هذا الدستور أقيمت قداسات الشكر فى كل المعابد اليهودية فى كل أنحاء البلاد.

مستاءين من ثورة البورجوازيين، التى حذروا وتخوفوا منها دائمًا، قام كبار رجالات الدولة بالاستغاثة ببروسيا وبروسيا التى قامت بالهجوم على فارصوفيا وفيانا. فى ١٧٩٤، أقام تاديوسر كوزيوس Tadeusz Kosciuszko، الذى قاد الدفاع عن البلاد ضد الغزاة الروس،. فرقة عسكرية يهودية وبرر إنشاءها بقوله: "لا يمكن لشىء أن يقنع الأمم البعيدة بقدسية قضيتنا وعدالة ثورتنا أكثر من رؤية أناس، يختلفون عنا فى الديانة والعادات، مستعدين بالتضحية بأرواحهم بكامل إرادتهم فى سبيل ثورتنا". فى أبريل ١٧٩٤، بدأ كوسيوسزكو Kosciuszko وبونياتوفسكى Poniatowki بهزيمة الروس ثم تراجعا: فى عام ١٧٩٥، فقدت بولندا فارصوفيا من جديد ومعها كاليسز Calisz وثلاثة ملايين من السكان. انضمت بوزنان، حيث غالبية السكان من اليهود (أحصينا فيها فى تلك السنة ٩٢٣ خياطًا يهوديًا مقابل ٦٧٦ خياطًا مسيحيًا)، إلى بروسيا. استأثرت النمسا بما تبقى من جاليسيا مع كراكوفيا التى طرد منها كل التجار اليهود. ستبدأ حدود النمسا من كراكوفيا شمالا إلى تريستا وسراييفو فى الجنوب. ضمت كاترين الثانية Catherine

الليتوانيا وبيلاروسيا وأوكرانيا من فيلنا إلى أودسا Odessa، أي ما مجموعه، إذا أضفنا إلى ذلك القادمين من الإمبراطورية العثمانية، حوالى مليونى يهودى. لم تؤد مبادرة أقطاب الدولة البولندية ضد البورجوازيين إلا إلى زوال بولندا. انتقلت غالبية أكبر طائفة يهودية فى العالم حينذاك إلى روسيا.

أول يهودى فى البلاط

وجد اليهود البولنديون أنفسهم فى بلد، روسيا، لا يعرف معنى كلمة يهودى. طوال هذا القرن، كما كان الحال فى القرون السابقة لم يسمح أى من القياصرة، ولا حتى بطرس الأكبر Pierre Le grand، لأى واحد منهم بالإقامة في روسيا. لم تكن هناك آثار إلا لمرور قلة من التجار الفرادى، فى موسكو أو فى الموانئ الشمالية، وبعض المتحولين إلى المسيحية المتأقلمين وفق ما جاءت به الفتوحات الروسية.

قدر: استلفت ابن كافيزوفChafirov، تاجر يهودى متحول من مدينة سمولنسك Smolensk، الذى تحدثنا عنه سابقًا، أنظار الأمير منشيكوف Menzhikov، أحد أصدقاء طفولة القيصر، فقام بتقديمه إلى القيصر الشاب آنذاك بطرس الأكبر.

مُنِحَ لقب نبيل وصار المستشار الشخصى لصاحب الجلالة، وصاحبه فى رحلاته. تفاوض فى عام ١٧٠٤ بشأن استسلام القوات السويدية فى مدينة نارفا Narva فى إستونيا Estonie ولأنه تاجر، أصبح الآن واسع الثراء، قام ببناء أول منزل خاص فى مدينة سان بترسبورج Saint Petersbourg وكلف بذلك المهندس المعمارى الإيطالى راستريللى Rastrelli– الذى قام نفسه بتشييد أهم قصور المدينة– ثم أمر ببناء أربعة منازل خاصة أخرى لبناته اللاتى تزوجن كلهن من أمراء روس. عين نائبًا للحاكم، قام بتزويج إحدى بنات أخته (أو أخيه) من دوق كورلاند Cour Lande ونال لقب "بارون". فى عام ١٧١١، عندما وقع الإمبراطور، فى الحرب ضد الأتراك، فى الأسر، ذهب كافيروف ليضع نفسه رهينة بدلًا من الإمبراطور؛ ظل فى إسطنبول لمدة عامين ونصف العام، وهناك قام بعمل اتصالات مع أحد اليهود البرتغاليين المتحولين، دانيال دى فونسيكا Daniel defonseca؛

اعترف حينها بكونه يهوديًا، مما يسر له حياة السجن. عاد إلى روسيًا مكللاً بالشرف. فى عام ١٧١٦، كلفه بطرس الأكبر بتسجيل وقائع الحرب ضد السويد، حيث أثيرت للمرة الأولى فى روسيا قضية "المواطنة" و"الثورة" كان ذلك أول نجاحات المكتبة الروسية، أكثر من عشرين ألف نسخة. فى ١٧٢٢، أثناء إحدى الحملات فى بلاد فارس، وقع خلاف بين القيصر والأمير منشيسكوف، حامى كافيروف؛ انقلب القيصر عليهما سويًا. نفى الثانى إلى نوفجورود Novgorod، وصودرت ممتلكاته. عند موت بطرس الأكبر، عام ١٧٢٥، عاد كافيروف إلى موسكو ومات بها عام١٧٣٩ شافيًا غليله. فى ١٧٧٨، سمحت كاترين الثانية للتجار والحرفيين اليهود الذين ورثتهم لتوها وفقًا لشروط التقسيم الأول لبولندا بالدخول فى النقابات والاتحادات العمالية الأمر الذى أتاح لهم انتخاب ممثلين لهم فى النقابات المحلية والبلديات. إنها المرة الأولى فى تاريخ الشتات التى يسمح فيها لليهود بالتصويت.

عندما انتهى تقسيم بولندا للمرة الثالثة وتوسع روسيا، على حساب الإمبراطورية العثمانية، ناحية حوض نهر الدانبير، البحر الأسود والقرم، صار نحو مليونى يهودى داخل حدود الإمبراطورية الروسية، محبوسين تقريبًا فيما سوف يصبح "جيتو" شاسع الاتساع.

متعهدو البلاط

وثورة صناعية

(١٧٠٠-١٨٠٠)

يهود مقبولون فى فرنسا وفى إيطاليا

فى عام ١٧٣٧، أصبح من المسموح للألفى يهودى فى جيتوفينيسيا بالخروج منه فى المساء وفى يوم الأحد.[٧٥] فى عام ١٧٥٧، كانت تلك هى الحال فى أحياء فلورنسا اليهودية (حاراتهم- الجيتو). بينما بقى الوضع فى أحياء أنكونا يدعو إلى الرثاء. فى إيفورن، ظلت

المدينة متسامحة مضيافة وحرة. فى مقاطعة فنيسان **Venaissin**، ولاية أخرى من ولايات البابا، لم تتغير أوضاع اليهود كثيرًا هم الآخرون؛[٢٠٤] يقول أحد شهود[٧٥] تلك الفترة:

"إن يهود مقاطعة فنيسان يعيشون فى ظروف بائسة رهيبة. لا يعتبر المسيحيون فى تلك المنطقة أن بنى إسرائيل آدميون مثلهم. ينبغى على اليهود السكن فى أحد الأحياء المخصصة لهم والذى لا يمكنهم الخروج منه إلا خلال ساعات محددة مفروضة ومراقبة بكل صرامة. إن تواجدوا، لسوء حظهم، فى أحد الشوارع، أثناء مرور أحد المواكب الدينية المسيحية (وهو أمر شائع)، فإن عليهم الفرار للنجاة من الأحجار التى ستلقى عليهم من كل جانب (....). إن عليهم أن يعتمروا قبعات صفراء اللون؛ وعلى اليهوديات أن يضعن بعرض صدورهن أوشحة من نفس اللون. الويل لمن سيغادر حارته بدون هذه العلامات المميزة. ينبغى على اليهود إجباريًا تحية كل من يصادفهم من المسيحيين، بالانحناء أمامهم بكل احترام، حتى وإن كانوا من المتسولين الذين كانوا يقولون لهم حينذاك "لتتبرعوا - تصدقوا" ! يجب على اليهودى أن يطيع وأن يقدم خمسة "فلوس". يعلم الله وحده كم قطعة من القطع ذات الخمسة والعشرين مليمًا يكون على اليهودى أن يدفعها فى كل مرة يخرج فيها من بيته[٧٥]!" للبقاء على قيد الحياة كان عليهم الخروج من الولاية أكثر فأكثر[٢٠٤]. فى ١٧٤٠، اشتكى بعض التجار فى مونبلييه **Montpellier** من منافستهم، الأمر الذى رد عليه المعتمد الملكى قائلًا: "لو كانت متاجر المسيحيين منسقة متنوعة الأصناف مثل متاجر اليهود لجاء إليها العملاء مثلما يذهبون إلى محال اليهود.

فى غويانا **Guyenne**، حيث تسميهم الخطابات الملكية "مسيحيين جددًا" أو "يهودًا" على حد سواء، وجد اليهود تسامحًا ملحوظًا وبصورة مطردة. فى شهر يونيو عام ١٧٢٣ جدد الوصى على العرش امتيازاتهم لقاء ١٠٠٠٠٠ ألف جنيه ("اليهود المسّجلون فى الدائرة المالية، المعروفون والمقيمون فى مملكتنا تحت مسمى "برتغاليين" أو بصورة أخرى "مسيحيين جدد" (...) هم من رعايا المملكة ويتمتعون بالحق فى شراء الملكيات العقارية وبحق اختيار أماكن إقامتهم...")[٦٧].

فى مدينة بوردو، كانت عائلة جراديس **Gradis** تبيع إلى لندن، وإلى أمستردام، النبيذ، المشروبات الروحية، لحم البقر المملح، الدقيق المشتراة من بوردو ومن روان؛

قامت العائلة بتأسيس شركة كندا لتموين الممتلكات الفرنسية فى أمريكا؛ أثناء حرب السنوات السبع استأجرت بعض السفن لحساب الملك. كانت عائلات أخرى فى بوردو (آل لوبير – دوبك Dubec، رابا Raba، فورتادو Furtado) من رجال البنوك، تجار النبيذ، ومنتجات المستعمرات، المؤمنين البحريين، تجار وحرفيين. أُحصى واحد وأربعون سيدة كممارسات لنشاط مهنى، كان من بينهن مصرفية وأخرى تاجرة نبيذ.(٦٧)

فى مقاطعة الألزاس، كان عدد العائلات اليهودية ٢١٢٥ عائلة عام ١٧٤٠؛ وفى ١٧٨٤ صار عددهم ٣٩٤٢ عائلة أى ١٩٦٢٤ شخصًا، كان كثير منهم من التجار ومن مقدمى القروض المضمونة بالرهون إلى المزارعين. سمحت لهم المراسيم الضريبية الصادرة فى ١٠ يوليو ١٧٨٤ بالعمل فى الزراعة: "إننا نسمح ليهود الألزاس بأن يحصلوا فيها على مزارع بطريق الإيجار فى الطوائف التى قبلت بوجودهم، لكن بشرط أن يظلوا داخل تلك المزارع المذكورة وأن يقوموا باستغلالها بأنفسهم. نصرح لهم أيضًا باستئجار كروم العنب والأراضى، وبشكل عام كل صور الأموال غير المنقولة الأخرى لكن شريطة أن يقوموا أيضًا بزراعتها بأنفسهم. نمنعهم فضلًا عن ذلك من استخدام خدم مسيحيين سواء فى استغلال المزارع المذكورة أو فى زراعة الكروم والأراضى المذكورة(٢٩٣)".

فى إقليم اللورين، كان عدد اليهود كبيرًا إلى حد ما فى نهاية القرن السابع عشر. كان أحدهم، صامويل ليفى، أمين عام خزانة اللورين، قبل أن يلقى القبض عليه فى ١٧٢١، تم طرد كل اليهود. غير أنهم عادوا فى عام ١٧٢٦، واستقبلهم ستانيسلاس Stanislas، ملك بولندا لقاء فدية كبيرة. عندما انضمت المنطقة إلى فرنسا، تعاملت المملكة معهم بتسامح.

فى باريس أيضًا، أصبحت الآن الطائفة الصغيرة من "البرتغاليين" (القادمين من بوردو ومن منطقة جسر الروح المقدسة – ليس – بايون) - Pont - Saint Sprit - Lés Bayonne تجد معاملة طيبة وكذلك طائفة أخرى من اليهود الألمان، الإنجليز، البولنديين والهولنديين. افتتح معبد يهودى، يتبع شعائر البرتغاليين، فى شارع سانت أندريه ديزار Saint - André desarts، وافتتح آخر، يتبع شعائر الألمان، شارع بريزميش Brisemiche. فى العادة عمل البرتغاليون فى تجارة الشيكولاته والحرير وكانوا يسكنون فى حى

الأوديون. أما الألمان فكانوا من صناع وتجار الخردوات، تجار الملابس المستعملة والصُيَّاغ، كانوا يلجأون إلى الشرطة للحصول على تصاريح الإقامة، وكانوا يسكنون مساكن مفروشة فى أحياء: الفنون والمهن **(Arts et Metiers)**، السربون**(La Sorbonne)** والقديس ميرى **(Saint - Merri)**[١٤١]. حتى عام ١٧٨٧، كان اليهود ملزمين بعدم ممارسة التجارة إلا خارج المتاجر وكان ممنوع عليهم الدخول فى النقابات والاتحادات العمالية – والتعاونية. بصورة عامة كان اليهود من بسطاء الحال، حتى وإن وجد من بينهم بعض رجال الصناعة، المصرفيون والمفكرون: مترجم فى مكتبة الملك، إسرائيل برنار دو فالابريج **Israel Bernard de Valabrégue**، طبيب فى بلاط لويس الخامس عشر، دانييل دو فونسيكا **Daniel de Fonseca**، من عائلة قادمة من إسطنبول، الممثل الرسمى للشعب اليهودى فى بوردو لدى الملك، جاكوب رود ريجيز بريرا **Jacop Rodrigues Pereira**. فى عام ١٧٧٢، حصل أحد المصرفيين الألمان، سيرف بير **Cerf Berr** على الجنسية الألمانية. يؤكد المرسوم الملكى الصادر بشأنه: "إن الحرب وحالة الجدب التى أضرت بالألزاس، خلال عامى ١٧٧٠، ١٧٧١، قد وفرت له الفرصة ليثبت إخلاصه وهمته وولائه فى خدمتنا وفى خدمة الدولة[٣٢٧]". لم يمارسوا الربا إلا فى الألزاس. فى عام ١٧٧٧، أعيد إنشاء فرع آخر جديد من مؤسسة "جبل الرحمة"، بعد قرن من إغلاق فرع ثيوفراست رنودوت **Theophraste Renaudot**، وكان يقدم القروض بمعدل فائدة ١٠٪. سوف يصير بنك التسليف البلدى **Le Credit Muncipal**[٦٨].

فى ١٧ نوفمبر ١٧٨٧، كلف لويس السادس عشر، مالزرب **Malesherbes**، وزير الدولة، بأن يقترح إصلاحًا فى وضع يهود فرنسا القانونى، فى نفس العام صَرَحَ لهم بامتلاك المتاجر وبالقبول فى الاتحادات والنقابات والتعاونيات. فى عام ١٧٨٨، انتاب بعض الأساقفة القلق بسبب الاعتراف بغير الكاثوليك: "إلى أى مدى أيضًا ستكون الثورة مفاجئة وعاجلة فى المدن، وسط هذا النمو المرعب للإلحاد وفساد الأخلاق".

فى عشية الثورة، كان أربعون ألفًا من اليهود يقيمون فى فرنسا بشكل علنى: خمسمائة فى باريس، خمسة وعشرون ألفًا فى "الأمة الألزاسية" سبعة آلاف وخمسمائة فى اللورين، الباقى فى جيانا **La Guyenne** وفى كونتية فنيسان **La Comtat Venaissin**[١٤١].

عكست المناقشات التى دارت بين فلاسفة التنوير كذلك تطور وجهة النظر تجاه اليهود فى فرنسا. لا هويته بصورة متناقصة، اقتصادية وسياسية بشكل متزايد. لم تكن ودية بصورة خاصة. فى عام ١٧٢٠، كتب مونتسيكو: "تسألنى إن كان هناك يهود فى فرنسا؟ لتعلم أنه أينما وجُدَ المال، كان هناك يهود(٢٩٢)".

فى "القاموس الشامل للتجارة" استشهد سافارى **Savary** ببعض الأمثال التى تصف اليهود بأنهم نصابون خَطِرون: "اليهودى الحقيقى" : تاجر يغالى ويبتز.. "الوقوع بين أيدى اليهود" : التعامل مع أشخاص بخلاء، ملحين، من الصعب التعامل معهم..." ثم يضيف: "إن اليهود معروفون بمهاراتهم الكبيرة فى التجارة، غير أنه من المعتقد أنهم لا يفعلون ذلك بكل النزاهة والأمانة الممكنة. مهما كان من أمر ذلك اللوم، فإنه من المؤكد أن الشعوب حتى الأكثر تحاملًا منها على اليهود، لا يقبلون فقط بوجودهم فى بلادها بل إنها تفاخر بأنها تتعلم منهم أسرار التعامل التجارى وتتقاسم معهم الأرباح(٣٥٦)".

فى طبعة عام ١٧٦٤، من قاموس تريفو **Trevoux** الشامل، نقرأ التعريف التالي: "يقال "ثرى كأحد اليهود" للتعبير عن شخص واسع الثراء، ونسمى أيضًا التاجر الغشاش أو المغالى "يهودى"، لأن اليهود مرابون كبار، مخادعون وغشاشون(٤١٩)".

فى عام ١٧٦٤، يقول فولتير **Voltaire** فى إحدى رسائله، التى وردت بعدها فى قاموسه الفلسفى: "لقد كان العبرانيون تقريبًا بشكل دائم إما تائهين، أو قطاع طرق، أو عبيد أو مثيرى فتن. إنهم مازالوا إلى اليوم مشردين على الأرض، يأنفون من البشر، ويؤكدون أن السماء والأرض وكل البشر قد خلقوا جميعًا من أجلهم وحدهم فقط (...) لن تجدوا فيهم سوى شعب جاهل بربرى، يجمع منذ زمن بعيد بين أخس صور البخل وأحقر الخرافات وكراهية لا تقاوم لكل الشعوب التى تتسامح معهم وتقبل بوجودهم وتمنحهم الثراء (....) أنتم (أيها اليهود) حيوانات حاسبة؛ حاولوا أن تكونوا حيوانات مفكرة!(٤٣١)" بعدها، فى "رسالة حول الأخلاق"، يقول مختتمًا: "إننا ننظر إلى اليهود، بنفس العين التى نرى بها الزنوج، كنوع أدنى من البشر"

الانقلاب فى صورة الشعب العبرى حدث فى ١٧٦٥، مع صدور دائرة المعارف. فى باب "يهود" الذى حرره، جوكور Jaucourt (*)، أحد أهم محررى هذا العمل الرئيس، يندهش الكاتب من أن "هذا الشعب مازال موجودًا، بعد الفظائع التى عانى منها اليهود، وأنا معجب بتمسكهم القاطع بشريعة موسى". ويقول "نمط حياتهم المنظمة والقانعة، تعففهم فى عملهم"؛ عدم قدرتهم على "امتلاك أى أموال عقارية والحصول على أى وظيفة". وفى النهاية، فإنه يرى أنه من الظلم أن ننعت اليهود بأنهم "مرابون آثمون"، لأن المسيحيين لم يتركوا لهم مصدرًا آخر للعيش سوى التجارة". ويخلص إلي: "لقد صادرنا أملاكهم عندما دخلوا فى المسيحية؛ وبعد قليل أحرقناهم عندما لم يرغبوا فى البقاء عليها". وقال أيضًا: " أصابنا الضعف الشديد فى إسبانيا لأننا طردناهم وكذلك الحال فى فرنسا لأننا قمنا باضطهاد هؤلاء المواطنين الذين تختلف عقيدتهم فى بعض النقاط عن عقيدة الملك. أضاف ديدرو Diderot (**) "لكن أى رجال منحنا "التاريخ" يمكن مقارنتهم فى النفوذ والقوة، فى العزة والكرامة، فى الحكم على الأشياء، فى الشفقة والرحمة، فى الضمير، بأبراهام، بإسحاق وبيعقوب؟ (....) وموسى؟ أى مؤرخ ! أى مشرع ! أى فيلسوف ! أى شاعر ! أى رجل كان !(١١٤)

متعهدو بلاطات ملكية

فى ألمانيا وفى النمسا

مثلت الإمبراطورية الدولة الأكثر اتساعًا والأعلى تعددًا فى أوروبا: مع الممتلكات الموروثة لأسرة الهابسبورج، ضمت مملكة بوهيميا، والولايات التابعة لها، الجزء الذى لم تحتله الدولة العثمانية من المملكة المجرية، مملكة ميلانو، ومملكتى نابولى وصقلية. عند

(*) جوكورت (١٧٠٤ – ١٧٧٩) فليسوف وكاتب وموسوعى فرنسى من أهم تلاميذ مونتيسكو. من أبرز محررى موسوعة ديدرو – ألمبيرت. كتب عن الحرب، العبودية، والزنوج ومحاكم التفتيش. (المترجم – عاصم عبد ربه)

(**) ديدرو – دنيس – ديدرو – كاتب وفيلسوف فرنسى من فلاسفة الحرية عاصر فولتير وروسو. أحد قادة حركة التنوير – ولد لأب حرفى (١٧١٣ – ١٧٨٤ باريس) أشرف على إصدار موسوعة الفنون والعلوم. (المترجم – عاصم عبد ربه)

موت شارل السادس، فى عام ١٧٢٠، أدت أزمة وراثة العرش إلى حرب أوروبية. نجحت ابنته مارى تريز **Marie-therese**، بعد كثير من التحولات المفاجئة فى فرض نفسها.

شيئًا فشيئًا، عاد اليهود إلى فيينا التى كانوا قد طردوا منها كلهم تقريبًا فى عام ١٦٧٠. استقرت طائفة صغيرة من السفارديم فى المدينة عام ١٧٣٧ وأعادت إنشاء شبكة تجارية مع طوائف البلقان وإسطنبول.

فى ألمانيا المتمزقة والمفلسة منذ حرب الثلاثين عامًا، سعى الكثير من الولايات الصغيرة إلى تأسيس أو توطيد حكومات مطلقة السلطة على غرار حكومة لويس السادس عشر، التى يعجب بها الجميع. كان كل أمير ألمانى يتمنى أن يكون له جيش دائم وقصر "فرساى" صغير[٣٢٩]. سوف يقدم لهم بعض رجال البنوك اليهود — الغائبين مع ذلك عن نموذجهم الفرنسى — وسائل تحقيق ذلك. غير قادرين على الاستثمار فى الملكيات العقارية، ولا فى المناصب التى تؤدى إلى الوصول إلى طبقة النبلاء، صاروا من مديرى مصالح الرسوم الجمركية، مسئولين إداريين عن النقد، موردى حبوب للجيش ومقدمى رؤوس أموال للدولة. "موردين للتاج"، ساعدوا على تحويل الهياكل القديمة للسلطة إلى أنظمة حكم فعّالة، فى فرض "مصالح الدولة"[١٣]، وفى أن يؤمنوا وجودها ذاته: لا دولة دون قدرة على الاقتراض. مرة أخرى، أسهم هؤلاء الغرباء، الذين سمح بالكاد بوجودهم، فى ميلاد وتدعيم بعض القوميات.

إن كان بإمكانهم الآن وضع الشعور المستعارة، ارتداء الثياب وفق الذوق المعاصر (على الموضة)، إن كان بإمكانهم العيش خارج الأحياء المخصصة لذويهم، إن كانوا أحرارًا فى التنقل فى أراضى مليكهم، إن كانوا معفيين من الضرائب المفروضة ولهم الحق فى امتلاك العقارات، إن كان بعض هؤلاء المتميزين من عموم اليهود قد حصلوا حتى على ألقاب نبيلة، فإن "موردى البلاط" كانوا لا يعيشون داخل البلاط. إنه من الخطأ إذًا أن يدعوهم البعض احتقارًا أو تهكمًا "يهود البلاط"[٣٧٢]. فيما عدا بعض الاستثناءات النادرة، لم يحمل هؤلاء أى لقب رسمى وكانوا مستبعدين تمامًا من الطبقة الأرستقراطية؛ حتى وإن كانت المهور التى يقدمونها لبناتهم (٧٣٦ جنيهًا فى بداية القرن، أكثر من ٩٠٠٠

فى آخره) تساوى مهور بنات الأرستقراطيين المسيحيين، فلم يسمح لهم أبدًا بالدخول فى قلب الطبقة الأرستقراطية عن طريق شرف النسب.[١١٧]

إليكم بعض ما آلت إليه أقدار هؤلاء «متعهدى البلاط»[٤٠٣]:

كان بهرند ليفمان – أو ليهمان **Behrend Leffman – (Lehman)** محل ثقة أوجوست دو ساكس **Auguste de Saxe**، يهودى ملتزم، لعب الرجل أدوارًا عديدة: سياسية، دبلوماسية، اقتصادية، دون أن يتخلى مطلقًا عن ممارسة شعائره الدينية المتشددة بكل دقة، والتى كانت تحميه، كما يعتقد، من كل سوء[٣٧٢]. أرسله أميره إلى باريس عام ١٦٩٧، لإحضار المال الذى يقدمه لويس الرابع عشر سلفًا، مثل ملوك آخرين، من أجل انتخابه ملكًا على بولندا. أحضر ليفمان المال فى براميل الكحول، واستخدمه فى شراء صوت دوق هانوفر، الحاسم فى الاقتراع على اسم الملك.

كان جوزيف سسكيند أوبنهايمر **Joseph Susskind Oppenhimer**، المولود فى هايدلبرج نحو عام ١٦٩٨، موردًا للعديد من البلاطات قبل أن يربط مستقبله بمصير شارل أليكسندر دو فرتيمبرج **Charles Alexandre de Wurtemburg**، حاكم الصرب، الذى عينه "أمينًا لخزائنه"[٣٥٧]. فى عام ١٧٣٣، عندما وصل شارل أليكسندر الأول **Charles Alexandre 1er** إلى عرش فرتيمبرج، حصل على ثروة هائلة، استدعاه إلى مدينة شتوتجارت ليجعل منه أمين خزينة الدوقية، ثم نائبه فى مدينة فرانكفورت، حيث كان اليهودى الوحيد المسموح له بالعيش خارج حارة اليهود (الجيتو)، فى نزل "البجعة الذهبية". عين مديرًا لشئون النقد، ثم مديرًا للشئون المالية – مورد القصر الوحيد الذى حصل على لقب رسمى – أعاد تنظيم الدوقية إداريًا، جمع ثروة ضخمة، أصبح أقوى رجال الدوقية وأكثرهم كراهية من الشعب. متوجسًا قلقًا، حصل من شارك أليكسندر الأول، فى الثانى من فبراير عام ١٧٣٧، على مرسوم بالعفو المسبق عن كل تصرفاته السابقة أو اللاحقة، التى قام بها فى خدمة الدولة. عندما مات الدوق بطريقة غامضة، بعدها بعدة أسابيع، فى ١٢ مارس، ألقى القبض على سسكيند وألقى به فى السجن[٣٧٢]. ترددت فى كل أنحاء ألمانيا أصداء محاكمته، إدانته، عودته إلى اليهودية وإعدامه فى شتوتجارت عام ١٧٣٨.[٤٠٢]

كان فولف فرتايمر wolf Wertheimer، ابن سامسون فرتايمر Samson W، مصرفيًا لمارى تريز نحو عام ١٧٤٠، قام بتمويل الخزانة العامة وأعاد تنظيم الجهاز الإدارى، كما فعل والده قبل طرد اليهود من فيينا.

بهرند ليفى، مورد لبلاط براندبورج، والاستادلان –Stadlan، أى ممثل اليهود فى كل أراضى الناخب الأكبر (الإمبراطور جيوم الأول) فى غرب جبال الألب. كان يدافع فى واقع الأمر عن مصالح الإمبراطور ويدير بكل شدة أمور اليهود فى كليفس Cleves حتى إنهم قد ثاروا ضده.

أكثر موردى البلاطات شهرة سيكون ماير أمشيل روتشيلد Mayer Amschel Rothschild.(٢٨٦) المولود فى جيتو فرانكفورت فى عام ١٧٤٣، كان أول من استعمل هذا الاسم الذى يحيل إلى اسم دار شغلها أحد أسلافه فى عام ١٥٦٠. فى العائلة، يكون المرء عادة تاجرًا، صرافًا، بائعًا للأصواف والحرائر. كان والد ماير، تاجرًا ورعًا أمينًا، وكان له علاقات عمل مع جوزيف سسكيند أوبنهايمر عندما كان هذا الأخير يقيم فى فرانكفورت. تعلم ماير أولًا فى المدرسة التلمودية فى فورث Furth. فى الثانية عشر من عمره سافر إلى هانوفر، عند فولف جاكوب أوبنهايمر، مورد آخر للبلاط وصديق والده. تخصص فى صناعة العملات النقدية والميداليات. مجبرًا عاد إلى الجيتو فى فرانكفورت مرة أخرى فى عام ١٧٦٤، تمكن من بيع بعض الميداليات إلى جيوم (غليوم) Guillume، أمير مقاطعة هيس–كاسل Hesse-Cassel. فى عام ١٧٦٩، تمكن من الحصول على لقب مورد هذا البلاط. فى عام ١٧٧٠، تزوج من ابنة مورد آخر لبلاط ساكس (كان فى الثامنة والعشرين من عمره، عمر متأخر للزواج فى تلك الفترة). صار خبيرًا وتاجرًا ذائع الصيت فى سوق العملات الأثرية. طبع فهارس مصورة (كتالوجات) وأرسلها إلى عملائه من هواة جمع العملات القديمة. إن أراد أحدهم الحصول على عملات قديمة بعينها، كان يجدها له. فى عام ١٧٨٠، كان الأمير جيوم ودوق فايمار – نصير جوتة Goethe (*)– من عملائه

(*) يوهان فولفجانج فون جوتة. (١٧٤٩ – ١٨٣٢). روائى شاعر، كاتب مسرحى، فليسوف ودبلوماسى ألمانى. أهم رموز الشعر والأدب الألمانى، أطلق اسمه على كل معاهد نشر الثقافة الألمانية فى العالم. معهد جوتة... (المترجم– عاصم)

المنتظمين. فى عام ١٧٨٧، صار أحد أغنى قاطنى الجيتو، احتاج إلى توسيع منزله: كانت زوجته تنجب له طفلًا كل عام فى الفترة ما بين ١٧٧١، ١٧٩٢، الأمر الذى لم يكن خارجًا عن المألوف لدى يهود أوروبا الوسطى. من بين أطفاله التسعة عشر، بقى عشرة على قيد الحياة، خمسة من البنين وخمس من البنات. بعد مولد الأخير، جاكوب، فى عام ١٧٩٢، بدأ ماير فى تقديم القروض إلى عملائه (أو البيع الآجل). وتشير الضرائب التى قام بسدادها فى عام ١٧٩٤، إلى أن دخله كان يقارب دخل عائلة جوتة التى تحيا فى المدينة. ومثل كل اليهود، كان يخصص عشر موارده للأعمال الخيرية الاجتماعية الخاصة بالطائفة. فى عام ١٧٩٤، اقترح على أمير هيس أن يمده بدلًا من العملات النقدية بالفضة فى صورتها المعدنية "بأفضل سعر ممكن"[٢٨٦]. لقد صار مصرفيًا – مموِّلًا.

ساهم مورد البلاط بصورة إيجابية رائعة فى تطور البلاد التى حملوا إليها الموارد المالية اللازمة لإقامة دولة عصرية.

تمتع موردو البلاط بنفوذ لا جدال فيه، دون أن يمثلوا بسبب ذلك شبكات سياسية حقيقية.[١٤] لم يظهروا نفوذًا جماعيًا حقيقيًا إلا فى عام ١٧٤٤، عندما قررت الإمبراطورة مارى تيريز طرد يهود بوهيميا بزعم اتهامهم بالتجسس لصالح بروسيا.[٣٥٧] قام ولف فرتايمر حينها بتحذير بعض موردى البلاطات وبعض مسئولى الطوائف فى روما، بوردوا، بايون، فرانكفورت، أمستردام ولندن وفينيسيا. تدخلت طائفة روما لدى البابا؛ نظمت طوائف بوردوا وبايون حملات تبرعات لصالح المبعدين. بناءً على طلب اليهود فى بطاناتهم، تدخل ملك إنجلترا ومجلس الطبقات فى هولندا لدى مارى تيريز، انتهى الأمر برجوعها عن قرار الترحيل فى مقابل سداد ٢٤٠٠٠٠ ألف فلورين دفعها فولف فرتايمر وأصدقاؤه. لقد كانت تلك هى آخر محاولة طرد اليهود من بلد ما قبل عام ١٩٣٩. لكن، فضلًا عن ذلك، فربما لن يعد الأمر، فى ذلك الوقت، متعلقا بالطرد ...

لم يؤد تحرر موردى البلاط هؤلاء إلى تحرير اليهود فى ألمانيا، النمسا، الذين عاش أغلبهم فى بؤس شديد. يقول كرستيان ويلهلم دوهم **Christian Wilhelm Dohm**، كاتب بروسى مسيحى معاصر لتلك الفترة، كان يدعم اليهود، شاكيًا "من الممارسات السارية منذ فردريك غيوم الأول، الذى منح اليهود الأغنياء كل صور الامتيازات والمساعدات، غالبًا على حساب يهود آخرين"[٣٩١].

فى عام ١٧٤٠، استولى فردريك الثانى على السلطة فى بروسيا بعد حرب طويلة مع النمسا. فى ١٧٥٠، عمل كل ما فى وسعه للحد من عدد اليهود فى مملكته: لم يعد بإمكان أى أب نقل حقوقه فى الإقامة إلا إلى واحد فقط من أبنائه؛ صارت المهن المصَرح لهم محدودة للغاية: ليس لديهم الحق فى بيع الذهب، الماشية، الصوف، الكحول، الجلد، التبغ. لم يكن أمامهم إلا اللجوء إلى التجارة فى المنتجات المستوردة (الأحجار الكريمة، الملابس، الخيول، الفراء، العسل، الشاى، القهوة، الشيكولاتة) وأن يزاولوا أنشطة محددة (باعة جائلين، تجار ملابس مستعملة، مقرضين بضمان الرهن، مطبعيين، حرفيين). مع هذا فقد تطور من بقى فى بروسيا وفى النمسا من اليهود اجتماعًا بالتدريج: خلال جيلين، تحول تجار الملابس المستعملة إلى تجار؛ الحرفيون، رجال صناعة؛ مقدمو القروض المضمونة بالرهون، رجال بنوك؛ الباعة الجائلون، أصحاب سلاسل محلات تجارية، عمال وأصحاب المطابع، ناشرين. من خلال ابتكاراتهم ساهم اليهود فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية للبلاد بالكامل.

غير أنهم لم يغيروا بسبب ذلك من مسارهم: من كانوا من رجال البنوك رفضوا الدخول فى مجال الصناعة. ليس عن عدم تقدير لأهميتها، لكن لكل مهنته "عندما سوف يتضح أن مصنع المرايا الموجود فى مدينة نوهوس **Neuhaus**، فى النمسا السفلى، أصبح غير ذى جدوى (كان مدعومًا من قبل الدولة)، قدم فرتايمر اليهودى إلى الإمبراطور المال اللازم لإعادة شرائه. وعندما طلب منه إدارة هذا المصنع، رفض، قائلاً: إن وقته مشغول تمامًا بعمليات تمويلية أخرى.[٣٢٣] وجه اللوم إلى اليهود وأبغضهم الناس لأنهم لا يديرون بأنفسهم المؤسسات التى يقومون بتمويلها، وذاع عنهم عدم مشاركتهم بشىء فى الثورة الصناعية. فى الواقع إنهم يعرفون أن المال ليس هو ما يعد المرء لإدارة مؤسسة ما بأفضل ما يمكن، وأن الصناعة تتطلب كفاءات خاصة. مصائر وأقدار: موسيس مندلسون **Moses Mendelssohn**، ابن أحد معلمى التوراة، ولد فى ديساو (ألمانيا) عام ١٧٢٩، تعلم العبرية، الفرنسية، اللاتينية، اليونانية، الإنجليزية والإيطالية فى برلين. صار أحد

أصدقاء كانت Kant (*) ، نشر كتبًا عن الفلسفة، عمل محصلًا لدى أحد مُصنعىّ الحرير اليهود الأثرياء، إيزاك بيرنهارد (برنار) Issac Bernhard؛ حصل فى عام ١٧٦٣ على جائزة أكاديمية العلوم البروسية عن رسالته: "ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) كعلم". انضم إلى مؤسسة إيزاك بيرنهارد وصار شريكه. فى عام ١٧٧٩، كان المثال الذى استلهمه جوتولد إفرايم لسنج Gotthold Ephraim Lessing. فى مسرحيته ناثان الحكيم، والذى كان كاتب دراما ومن مؤيدى التنوير فى بروسيا. اتجه نحو فكر عقلى لا يؤمن بالوحى اعتقد إمكانية البرهنة عليه بالعلم. دعا فى كتابه "أورشليم أو السلطة الدينية واليهودية" الصادر فى ١٧٨٥، إلى اندماج اليهود فى العالم العلمانى، نادى فيه أيضًا بالتعايش بين الأديان مطالبًا بالاعتراف لليهودية وحدها بصفة التنزيل. كان أول اليهود على رفض حياة الجيتو والعيش فى العالم. صار رمز الساعة اليهودية فى عصر الأنوار، العقل. ترجم التوراة الألمانية مستخدمًا الحروف الهجائية العبرية فى كتابتها، للإشارة إلى ضرورة إيجاد معبر بين العالمين.

كان الأول، فى دعوة يهود الشرق إلى الحداثة، رفض التلمود كجوهر للعلم والتعليم وإلى الإلمام بالعلوم الدنيوية. بفضله بدأت فى الظهور فى برلين عام ١٧٧٨ بعض المدارس اليهودية العلمانية للبنين وللبنات. طالب أيضًا بتعلم لغة البلد الذى يعيشون فيه والتعامل بها ورفض لغة "اليايديش Yiddish" ، وإلى العمل فى الصناعة وإلى الكف عن انتظار المسيح، وإلى السعى إلى تحسين عالم الأحياء. لقد حث بذلك يهود أوروبا الوسطى إلى الخروج من جيتو كان إراديًا بصورة ما. بدأ التحرر السياسى لليهود إذًا على استحياء من خلال النمو والتقدم الاقتصادى، جيلا بعد جيل. بذلت السلطات كل ما فى وسعها لإبطاء هذا التطور؛ وإن لم يعد باستطاعة الأمراء نهبهم الآن كما كان يحدث من قبل، فقد كان بمقدورهم دائمًا أن يبقوهم على بعد. فى فرانكفورت، عام ١٧٨٤، لم يسمح بمنحهم حق الخروج من الجيتو يوم الأحد. إن كان هناك بعض المنازل الجميلة، وكانت كلها معتنى بها

(*) كانت Kant. إيمانويل كانت (١٧٢٤، ١٨٠٤). فيلسوف تنويرى كبير عاش فى القرن الثامن عشر. من مواليد مدينة كونجسبرج – فى بروسيا. أهم أعماله كتاب نقد العقل، ما هو التنوير. من أبرز الفلاسفة الألمان. (المترجم – عاصم عبد ربه)

جيدًا من الداخل، فلم تقم فيه أى شبكة طرق معبدة. فى عام ١٧٦٥، بعد وقوع حركة تمرد، اضطر أحد مدرسى الرياضيات، مصرح له من قبل بالعيش خارج الجيتو، إلى العودة إليه. فى عام ١٧٩٥، ومنع أحد الأطباء كان كثير من عملائه مسيحيين من الإقامة فى المدينة بعد اعتراضات الأطباء المسيحيين الذين عانوا من منافسته. قام جوتة ذلك الوقت بزيارة الجيتو الذى لا يزال يقيم فيه ماير أمشيل روتشيلد، وأذهلته ظروف الحياة البائسة التى يعيشها سكانه "الذين كانوا بشرًا على كل حال".

فى النمسا، حاول الإمبراطور الجديد، جوزيف الثانى **Joseph II** فى عام ١٧٦٥، إبدال الخضوع للقيود بالخضوع للمصالح الذاتية. ألغى فى عام ١٧١٨، الضرائب الخاصة المفروضة على اليهود ومنحهم بعض الحقوق المدنية، سمح لهم بممارسة الحرف اليدوية والزراعة والالتحاق بالجامعات. فى المقابل، كان يريد إجبارهم على ارتداء الملابس على طريقة المسيحيين وعلى قضاء عدة سنوات فى الجيش وعلى التحدث بالألمانية. فى عام ١٧٨٩، كتب: "منذ بداية ولايتنا، كان أحد أهدافنا الأساسية هو أن يشارك كل الرعايا فى ولاياتنا، بعد القبول بهم بصرف النظر عن جنسيتهم، فى تحقيق الرفاهية والرخاء العام[١١٧]". فى عام ١٧٩٢، أمام تحفظ بعض الطوائف اليهودية فى الاندماج بسرعة، قام خليفته العابر، ليوبولد الثانى **Leopold II**، بتحويل الخدمة العسكرية إلى ضريبة وألغى المرسوم الذى يجبر اليهود على التحدث بالألمانية[١١٧]. بدأنا فى إدراك أن اليهود يجلبون إلى الآخرين من الثروات أكثر مما يصنعون لأنفسهم.

فى عام ١٧٩٧، صرح ليبولد للتجار اليهود المقيمين فى المملكة بالإقامة خارج حارات اليهود[١١٧]. فى تلك السنة، وفى مدينة برلين افتتح ممثل عرضًا "لتاجر البندقية" بخطاب اعتذار وجهه إلى اليهود المحتمل وجودهم بين الجمهور.

تراجع فى هولندا

عند موت جيوم الثالث **Guillaume III** فى عام ١٧٠٢ – الحاكم العام **Le Stathouder** – الذى صار ملكًا لإنجلترا عام ١٦٨٩ – رفضت مجالس الولايات فى هولندا أن تجعل له خليفة: استعاد برجوازيو البلاد الواطئة استقلالهم الذاتى تجاه الأمراء.

كان هناك حوالى عشرين ألف يهودى يعيشون فى أمستردام، نصفهم من السفارديم ونصفهم من الأشكناز. فى عام ١٧٤٣، حددت وثيقة[٥٨] مهمة للغاية بمنتهى الدقة المهن التى يمكن لهم أن يمارسوها: بصورة أساسية كانوا يعملون فى مجال المال والسمسرة ونادرًا فى التجارة، وأكثر ندرة فى الحرف اليدوية. وإليكم التفاصيل: ١٥٠ أسرة تعمل فى مجال المال (١١٠ فى البنوك، ٤٠ صيارفة)؛ ١٣٥ فى السمسرة (١٣٠ سماسرة فى الأسهم والسندات، فى السمسرة البحرية عائلة واحدة، ٤ سماسرة تبغ)؛ ٢٩ فى تجارة الجملة (١٠ فى التبغ، ٦ فى الملابس، ٣ فى القطن، ٢ فى المنسوجات، ٣ فى السجاد والأغطية، ٢ فى الدانتيلا، ١ فى البورسلين، ٢ فى الجبن)؛ ٤٠ فى تجارة التجزئة (٦ فى الملابس، ١٦ فى القطن، ١٠ فى الشاى، ٦ فى التبغ، واحدة فى البامبو، واحدة فى غزل القطن)؛ ٣٠ فى الحلى (٢٣ فى الصياغة، ٧ فى صقل الماس)؛ ١٨ فى تجارة الكحول (عائلتان تمتلكان محالا لبيع المشروبات، ١٠ صناع وتجار جعة، ٦ من أصحاب أقبية النبيذ)؛ ٥٨ تعمل فى مهن ثقافية فكرية (١٤ من أصحاب المطابع، ٩ أصحاب محال الكتب، ٢ فى المحاماة، ١٢ طبيبًا، ٥ جراحين، ٥ صيادلة، ٣٠ معلما، ٦ مغنيين، ١ جزار حلال، ١ مدرس)؛ ٩ من العمال (١ عامل تقطير، ١ غاسل صوف، ٢ صانع شعر مستعار، ٥ من البوابين). كان أغلبهم من بسطاء الحال جدًا.

مع هذا كان البعض واسع الثراء: عندما مات أبراهام دو فونسكا، سمسار أوراق مالية، فى عام ١٧١٢، ترك ثروة هائلة من الماس، اللآلئ، الأحجار الكريمة، المرجان، الذهب والفضة[٣٤]. امتلكت أربع عشرة عائلة معداتها وأطقم ملاحتها لوازم سفرها والخاصة، امتلكت عشرون عائلة ضياعًا ريفية. كان هؤلاء قد اندمجوا فى الحياة العامة: جاكوب شيزكيا ماكادو Jacop Chizkya Macado، ابن مورد الجيوش (موسيس ماكادو Moses Macado، أحد أهم مديرى شركة أوترخت Utreccht واهتم بإنشاء بنك صرافة، بتنظيم مسابقة يانصيب والعمل على حفر قناة أوترخت – زودرزى Zuiderzee– (بحر الجنوب) – "حتى تصير هذه المدينة فى مثل قوة أمستردام"[٥٨]. فى عام ١٧٤٨، كان أحد أبناء عائلة دى بنتو وأحد أبناء عائلة إيمانويل ساسو من بين أهم مسئولى شركة الهند الشرقية[٦٩]. بعد عام واحد عين شخص آخر من آل دى بنتو مديرًا لشركة الهند

الغربية. فى بورصة أمستردام، أصبح لليهود الآن أماكنهم المخصصة لهم، مقاهيهم؛ صارت تجارة الأسهم والسندات تخصصًا يهوديًا.

كانت إحدى الوثائق التى تعود إلى شهر أبريل عام ١٧٣٩، والتى تحدد قواعد التجارة الاختيارية، موقعة من ثلاثين متخصصًا، كان من بينهم اثنان وعشرون يهوديًا (إسرائيل ريكاردو، دافيد سبينوزا، إيزاك أبرافانل، رودريجيز سيلفا، سالومون دى ميزا، كاردسو، ميندس، بيلمونت، إلخ...)(٥٨).

فى منتصف القرن، كان اليهود الأشكناز لا يزالون أفقر بكثير من السفارديم. فى عام ١٧٤٣، كانت هناك أسرة ألمانية واحدة يتجاوز دخلها ٨٠٠٠ جيلدر. تكفلت العائلات الأربعمائة الأكثر ثراءً من يهود البرتغال المقيمين فى أمستردام بالإنفاق على الثمانمائة أسرة من فقراء اليهود القادمين من ألمانيا ومن بولندا. فى عام ١٧٤٧، كتب أحد مسئولى طائفة السفارديم، الشاب إيزاك دى بنتو ما يلى: "لقد انخفض عدد دافعى ضرائب الطائفة من ٦٢٩ إلى ٦١٠ فى خلال ٢٥ سنة؛ وارتفع عدد الأسر المحتاجة للمساعدة من ٤٥٠ إلى ٧٥٠ أسرة فى نفس الفترة."(٥٨) فى أعوام ١٧٤٨، ١٧٦٩ و ١٧٨٥، طالبت الطائفة الحكومة بإلغاء أو تخفيض ضرائب الفحم والخبز بالنسبة للفقراء من أفرادها، وكان معظمهم من الأشكناز.

لكن حالة السفارديم تراجعت هى الأخرى. تدهورت تجارة السكر ومعامل تكريره، تجارة الأحجار الكريمة وورش صقل الماس؛ وحدهم الذين نجحوا فى التحول إلى تجارة الأوراق المالية، قد حافظوا على مكانتهم وساهموا فى تحديث المجتمع الهولندى.(٦٩) غير أنهم قد نسوا درس الحذر الذى لقنه يائيل نيسيم فى بيزا Pise، منذ قرنين وكذلك جوزيف دى لافيجا فى أمستردام منذ قرن: لا مضاربة إلا إذا أدت إلى خلق ثروات اقتصادية حقيقية. تلقى التجار البرتغاليون الضربة القاضية فى الخامس والعشرين من يوليو ١٧٦٣: بعد حرب السنوات السبع، أفلس واحد من أكبر المصارف المسيحية على إثر مضاربة متهورة فى البورصة، آخذًا معه البنك اليهودى جوزيف أرنت وشركاه. Josept Arendt&Co، ثم بنوك أخرى.(٥٨) فى أكتوبر، قدم تسعة من المصرفين البرتغاليين

(أصحاب البنوك) فى أمستردام التماسًا إلى محكمة المدينة مطالبين بالرأفة فى تطبيق القانون بشأن السندات والكمبيالات. قوبل بالرفض: اضطر جميعهم إلى إشهار الإفلاس. أما جوزيف أرنت فقد هرب.

فى العام التالى وضع واحد وأربعون مصرفيًا (من بينهم ستة وثلاثون يهوديًا) قواعد جديدة لتفادى مثل هذه التصرفات الطائشة المتجاوزة. غير أن الدرس لم ينفع أحدًا: استؤنفت المضاربات، وفى عام ١٧٧٣، كانت هناك أزمة أخرى، جاءت من لندن هذه المرة، أدت إلى إفلاس الشركة الإنجليزية للهند الشرقية، التى استثمر فيها بعض السفارديم الهولنديين مبالغ طائلة[٦٩]. لحماية رجال البنوك التابعين له، فى المقام الأول، رفض بنك إنجلترا خصم الكمبيالات المسحوبة على سوق أمستردام المالية.

أفلس الجميع. تراجعت الطائفة اليهودية فى أمستردام الآن مع تراجع المدينة، خاصة السفارديم. فى تلك السنة اقترح إيزاك دى بنتو (نفس الرجل)، الذى صار مسئول الطائفة الهولندية، لتعويض الخسائر واستدراك الأعمال، إلغاء تقديس يوم السبت وأيام الأعياد. وقد أضاف فى نص رائع: "إن أمتنا (يهود البرتغال) تفتقر عامًا بعد عام، تضررت مؤسساتنا التجارية، أفلس كثير منها، أظهر بعضها بذخًا وتبذيرًا مغاليًا جدًا. الطبقة الوسطى فى غاية الحذر. تجارة الأوراق المالية والتجارية التى انغمس فيها أهم رجالنا أسفرت عن كارثة. قصارى القول إن الشعب اليهودى البرتغالى قد أمضى صيفه ويقترب الآن من شتائه، بينما يندفع إلى هنا الألمان، محل سخريتنا والأفقر منا، إنهم فى الحقيقة أكثر منا جلدًا على العمل، بعد أن قطعوا شتاءهم وترأى أمامهم مستقبل زاهر. نحن نسقط وهم يصعدون[١١٧]".

إنهم يصعدون، لكنهم لن يبقوا هنا، لأن الأشكناز يرون أن مستقبلهم يرسم فى مكان آخر: إنهم يرحلون إلى إنجلترا، فى جماعات. لقد سحبت معاهدة فرساى، ١٧٨٣، من هولندا حق التجارة فى المحيط الهندى، لم تعد الشركة الهولندية للهند الشرقية توزع أرباحًا وأفلس كثير من مساهميها. غادر كثير من يهود أمستردام (حوالى عشرين ألفًا، أى عشر عدد سكانها) إلى إنجلترا، حيث سيقومون بتطوير تجارة الأوراق التجارية. لقد تحققت نبوءة منساه بن إسرائيل بعد مائة وثلاثين عامًا.

ثورة مالية

فى بريطانيا العظمى

الحقيقة، أن اليهودية الإنجليزية، منذ بداية القرن الثامن عشر، قد اتجهت كلية نحو إقامة مؤسسات مالية عامة. وكما يحدث عند تصاعد نفوذ إحدى الأمم، لا يكون هناك رخاء خاص، ما لم يسبقه إرساء دعائم دولة قوية. ولا توجد دولة قوية بدون مؤسسات مالية نزيهة، وبالتالى بدون ممولين ثقات يقدمون قروضًا طويلة الأجل. سوف يكون هذا، مرة أخرى، وكما حدث كثيرًا عبر التاريخ، هو دور اليهود: بناء الأسس المالية والتمويلية للقوة الجديدة البازغة. لقد سمح إنشاء منصب أمين الخزانة العامة وتشكيل مجلس الخزانة بتنظيم المالية العامة وتخليص الدولة من الوسطاء الإقطاعيين الذين يتطفلون عليها، تلك الجماعة من "الضباط" الذين اشتروا مناصبهم وكانوا غير قادرين على تمويل الدولة. لقد بدأت صورة من صور التأميم لمالية الدولة يقود حركتها اليهود، جالبين من الخارج الموارد اللازمة ومساعدين فى توظيفها.

فى عام ١٧٠٠، شيد فى لندن أول معبد لليهود السفارديم، ثم تلاه إنشاء أول مطبعة عبرية للكتب. أقيمت هاتان الركيزتان الأساسيتان لكل طائفة ذات سيادة فى لندن بعد خمسين عامًا من وجودهما فى هولندا وقبل قرن من حدوث ذلك فى فرنسا.

وفى لندن، خلال نفس العام، حصل أحد المصرفيين اليهود الهولنديين، سالومون دو مدينا **Salomon de Medina**، على لقب فارس، الذى منحه إياه جيوم الثالث **Guillume III**. كوّن مدينا ثروة طائلة من خلال دفعه (سنويًا) مبلغًا قدره ٦٠٠٠ جنيه إسترلينى إلى المارشال مارلوبورغ **Marloborough**، خلال كل حملاته، فى مقابل أن يكون أول من يبلغه المارشال عن "حالة التسليح" بعد انتهاء المعارك فى راميلايس **Ramillies**، أودينارده **Audenarde** و مالبلاكيت **Malplaquet** (بلنهايم بالنسبة للإنجليز **Blenhiem**) معلومات سرعان ما كان يستفيد منها فى البورصة. مازال كل شىء يمكن فى شبكات الاتصال الفكرى والتجارى.

ثم تحسنت هذه الشبكات. وصل تجار آخرون من أمستردام يحملون بضائع من أنحاء القارة يجرى مبادلتها بمنسوجات مانشيستر. كشف عدد جريدة "المشاهد Spectator" الصادر فى ٢٧ سبتمبر ١٧١٢ عن هذه الشبكة التى لم تتوقف، فى الواقع، عن أداء دورها منذ أكثر من ألف عام: إن يهودا منتشرين جدًا عبر موانئ العالم التجارية لدرجة أنهم أصبحوا الأدوات التى تتحاور من خلالها الأمم المتباعدة مع بعضها. وحافظت بهم الإنسانية على علاقاتها. كانوا مثل دسارات ومسامسير مبنى كبير، لا غناء عنهم مطلقًا حتى لا ينهار كل شىء، مع ذلك لا يلقون ما يستحقون".

وفى الواقع، أنهم لم يلقوا إلى الآن ما يستحقون، فى إنجلترا، على الرغم من دورهم الجوهرى فى إيقاظ اقتصاد البلاد من غفوته.

فى عام ١٧٥٣، رفض مشروع "بيل" Bill لتجنيس اليهود، الذى كان يهدف إلى منح اليهود المولودين خارج إنجلترا نفس حقوق يهود إنجلترا. لم يعق هذا عددًا من يهود ألمانيا وبولندا مطلقًا من التدفق على إنجلترا. كان كثير منهم وسطاء تجاريين فى بعض السلع (القمح، الصبغات، التوابل، القنب، الحرير) وفى العملات الأجنبية. آخرون كانوا، صُياغًا أو رجال بنوك، بعضهم تخصص فى تقديم القروض للدولة، واضعين مبالغ طائلة للغاية تحت تصرف التاج. من بينهم، أحد التجار القادمين من ألمانيا، إيزاك ريكاردو Issac Recardo. منح الاستقرار المالى والسياسى للبلاد، الثقة إلى الممولين، الذين شاركوا فى هذا الاستقرار. من أمستردام، كتب إيزاك دى بنتو، فى عام ١٧٧١، كما لو كان يغبطهم "إن الدقة المتناهية والتى لا يمكن الإخلال بها فى دفع هذه الفوائد وفكرة الضمان البرلمانى لهذه القروض قد رسخت الائتمان فى إنجلترا لدرجة تقديم قروض فاجأت وأذهلت أوروبا" ثم أضاف أنه فى إنجلترا "لم يعد أحد يكتنز أمواله فى الخزائن" وأنه "حتى البخلاء أنفسهم قد اكتشفوا أن تدوير أموالهم جيدًا، شراء سندات الدولة، أسهم الشركات الكبيرة أو أسهم بنك إنجلترا، أفضل لهم من تجميدها[١١٧]". كانت الثقة كبيرة لدرجة أن الحكومة، فى ظل وضع اقتصادى صعب، والتى تسعى للحصول على قروض بقيمة ثلاثة ملايين جنيه إسترلينى ، قد وجدت من يقدم لها خمس! "يكفيها كلمة واحدة إلى أربع أو خمس من مؤسسات سوق لندن المالية"[٦٩]

أصبحت إنجلترا قلب العالم الاقتصادى. أدى فيها بعض اليهود دورًا بالغ الأهمية: أصحاب بنوك، وسطاء، ممولون للدين العام، مساهمون (من بين آخرين) فى الثورة التمويلية الضرورية قبلًا لقيام الثورة الصناعية. هنا أيضًا، أتى اليهود بالجديد – هذه المرة، بالنقود – إلى البلد الذى رحب بهم. لا مجال للقبول باليهود إن لم يظهروا فيما يمكنهم أن يساعدوا مضيفيهم. تدفق المهاجرون: زاد عدد اليهود الإنجليز من ٦٠٠ نسمة عام ١٧٠٠ إلى ٢٠ ألفًا فى نهاية القرن. كوّن دافيد ريكادو، أحد ابناء إيزاك، المولود فى إنجلترا عام ١٧٧٢، ثروة كبيرة من خلال عمله بالبورصة وكان فى العشرين من عمره آنذاكِ، ثم كرس نفسه لدراسة النظرية الاقتصادية [٣٣٩] من أجل تطويرها.

فى الهند التى كانت لا تزال تحت السيطرة الهولندية، وفى مدينة كوشان **Cochin**، استقر دافيد إزكيل راهبى **David Ezechiel Rahebi**، أحد مسئولى الشركة الهولندية للهند الشرقية. فى ١٧٦٠، تعرف على آل بن إسرائيل **Les bene Isrsel** اليهود المقيمين فى المدينة منذ عهد تيتوس **Titus**. سوف يبقى نسله فى كوشان مدة خمسة وعشرين عامًا اشتغلوا فيها باستيراد الكتب. فى عام ١٧٩٨، وصل إلى كالكوتا المدعو شالوم كوهين **Chalom Cohen**، أحد تجار مدينة حلب، الذى كوّن ثروة من العمل بتجارة الحرير وصبغة النيلة الحلبية فى مدينة بناريس **Béarés**، إلى أن اختير صائغًا لحاكم لوكناو **Lucknow**. وفى مدن مِدْرَاس، كالكوتا، بومباى وهونج كونج، ساهمت عائلات سالومون، كاسترو وساسون فى أولى خطوات الاستعمار الإنجليزى واتجهوا إلى تجارة الماس، الأحجار الكريمة، القطن، الجوت والتبغ.

الأمل الأمريكى

فى عام ١٧٢٨، افتتح أول معبد يهودى فى أمريكا الشمالية، فى مدينة فيلادلفيا. أقيم آخر فى مانهاتن بعد ذلك بعامين[١٠٦]. فى عام ١٧٠٤، "سمح" البرلمان البريطانى لليهود

بالإقامة فى المستعمرات الإنجليزية... حيث كانوا موجودين بالفعل منذ أكثر من قرن!. استقر العديد من المهاجرين فى مدينة شارلستون **Charleston**، فى سافانّا **Savanna**، فى نيوبورت **New port** حيث تتحكم طائفة قوية من التجار فى تجارة العبيد وتجارة الروم[٥٥].

فى عام ١٧٥٠، كان إجمالى عدد اليهود فى أمريكا الشمالية بأكملها ألفين وخمسمائة نسمة. فى عام ١٧٦٨ شيد أول معبد فى كندا، معبد شريات إسال **Shearith Issael** فى مونتريال. نحو عام ١٧٧٠، شارك أرون لوبيز **Aaron lopez** (أول من حصل على الجنسية من اليهود، فى عام ١٧٦٢، مواطن من ماساشوستس) فى نيوبورت، إيزاك دى كوستا فى شارلستون، مع آخرين فى تجارة العبيد[١٠٦].

ونظرًا لاستخدام العديد من العملات الأجنبية بأسعار صرف تتباين باستمرار، ولأن السداد يجرى بالنقود أو بالحبوب أو الفراء، أصبح بعض اليهود، مع آخرين، من السماسرة. كانوا يحصلون الشيكات، يحولون النقود إلى الخارج، يشترون ويبيعون سندات الدولة والبضائع. كما حدث فى إنجلترا فى تلك الوقت، تكفل البعض بإنشاء خزانة عامة، أداة جوهرية لسيادة الدولة: لا دولة بلا ميزانية، أى بدون ضرائب وبدون قدرة على الإقراض.

من جهة أخرى كانت الضرائب هى التى أشعلت حرب الاستقلال فى عام ١٧٧٣: حدث فى ميناء بوسطن، أن قامت جماعة من المستعمرين، اعتراضًا على الرسوم الجمركية المفروضة على الشاى، بإلقاء حمولة إحدى السفن الراسية بالميناء فى البحر. فى التاسع عشر من أبريل ١٧٧٥، سجلت معركة لكزينجتون **Lexington**، بداية الاشتباكات المسلحة. جعل إعلان الاستقلال فى ١٤ يوليو ١٧٧٦ من الولايات المتحدة الأمريكية أول بلد فى العالم يمنح اليهود مساواة سياسية تامة[١٠٦]

أدخل جون لوك **John Locke**، الذى وضع منذ ١٦٧٠ دستورًا لولايتىّ كارولينا الاثنتين، فيه بندًا لحماية "اليهود، الوثنيين ومرتدين آخرين". أما دستور بنسلفانيا، الذى وضعه وليم بن **William Penn** فى عام ١٦٨١، والذى سوف يستخدم كنموذج عند وضع دستور الولايات المتحدة، فإنه ينص (دستور بنسلفانيا) فى بنده التاسع على:

"أن الطبيعة قد منحت كل البشر الحق الذى لا يسقط بالتقادم فى أن يعبدوا العلى القدير وفق ما توحى به ضمائرهم ويؤكد دستور فرجينيا، الصادر فى ١٧٧٦ على : "أن الإنسان يستطيع أن يتمتع بحرية ممارسة الديانة التى يعتقد فيها".

سوف يكتب الرئيس وودرو ويلسون Woodrow Wilson فيما بعد أن التوراة قد مثلت نموذجًا لواضعى الدستور الأمريكى: "لقد تذّكر المستعمرون تلك المقاطع من التوراة التى تنتقد السلطة الملكية ونزعت عن التاج معطف القدسية، جاعلة من المجتمع العبرى نموذجًا للحكومة اقتدى به روادنا. إننا نجد فى روح دستورنا ما كان موجودًا فى قلب التنظيم اليهودى الذى تعود السلطة الأسمى فيه إلى المبادئ ("إن التمرد على الطغاة طاعة لله")، وكذلك لأنها كانت سابقة آلهية لديمقراطية محضة.

انتهت حرب الاستقلال فى ١٩ أبريل ١٧٨٣ بالتوقيع على معاهدة باريس. أسفرت الحرب عن ستة وعشرين ألف قتيل، أى أكثر نسبيًا مما خلفته أى حرب سابقة، بالنسبة للأمريكان.

فى ١٧٨٧ ، أرسلت كل ولاية مندوبين عنها إلى مؤتمر فيلادلفيا، المُكلف بكتابة دستور الوحدة الذى وافقت عليه الولايات بعد ذلك. كانت روح التوراة حاضرة هنا أيضًا: كان أول مشروع لختم الاتحاد يمثل اليهود عند عبورهم للبحر الأحمر، يتعقبهم الفرعون. رفض جفرسون فرانكلين Jefferson Franklin وأدامز Adams هذا الاقتراح وفضلا عليه نقش النسر[١٠٦]. ومع ذلك فقد وضعا فوق ناقوس الحرية تعبيرًا مأخوذًا من سفر اللاويين: "وتنادون بتحرير أهل الأرض كلها" – (سفر اللاويين الإصحاح الخامس والعشرين، الآية العاشرة).

فى أبريل ١٧٨٩، أصبح جورج واشنطن – الذى كانت تحفظاته تجاه اليهود واضحة فى خطاب ١٨ أغسطس ١٧٩٠ الموجه إلى طائفة نيوبورت – نيو بورت "New Port"– أول رئيس للولايات المتحدة. فى ١٧٩٢، أنشأ أربعة وعشرين تاجرًا من نيويورك أول بورصة صرافة فى المبنى رقم ٨٦ شارع وول ستريت، فى نيويورك فى عام ١٧٩٥، اشترط أحد القوانين الإقامة على الأرض الأمريكية لمدة خمس سنوات للحصول على الجنسية الأمريكية. حصل عليها ثلاثة آلاف يهودى من بين ٣,٩ ملايين من السكان:

مزارعون، سماسرة، مصرفيون، مثل موردخاى شيفتول Mordecai Sheftall، فرنسيس سلفادور Francis Salvador أو إيزاك موسيس Issac Moses الذى أنشأ فى ١٧٨١ بنك أمريكا الشمالية بمشاركة أليكسندر هاملتون Alexandre Hamilton[١٠٦]. وإليكم مسيرة رجلين من رجال المال: دافيد فرانكس David Franks وحايم سالومون Haym Salomon.

مولود فى فيلادلفيا فى عائلة من رجال البنوك الألمان، رحل دافيد ساليسبرى فرانكس[٥٥] إلى كندا للالتحاق بالمتمردين عندما غزوا ذلك البلد عام ١٧٧٥. قام بتمويل الجيش من ماله الخاص. بعد الفشل الذى تعرض له فى كندا، عاد إلى فيلادلفيا، فى يونيو ١٧٧٦، وبما أنه يتحدث الفرنسية صار ضابط اتصال مع قوات الأميرال إيستانج Estaing، قائد القوات البحرية الفرنسية. عين بعدها مساعد معسكر الحاكم العسكرى فى فيلادلفيا وتولى الإشراف على حامية وست بوينت West Point. وعندما وقع هذا الحاكم فى الخيانة وحاول تسليم وست بوينت إلى الإنجليز، لم يتبعه فى ذلك. بعد أن صار دبلوماسيًا، انضم فى باريس إلى بنجامان فرانكلان Benjamin Franklin، سفير المتمردين، وحمل إليه نسخة من المعاهدة التى تعترف بالاستقلال الأمريكى. أصبح قنصلًا فى مارسيليا، تفاوض عام ١٧٨٦ لتوقيع اتفاقية مع المغرب. فى عام ١٧٨٩ منحه الكونجرس ٤٠٠ أكر من الأرض اعترافًا وتقديرًا للخدمات التى أسداها للبلاد. (الأكر يساوى مساحة فدان تقريبًا)

فى عام ١٧٧٥، غادر حايم سالومون[٥٥] بولندا. كان فى الثلاثين من عمره عندما حط رحاله فى نيويورك وخدم فى القوات الألمانية لمقاطعة هيس التى جاءت إلى هناك لمساعدة أميرهم الذى صار ملكًا لإنجلترا. فى عام ١٧٧٦، ارتاب الإنجليز فى أنه يتجسس لحساب المتمردين وألقوا به فى السجن. تمكن من الفرار من السجن وحث جنود كتيبته على الهرب من الخدمة. استأنف مهنته كوسيط تجارى وتزوج براشيل فرانكس، ابنة فرانكس السابق ذكره. ألقى القبض عليه مرة أخرى بتهمة التجسس، عمل مترجمًا للألمان فى خدمة الإنجليز، هرب مرة أخرى، عاد إلى فيلادلفيا، أصبح موردًا للقوات الفرنسية التى يتكلم لغتها أيضًا. وفى غضون ذلك، كانت هناك قصة أخرى تتعلق بالأموال العامة: قامت الحكومة القارية بطبع أوراق مالية بلا حدود، لعجزها عن جباية الضرائب. فى مايو

من عام ١٧٧٦، كان الجيش على حافة الإفلاس. فى الشتاء التالى مات بعض الجنود جوعًا. قام ناظر (وزير) مالية الحكومة المؤقتة، روبرت موريس **Robert Morris**، بتعيين حايم سالومون "وسيطًا لوزير المالية"(٥٥). من بداية ١٧٨١ إلى يوليو ١٧٨٢، كان هذا الأخير قد استثمر ٢٠٠٠٠٠ ألف دولار فى سندات الدولة، مبلغ لايستهان به، كان أول ممول للخزانة الأمريكية. وعندما ساءت أحوال الحرب، فى نهاية أغسطس ١٧٨٢، ولم يعد أحد يرغب فى أن يشترى منه سنداته. أخذها سالومون لحسابه الخاص انتظارًا لاستثمارها فى العام التالي(١٠٦). كما أقرض المال بصفة شخصية إلى مسئولى الجمهورية الأمريكية الفتية، منهم جيمس ماديسون **james Madison**، سكرتير الولاية، ثم رابع رئيس للولايات المتحدة بعد ذلك (الذى اعترف بذلك فى مذكراته). دون أن يطالب مطلقًا باسترداد مستحقاته. مات الرجل منسيًا، بعد أن لعب دورًا حاسمًا فى انتظار جيوش القارة من خلال تأمين احتياجاتها المالية.

فى عام ١٨٠١، طلب توماس جيفرسون **Thomas Jefferson** ثالث رؤساء الولايات المتحدة من بعض المستكشفين الذين أرسلتهم الدولة إلى سهول الغرب الشاسعة أن يحملوا إليه إجابة عن السؤال التالي: "بما أنه ليس من المستبعد أن تكون القبائل المفقودة من بنى إسرائيل فى مكان ما من هذه السهول، فما هى العلاقات التى تربط بين طقوس الهنود الحمر وطقوس اليهود؟(١٠٦)".

الباب الرابع

سفــر الأعــــداد

(١٧٨٩ - ١٩٤٥)

١- ناقلو الثورة الصناعية.

٢- تخيلات ثلاثة.

٣- أربعة مواطن للنشأة.

٤- قانون العدد.

٥- الجديد، الأزمة، القديم.

٦- اقتصاد المحرقة.

تخلص العالم من السيطرة الإقطاعية والدينية. أطاحت الديمقراطية والسوق بالنظم الملكية والإمبراطوريات. ربما أمكن الآن الاعتقاد بأن الاندماج فى المجتمعات الجديدة سوف يحقق ما لم تستطع الضغوط والاضطهادات تحقيقه: تبديد الشعب اليهودى فى سطحية العدد، فى المعارك بين الطبقات الاجتماعية والأمم الجديدة. لكن هذا لم يكن صحيحًا. سوف يبقى حيًا، لاعبًا لدور أكثر تميزًا أيضًا فى تحولات العالم وفى اقتصاده.

شرع المجتمع الغربى فى تحقيق الثورة الصناعية. سيقوم الشعب اليهودى الذى لم يعد محصورًا فى مكان أو مهنة بعينها باكتشاف الأقاليم المحيطة والمهن الجديدة التى توفرها.

هنا أيضًا، صوّرت موسى خماسية الأسفار التاريخ. سفرها الرابع – سفر الأعداد، أو "فى الصحراء"(٩٠) – يدور كأنه استعارة لفترة القرن ونصف القرن التى امتدت من الثورة الفرنسية وحتى المحرقة **Le Shoah**. إنه يروى إقامة الشعب العبرانى فى سيناء، على مدى ثمانية وثلاثين عامًا ونصف العام، من العام الثانى للعبور وحتى موت موسى بالقرب من أرض كنعان. يبدأ السفر بإحصاء (كم أسرة عليها أن تقتات على المن، كم رجل ينبغى عليهم دفع الضرائب وكم منهم يجب أن يحمل السلاح) وينتهى بكشف حساب آخر (كم منهم سوف يدفن فى أرض المعاد). فى البداية كما فى النهاية، كان العد يجلب الشؤم، فى أفضل الأحوال، أحصينا عدد من يجب عليهم دفع الضرائب، فى أسوأ الأحوال، نحسب عدد الجنود فى حرب قادمة – لن يخرج أحد ممن وقعوا فى فخ الصحراء حيًا.

على النحو ذاته، تروى لنا الفترة التى تغطى هذا الفصل رحلة، عبر أوروبا بصورة أساسية، أملاً فى الوصول إلى أراضٍ موعودة سوف يموت فيها أغلبهم.

فى تلك الرحلة يدور أيضًا كل شىء حول الأعداد. طوال الألفية السابقة ظل عدد اليهود ثابتًا بينما زاد عدد سكان العالم أربعة أضعاف[٨٦]. فى عام ١٨٠٠، لم يكن هناك إلا أكثر من أربعة ملايين يهودى بقليل، أى أقل من عددهم فى وقت تدمير الهيكل[٣٥]. أكثر من ثلاثة ملايين كانوا يعيشون فى أوروبا، غالبيتهم فى روسيا وفى الإمبراطورية النمساوية. وعاش قرابة المليون فى أماكن أخرى، فى البلاد الإسلامية بصورة أساسية.

بدأت حينذاك عملية نمو عادية: فى عام ١٨٨٠، صار عددهم ثمانية ملايين، منهم سبعة فى أوروبا وفى روسيا، ثم أصبحوا أربعة عشر مليونًا فى عام ١٩١٤، وستة عشر مليونًا فى عام ١٩٣٩، كان نصفهم تقريبًا من الفقراء المتكدسين فى أوروبا الشرقية. كما لو كانوا محتجزين هناك فى معسكر اعتقال قبل أن يختفوا من فوق الأرض.

كما جاء بسفر التوراة الرابع، كان العدد يجلب سوء الطالع.

وعلى من يلومونهم لأنهم مختلفون، لم يعد لليهود سوى رد واحد: بذل أقصى جهد حتى لا يكونوا كذلك، دون أن يكون ذلك سببًا، بالنسبة للغالبية، فى الابتعاد عن ثقافتهم. لم يعد فى الإمكان العيش فى دائرة مغلقة دون أن يحل بهم الفقر، المشاركة فى نمو الجميع يقتضى الاندماج فى المجتمع. دون أن ننسى أن لا شىء يمكن أن ينفع اليهودى دون أن يكون نافعًا أيضًا لمن يحيطون به. كما حدث فى الصحراء، عَبَدَ البعض العجل الذهبى، وأخذ آخرون بالشرائع الجديدة، اخترعوا مهنًا لم تكن موجودة، أوجدوا ثروات جديدة. غرق الكثيرون فى متاهة العدد وأضاعوا فيه هويتهم. وبالمقابل وجدها آخرون فى الفردية، التأقلم والاندماج، المنافسة، رفض القواعد الجماعية، روح المؤسسة، دون أن تختفى مقتضيات التضامن.

ولأن حقبة سفر الأعداد كانت أيضًا حقبة المغامرات الشخصية، الاختيارات الفردية. كان ذلك زمن الرجال العظام، سلالات المشاهير من المفكرين، رجال الصناعة، رجال المال، وكما حدث فيما مضى، سيطر فيه ذلك الهاجس اليهودى: تعظيم قيمة الأسماء. غير أنها كانت أيضًا حقبة الجماعات المجهولة، العمال الذين تمت التضحية بهم والمتمردين، بناة الحداثة المؤثرين. قد يبدى البعض شيئًا من التحفظ لرؤيتنا نذكر هنا بعض تلك النجاحات:

إننا لم ننس بعد أنه لم يمض زمن طويل ربما كانت الإشارة فيه إلى شخص ما باعتباره يهوديًا تعنى الحكم عليه بالإعدام. لكن ذلك لا يمنع من: أن التسمية كما تقول التوراة هى أيضًا، شرط الأبدية.

١ - متصلون بالثورة الصناعية

لدينا أسطورة أخرى يجب أن تقوض: مشغولاً تمامًا بإقراض الأمراء والدفاع عن نفسه ضد القمع والاضطهاد، لن يتسنى للشعب اليهودى المشاركة فى الثورة الصناعية. كذب ما بعده كذب. لقد رأينا من قبل، بروز العديد من اليهود فى بدايات الصناعات الهولندية، البريطانية، الألمانية، البولندية والنمساوية، وذلك فى القرون السادس عشر، السابع عشر والثامن عشر. بل وبصورة أكبر أيضًا فى القرن التاسع عشر: سوف يكون اليهود فى صدارة التحولات التكنولوجية، الصناعية والمالية الهائلة التى سمحت بالدخول فى مرحلة الإنتاج الكبير(*). سوف تتبدى الديمقراطية والسوق هنا متلازمتان... لا يمكن الفصل بينهما. الدخول فى إحداها سوف يعجل بالدخول فى الأخرى.

مثل الآخرين،

كل شخص ملزم بنفسه

واحد بعد الآخر، سوف تنهار الأنظمة الإقطاعية والإمبراطوريات المستبدة. انحلت الاتحادات والنقابات وتفككت الطبقات الاجتماعية المغلقة. وشهدت الكنائس تراجع نفوذها. فقدت الطوائف مبررات وجودها الدفاعية. وبالنسبة للكثير مال معنى اليهودية ذاته – بنية

(*) تعبير اقتصادى شهير ظهر مع الثورة الصناعية وتطور النظرية الاقتصادية. يشير التعبير إلى طريقة الإنتاج التى تستخدم عناصره الأربعة الأرض، المال، العمل والإدارة بأمثل طريقة والذى تنخفض فيه أسعار التكلفة إلى أقل حد ممكن. والذى تلعب فيه المنافسة الحرة دورًا كبيرًا.. (المترجم – عاصم عبد ربه)

لضمان البقاء، إطار واق ومرجع روحى مواس – إلى التوارى والزوال. يريد كل فرد أن يؤكد أنه مواطن حر، مستقل، علمانى، أن يعيش ويعمل وسط الآخرين، فى نظام الاقتصاد الكبير الجديد وليس بعد فى ظل الأنظمة الحرفية حبيسة حارات اليهود. يريدون أن يقبلوا جميعًا، كما كان من قبل موردو البلاطات الملكية، فى بعض البلاد القليلة فى وسط أوروبا.

بدأ تحرر اليهود تحديدًا حيثما كانوا قريبين من السلطة: داخل الإمبراطورية، فى بروسيا وفى الإمارات الألمانية. فى عام ١٧٨١ ثم فى ١٧٨٩. أعفى الإمبراطور جوزيف الثانى Joseph II كل يهود النمسا من حمل العلامة المُمَيِزة ومن دفع الضرائب المفروضة عليهم، صرح لهم بأن يصبحوا حرفيين، مزارعين، مدرسين، ضباط. وقام كثير من الأمراء الألمان بالمثل، ظلت أهم الإمارات، بروسيا، غير متسامحة مع اليهود.

فى فرنسا، بينما كانت حركة التمرد تستعر وتزمجر، لم يتعد عدد اليهود فى الألزاس الخمسة وعشرين ألفًا، سبعة آلاف وخمسمائة فى متيز Metz، خمسمائة فى باريس، بضع آلاف فى بوردو وفى أفنيون، حفنة فى تولوز وفى بعض مدن الجنوب Lemidi الأخرى. لم يكن هناك واحد منهم ينتمى إلى البلاط، أو على الأقل معروف بأنه كذلك. عاش ثلاثة أرباعهم فى الريف وسط ظروف مهينة للغاية. ساورَ الكنيسة القلقُ بسبب الاعتراف بغير الكاثوليك.

كان يهود بوردو، بايون ومتيز وحدهم المسموح لهم بتحرير عرائض التظلم. "البرتغاليون" – أكثر ثراءً بشكل عام من "يهود اللورين" – ظلوا على حذر، متخوفين أن يخلط بينهم وبين مقدمى القروض المضمونة متواضعى الحال الذى يعيشون فى الألزاس، محل احتقار مدينيهم وكراهيتهم. كانوا يطالبون فقط بالحق فى تنظيم أنفسهم فى طائفة ومزاولة المهن التى لا تزال النقابات تمنعهم منها. فى أماكن أخرى من فرنسا، حيث لا يزال محظورًا على اليهود الإقامة بشكل سافر، لم تذكرهم عرائض التظلم إلا فيما ندر، إن لم يكن ذلك لشجب وانتقاد، فى الألزاس، "سلوك اليهود البغيض الذى يدفع المسيحيين الفقراء إلى الاقتراض بما يفوق طاقاتهم على السداد[١٦٤]".

في زمن مجلس الطبقات، كانت العوام تستقبل جرادى Gradis ممثل البرتغاليين - الذى تعيش أسرته فى المنطقة منذ ثلاثة قرون - وصاحب السفن القاطن فى بوردو بترحاب كبير: بورجوازى، لم يكن نبيلاً ولا قسًا. فى ٢٤ ديسمبر ١٧٨٩، تمكن جرادى من أن ينتزع من الجمعية الوطنية الاعتراف لعدة آلاف من يهود الجنوب الغربى بالحقوق المدنية الكاملة، والتى منحت فى ذات الوقت إلى حوالى مائة ألف من البروتستانت الفرنسيين. لكن لا مجال لمنحهم حقوقًا خاصة، لا كديانة ولا كشعب. لا اعتراف بمحاكمهم الدينية، ولا بقواعدهم الغذائية، ولا بأعيادهم. لا مجال للسماح لهم بتنظيم أنفسهم سياسيًا ولا اقتصاديًا[٢٧]. على منصة المجلس التأسيسى، أطلق كليرمون - تونّير Clermont - Tonnerre هذه العبارة القاطعة: "يجب رفض كل مطالب اليهود كأمة، والسماح لهم بكل شىء كأفراد؛ حتى لا يشكلوا داخل الدولة لا هيئة سياسية ولا طبقة..."[١٦٤]. لقد قيل كل شىء لهم كما لغيرهم، ها هو قد أتى زمن التزام كل شخص بنفسه.

ومع ذلك فإنهم لم يحصلوا على نفس الوضع القانونى الذى يحظى به المنتمون إلى ديانات أخرى. فى ١٢ يوليو ١٧٩٠، لم يعد هناك مجال لتطبيق الدستور المدنى الأكليروسى الذى صوت عليه المجلس التأسيسى على الحاخامات. ظلت رواتبهم على كاهل الطوائف، مثلها مثل مدارسهم، إعانات فقرائهم ومحاكمهم. بعد حملة كبيرة قادها بعض "البرتغاليين" يساندهم بعض الحلفاء غير المتوقعين - مثل الأب جريجوار Grégoire[١٧٩] الذى استلهم فى هذا الظرف بلايز باسكال Blaise Bascal -، فى ٢٧ سبتمبر ١٧٩١، اعترف لباقى يهود المملكة بنفس الحقوق. غير أن المجلس التشريعى لم يتخذ أى قرار بتطبيق ذلك، بعد ذلك قامت حكومة المؤتمر "التى أرادت تأسيس عبادة الكائن الأسمى "الله تعالى"، بإغلاق المعابد والكنائس أيضًا كما منعت استخدام اللغة العبرية[٢٧]. صار كل شىء أكثر سهولة مع حكومة المديرين Le Directoire، ابتداءً من عام ١٧٩٥. آنذاك جاء كثير من اليهود من باقى أنحاء أوروبا ومن القسطنطينية للإقامة فى فرنسا. أغنياء فى معظمهم، يتحدثون الفرنسية أصلاً، سرعان ما كونوا طائفة ضمت بضع مئات من الأسر. فى عام ١٧٩٥، أسس بير - ليون فولد Beer Leon Fould، أحد موطنى اللورين، أول مؤسسة بنكية يهودية فى باريس، شارع سان جورج.

أينما مرت الجيوش الثورية، عملت على تحرير اليهود. مثلما حدث عندما دكت مدافعها فرانكفورت فى أكتوبر ١٧٩٢ ودمرت الجيتو جزئيًا، سمحت لليهود الألمان - خاصة آل روتشيلد - بالخروج منه مصادفة تقريبًا، لم يجر إصلاح الأسوار المتهدمة. وألغت أيضًا شرط حمل العلامة المميزة لملابس اليهود وشرط أن تسبق أسماؤهم كلمة "بن" Ben.

فى أمستردام، فى ربيع عام ١٧٩٦، قامت جماعة صغيرة من اليهود المجتمعين مع بعض المسيحيين فى جمعية تسمى "Felix Libertas" استقبلت الكتائب الفرنسية استقبال المحررين. فى ٢ سبتمبر ١٧٩٦، تم التصويت فى مجلس الجمهورية على تحرير اليهود الهولنديين. حلت النقابات هناك، لم تعد هناك أى مهنة محظورة عليهم. حدث ما كان متوقعًا حدوثه بلا تأخير: أدى تحرير اليهود إلى تحطيم آليات التضامن التى وضعتها الطوائف، واعترض كثير من المسئولين اليهود على الإصلاحات الجارية. بدأ النزاع بين اليهود العلمانيين والدينيين فى المجال الاجتماعى.

استمر تحرر اليهود مع فتح بونابرت لجيتوهات فلورنسا، فينيسيا وفى عام ١٧٩٨ لجيتوهات الإمارات البابوبية فى روما وفى أيكونا. وبخصوص هذا الأخير كتب أحد شهود العيان: "يضع أفراد الطائفة قلنسوة صفراء اللون وشارة على الذراع تحمل نجمة داوود، ويعيشون متجاورين فى جيتو (حارة يهود) يغلق أثناء الليل. استبدلت القلنسوة وشارة الذراع بالوريدة ثلاثية الألوان، ألغى الجيتو. اندهش يهود أيكونا وتهللوا فرحًا عندما اكتشفوا أن أوائل الجنود الفرنسيين الذين دخلوا إلى الجيتو كانوا من اليهود[٢٩٣].

فى مارس عام ١٧٩٨، لدى وصوله إلى الإسكندرية، أصدر بونابرت إعلانًا مؤسسًا لمجلس يهود مصر. ولمنصب "الكاهن الأعظم[٣٠٥]" كان يأمل فى احتلال مدينة سان جان داكر (*) Saint - jean - d'Acre، ثم يتجه بعدها إلى أورشليم (القدس)، ليطلق من هناك إعلانًا آخر يدعو إلى إنشاء دولة يهودية مستقلة فى فلسطين قبل أن يضع يده على

(*) الاسم الذى أطلقه الصليبيون على مدينة عكا (بعد استيلائهم عليها) وعلى الإمارة الصليبية الصغيرة التى أقاموها فيها وحلوها.. (المترجم - عاصم عبد ربه)

دمشق[٣٠٥]. هرع الإنجليز لنجدة الأتراك، وأجبروه على التراجع، لم يتقدم بونابرت حتى أورشليم، وأدهشه ضيق نهر الأردن (وكأنه – نهر السين فى مدينة مونتيرو – La Seine â Montereau) أما نص إعلانه إلى الأمة اليهودية، الذى ينبغى أن يعود تاريخه إلى الأول من شهر فلوريال Floréal – العام السابع من عصر الجمهورية الفرنسية (٢٠ أبريل ١٧٩٩)، (مقر قيادة أورشليم)، فلم يتم نشره[٤٤١]. ولأنه أول نص "صهيونى" وفى نفس الوقت رؤية فكرية حول تحرير كل الشعوب، فقد كان جديرًا بأن يقرأ لما يقدمه من أفكار جديدة كليًا للقرنين المقبلين:

"من بونابرت القائد العام لجيوش الجمهورية الفرنسية فى إفريقيا وفى آسيا، إلى الورثة الشرعيين لفلسطين أيها الإسرائيليون، الأمة الوحيدة، التى استطاعت الفتوحات وقوى الاستبداد أن تحرمها من أرض أجدادها، آلاف السنين لكنها لم تستطع أن تسلبها اسمها ووجودها القومى! (...) انهضوا فرحين، أيها المشردون فى التيه! هذه الحرب التى لا مثيل لها فى التاريخ بأسره، خاضتها أمة دفاعًا عن نفسها وعن أرضها التى اعتبرها أعداؤها غنيمة يتقاسمونها وفق أهوائهم. الآن، تثأر هذه الأمة من ألفى عام من الخضوع والهوان (...) لقد أرسلتنى العناية الآلهية هنا على رأس جيش فتى، يقوده العدل ويمضى النصر فى ركابه. ستكون أورشليم مقر قيادتى وخلال عدة أيام سوف أكون فى دمشق، التى لم يعد قربها يمثل خطرًا لمدينة داوود. أيها الورثة الشرعيون لأرض فلسطين! إن الأمة العظيمة (فرنسا)، التى لا تتاجر لا بالرجال ولا بالأوطان على طريقة من باعوا أسلافكم إلى كل الشعوب (يوائيل الإصحاح ٤- الآية٦)، لا تدعوكم إلى غزو أراضيكم – إرثكم. لا، إنها تدعوكم فقط إلى أخذ ما قامت بفتحه بالفعل. وإلى أن تظلوا بدعمها وبإذنها سادة هذه الأرض وأن تحافظوا عليها رغم كل الأعداء. انهضوا! أظهروا أن كل القوى الطاغية لم تنل شيئًا من شجاعة أحفاد هؤلاء الأبطال الذين صنعوا مجد أسبرطة وروما (المكابيين ١٢، ١٥). اثبتوا أن ألفى عام من العبودية لم تفلح فى إطفاء جذوة هذه الشجاعة. أسرعوا! إنها اللحظة المناسبة، التى ربما لن تتكرر إلا بعد ألف عام، سارعوا باستعادة حقوقكم المدنية، مكانتكم بين شعوب العالم. إن لكم الحق فى وجود سياسى كأمة من بين سائر الأمم[٤٤١]".

لو أن هذا النداء كان قد أنيع على الملأ، ربما لم يلتفت إليه أحد: العودة إلى أرض صهيون لم تكن أمنية يهودية فى تلك الفترة. ومن هذا فلن يكون علينا أن ننتظر "ألف عام" وإنما مائة وخمسة وأربعين عامًا فقط، "حتى تحين اللحظة" لمثل هذه العودة.

لدى عودته إلى فرنسا، أراد بونابرت أن يجتذب أكبر عدد ممكن من اليهود إلى إمبراطوريته - "حتى تتقدم التجارة" - سيقول ذلك فيما بعد إلى أحد مرافقيه فى سانت هيلانة Sainte Héléne(*): ها هى مرة أخرى فكرة أن اليهود يجلبون الرخاء لمن حولهم، ما يخلقونه من ثروات للآخرين يفوق كثيرًا ما يأخذونه لأنفسهم، انتصار ما بعد الوفاة لسيمون لوزاتو Simone Luzzato، حاخام فينيسياولمنساه لمناساه بن إسرائيل Menassah Ben Israel، حاخام أمستردام...

فى هوسه بالمركزية، كان الإمبراطور يأمل، قبل أن يستقبلهم، أن يهيئ المقاطعات الفرنسية، أن ينظم علاقات الكنيسة وعلاقات الدولة وأن ينظم قانون الائتمان. وعليه، وبعد تأسيس بنك فرنسا عام ١٨٠٠ وقانونه الصادر ١٨٠٣، حدد نابليون سياسة للائتمان تحظر على كل شخص طبيعى العمل فى تقديم القروض إلا إذا أنشأ بنكًا: وبحكم ذلك Ipsofacto، توقفت كل أعمال المرابين اليهود فى الألزاس.

فى نفس الوقت بدا أن حاكمًا أوروبيًا آخر يتجه نحو تحرير اليهود هو الآخر: فى عام ١٨٠٤، رأينا قيصر روسيا الجديد، الذى اعتلى العرش منذ عام ١٨٠٠، أسكندر الأول Alexander 1er الذى يعيش على أراضيه الآن قرابة نصف الشعب اليهودى بأكمله بعد أن ضم جزءًا من بولندا، ليتوانيا وأوكرانيا ، يتحدث عن إدماجهم فى الدولة بدفعهم إلى مغادرة الجيتوهات من خلال السماح لهم بالعمل فى مجالات الزراعة والحرف اليدوية المختلفة. غير أن تلك الأمنية ستظل مجرد أمنية: لقد رفض الروس أن يمنحوا اليهود الأراضى والقبول بهم فى النقابات والاتحادات المهنية، كما رفض اليهود أيضًا التنازل

(*) جزيرة سانت هيلانة التى نفى إليها نابليون بونابرت منذ عام ١٨١٥ وظل بها حتى وفاته فى ١٨٢١.. (المترجم - عاصم عبد ربه)

عن تضامنهم الطائفى الذى يوفر لهم السلامة والأمن. لم يكن أحد يرغب فى الآخر.فى الإمبراطورية الفرنسية، وبعد أن حددت المعاهدة البابوية قواعد تنظيم الكنيسة الكاثوليكية وبعد أن أوضحت البنود الأساسية القواعد التى يمكن تطبيقها على البروتستانت وبعد أن وضع التشريع الخاص بالبنوك، بدأ نابليون فى الاهتمام بأمر مستقبل اليهود. أراد أولاً جمع ممثلين عن يهود كل البلاد الخاضعة لسلطانه ليجروا نقاشًا فيما بينهم[٣٠٥]. لكن عمه الكاردينال فيش Fesch حذره من ذلك: "ستقع نهاية العالم عندما يتجمع كل اليهود". حشد كيلّرمانKellermann(*) كل أعداء اليهود وتوجس شاتوبريان(**) من "إجراءات مفروضة، ستؤدى، شيئًا فشيئًا، إلى وقوع أموال العالم فى جيوب اليهود وسوف تجلب خرابًا شاملاً فى كل مكان[٤٤١]".

فى ٢٦ يوليو ١٨٠٦، قام بورتاليس Portalis، وزير الشئون الدينية، بعقد مجلس يضم مائة وأحد عشر مندوبًا من التجار المتعلمين وخمسة عشر حاخامًا قدموا من كل أنحاء أوروبا الإمبراطورية ليستخرجوا كل ما يتعلق باللاهوتية وبالسياسة فى الديانة اليهودية، وأن يستخلصوا كيف يمكن أن تتفق ممارسة الطقوس اليهودية مع الولاء تجاه الدولة. فى ٢٣ أغسطس ١٨٠٦، كتب نابليون إلى وزيره للشئون الدينية ليوضح له ما يتوقعه مع اجتماع كهذا:

"لم يحدث مطلقًا، منذ أن استولى Titus(***) على أورشليم، أن استطاع مثل هذا العدد من الرجال المتعلمين المنتمين إلى ديانة موسى أن يجتمعوا سويًا فى مكان واحد. مشتتين ومضطهدين، خضع اليهود إما لضرائب تعسفية جائرة، أو لإنكار علنى لعقيدتهم، أو

(*) فرانسو كريستون كيلرمان (١٧٣٥ – ١٨٢٠) نبيل فرنسى عمل بالسياسة بعد أن صار قائدًا لجيوش الإمبراطورية الفرنسية. أحرز انتصارات عظيمة أهمها فالمى. (المترجم – عاصم عبد ربه).

(**) الفيكونت دو شاتوبريان (١٧٦٨ – ١٨٤٠) – كاتب فرنسى شهير، عمل بالسياسة قبل أن يتفرغ تمامًا للأدب عام ١٨٣٠. عميد الرومانسية فى الأدب الفرنسى. (المترجم – عاصم عبد ربه)

(***) تيتوس• هو تيتوس فيلا فيوس قيصر فاسبا سيانوس أغسطس (٣٠ ديسمبر ٣٩ – ١٣ سبتمبر ٨١) (المترجم – عاصم عبد ربه).

التزامات وشروط أخرى وتجاوزات وتنازلات تتعارض مع مصالحهم ومع عقيدتهم (....) الخط المستقيم للعقيدة الدينية لا يمكن أن يرسمه معزولون؛ يجب أن يقره مؤتمر (مجلس) كبير من اليهود المتجمعين بصورة حرة وشرعية وأن يضم أعضاءً من الطوائف الإسبانية والبرتغالية، الإيطالية، الألمانية والفرنسية، أى ممثلى يهود أكثر من ثلاثة أرباع أوروبا[٤٤١]".

عم الحماس والبهجة فى أوساط الطوائف، الأمر الذى أثار قلق بلدان التحالف. فى ١٨٠٦، كتب مترنيخ **Metternich**[*]، سفير النمسا فى باريس، إلى الكونت ستاديون **Stadiohn**، وزير الشئون الخارجية فى فيينا: "كل اليهود يرون فى نابليون مسيحهم[٤٤١]". استنتجت الشرطة النمساوية من ذلك أن من المحتم مراقبة يهود النمسا، القادرين على مساندة الفرنسيين وربما التجسس لصالحهم.

فى البداية، دار نقاش حول اختصاص المحاكم الحاخامية، وخاصة بشأن شروط الزواج. أراد الإمبراطور أن يفرض على الحاخامات إقامة مراسيم الزيجات المختلطة. أجاب المجلس أن "عقيدتهم تأمرهم بمراعاة الشريعة الإلهية العليا مثلما يراعون قانون الحاكم فى الشئون المدنية والسياسية[٢٩٣]". هكذا وجد المجلس طريقة للسماح بالزيجات المختلطة... مع جعلها فى نفس الوقت غير قابلة للتحقيق. اقترح بورتاليس وقتها وضع نظام هرمى يقوم فيه بإدارة شئون كل طائفة، فى كل المدن، مجلس أعيان ينتخبه أرباب أكبر العائلات الخاضعة للضريبة فى الطائفة، وتقوم فيه الدولة بتعيين الحاخامات وصرف رواتبهم مثلما يجرى مع الكهنة الكاثوليك والقساوسة البروتستانت ومع ذلك – وهذا هو التجديد الكبير – هيئة عامة، "مجمع كرادلة" مركزى يشرف على كل الطوائف فى كل قطر من أقطار الإمبراطورية.

لصياغة ومناقشة نصوص المراسيم التى تدخل هذه المبادئ حيز التنفيذ، دعا نابليون فى ٩ فبراير ١٨٠٧، باسم السانهيدران، المجلس اليهودى الأعلى، إلى اجتماع

(*) هو الأمير كليمنص فينزل مترنيخ (١٥ مايو ١٧٧٣ – ١١ يونيو ١٨٥٩) سياسى ورجل دولة نمساوى – من أهم شخصيات القرن التاسع عشر. (المترجم – عاصم عبد ربه)

واحد وسبعين مسئولاً يهوديًا من يهود فرنسا وإيطاليا، معظمهم من التجار ورجال المال التوراتيين. لم يكن مسمى، ولا عدد ولا أبهة هذا المجلس متروكًا للمصادفة. بكل تأكيد. كان رئيس السانهيدران أحد المصرفيين من مواطنى مدينة بوردو، أبراهام فورتادو Abraham Furtado، الذى أعلن أن نابليون "هو سيروس (*)Cyrus العصر الحديث[٤٤١]". اتخذ فورتادو من حاخام ستراسبورج، دافيد سانتزهايم David Sintzheim أعلى مرجعية تلمودية فى ذلك الوقت، مستشارًا له.

بعد عام من المناقشات، صدرت فى ١٧ مارس و ٢٠ يوليو عام ١٨٠٨، أربعة مراسيم صالحة للتطبيق فى كل أنحاء الإمبراطورية[٣٩٢]:

المرسوم الأول يقسم اليهود بين "مجمعات" كان عليها من بين مهام أخرى، تحديد عدد المجندين اليهود المفروض عليهم تأدية الخدمة العسكرية، دون أن يكون لهم القدرة، كما يفعل المسيحيون، على شراء أحد البدلاء. كما حدد مواصفات زى الحاخامات تفصيلاً، كما هو قائم حتى يومنا هذا.

يحدد المرسوم الثانى وضعهم القانونى كمواطنين: لم يعد من الواجب اعتبار اليهود قومية على حدة ولا عزلهم عن الأمة الفرنسية. على كل شخص أن يختار لنفسه اسمًا ولقبًا. يقتصر اختصاص المحاكم الربانية بكل صرامة على القضايا الدينية. أما الموضوعات الأخرى وخاصة النزاعات الاقتصادية فإنها تتعلق بالتقنين المدنى الجديد وبالمحاكم الإمبراطورية – وهو ما حاول الحاخامات رفضه بلا جدوى. لقد كانت تلك هى نهاية دور "بيوت الدين" فى صياغة القانون الاجتماعى، المالى والتجارى، فى فرنسا على الأقل.

يتناول المرسوم الثالث "قمع التجاوزات المنسوبة إلى اليهود". لقد كان ترديدًا لما تسب إليهم منذ زمن طويل فى الألزاس. حظر عليهم منذ ذلك الوقت فصاعدًا ممارسة مهنة

(*) سيروس: بالفارسية كوروش – أعظم ملوك الفرس – فتح بابل وفك أسر اليهود وأعادهم إلى أورشليم وأعاد لهم كنوز الهيكل وقدم لهم الأموال لإعادة بنائه.. أثنى عليه «العهد القديم» لمآثره الجليلة.. يعتقد الكثيرون أنه ذو القرنين الوارد ذكره فى القرآن الكريم... (المترجم – عاصم عبد ربه)

تقديم القروض المضمونة بالرهون، مثلما حظرت على جميع المواطنين؛ فرض المرسوم تأجيل دفع كل الديون المستحقة لمدة عشرة أعوام؛ كما ألغيت تمامًا كل الديون التى قامت بالاتفاق عليها امرأة دون موافقة زوجها، أو أبرمها قاصر دون موافقة والديه. لافتتاح محل تجارى يجب على اليهودى أن يطلب شهادة من المحافظ أو مدير الشرطة فى محل إقامته، والذى لا يمكنه أن يمنحه تلك الشهادة إلا بعد اقتراع موافق من المجلس المحلى "يؤكد أن اليهودى المعنى بالأمر لم يمارس الربا ولا أى تجارة غير مشروعة". بذل أبراهام فورتادو Abraham Furtado، كل ما فى وسعه لتعطيل إصدار هذا المرسوم الذى يصفه بأنه "مرسوم مُهين(٢٩٣)". سوف يتمكن تدريجيًا من إلغائه فى جنوب فرنسا، فى الجنوب الغربى، فى إقليم الفوج Les Vosges، ثم فى ليفورت. ولم يحدث ذلك بالنسبة للألزاس.

ينص المرسوم الرابع على أن يهود الإمبراطورية ملزمون بالبقاء فى الأقطار محال إقامتهم؛ وأن اليهود الأجانب عن الإمبراطورية لا يمكنهم الإقامة فيها إلا بحيازة ملكية زراعية أو بالعمل فيها. لن يسعى أى يهودى لم يكن مقيمًا من قبل فى منطقة الران الأعلى أو الأسفل أن يأتى ليقيم فيهما.

رحب كل يهود أوروبا بكل ما جاء بالمراسيم ترحيبا كبيرًا. كانت تلك نهاية عصور المذلة والامتهان، نهاية العهد بالجيتو وبالعلامة الصفراء، بحظر التجول والمهن الممنوعة عليهم.

فى إنجلترا، النمسا وروسيا كان اليهود يغبطون إخوانهم المقيمين فى الإمبراطورية الفرنسية الذين لا يمكنهم اللحاق بهم. فقط، حاول بعض الحاخامات منع أعضاء طوائفهم من عرض نزاعاتهم أمام المحاكم الإمبراطورية. بلا جدوى: السماح لهم بالعمل، تحريرهم، الالتحاق بالجامعات، العلاقات مع المسيحيين أدى كل ذلك إلى انقلاب كل الأوضاع. هكذا شهدنا أول قطيعة جادة بين أنصار اليهودية الأرثوذكسية الصحيحة من جهة وبين التجار والمفكرين اليهود من الجهة الأخرى. الأول يتخوفون من أن يؤدى ذلك إلى اندثار اليهودية؛ الآخرون يأملون فى أن يقود ذلك إلى اجتثاث فكرة معاداة اليهودية. لم يعد هؤلاء ولا هؤلاء ينتظرون من أورشليم شيئًا. بشأن كل هذه الموضوعات، أخطأ جميع الأطراف... بصورة فادحة...

ومـع هـذا فقد مضى كل شـىء بسرعة ابـتـداءً من عـام ١٨١٠، شـهدت أوروبـا الإمبراطورية ظهور بعض اليهود فى بعض المهن الجديدة: مهندس، كيميائى، رجل صناعة، عالم، صحافى، محام، قاض، ضابط، مصور، روائى، موسيقى. كلما كانت المهنة جديدة، كلما اجتذبتهم إليها، لأنه لم يعد بإمكان أى سلطة إغلاق طريقهم إليها.

فى عام ١٨١٠، فى مدينة باريس صارت بعض العائلات اليهودية من عداد بورجوازية رجال الأعمال الباريسية فى ذلك الوقت. كانت خمس عشرة عائلة – قدم بعضها من فرانكفورت وإسطنبول قبل صدور المرسوم القاضى بمنع اليهود الأجانب من الإقامة فى فرنسا الإمبراطورية والآخرون بعد الحصول على بعض الاستثناءات – هى عائلات: آل فولد **Fould**، أوبنهايم **Oppenheim**، فورتادو **Furtado**، جودشو **Goudchau**، ديشتال **d'Eichtal**، رودريجز **Rodrigues**، شترت **Stern**، فورمز **Worms**، لورانت–ماير **Laurant-Meyer**، جافال **Javal**، هالفن **Halphen**، اليجرى **Allegri**. كان آل فولد على وجه الخصوص من رجال البنوك اليهود فى مدينة بوردو، استقروا فى باريس، شاركوا فى تمويل المجهود الحربى للإمبراطور. فى عام ١٨١١، ألغى أخيرًا "المرسوم المهين" فى الألزاس. فى نفس العام، افتتح البرتغاليون المقيمون فى بوردو، آخر أشباه اليهود المتحولين تقريبًا، معابدهم على رؤوس الأشهاد.

فى بروسيا، جرت عملية تحرير اليهود على استحياء، صدرت مراسيمها عام ١٨١٢، غير أنها لم تطبق بالفعل لأن اليهود كانوا متهمين بالتجسس لصالح نابليون الذى سوف يؤمنون فراره على أى حال أثناء الانسحاب من روسيا.

لهذا، كان سقوط الإمبراطور سببًا لكثير من حركات التمرد المعادية لليهود، فى كل أنحاء أوروبا، وفى عودة إلى النظام القديم؛ ألغى الحلف المقدس[١١٧] كل المراسيم القاضية بتحرير اليهود، فى كل أوروبا. فى فلورنسا، مع إعادة حكم أسرة لورينى **Lorraine**، أجبر اليهود على العودة إلى حارتهم (الجيتو). فى الولايات البابوية، عاقب البابا بى السابع **Pie VII** اليهود عما لاقاه من إذلال عند تتويج نابليون الأول. أما ليفورت، وحدها، فقد أعفيت من هذا بأعجوبة. محتفظة بوصفها كميناء حر. فى ألمانيا منع اليهود من جديد من شراء

الأراضى، من الزواج بحرية، السكن فى المكان الذى يختارونه. فى فرانكفورت أيضًا أعيد إدخالهم إلى الجيتو.

ثم جاءت مرحلة انحسار ذلك: كان اليهود يرغبون فى الاندماج داخل البلاد التى يعيشون فيها وسوف يجرى ذلك تدريجيًا. بدأ التطور فى القرن السادس عشر ووصل إلى غايته فى الغرب على أى حال. فى فرنسا، أعيد تجديد المراسيم الصادرة من قبل والتى كانت صلاحيتها تمتد لفترة عشر سنوات فقط وكان ذلك فى الفترة من ١٨١٨ إلى ١٨٣٠. باستثناء المرسوم الثالث الذى فقد مبرر وجوده: ألغيت فى الواقع كل الديون المستحقة لمرابى الألزاس. أصبحت غالبية المهن متاحة الآن أمامهم. فى هامبورج، كانت الصلوات فى بعض المعابد تتلى باللغة الألمانية، مطيحة بأحلام اليهود الأرثوذكس، ولم تعد تدعو إلى العودة إلى جبل صهيون ولا إلى عودة المسيح ولا إلى تضحيات (قرابين) الهيكل؛ حتى إن القداسات الأسبوعية صارت تقام فى أيام الأحد. فى ١٨١٩، طالب اليهود الألمان، المتحررون اقتصاديًا، بالتحرر السياسى والمدنى، بلا طائل. عاد اليهود إلى البرتغال فى عام ١٨٢١، مع إلغاء محاكم التفتيش. استقروا فى لشبونة وفى فارو، قادمين من المغرب ومن جبل طارق. فى عام ١٨٣١، قررت الدولة فى فرنسا أن تتكفل بإعاشة الحاخامات، كما فعلت من قبل تجاه الكهنة رعاة الإبراشيات والقساوسة البروتستانت.[١٤١] ومدت حمايتها، منذ فتح الجزائر، إلى اليهود هناك – دون أن تعترف لهم مع ذلك بالجنسية الفرنسية – بوضعهم تحت مسئولية المدعو صامويل باكرى **Samuel Bacri** "رئيس الأمة اليهودية". فى ١٨٣٤، صار تحرر اليهود، أى مواطنة التساوى، كاملاً فى هولندا. صار الأمر كذلك فى السويد عام ١٨٣٥ وفى جزء من سويسرا عام ١٨٣٨.

فى إنجلترا كانت حركة التحرر أقل سرعة رفض مجلس اللوردات المشروع الأول الذى وافقت عليه المجالس البلدية. فى ذلك العام، تم قبول أول محام يهودى، فرانسيس جولدشميد **Francis Gddsmid**، فى نقابة المحامين وأقسم على التوراة. فى ١٨٣٧، منحت الملكة فيكتوريا **Victoria** أحد رجال البنوك الشباب المنتمى إلى آل روتشيلد لقب فارس، الذى سنعيد الحديث عنه: المدعو موسيس مونتفيور **Moses Montefiore**. فى عام ١٨٤١، ظهرت أول جريدة يهودية ناطقة بالإنجليزية، الوقائع اليهودية (التى مازالت تصدر حتى

اليوم). فى نفس العام، حصل مصرفى يهودى آخر، إيزاك ليون جولدشميد على أول لقب يمكن توارثه، صار بارونًا وبهذه الصفة، صار عضوًا فى مجلس اللوردات.

فى ألمانيا، فى نفس الفترة، احتدم الجدل حول تحرير اليهود. نحو عام ١٨٢٥ سوف تخص مدينة برلين اليهود الأغنياء بحق المواطنة وسوف تشير إلى الآخرين باعتبارهم "تحت الحماية". دعت حركة "التنوير" "الهاسكالاح" اليهودية، المولودة على يد مندلسون الفليسوف الألمانى اليهودى فى عصر الأنوار، إلى العيش من خلال لغة وثقافة البلد الذى يقيمون فيه. نحو عام ١٨٤٠، دافع سامسون رافائيل هيرش **Samson Raphael Hirsch**، حاخام فرانكفورت الألمانى فى رسائله التسع عشرة، عن فكرة إمكانية التوفيق بين مراعاة أحكام "التوراة ومقتضيات العمل الدنيوى والتزاماته[٢٠٠]". فى عام ١٨٤٣، كتب الفيلسوف الليبرالى برونو بوير **Bruno Bauer**، فى كتابه "المسألة اليهودية" أن التحرر الذى ينادى به اليهود يأتى عبر اختفاء ديانتهم – أسوة بالديانات الأخرى – ومن خلال مشاركتهم فى تحرير ألمانيا: "فى ألمانيا، لم يتحرر أحد سياسيًا. نحن أنفسنا لسنا أحرارًا. فكيف يمكنا أن نحرركم؟ عليكم أن تسعوا بوصفكم ألمانًا إلى تحرير ألمانيا سياسيًا وباعتباركم بشرًا إلى تحرير البشر (....). فاليهودى مثلاً سيكون قد كف فعلاً عن كونه يهوديًا عندما لا يسمح لنفسه بأن تمنعه شريعته من القيام بواجباته تجاه الدولة وتجاه مواطنيه. وعندما سوف يحضر فى يوم السبت جلسات مجلس النواب، ويشارك فيها."[٣٨] فى نفس العام أصدر بوير "المسيحية بلا قناع" نقد تاريخى للأناجيل.

فى لندن، انتخب لونيل دور روتشيلد **Lionel de Rothchild**، أبن ناتان **Nathan**، حفيد ماير امسشيل **Mayer Amschel**، فى عام ١٨٤٧ فى مجلس المحليات. لكنه لم يشغل مقعده لأنه رفض أن يقسم "وفق العقيدة المسيحية الحقة". سيكون عليه انتظار إعادة انتخابه للمرة الخامسة حتى يتم تعديل صيغة القسم.[١٥٢]

فى عام ١٨٤٨، شارك عديد من المفكرين، التجار، العمال، التجار والحرفيين اليهود فى الثورات القومية، التى اندلعت فى كل مكان فى أوروبا. شعروا أنهم قد كانوا ألمانًا، نمساويين أو فرنسيين قبل أن يكونوا يهودًا. فى ألمانيا، كان جابريل ريسر **Gabried**

Riesser، حفيد أحد حاخامات مدينة ألتونا المشهورين وقائد إحدى حركات "يهود ليبراليين"، أحد محركى حركات التمرد. كان رؤساء الطوائف اليهودية فى الإمبراطورية – تجار أثرياء – أيضًا على رأس الثورة التى قامت فى فيينا.

فى هامبورج، كما فى غالبية المدن الألمانية، حصل اليهود على حق المواطنة وعلى حق الخروج من الجيتو. بدت مقاطعتا هيس وفرتيمبرج أكثر تحررًا من بارفاريا، ساكس، هانوفر. فى فرنسا، كان أحد المحامين اليهود من مواطنى مدينة "نيم"؛ أدولف كرميو Adolphe Cremieux، رئيس المجمع الإسرائيلى عام ١٨٤٠، نائب من عام ١٨٤١ إلى ١٨٥١، قد ساهم فى إسقاط جويزو Guizot وصار أول يهودى فرنسى يشغل منصبًا وزاريًا: وزير العدل فى حكومة عام ١٨٤٨، ألغى العبودية فى المستعمرات وعقوبة الإعدام فى القضايا السياسية.

سرعان ما عادت كل الأمور إلى نصابها فى النظم التسلطية.

نتيجة وحيدة دائمة الأثر نجمت عن أحداث عام ١٨٤٨: أسس ملك بروسيا، فردريك – جيوم الرابع Frédéric Guillume IV فى ٣١ يناير ١٨٥٠، "اتحادًا حصريًا" اقتصر على ثمانى وعشرين ولاية ألمانية. شيئًا فشيئًا صار اليهود مواطنين فى هذا الاتحاد مثلهم مثل الآخرين، فى حدود ديمقراطية دافعى الضرائب حيث يحق للرجال الأغنياء وحدهم التعبير عن أنفسهم.

انتهى الحال بآخر الحواجز التى تفصل اليهود عن الآخرين فى أوروبا بالانهيار: فى عام ١٨٥٥، صار السير دافيد سالومونز D. Salomons أول عمدة يهودى لمدينة لندن. تم التصويت بالإيجاب على تحرير اليهود البريطانيين بصورة كاملة فى عام ١٨٥٨. احتل لونيل روتشيلد أخيرًا مقعده فى البرلمان. وأنشأ مجلس الأوصياء اليهودى، هى منظمة يهودية علمانية تهدف إلى مساعدة الفقراء والمهاجرين القادمين من كل أوروبا الشرقية، قامت بإخراج الصدقة عن إطارها الدينى. من بين عشرات الآلاف من اليهود المهاجرين، كان على كل الحاخامات التخلى عن وظائفهم وألقابهم، ليصبحوا "سادة موقرين". لم يعد يطلق اسم "الكهنة" إلا على الحاخامات المنتسبين إلى "المعبد الموحد" United

Synagogue والذين كانوا يرتدون زيًا قريبًا جدًا من زى القساوسة البروتستانت. انتقلت الديانة اليهودية من المجال الجماعى إلى المجال الخاص.

فى سويسرا، منح مرسوم اتحادى (فيدرالى) صدر عام ١٨٥٦، اليهود الحق فى المساواة السياسية الكاملة فى كل أنحاء البلاد.

فى نفس العام، فى مدينة بولونيا Bologne (التى كانت لا تزال ولاية من ولايات البابا)، نقلت الشرطة طفلاً يهوديًا فى السادسة من عمره، إدجاردو مورتارا Edgardo Mortarra، وأودعته دار حضانة دينية فى مدينة روما لأن إحدى الموظفات – يهودية – أكدت أنها قد عمّدته انتقامًا من والديه. أدت الاعتراضات الواردة من كل أنحاء العالم إلى إنشاء "الحلف الإسرائيلى العالمى"(٥٨) فى باريس عام ١٨٦٠ – عن طريق أدولف كرميو، الذى صار محاميًا، وشارل نتيه Charles Netter– وذلك من أجل الدفاع عن الحقوق المدنية والدينية لليهود فى كل أنحاء العالم. برغم كل الاحتجاجات، فإن إدجاردو مورتارا سوف ينشأ فى أحد الأديرة، إلى أن يصير أحد المقربين من البابا بى التاسع Die IX. فى عام ١٨٦١، أدى إعلان مولد إيطاليا الموحدة وعاصمتها الأولى فلورنسا إلى إلغاء الجيتوهات "حارات اليهود": سيختفى الجيتو الأخير، جيتو روما الذى حافظ الباباوات على وجوده أطول وقت ممكن، فى عام ١٨٧٠.

فى عام ١٨٦٥، انتخب صامويل أحد أفراد آل فاربورج Warburg، نائبًا عن منطقة شلسويج–هولشتين Schleswig-Holstein فى البرلمان الدنماركى، التابعة له مدينة ألتونا. وعندما صارت المدينة ألمانية، عام ١٨٦٦، صار صامويل فاربورج أول نائب يهودى فى برلمان إحدى الولايات الألمانية.(١٨)

فى ١٤ يوليو ١٨٦٥ سمح لمسلمى الجزائر ويهودييها بطلب الجنسية الفرنسية(٢٧٤)؛ سوف يمنح كل يهود الجزائر المواطنة فى ٢٤ أكتوبر (*)١٨٧٠، قانونًا بواسطة مرسوم

(*) يجب الانتباه إلى أن الجنسية الفرنسية لم تمنح إلى إلا يهود الجزائر دونًا عن مسلميها.. هنا قد يتساءل المرء لما لم يثر ذلك اهتمام المؤلف..؟ (المترجم – عاصم عبد ربه)

وقعه أدولف كرمبو، الذى صار نائبًا لمدينة باريس ممثلاً لليسار المتطرف، بعد ما عاناه فى ظل الحكم الإمبراطورى، ووزيرًا عابرًا للعدل فى حكومة الدفاع الوطنى المؤقتة[٣٧٤].

فى لندن، عام ١٨٦٧، أصبح بنيامين (بنجامان) ديزرائيلى Benigmin Disraaeli، حفيد أحد الخبازين الإيطاليين، كاتبًا ناجحًا مثل والده، يهودى متحول إلى المسيحية وفخور بأصوله اليهودية، رئيس وزراء بريطانيا العظمى ونال لقب لورد بيكونز فيلد Lord Beaconsfield.

فى عام ١٨٧٨، اعترفت معاهدة برلين باستقلال الصرب، بلغاريا والجبل الأسود Montenegro وأعطت ليهود تلك الأقطار استقلالهم؛ إجراء رفضته رومانيا باستمرار.

فى كل أنحاء أوروبا الغربية صار اليهود يعيشون فى التجمعات السكنية الكبرى، أكثر تشجيعًا على الاندماج والتأقلم، ما عدا فى ألمانيا وفى منطقة الألزاس – حيث يجب الانتظار حتى عام ١٩١٠ ليصبح ٤٥٪ من اليهود هناك مواطنين فيهما. غالبًا كانت تطورات التعليم العلمانى تزيح تعليم العبرية والمعرفة الدينية إلى أيام السبت وحدها. فى فرنسا وإنجلترا، حيث يتدفق مهاجرو وسط أوروبا وروسيا، أنفقت الطوائف اليهودية على دروس تعليم اللغة والحركات الشبابية مثل فرق الفتيان اليهود فى إنجلترا. عملت الطوائف اليهودية فى فرنسا وفى إنجلترا أقصى ما يسعها حتى يفقد هؤلاء المهاجرون مظهرهم كيهود شرقيين بأسرع ما يمكن. هنا وهناك برز شخوص اقتصاديون عظام مثل دافيد ريكاردو David Ricardo، مهندسون مثل إميل برلينر Emil Berliner، علماء مثل ألبيرت إينشتاين Albert Einstein، وتجار التحف الفنية مثل ناتان فيلدنشين Nathan Wildenstein.

عندما قيد "قانون الهجرة الأجنبية" الهجرة، كان عدد اليهود المقيمين فى إنجلترا قد بلغ مائتين وخمسين ألفًا مقابل ستين ألفًا منذ قرن مضى. كان عددهم فى فرنسا ستين ألفًا. أصبح يهود الغرب منذ الآن فصاعدًا مواطنين كاملى الأهلية ولم تعد اليهودية إلا مظهرًا شخصيًا لهم. صارت الديانة شأنًا شخصيًا خاصًا. ها هم يشاركون بنصيبهم كاملاً مثل الآخرين فى بناء العالم الجديد.

اليهود فى الصناعة الأوروبية:

اتصال

دعم كثير من المؤرخين[٤٣٨] الرأى القائل بأن اليهود لم يلعبوا أى دور فى الثورة الصناعية. كانت الأسباب التى سيقت لتفسير هذا الغياب عديدة: إنهم كانوا مرفوضين من النقابات والاتحادات العمالية المهنية، كما لم يكن لليهود تقليديًا باع فى الصناعة؛ ربما لم تكن مبادئهم الدينية تتوافق مع مقتضيات العمل الصناعى من حيث الوقت؛ ربما لم يرغب العمال المسيحيين فى إطاعتهم؛ ونظرًا لأنهم يفضلون العمل لحسابهم الخاص، كأصحاب مهن، فربما كانوا لا يحبون الإنتاج بالجملة؛ ربما كان الإنتاج الجماعى مخالفًا لقواعد الأخلاق اليهودية؛ ربما كانوا قد فضلوا الاحتفاظ بمدخراتهم فى صورة نقدية سائلة ليتمكنوا من إخفائها بشكل أفضل فى حالة تعرضهم لخطر الذهب بدلاً من استثمارها فى الآلات؛ وأخيرًا ربما لأن الأمر كان يتعلق بثورة فى مجال الطاقة، ولم يكن اليهود لينشغلوا بغير التجارة والمال.

لقد تقاسم عدد من المعاصرين – حتى اليهود – وجهة النظر هذه، لم يتصوروا وجود اليهود فى المجال الصناعى، معتقدين أنهم مهتمون جميعًا بعالم المال. بناءً على ذلك كتب ديزرائيلى: "إن ما يدعو للدهشة، فى هذا التطور الواسع (للصناعة الإنجليزية)، أن قادة عالم المال لم يشاركوا فيه. هؤلاء الممولون الكبار الأقوياء، الذين يمسكون أحيانًا بين أيديهم بمصائر الملوك والإمبراطوريات، كان يبدون كرجال يتأملون إحدى غرائب الطبيعة، يشاهدونها بمزيج من الدهشة والتوجس..."[٢٨٦]

إن كان صحيحًا أن رجال المصارف اليهود وغير اليهود قد حرصوا – سوف نرى لماذا – على ألا يصبحوا هم أنفسهم من رجال الصناعة، فإن بعض اليهود الآخرين قد لعبوا فى التطور الصناعى أثناء القرن التاسع عشر. دورًا مهمًا، أسيئ تقديره بشكل مذهل وهنا أيضًا، كانوا قد خلقوا ثروات تجاوزت ما حققوه لأنفسهم شخصيًا.

فى بداية الأمر، تحول بعض الوسطاء القادمين من ألمانيا لإقامة أنشطة تجارية إلى الصناعة. هكذا، استقر فى مانشستر خمس عشرة شركة من مدينة فرانكفورت كانت تعمل فى استيراد المنسوجات الإنجليزية، فى البداية لشراء هذه المنسوجات، ثم لإنتاجها فيما بعد. ولقد لحق بهم فى نفس المدينة، وفى مدينة ليفربول مشترون لهذه الأقمشة قادمين من إسطنبول، من فيينا أو من ليفورن.

لقد وجدناهم أيضًا فى صناعة التعدين التى طورها أحد اليهود التشيك تطورًا ثوريًا، كما رأينا فى إنجلترا، فى القرن السادس عشر. كما كانوا حاضرين أيضًا فى صناعة الزجاج وفى الصناعات الاستهلاكية.

لعب العديد من اليهود الأوروبيين – خاصة خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر – دورًا عظيمًا فى تحقيق الثورات التكنولوجية والصناعية الأساسية. فهم مبتكرون، مجددون، ملتزمون، يتصرفون ويعملون وفق عقيدتهم الأخلاقية: التزام، اكتشاف، إضفاء القيمة. قائمة ابتكاراتهم تدعو للدهشة؛ لم تذكر هنا أيضًا – مع التحفظات التى تقتضيها قائمة من هذا النوع – إلا ابتكارات كبار المشاركين فى الثورة الصناعية الأوروبية ممن تعنيهم اليهودية.

نحو عام ١٨٦٠، هيأ أحد الكيميائيين اليهود البلغاريين، لودفيج موند **Ludwig Mond**، لقيام صناعة الكيمياء الألمانية، خاصة تنقية النيكل، قبل أن يهاجر ومؤسسته ويصبح مواطنًا بريطانيًا عام ١٨٧٢. ابتداءً من عام ١٩٠٦، حل محله ابنه، ألفريد موند **Alfred Mond**، وصار عضوًا فى برلمان وستمنستر فى نفس العام؛ سوف ينشىء شركة الكيماويات الإمبراطورية، التى سوف تصبح شركة **I.C.I** فيما بعد، واحدة من أهم المؤسسات العاملة فى مجال الكيمياء فى أوروبا.

حصل إميل راتينو **Emil Rathenau** على أول ترخيص من شركة أديسون الأمريكية، حتى قبل أن يستكمل أديسون ضبط المصباح الكهربائى، وأقام أول شبكة كهرباء ألمانية فى خريف ١٨٧٨ وأسس أول شركة كهرباء ألمانيا (**AEG**)، فى عام ١٨٨٣.

فى بداية حياته العملية، عمل ألفريد بايت Alfred Beit، المولود فى هامبورج والمقيم فى جنوب إفريقيا، لدى أسرة بورجيس Les borges، أهم تجار وصناع الماس فى مدينة أنفرس، قبل أن يؤسس مع سيسل رودس Cecil Rhodes، فى عام ١٨٨٨، شركة دى بيرز De Beers، التى سوف تصبح أهم مؤسسة تعمل بالماس فى العالم.

ابتكر فريتز هابر Fritz Haber، أستاذ الكيمياء وصديق ألبرت أينشتين المقرب، فى عام ١٩٠٤ طريقة تركيب صناعية لمحلول النشادر تسمح بتعظيم الإنتاج، الأمر الذى سيكون له مردود كبير على صناعة الأسمدة وزيادة الإنتاجية الزراعية.

ربما سيكون علينا أن نذكر أسماءً أخرى كثيرة فى صناعة النسيج الإنجليزية، والألمانية، والفرنسية والبلجيكية، وأيضًا فى صناعة الأثاث وكذلك فى صناعة المجوهرات. إنهم ينتجون بوفرة، دون مراعاة لقواعد النقابات القديمة التى لم ينتموا إليها مطلقًا، موفقين الإنتاج تبعًا للطلب، وابتكروا تقنيات جديدة فى التوزيع: وهكذا أسس تيوفيل بادير Theophile Bader وألفونس كان Alphonse Kahn، فى عام ١٨٩٥، ابتداءً من محل عقادة صغيرة، ما سوف يصبح محلات جاليرى لافايت الشهيرة فى قلب باريس Galeries Lafayette.

أجدر من ذلك أيضًا بالملاحظة: أن العديد من اليهود كانوا من أسباب قيام بعض صناعات الاتصال. وإن كنا لا ننوه إلى ذلك عادة بما يكفى، فذلك لأن المؤرخين لا يرون فى الثورة الصناعية إلا تقدمًا رائعًا فى استخدام الطاقة وفى ميكنة العمل والإنتاج، متناسين غالبًا أنها كانت أيضًا السبب فى ذلك التطور المذهل فى وسائل الاتصال التى تستخدم هذه الطاقة.

إليكم بعض مسيرات اليهود الأخرى – حتى لا نكتفى بأوروبا فقط:

شارل آفاز Charles Havas.[٣٢٣] مترجم صحافى فى بداية الأمر، أنشأ شركته الخاصة للترجمة عام ١٨٢٥ ثم أسس فى باريس مع برنهارد ولف Bern hard Wolf، عام ١٨٣٢، أول وكالة صحفية حملت اسمه. قام بتطويرها عندما أمكن إرسال الأخبار بواسطة التلغراف، فى عام ١٨٤٠، معتمدًا على أعمال صامويل مورس Samuel Morse، أولها كانت مواعيد القطارات.[٣٢٣]

إسرائيل بير جوزيفان، هو حفيد أحد الحاخامات الألمان، عمل أولاً موظفًا بأحد البنوك فى مدينة جوتنجن Gottingen، قبل أن يمضى للعمل لدى مؤسسة آفاز فى باريس عام ١٨٤٨، ثم أنشأ فى بروكسل عام ١٨٤٩ نظامًا بريديًا يعتمد على الحمام الزاجل[٣٣٢]. فى عام ١٨٥١، هاجر إلى إنجلترا بصحبة صديقه سيمجوند إنجلاندر Sigismond Englander، أحد القواد اليهود النمساويين لثورة عام ١٨٤٨، استخدم حمامه الزاجل ليرسل على وجه السرعة القصوى بمعلومات عن أسعار قطع البورصة وأسعار المواد الأولية إلى الصحف البريطانية: لقد أدرك أن ما تبيعه صحيفة ما.. هو الوقت، والخبر الجديد. أول سبق صحفى "سكوب" سياسى كان نشر خطاب ملك بيمون – ساردنى Piemont – Sardaigne، بفضل رويتر Reuter، فى ١٠ يناير عام ١٨٥٩، الذى أدى إلى نشوب الحرب الفرنسية النمساوية وإلى استقلال إيطاليا. قامت جريدة التايمز بنشره فى نفس اليوم. حتى يتقبله المجتمع الإنجليزى، الكاره للأجانب إلى حد كبير، بصورة أفضل، اختار لنفسه اسم جوليوس رويتر Julius Reuter وقام بتغيير اسم وكالته إلى وكالة رويتر. فى عام ١٨٧١، منحه دوق ساكس – كوبورج – جوتا Saxe – Cobourg – Gotha، لقب بارون.

فى عام ١٨٦٠، اخترع المعلم الألمانى فيليب رايس Philip Reis أول جهاز "تليفون" (هاتف)، أى قبل أن ينجزه جراهام بل Graham Bell فى عام ١٨٧٦، بوقت طويل.

ابتكر جابريل ليبمان Gabriel Lippmann آلة التصوير الضوئى الملون فى باريس عام ١٨٩١، ما استحق عليه أن ينال جائزة نوبل فى الفيزياء عام ١٩٠٨.

قام أبراهام شترن Abraham Stern بإنجاز واحدة من أوائل الآلات الحاسبة الأتوماتيكية.

قام آخرون بالكثير من الابتكارات فى مجال وسائل المواصلات: اخترع مورتيز هيرمان فون جاكوبى Moritz Herman von Jacobi فى ١٨٣٨ محركًا كهربائيًا مغناطيسيًا لتشغيل السفن. قام سيجفريد مارينز Siegfried Marens ببناء واحدة من أوائل السيارات التى تعمل بالبترول فى عام ١٨٦٤ ثم ألحقها بطراز آخر عام ١٨٧٥. نحو عام ١٨٨٠،

أسس ألبيرت بالاين Albert Ballin، خط هامبورج أميركا البحرى "الخط" الذى سوف يصبح فيما بعد شركة Habag-Lloyd[١٨] للنقل البحرى عبر الأطلنطى ما جعل منها واحدة من أكبر المؤسسات الاقتصادية الألمانية.[٨١] فى عام ١٨٩٦ اخترع أوتو ليلينتال Otto Lilienthal أول آلة طائرة أثقل من الهواء فى منطقة راينلاند (ألمانيا القديمة) ونجح فى جعلها تحلق، قبل أن يموت فى نفس العام إثر حادث. فى عام ١٨٩٢، اخترع دافيد شوارتز David Schwartz البالون الطائر الذى يمكن توجيهه والسفر به (المنطاد)؛ مات قبل أن يستغله اقتصاديًا وباعت زوجته براءة الاختراع إلى الكونت فون زبلن Zeppelin الذى لايزال الاختراع منسوبًا إليه. فى عام ١٩٢٤ قام كارل أرنشتين Karl Arnstein ببناء وقيادة أول زبلن فوق المحيط الأطلنطى.

كان أندريه سيتروين André Citroën ابنًا لإحدى المهاجرات البولنديات وللمدعو ليفى سيتروين Levi Citroën، صائغ مجوهرات باريسى مات منتحرًا، بعد إفلاسه عام ١٨٨٤، بينما لم يكن أندريه إلا فى السادسة من عمره. عندما عاد إلى وطن أمه فى لودز Lodz، اكتشف طريقة بارعة لتعشيق التروس على شكل حرف V وحاز براءة اختراعها. حصل على شهادة مدرسة العلوم التقنية فى عام ١٨٩٨، عمل مديرًا لإحدى شركات السيارات فى مارس ١٩٠٦، قبل أن ينشأ شركته الخاصة لتصنيع التروس فى عام ١٩١٢ فى بولندا. سوف تغير الحرب، كما سوف نرى، مستقبله المهنى.

كما حدث فى القرن الماضى، فإن نجاح هؤلاء الرواد قد حجب عن الأنظار أوضاع الغالبية العظمى من الشعب اليهودى، المكونة من عمال، حرفيين، مديرى وأصحاب نزل وحانات، سائقى عربات سفر، معلمين وتجار صغار. إلى جانب هؤلاء المخترعين والرواد الصناعيين، تكونت طبقة عاملة يهودية فى إنجلترا، ثم فى ألمانيا وفى فرنسا كان قوامها المهاجرين القادمين من الشرق والذين نجدهم خصوصًا فى صناعة النسيج، الغذاء والتبغ. لمقاومة الاستغلال الذى يتعرض له هؤلاء العمال من جانب أصحاب العمل – يهود أو مسيحيين – الذى نددت به كثيرًا جريدة الوقائع اليهودية فى لندن، أنشئت وانتظمت بعض النقابات اليهودية على وجه الخصوص أو بعض الشعب اليهودية فى نقابات أخرى. هكذا ظهر فصيل عمالى يهودى فى نقابة العمال الفرنسية SFIO.

غير أن دور الطليعة اليهودية فى الثورة الصناعية الأوروبية، كان يجرى بشكل أساسى من خلال البنك.

البنك اليهودى

فى الثورة الصناعية الأوروبية

انطلاقًا من جماعة موردى البلاطات، تشكلت مجموعة صغيرة واسعة الخيال - مصرفيو الأعمال - فى ألمانيا، فى فرنسا وفى إنجلترا لتمويل أعمال البنية التحتية العامة والمشروعات الخاصة. مَثّل المصرفيون اليهود، خبراء فى الائتمان منذ ألفى عام، طليعة هذه المجموعة.

كان الفقه الدينى لا يزال ينهى كل البنوك اليهودية عن تقديم أو الحصول على فوائد بين اليهود وبعضهم، غير أن بعض الحاخامات، مثل راف يوسف روزن **Yosef Rosen**، يعتبرون أنه إذا كان البنك قد أصبح كيانًا تساهميًا مغفلاً - مقصورًا على موجوداته فقط -، فإن الفائدة تصبح ممكنة(٤٠٦). بالنسبة لهم لم تكن الشركة شخصًا وبالتالى فإن فى إمكانها أن تقدم القروض بالفائدة. ورأى البعض عكس ذلك وأن الشركة ليست إلا قناعًا لمساهميها وأن رجال البنوك اليهود لا يمكنهم الحصول على فوائد إلا من الأغيار (الوثنيين).

على أى حال، تمسك مصرفيو الأعمال غير المهتمين بالعقيدة بمواصلة تمويل الحكومات وأعمال البنية التحتية العامة الضرورية للنظام الراسمالى. بدأ كل شىء فى فرانكفورت: تطورت بورصة المدينة (السوق المالية)، التى كانت متقدمة بالفعل فى ألمانيا فى القرن الثامن عشر، باطراد فى العقد الذى تلى معركة واترلو **Waterloo**.(*) كانت

(*) معركة واترلو: ١٨ يوليو ١٨١٥، جنوب بروكسل، انتصرت جيوش التحالف بقيادة دوق ويلنجتون الإنجليزى والمارشال بلوخر الألمانى على جيوش فرنسا - بقيادة نابليون بونابرت الذى لقى هزيمة ساحقة أنهت مستقبله العسكرى والسياسى تمامًا... (المترجم - عاصم عبد ربه)

ثروات المدينة فى ذلك الوقت بين أيدى الأمراء وبعض موردى دوقات مقاطعات هيس Hesse، باده Bade وفرتيمبرج Wurtemberg. كان عليهم الآن الانفتاح على عملاء آخرين.

بعد قليل سوف يمتلك بنك سباير Speyer، أقوى البنوك اليهودية فى تلك الفترة، الذى تأسس فى عام ١٧٩٤، فروعًا عائلية فى كل أنحاء أوروبا. قام بتمويل عمليات تطوير المؤسسات الألمانية وتوسيع مشروعاتها. كانت ثروة العائلة، المقدرة بـ ٤٢٠٠٠٠ ألف فلورين نحو عام ١٨٢٠، تمثل واحدة من أهم الثروات العائلية فى البلاد. وأنشأ جوزيف مندلسون Joseph Menlessohn، أحد أعمام فليكس Felix، الموسيقى، بنكًا آخر فى عام ١٩٧٥ افتتح سالومون أوبنهايمر Salomon Oppenheimer مصرفه الخاص فى مدينة كولونيا Cologne عام ١٨٠١. فى برلين أنشأ صامويل بليشرودر Bleichröder بنكًا آخر عام ١٨٠٣. كانت جميعها تقوم بتحويل العملات، تقديم القروض طويلة الأجل للحكومات، إدارة أملاك وثروات الأمراء، التجار وأصحاب وممونى السفن. نادرًا أيضًا ما قدمت قروضًا إلى رجال الصناعة. وندرت أكثر حالات اندماج هذه البنوك مع بعضها.

بعد قليل سيكون أكثرهم نفوذًا آل روتشيلد، الذين تركناهم عام ١٧٩٧، الوقت الذى صار فيه ماير أمسيشيل Mayer Amschel واحدًا من أوائل تجار التحف والعملات والأوسمة القديمة فى مدينة فرانكفورت. فى تلك السنة كان ماير قد أصبح بالفعل واحدًا من أغنى عشرة رجال فى المدينة. انطلاقًا من منزله داخل الجيتو مارس الرجل تجارته مع تجار التحف المشهورين فى برلين، فيينا، أمستردام، باريس ولندن، ومع حاكم مقاطعة هيس – كاسيل Hesse – Cassel، جيوم التاسع، الذى كان يقرضه ما يلزمه لشراء العملات والتحف القديمة، قبل أن يفرض نفسه شيئًا فشيئًا كأهم مستشار مالى له. فى عام ١٧٩٨، أرسل ابنه الثانى، ناتان Nathan، الألمع، إلى لندن ليمثله هناك. إن كان ابنه البكر أمسيشيل ماير، قد ظل إلى جانبه فى فرانكفورت، فإن روتشيلد قد أدرك أن مستقبل سوق المال سيكون فى لندن. ومن هذا الاختيار سيترتب سياق مسيرة وتاريخ هذه الأسرة.

فى عام ١٨٠٦، عندما توغلت القوات الفرنسية فى مقاطعة هيس وحررت حارة اليهود (الجيتو) فى فرانكفورت، عهد الحاكم "الناخب الأكبر" إلى ماير أمسيشيل روتشيلد

ببعض السندات وبعض العملات والمجوهرات ليقوم بإخفائها فى سراديب مقابر المدينة القديمة، التى يعرف اليهود أدق أسرارها لأنهم قد استخدموها عبر العصور للهروب من الجيتو عندما يتعرض للهجوم. تعرض ماير لوشاية البعض فألقت قوات نابليون القبض عليه ولم تتمكن من دفعه إلى الاعتراف بمكان إخفاء كنوز الحاكم. فى ذلك الوقت، افتتح نتان بنكًا فى لندن؛ حصل على الجنسية البريطانية فى عام ١٨٠٤. ضمنت له الأموال التى أخفاها أبوه فى فرانكفورت اكتتابه فى أذونات الخزانة البريطانية، التى وظفها بعد ذلك فى كل أنحاء أوروبا. هكذا صار ناثان وسيطًا ماليًا بالتدريج، وقام باستثمار القروض التى أصدرتها الحكومة الإنجليزية لتمويل الحرب. كانت العمولات، المرتفعة للغاية بسبب الأخطار، سببًا فى نفس الوقت لتنامى ثروة ونفوذ آل روتشيلد وجيوم التاسع أيضًا، الذى استخدمت أملاكه ضمانًا للقروض الإنجليزية. سرعان ما أصبح روتشيلد الأب والابن فى منتهى الأهمية بالنسبة للقوى المتحالفة ضد نابليون: ما بين عامى ١٨١١، ١٨١٥ تمكنا بمفردهما من جمع نصف التمويلات التى قدمتها لندن إلى قوى القارة – أولاً إلى الدنماركيين، ثم إلى الولايات الألمانية – التى وظفتها بعد ذلك لدى المدخرين البريطانيين. لم يكونا "وزراء مالية الحلف المقدس" كما قال عنهما بعض كتاب السير الذاتية(٧٦)، لكنهما قد لعبا دورًا مهمًا فى تمويل الحرب.

بدافع من إخلاصهم لمليكهم، ربما كان آل روتشيلد بهذا قد كانوا من القلة النادرة من يهود أوروبا الذين اختاروا أن يكونوا فى معسكر الحلف المقدس فى مواجهة معسكر نابليون.

لأن مفتاح مهنة المصرفى يكمن فى تقدير حجم المخاطرة – وبالتالى فى نوعية المعلومات التى تسمح بتقديرها – فقد واتت ماير أمسيشيل فكرة أن يكون لنفسه شبكة من المخبرين، تتمتع ببعض الامتيازات(٢٨٦). ربما كان قد استلهم ذلك مما قام به سالومون دومدينا **Salomon de Medina** فى لندن، منذ قرن مضى، عندما كان يقوم بإرسال أنباء معارك دوق مارلبورغ بواسطة الحمام الزاجل. ابتداءً من فرانكفورت، أقام علاقات مع أسرة تور–و–تاكسى **Tour-et-taxis**، التى كانت تتولى منذ عصور شئون البريد فى الإمبراطورية؛ اشترى منها حق الأولوية فى استخدام شبكة الحمام الزاجل الرائعة

التى تمتلكها لنقل رسائله الخاصة. هكذا علم ناثان، بواسطة طيور "تور وتاكسيس" التى كانت تنقل رسائل الضباط الإنجليز الذين تمت مكافأتهم بسخاء، بأمر الانتصار فى واترلو قبل أن تصل الأنباء بذلك إلى لندن عبر القنوات الرسمية بوقت طويل، بعد أربعة أيام كاملة(٢٣٢) !

فى ذلك الصباح، اشترى ناثان بأقل الأسعار، فى بورصة لندن، الأسهم التى قام ببيعها بأسعار مخفضة من اعتقد بصحة الشائعات التى بشرت بانتصار نابليون؛ غداة اليوم التالى قام ببيع تلك الأسهم بأعلى الأسعار، بعد أن عرفت نتيجة المعركة. سوف يدور الهمس فيما بعد(٢٨٦)– وإن لم يتأكد ذلك – بأنه ربما كان من أطلق شائعة هزيمة الإنجليز لتنخفض الأسعار أكثر.

بعد هزيمة نابليون، كانت الاحتياجات المالية للدول الأوروبية فى زمن السلم لا تزال أكبر منها فى زمن الحرب. أخذت عائلة روتشيلد، التى مولت المنتصرين، تلك المهمة على عاتقها. سماسرة بارعون، كانوا يعرفون أين يجدون رؤوس الأموال اللازمة بأفضل تكلفة، دون المساس مطلقًا بأملاكهم الخاصة. للدولة التى يساهمون فى إعادة إعمارها، بل أيضًا من أجل الاستثمار فى بعض المشروعات: الحديد، النسيج وعما قليل السكك الحديدية.

فى عام ١٨١٦، سافر سالومون، الابن الرابع لماير أمسيشيل إلى فيينا وصار هناك أحد ممولى آل هابسبورج. فى عام ١٨١٧ استقر فى باريس، أصغر الأشقاء الخمسة، جايمس James، ليجنى ثمار العلاقات التى نسجتها أسرته مع أسرة البوربون(*) أثناء منفاهم؛ خلال خمسين عامًا وبما فى ذلك تحت حكم نابليون الثالث، سيكون أهم مصرفى للدولة ولأكبر الثروات الفرنسية. وأخيرًا استقر كارل Karl، خامس أبناء ماير أمسيشيل، فى نابولى، مملكة واعدة فى ذلك الوقت فى قلب شبه جزيرة لا يزال شمالها تابعًا للنمسا.

(*) البوربون. عائلة ملكية أوروبية مهمة. حكم ملوكها نافارا ابتداءً من عام ١٥٥٥، وفرنسا من ١٥٨٩ إلى ١٧٩٢، ثم استعادوها لفترة قصيرة فى عام ١٨١٤ بعد الثورة الفرنسية.. مازال بعض رجالها يطالبون بعرش فرنسا.. (المترجم – عاصم عبد ربه)

كانت الشبكة قائمة، لكن الأمر لم يكن يتعلق بدولة واحدة فقط. كان كل واحد منهم خاضعًا لقوانين وشروط الدولة التى اختار الإقامة فيها، حتى عندما تتعارض مع مصالح أحد الأشقاء الآخرين. فى العديد من المناسبات، وجد الإخوة أنفسهم حتى فى موقف تنافسى(٢٨٦). عن خطأ سوف يكتب هانا أرنت Hannah Arndt : "ليس هناك دليل على غرابة الفكرة الوهمية بوجود حكومة يهودية عالمية، أفضل من هذه الأسرة، آل روتشيلد، فهم مواطنون فى خمس دول مختلفة، أصحاب نفوذ فى كل منها، على علاقة لصيقة بثلاث حكومات على الأقل (إنجليزية، فرنسية ونمساوية)، دون أن تمس النزاعات بين هذه الأمم فى أى وقت بتضامن أصحاب البنوك فيما بينهم. لم تكن أى دعاية لتستطيع، لأسباب سياسية، أن تخلق رمزًا أكثر فعالية من الحقيقة ذاتها(١٣)" واقع الأمر، كما سوف نرى، أنهم لم يوافقوا على تقديم أى قرض كبير دون الحصول على موافقة صريحة من الوزير المختص، فى البلاد التى يقيمون فيها، والذى كان فى العادة وزير الخارجية. لم يكونوا مخلصين إلا لحكومتهم، ولم ينسوا أن مفتاح النجاح – والعقيدة الأخلاقية عند اليهود – ظل ثابتًا منذ ألفى عام: لا شىء ينفعهم إن لم يكن نافعًا لجيرانهم من غير اليهود أينما كانوا.

نسج آل روتشيلد، القادمون الجدد، علاقات مع أقدم العائلات اليهودية. فى عام ١٨٢٠، ارتبطت بهم أسرة م.م. فاربورج، القائمة تاريخيًا منذ أكثر من قرنين بطريقتين: من جهة أصبح آل فاربورج وكلاء لآل روتشيلد فى هامبورج ووجدوا مموّلين لقروضهم من الذهب؛ ومن جهة أخرى تزوجت روزا Rosa، ابنة سارة فاربورج Sarah Warburg، التى كانت تتولى إدارة أعمال الأسرة مع ولديها سيجموند Siegmund وموريتز Moritz، أحد رجال البنوك الشباب من آل روتشيلد، بول تشيف Paul Schiff، مدير بنك الائتمان والتعمير الذى أنشأه لتوه سالومون روتشيلد فى فيينا "Kreditanstalt". بعد ذلك بقليل، سوف نجد أحد أقرباء بول تشيف هذا كأول مصرفى فى نيويورك، وكان مرتبطًا أيضًا بآل فاربورج. ومن ناحية أخرى عمل آل روتشيلد أيضًا مع بنوك يهودية أخرى أقدم منهم عهدًا: مصرف آل أوبنهايمر فى كولونيا Cologne وكذلك مع صامويل بليشرودر، الذى استقر فى برلين عام ١٨٠٣. فى عام ١٨٢٢، أصبح ناثان روتشيلد قنصل النمسا العام فى إنجلترا وحصل على لقب "بارون" من حكومة النمسا – الذى لن يحمله، أملاً فى الحصول على لقب بريطانى بدلاً منه.

بعد وفاة ماير أمسيشيل، فى عام ١٨٢٤، انتقل مركز العائلة إلى لندن التى تفوقت على فرانكفورت، الأمر الذى توقعه آل روتشيلد قبل الآخرين: كانت المدينة قد صارت منذ ذلك الوقت فصاعدًا أكبر مركز لودائع النقد الأجنبى فى العالم، اجتذبت مدخرات القارة المتاحة لتمويل التصنيع فى إنجلترا وفى الأراضى الجديدة البعيدة. سوف يجعل هذا من "روتشيلد" أهم وأول بنك يهودى فى العالم. قام بعض الوسطاء، آل جوببير **Les Jobbers** وآل بروكر **Les brokers**، ببيع وشراء السندات الإنجليزية فى أسواق الأوراق المالية. قام رجال البنوك – التجار – من بينهم آل روتشيلد وعشرة من البنوك اليهودية الجديدة، مثل آل جولدشميد **Goldsmid**، آل هامبروس **Hambros** وآل مونتاجو **Mantaigu** – بتنظيم زيادات رأس المال والقروض طويلة الأجل، وتقديم النصح للمؤسسات الصناعية الإنجليزية التى كان نموها مذهلاً. كان دور التجار المصرفيين هو البحث عن وسطاء وعن أصحاب مدخرات لشراء أسهم المؤسسات. كانت تلك مهنة وسطاء وواضعى سياسات أكثر منها مهنة للممولين. قدموا أيضًا قروضًا لتمويل ميزانيات فرنسا، روسيا، النمسا، بروسيا والبلاد المستقلة حديثًا فى أمريكا الجنوبية؛ عقدت هذه القروض بالجنيه الإسترلينى ما سمح لهم بتجنب أخطار تغيرات أسعار الصرف. كان بنك هامبروس – من اسم أسرة يهودية قادمة من ألتونا فى مطلع القرن – يخدم المصالح الإسكندنافية. إذا كان المصرفيون اليهود قد أمنوا تمويل الصناعة والسكك الحديدية الوليدة – قام آل روتشيلد فى عام ١٨٣٩، بتمويل أوائل خطوط السكك الحديدية البروسية مثل خط **Kaiser-Ferdinands Nordbahn**، وخطوط أخرى فى فرنسا – فقد منعوا على أنفسهم التدخل فى إدارة المشروعات التى يمولونها، ليحتفظوا بحريتهم فى تقييمها.

إخلال وحيد بهذه الإستراتيجية: فى عام ١٨٤٣، فى مدينة فيينا، اشترى سالومون، الذى أصبح فون روتشيلد، مصانع الصلب فى ويتكوويتز **Witkowitz** أول وأندر استثمار لمصرفى يهودى من مصرفى الأعمال فى مجال الصناعة. لكن ذلك قد حدث لأن الملاك السابقين للمصانع لم يستطيعوا سداد القروض التى قدمها لهم من قبل.

كان هناك مؤسسات مالية مزدهرة أخرى فى أعالى نهر الراين: آل هابر **Haber**، موردو الدوقات فى باده–فرتيمبرج **Bade-Wurtemberg** فى القرن الثامن عشر، صاروا

فى عام ١٨٢٠ أحد أهم أصحاب المصارف فى ألمانيا. فى عام ١٨٣٣، أسس صامويل هابر، الذى صار فون هابر، مصرف "دارمشتاتر بنك" Darmstadter Bank. فى فرانكفورت كان بنك بيتمان Bethmann، الذى أنقذ مالية آل هابسبورج المالكة فى القرن الثامن عشر، أول من بدأ فى إصدار سندات المشروعات والمؤسسات ودول وسط أوروبا. تبعه بنك إشكلز Eskeles، أرنشتاين Arnstein فى فيينا، بشوفشايم Bischoff sheim وجولد شميت فى برلين،آل فاربرج فى هامبورج، آل بيراير Pereire و آل فولد Fould فى باريس، آل لامبير فى بروكسل Lambert، آل هامبروس، مونتاجو، جولدشمايد، ساسون، مونتفيور فى لندن، جولد شميت فى أنفرس، ثم، بعدها بقليل، بواسطة ليوبولد كورننبرج Leopold Kronenberg فى فارصوفيا. (وارسو)، آل روزنبرج فى جيتومير Jitomir، آل جونزبورج Gunzburg فى كييف Kiev وسان بيترسبورج Saint – pétersborg، آل إشكنازى فى أوديسا Odessa.

هناك حالتان خاصتان سوف نجدهما أيضًا فى عدة مناسبات:

الأولى هى حالة موسيس مونتفيور Moses Montefiore، المولد فى ليفورن عام ١٧٨٤، والذى نشأ فى لندن فى جو شديد التدين، عمل أولاً صبيًا متدربًا لدى أحد تجار الشاى، صار بعدها أحد الاثنى عشر وسيطًا يهوديًا فى المدينة، فى عام ١٨١٢، تزوج من جوديت كوهين Judith Cohen، شقيقة زوجة ناثان ماير روتشيلد، الذى أصبح عديله ثم وكيله المصرفى. بعد أن كون ثروته، تقاعد مونتفيور عن العمل فى الأربعين من عمره ليتفرغ لأعمال المؤسسات التابعة للطوائف اليهودية. سوف نرى أنه سوف يقوم فى ذلك بدور مهم خلال ستين عامًا.

الحالة الثانية هى حالة موريس دو هيرش، المولود فى ألمانيا عام ١٨٣١ فى محيط من رجال البنوك ، كانت والدته من أسرة فرتايمر، رجال البنوك المعروفين فى فرانكفورت. فى عام ١٨٤١ كان يعمل فى بنك بيشوفشايم Bischoffsheim وجولد شميت فى بروكسيل، وفى عام ١٨٥٥ تزوج كلارا Clara، ابنة جوناتان بيشوفشايم. صار بعد ذلك صديقًا لأمير الغال (الملك إدوار السابع فيما بعد) وللدوق الأكبر رودلوف دو هابسبورج Rodolphe de

Habsbourg. سوف نراه يلعب دورًا أكثر أهمية أيضًا من الدور الذى لعبه مونتفيور فى الشئون اليهودية.

ظلت التحالفات محسوبة بعناية لتفادى انقسام العائلات وللحفاظ على أسرار الأعمال فى أضيق الدوائر. فى باريس تصاهرت أسرة فولد مع آل أوبنهايم، ثم مع آل هاين les Heine، أصحاب مصارف فى هامبورج، عائلة الشاعر، الذين قدموا أيضًا للإقامة فى بوردو. ارتبطت أسرة لامبير فى بروكسيل بآل روتشيلد. بشكل عام، كان الجزء الأعظم من المهور يدخل فى رأسمال بنك الزوج.

تزوج أحد أبناء بنديكت جولد شميت Benedict Goldschmidt (سليل بيشوفشايم وجولد شميت)، ليوبولد بنديكت، من رجينا Regina، إحدى بنات جوناتان بيشوفشايم، تزوج يهودى آخر، ماكسميليان Maximilien، ابنة البارون ويلهيلم فون روتشيلد Wilhelm Von.R. تزوجت إحدى بنات رافائيل بيشوفشايم من أوجست بامبرجر August Bamberger، أحد المصرفيين فى مدينة ماينس، الذى تزوج ابنه، هاينريش Heinrich أخت البارون هيرش Hirsch. سوف نرى أن أبنًا آخر لبامبر لودفيج Ludwig، سيكون أحد مؤسسى بنك باريس وهولندا فى عام ١٨٦٨، والبنك الألمانى عام ١٨٧٠، ثم بنك الرايخ عام ١٨٧١. تزوجت واحدة أخرى من بنات بيشوفشايم، كلارا، من لويس كاهين Louis Cahen، أحد مؤسسى بنك التسليف العقارى فى أنفرس. تزوج جيرسون بليشرودر Gerson-B، بناءً على نصيحة والده، من ابنة أحد أصحاب المصارف فى برسلو Breslau.

فى عام ١٨٤٠، تفوق روتشيلد على كل البنوك الأخرى، اليهودية وغير اليهودية. بعد ناثان، أقام ابنه ليونى Lionel شبه احتكار على إصدارات الخزانة البريطانية، التى كان لبعضها صبغة سياسية: فى عام ١٨٤٧، لمكافحة المجاعة فى إيرلندا؛ ١٨٥٦، لتمويل الحرب فى القرم.

جذبت المدينة منذ ذلك الوقت الثروات الأوروبية ودفعت بها للاستثمار فى أمريكا، فى إندونيسيا، فى نيجيريا، فى كينيا وفى جنوب إفريقيا. لم تكن البنوك اليهودية وحدها التى اهتمت بالصناعة البريطانية، لكنها، أكثر من غيرها، تمكنت من توفير التمويل اللازم

لإنشاء خطوط السكك الحديدية، لصناعة الحديد، للمناجم ثم لاستخراج البترول. هكذا قامت بتوفير القروض لمصانع الحديد فى السويد، شركات خطوط السكك الحديدية فى الولايات المتحدة الأمريكية، لشركات التعدين والمناجم فى جنوب إفريقيا وفى أمريكا اللاتينية. حصل البارون هيرش Hirsch على امتياز من الحكومة التركية، نَظَّمَ تمويل خط السكك الحديدية الذى يربط القسطنطينية بأوروبا، خط الشرق السريع وأسس شركات تعمل فى مجال صناعات النحاس وصناعة السكر. قام بنك سباير Speyer بتمويل التصنيع فى تركيا؛ وقام روتشيلد بتمويل التصنيع فى مصر. موّل دافيد ساسون David Sasson، البغدادى الأصل، الذى استقر فى بومباى عام ١٨٣٢ (رافضًا باستمرار الاعتراف بيهودية يهود كوشان Cochin)، ميزانية نائب الملك فى الهند بمساعدة البنوك اليهودية فى لندن. بعد فترة سوف تستقر عائلات ساسون، عيزرا Ezra، القدورى Les Kadoorie (التى لا تزال مالكة لفندق شبه الجزيرة والخط الملاحى فى هونج كونج) والهاردوون Hardoon فى هونج كونج وفى شنغهاى، حيث سوف تزدهر بعد قليل طائفة غير عادية من التجار اليهود.

بعد عام ١٨٥٠، استعادت البنوك المسيحية التحكم فى القروض المقدمة إلى الدول. أصبح بنك بارنج Baring، المؤسس عام ١٨٣٩، الممول الرسمى للأسرة الإمبراطورية فى روسيا ولحكومات أمريكا الجنوبية ولمشروعات البنية التحتية فى أمريكا الشمالية. فى عام ١٨٥٧، كانت هذه البنوك البريطانية تمتلك نصف أسهم السكك الحديدية الأمريكية. ولسوء حظهم الكبير: أفلس كثير منها مع إفلاس شركات السكك الحديدية، متسببين فى أزمة خطيرة انتقلت آثارها إلى أوروبا. لعبت البنوك اليهودية، الأكثر حرصًا، والأقل وجودًا فى أسواق المال عالية المخاطرة، دورًا حاسمًا فى حل هذه الأزمة مستخدمين شبكاتهم عبر أوروبا. على سبيل المثال وجدت سارة فاربورج Sarah Warburg لمدينة هامبورج التى أفلست، قروضًا لمدة ستة شهور بفائدة قدرها ٦٪. كان مقدم القرض وهو زوج ابنتها، بول تشيف Paul Sciff، المقيم فى فيينا، قد طلب مسبقًا الموافقة الصريحة من الوزير النمساوى للخارجية وحصل عليها(١٨). لقد كنا على شفا الكارثة...

لقد صك أحد ابنىّ سارة، سيجموند فاربورج Siegmund Warburg، الذى كان يدير آنذاك مصرف العائلة مع والدته، هذه العبارة التى ربما أمكن لكل يهودى أن يرددها منذ

ما يقرب من ثلاثة آلاف عام: "لقد كان لآل فاربورج دومًا مثل هذا الحظ: فى كل مرة كانوا فيها أن يصيروا فى غاية الثراء، يحدث فجاءة شيء ما يعود بهم إلى حالة الفقر ويجبرهم على البداية من الصفر[١٨]".

فى عام ١٨٤٣، أبلغ صامويل بليشرودر البارون جايمس دو روتشيلد فى باريس أن ابنه جيرسون قد حصل على التوقيع الآن: "لقد اتخذت هذا القرار نظرًا لاستقامة جيرسون وحيويته وهمته فى خدمة مصالحكم النبيلة[٤٠٤]". فى عام ١٨٤٧ أصبح جيرسون شريكًا لوالده، وعند وفاته، فى عام ١٨٥٥، كان يدير البنك، أولاً مع أخيه جوليوس، الذى ترك المؤسسة العائلية بعد ذلك ليؤسس مصرفه الخاص. اهتم جيرسون بتنمية علاقاته، بدأب أكثر من أبيه، مع آل روتشيلد ومع مؤسسة سالومون. وأوبنهايمر وأبنائه، التى صارت مؤسسة أوروبية واسعة الانتشار، والتى قام بإدارتها أبراهام وسيمون أوبنهايمر، وهما شقيقان يتمتعان بحيوية هائلة، يستحق شعارهما أن ينقل إليكم: "إن بيع لؤلؤة تملكها بين يديك إلى شخص يريد الحصول عليها لا يعد إبرامًا لصفقة جيدة؛ لكن بيع لؤلؤة لا تملكها إلى شخص لا يريدها، هو ما يسمى إنجازًا لصفقة[١٨]".

أخذت الطبيعة العائلية بوجه خاص لهذه البنوك فى التلاشى شيئًا فشيئًا: كان من الصعب استمرار الصفة العائلية لمشروع ما لأكثر من ثلاثة أجيال. غالبًا ما انجذب أحفاد المؤسس الأول للمشروع نحو المجالات الفنية، بعد أن فقدوا حماسهم الذى مازال يسمى "النار المقدسة".

بدأت بعض المصالح اليهودية فى التوحد مع بعض المصالح المسيحية لإقامة مؤسسات واعدة بمستقبل باهر.

الاندماج الأول: اندمج بنك "شافهوزنشر بنكفراين" Shaaf hausenscher Bankverein، التى تأسس عام ١٨٤٨ فى مدينة كولونيا Cologne مع بنك أبراهام أوبنهايمر ليصبحا دارمشتاتر بنك Darmstadter Bank. اختفى اسم كبير؛ وولد آخر.

فى عام ١٨٦٠، اشترك جيرسون بليشرودر مع بعض البنوك المسيحية، هانزيمان Hansemann، لتأسيس مجموعة الاتحاد البروسى Consortium Pruss، مجموعة بنكية

أخذت على عاتقها تدبير الثلاثين ألف تالر التى اقترضها ملك بروسيا لتمويل تعبئة الجيش البروسى خلال الحرب الألمانية النمساوية فى إيطاليا.

الاندماج الثانى: بعد أن عَمِلَ مع بيشوفشايم وجولد شميت فىماينس، أسس لودفيج بامبرجر عام ١٨٦٣ فى مدينة أمستردام، بنك الائتمان والتنمية الهولندى؛ وفى عام ١٨٦٦، عاد إلى ألمانيا ليؤسس فى عام ١٨٧٠، مع هيرمان كار كوزير Hermann Kar Kuser ألدبيرت دالبروك Aldebert Dalbruck، البنك الألمانى (دويتش بنك)، الذى صار اليوم واحدًا من أهم البنوك فى العالم(١٥٥). اتجه بعد ذلك إلى باريس وأدمج بنكه الهولندى فى ٢٧ يناير عام ١٨٧٢ مع بنك باريس، الذى كان تأسس ١٨٦٩ على يد هنرى سيرنوتشى Henri Cernuschi: كان هذا مولد بنك باريس وهولندا (البلاد الواطئة) الذى ظل لزمن طويل واحدًا من أهم بنوك الأعمال الفرنسية.

الاندماج الثالث: أسس إوجين جوتمان Eugen Gutmann فى عام ١٨٧١ بنك دريسدنر Dresdner Bank بإدماج عدة بنوك محلية. كان مؤسس البنك يهوديًا بينما لم تكن رؤوس الأموال كذلك.

إلى جانب البنوك الكبيرة، كان هناك أكثر من ألفى بنك من البنوك الأقل أهمية، من بينها ثلاثمائة بنك يهودى على الأقل. لم تتوقف أهميتها ونفوذها عن التزايد دون أن تتلقى ودائع أخرى أو تفتتح فروعًا أخرى. كان أحد هذه البنوك، بنك فاربرج، فى طريقه آنذاك لأن يُصبح أكثرها نفوذًا فى شمال ألمانيا.

تجمعت الشبكات العائلية أكثر فأكثر: فى عام ١٨٦٢، تزوج سيجموند فاربورج Siegmond Warburg، ابن سارة، من ابنة أحد رجال البنوك الروس من مدينة جيتومير Jitomir، تيوفيلى روزنبرج Theophilie Rosenberg، الذى كانت أمه، واحدة من آل جونز بورج Gunz burg، تنتمى إلى عائلة من رجال البنوك فى مدينة كييف وسان بترسبورج. تزوجت إحدى شقيقات تيوفيلى من ليون إشكنازى، مؤسس البنك الذى يحمل نفس الاسم فى أودسا؛ وتزوجت أخرى من البارون جوزيف فون هيرش – جيروت –Joseph von Hirsch Gereuth، المشارك فى بنك بيشوفشايم وجولد شميت – برلين. كما كان معتادًا

فى هذه العائلات، كان ثلثى المهر يضاف إلى رأسمال البنك. فى عام ١٨٦٤، تزوج مورتيز Moritz، شقيق سيجموند فاربورج، من شارلوت أوبنهايمر، ابنة أبراهام، رجل البنوك فى كولونيا Cologne.

قام كل من: ليونيل دو روتشيلد من لندن، بيرير من باريس، جونز برج من بيترسبورج، كروزنبرج من وارسو، شترن بروش من لندن، بيشوفشايم وجولدشميت من بروكسل، بليشرودر من برلين، فاربورج وبهرنز سوهن وليبن Behrens Sohne und Lieben فى هامبورج، متساهمين من أوروبا إلى الولايات المتحدة، من الصين إلى بيرو، بتمويل قروض عامة للمؤسسات والمشروعات التى تقوم الدول بضمانتها.

فى فرنسا، قامت بنوك الأعمال اليهودية – فولد، برير، دريفوس Dreyfus، لازار Lazard، روتشيلد، ميلهو Milhaud، هاس Hass، بامبرجر (اشترك هذا الأخير مع بعض المصرفيين اليهود من مدينة إسطنبول: كونت دو كوموندو Le Comte de Comondo والبارون ليويننو Leonino) – بتمويل التجارة الخارجية وعجز الميزانية، مبتعدين عن بنوك الودائع التى بدأت فى النمو والتطور ابتداءً من ١٨٦٣، ملتفة حول بنك كريدى ليونيه – بنك ائتمان مدينة ليون –Credit – Lyonnais. فى عام ١٨٦٥، كان فى بنك باريس خمسون مديرًا يهوديًا؛ فى عام ١٨٧٢، كان هناك خمسة وتسعون يهوديًا من بين مديرى المؤسسات المالية الأربعمائة والأربعين، ما أشار إلى بلوغهم القمة.

بعد عام ١٨٧٠، أصبح دور اليهود فى أوروبا متواضعًا، مقارنًا بدور البنك البروتستانتى الأكبر والبنك الكاثوليكى الكبير اللذين كانا يسيطران منذ ذلك الوقت فصاعدًا على سوق رؤوس الأموال بالعديد من الوكالات، آلاف الحسابات، مشاركات صناعية عديدة. استمر نفوذ اليهود كمستشارين للدول. فى عام ١٨٧١، فى باريس، وفرت مؤسسات روتشيلد القرض الذى أصدرته فرنسا المهزومة لتعويض بروسيا عن خسائر الحرب. فى عام ١٨٧٥، تمكن ليونيل دو روتشيلد فى لندن من إقراض الحكومة البريطانية رؤوس الأموال اللازمة لشراء حصصها فى قناة السويس، التى فرغ للتو من إنشائها. الآن، يستثمر المصرفيون اليهود أيضًا فى المشروعات الأجنبية بشكل أكبر، كان آل روتشيلد متواجدين فى تمويل

خطوط السكك الحديدية فى الولايات المتحدة، وبالرغم من تحفظًا تجاه معاداة السامية فى روسيا، تواجدوا أيضًا فى صناعة البترول فى باكو Bakou؛ استثمر البارون هيرش، من جانبه، فى السكر والنحاس فى أراضى الإمبراطورية العثمانية.

لم تبق البنوك اليهودية محتفظة بكامل قواها إلا فى ألمانيا متمركزة حول بنكى فاربورج وبليشرودر، أهم بنوك الأعمال فى البلاد.

عند موت سارة فاربورج فى عام ١٨٨٥، بعد موت ابنها البكر سيجموند عام ١٨٨٩، كان مورتيز الابن الأصغر فى الحادية والخمسين من عمره وكان على رأس بنك العائلة مع أبنائه الخمسة (أبراهام، ماكس Max، فليكس Felix، بول Paul وفريتز Fritz) وابنتاه (أولجا Olga ولويزا Louisa). سوف يوضح مصير هؤلاء الأشقاء الخمسة تطور التقاليد المالية اليهودية فى نهاية ذلك القرن. أربعة منهم سوف يدخلون التاريخ.[١٨]

سوف يتزوج الابن البكر أبراهام، من مسيحية، متسببًا فى فضيحة كبرى للعائلة[٤٦٣]، وسوف يصبح واحدًا من أعظم مؤرخى الفن فى كل العصور.[١٧٠] سوف ينشئ المعهد الشهير الذى يحمل اسمه الآن فى لندن. أما ماكس، فليكس وبول فسوف يصادف كلا منهما مستقبل سياسى ومالى رائع فى ألمانيا وفى الولايات المتحدة. سوف يتكفل فريتز بالإشراف على الأعمال والهيئات الخيرية الكبيرة التى تمولها العائلة، خاصة للمهاجرين الروس، وفى فلسطين.

فى عام ١٨٩١، إنذار أول لماكس الذى كان يساعد أباه بدلاً من أخيه أبراهام، الذى سافر لدراسة الفن الإيطالى فى فلورنسا: ابتلع أحد البنوك الروسية التابعة لعائلة عمه سيجموند، بنك جونزبرج – بترسبورج، فى عملية تمويل مناجم لينا La Lina فى سيبريا الشمالية، سبعة ملايين مارك تم اقتراضها من بنك م. م. فاربورج M.M.Warburg. لم يتمكن بنك جونزبرج من الوفاء باستحقاقاته. كان من المفروض أن تتزوج روزا Rosa، إحدى بنات سيجموند، وبالتالى بنت عم ماكس، من البارون أليكسندر دو جونزبرج، المخطوبة إليه منذ عامين، فى شهر يونيو من العام المقبل. لم يكن من الوارد السماح بإفلاس بنك زوج الابنة القادم! وعليه قام موريتز فاربورج بضمان ديون جونزبرج، بلا حدود، وخصص

كل كمبيالاته. استرد بنك جونز برج عافيته. فى عام ١٨٩٤، سيقوم البارون وروزا، التى صارت زوجته، بسداد كل ديونهما خلال حفل عشاء باذخ أقيم فى منزلهما الخاص فى بترسبورج. سوف يجد كل مدعو قيمة مستحقاته نقدًا فى صورة قطع ذهبية موضوعة فى صحفته وكيسًا من الحرير موضوعًا على مقعده ليضع فيه نقوده بعد أن يقوم بعدها. لقد أنقذ البنك.. قبل أن يجرى إغلاقه مباشرة وكذلك طرد آل جونزبرج من البلاد، كما سوف نرى لاحقًا، مجردين تمامًا من أى مال.

أما مستقبلا ابنى موريتز فاربورج الآخرين، بول وماكس، المتداخلين بعمق، فقد اتجها إلى أمريكا. فى ١٨٩٤، تعرف فليكس على فريدا **Freda**، ابنة جاكوب شيف **Jacob Schiff**، أحد المهاجرين الألمان، الذى كان وقتها، كما سوف نرى، على رأس بنك كوهن لويب **Kuhn Loep**، أحد أشهر أصحاب البنوك اليهود فى نيويورك وأحد أثرى أثرياء أمريكا. كان حبًا من أول نظرة. ولمرة واحدة، لم يكن ذلك زواج مصلحة تم الترتيب له. سيتزوج فليكس من فريدا، وسوف يذهب للعيش فى نيويورك وسوف يعمل لحساب والد زوجته. فى مارس ١٨٩٥، كان احتفال الزواج مناسبة لهامبورج كلها وكذلك لعدد من أصحاب المصارف فى أوروبا لعبور الأطلنطى على متن سفينة تابعة لشركة هاباج **Hapag**، شركة النقل البحرى التى أسسها لتوه ألبرت بالاين **Albert Ballin** ، صديق ماكس. وقع بول، وصيف أخيه، فى غرام نينا لويب **Nina Loep**، عمة فريدا الشابة. زواج آخر. صار بول زوجًا لعمة زوجته (فى مقام عم أخيه)، واستقر هو الآخر فى نيويورك حيث سوف يصير بدوره أحد المساهمين فى بنك كوهن لويب. هكذا استقرت فى أمريكا، فى أولى مراتب الثراء[١٨]، وتحت اسم فاربورج، واحدة من أقدم العائلات اليهودية التى كانت لا تزال تعمل فى مجال البنوك ، والتى قدمت من إيطاليا فى القرن السادس عشر تحت اسم ديل بانكو **del Banco**.

ظل ماكس فى ألمانيا لإدارة المؤسسة العتيقة بعد تقاعد والده فى ١٨٩٨. ارتبط بشدة بالمسئولين الألمان، راغبًا فى الانخراط فى المغامرة الاستعمارية والابتعاد عن القيصر المعادى للسامية. بعد فترة سوف يرسم له حاييم وايزمان **Chaim Weizman**، مهندس يهودى روسى حصل على الجنسية الإنجليزية، سيكون علينا التحدث عنه لاحقًا، صورة

قاسية، كانت مع ذلك صالحة لوصف كل المولين اليهود فى تلك الفترة: "كان النموذج الفعلى ليهودى القصر، ألمانى أكثر من الألمان، متملق، مواطن ممتاز، متلهف على اكتشاف وتخمين خطط ومقاصد مشروعات السادة الألمان مبكرًا(٤٤٣)".

فى عام ١٩٠١، أغلقت أبواب المؤسسة الأم، بوفاة ويلهيم كارل فون روتشيلد Willhelm Carl Von Rothcild دون أن يخلف وريثًا: لم يكن من الوارد أن يعهد بها إلى أحد الأغراب. غادر آل روتشيلد ألمانيا. كانت الاستثمارات أقل يقينًا ووضوحًا، أقل إحكامًا: فى عام ١٩١١، لجأ آل روتشيلد إلى بيع حصصهم فى آبار بترول باكو Bakou إلى شركة شل الملكية الألمانية. دون أن يكون بالإمكان ربط هذا القرار بمقاطعة النظام القيصرى.

بدأ مجد ودور هذه البنوك فى الخفوت، حتى فى ألمانيا. كان النفوذ الاقتصادى اليهودى الألمانى، مصدر خلق ثروات البلاد دائمًا، قد صار الآن مركزًا فى ثلاثة رجال: ماكس فاربورج – الذى يمتلك البنك – ألبيرت باليّز(٨١)– المسيطر على الصناعة ابتداءً من التسليح البحرى، قطاع إستراتيجى فى تلك الحقبة – وفالتر راتينو Walther Rathenau– الذى أصبح سيد قطاع الطاقة من خلال شركة AEG، التى أسسها والده. كان ثلاثتهم من المقربين من القيصر، بالرغم من معاداته للسامية. وأكثر اقترابًا أيضًا فيما بينهم. ربط أول خط تليفونى خاص أنشئ فى ألمانيا بين مكاتب ماكس وألبيرت. أطلق م.م فاربورج بعض المشروعات فى النمسا بالاشتراك مع بنك مؤسسة الائتمان. Kreditanstalt، فى الولايات المتحدة مع كوهن لويب، فى إسكندنافيا وفى ألمانيا مع بنوك سيمنس – شوكير تفيرك Siemens – Schuckertwerke، البنك الألمانى والبنك الألمانى الشرقى. قاموا بتمويل مشروعات خطوط السكك الحديدية الصينية بالاشتراك مع مجموعة ألمانية / إنجليزية / فرنسية أمريكية يترأسها جاكوب تشيف. أما فالتر راتينو، فقد اقتحم السياسة.

تأثير البنوك اليهودية

على السياسة الأوروبية

فى القرن التاسع عشر

بسبب تقديمهم القروض إلى الدول، كان هؤلاء المصرفيون هدفًا لنفس الانتقادات التى طالت أسلافهم منذ ألف عام: متناسيةً، مُغْفلين، أن الناس قد لجأوا إليهم لأن أحدًا غيرهم لم يرد أن يسدى إليهم مثل هذه الخدمات، لأنهم كانوا مبتكرين لمصادر الثراء، لأنفسهم وللآخرين، تقول الصحافة ويقول منافسوهم: إن الحكومات ليست سوى دمى فاسدة بين أيديهم، أنهم يُقَدَمون كسادة أوروبا، يحصلون على أتعاب سخية للغاية لقاء ما يقومون بعمله. بكل تأكيد، كانت أسماء بعض المصرفيين اليهود الأوروبيين تبرز من بين أصحاب أكبر الثروات فى بلادهم. غير أن ثروة آل روتشيلد لم تقترب من المائة ثروة الأولى فى بريطانيا. وظل فريد كروب Fred Krupp أغنى ألمانى فى عصره، أغنى من الإمبراطور ذاته، فى فرنسا لم يقترب أى يهودى من ثروة آل مورنى Morny أو آل هوتانجيه Hottinguer. كانوا يمثلون نخبة ثقافية أكثر منها مادية، كما لو كانت هذه المهنة، القائمة على مراقبة وقراءة الرموز والإشارات، تخلق ميلاً لاستخدام متكلف للتأمل العقل النظرى. المال يجب أن يدور، إنه أداة عمل بالنسبة لهم، ولم يكن غاية فى حد ذاته. فى كل مكان، كان هؤلاء المصرفيون، بعد أن أكسبتهم الخبرة آلاف الأعوام من القمع والاضطهاد، يرفضون التكريم والألقاب التى تلفت الأنظار بأكثر مما يجب. إنهم يدركون أنه من الممكن أن يكونوا عرضة للبغض بسبب الخدمات التى يسدونها بسبب المال الذى يقرضونه للآخرين. وعليه فقد تعايشوا فيما بينهم بكثير من اللياقة والمجاملات وقد سيطر عليهم هاجس وحيد: تعليم الأطفال. امتلك البعض أحيانًا بيوتًا ريفية، خدمًا فى الغالب من اليهود، مجوهرات، أوانى وأدوات مائدة من الفضة، لوحات فنية، أثاث فاخر ورياش. كانت بعض السيدات يعقدن مجالس أدبية (صالونات): فى باريس، كان هناك صالون كلارا بيشوفشايم، هنربيت جولد شميت، زوجة أشيل فولد Achille Fould، صالون آل هاليفى les Halévy، السيدة شتراوس Mme Straus، فى لندن، كان لدينا صالون آل روتشيلد، فى فيينا، كانت البارونة فانى فون

أرنشتاين Fanny Von Arnstein، البرلينية الأصل، المتزوجة من مصرفى ثرى "مقبول"، تدير منتدى اجتماعيًا مرموقًا مثلها مثل هنرييت هيرتز Henriette Herz فى برلين، التى كانت تستقبل كانت Kant وهومبولت Humboldt. كان بعض هؤلاء المصرفيين من كبار جامعى التحف، بعيدى النظر، أصحاب خيالات خصبة، كانوا أحيانًا من تجار اللوحات الفنية، ميسورين وناجحين. صيغة جديدة لمهنة الوسيط الأزلية. أراد كثير من أبنائهم الفرار من مهنة المال، وبمجرد أن يستطيعوا ذلك، كانوا ينخرطون، بمباركة آبائهم فى العادة، فى المهن الفنية: هاين Heine، مندلسون Mendelssohn، أوفنباشن Offenbachen، كانوا من أوائل الأمثلة على ذلك.

لم يكن لأى منهم نفوذ سياسى حقيقى فى أى بلد أوروبى، ما عدا، وكما سوف نرى لاحقًا، واحد من آل بليشرودر فى بروسيا وعلى نحو عابر للغاية اثنان من آل بيرير Pereire فى فرنسا. لأنهم كانوا مسئولين عن تجميع المدخرات، تمويل الدول وأحيانًا الصناعة فيما بعد، الموانئ، الطرق والتسليح البحرى، ظل اليهود خاضعين تمامًا للسياسة الخارجية للدول التى يعيشون فيها. للموافقة على تقديم قرض كبير القيمة كانوا يتأكدون من عدم وجود أى موانع لدى دبلوماسييهم. إذا كان وزراء الخارجية يستشيرونهم ويستخدمونهم غالبًا مبعوثين رسميين (رسُل)، أحيانًا ضد مصرفهم المركزى أو حتى بدلاً من سفرائهم، وإذا ظلوا ضرورة حتمية لتوازن الميزانية السليم لمعظم الدول الأوروبية، فإنهم لم ينالوا من ذلك إلا وهم السلطة وتحتم عليهم الخضوع التام لها(٢٣١).

دخل بعضهم مجال السياسة. كان ميشيل جودشو Michel Goudchaux وزيرًا للمالية فى عهد الجمهورية الثانية وأشيل فولد Achile Fould كان كذلك فى حكومة الإمبراطورية الثانية. أما السير إرنست كاسيل Ernest Cassel، ابن أحد المصرفيين الصغار فى مدينة كولونيا، فقد هاجر إلى لندن مفلسًا، عُينَ مديرًا لبنك بيشوفشايم، مراسلاً لبنك كوهن لويب و م.م. روتشيلد فى لندن، أصبح صديقًا ومستشارًا لأمير ويلز، الذى كان يشاركه هواية خيول السباق. كان أحد أفراد عائلة بيشوفشايم وزيرًا فى بلجيكا. أصبح لودفيج بامبرجر مؤسس البنك الألمانى وبنك باريس والبلاد الواطئة (هولندا)، نائبًا فى البرلمان الألمانى فى عام ١٨٧٠، وأوحى بالتشريع الذى أدى إلى مولد البنك المركزى، بنك الرايخ. فى

عام ١٩٠٧، أصبح لويجي لوزاتو Luigi Luzzato وزيرًا لمالية إيطاليا، ثم رئيسًا لمجلس الوزراء. ابتدأ والتر راتينو، ابن رجل الصناعة إميل راتينو، مسيرة مهنية سياسية.

لعب مصرفي واحد – ربما الأكثر تكتمًا وتحفظًا – دورًا سياسيًا حقيقيًا في أوروبا خلال القرن التاسع عشر: جيرسون بليشرودر[٤٠٤]، الذى قدّمه البارون كارل ماير Carl Meyer إلى بيسمارك Bismarck عام ١٨٦٥، الذى كان يبحث حينها عن "مصرفي جيد في برلين". وقد كان الرجل مصرفيًا جيدًا: كان كل عملاء روتشيلد يتعاملون مع مصرفي بليشرودر عندما يتواجدون في العاصمة الألمانية، في (شارع) بيهرن شتراسه Behren strasse، على بعد عدة دقائق من قصر الإمبراطور وفي مواجهة مقر إقامة بيسمارك الجديد،(شارع) فيلهلم شتراسه Wilhelm strasse. بل إن بعض كبار المعادين للسامية المعروفين مثل رجل الصناعة الشهير هنكل Henkel، الموسيقار ريتشارد فاجنر Wagnar وزوجته المقبلة كوزيما فون بولو Cosima Von Bulow، كانا يمتلكان حسابات في بنك بليشرودر. بعد أن أصبح الرجل الممول الشخصي لبيسمارك، حاول دفع المستشار إلى إنهاء سياسة الحماية التجارية. قدم له الاعتمادات التي رفضها البرلمان البروسي لتمويل الحروب النمساوية – البروسية عام ١٨٦٦ والفرنسية– البروسية عام ١٨٧٠ – كان بيسمارك هو آخر رئيس حكومة قام بتمويل حروبه عن طريق أحد أصحاب البنوك اليهود. بفضل علاقاته مع آل روتشيلد، وفر جيرسون للمستشار وسيلة اتصال سرية مع دزرائيلي Disraeli. في عام ١٨٧١، بعد حصوله على لقب بارون، تفاوض مع آل فولد بشأن شروط السلام بين فرنسا وألمانيا. في هذا الخصوص، كتب بيسمارك الذى استخدمه دائمًا بصورة سرية للغاية، إلى أحد وزرائه: "أولاً، يجب أن يذهب بليشرودر إلى باريس، وأن يقابل زملاءه اليهود وأن يناقش ذلك (تعويضات الحرب البالغة خمسة مليارات فرنك) مع رجال البنوك[٢٠٩]". لكن ابتداءً من ذلك الوقت، تحولت معاداة السامية الخافتة المغطاة لدى بيسمارك إلى توجس جنوني متوهم من النفوذ المفترض لليهود. أصبح بليشرودر الهدف الأول: ها هو متهم بأنه جاسوس ومتآمر، مفسد وراش، يدير الأمور من وراء ستار، يمتلك قوى خفية، "لأنه كوّن ثروة من العمل في البورصة بدلاً من أن يكسب قوت يومه بعرق جبينه[٢٠٩]". نفس الاتهام بالتطفل دائمًا، أي الأخذ دون

العطاء، دون تقديم أى شيء للآخرين. اتهام واجهه اليهود دومًا، باعتبارهم أجانب، عرضة للهجوم بشكل خاص.

مهتم أكثر فأكثر بقضايا اليهود، واصل بليشرودر توسطه لخدمة مصالح الطوائف اليهودية فى ألمانيا، رومانيا وروسيا مع استمراره فى تقديم النصح للمستشار الألمانى. لن يعترف بسمارك مطلقًا لما يدين به لبليشرودر. بل إنه لن يذكر حتى اسمه فى مذكراته. كتب أحد كتاب سيرة المصرفى: "هل أدرك (بليشرودر) أن المزج بين الإنجازات والإهانات الذى ميز حياته كان عرضًا يستدل به على العلاقات غير السوية بين الألمان واليهود[٤٠٤]؟" ربما كان هذا ما شعر به من قبل موردو البلاطات الملكية فى بغداد فى القرن التاسع، فى لندن فى القرن الثانى عشر، فى قرطبة فى القرن الثالث عشر، فى سيفيل (أشبيلية) Seville فى القرن الخامس عشر، فى فرانكفورت فى القرن الثامن عشر، الذين كانوا مكروهين بقدر ما اتسعت الخدمات التى كانوا يقدمونها.

بعد موت جيرسون بليشرودر فى فبراير عام ١٨٩٣ تحول أبناؤه إلى المسيحية؛ حاول البنك التعايش. متعاونًا مع بنك روتشيلد وبنك مندلسون، ساهم أيضًا فى تقديم قروض حكومية متنوعة لتمويل السياسة الألمانية الجديدة، احتفظ البنك بموقع رئيسى فى الشئون المالية فى رومانيا، إيطاليا والمكسيك، غير أنه لم يعد فى قلب الأحداث: لم يهتم كوهن لويب وماكس فاربورج بإشراك أولاد جيرسون بليشرودر عندما تعلق الأمر بترتيب قرض أوروبى عام ١٩١٣، لتمويل خطوط السكك الحديدية الأمريكية، خاصة خط إلينوى روك المركزى، تقديرًا لذكرى والدهم، أصر ماكس فاربورج على مساهمتهم فى ذلك على الأقل بصورة رمزية. سوف نرى أنه سوف يأخذ بعد قليل الدور السياسى لجيرسون بليشرودر. وفى هذه المرة، من موقع الصدارة.

٢ ـ خيالات ثلاثة

فى الوقت الذى توقف فيه اليهود عن أن يكونوا مرابين رغم أنفهم فى خدمة بسطاء الناس، وبينما كانت أغلبيتهم العظمى لا تزال تعانى الفاقة والشتات، احتل حفنة من

الصناعيين والمصرفيين اليهود مكانة مهمة ومرموقة بل وملفتة للنظر فى الثورة المالية والاقتصادية فى أوروبا. كانت اليهودية والمال تمتزجان آنذاك وتختلطان فى أذهان رجال هذا القرن واتخذ ذلك صورة ثلاثة خيالات جديدة سوف ينجم عنها مآسى القرن المقبل.

خيال أول

من سان – سيمون Saint - Simon إلى أنفانتان Enfantin

متحررة من تسلط الحاخامات، مولعة بالحداثة، ها هى الشبيبة اليهودية تشرع فى البحث عن قادة جدد للفكر. فى البداية أغرتهم الماسونية التى ابتُكِرت تحديدًا لتجمع كل من يرغب فى مناقشة موضوعات محرمة؛ لكنها لم تستمر فى الانتماء إليها. وحتى إن كان آل روتشيلد من أصحاب النفوذ فى ذلك الطقس الأسكتلندى، وإذا كان أدولف كرميو Adolphe Crémieux قد أصبح أحد مسئوليها فى فرنسا، فى نهاية عام ١٨٦٠، وفى نفس الوقت الأستاذ الأكبر للشرق الكبير، فقد كان الماسون اليهود قلة نادرة: كانت شبكاتهم العائلية تكفيهم وتفى بأغراضهم.

فى فرنسا، اجتذب شخص غريب الأطوار عددًا من اليهود بأفكاره عن التقدم والشمولية: الكونت هنرى دو سان سيمون Le Comte Henri de Saint – Simaon (سان سيمون). ولد عام ١٧٦٠، حارب فى أمريكا، أفلسته الثورة، كان يدعو إلى ديانة كونية شاملة، "مسيحية جديدة[٣٥٣]"، عبر إلغاء الإرث والقروض الربوية والتنظيم العلمى للعمل والتطور الصناعى. فى عام ١٨٢٠، كان من بين الأوائل فى أوروبا التى مزقتها الحروب الإمبراطورية، فى الدعوة إلى إنجاز المشروعات الكبرى التى كانت آنذاك محل سخرية، وإلى التوسع فى الائتمان منخفض الفائدة، محل اعتراض كبير آنذاك أيضًا، بل إنه قد جعل من التمويل الجزىء ومن البنك السخى الموُجهين الأساسيين لديانته الجديدة.

كان ملهمًا لأوجست كونت Auguste Compte وليون والراس Leon Walras، وقع بعض الشباب اليهودى الفرنسى فى إغواء هذه العقيدة، التى كانوا يرون فيها

ما يشبه طريقة للاندماج فى المجتمعات المسيحية دون إنكار لدور المال فى خدمة أعمال الخير، صيغة التلمود القديمة. أصبح ليون هاليفى **Leon Halevy**، ابن أحد المصرفيين الباريسيين، سكرتيرًا لسان سيمون. وصار ابن مصرفى آخر من بوردو، **Olinde Rodringues** أولاند رودريجيز نصيره وراعيه. بعد موت الأستاذ عام ١٨٢٥، أصدر رود ريجيز مجلة، "المنتج" بالاشتراك مع أشهر تلاميذ سان سيمون، بروسبير أنفانتان **Prosper Enfantin** : أحد مدعى الرؤى الدينية التى تقارب حد الاضطراب العقلى. انتقل تابعان آخران من القول إلى الفعل وشرعا فى تنفيذ مشروعات السان سيمونيين. إنهما الأخوان بريير **Pereire** المنتميان أيضًا إلى الجنوب الغربى من فرنسا، واللذان كانا من موظفى آل فولد فى البداية. سوف يؤكد ذلك إميل بريير **Emile Pereire** : "لا يكفى أن نقوم بالكتابة عن برامج ومشروعات كبيرة؛ إننى أريد أيضًا أن أنفذ أفكارى فوق الأرض". إنهما يحلمان بأن يكونا بناة عالم جديد يمحو التطور الصناعى فيه الفوارق الدينية والاجتماعية ومن أجل هذا سوف ينجحان فى تحقيق الحلم الأول لكنهما سيهلكان بسبب الأهداف الأخرى.

فى عام ١٨٣٢، دون أن يُملكا أى نقود، عرض الأخوان بريير مشروعًا أوليًا لخط السكك الحديدية باريس - سان جيرمان - أون - ليه كما قدما مشروعًا لإنشاء صندوق للتوفير. لم يكونا الوحيدين فى ذلك: أنشأ بنك فولد - أوبنهايم شركة السكك الحديدية باريس - مودون - سَيفْر - فرساى **Paris - Meudon - Sevres - Versailles**. فى عام ١٨٤٤، أنشأ الأخوان بريير أول صندوق تقاعد عمالى وناضلا من أجل إلغاء العبودية. فتح أمامهما نابليون، عندما وصل إلى السلطة الحديدية، كل الأبواب. فى عام ١٨٥٥، حصلا على امتياز أحد خطوط السكك الحديدية. وقام روتشيلد بتمويله - الذى كان لا يزال يدعمهما، ولكن ببعض التحفظ - بناءً على أوامر الإمبراطور. فى عام ١٨٥٧، قاما بتوحيد كل خطوط الجنوب الشرقى تحت الاسم الرمزى PLM - خط باريس - ليون - المتوسطى وساهموا فى إقامة شبكات خطوط حديدية فى إسبانيا وفى تونس. فى فورة

النمو هذه، موّل الشقيقان أيضًا مشروعات هوسمان Haussmann(*) المعمارية فى باريس وكذلك إنشاء الشركة العامة للنقل عبر الأطلنطى، التى كان عليها أن توفر لفرنسا الوسائل التى تجعل منها قوة بحرية عظمى. هنا كان انتصار الأخوين.

أما الخسارة فجاءت عن طريق البنك. لقد سمح لهما نابليون الثالث عام ١٨٥٢ على الرغم من اعتراضات مؤسسات السوق المالية، بتأسيس الشركة العامة للائتمان العقارى بغرض تقديم قروض منخفضة الفائدة إلى مقاولين جدد. إذا كان النجاح سياسيًا، فقد كان الفشل ماليًا: تكاليف إدارة مرتفعة بأكثر مما ينبغى. فى عام ١٨٦١ - العام الذى تم فيه توقيع اتفاقية التبادل الحر مع إنجلترا التى أوحى بها الأخوان إلى نابليون الثالث - كان آل روتشيلد ومعهم أشيل فولد - مصرفى يهودى، تم تعيينه وزيرًا للمالية مرة أخرى عام ١٨٦١ - قد قرروا التخلص من الأخوين بريير كليهما. فى عام ١٨٦٣، رفض فولد السماح لهما بتحويل بنك سافو Savoie، الذى قاما بشرائه عندما ضُم الإقليم إلى فرنسا، إلى بنك منافس لبنك "دو فرانس"، الأمر الذى كان قد أتاح لهما إعادة خصم محفظة قروض بنك الائتمان العقارى وإصلاح عجز ميزانيته. لم يعد لبنكهما حينذاك أى مصادر للتمويل، فى عام ١٨٦٧، مر البنك بأزمة مالية بسبب بعض العمليات العقارية فى مارسيليا - لم يقم بنك فرنسا بإنقاذه إلا فى مقابل استقالة الشقيقين بريير. اندمج بنك الائتمان العقارى فيما بعد فى بنك الائتمان العقارى الفرنسى، ثم فى بنك الاتحاد الباريسى ثم فى بنك BNCI وأخيرًا فى بنك BNP.

حتى وفاتهما سوف يواصل الشقيقان بريير الدفاع عن أفكارهما ومشروعاتهما. فى عام ١٨٨٠، سوف يلهم إيزاك بريير Issac Pereire، آخر السان سيمونيين، البابا ليون الثالث عشر ذاته أول رسالة بابوية حول التطور الاجتماعى، الثورة Rerum Novarum.

(*) جورج أوجين هوسمان (٢٧ مارس ١٨٠٩ / ١١ يناير ١٨٩١) - المعروف بالبارون هوسمان، مهندس معمارى شهير، اختاره الإمبراطور نابليون الثالث لتنفيذ برنامج ضخم للتعمير فى باريس، استفاد من خدماته الخديو إسماعيل فى مصر.. المترجم (عاصم عبد ربه).

خيال ثان

من ماركس إلى درومون De Marx à Drumont

بعد الخلط بين اليهودى والمال وسلطة الدولة، ها هو الخلط بين اليهود، والمال والاستغلال الرأسمالى. بينما كانت العقيدة اليهودية تفرض على الطوائف أن تكون نافعة للعالم، اتهمت هذه الطوائف بالرغبة فى تدميره. كما كان العلاج الوحيد الممكن لمواجهة الإفلاس هو إبعاد الأخوين بريير، كان العلاج الوحيد لمواجهة الاستغلال، كما كان معتقدًا، هو اختفاء اليهودية، المفترض أن يؤدى إلى زوال الاستغلال.

هذا الارتباط بين الرأسمالية واليهودية، لدرجة أن تدمر إحداهما الأخرى، مَثَّلَ أطروحة فيلسوف شاب ولد فى أسرة من الحاخامات والتجار اليهود، نزحت من مدينة تريفز Trèves (كان أبوه هو هيرشل ها–ليفى Hirschel Ha-Levi وأمه هنريتا بريسبورج هيرشل Henrietta Pressburg Hirshel) تحول إلى البروتستانتية عندما كان فى السادسة من عمره. فى عام ١٨٤٤، قبل الإعلان "المانفيستو" الذى سيجعله مشهور عالميًا بأربعين عامًا، نشر كارل ماركس Karl Marx– حيث إن الأمر يتعلق به – كتابه "حول المسألة اليهودية"، ردًا على برونو بوير Bruno Baure، الذى كان قد اقترح على اليهود فى العام الماضى الاندماج فى المجتمع حتى ينالوا حريتهم.

بالنسبة لماركس كان اليهود هم قلب وقالب الرأسمالية؛ الاندماج فى المجتمع لن يغير إذًا شيئًا من موقفهم. لا يمكنهم التحرر إلا بزوال الرأسمالية واليهودية معًا. فى هذا النص المروع، أحد المصادر غير المعتمدة لمعاداة السامية الاقتصادية الحديثة، يمكننا أن نقرأ[٢٧٠]:
"دعونا لا نبحث عن سر اليهودى فى ديانته، لكن لنبحث عن سر الديانة فى اليهودى الحقيقى. ما هو الجوهر الدنيوى لليهودية؟ إنه الحاجة العملية، المنفعة الشخصية. ما هى عبادة اليهودى الدنيوية؟ إنها المتاجرة. من هو إله اليهودى الدنيوى؟ إنه المال (....) الجنسية التى أتخيلها لليهودى هى جنسية التاجر، رجل المال. لا تصل اليهودية إلى ذروتها إلا بكمال المجتمع البورجوازى؛ لكن المجتمع البورجوازى لا يصل إلى كماله إلا فى المجتمع المسيحى (....) إن المسيحية قد نبعت من اليهودية وانتهت بالعودة إليها. وعليه

فليس فى أسفار موسى الخمسة والتلمود فقط يمكننا أن نجد جوهر اليهودى فى أيامنا هذه، إننا نجده أيضًا فى مجتمعنا الحالى (.....) المال هو إله إسرائيل الغيور، الذى لا ينبغى أن يقف أمامه آله آخر". من هنا وضع ماركس الخطوط الأساسية لنظرية رأس المال التى سوف يبسطها ويطورها مطولاً بعد ثلاثين عامًا: "يحط المال من قيمة كل آلهة البشر ويبادلها أو يحولها إلى سلع. المال هو القيمة العامة ويمثل فى حد ذاته كل شىء[٢٧٠]".

بعد ذلك، من خلال التلاعب بكلمة "تحرير" هدف ماركس إلى إظهار أن تحرير اليهود يقتضى أن يتحرر المجتمع من اليهودية: "إن التحرير السياسى لليهودى، للمسيحى، لأى متدين آخر، هو باختصار، تحرر الدولة من اليهودية، المسيحية، من الدين بشكل عام[٢٧٠]". بعبارة أخرى، من أجل تحرير اليهود، ومعهم أيضًا كل المؤمنين الآخرين، يجب التخلص من كل الديانات ومن النظام الرأسمالى الذى أوجدته.

فى هذا النص المفزع يقول ماركس: إن اليهودية ورأس المال لا يمكن أن ينفصلا؛ و إننا لا يمكن أن نتخلص من أحدهما دون الخلاص من الآخر، إن العامل يستطيع عبر ثورة ضد الملكية الخاصة، أن يحرر نفسه فى نفس الوقت من الإله ومن رأس المال. باختصار "يمكن للعامل أن يتحرر" عبر نضاله.

هكذا اختلط مفهوما معاداة الرأسمالية ومعاداة اليهودية فى فكرة غامضة اقتات عليها كثيرون بعد ماركس. واقع الأمر، أنه إذا كان الخلاص من الرأسمالية بالنسبة لماركس هو ما سوف يؤدى إلى التخلص من اليهودى، فنظير ذلك بالنسبة للآخرين صحيحًا أيضًا: التخلص من الديانة اليهودية – أى التخلص من اليهود بالنسبة لهم – سوف يسمح بالتخلص من النظام الرأسمالى الذى كان اليهود مصدره الأساسى.

فى تهكم بشع، وبتحريف عبارة ماركس، سوف يكتب ألمان آخرون بعد قرون من الزمان، على أبواب المعسكرات(*): "العمل يحرر الإنسان".

(*) الأرجح أن الكاتب يقصد أبواب معسكرات الاعتقال التى أودع فيها النازى اليهود الألمان وأجبرهم فيها على العمل.. (المترجم عاصم عبد ربه).

ابتداءً من العام التالي، أي عام ١٨٤٥، في فرنسا، كان ألفونس توسنل Alphonse Toussenel، أحد تلاميذ فوريه(*)، متخصص في علوم الحيوان والصيد، قد استعاد أطروحة ماركس: أن اليهودي هو رأس المال. وضع كتاب "اليهود، ملوك العصر". وكتاب "تاريخ الإقطاع المالي"(٤١٦). نجاح باهر سوف يلهم درومون Drumont، جورج دوشين Georges Duchene وحركة العمل الفرنسي.

في عام ١٨٦٠، كتب يهودي ألماني آخر، فرديناند لاسال Fredinand Lassalle، مؤسس تيار الحركة الاشتراكية، "يمكن أن أؤكد أنني لم أعد يهوديا" (....) أنا لا أحب اليهود بل ربما كنت أميل أيضًا إلى كراهيتهم بشكل عام" (٢٧٨). كراهية الذات، في بيئة معادية، تدفع حتى اليهود إلى كراهية الديانة اليهودية.

بعد فترة قصيرة، سوف ينزعج فردريك إنجلز (**) F. Engels، نصير أفكار ماركس، من الأضرار التي بدأ العداء للسامية يسببها في وسط الطبقة العاملة الألمانية، ويأسف لأنه يستخدم "كسلاح دعائي للطبقة البورجوازية لتحويل مشاعر جماهير العمال عن عداء النظام الرأسمالي"(٢٧٨).: كان يخشى أن يكون كراهية اليهود بمثابة محول أو بديل عن الغضب المشروع للطبقات المستغلة ضد أصحاب العمل، وأن يبعدهم عن الأحزاب الثورية. "بإثارة مشاعر العداء تجاه اليهود داخل أوساط العمال، تتفادى الطبقات البورجوازية أن تتوجه المطالب العمالية ضدها(١٣٧)". كان إنجلز يرى أن كل الطبقات وكل الشعوب المضطهدة ينبغي عليها أن تنصهر في اشتراكية عالمية، أسرة جديدة، هوية جديدة للشعوب، تجّمع العمال والأقليات من كل الأجناس، في معركة واحدة ضد البورجوازية(١٣٧). بمعنى آخر، أنه سيكون من مصلحة اليهود التحالف مع الطبقة العاملة العالمية ليطالبوا هم أيضًا بحقوقهم المدنية والاجتماعية باعتبارهم أقلية.

(*) Fourier: جوزيف فوريه (١٧٦٨ - ١٨٣٠) رياضي، فيزيائي فرنسي، تربى تربية عسكرية، تميز بالنبوغ منذ طفولته، أضاف كثيرا إلى علم الرياضيات (المترجم - عاصم عبد ربه)

(**) Engels: فريدريك إنجلز (١٨٢٠ - ١٨٩٥) فيلسوف وصناعي ألماني، ساعد ماركس ماديا وأصدرا معًا البيان الشيوعي عام١٨٤٨، وساعد في إصدار كتاب رأس المال ماديًا .. المترجم (عاصم عبد ربه).

في عام ١٨٧٣، رفض تشارلز داروين (*) Charles Darwin، أن يكتب مقدمة كتاب "رأس المال" لماركس عندما طلب منه ذلك، لافتًا في حذر إلى أن ذلك ليس من اختصاصه.

في ألمانيا، انتقد أوتو جلاجو Otto GLagau عام ١٨٧٤، سلسلة من المقالات، تقلبات البورصة و"مضاربات اليهود المالية". قابل بين "رأس المال النهّاب المخاتل" (اليهودي) وبين رأس المال المبتكر المنتج" (المسيحي). الثاني وطني حمائي؛ الأول عالمي بلا وطن. "إن نظام التبادل التجاري الحر الذي تدعو إليه مدرسة مانشيستر Manchester هو عقيدة المال عند الملك ميداس (**) Midas. إنه يريد أن يحول كل شيء إلى نقود؛ يمجد الأنانية، يرفض كل مشاعر التضامن وكل مبادئ الأخلاقية، إن الديانة اليهودية تمثل تطور هذا النظام مدفوعًا إلى أقصى حدوده. إنها لا تهتم إلا بالتجارة وأيضًا بالمساومة والربا فقط. اليهودي لا يعمل، لكنه يقوم بتشغيل الآخرين؛ إنه يضارب ويعقد الصفقات ويتاجر بناتج العمل اليدوي والفكري للآخرين. إن مركز نشاطه، هو البورصة[٣١٠]».

لقد تشبه اليهود بالأغراب، لأنهم كانوا محل ارتياب خصوصًا عند تزايد حدة النزاعات القومية الألمانية، الفرنسية أو الروسية.

في عام ١٨٧٨، في أحد المنشورات مجهولة الإصدار، «اليهودية في الموسيقى» كتب ريتشارد فاجنر: «إن اليهود، على شاكلة روتشيلد، كانزي الذهب، يفسدون العالم[٣١٠]».

في عام ١٨٧٩، ابتكر أحد الصحفيين الألمان، فيلهلم مار Wilhelm Marr مصطلح "معاداة السامية" للإشارة إلى ما أطلق عليه الكراهية "غير الطائفية" تجاه اليهود والديانة اليهودية، أي كراهية الغريب، الخائن المحتمل، كراهية من يخل بالنظام الوطني ويفتح الحدود أمام النفوذ الأجنبي[٣١٠]. كان التعبير غامضًا بما يكفي لإخفاء كراهية اليهود عبر إدخالها في معنى مطلق أكثر اتساعًا وأفضل توافقًا مع المشاعر الوطنية البازغة.

(*) تشارلز داروين (١٨٠٩-١٨٨٢): من أهم علماء التاريخ الطبيعي، أشهر أعماله أصل الأنواع، نظرية التطور، الانتخاب الطبيعي.... المترجم (عاصم عبد ربه).

(**) Midas: الملك ميداس الشهير في الميثالوجيا الإغريقية، الذي كانت له القدرة على تحويل أي شيء يلمسه إلى ذهب، تحقيقًا لأمنية قديمة، يقال إنه كان ابن غورديوس من الربة الإغريقية أوبيلي ... المترجم (عاصم عبد ربه).

في نفس العام ١٨٧٩، ندد أدولف شتوكر Adolf Stoker، كاهن كنيسة البلاط الإمبراطورى اللوثرى المذهب ومؤسس الحزب المسيحى الاجتماعى الجديد، بالدعوة إلى تحرير اليهود الذى يشجع على المضاربة فى البورصة وانتقد "رأس المال المتحرك" فى "الفروع الدولية عديمة الجنسية". أنشأ رابطة معادية للسامية بالاشتراك مع فيلسوف شهير (كفيف البصر) كارل أوجين دوهرينج Karl Eugen Duhring وطالب بطرد اليهود الأجانب وطرد اليهود الألمان من الوظائف العامة. لقد انبعث من هذه الكلمات الخوف من العالم القادم، رفض الحداثة، الخوف مما يمكن أن يحمله الغريب من جديد ومن مسببات الإزعاج.

فى العام التالى، ١٨٨٠، وضع فرانز مهرينج Franz Mehring، وفريديك إنجلز مصطلح "الرأسمالية"؛ كانت كل التعبيرات التى تنتهى بـ "Isme" تلقى رواجًا كبيرًا (الرأسمالية Capitalisme ... إلخ).

مع الأزمة الاقتصادية عام ١٨٨٣ تحول مفهوم معاداة السامية، النظرى حتى الآن، إلى مرحلة التطبيق العملى، أولاً فى فرنسا وفى ألمانيا. بالربط بين كراهية رأس المال، كراهية السلطة، كراهية اليهود فى أذهان الشعب، نُسب إلى اليهود كل حالات الإفلاس، كل صور عدم المساواة، كل أشكال البؤس الاجتماعى. فى تلك السنة، على سبيل المثال، عزا إميل بونتو Emile Bontoux، أحد موظفى روتشيلد القدامى إلى مستخدميه الأول (آل روتشيلد) مسئولية انهيار البنك الذى يعمل فيه، بنك الاتحاد العام، الذى أنشئ عام ١٨٧٨.

فى عام ١٨٨٦، بعد موت فيكتور هوجو (*) Victor Hugo، نشر إدوار درومون Edouard Drumont(**) واحدًا من أهم الأعمال الناجحة فى نهاية القرن التاسع عشر[٣٦]، فرنسا اليهودية، الذى وصف فيه اليهودى باعتباره كائنا غير آدمى، تقريبًا بهيمة، وحش

(*) Hugo: فيكتور هوجو (١٨٠٢-١٨٨٥) روائى وشاعر وكاتب مسرحى فرنسى شهير، إضافة إلى اهتماماته السياسية، أشهر أعماله البؤساء. (عاصم عبد ربه)

(**) E. Drumont (١٨٤٤ - ١٩١٧) صحفى، كاتب، ناقد سياسى فرنسى، مؤسس الرابطة الوطنية فى فرنسا وخالق تيار معاداة السامية ... المترجم (عاصم عبد ربه).

فيزيقى: "إن العلاقات المميزة الأساسية التى يمكننا التعرف من خلالها على اليهودى تظل: هذا الأنف المعقوف الشهير، العيون الرامشة، الأسنان المتلاصقة، الآذان البارزة ، الأظافر المربعة، الجذوع الطويلة جدًا، الأقدام المسطحة، الركب المدورة، الكعوب الممتدة للخارج بصورة غير عادية، الأيدى اللينة الملساء الريانة التى تميز المنافقين والخونة(١٢٣)".

لم يكن على "العداء للسامية" آنذاك إلا أن يجد فرصة ليتبلور إن أمكن حول أحد الأجانب الموجودين فى قلب السلطة، فى وضع يسمح له بخيانة الوطن. ربما كان هذا ما حدث، فى فرنسا، فى السابع من سبتمبر ١٨٩٢، حيث اندلعت فضيحة سوف نتحدث عنها لاحقًا، فضيحة قناة بنما؛ غير أن كارثة البورصة هذه كانت لا تزال غير كافية لبلورة كراهية قومية ضد اليهود.

فى السابع من ديسمبر ١٨٩٣، انتقد ليبرمان فون سوننبرج **Libermannvon Sonnenberg** فى البرلمان الألمانى، باسم رابطة المعاداة للسامية وباسم ناخبيه الجدد، "البورصة، التى كانت بالكامل تقريبًا بين أيدى اليهود(٣١٠)". نفس الاتهام بتشكيل نفوذ أجنبى. السلطة السياسية الألمانية لا تبالى. فى ألمانيا كما فى فرنسا لم يقبل بأى يهودى فى الوظائف العامة العليا – خاصة فى الجيش وفى السلك الدبلوماسى – ولا فى الجامعة. نادى كثير من اليهود الألمان آنذاك بالاندماج الحثيث الخطى، بعدم التحدث إلا بالألمانية ابتداءً من الآن فصاعدًا، التماثل مع الثقافة الألمانية والتمسك بها، دون التخلى فى المقام الأول عن عقيدتهم.

ثم حانت الفرصة التى كثيرا ما انتظرها المعادون للسامية. فى فرنسا، فى الرابع من أكتوبر ١٨٩٤ :فها هو يهودى تحوم حوله شبهة الخيانة(٧٢). لم يكن شخصًا عاديًا: إنه نقيب المدفعية ألفريد دريفوس **Alfred Rreyfus**، خريج كلية العلوم التقنية، ابن أحد رجال الصناعة الأثرياء فى منطقة الألزاس الذى اختار، فى عام ١٨٧١، أن يظل فرنسيًا وكذلك أبناؤه القُصر. لامع جدًا، اليهودى الوحيد الذى خدم كضابط فى الأركان العامة – التى قبل فيها كمتدرب بكثير من التحفظ – ألقى القبض على النقيب دريفوس: لأنه ربما كان قد نقل بعض الوثائق السرية إلى ألمانيا، حيث يعيش بعض أفراد عائلته الألزاسية. تم

مقارنة خط يده على عجل بالخط الذى كتبت به إحدى الوثائق المخطوطة، "كشف حساب" الجاسوس. زعم بالعثور على دليل إدانة فيه. هكذا، لم يكن حتى أكثر اليهود اندماجًا فى مجتمعه يستحق أن يكون مواطنًا فيه. أنكر دريفوس كل ما نسب إليه. تولى الدفاع عنه أخوه وكذلك أحد الصحافيين اليهود الشباب، بيرنار لازار **Bernard Lazare** – الذى نشر لتوه "تاريخ معاداة السامية". سوف تقسم هذه "القضية" فرنسا إلى معسكرين اختلط فيهما الاشتراكيون والمحافظون. "القضية" لم تكن قضية مالية.

فى ٢٢ ديسمبر عام ١٨٩٢، مَثَلَ دريفوس أمام محكمة عسكرية حاكمته على أساس ملف احتفظ به سريًا، أدين دريفوس بجريمة الخيانة وحكم بتجريده من رتبته العسكرية وبالنفى المؤبد وتم إرساله إلى السجن فى كايين **Cayenne**. قام بيجى **Peguy**(*)، بروست **Proust**(**)، مالارميه **Mallarme**(***)، بتعبئة "المثقفين" فى فريق الدفاع عنه – بول فاليرى **Paul Valery**(****)، وكثير من المثقفين الآخرين لم يكونوا فى جانبهم. فى ١٠ نوفمبر ١٨٩٦، نشرت صحيفة "الصباح" لوماتان **Le Matin** صورة طبق الأصل من الكشف – المستند – الذى يدين دريفوس: ظهر بوضوح أن الوثيقة لا يمكن أن تكون من خط يده. كانت صحيفة **Le Matin** ، تعود جزئيًا إلى أحد رفاق دورة دريفوس، شخص يسمى فيليب بينو – فاريلا **PHilipe Bunau – Varilla**[٧٣]، الذى سنجده فيما بعد مساعدًا فى تمويل قناة بنما... من خلال البنوك اليهودية الأمريكية ! أما العقيد بيكار **Bicquart** الذى تولى الدفاع عن دريفوس، فقد حام حوله الشك بأنه تسبب فى تسرب الدليل الزائف إلى الصحافة.

Peguy(*) : شارل بيجى (١٨٧٣ – ١٩١٤) شاعر ، كاتب ، فيلسوف فرنسى ، كتب فى الاشتراكية وفى الوطنية ، مات فى إحدى معارك الحرب العالمية .

Proust(**) مارسيل بروست (١٨٧١ – ١٩٢٢) روائى فرنسى شهير ، أبرز أعماله سلسلة روايات البحث عن الزمن الضائع – ٧ أجزاء

Mallarme(***) استيفن مالارميه (١٨٤٢ – ١٨٩٨) شاعر فرنسى من رواد الرمزية فى الشعر ، عمل مدرسا قبل أن يتفرغ لمشروعه الشعرى.

Paul Valery(****) (١٨٧١ – ١٩٤٥) شاعر ، كاتب ، فيلسوف فرنسى ، تميز بسعة اهتماماته ، وصف بأنه علامة ، تلقى تعليمه بجامعة مونبلييه فى جنوب فرنسا ، رشح لنيل جائزة نوبل عن مجمل إسهاماته الأدبية .. المترجم (عاصم عبد ربه).

بعد عام من ذلك فى نوفمبر ١٨٩٧ - شهر حاسم فى سير القضية[٧٢] - نشرت جريدة Le Matin مرة أخرى خطابين موجهين إلى المبعوث العسكرى الألمانى، المفترض أن دريفوس قد قام بكتابتهما كما نشرت خطابًا حقيقيًا لدريفوس موجهًا إلى بينو - فاريلا. أضيف هذا الدليل إلى الأدلة التى جمعها بيرنار لازار خلال العام المنصرم. فى ١٢ يناير التالى، نشر إميل زولا (*) Emile Zola مقالته الشهيرة - إنى أتهم - فى صحيفة الفجر L'Aurore، مطالبًا ببراءة دريفوس.

بالرغم من تدخل كثير من المدافعين عن دريفوس فقد تضاعف العداء للسامية فى البلاد، بما فى ذلك داخل الأوساط الشعبية. وأراد بعض الاشتراكيين استعادته واستغلاله ليصنعوا منه موضوعًا وسلاحًا ضد البورجوازيين. فى يونيو عام ١٨٩٨، تشكل اتحاد يضم العمال اليهود فى باريس، واعترض لدى نقابة العمال الفرنسية على الممارسات المعادية للسامية التى يقوم بها الاشتراكيون: "نسجل أن موقفكم (موقف الاشتراكيين الفرنسيين) تجاه معاداة السامية لم يكن صريحًا وواضحًا بما يكفى، حماسيًا بما يكفى، كما كان فى حالات أخرى مشابهة تعرض فيها أحد مبادئ التقدم والإنسانية للخطر (....) أنتم تغضون الطرف لأنكم تعتقدون أن الشر يمكن أن يكون مفيدًا، لأنكم تعتبرون معاداة السامية شجرة مرة، لكنها تنمو جيدًا وبسرعة فى تربة خاصة بعينها ولسوف يكون من السهل، فيما بعد، أن تطعم عليها الاشتراكية. أنتم تريدون تركيز العداء الطبقى فى العداء لليهود. بعبارات أخرى، أن موقفكم عبارة عن صفقة، على المستوى السياسى، بين الشهوات البربرية القديمة، والشهوات الوحشية القديمة والآمال الجديدة الإنسانية والتحررية". نص مُنذر: استمرت أفكار الشاب ماركس تدور فى الأوساط الاشتراكية ونظرًا لأن بعض اليهود كان من الرأسماليين، يمكننا إذًا أن نندد بالجميع. اليهودى الخائن يبرر عنف الاعتداءات الموجهة ضد رأس المال، يهودى أو غير ذلك. تبدت نذر مآساتى القرن العشرين.

Emile Zola(*) (١٨٤٠ - ١٩٠٢) كاتب فرنسى مهم، مؤسس المدرسة الطبيعية فى الأدب، ساهم فى تطوير الكتابة المسرحية، كانت له اهتماماته السياسية والإنسانية (المترجم - عاصم عبد ربه).

في نهاية شهر أغسطس عام ١٨٩٨، اعترف أحد ضباط المخابرات الفرنسية، العقيد هنرى **Henry**، بأنه الجانى الذى قدم المستندات المزورة التى أدانت دريفوس، ثم انتحر[٧٢].

فى سبتمبر ١٨٩٩، أعيدت محاكمة دريفوس. صدر بحقه هذه المرة حكم بالسجن لمدة عشرة أعوام مع الأشغال الشاقة، لكن الرئيس لوبيه **Loubet**[٧٣] عفا عنه مباشرة. طالب أنصاره برد اعتباره وحقوقه وأهليته.

فى غضون ذلك الوقت، فى ألمانيا، بعد أن فقد جيرسون بلايشرودر حظوته، كان ماكس فاربورج (واربورج بحسب النطق الإنجليزى) الوحيد الذى احتفظ بالنفوذ، وكان المعادون للسامية يعبرون عن أنفسهم صراحة. فى فيينا، كان كارل ليجير **Karl Luege**، زعيم حزب الاشتراكى المسيحى المعادى للسامية، الذى تم تعيينه حديثًا عمدة للعاصمة النمساوية، يتهم علنًا يهود المدينة البالغ عددهم مائة ألف بأنهم السبب فى مشاكلها المالية.

فى عام ١٨٩٩، كتب هويستون ستيوارت شامبرلان **Houston Stewart Chamberlin** الألمانى الأصل، الحاصل على الجنسية الإنجليزية والذى صار زوج ابنة ريتشارد فاجنر فى كتابه "أسس القرن التاسع عشر" أن المسيح لم يكن يهوديًا ولكنه كان آريًا وأن اليهود "يمثلون أكثر أجناس الأرض فسادًا وانحطاطًا"[٣١٥].

فى فرنسا انتهت القضية: فى يوليو عام ١٩٠٦، أعادت محكمة النقض النقيب دريفوس إلى رتبته. وبانتهاء القضية، كانت فرنسا الحديثة قد ربحت معركة، لم يعد العداء للسامية مسيطرًا. غير أن هذا الأخير لم يكن قد قال كلمته الأخيرة: فى الرابع يونيو عام ١٩٠٨، أثناء نقل رماد إميل زولا إلى البانتيون(*)، أطلق مهووس النار على العقيد دريفوس وأصابه بجرح. بعد ذلك بفترة قصيرة، أصبح أحد أبطال تلك المغامرة، العقيد بيكار، وزيرًا للحرب.

(*) Lepantheon : البانتيون – مقبرة العظماء، مبنى يضم رفات عظماء فرنسا، يقع بالحى اللاتينى فى باريس (الخامس) افتتحت عام ١٧٩٠ .. المترجم (عاصم عبد ربه).

خيال ثالث

من فيبر Weber إلى سومبارت Sombart

مع الانفصال التدريجي للكنيسة عن الدولة في فرنسا وخفوت الاتهامات الصريحة في أوروبا الغربية لليهود بقتل الإله، أصبحت الديانة اليهودية موضوعًا للدراسة الاجتماعية. آنذاك اتخذ الوهم أبعادًا أخرى جديدة، جامعية هذه المرة: ها نحن نجعل من الأخلاق اليهودية مصدرًا تاريخيًا وأيديولوجيًا (فكريًا) للرأسمالية. لكن إن كنا مستعدين لقبول هذه الأخيرة بل ولتمجيدها، فسيكون ذلك بالتخلص من أصولها اليهودية. كما أردنا إبعاد اليهود عن تاريخ الرب، فإننا نريد الآن إبعادهم عن تاريخ المال. أو بالأحرى طرحهم في زواياه الأكثر إظلامًا، حيث كان للمال أسوأ ما فيه وحيث كان أجدب ما يكون. لم يعد الأمر يتعلق بالبحث عن وجود اليهودية في الحقيقة، لكن في العقول. إظهار أنها كوّنت الجزء الذي لا نجاهر به كثيرًا في النظام الرأسمالي، المرتبط بالمضاربات غير المنتجة للثروة. لكي نجعل من النظام الرأسمالي نظامًا أخلاقيًا، سنخلص إلى ضرورة التخلص من هذا الإرث باختصار تنقية الرأسمالية من أصولها اليهودية، كما تمكنت الكنيسة بنجاح هائل من نسيان أصولها العبرانية. كان هذا هو ما يطمح إليه بعض المنظرين الألمان، في نهاية القرن التاسع عشر.

في عام ١٩٢٠، بعد أكثر من عشرين عامًا من نحته، وبعد ظهور كتاب "رأس المال" لماركس، استخدم فيرنر سومبارت Werner Sombart مصطلح "الرأسمالية" للمرة الأولى في إحدى المحاضرات الجامعية، Der modern Kapitalismus[٢٩٢].

بعد ذلك بعامين، في عام ١٩٠٤، سعى ماكس فيبير Max Weber، فيلسوف شهير موسوعي الثقافة، في "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية"، إلى إيضاح أن أصل الرأسمالية يكمن في أخلاقيات دينية سابقة على مولدها وليس في مجرد طريقة لتنظيم المبادلات الاقتصادية: النظام الرأسمالي ليس مسألة ملكية لكنه مسألة ثقافة وضمير أخلاقي، "مركز إدارة وتوجيه، كل صور القرار عند الفرد والجماعة[٤٣٨]". وبصورة أكثر

دقة بالنسبة له، كانت الأخلاق المُبْتكرة للرأسمالية تعتمد على تعظيم المسئولية الفردية، الانضباط العقلى، التعليم، الامتياز وخاصة على استخدام أخلاقى للربح. «إن الطمع فى ربح بلا حدود لا يورط مبدأ الرأسمالية فى شيء، وأقل من ذلك أيضًا روح هذا المبدأ»؛ أبعد من البحث ومن الدفاع عن الملكية الخاصة كانت الرأسمالية إذًا «التحكم العقلى فى هذا الدافع الفوضوى[٤٣٨]». تؤدى هذه الأخلاق إذًا إلى تخفيف التعطش إلى الربح، إخضاع الانتفاع للنظام، إعادة استثمار الفائض، إلى الاعتماد على المنطق وعلى "فرص سلمية للربح" وليس على عمليات القرصنة المحضة: إن الرأسمالية ليست اغتصاب الربح، لكنها فضيلة الادخار. كان فيبير Weber يرى أن البحث عن مصدر هذه الحزمة من القواعد الأخلاقية الضرورية للرأسمالية يجب أن يكون فى الديانات وبالتحديد فى "دوافعها العملية للفعل" التى غالبا ما تكون مخالفة لعقائدهم اللاهوتية الخاصة. كان فيبير واحدًا من أوائل الذين ربطوا قوة النظام الرأسمالى بالمجتمع الدينى ، بينما كان كثير ممن سبقوه يرون أن المال هو المحرر من الظلامية اللاهوتية ، وكتب أن اليهودية على وجه الخصوص «كان لها أهمية تاريخية حاسمة فى ازدهار الأخلاق الغربية فى المجال الاقتصادى[٤٣٨]».

حاسم بكل تأكيد لكنه ثانوى لأن «النشاط الاقتصادى فى اليهودية بحسب ما يقول لم يرق إلى مرتبة الفضيلة[٤٣٨]». كان عملاً مسموحًا به فقط ، خطأ تاريخى هائل، اقترفه فيبير وما سوف نرى بعد ذلك أنه اقترف أيضًا أخطاء أخرى. لأن اليهودية، يواصل فيبير بنفس الطريقة القاطعة، تؤكد على المسئولية الجماعية بينما يحتاج النظام الرأسمالى إلى اللجوء إلى المسئولية الفردية. وتبعًا لما يرى، فليس هناك طموح خاص فى الديانة اليهودية يتميز عن المصير الجماعى، إن السعى وراء الكمال الفردى متعلق بمنطق الافتداء فى الجماعية اليهودية [٤٣٨]. الأمر الذى يقود اليهودية إلى ممارسة رأسمالية خاصة يمكن إدانتها أخلاقيًا حتى تلك النقطة كان استدلال فيبير خاطئًا فحسب لكنه انزلق بعدها فى هوس المعاداة للسامية : إنه يرى أن هشاشة وعدم استقرار وضع اليهود قد دفعهم إلى عدم إقامة مؤسسات صناعية دائمة – وبالتالى غير انتهازية بالضرورة – ولكن إلى الاكتفاء بالاستفادة من أخطاء الآخرين بواسطة الربا، المساومة، المتاجرة المشاركة فى «عمليات نهب سياسية واستعمارية دون إغضاب الرب، لأن الآخرين لا دين لهم [٤٣٨].»

دفعهم هشاشة وضعهم وعدم استقرارهم إذا إلى انتهاك شريعتهم الخاصة. إن اليهود، «الذين كانوا يريدون إخضاع نشاطهم الاقتصادى لمقتضى الأخلاق الاجتماعى للعهد القديم كان عليهم أن يقوموا بالدور المزدوج للمستغل والمستغل (٤٣٨).» بالتصرف على هذا النحو. ابتكر اليهود «رأسمالية منبوذة اجتماعيًا» ليس لها علاقة ، يقول فيبير بالنظام الرأسمالى الحقيقى. كانوا يقدمون قروضًا للمؤسسات العامة، المشروعات العقارية، للحروب، لصفقات التوريد، متعهدى المستعمرات، المزارعين أصحاب الأملاك، الأحزاب السياسية، قواد المرتزقة، المضاربين. كان اليهود من أنصار «الرأسمالية المغامرة المتوجهة نحو السياسة والمضاربة(٤٣٨). وليسوا من أنصار الرأسمالية الصناعية «التى تتمتع وحدها بالنزاهة»(٤٣٨). وبالتالى فإنهم لم يشاركوا فى التهيئة لأكثر ما يميز النظم الرأسمالية: الادخار، التنظيم العلمى المنطقى، للعمل وزيادة الإنتاجية المترتبة عليه. يلفت فيبير إلى أن اليهود كانوا آنذاك غير قادرين على إقامة المؤسسات الصناعية حتى من أجل مصالحهم الخاصة أو بدافع التضامن فيما بينهم. :«كيف حدث أنه بينما كانت هناك طبقات واسعة بائسة من الحرفيين اليهود فإننا لم نشهد ولادة أى طبقة بورجوازية عصرية بوجه خاص، أى صناعية للاستفادة من العمل اليهودى فى المنازل؟»(٤٣٨). وبشكل عارض وحتى تدخل اليهودية فى الرأسمالية الحقيقية فإنها قد أوصت أن يقوم بالتمويل مصرفيون يهود ... «العمل اليهودى فى المنزل».

أما الكاثوليكية يتابع فيبير، فلم تكن أفضل من اليهودية لأنها تدين الثروة التى تسمح بالاستهلاك وتنهى عن التقشف الذى يسمح بالتراكم، فى المقابل فإن لوثر وكالفين يقول فيبير مفسرًا، يضعان الأسس الحقيقية للأخلاق الرأسمالية وذلك بضمان ربح أخلاقى لكل «نشاط (عمل) يدار بمنهجية ونزاهة للحصول على خيرات هذا العالم»(٤٣٨).

بينما لم يكن أى نجاح اقتصادى بالنسبة لليهود سوى دليل على عدم اقتراف أى أمر منهى عنه، وبالنسبة للكاثوليك فقد كان نذيرًا بخطر أخلاقى.

أما البروتستانتية فقد تحملت مسئوليته وعزته إلى أسبابه الحقيقية، هكذا رأى تجار لندن فى ازدهار أعمالهم دليلاً على الإرادة الآلهية ورضاها، بعبارة أخرى أن التزمت

البروتستانتى يرى أن السلوك الأكثر أخلاقية يجب أن يكون تقشفيًا منطقيًا وفرديًا، فى البروتستانتية إذا تكمن أخلاقيات البورجوازية : تلك التى تحث على التملك الخاص لرأس المال حول قيم الادخار، الاعتدال، العفة، الأمانة، النزاهة. إنها هى التى يجب تعظيمها، إظهارها، تخليصها من شوائبها التاريخية، باعتبارها مصدرًا لكل حداثة.

إن أطروحة فيبير على الرغم من – أو بسبب – الأخطاء التى تنطوى عليها، سوف تجوب العالم: إنها تسمح للبروتستانت الأنجلو-ساكسون بأن يبرروا أيديولوجيًا سيطرتهم الجديدة على ما تبقى من المسيحية.

يرى فيبير أن اليهود قد ابتكروا الأخلاق قبل الإغريق والمتزمتين البروتستانت بزمن طويل، وأن أخلاقيات المال ليست سوى أحد مكوناتها وأن النشاط الاقتصادى بالنسبة لهم كان وسيلة أساسية للتوجه نحو الله؛ إن حرية الإرادة الفردية كلية الوجود وليس لها أى علاقة بما يطلق عليه، باختلال كامل للمعنى « منطق الافتداء فى الجماعة اليهودية». وهو يعتقد أيضًا بأن بعض هؤلاء المصرفيين اليهود المرابين رغمًا عنهم فى البداية قد ساعدوا فى إنشاء الأجهزة الإدارية والخزائن العامة للدول التى لم يكن بمقدور أى رأسمالية خاصة أن تنمو وتتطور بدونها.

ولأنه لم يدرس النصوص الدينية و لم يتقص الحقيقة التاريخية، فإنه يرى أن الأخلاق اليهودية الحاضرة فى كل تفاصيل السلوك الفردى والجماعى تنهى عن التصرفات التى قام بوصفها بتصويره لليهودى باعتباره «منبوذا» رأس المال، فإنه يتجاهل دوره كمكتشف، كمنظم للمالية العامة للدولة، كمبتكر لأفكار مذهب الفردية منذ هيليل، بل أكثر من هذا كمبتكر للحضارة باستبداله شريعة (تاليون) – قانون الثأر – بالتعويض المادى للجراح. وأخيرًا فإنه لا يرى أن اليهود فى نفس الوقت الذى كان يكتب فيه، كانوا فى طريقهم لابتداع التقنيات الأساسية التى سوف تقوم عليها صناعات القرن التاسع عشر، معتقدًا أنه يبرر ويدافع عن أخلاقيات الرأسمالية البروتستانتية، كان فيبير فى الواقع يضيف طابقًا جديدًا إلى مشروع المعاداة للسامية.

إن النقاش الذى ثار سريعًا حول مؤلفه الضخم، جعل العالم يتعرف على ماكس فيبير باعتباره أهم عالم اجتماع فى عصره. وإلى اليوم أيضًا يردد الكثيرون باحترام هذا الكم من الجهل والسذاجة دون أن يدركوا أنه كان أحد المصادر الرئيسية – بالإضافة إلى ماركس الذى كان يكرهه – لمعاداة السامية الألمانية.

فى ١٩١١ قام جامعى ألمانى آخر، أقل أهمية وشهرة، فيرنر سومبارت Werner Sombart، المؤرخ والاقتصادى بالرد على فيبير بكتاب « اليهود والحياة الاقتصادية[٣٩٢]» الذى حاول فيه رد الاعتبار إلى دور اليهود فى ميلاد النظام الرأسمالى: لقد قدم الكتاب فى الحقيقة صورة ساخرة ومشوهة (كاريكاتورية) أكثر تطرفًا وغلوًا من الصورة التى قدمها فيبير أو ماركس. بالنسبة لسومبارت كما كان الحال بالنسبة لماركس وخلافًا لفيبير، كان اليهود هم من أوجدوا النظام الرأسمالى؛ لكن سومبارت وفيبير كانا يريان أن الأخلاق اليهودية لم تشكل أساسًا إلا أحد صور الأنظمة الرأسمالية: رأسمالية المضاربة المالية وليس كما يرى فيبير رأسمالية المغامرة الاستعمارية[٣٢٩].

فضلاً عن أن النظام الرأسمالى قد نشأ – كما يقول سومبارت– مع سقوط القسطنطينية التى وجهت أوروبا نحو الغرب، مع إدخال الأرقام العربية بواسطة اليهود ومع تسويق المعادن الثمينة بواسطتهم أيضا.

يرى سومبارت أن بعض التيارات التى سبقت الكاثوليكية مثل (التوماوية)(*) بإدانتها للمتعة والبطالة قد لعبت دورا مهمًا فى هذا الابتكار الجديد، بعكس البروتستانتية التى تندد كما يقول بحب المال، تحتقر متاع الدنيا، تدعو إلى الزهد – وليس الادخار – وتشيد بالتوحد مع الرب.

(*) THomisme: التوماوية ، تيار فلسفى ، نسبة إلى القديس توما الأكوينى (١٢٢٥ – ١٢٧٤) الذى اشتهر بتطبيقاته على أرسطو ، لا تزال أعماله تدرس إلى الآن فى المدارس اللاهوتية ، تعتبر أعماله القاعدة الأساسية لفهم تعاليم الكنيسة ... المترجم (عاصم عبد ربه).

إن أخلاقية التزمت البروتستانتية التى جعل منها فيبير مصدر أخلاقية النظام الرأسمالى ليست بالنسبة لسومبارت سوى نسخة باهتة من التوماوية، التى تحث المؤمنين على التحكم المنهجى المنظم فى نزواتهم «بأن تضيف إلى مقاومتهم من الحماس المتقد بقدر ما تضيف من ضيق الخيال»، وبأن تدفع الاهتمام بالادخار إلى حد الخسة وليس إلى حد الإقدام على المخاطرة الصناعية .

كان سومبارت يرى أن الرأسمالية التمويلية، إحدى صور الرأسمالية الحديثة، قد تولدت من أحد الأمثلة اليهودية الخاصة جدًا : اليهود البولنديون المهاجرون فى إنجلترا ابتداءً من منتصف القرن السابع عشر[٣٢٩]. «كانت الرأسمالية الإنجليزية قد صبغت بالطبيعة البولندية إثر هجرة اليهود البولنديين الهاربين من الاضطهادات القوقوازية فى عام ١٦٨٤ [٣٢٩]». كان هؤلاء اليهود المهاجرون أساتذة فى التفاوض لأن «التفاوض هو روح كل صور التجارة الحديثة [٣٩١]». كان سومبارت يخترع هنا، للدفاع عن أطروحته، وجودًا وهميًا تمامًا ليهود بولندا فى إنجلترا فى بداية القرن التاسع عشر. إنه يستشهد بالمؤرخ اليهودى الألمانى هنريش جرايتز Heinerich Graetz الذى يفسر كيف أهلت دراسة التلمود اليهود البولنديين لإستراتيجية التفاوض: «كان الشاب يستوعب المهارات التى يتعلمها فى المدارس ويستخدمها فى خداع من هم أقل منه مكرًا (...). إن غير اليهود، ممن كان على علاقة بهم، سوف تتاح لهم الفرصة مرارًا لأن يدركوا على نفقتهم الخاصة تفوق الروح التلمودية عند اليهودى البولندى[٣٩٢] ». بالنسبة لهم لم يكن هناك فرق إلا فى المرتبة، وليس فى الطبيعة بين «البائع المتجول البسيط البولندى »، وبين «اليهودى تاجر الملابس المستعملة»، وناثان روتشليد،« مصرفى يهودى إنجليزى الذى كان يتفاوض فى مؤتمر استمر عدة أيام مع الوسيط البروسى فى ظروف بالغة التعقيد بشأن قرض قيمته عدة ملايين[٣٢٩] ». تجلت موهبة المفاوض لدى التاجر اليهودى منذ عام ١٨١٥ «عندما كان القادة العسكريون البريطانيون يبلغون المولين اليهود الذين يقدمون لهم الرشاوى بنتائج المعارك قبل غيرهم». استخلص سومبارت من هذا أنه «منذ عهد سليمان إلى عصر جيرسون بلايشدودر، عبر الثراء اليهودى التاريخ كخيط من ذهب دون أى انقطاع[٣٩٢]». هكذا كانت الرأسمالية التمويلية، الطفيلية بالضرورة و العابرة للقوميات اختراعًا وتخصصًا يهوديًا [٣٢٩].

هكذا بدا كتاب سومبارت المملوء بالأخطاء المجافية للحقيقة والمغلوطة تاريخيًا، وكأنه بشكل ما تجميع غير مقصود للصور المشوهة المعادية للسامية. فلكي يفسر لنا على سبيل المثال الميل إلى الادخار الذى ينسبه إلى اليهود فإنه يورد مثلاً ألمانيًا يقول « نادرًا ما رأينا تيسًا بدون لحية ويهوديًا بدون مدخرات»، مستخدمًا فى تلك المقابلة بين التيس واليهودى(٣٢٩) الأثيرة لدى المعادين للسامية. على غرار فيبير يتحدث سومبارت عن اليهود دون أن يذكر شيئًا أو تقريبًا كذلك عن وضعهم كمرابين رغم أنفهم، عن سلب مدخراتهم عبر قرون عديدة، عن اضطرارهم إلى إخفاء كل ما يملكونه، عن هوس معاداة اليهودية الذى تلبس الكنيسة والأمراء، عن أخلاقية التلمود التضامنية والصارمة، عن دورهم فى الابتكار الصناعى.

فى عام ١٩٣٤ سوف ينشر فيرنرسومبارت كتابه «الاشتراكية الألمانية»، مؤلف موالٍ للنازية صراحة سوف يجلب له الشهرة، الامتنان الرسمى وازدراء وسوء سمعة أزليين.

هكذا عادت كراهية اليهود بقوة إلى الساحة الفكرية عبر العديد من القنوات- صحفية، جدلية، سياسية، عمالية أو جمعية- ابتداءً من القرن التاسع عشر ، لم تعد عقائدية فقط، بل نظرية أيضًا، علمانية أو اقتصادية: بالنسبة للبعض. كان المقصود هو قطع الصلة بالمال وبمن يتلاعبون به، وعكس ذلك بالنسبة لآخرين، لا يجب أن يتمكن اليهود من الانتفاع بفوائد الرأسمالية. فى كلتا الحالتين كان ينبغى التخلص منهم. كان زمانهم قد ولى. وأصبحوا حينذاك بؤرة كل الأحقاد، العدو المشترك لليبراليين والاشتراكيين.

لقد آن الأوان لأن يبحثوا لأنفسهم عن ملجأ آخر. سوف يجدون أربعة ملاجئ، فى كل منها سوف يكونون سببًا لواحد من أسس الحداثة لطريقة جديدة "لإعادة إعمار العالم"، كما قالها المدراش ببراعة. أربعة ملاجئ، أربعة أرحام.

٣- أربعة مواطن للنشأة:

مع بداية القرن التاسع عشر دفع الانتقال الحر تمامًا للسلع والبشر والأفكار نهاية المؤسسات الإقطاعية وبدايات التحرر والانعتاق، بعض اليهود إلى اختيار مصائرهم بصورة أكثر حرية.

سوف يرافق آخرون المغامرة الاستعمارية بعيدًا. ربما كانت آلاف القصص تستحق أن تذكر هنا، من عدن إلى سنغافورة، من بومباى إلى مونتفيديو، من ملبورن إلى الجزائر، من بريتوريا إلى شنغهاى، سوف نذكر الخطوط العريضة لواحدة منها فقط، قصة ابن تاجر فيينا هذا، إدوارد شنيتزر Edword Schnitzer، المولود عام ١٨٤٠، أصبح طبيبًا، رحل إلى الخرطوم مع الجنرال جوردن Gprdon، عين حاكمًا للمدينة، ليدخل فى صراع - تحت اسم أمين باشا - مع تجار العبيد الذين اغتالوه فى عام ١٨٩٢ فى الكونغو.

بخلاف هذه المسارات اللامعة بقدر ما كانت منعزلة، فرضت أربعة أماكن نفسها على التجمعات اليهودية الكبيرة: روسيا، النمسا، المجر، حيث أقام آنذاك أكثر من ثلثى الشعب العبرى، أمريكا وفلسطين حيث يعيش اليوم ثلثى ما تبقى منه، سوف يمثل كل منها رحمًا (منشئًا) من أرحام الحداثة (الاشتراكية، التحليل النفسى، الأمركة، الصهيونية).

رحم الاشتراكية

اليهودية الروسية حتى عام ١٩١٧

منذ عام ١٧٩٥ لم يعد هناك يهود بولنديون، لم يكن هناك أيضًا يهود روس فى النمسا، لم يكن هناك إلا يهود بولنديين صاروا روسا بروسيين أو نمساويين وفق مصادفات تبادل الحدود بين البلاد.

منذ قرن مضى وصل إلى بولندا التى كانت حينها بلدًا مضيافًا، حوالى نصف اليهود فى تلك الفترة - مليونان - وجد هؤلاء اليهود لحظهم العاثر أنفسهم فى بلاد ألد أعدائهم، الروس والنمساويين، وارسو صارت روسية، كراكوفى صارت نمساوية. سوف تصبحان رحم الاشتراكية فى روسيا، ورحم التحليل النفسى فى النمسا.

منح الروس النبلاء البولنديون - الذين ساهموا فى تحقيق انتصارهم - سلطة الإدارة الاقتصادية التى كان الملوك حتى ذلك الوقت يعهدون بها إلى اليهود بشكل كبير. لكن هؤلاء اليهود لم يكن مسموحًا لهم بسبب ذلك بمغادرة بولندا "منطقة إقامتهم"، وتجمعوا

فى قرى صغيرة، شتيتل Shtetl "بلغة الياديش" التى صارت ميستشكوس Mestechlos "باللغة الروسية"، كانت تضم عدة آلاف من السكان(١١٧). عاش اليهود فى تلك القرى حياة صعبة بنوع خاص وسط ظروف بؤس شديد وغير صحية على الإطلاق. كانت الحياة تدور حول المعبد، السوق، المدرسة التى غالبًا ما تكون موجودة فى منزل الحاخام، حيث يقوم أحد المعلمين الميلاميد Lemelamed بتعليم الأطفال قراءة وكتابة العبرية واليادیش(*) كان هؤلاء اليهود يكسبون عيشهم بجهد شديد، بالعمل مع زوجاتهم وأولادهم فى الحرف المختلفة، فى صناعات النسيج الصغيرة، عمالاً فى منازلهم. كانوا أيضًا باعة جائلين، تجارًا، أصحاب حانات، عمال حفر، بقالين، وسطاء فى النبيذ، عمال مناجم، صباغين، حائكين، صناع وتجار فراء، مقدمى قروض مضمونة برهون. فى البداية كانت تلك الفترة، رغم ذلك، فترة سعيدة، على الأقل إن أردنا الاعتقاد بذلك، نحو عام ١٨٠٠ كتب الحاخام الرائع ناشمان دوبريسلو Nachman de Breslau أو "برايتسلافا Bratislave" أو "بريسبورج Presbourg" ما يلى: "من الواجب أن تكون سعيدا"، لأن كونك سعيدًا بحسب ما تقول الشريعة يظهر للعالم أن السعادة لا تتعارض مع الأخلاق الدينية وهذه الاستعارة أيضًا، كما لو كانت صدى لقلق صامت ينتابه "أن تاريخ الحياة يمر على جسر طويل وضيق حتى تجتازه من المهم ألا يعتريك الخوف"، كان الخوف قائمًا ولن يفارقهم أبدا.

بالنسبة للقياصرة كان الهدف هو أن تنصهر كل شعوب روسيا العظمى وتندمج فى شعب واحد، له لغة واحدة، ديانة واحدة، اقتصاد واحد. يرى الروس أن اليهود، غير قابلين للاندماج، على الأقل فى المدى القصير: مختلفين جدًا، بأكثر مما يجب. وينبغى أيضًا تفادى أن يستقروا فى كل أنحاء البلاد، أن ينقلوا العدوى إلى المزارعين بلغتهم، وديانتهم وقواعدهم الاقتصادية شديدة الخصوصية.

غير أن اليهود قد شهدوا مولد هذا القرن آملين فى مجىء قيصر يستطيع أن يبطل طغيان سابقيه والعودة إلى الزمن المبارك لملوك بولندا العظام، بالرغم من كراهيتهم

(*)Yiddish: اليدية – لهجة من لهجات اللغة الألمانية، تكثر فيها الكلمات العبرية والسلافية، وينطق بها اليهود فى الاتحاد السوفيتى (سابقا) وفى أوروبا الوسطى، وتستخدم الحروف العبرية .. المترجم (عاصم عبد ربه).

المتنامية لأوضاعهم فإنهم لن يتوقفوا قبل نهاية القرن التاسع عشر تمامًا عن اعتبار روسيا ملجأ لهم: كل تتويج لقيصر جديد سيكون بمثابة رجاء، يخيب فى كل مرة، فى الخلاص، فى الأرض الموعودة وكل قيصر كأنه مسيح محتمل.

أصدر أول قياصرة القرن، ألكسندر الأول Alexandre ، تقنينًا، فى عام ١٨٠٤، يحدد المناطق التى يسمح لليهود بالعيش فيها: بولندا، أوكرانيا، وشواطئ البحر الأسود؛ دفع اليهود إلى مغادرة الأرياف إلا إذا كانوا يمتلكون فيها أراضيهم الخاصة، وحملوا على استعمار أوكرانيا، بالرغم من اعتراض السكان المحليين الذين كانوا لا يزالون يرون فيهم أتباعًا للبولنديين. اجتذب ميناء أوديسا Odessa سكان الأرياف المحيطة به. حياة ثقافية - استثنائية باللغة اليادية وبالروسية - ازدهرت هناك وسط بؤس التجار البسطاء، اللصوص الصغار، وعمال الميناء. فى كل مكان، منع اليهود من تقطير بيع الكحول، وإقراض النقود إلى المزارعين. سمح لهم بالتسجيل فى المدارس العامة، لكن نظرًا لأنه كان من الواجب التخلى عن "اليادية" فى سبيل ذلك، التى كانت أحيانًا من مكونات هويتهم الأكثر أهمية من التوراة لم يكن يرتاد هذه المدارس إلا القليل منهم. أبطأت اللغة الروسية فى شق طريقها داخل الطوائف اليهودية.

لم تشهد إلى الآن أى حركة تحرر. التحرر لماذا؟ من أجل أن يصبحوا روسا؟ بولنديين. لم يبد لأى شىء معنى. لم يطبق القانون الليبرالى جدًا للإمبراطورية النابوليونية إلا على دوقية وارسو العابرة، التى أعيد إنشاؤها فى الفترة من ١٨٠٧ وحتى ١٨١٤، إلى أن مات مائة ألف بولندى "من بينهم يهود" ميتة الأبطال وهم يغطون انسحاب الجيش الأعظم. فى عام ١٨١٥ عادت كراكوفى مدينة حرة تحت السيطرة النمساوية. استعادت روسيا وارسو التى كان اليهود يزالون يمثلون ربع سكانها، لعقابهم على تعاونهم مع نابليون، تم إبعادهم إلى أحياء بعيدة عن وسط المدينة وفوق ذلك لم يسمح بذلك إلا إذا أثبتوا حصولهم على دخل لا يقل عن ٩٠٠٠ روبل[٤١٤].

برغم مشروعات ألكسندر الأول فإن شيئا لم يحدث بالفعل فى روسيا لدمج هؤلاء الناس الأغراب بصورة مضاعفة، يهودًا وبولنديين فى نفس الوقت. حتى ولو كان الاتهام

بأنهم "شاربو الدماء" قد حظر فى عام ١٨١٧ – لكن دون عقاب المخالفين لهذا الحظر – فقد ظلت عزلة اليهود كاملة.

بالرغم من ذلك كان عدد من يرغبون فى مغادرة البلاد لا يزال قليلاً، ظلت روسيا ملجأ، عاشت فيه الطوائف اليهودية كمجتمعات متضامنة تحظى بالحماية، سعيدة، مستنيرة، حتى وإن كان ذلك فى ظل وضع يزداد بؤسًا يومًا بعد آخر.

يقاس التفاؤل بنسبة المواليد، لا تزال واحدة من أعلى نسب المواليد فى العالم، أكثر من ستة أطفال لكل أسرة ، فى عام ١٨٢٥ بلغ عدد اليهود فى روسيا مليونين ومائتين وخمسين ألفا.

لمحو هذه الهوية غير القابلة للغرق والزوال، وهذا النمو السكانى المتسارع، أمر نيكولا الأول Nicola 1er "القيصر الحديدى" فى عام ١٨٢٧ بأن يُضم إلى الجيش الروسى كل الشباب اليهودى، ابتداءً من عمر ١٢ سنة وحتى ٢٥ سنة، والاحتفاظ بهم فى الجيش ٢٥ سنة على الأقل بعد أن يتلقوا تعليمًا مسيحيًا ويجبروا على التحول إلى المسيحية الأرثوذوكسية. وهكذا كانت كل طائفة ملزمة بأن تقدم فى كل عام حصتها من المجندين. كان رجال شرطة القيصر Khapers يذهبون إلى القرى لانتزاع الفتية قسرًا، الذين كانت أسرهم تخفيهم عنهم. مآس مروعة وصور للبطولة والخسة والجبن، أعمال شغب، مقاومة سرية، أعمال عنف، حركات تمرد ثورى، بمفردها أحيانًا، وأحيانًا إلى جانب بولنديين آخرين، كما حدث أثناء إحدى حركة التمرد العنيفة عام ١٨٣١ التى قامت قوات القيصر بقمعها، والتى تسببت فى تصريح المارشال سيبستيانى Sebastiani الشهير، الذى كان آنذاك وزيرا للخارجية الفرنسية "أن الأمن مستتب فى وارسو" .

فى أبريل ١٨٣٥ أمام طفرة النمو السكانى اليهودى قام نيكولا الأول بتوسيع نطاق الأراضى التى يحق لليهود العيش فيها، اتسع نطاق الإقامة منذ ذلك الوقت فصاعدا وامتد من بحر البلطيق حتى البحر الأسود، من مدينة لودز Lodz إلى فيلنا Vilna ، من كييف إلى منسك، من وراسو إلى أودسا.

فى ١٨٣٧ تكدس فى تلك المنطقة قرابة الثلاثة ملايين يهودى، وكما فعل البروسيون من قبل فترة قصيرة، ميز نيكولا الأول آنذاك بين اليهود "النافعين" "أغنياء، حرفيين، مزارعين" وبين "غير الضروريين" "الفقراء، تجار صغار". النافعون مسموح بوجودهم، الآخرون يرسلون إلى الجيش أو إلى المستعمرات الزراعية. زادت حدة حركة اقتناص الشباب، أجبر عشرات الآلاف من الرجال على الانتقال لزراعة الأراضى متوسطة الخصوبة فى جنوب روسيا، وبهذا، فقدت أسر كثيرة عوائلها؛ أكره بعض النساء، مع عشرة أو اثنى عشر طفلا على التسول.

اكتظت المدن بالبؤساء. فى عام ١٨٤٢، أظهر تعداد الحرفيين اليهود فى روسيا أن هناك ١٢ حدادًا، ٩ ساعاتية، ٤١ صانع أحذية يعمل لديهم ٨٨ عاملاً، ١٤ مطبعجيا – مجلد كتب، ١٠١ خياط يعمل لديهم ٩٤ عاملاً، ١٤ صانع نوافذ زجاجية لديهم ١٧ عاملاً، ٤٣ صانع وبائع قبعات يعمل لديهم ٣٨ عاملاً. كان هناك آلاف آخرون يعملون طباعين وتجارا وعمالاً فى الميناء، أصحاب ومديرى حانات، باعة جائلين. عشرات الآلاف غيرهم، سكان القرى المجاورة التعساء، كانوا يتسولون ويأتون إلى المدينة صيفًا ليعملوا لقاء كوبك واحد يوميًا فى الميناء، أو فى مقالع الأحجار. ويقول التقرير الذى لا يمكن وصفه بالمتعاطف مع اليهود "شيوخ، يطحنهم القيظ، يتجالدون على مواصلة العمل بترديد الأسفار المقدسة"(١١٧).

فى ١٨٤٣ طرد ستون ألف يهودى من مدينة كييف، التى كانت بعض العائلات مستقرة فيها منذ قرون. فى بولندا الروسية لم يعد يصرح لهم بامتلاك الأراضى الزراعية إلا بسداد رسوم باهظة: لم يبق هناك إلا ٦١٥٩ عائلة يهودية تعمل بالزراعة(٤١٤). وبالتالى لم يعد لهم حق العيش لا فى المدينة ولا فى الريف.

بذلت كل الجهود لمحو هويتهم. فى عام ١٨٤٤ فقدت الطوائف حق امتلاك مؤسساتهم الثقافية والاجتماعية الخاصة، ضربة موجعة: لم يعد هناك أحد لتنظيم مساعدة مئات الآلاف من المتسولين، ولا لتمثيل اليهود لدى السلطات الإدارية الروسية، التى قامت فى تلك السنة أيضا بإنشاء مدارس خاصة من أجل "تقريبهم من المسيحيين واقتلاع جذور معتقداتهم الهدامة المتأثرة بالتلمود". رفض معظم اليهود إرسال أبنائهم إلى هذه المدارس، الذين

استمروا فى التردد على مدارس الحاخامات التى كانت غالبًا سرية وغير مشروعة مثلها مثل "الصدقة".

فى عام ١٨٤٦ – كان هناك أكثر من ثلاثة ملايين يهودى فى روسيا – جاء سيرموسيس مونتيفيور **Sir Moses Montefiore** الذى صار الآن بارونًا إنجليزيًا، لمطالبة سلطات مدينة سان بيتر سبورج بإيقاف هذه التجاوزات بحق اليهود. بلا جدوى. شرع بضع آلاف من اليهود فى مغادرة البلاد بعضهم، الأكثر يسارًا ذهبوا للدراسة فى جامعات ألمانيا واتخذوا أسماء عائلات جرمانية، الآخرون الأكثر فقرًا استقروا فى إنجلترا، عدد قليل، وأقل منهم، سوف يذهبون حتى أمريكا. بالنسبة للباقين ظل الوضع مأساويًا حتى عام ١٨٥٥. كانت "منطقة الإقامة" إذًا كأنها بلد فقير جدا متكيس داخل بلد فقير، يعيش فيه اليهود فى دائرة تزداد انغلاقًا يومًا بعد يوم، من اقتصاد يزداد تخلفًا ورثاثة باستمرار، دون أى اتصال بالتطور التكنولوجى.

فى عام ١٨٥٥ – تجاوز عدد اليهود فى روسيا آنذاك ٣،٦ ملايين نسمة – أخيرًا اعتلى العرش ملك كان اليهود يأملون فيه منذ سبعين عامًا: ألكسندر الثانى **Alexandre II**، الذى سرعان ما أطلق عليه اسم القيصر العادل.

فى عام ١٨٦١، ألغى القيصر الاستعباد. بعد أعمال شغب احتك فيها بعض الطلاب، التجار اليهود، من بينهم ليوبولد كروننبرج **Leopold Kronenberg** والبولدنيون بالشرطة الروسية، وقعت بعد مراسم جنازة أحد الجنرالات البولنديين، سوفينسكى **Sowinski**، رمز الوطنية البولندية، بدلاً من اتخاذ إجراءات قمعية جديدة، ألغى القيصر نظام تجنيد الأطفال الجائر: خلال تسعة وعشرين عامًا، ابتلع هذا النظام أربعين ألفًا. فى نفس العام رفع حاكم إقليم كييف محانير الإقامة: استطاع المبعدون الرجوع إلى مدينتهم. بل لقد سمح لبعض اليهود ممن يطلق عليهم اسم "نافعين" بالعيش للمرة الأولى خارج "منطقة الإقامة" أطباء، تجار، حرفيون، محامون، صحفيون غادروا وارسو، فيلنا، لودز أو أوديسا لتجربة حظوظهم فى موسكو وفى سان بيترسبورج، حيث ظهرت عائلات شهيرة تخصصت فى مجالات البنوك والصناعة: آل جانزبورج ، آل روزنبرج **Rosenbrreg**،

آل أشكنازى، آل روزنتال Rosenthal، آل فرايدلاند Friendland، آل زاكس Zaks، آل برودسكى Brodski، آل بولياكوف Poliakof، الذين سرعان ما أقاموا علاقات مع رجال البنوك الألمان، والبريطانيين مثل آل واربرج، آل هيرش، الذين كانوا يسعون إلى تمويل مشروعات كبرى. أسس كرونبيرج بنك Hand- Lowy فى وارسو، وقام صامويل بولياكوف بتشييد بعض خطوط السكك الحديدية فى غرب روسيا مستخدمًا عمالاً من اليهود الذين سمح لهم بهذه المناسبة بمغادرة "منطقة الإقامة"، أصبحوا مواطنين روسًا من خلال اللغة والشعور بالانتماء.

فى عام ١٨٦٣، بعد كثير من المجاعات، اندلعت حركة تمرد بولندية جديدة، ساندها اليهود مرة أخرى، مرة أخرى تم إخمادها تحسنت العلاقات بين اليهود والبولنديين الآخرين، فى حين استؤنفت فى روسيا اضطرابات معادية للسامية. انتقدت إحدى الصحف الوقت الجديد Le Novoye Vremya، وجود اليهود – رغم حداثتهم – فى اقتصاد الإمبراطورية واتهمتهم بتكوين دولة داخل الدولة. وفى هذا كتب دوستوفسكى(١٠)(*): "اليوم، يهيمن اليهودى وبنكه فى كل مكان. أوروبا وعصر الأنوار، كل الحضارات، الاشتراكية بصورة خاصة، لأنه بمساعدة الاشتراكية، سيتأصل اليهودى الديانة المسيحية وسوف يدمر الحضارة المسيحية. لن يبقى إذًا سوى الفوضى. سيحكم اليهودى العالم" لم يعد ينظر إلى اليهودى باعتباره مسئولاً عن كل مصائب العالم فقط؛ بل تحوم حوله الشكوك فى ترتيبها كى يستأثر بالسلطة. إنكار تام لوجهة النظر اليهودية فى الاقتصاد. فى حين يعتمد خلاص اليهودى وفق العقيدة التوراتية على خلاص العالم من حوله، فإنه يُتهم الآن بالرغبة فى امتلاك العالم ليستغله من أجل صالحه الخاص.

لم تتقدم عملية الاندماج فى المجتمع الروسى. فى عام ١٨٦٤ لم يرتاد مدارس الدولة المخصصة لليهود سوى ستة آلاف تلميذ. قامت فى ذلك العام فى مدينة موهليف Mohilev على غرار جمعيات مساعدة الحرفيين التى قامت فى العصور الوسطى، أول نقابة

(*) Dostoievski (١٨٢١ – ١٨٨١): من أهم الكتاب الروس والعالميين، تأثر أدب القرن العشرين كاملاً بأعماله الروائية، ينتمى إلى مدرسة الواقعية، أشهر أعماله: (الجريمة والعقاب، كارمازوف، الخوة، الأبلة) ... (المترجم عاصم عبد ربه).

يهودية: نقابة عمال النسيج. فى عام ١٨٧٠، كان الأربعة ملايين يهودى روسى – تضاعف عددهم تقريبا منذ عام ١٨٢٥! – يعيشون فى بؤس شديد. يعيش ثلثهم على إعانات من الآخرين[١١٧]، يزداد تدبيرها صعوبة بالتدريج خاصة بعد محاصيل عام ١٨٦٠ الكارثية. أوضحت لجنة حكومية، هنا أيضًا لم تكن مؤيدة لليهود، أن "٩٠٪ من اليهود يشكلون كتلة فقيرة تحيا حياة بائسة"[١١٧].

ابتداءً من عام ١٨٧٥، فى سابقة كبرى، أضرب بعض العمال اليهود المستخدمون وسط ظروف مريعة، فى المصانع الأولى التى أقيمت حول وراسو، لودز، موسكو وسان بترسبورج. وتعد هذه الاضطرابات من ضمن أول الإضرابات التى اندلعت فى روسيا بعد الاضطرابات العمالية الكبرى – للعمال اليهود بوجه خاص – التى شهدتها الولايات المتحدة، ألمانيا، إنجلترا. تدهور الوضع الاقتصادى للبلاد تصاعدت الاضطرابات الاجتماعية، بدأ البعض داخل حارات اليهود فى وارسو، فى فيلنا، فى أوديسا، فى الحلم باشتراكية يهودية، آخرون يبشرون بمقدم اشتراكية روسية، ويفكر غيرهم فى اشتراكية عالمية. فى عام ١٨٨٠ تأسست O.R.T منظمة دعم العمال اليهود فى الصناعة والزراعة: كان المقصود هو إظهار أنهم قادرون على الإنتاج.

فى مارس ١٨٨١ قضى اغتيال "القيصر العادل" على آمال الطوائف اليهودية. فى مواجهة الغضب الشعبى، عادت السلطات إلى الوصفة القديمة من جديد: أنه خطأ اليهود. أطلقت مجزرة تعرض لها اليهود فى مدينة إليزابيث جراد موجة من المذابح فى كل أنحاء الجنوب الغربى للبلاد.

بدأت حين نلك ما يسمى "بوجرومز"[٢٢٥] (كلمة روسية تعنى "تدمير" "عنف" "رعد" "إبادة الأعداء") أكثر من مائتى مجزرة فى مائة وستين مدينة، تسببت فى حوالى ألف قتيل، ماتوا على وقع هتافات "اضرب اليهود كى تنقذ روسيا"[٢٢٥] لم تدينهم السلطات إلا بتراخٍ، بل كانت تشجعهم أحيانًا؛ من جهة أخرى كان المهاجرون متأكدين من دعم القيصر الجديد لهم، "ألكسندر الثالث"، طاغية مخيف، فى الصراع ضد "الاستغلال اليهودى". بدأت الهجرة نحو إنجلترا والولايات المتحدة. هجرة سوف تصبح كثيفة عما قليل.

تكهن المدعى العام لمدينة سان سينود Saint - Synode، جابى ضرائب قديم ومستشار روحى للقصير، بوبدونوستيف Pobedonostsev بما سيؤول إليه وضع اليهود "ثلث سيعتنق المسيحية، ثلث سيلقى حتفه، ثلث سوف يهاجر".

فى عام ١٨٨٢، كانت قوانين استثنائية، سميت "قوانين مايو" قد قلصت مساحة نطاق الإقامة. تم تجميع اليهود فى أقل ما يمكن من الأماكن؛ تم منعهم من جديد من العيش فى الأرياف، ومن استئجار أو تملك أراض زراعية؛ تم إبعادهم عن الوظائف العامة، التى كانوا قد تمكنوا من الوصول إليها منذ عشرين عامًا خلت؛ منعوا من ممارسة التجارة فى أيام الأحد، وخلال أيام الأعياد المسيحية، فى حين كانت حوانيتهم الوحيدة التى كانت تظل مفتوحة، ما أتاح لهم تكوين بعض المال. انخفض عدد الطلبة اليهود المسموح لهم بالدراسة فى المدارس الثانوية. غير أن ذلك لم يكن بذى بال، لأنه فى العديد من المدن، حتى التى يمثل اليهود ثلثى سكانها، ظلت معظم قاعات الدراسة خاوية: لم يكن هناك مجال للذهاب للدراسة لدى معذبيهم! فى كل مكان سمح لهم بالإقامة فيه، تكدس اليهود وسط ظروف اختلاط صارت شيئًا فشيئًا غير محتملة. أما من اختار أن يكون روسيًا قلبًا وقالبًا، فقد أصابه الإحباط وخيبة الأمل. فى جريدة Razvet، جريدة ناطقة بالروسية، تمثل النخبة المثقفة اليهودية، تأسست منذ عشرين عامًا مضت أثناء فترة حكم ألكسندر الثانى الزاهية، كتب مدير الجريدة: "عندما أفكر فى كل ما حل بنا، كيف علمونا أن نحب روسيا، واللغة الروسية إلى درجة أن أطفالنا لم يعودوا يتكلمون اليوم إلا اللغة الروسية فقط، كيف صرنا الآن مضطهدين ومطاردين، يمتلئ قلبى يأسًا وحسرة لأننا لا نملك مخرجا"(١١٧). أما الذين اعتقدوا أن مشكلة اليهود ستجد حلاً بانتهاء الحكم القيصرى وانضموا إلى الحركة الثورية الوطنية الروسية الشعبيين "Narodniki" فقد أصابهم الإحباط، لعدم تضامن رفاقهم الاشتراكيين فى مواجهة "البوجرومز". آنذاك، تشكلت حركات ثورية يهودية بنوع خاص: معادية للدين، معادية للرأسمالية، ومعادية للقيصرية، كانت تنشئ وتجسد قومية يهودية بلا وطن خاص بها.

فى عام ١٨٨٧ وقع إضراب يهودى كبير وجماعى، أوقف عمال النسيج اليهود فى بايالسيتوك Byalistock، فى روسيا البولندية العمل لمدة شهرين. معاناة قصوى. بدأ

الكثير وقتها فى الرحيل أولاً إلى إنجلترا أى بعد وقت طويل من التاريخ الذى سيؤكده فيما بعد فيرنرسومبارت...

فى عام ١٨٨٨، نجا، ألكسندر الثالث وأسرته بمعجزة من حادث قطار، مفسرًا الواقعة رأى فيها مستشار القيصر السرى، بوبدونوستسيف، ضرورة العودة إلى نظام صارم خصوصا ضد اليهود. فى عام ١٨٨٩، قادت السلطة الحملات المعادية للسامية. ألقى عليهم تبعة إخفاقات النظام الاقتصادية. وقعت مذابح جديدة فى ست وعشرين بلدة. فى عام ١٨٩١، طرد من موسكو، كل من كانوا قد تمكنوا من الإقامة فيها بعد عام ١٨٦٥، بناءً على أوامر شقيق القيصر، الدوق الأكبر سيرجى **Serguri**: عشرون ألف شخص، كان عليهم أن يتخلوا عن كل شيء خلال أيام ليعودوا للتكدس داخل "نطاق الإقامة" المزدحم عن آخره أصلاً. لم يسمح بالبقاء فى موسكو إلا للرجال الذين يقبلون اعتناق المسيحية والسيدات اللاتى يقبلن بممارسة الدعارة[١١٧].

كان كثير من يهود الإمبراطورية الروسية أكثر من مليون من أصل أربعة ملايين نسمة يتمنون منذ الآن الهجرة إلى إنجلترا وإلى الولايات المتحدة. غادر حاييم وايزمان **Chaim Weismann**، طالب شاب، للدراسة فى ألمانيا، اتجه آخرون نحو فرنسا مفلسين تمامًا، حيث كانوا يجتمعون بالقرب من "الباستيل" "لاباستى". لكن كيف يتم تمويل وتنفيذ هجرة "خروج" كهذه؟ حاولت قلة نادرة من المناصرين اليهود الأوروبيين مواجهة هذا التحدى الهائل: تنظيم رحيل أربعة ملايين يهودى روسى إلى الغرب!.

فى عام ١٨٩١، كان موريس دو هيرش **Maurice de Hirsch**، المصرفى الألمانى الذى قدرت ثروته آنذاك بمائة مليون مارك. مكرسًا تماما للعمل الاجتماعى، كان الرجل على سبيلا المثال يقدم لمستشفيات لندن كل الأرباح التى تجلبها خيول السباق التى يملكها (إن خيولى "تجرى لوجه الله"، كان هيرش يقول متهكمًا).

أنشأ هيرش ثلاث مؤسسات: الأولى مؤسسة البارون دوهيرش "للمساعدة فى الإنفاق على التعليم اليهودى" فى جاليسى **Galicie**؛ وأخرى لإغاثة المهاجرين الذين وصلوا إلى الولايات المتحدة؛ والثالثة "الجمعية اليهودية للاستيطان"، التى تأسست

للقيام بتنفيذ مشروع ضخم: تهجير، الثلاثة ملايين ومائتين وخمسين ألف يهودى من روسيا إلى الأرجنتين والبرازيل!، خلال خمسة وعشرين عامًا. خصص هيرش لهذه الجمعية، كبداية، ميزانية بلغت ٣٦ مليون دولار "ثلث ثروته الخاصة". بالاتفاق مع الحكومة الروسية، أقام غرفة عمليات فى مدينة سان بترسبورج لتنظيم السفر. ثم مركزا آخر فى بيونس أيرس لتنظيم عمليات الوصول. غير أن هذا المشروع الضخم سرعان ما توقف فجأة: كان اختيار المستعمرات الزراعية غير مناسب وكانت الموارد المالية رغم أهميتها غير كافية. فى خلال خمسة أعوام، لم يرحل إلى الأرجنتين والبرازيل سوى ٦٧٥٧ شخصا (إلى مدينة فيليبسون **Philippson** فى ولاية ريوجراندو دوسول **Rio – Grande do Sul**؛ حيث استقرت ست وثلاثون أسرةً قادمةً من مدينة بيسارابى **Bessarabie**). أقام موريس هيرش مراكز استقبال أخرى فى جمهورية الدومنيكان، وفى ولاية نيوجيرسى فى مدينة وودباين **Woodbine**. لكن هناك أيضا كان إخفاق آخر، لم يرغب اليهود فى إعادة خلق جيتو جديد فى المنفى.

فى عام ١٨٩٢، فى لندن، وصف هاجون زيتلوفسكى **Hagun Zitlovsky** فى كتابه "من يهودى إلى اليهود" حلمًا باشتراكية زراعية يهودية فى روسيا، وانتقد جزءًا من النخبة اليهودية لابتعادها عن الشعب وللطبيعة النظرية جدا لمشروعاتها.

برغم حالات الهجرة، كان هناك الآن قرابة خمسة ملايين يهودى فى روسيا، حتى وإن كان عدد المهاجرين للمرة الأولى نحو عام ١٨٩٣، أكبر من النمو السكانى الطبيعى.

فى عام ١٨٩٤، مات ألكسندر الثالث، القيصر البغيض، أثناء قضائه إحدى العطلات بالقرب من يالطا **Yalta**، بعد عدة أسابيع من أوامره بطرد اليهود من هذه المدينة لأنه كان يتوجس منهم. أعاد نيكولا الثانى **Nicola II** خليفة ألكسندر الثالث بعض حرية التعبير التى سبق وأقرها جده، انتسب بعض يهود وارسو، المنحدرين من أصول ثرية مثل روزا لوكسمبورج **Rosa Luxemburg**، إلى حزب البروليتاريا، ألقى القبض عليهم هربوا من السجن وهاجروا.

انضم بعض العمال اليهود – الذين كانوا يعملون في مصانع وارسو، لودز، فيلنا أو كييف، ثماني عشرة ساعة يوميا لقاء عشرة روبلات شهريًا[٤١٤]، في ظروف مريعة – أيضًا إلى الحركات العمالية في بولندا، روسيا، لتوانيا، أوكرانيا، – والتي كانت أحيانا حركات يهودية خالصة. في ذلك الوقت كتب أحد هؤلاء العمال لولي تسيدربوم Luuli Tsederbaum الشهير بمارتوف Martov، رفيق لينين القادم ما يلي: "عندما سيتم تنظيم العمال اليهود في كل مكان، (...) سيكون لنا حلفاء موثوق بهم، العمال الروس، البولنديون، اللتوانيون، (...) سوف تتنامى قوتنا؛ بهذه القوة سوف نحصل على المساواة في الحقوق".

كان عدد اليهود كبيرًا في الصفوف الأولى للحركة لدرجة أن المسئول الروسي بلخانوف Plekhanov أعلن، أثناء انعقاد المؤتمر الدولي الثاني عام ١٨٩٦، أن اليهود هم طليعة جيش العمال في روسيا.

في العام التالي، ١٨٩٧، في نفس الوقت، كما سوف نرى، الذي أطلق فيه ثيودور هيرتزل Theodor Herzl في مدينة بال Bale الحركة الصهيونية، تكونت في فيلنا سرًا، في أكتوبر، بواسطة مجموعة كان على رأسها أحد المعلمين أرون كريمير Aaron Kremer وبعض العمال، ليبر Liber، كوسوفسكي Cossovsky – منظمة كان لها دور مهم في نشأة الحركة الاشتراكية الروسية وميلاد الصهيونية: نصف حزب، نصف نقابة "الرابطة العامة للعمال اليهود في روسيا، بولندا، وليتوانيا". التي صارت بسرعة منظمة فعالة وقوية عرفت باسم الـ "بوند" Le Bund "نقابة – باللهجة اليادييش"؛ تطالب بحقوق قومية وثقافية داخل الإمبراطورية الروسية. كانت تعتقد وهمًا أن العداء للسامية سوف يزول مع قدوم الديكتاتورية. نظمت الـ "بوند" مئات الاضطرابات التي قام بها عمال الحديد وعمال النسيج وشكلت مجموعات للدفاع الذاتي ضد هجمات "البوجرومز" واستمرت في المطالبة باعتماد "اليادييش" خليط من العبرية والألمانية، تكلم بها اليهود في تلك المناطق منذ قرون، لغة قومية لليهود. حصلت فورًا على مساعدة مالية من بعض يهود الولايات المتحدة، الأمر الذي أدى إلى تنامي غضب الأوساط الوطنية الروسية التي اتهمت "البوند" بالخيانة.

فى ٢٦ أغسطس ١٨٩٧ نشرت صحيفة الراية **Le Drapeau** دون أن تذكر المصدر، نصًا أثار فضيحة هائلة:[٩٦] بروتوكولات حكماء صهيون "كتاب ألفه مجلس من الحكماء اليهود من أجل السيطرة على العالم والقضاء على المسيحية"[٩٦]. كان على حد ما زُعِمَ، خلاصة أربعة وعشرين مؤتمرًا سريًا من المفترض أن القائمين اليهود على شئون العالم قد أعدوا خلالها لإسقاط النظام الملكى المسيحى فى ألمانيا، القضاء على الأرستقراطية الروسية، الاستعداد لحكم العالم واستعباد غير اليهود: "إن تعزيز المعدات الحربية، تطوير قوات الشرطة من الأمور الأساسية، لا يجب أن يوجد فى العالم أحد غيرنا، جماهير الطبقة الكادحة، بعض أصحاب الملايين العاملين لصالحنا، الشرطة، الجيش (....). يجب أن نزرع فى كل أنحاء أوروبا خمائر الشقاق والكراهية. يجب أن نكون دهاة مراوغين فى أى تفاوض، أن نبدو شرفاء حتى يتم القبول بنا كمنقذين، يجب إجبار الحكومات على العمل فى اتجاه خططنا، ويجب علينا أن نمارس ضغوطا خفية على الرأى العام من خلال استخدام الصحافة الموجودة، فيما عدا بعض الاستثناءات غير المهمة، بين أيدينا بالكامل. يجب علينا أن ننشئ محافل ماسونية سيكون أغلب أعضائها من رجال الشرطة الوطنية والدولية الذين يعرفون ما يجب عمله تجاه المتمردين.."[٩٦].

لم يشكك أحد فى صحة هذه الأسرار والاعترافات الغريبة الشاذة. كان لهذه البروتوكولات تأثير واسع فى العالم بأسره، وعمقت الفكرة التى ولدت مع ماركس والفلاسفة الألمان، عن وجود سيطرة ليس فقط للفكر التوراتى بل أيضا لبعض رجال المال اليهود على الاقتصاد والسياسة العالمية. سوف يجرى استغلالها بشكل واسع فى الولايات المتحدة، فى إنجلترا، فى فرنسا[٩٦]. وفيما بعد، سوف يكتشف بعد ذلك بكثير، فى البلاد الإسلامية ، فى عام ١٩٢١، بصورة مثيرة للفضول، من خلال رسالة من قارئ تركى، موجهة إلى صحيفة "التايمز **Times**" اللندنية التى كانت قد أعلنت لتوها عن صحة هذه النصوص! إن هذه البروتوكولات المزعومة قد كتبت بواسطة أحد المهاجرين الروس فى باريس، بيير راتشوفسكى **Pierre Ratchovsky**، أحد المتعاونين مع الشرطة السرية القيصرية، منتحلاً كتاب هجاء فرنسى تم تحريره فى بروكسل فى عام ١٨٦٤، بواسطة المدعو موريس جولى **Maurice Joly** وكان موجهًا إلى نابليون الثالث، والذى لم يكن فيه

ما يشير إلى اليهود!. لن يعد باستطاعة أحد أن يتشكك فى ذلك منذ ذلك الوقت فصاعدًا: لقد كان تزويرًا.

فى نفس ذلك العام ١٨٩٧، تبعًا للإحصاء الروسى للسكان كان ٤٨٩٩٠٠٠ يهودى لا يزالون يعيشون فى "نطاق الإقامة". فى بعض المقاطعات مثل اليهود أغلبية السكان أيضًا، بالرغم من حركة التهجير التى تسارعت وتيرتها. كان معظمهم من المزارعين القرويين، الحرفيين، العمال، خاصة فى المدن الصناعية الجديدة فى بولندا مثل لودز، كان أصحاب المصارف قلة نادرة، تدريجيًا تزايد عدد النقابيين والثوريين الذين انضموا إلى الحركات اليهودية أو إلى التنظيمات الروسية.

فى مارس ١٨٩٨، فى مدينة مينسك Minsk، ساهمت "البوند" فى نشأة الحزب الاشتراكى – الديموقراطى الروسى – السرى هو الآخر – انضم إلى صفوف الحزب كل من مارتوف، الذى أصبح فى أثناء ذلك عاملاً مناضلاً فى البوند، وليون دافيدوفيتش برونشتين الشهير بـ تروتسكى Trotosky، ابن تاجر منتجات زراعية من مدينة أوديسا، نشأ فى أوكرانيا وانخرط فى المقاومة السرية، ألقى القبض على تروتسكى ونفى إلى سيبيريا، حيث تمكن من الهرب واتجه إلى إنجلترا مثل مارتوف.

فى ١٨٩٩ ناقش مؤتمر البوند السرى حقوق اليهود الوطنية، فى ١٩٠١، طالب بالاعتراف باليهود كأمة داخل كيان الدولة الروسية وأدان الصهيونية البازغة كـ "رد فعل بورجوازى لمعاداة السامية"[١١٧]. فى تلك السنة انضم مناضل يهودى آخر، جريجورى أيفسيفتش رداوميلسكى وشهرته زينوفيف Zinoviev إلى الحزب الاشتراكى الديمقراطى الروسى.

لم يستسلم المعادون للسامية وضاعفوا من ضرباتهم بدعم وتمويل تارة علنًا وأخرى سرًا، ضد جهاز الدولة فى ٦ أبريل عام ١٩٠٣، فى مدينة كيشيف Kichinev فى مقاطعة بيسارابى Bessarabie، مولدافيا اليوم، أقدمت فتاة مسيحية شابة على الانتحار، سرعان ما نسبت الصحافة المحلية المسئولية إلى مخدومها اليهودى. بل إن ناشر إحدى الصحف المحلية قد تلقى مالاً من وزير الداخلية ف – ك – فون بليهفه V. K. Von Plehve المعادى

الشرس للسامية، لإطلاق حملة تدعو إلى قتل اليهود. خلال يومين متواصلين، قامت الجماهير المهتاجة بالقتل والتدمير: ٥٠ قتيلاً، ١٠٠ جريح، ١٣٠٠ منزل تم تدميرها، أدين القتلة بعقوبات مخففة، بدأت الصحافة الغربية تهتم بالأمر ونددت بهذه المجازر.

تكونت وحدات يهودية للدفاع الذاتي في القرى. تضاعفت حركات التمرد؛ عمت الإضرابات اليهودية. تسارعت حركة الهجرة إلى الولايات المتحدة أكثر.

مسيرة رجل يهودي: قام جريجوري أندريفيتش جيرشفني **Grigori Andreievitch Gershvni**، يهودي ليتواني مقيم في مينسك، حيث كان يدير معملاً للبكتريولوجي، بترتيب اغتيال العديد من المسئولين السياسيين الموالين للقيصرية، حكم عليه بالإعدام، وخففت العقوبة إلى النفي المؤبد إلى سيبيريا، التي هرب منها ووصل إلى الولايات المتحدة مرورًا بالصين واليابان، حيث عمل بقوة للحصول على موارد مالية من أصحاب البنوك والنقابات الأمريكية لدعم حركة النضال الاشتراكي الثوري الروسية. كللت جهوده بالنجاح: سوف يفضل أصحاب المصارف اليهود الأمريكان، كما سوف نرى ذلك، الاشتراكيين الروس عن القياصرة المعادين للسامية.

مصير يهودي آخر : مكسيم والاش **Maxinn Wallach** يهودي ليتواني انضم إلى الحزب الاشتراكي الديمقراطي في ١٩٠٣ باسم مكسيم مكسيموفيتش ليفينوش **Maxime Maximovitch** سيكون علينا أن نتحدث عنه لاحقًا .

في نفس الوقت أيضا كان مارتوف الذي أصبح أحد مسئولي الحزب الاشتراكي الديمقراطي يدافع في لندن عن فكرة حزب جماهيري ديمقراطي لا يدعو لاستخدام العنف، أثار مارتوف بذلك فئة المناشفة (أقلية) ضد لينين **Lenine**(*) والبلاشفة (أغلبية) الذين يقدمون الأولوية لتكوين وإعداد نخبة ثورية محترفة ، تعمقت الهوة بين تياري الحركة الثورية الروسية .

Lenine(*)(٢٢ أبريل ١٨٧٠ – ٢١ يناير ١٩٢٤ روسيا) هو فلاديمير أيلتش أوليانوف لينين المعروف بلينين ، ماركسي ثوري ، قائد الحزب البلشفي والثورة البلشفية في روسيا ١٩١٧ (المرحلة الثانية) ، التي كان شعارها (الأرض – الخبز ــ السلام).. المترجم(عاصم عبد ربه).

فى عام ١٩٠٤ اغتيل الوزير Plehve اتهم بعض اليهود بالضلوع فى ذلك، من بين ثلاثين ألف نقابى يهودى تضم البوند أودع خمسة آلاف فى السجون أو تم نفيهم إلى سيبيريا ، تسارعت وتيرة الهجرة من جديد ، يغادر اليهود الآن صوب نيويورك بعشرات الآلاف .

فى كل مكان جمعت حركات الغضب العمالية بين اليهود والمسيحيين فى مظاهرات المطالبة بالخبز فى أول يوليو ١٩٠٥ كانت صحيفة الإيضاح L'Illustration الفرنسية التى صارت تهتم الآن مثل كل صحف أوروبا الغربية بالأوضاع فى بولندا وفى روسيا ، قد قدمت وصفا لأوضاع اليهود فى مدينة لودز مدينة عمالية كبرى منذ خمسة عشر يوما كان الجميع فى فنسا لا يلمون أو تقريبا كذلك بوجود لودز فى بولندا ، لقد جاء إليها خلال القرن التاسع عشر من جديد بعض الألمان وكثير من الإسرائيليين ، الذين كان ممنوعا عليهم امتلاك الأراضى الزراعية بل وحتى العمل عليها فى روسيا سوف تجتذبهم المدينة الجديدة .

أصبحت لودز الآن مدينة صناعية راعية يسكنها ٤٠٠٠٠٠ ألف نسمة غير أن العامل هناك فى غاية الشقاء بسبب كثرة الأيدى العاملة ذاتها ، أما أصحاب الأعمال الصناعيين الذين قبلوا باستغلال خدماتهم فكانوا يستفيدون من وضعهم غير القانونى ليقدموا لهم أجورا زهيدة .

لم يكن متوسط راتب العامل فى لودز يتجاوز ٦٠ كوبيك (١,٦ فرنك تقريبا) وقد تحدد هذا المتوسط تبعا للتعريفة التى أجبر العمال على الخضوع لها ، منغمسين فى فقر مدقع مريع، مطاردين من قبل السلطة بسبب ديانتهم ، سوف يسعى اليهود جاهدين إلى مغادرة هذا الجحيم . وقد وفرت الصهيونية لعدد منهم وسيلة تحقيق ذلك ، من خلال الهجرة فى جماعات كبيرة إلى أمريكا .

تدخل الاشتراكيون فى الأمر، حركوا العمال غير الإسرائيليين، الذين يتعرضون لنفس سوء المعاملة، من خلال مفهوم الأجر مثلهم مثل اليهود. ماجت طبقة العمال فى لودز

بأكملها بالثورة: لقد عرفنا نتيجة هذه الأوضاع المؤسفة "فى تلك الأيام الأخيرة"(٤١٤). إننا نرى هنا بوضوح كيف كانت مطالب اليهود تعزز مطالب الطبقة العاملة الروسية والبولندية.

فى عام ١٩٠٥ كانت البوند تضم ستة وثلاثين ألف عضو، من بينهم ستة آلاف فى السجن. فى ذلك العام، عند إعلان الحرب على اليابان، اتهمت السلطة القيصرية اليهود بالإيعاز إلى أصحاب المصارف فى نيويورك برفض الطلب – الذى سنعود إليه لاحقًا – الذى تقدمت به روسيا للحصول على قرض كبير، وعندما بدت نذر الهزيمة العسكرية حمّل القوميون الروس اليهود المسئولية فى ذلك أيضًا. أما منظمة "المائة السوداء" منظمة كان أعضاؤها من العاطلين والضباط الذين هزموا فى الحرب فى منشوريا والتى يتحكم فيها البوليس السياسى الأُخرانا L'okhrana وتموّلها الخزينة السرية الشخصية للقيصر، فقد أدرجت فى برنامجها القضاء على اليهود "أعداء الداخل هؤلاء". يجب أن نتغلب على اليهود وعلى الاشتراكيين بما أننا لم نتمكن من التغلب على اليابانيين!.

نظم فوضويو اتحاد الشعب الروسى هجمات انتقامية "برجرومز" فى أكثر من ثلاثمائة مدينة من بينها لودز، أسفرت عن مقتل قرابة ألف يهودى وإصابة عدة آلاف بجراح.

صارت حركة الهجرة أكثر كثافة. رحل أغلب الفقراء إلى الولايات المتحدة. اختار بعض أصحاب المصارف اليهود من سكان سان بيترسبورج وأدويسا الاتجاه إلى ألمانيا، حيث كانت عائلاتهم تقيم من قبل.

فى عام ١٩٠٦ أسس حزب صهيونى فى روسيا "عمال صهيون Poalei Zion" ذو اتجاه ماركسى، كان يدعو إلى إقامة وطن اشتراكى يهودى فى فلسطين.

بلغت حركة الهجرة ذروتها فى عام ١٩٠٨ ، ١٩٠٩: فى غضون هذين العامين غادر روسيا نصف مليون يهودى، بنهاية عام ١٩٠٩ بلغ عدد المهاجرين مليونًا ونصف المليون شخص، قصد ٩٠٪ منهم الولايات المتحدة، استمر معدل النمو السكانى دونما إبطاء؛ ولذا فقد ظل عدد اليهود فى روسيا يقارب الخمسة ملايين.

منفيًا فى عام ١٩٠٨ مع لينين إلى أوروبا الغربية، خصوصًا فى سويسرا، أصبح زينوفيف Zinoviev واحدًا من أقرب معاونيه كان تروتسكى وليتفينوف هما الآخران من ضمن هذه الرفقة. كانت بعض الأحزاب السياسية الروسية الأخرى تتمنى أن ترى بلادها ملتحقة بصفوف الديموقراطيات الغربية. بشكل خاص طالبت هذه الأحزاب بتحرير اليهود. فى فبراير ١٩١١ اقترح الحزب الاشتراكى والحزب الليبرالى على مجلس النواب الروسى "الدوما" إلغاء "نطاق الإقامة" والسماح لليهود، بالحق فى العيش فى المكان الذى يريدونه وممارسة كل المهن. بكل تأكيد اعترضت على ذلك كل المنظمات اليمينية والملكية. اتهمت اليهود بأنهم كانوا فى نفس الوقت معادين للروس (مثل يهود الولايات المتحدة الذين ساعدوا اليابانيين على الانتصار فى الحرب ضدها)، معادين للقيصر (مثل هؤلاء الذين يسعون إلى جانب لينين فى سويسرا لإسقاط الحكم الفردى)، ومعادين للرأسمالية (مثل هؤلاء الموجودين فى صفوف البوند، يحرضون على الإضرابات). بالنسبة للشرطة كان الاشتراكيون، هم اليهود. الحط من قدر الأول يحط من قدر الآخرين. فى شهر مارس ١٩١١، واقعة جديدة ثقيلة التبعات: فى مدينة كييف بعد مقتل شاب مسيحى أندريا إيوشنسكى Andrei Iouchinsky، الذى تم التعرف على هوية قاتله فى التو وكان شابا مسيحيا هو الآخر ألقى القبض على شخص يهودى يدعى ميندل بيليس Mendel Beilis، يعمل رئيسًا للعمال فى مصنع للقرميد، وجرى اتهامه بالقتل الطقسى؛ أمضى ميندل عامين فى السجن، الوقت اللازم لإعداد ملف ضده بمستندات مزيفة وشهادات مزورة. غير أن العالم كان قد تغير: أطلق المليونا روسى تقريبًا المقيمون منذ ذلك الوقت فى الولايات المتحدة، تدعمهم الصحافة، حملة دعم لميندل بيليس، دار الحديث عن قضية "دريفوس" جديدة: فى أكتوبر ١٩١٣، تابعت كل الصحف فى العالم بأسره، قضية ميندل التى تنظر فى مدينة كييف. كانت مناسبة لجذب انتباه الغرب إلى وضع يهود روسيا المأساوى. أعلنت المحكمة براءة بيليس بالإجماع، انقلاب جذرى: لقد تعرض النظام القيصرى الحاكم للتوبيخ علانية أمام إحدى المحاكم. "سوف يعيد المدعى العام ج. زاميسلوفسكى G. Zamyslovsky، عرض اتهاماته فى أحد الكتب، مقتل أندريا إيوشكينسكى الذى سيكون نشرة عشية الثورة، ممولاً من أموال سرية بموافقة القيصر شخصيا"(١١٧). شعرت كل

القوى الوطنية الروسية بأن تلك القضية القومية قد جعلت منها أضحوكة العالم، وأحست أنها كانت "مؤامرة من اليهود ومن الخارج ضد روسيا"، كانت الاشتراكية فى نظرها يهودية وخائنة.

عند انتخابات مجلس النواب "الدوما" عام ١٩١٢، أطلقت كل الأحزاب تقريبًا حملات معادية للسامية. فى كل مكان فى وارسو كما فى كييف، تم مقاطعة المحلات اليهودية، اتهموا بقيادة الثورة: فى الحقيقة، أنه إذا كان عدد اليهود فى صفوف الحزب الاشتراكى الديموقراطى ٣٦٤ عضوًا فقط من بين ٢٣٠٠٠ عضو، فإن الكثير من قادته الأساسيين كانوا من اليهود، من بينهم مارتوف، زينوفيف، تروتسكى، ليتفينوف، سفردلوف **Sverdlov**، رادیك **Radek**، كامينيف **Kamenev**، أوريتسكى **Ouritsky**، كثير آخرون كانوا قد غادروه .

إجمالاً غادر "الملجأ" الروسى ما بين عامى ١٨٨١ ، ١٩١٤، أكثر من مليونى ونصف المليون يهودى متوجهين إلى الولايات المتحدة، وبصورة ثانوية نحو الأرض الموعودة الأخرى. فلسطين. سيقوم الكثير بتقليدهم فى مغادرة ملجأهم الأوروبى الآخر، الإمبراطورية النمساوية المجرية.

رحم التحليل النفسي

يهود فيينا

ابتداءً من ١٧٩٠، تضاعفت الإجراءات القمعية فى الإمبراطورية النمساوية، التى كانت تضم نصف مليون يهودى فى مطلع القرن التاسع عشر، كان ليوبولد الثانى الذى كان حكمه عابرًا، مصممًا على تقييد حرياتهم إلى أقصى حد ممكن. فى ١٨٠٤، جعل فرانسو الثانى **Francois II** من حياتهم فى فيينا مصدر أخطار متزايدة، حث على مطاردة المقيمين غير الشرعيين بصورة ممنهجة، زاد "ضريبة التسامح" المطبقة على المقيمين قانونًا وعمد إلى فرض الثقافة الجرمانية عليهم بإجبارهم على اتخاذ أسماء عائلية ألمانية "ألقاب"، (وكما حدث فى أماكن أخرى، اختيرت من بينها أسماء متواضعة، اسم حيوان، أو مهنة يدوية حتى لا يلفتوا أنظار جيرانهم ولا رجال الضرائب).

فى عام ١٨٢٠، كان عدد اليهود فى الإمبراطورية النمساوية يزيد على ثلاثة أضعاف عددهم فى ألمانيا (٧٥٠٠٠ ألف مقابل ٢٥٠٠٠٠ ألف)، لكنه كان أقل من عددهم فى روسيا بثلاثة أضعاف أيضا. حطت الضرائب الباهظة من مستوى معيشتهم، كان من الممنوع عليهم أن يصبحوا ملاكا للعقارات، ممارسة تجارة التجزئة، الصناعة، وعدد كبير من المهن الحرفية، كانت محظورة عليهم أيضًا. فى كل مكان كانت هناك إجراءات قاسية تحدد عدد الزيجات للسيطرة على أعدادهم. فى بوهيميا وفى جاليسى كان هناك قانون يجرى تطبيقه منذ ١٧٧٣، يهدف إلى إعاقة النمو السكانى، عن طرق تحديد عدد الزيجات، يمكن للولد البكر فقط فى كل أسرة أن يؤسس عائلة. حتى عام ١٨٤٨، لم يكن باستطاعة أى يهودى أن يتزوج مرة ثانية بدون أن يجتاز، أمام الشرطة، اختبارًا، حول محتوى كتاب التعليمات الدينية للمدعو هيرتزهومبرج **Herz Homberg** ، حاخام، كان من أشد مناصرى الاندماج فى المجتمع المسيحى، حتى إنه دعا إلى فرض ضريبة على الشموع التى توقد ليلة الجمعة فى مدينة كازيميرز، حيث عاش ١٠٨٢٠ يهوديا، فى عام ١٨٣٠، كان ثلثهم يحصل على قوته بفضل إعانات المنظمات الخيرية التى يقوم بتمويلها، الأقل منهم فقرًا وبواسطة المعونات المالية للطوائف اليهودية فى أوروبا الغربية.

فى براغ حيث تقيم واحدة من أقدم الطوائف اليهودية فى أوروبا وفى جاليسى الشرقية والغربية، كان وضع اليهود يدعو إلى الرثاء. فى المجر وفى ترانسيلفانيا، بلغ عدد اليهود حوالى ٢٥٠٠٠٠ ألف نسمة.

فى عام ١٨١٥، كانوا يعيشون منغلقين على أنفسهم فى أحياء منعزلة، هناك أيضًا مُنع عليهم ممارسة بعض المهن وكان عليهم أن يسددوا "ضريبة تسامح" باهظة للغاية. بدت المجر مع ذلك أقل انغلاقًا من باقى أنحاء الإمبراطورية أمام الأفكار الليبرالية التى أفرزتها الثورة الفرنسية: فى عام ١٨٣٩، سمحت الجمعية السياسية المجرية لليهود بامتلاك المساكن، بل إن أحد النواب المجريين، جوزيف إيوتفوس **Joseph Eotvos**، اقترح تحريرهم، الأمر الذى رفضته الحكومة الإمبراطورية فى فيينا. ابتداءً من عام ١٨٤٢، اختفت حارات اليهود من المدن المجرية، فى المقابل صارت المطالبة بالاندماج فى المجتمع المجرى أكثر صرامة وإلحاحًا. أصدر الإمبراطور مرسومًا يشترط على كل من

يرغب فى البدء فى تجارة ما أن يثبت أنه كان مقيدًا بإحدى المدارس المجرية، مما أدى إلى استبعاد أغلبية اليهود[١١٧].

فى بوهيميا، فى موارفيا، فى جاليسى، طاردت الشرطة بلا شفقة اليهود الذين يحاولون التملص من الضرائب الباهظة أو التحايل على قوانين تحديد عدد الزيجات. بعد ثورة ١٨٤٨ التى كانت أكثر عنفًا فى الإمبراطورية النمساوية عنها فى أى مكان آخر، تسلم الشاب فرانسوا جوزيف **Rrancois Joseph** التاج من عمه فرديناند **Ferdinand**، لن يغادره إلا بوفاته، فى عام ١٩١٦، تسارعت وتيرة تحرير اليهود وزادت أكثر فيما بين عامى١٨٥٩ – ١٨٦٧، بفضل هزائم النمساويين أمام فرنسا ثم أمام بروسيا، بعد ماجنتا **Magenta**، وسولفرينو **Solferino** انخرط الإمبراطور فى طريق أكثر ليبرالية، حتى إقرار دستور جديد فى عام ١٨٦٧، اعترف للمجر بالحكم الذاتى وتم إلحاقها بعرش آل هابسبورج باتحاد إقنومى. أعلِنَتْ المساواة فى الحقوق السياسية والمدنية للجميع مهما كانت ديانتهم، ألغِيَتْ الوصاية الكهنوتية الكنسية على التعليم، حصل اليهود كالآخرين على حرية الإقامة فى كل أنحاء الإمبراطورية حتى فى فيينا وفى بودابست.

تدفق اليهود إلى فيينا، ارتفع عددهم من خمسة آلاف عام ١٨٤٨ إلى أربعين ألفًا عام ١٨٦٠ ثم إلى ثمانين ألفًا عام ١٨٨٠، هكذا بدأ مجد المدينة الفكرى والثقافى. أقبل كثير ممن منع عليهم ممارسة المهن المتعلقة بالمال على المجالات الذهنية[١٤]. لم يكن المال فطرتهم الطبيعية، لم يكن سوى ممر إجبارى طريق للحصول على الحرية. أسس اجناز كوراندا **Iganz Kuranda** رئيس الطائفة اليهودية بالمدينة صحيفة ليبرالية وأصبح أيضًا، ابتداءً من عام ١٨٦١، زعيم الحزب الليبرالى، انتهت بعض الدعاوى المرفوعة ضدهم بتهمة "القتل الطقوسى" فى جاليسى، فى المجر، فى بوهيميا، بإعلان البراءة.

فى مدينة فيينا التى كان عمدتها، كارل ليجير **Karl Lueger**، معاديًا صريحًا للسامية، وصل عدد اليهود إلى ألف وخمسمائة شخص فى عام ١٩٠٠، فى هذا المجتمع المعادى كانت الشهرة هى الطريقة الوحيدة لكى يكون المرء مقبولاً.

فى فيينا وفى براغ أصبحت حياة المفكرين اليهود محتملة وعاش فيهما كافكا Kafka، فرويد Freud، ويبرن Webern، شوينبرج Schoenberg، ماهلير Mahler، كليمت Klimt، وكثير غيرهم.

كان المسرح هناك على وجه الخصوص تقريبًا يهوديًا بالكامل تمثيل، إخراج، عرض جماهيرى، ما كان اليهود يقومون به بينهم منذ وقت طويل فى الجيتوهات صار الآن متاحًا للجميع.

مشوار حياة سيجموند فرويد Sigismund Freud : ولد فى ١٨٥٦، ابن أحد تجار الصوف البسطاء والمتدينيين من مورافيا والذى لازمته المشاكل المالية طوال حياته، بعد أن قام بدراسة الهستريا وفقًا لحالة أو . أنا Anna. O. ، ثم دراسة تفسير الأحلام، عرض فرويد نظريته عن الجنون والتى كانت ثورية فى كل من مجالى المال والجنون.

كل الأمراض العقلية يمكن علاجها، بالكشف عنها أمام المريض نفسه بواسطة أحد المحللين، الذى يجب أن يجزل له أجر العلاج، يظل ذلك كما يقول فرويد صفقة رابحة مهما تكلفت، مقارنة بما كان سيتوجب إنفاقه فى العلاج الطبى التقليدى.

كان يرى أنه من الضرورى أن يدفع المريض أتعاب المعالج[٨]. وإلا اعتقد أنه تلقى هدية من المحلل النفسى وأنه مدين له ولن يقوم ساعتها بدوره في علاج نفسه، سداد الأتعاب، إذًا، يجبر المريض على التأمل الباطنى ليبرر ما أنفقه، وهذا الدور هو شرط شفائه.

بصورة أكثر تعميمًا، فإن المال يحيل إلى النمط الشرجى للعلاقة الجنسية، إنه مادة دنسة، يجب طردها والتخلص منها[٨]، كان المال يمثل بالنسبة له الصورة الأولى الأولية "للنشاط الجنسى وللمجتمع" التى يجب استبدالها بصيغة أرقى. يقول فرويد: "فى الحقيقة، إنه فى كل مكان ساد فيه أو استمر أسلوب التفكير القديم المتخلف فى الحضارات القديمة، وفى الأساطير، فى الحكايات، فى الروايات الخرافية، فى التفكير اللاشعورى، فى الأحلام، وفى حالة الفصام ارتبط المال ارتباطًا عميقًا بالبراز، من المعروف أن الذهب الذى يهديه الشيطان إلى أحبائه يتحول إلى براز بعد رحيله، من المؤكد أن الشيطان ليس إلا تجسيدًا للحياة الغريزية المكبوتة فى اللاوعى، من ناحية

أخرى لقد عرفنا الخرافة التى تربط بين العثور على الكنوز بالتغوط، ولا يجهل أحد شخصية "الجنى الذى يتغوط قطعا ذهبية".

فيما مضى فى بابل القديمة، كان الذهب هو فضلات الجحيم وعليه فعندما يتقيد العصاب بالاستعمال اللغوى فإنه يستخدم الكلمات فى معناها الأصلى، المحمل بكل دلالاته، وأنه حيث يبدو أنه يورد كلمة فى معناها المجازى فإنه لا يكرر عادة إلا المدلول القديم لهذه الكلمة.

"من المحتمل أن التعارض بين ما تعود الإنسان أن يضفى عليه أكبر قدر من القيمة وبين المجرد من أى قيمة، الذى يلقى به كنفاية، هو ما كيّف شروط هذا التطابق بين الذهب ونفايات البشر "البراز"[١٥٣].

على مثال الطائفة اليهودية فى فيينا، التى استبدلت المال الذى يعزلها، بالمسرح الذى يفتح أمامها كل الأبواب، رفض فرويد المال باعتباره "نجسا"، لقد بشر بذلك بقرب خروج اليهود من المهن المتعلقة بالمال، غير أن آخرين من ناحية أخرى كانوا لا يزالون فى قلب عالم المال، لقد ابتكروا أمركة العالم.

رحم أمركة العالم (الرأسمالية)

الولايات المتحدة فى القرن التاسع عشر

بينما اخترع اليهود الروس الاشتراكية وبينما اكتشف يهود النمسا التحليل النفسى، شارك اليهود من موقع الصدارة فى نشأة الرأسمالية الأمريكية وفى أمركة العالم.

فى ١٤ يوليو ١٧٧٦، يوم إعلان استقلال الجمهورية الجديدة، لم يكن المجتمع الأمريكى وقتها إلا اقتصادًا زراعيًا يضم بعض التجار وقليلاً جدًا من الصناعة ولم يكن هناك من يجازف بتمويله. ولأن النفوذ البريطانى قد حرص على إبقاء المستعمرات معتمدة على الوطن الأم، فلم يكن هناك أيضًا من يؤمن الاحتياجات المالية لهذه الدولة الضعيفة البازغة: لا البنوك الإنجليزية ولا البنوك الأوروبية.

مرة أخرى سيملأ بعض اليهود هذا الفراغ، مقبلين على مجازفات لم يرغب أحد فى القيام بها، دون أن يجبروا هذه المرة على فعل ذلك.

فى عام ١٨٠٠، لم يكن عدد اليهود فى أمريكا الشمالية إلا ثلاثة آلاف شخص، من أصل برتغالى وإسبانى بالنسبة لغالبيتهم(٥٥). مواطنون أحرار ومتساوون للمرة الأولى، كان عددهم قليلاً جدًا لا يسمح لهم بالعيش فى دائرة مغلقة، ابتكروا آنذاك يهودية منفتحة حتى قبل أن تظهر هذه اليهودية فى أوروبا.

ابتداءً من عام ١٨٠٩، كانت الصلوات تتلى بالإنجليزية فى أحد المعابد السفاردية، فى نيويورك؛ أطلق على الحاخام لقب "الموقر". لم تعد اليهودية إلا بعدًا من أبعاد الحياة الخاصة لهؤلاء المستعمرين.

بدا الاندماج ماضيًا فى طريقه، خاصة فى ولايات الجنوب، المسيحية جدًا.

على خلاف كل المهاجرين اليهود الآخرين منذ ألفى عام، لم يأت اليهود إلى أمريكا مع عائلاتهم، لم يبقوا مجتمعين على الأقل فى البداية. إذا كان القادمون الجدد كما كان الحال دائما روادًا ومكتشفين فقد كانوا كذلك الآن ولكن بصفة فردية. استقر اليهود، مثل الآخرين، أولاً فى بعض القرى التى ستتحول فيما بعد إلى شيكاغو، أنديانا بوليس، وسان بول **Saint Paul**؛ فى عام ١٨١٧ استقر المدعو جوزيف جوناس **Joseph Jonas** فى سينسيناتى **Cincinnati**. بعد أن استقروا، بذل اليهود قصارى جهدهم فى إبقاء بعض الأسر اليهودية الأخرى العابرة بالقرب منهم، وفى أن يكوّنوا معهم طائفة جديدة. فى شراء قطعة أرض لبناء مقبرة ثم إقامة الصلوات مع طوائف المدن المجاورة، مكررين ردود أفعال الشبكات اليهودية على ضفاف المتوسط فى العام الألفى. فى عام ١٨٢٠، كان عددهم خمسة آلاف، معظمهم من التجار، أصبح بعضهم، من بين أقدم المستقرين فى الجنوب، فى غاية الثراء - عائلات سياكساس **Seixas**، لازاروس **Lazarus**، ناثان **Nathan**، كاردوسو **Cardoso**، بنيامين **Benjamin**؛ أكثر من ثلاثة أرباع العائلات اليهودية فى مدن شارلستون **Charleston**، ريتشموند **Richmond**، سافاناه **Savannah**، كانت تستخدم العبيد، مثل حوالى نصف عائلات هذه المدن. فى الشمال، كان البعض قد بدأ بالفعل الاعتراض على العبودية(٥٥).

عام ١٨٢٥، فى ألمانيا بينما كان عدد قليل من بين أكثرهم ثراءً يتابع دراسته فى الجامعة ويبذل قصارى جهده للاندماج فى المجتمع الألمانى، شرع الأكثر فقرًا فى الرحيل صوب أمريكا، حاملين مدخرات عائلاتهم الهزيلة أحيانًا لملاقاة صديق أو قريب كان قد سافر من قبل: كانت الهجرة تجرى وفق قانون الخاصية الشعرية، كما كان الأمر بالنسبة للإيطاليين والأيرلنديين.

لمساعدتهم على الاستقرار كان مردخاى إيمانويل نوا Mordechai Emmanuel Noah المولود فى عام ١٧٨٥ فى مدينة فيلادلفيا، ابن أحد المهاجرين، والذى عمل ضابطًا، صحافيًا، قاضيًا، ثم صار محاميًا، واسع الثراء، قد اشترى بعض الأراضى فى أيسلندا الكبرى، على ضفاف النياجرا، بالقرب من مدينة بفالو Buffalo، بغرض إقامة مستعمرة يهودية عليها. كان يريد أن يطلق عليها اسم أرارات Ararat، اسم المكان الذى رست عليه سفينة نوح، لأن هدفه كان "انتشال أبناء ديانته من الطوفان"(٥٥). أخفق المشروع، كان القادمون يفضلون البقاء فى موانى الاستقبال أو الذهاب بعيدًا إلى الغرب؛ لم يكن أحد يرغب فى إعادة خلق الجيتو الذى خرج منه.

وصل فى ذلك الوقت، ابتداءً من ١٨٤٠، وسط حشد من الشباب المفلسين، بعض المغامرين الذين سيقلبون أوضاع الرأسمالية الأمريكية ويصنعون بنيتها الجديدة: جولدمان Goldman، جوجنهايم Guggengeim، كوهن Kuhn، لازارد LAzard، ليهمان Lehman، ليفنسوهن Levinsohn، لويب Loeb، ماسى Macy، ساشس Sachs، شيف Schiff، شوينبرج Schoenberg، سيرس Sears، سليجمان Seligman، شتراوس Strauss، واربورج Warburg، ويرهايم Werheim.

وصلوا جميعًا معدمين – ما عدا – كما سوف نرى – آل شوينبرج الذين أصبحوا آل بلمونت Belmont، وكذلك آل واربورج "فاربورج"، كان معظمهم، فيما عدا عائلات لازارد، فاربورج، جوجنهايم من بافاريا Baviere أو من فرانكفورت. جاءت عائلة جوجنهايم من سويسرا الألمانية، أما آل لازار فقد كانوا فرنسيين.

فيما بعد سيلقب هؤلاء المهاجرون فيما بينهم بـ "المائة"، "الدوقات اليهود العظام" أو "جماعتنا".(٥٤) لم يكن أى منهم - باستثناء آل فابورج - ينحدر من العائلات اليهودية الأوروبية الكبرى؛ لم يخاطر أى من أبناء عائلات موردى البلاطات حتى الآن بافتتاح مكتب على الأراضى الجديدة. كان هؤلاء مشغولين للغاية بالعالم القديم، منخرطين تمامًا فى حياة البورجوازية بأكثر مما يسمح لهم بـ "الذهاب للعيش وسط البدائيين". سوف يحقق القادمون الجدد الثراء لأنفسهم موفرين لأمريكا فى نفس الوقت وسائل تنظيم تطورها الرائع. مرة أخرى لم يكن هناك دائمًا ما ينفع اليهود إن لم يكن أيضًا نافعًا لمن يحيط بهم.

لم يكن هؤلاء المهاجرون الشبان أول من قام بإنشاء بنوك فى العالم الجديد. لأن مهنة الائتمان لم تكن قد خضعت بعد للقانون - ولن يحدث هذا إلا بعد حرب الانفصال - كان يقال آنذاك "لكى تكون مصرفيًا يكفى أن ترتدى ثياب المصرفى". فى عام ١٨٢٦، أقام ناتانيال بريم **Nathaniel Prime**، البروتستانتى، فى نيويورك أول مؤسسة متخصصة فى الاستشارات المالية والقروض طويلة الأجل للمؤسسات والمشروعات - أول "بنك استثمار" النمط الأمريكى للبنك التجارى الإنجليزى. فى عام ١٨٢٦، افتتح فى بلتيمور **Baltimore** بنك ثان بواسطة، بروتستانتى آخر، أليكس برون **Alex Brown**؛ فى نفس العام أنشئ أيضا بنك آخر، بواسطة جون فيرميلى **John Vermilye**، ثم أنشأ جاى كوك **Jay Cooke** بنكه الخاص فى فيلادلفيا. بعد ذلك كان دور بييربونت مورجان **Pierpont Morgan**، وجون د.روكفيلر **John D. Rockefller** ما تلى ذلك من بنوك أنشأه اليهود ويا له من نجاح!.

بدأ معظم أباطرة التمويل الأمريكى هؤلاء مسيرتهم، كتجار متواضعين. وصل تيار المهاجرين الذى كان أغلبه من الفقراء وغير المعروفين. عام ١٨٣٧، كان أولهم جوزيف سليجمان **Joseph Seligman**، الابن البكر، من بين أطفال دافيد **David** وفانى **Fanny**، سليجمان الأحد عشر، تجارا يهودا تقليديين من قرية بايرزدروف فى مقاطعة بافاريا(٥٤). منذ بلغ جوزيف، العاشرة، كان يعاون أمه فى المتجر فى الوقت الذى لا يذهب فيه إلى المدرسة فى إيرلنجن **Erlingen**. فى الرابعة عشر كان جوزيف يتحدث الألمانية، العبرية، اليادش، قليلاً من الفرنسية والإنجليزية مثل كل المراهقين اليهود الألمان. كان يأمل فى

الرحيل إلى أمريكا، حيث كان أحد أبناء عمومته، كان قد هاجر لتوه، يعمل فى أحد متاجر Manch Chunk فى بنسيلفانيا، كان دافيد سليجمان مترددًا: السماح لأحد أطفاله بالهجرة، يعنى المجاهرة بأنه فقير، فى الوقت الذى أصبح فيه الاندماج فى المجتمع الألمانى ممكنًا، غير أن فانى قد انتهت بإقناعه: ليس هناك مستقبل فى ألمانيا. فى يوليو ١٨٣٧، كان عمره لا يتجاوز الخامسة عشرة، سافر جوزيف من هامبورج على متن Telegraf، حاملاً ما يساوى المائة دولار هبة من أمه: عدة أسابيع استغرقها عبور المحيط، لم يتناول جوزيف خلالها سوى لحم الخنزير! لدى وصوله إلى بنسيلفانيا، عثر له ابن عمه على وظيفة أمين خزينة، براتب ٤٠٠ دولار سنويًا. فى أحد المشاغل فى مدينة واترتاون Watertwon، يديره شخص يدعى أزا باكر Asa Packer، الذى سيصبح أحد أثرياء رجال الصناعة، سينتخب عضوا فى الكونجرس "مجلس النواب" وسوف يقدم بعد ذلك بعض الخدمات إلى مصرف Seligman.(٥٤)

فى نفس العام ١٨٣٧ وصل أيضًا المدعى أوجست شوينبرج August Schpenberg، كان فى العشرين من عمره.(٥٤) غير أنه كان يسافر فى الدرجة الأولى. كان يتدرب منذ عامه الثالث عشر لدى مصرف روتشيلد "سيقال بعد ذلك إنه ربما كان ابنًا غير شرعى لناثان" فى لندن، ثم فى نابولى، فى هافانا وفى نيويورك. حتى ذلك الوقت، لم يكن آل روتشيلد يعلقون أهمية كبيرة على الولايات المتحدة ولم يكن أى فرد فى العائلة قد ذهب إليها. لكن آل روتشيلد فى لندن كانوا يعتقدون فى ذلك الوقت أن نيويورك يمكن أن تصبح ميناءً مهمًا فى يوم ما وسوقًا مالية كبيرة أيضًا. فى ذلك الوقت كانت نيويورك مدينة أقل أهمية بكثير من بوسطن، فيلادلفيا أو شارلستون، وكان من بعد النظر أن يقرر افتتاح مكتب مالى هناك. فى نيويورك. فى ذلك الوقت، غيّر أوجست شوينبرج اسمه إلى أوجست بيلمونت Belmont، وقدم نفسه كيهودى فرنسى قادم لعرض بعض التمويلات على الحكومة الأمريكية. أخفى صلته مع آل روتشيلد: كان اليهود السفارديم فى نيويورك قد منعوا "الألمان" من دخول معابدهم، لكن بلمونت توصل إلى أن يكون مقبولاً فى تلك المعابد، مشيعًا أنه سليل أسرة كانت قد تحولت إلى المسيحية.

فى عام ١٨٤٠، كان عدد اليهود فى الولايات المتحدة قد وصل إلى خمسة عشر ألفًا. تواجدوا فى شيكاغو، نوفيل أورليان Nouvelle Orleans، نيو أورليانز، وحتى فى سان فرانسيسكو. كان معظمهم من السماسرة، التجار، الرواد، ممهدى الطرق، فقراء فى أغلب الأحيان على أى حال.

فى عام ١٨٤٣، أسس الأكثر ثراءً جمعية علمانية للتعاون والتضامن آلـBnai Brith، كان لها فروع فى كل أنحاء البلاد.

من بين الواصلين الجدد، شخص يدعى هنرى ليهمان Henry Lehman، وصل عام ١٨٤٤، قادمًا من ريمبار Rimpar، فى بافاريا، غير بعيد عن موطن آل سليجمان الذين لم يكن يعرفهم. فقير مثلهم، لم يمكث فى نيويورك، سافر نحو الداخل، استقر فى موبيل Mobile، فى ولاية ألاباما Alabama، التى كان ينطلق منها بعربة يطوف بها الجوار ليتاجر بامتداد الأنهار. افتتح محلاً للبقالة، بالأموال التى ربحها فى مدينة مونتجومرى Montgomery، أهم مدن الولاية وعاصمة تجارة القطن وكان يبيع فيه للمستعمرين المعدات، الأمتعة، البذور والحبوب.

بعد إخفاق الثورات الأوروبية عام ١٨٤٨، تدفقت موجة ثانية من اليهود الألمان أكبر سنًا، وأفضل تعليمًا من الأوائل. هاجروا هذه المرة مع عائلاتهم، حاملين بعض المدخرات. كانوا من الأطباء، الحاخامات، المعلمين، الحائكين. استقروا فى جماعات، كونوا طوائف فى شارع هيستر Hester فى نيويورك وشارع ماكسويل Maxwell فى شيكاغو.

فى هذا السيل من القادمين الجدد كان هناك أربعة من الأعيان:

أولاً: سيمون جوجنايم مع زوجته الثانية وأطفاله الثمانية، جاء من أرجو Aargau، فى سويسرا، حيث كانت العائلة قد استقرت منذ عام ١٦٩٦ "كان أصل العائلة من مدينة جوجنهايم فى مدينة سينسيناتى حيث كان يشترى منتجات الصيانة والصبغات ويعيد بيعها تحت علامته التجارية الخاصة".

فى نفس العام وصل ماركوس جولدمان Marcus Goldman من بورج بريباخ Burg – Preppach فى بافاريا؛ تزوج من صانعة قبعات نسائية ، بيرتاجولدمان Bertha

Gddman – لم تكن بينهما صلة قرابة – واستقر كخياط فى شارع ماركت Market بمدينة فيلادلفيا.

فى نفس العام أيضا وصل آل ساشس Sachs من فورتزبورج Wurtzbourg، الذين استقروا فى مدينة بلتيمور Baltimore، كتجار، سوف يتلاقى هؤلاء الثلاثة جولدمان، ساشس، جوجنهايم.

فى عام ١٨٤٨ أيضًا، هاجر من الألزاس ألكسندر وسيمون لازار وكذلك ابن خالهما ألكسندر ويل Weil واستقروا جميعا فى أورليان الجديدة كتجار، ثم بسرعة جدًا كرجال مصارف فى سان فرانسيسكو، فى أثناء ذلك الوقت كبرت بعض البنوك الأخرى غير اليهودية وقويت شوكتها.

فى عام ١٨٤٩، نظم آل مورجان Les Morgan، وآل بيابودى Les Peabody أول استثمارات رؤوس الأموال الإنجليزية فى أمريكا. أخيرًا، جاء بعض المصرفيين اليهود الأوروبيين آل سبير Les Speyer مصرفيين مقيمين فى ألمانيا، افتتحوا مخازن عقاقير طبية أمريكية متواضعة؛ أسس مهاجر ألمانى آخر، إزاياس هيلمان Isaias Helman، الذى سوف يصبح رئيس بنك Wells Fargo Nevada Bank الشهير فى سان فرانسيسكو، أول بنك فى لوس أنجلوس Los Angeles "مدينة استولى عليها الأمريكان من الإسبان عام ١٨٤٩" بفضل وأثناء أول هجمة للبحث عن الذهب.

فى عام ١٨٥٠، كان هنرى ليهمان البقال فى مونتجومرى منذ ستة أعوام، قد ادخر ما يكفى للسماح لأخويه إيمانويل Emanuel وماير Mayer بالالتحاق به. افتتحوا سويًا مكتبًا للسمسرة فى القطن فى مونتجومرى.

فى نفس العام غادر زوجا شقيقتين، أبراهام كوهن Abraham Kuhn وسالومون لويب Salomon Loep فورمز إلى أمريكا. لم يمكثا هما الآخران فى نيويورك، لكنهما ذهبا ليبيعا الأقمشة بالجملة فى سينسيناتى.

فى عام ١٨٥٠ دائمًا، انطلاقًا من سان فرانسيسكو، افتتح آل لازار مكتبًا فى باريس فى بلدهم الأصلى.

فى تلك السنة أيضا، غادر أحد مهاجرى عام ١٨٣٧، جو سليجمان Jo Seligman مدينة واترتاون حيث كان قد استقر إلى مدينة نيويورك وغادر أخوه جيس Jesse، الذى كان قد استقدمه إلى مدينة سان فرانسيسكو، التى افتتح فيها تجارة للأغطية، الويسكى، الذهب، القطن، الأحذية، السيجار، وسيط فى كل شىء، كما هو شائع كان يبيع بالأجل ويقرض المال إلى عملائه.

مع موجة التهافت على الذهب، كوّن الرجل ثروة كبيرة: كان يجمع المعدن الثمين الذى يحمله إليه عمال المناجم، يقدم القروض المضمونة بالرهون فوق ذلك لدى أخيه فى نيويورك الذى كان يقوم بتسويقه(٥٤)، تنظيم مذهل، عندما كانت عربات النقل بالجياد لشركة Far-West لا تزال غير مأمونة تمامًا بالنسبة لحراس المعدن الأصفر، فإن الجزء الأكبر من الـ ٥٠٠ مليون دولار الذهبية التى وصلت إلى نيويورك، قادمة من كاليفورنيا انتقلت بواسطة الأخوين سليجمان!(٥٤) جاءت الثروة التحق بجو أشقاؤه وشقيقاته العشرة واحدًا إثر واحد.

كما أثرى آل سليجمان من تداول الذهب فى كاليفورنيا، كوّن آل ليهمان ثروتهم فى الجنوب من القطن الذى كانوا يبيعونه فى الشمال مقابل كمبيالات قابلة للتحويل والتداول كانوا يودعونها لدى بنوك أورليان الجديدة Nouvelle Orleans ونيويورك.

فى ذلك الوقت ظهرت أوائل شبكات السكك الحديدية الأمريكية التى سوف تسهل تجارتهم بشكل كبير، والتى مولتها البنوك وشركات التأمين.

فى ٢٥ أغسطس عام ١٨٥٧، تسببت الاستدانة الفادحة لهذه الشركات فى أزمة اقتصادية خطيرة: أولاً توقفت إحدى شركات التأمين الإقليمية عن السداد، شركة أوهايو للتأمين والائتمان، وتبعها فى ذلك فى ١٧ أكتوبر مائة وخمسون بنكًا أمريكيًا(٢٩٨). امتدت الشائعة إلى شركات خطوط السكك الحديدية: فى بداية أكتوبر انخفضت أسعار أسهم شركة "خط ألينوى الحديدى المركزى" وكذلك شركات أخرى بمقدار الثلث، قامت بنوك روتشيلد من خلال بيلمونت Belmont بإقراض عشرة ملايين دولار إلى مصرفيين أمريكيين فى مدينة سينسيناتى وتولت إدارتها، أما آل سليجمان الذين كانوا قد استبقوا الأحداث واحتفظوا بالذهب والأموال السائلة فقط، فقد أدى ذلك إلى زيادة أصولهم.

فى عام ١٨٥٨ مات هنرى ليهمان Henry Lehman فى نوفيل أورليان "نيو أورليانز". بعد إصابته بمرض الحمى الصفراء[٥٤]. ظل شقيقه مايرليهمان باقيًا فى مدينة مونتجومرى Montgomery، حيث تزوج من امرأة شابة تصادف أنها كانت ابنة زوجة إزاياس هيلمان Isias Hellman، مؤسس أول بنك فى لوس أنجلوس استقر الأخ الثالث، إيمانويل ليهمان Emmanuel Lehman فى نيويورك ليشرف على بيع قطن أخيه.

بدا أن الاقتصاد الأمريكى ينطلق من جديد عندما، قام الرئيس الأمريكى لنكولن Lincoln فى أبريل عام ١٨٦١، بعد عام من انتخابه، بفرض الحصار على ولايات الجنوب المناصر للاستعباد. كان أوجست بيلمونت آنذاك المستشار المالى للبيت الأبيض، بينما كان آل روتشيلد يترددون، لم يكن أحد فى أوروبا يعتقد أن الشمال سوف يكسب الحرب التى بدت نذرها ولم يكن أى بنك أوروبى يرغب فى إقراض واشنطن[٢١٨].

أما الحكومة الاتحادية، على العكس، فكانت تستطيع بسهولة إيداع "استثمار" سنداتها المضمونة برهن القطن الذى يقوم إيمانويل ليهمان وآخرون بتصريفه فى إنجلترا. ومن ناحية أخرى كانت الشائعات تدور بأن بالات قطنه لم تكن إلا لتمويه إخراج الذهب، الفضة، والأشياء الثمينة.

انضم آل سليجمان وقتها إلى جانب حكومة الاتحاد عارضين عليها فى البداية صفقة متواضعة من المعدات الحربية: أرسل جو Jo أخاه الأصغر إيزاك Issac إلى واشنطن لكى يعرض على مهاجر ألمانى آخر "غير يهودى" كان يشغل منصبًا مهمًا فى إدارة "معتمدية" قوات الشمال، تمويل شراء الأزياء العسكرية – مهنة موردى البلاط القديمة فى ألمانيا – لجيش الشمال.

اهتمت واشنطن بالأمر: لم تكن المصانع الكبرى ترغب فى إمداد الجيش بمتطلباته، خشية عدم السداد من جانب خزينة مترنحة. هكذا حصل سليجمان على طلبية أولى، اشترى الملابس بالأجل من ورش الخياطين، باعها للاتحاد لقاء سندات الخزانة التى كان يتمكن من إيداعها محققًا ربحًا طيبًا، ثم يقوم بسداد مستحقات مورديه. خلال ستة أشهر، أبرم صفقات أخرى من نفس النوع مع الدولة، بلغت قيمتها مليونًا ونصف المليون دولار، سددت بسندات الخزانة التى قام باستثمارها من جديد.

أول إنذار معادٍ للسامية: فى عام ١٨٦٢، قام الجنرال الشمالى جرانت **Grant** بطرد كل اليهود من ولاية كنتاكى، من تنيسى ومن المسيسبى، بسبب اكتشاف وجود سوق سوداء للقطن وأدانت الشائعات اليهود بدون دليل. أمر الرئيس لنكولن بإلغاء هذا الأمر فى الحال.

فى نفس ذلك العام، قام جو سليجمان بجولة فى أوروبا "فرانكفورت، برلين، أمستردام، لندن" لاستثمار سندات الخزانة الأمريكية التى يملكها لدى البنوك التجارية. هكذا تقابل شابان من اليهود الأمريكان قادمان من ألمانيا "جو سليجمان، إيمانويل ليهمان" فى لندن قرب نهاية عام ١٨٦٢، كان كلاهما يسعى إلى تمويل طرف من معسكرى حرب الانفصال!.

نجح جو سليجمان فى ذلك، بأصعب مما صادفه إيمانويل ليهمان: لبيع سندات الشمال إلى مدخرين أوروبيين متشككين، كان على البنوك أن تعرض عليهم معدل فائدة مغر قدره ٧،٣٪، عاد سليجمان منتصرًا، كان قد استرد أمواله وأظهر أنه قادر على تمويل ميزانية الدولة الجديدة. فى عام ١٨٦٣، اتجهت واشنطن إليه من جديد، هذه المرة لاستثمار قرض الخزانة مباشرة دون الحديث عن طلبيات ملابس للجيش مرة أخرى[٥٤]. سندات كان بيلمونت قد رفض استثمارها فى العام الماضى...

فى نفس هذا العام أيضا أوقف تقدم الجنرال لى **Lee**، القائد العام لجيوش الجنوب عند مدينة جيتسبرج **Gettysburg**، أثناء زحفه نحو واشنطن. بدأ الانحسار الجنوبى[٢١٨]. فى خلال عامين سيكون سليجمان قد استثمر فى أوروبا ما يقارب خمسمائة مليون دولار من سندات الخزانة، لاعبًا بذلك دورًا أساسيًا فى تمويل جيش الشمال موفرًا له أسباب الانتصار.

فى عام ١٨٦٤، كان سيمون جوجنهايم **Simon Guggenheim**، لا يزال يعمل فى تجارة الجوخ فى سيسيناتى، ثم أصبح مصرفيًا ونقل نشاطه إلى فيلادلفيا. فى نفس العام، منح الرئيس لنكولن لشركة خطوط شمال الباسفيك "المحيط الهادى" الحديدية الإطار القانونى الضرورى حتى تستطيع شراء الأراضى والوصول إلى مدينة سياتل **Seattle** .

مازلنا فى عام ١٨٦٤، حيث وصل المدعو جاكوب شيف Gacob Schiff، ذو السابعة عشر، قادمًا من ألمانيا، كان قد غادر دون علم والده، صراف عملات فى فرانكفورت، سليل أسرة غنية: كان أحد أجداده حاخامًا أعظم لإنجلترا فى القرن الثامن عشر وجد آخر، إن صدقنا ما يشاع، كان هو المدعو يور فويبس شيف Uri Phoebus Schiff صراف عملات فى فرانكفورت فى القرن الرابع عشر، الذى كان يزعم تحدره من نسل الملك سليمان! على أى حال كانت عائلة معروفة: هاينريتش هاينه Heinrich Heine كان أحد أقاربه وكان والد جاكوب أحد أصدقاء سارة فاربورج Earburg التى تزوجت ابنتها لتوها من أحد أفراد عائلة شيف، مدير بنك روتشيلد فى فيينا.

بعد عدة ساعات من استسلام الجنرال لى فى أبوماتوكس Appomattox عام ١٨٦٥، الذى وضع نهاية لحرب الانفصال، أسس سليجمان رسميًا بنك ج. و سليجمان وشركاه. على غرار روتشيلد، أقام ثلاثة من أشقائه فى أوروبا، وليم William فى باريس، هنرى Henry فى فرانكفورت، إيزاك Issac "الذى صار صديقا لنكولن" فى لندن.

شقيقان آخران هما أبراهام Abraham وليوبولد Leopdd "الأقل مهارة"، سوف يذهبان إلى سان فرانسيسكو؛ أما بالنسبة للشقيقين الآخرين جايمس James وجيس Jesse "الذى صار صديقًا لجرانت Grant" فقد بقيا معه فى نيويورك. ظل سليجمان وشركاه مصرفىّ الخزانة الأمريكية، الذين قاموا بتمويلها أثناء الحرب.

شركات الحديد والصلب تعمل بكامل طاقتها، التلغراف يصل بين أنحاء القارة، خطوط اتحاد الباسفيك وشمال الباسفيك تتقدم نحو الغرب، خط الباسفيك المركزى يتقدم نحو الشرق، الحكومة الاتحادية تضع تحت تصرفهم ٦٠ مليون دولار لشراء الأراضى اللازمة. ربحت بنوك صغيرة مثل بنك جوجنهايم وبنك سليجمان كثيرًا من المال من خلال "ضمان" قروض هذه الشركات نقابيًا وباقتطاع عمولات على هذه الاستثمارات. فى عام ١٨٦٦، وبالرغم من اكتشاف طبقات جديدة من الذهب فى كاليفورنيا، كان من المفروض أن تعمل على تخفيض الأسعار، فقد تسبب اكتشاف مناجم الفضة فى انهيار أسعار هذا المعدن وليس فى أسعار الذهب. كان رهان سليجمان صائبًا وحقق ثروة طائلة.

إنذار جديد بمعاداة السامية: فى عام ١٨٦٦، كان على سبع شركات للتأمين، كانت قد قررت عدم التعامل مع اليهود مرة أخرى، الرجوع عن قرارها أمام المقاطعة الهائلة التى تعرضت لها فى مقابل ذلك.

أصبحت نيويورك عاصمة المال الأمريكية على حساب بوسطن وفيلادلفيا. لحقت مصارف لويب Loep وليهمان Lehman، جولدمان Goldman، التى كانت لا تزال مصارف متواضعة بمصرف سليجمان قرب وول ستريت Wall Steet. أولا آل لويب: فى أول فبراير عام ١٨٦٧، بالخمسمائة ألف دولار التى ربحوها مع بيع الملابس فى سينسيناتى، عاد أبراهام كوهن وسالمون لويب، زوجا الشقيقتين إلى نيويورك كما فعل قبلهما آل جوجنهايم وافتتحا هناك مكتبًا للقروض المضمونة بالرهون فى ٣١ ناسو ستريت Nassau Street.

ثم آل ليهمان: عمل أيمانويل وماير سويًا باستمرار. فى مدينة مونتجومرى، ينتج القطن، فى نيو أورليانز يجرى تسويقه، فى نيويورك يتم تمويل ذلك.

أخيرًا، آل جولدمان Goldman: فى عام ١٨٦٨، غادر ماركوس جولدمان فيلادلفيا متجهًا إلى نيويورك؛ كان هو الآخر قد توقف عن العمل كخياط ليصبح مقدمًا للقروض المضمونة برهون، قام آل جولدمان وآل لويب، الذين يعرفون بعضهم الآن، بقطع المدينة على الأقدام لزيارة تجار الحلى والصاغة بالجملة، تجار الجلود، حاملين إليهم السيولة التى كانت البنوك ترفض تقديمها لهم. فى المقابل، كانوا يأخذون كمبيالات "كانوا يخفونها فى قبعاتهم"[٥٤]، وبعد الظهر كانوا يودعونها لدى البنوك التى يتمكنون من إقناعها من خلال أهمية حجم العمليات التى يحملونها إليهم وبجدية ائتماناتهم: كانت قيمة الصفقات تقاس بحجم القبعة.

فى نفس الوقت، أسس جاكوب شيف شركته الخاصة للسمسرة البنكية فى وول ستريت. كان بالكاد قد بلغ العشرين.

بدأت المصارف الأوروبية، يهودية وغير يهودية، فى إدراك مدى اتساع السوق الأمريكى وافتتحت بعض المكاتب فى نيويورك وفى بوسطن، أو قامت بشراء بعض البنوك فى الجنوب الأوسط وفى كاليفورنيا. منجذبين بالتوسع الأمريكى فى ذلك الوقت، وصل

يهود ألمان آخرون وقاموا بإنشاء مؤسسات من نفس النوع: ها هم آل مورجنتو Les Morgenthau، آل ليفيسون Les Lewison، آل أوبنهايمر Les Opperheime.

يتنافس الآن جاى كوك Jay Cooke، جون بييربون مورجان John Pierpont Morgan وسليجمان وجوجنهايم فى تقديم القروض إلى شركات السكك الحديدية ومصانع الحديد والصلب. أول استثمار ناجح ومضمون قام به جاى كوك فى عام ١٨٦٩، كان قرضًا بمليونى دولار قدمه إلى اتحاد سكك حديد بنسيلفانيا. الآن تتنافس المصارف اليهودية وغير اليهودية لكنها تتعاون أحيانا فيما بينها، طور أندرو كارنجى Andrew Carnegie، نشاطه فى مجال الحديد والصلب بتمويل من جوجنهايم. كان بييربونت يمول تجار القطن اليهود. شكلا معًا مجالس إدارة بعض الشركات التى كانا يقومان بتنظيم تمويلها، مثل شركات السكك الحديدية. قامت بنوك جوجنهايم مع بنك سينسيناتى الوطنى – الذى تشرف عليه من خلال بيلمونت، بنوك روتشيلد فى لندن – أيضا بتمويل شخص يدعى جون د. روكفيلر John D. Rockefeller؛ ساعداه على وجه الخصوص فى تطوير شركة إستاندرد أويل Standard Oil، بعد عام ١٨٧٠، كما ساعداه فى إعادة شراء منافسيها؛ وعندما سيحاول احتكار النحاس، فإن آل جونجنهايم – الذين أصبحوا خبراء فى هذا المجال – سوف ينصحونه بقوة ألا يفعل ذلك.

فى عام ١٨٦٩، بدأ تشغيل قناة السويس، عرض جرانت على جو سليجمان منصب وزير المالية؛ رفض هذا الأخير المنصب؛ فى نفس العام فشل الشاب جاكوب شيف وعاد إلى ألمانيا خائبًا. أما عن آل جولدمان، فسوف يتشاركون من جانبهم مع آل ساشس لتأسيس بنك صغير مشترك.

لم تكن تلك العائلات تمثل فى شيء مصير الثمانين ألف يهودى الذين يعيشون فى الولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٨٧٠، أى ٢٪ من مجموع سكان البلاد. إذا كان بعضهم قد قام بإنشاء بعض المؤسسات، فإن آخرين قد صاروا أطباءً، محامين؛ كثير كانوا تجار ملابس مستعملة، باعة، خياطين، عمال. قلة تسيطر على معظم صناعة الملابس ومنها ملابس العمل، الجين "الجينز" الذى حصل على براءة ابتكاره ليفى شتراوس Levi

Strauss وجاكوب ديفيس Jacob Davis. فى عام ١٨٧٣، فى الولايات المتحدة، كان أكثر من نصف اليهود يعيش فى نيويورك. أعادوا خلق جيتو حقيقى هناك فى شرق مانهاتن، بتجاره، حرفييه، مدارسه، مسارحه، مطاعمه. كان هناك صحف ومطابع بلغة اليادِيش. استقر البعض خاصة من "الألمان" فى قرى ريفية كتجار وباعة جائلين، عمومًا بأعداد كافية لبناء معبد وتكوين جمعية تضامن مشترك، محورىَ تنظيم الطائفة.

من بين من هاجر ما بين عامى ١٨٣٧ ، ١٨٦٠، كان أكثرهم ثراءً هو جوسليجمان. لا يزال آل ليهمان تجارًا للقطن فى نيويورك وفى نيو أورليانز. آل شتراوس، كانوا تجارًا فى نيويورك تحت اسم ماسيز Macy's، سالمون لويب مصرفى فى نيويورك مع كوهن، مثلما كان جولدمان مع ساشس. فى فيلادلفيا، كوّن آل جوجنهايم ثروة بفضل تمويل خطوط السكك الحديدية وبعدها بفضل تمويل صفقات النحاس. من بين أغنياء المستقبل الأقوياء وحدهم آل لازار لم يكونوا من الألمان: من بعد سان فرانسيسكو، باريس افتتحوا مكتبًا فى لندن عام ١٨٧٠.

استمر اليهود الألمان الأثرياء فى التحدث بالألمانية فيما بينهم. كانوا يعزفون الموسيقى الألمانية يذهبون إلى ألمانيا للعلاج، يرسلون أبناءهم إلى الجامعات الألمانية. افتتحوا فى الجادة الخامسة فى نيويورك معبد إيمانو – إل Emanu El، حيث كانت النساء تصلى إلى جوار الرجال وحيث يتلو الصلوات بالعبرية أحد الحاخامات البريطانيين. كانوا يدفعون "بصورة سرية، وإلا كان القربان بلا قيمة"، عُشر دخولهم إلى الأعمال الخيرية اليهودية: مدارس دينية، مستشفيات. قام آخرون بتمويل جامعة هارفارد Harfard أو جامعة فرانكفورت لم يكونوا مهتمين حتى ذلك الوقت مثل بعض يهود أوروبا بروسيا أو بفلسطين. فى عام ١٨٧٠، قاموا بإنشاء مؤسسة البر اليهودية المتحدة، التى وفرت لمدة طويلة الطعام، والتعليم للقادمين الجدد فى مقار World's Island.

لم يكن الجميع قد اختار فعلاً حتى ذلك الوقت الإقامة فى أمريكا باستمرار، وكانوا يتابعون باهتمام وشغف السياسة الألمانية فى عام ١٨٧١، بعد إعلان الإمبراطورية الألمانية، رأينا أبراهام كوهن ، الذى كان قد أسس مصرفه الخاص فى نيويورك مع زوج أخته

سالمون لويب يتقاعد ويعود إلى ألمانيا، ممتلئا أملاً فى ألمانيا الجديدة؛ تقابل هناك مع الشاب جاكوب شيف العائد مقهورًا من أمريكا بعد فشله هناك والذى أرسلته عائلته للعمل فى البنك الألمانى الذى تأسس كما رأينا سابقًا فى العام الماضى بواسطة مصرفى يهودى آخر كان صديقًا لوالده لودفيح بامبرجر BamberGerLudwig، الذى تم انتخابه للتو فى البرلمان الألمانى. لم يكن شيف قد تخلى عن حلمه الأمريكى وتوسل إلى أبراهام كوهن أن يجد له وظيفة متوضعة فى بنكه فى الولايات المتحدة. وافق أبراهام على أن يعطيه خطاب توصية فقط لتوصيله إلى سالومون لويب فى نيويورك. مزودًا بهذا الدعم، وصل جاكوب مرة ثانية إلى أمريكا عام ١٨٧٢. راق الفتى لسالومون الذى قام بتعيينه دون أن يدرك أنه قد عثر لتوه على أستاذه.

كان جاكوب شيف فى الحقيقة شخصية غير عادية. بمجرد وصوله – كان فى الخامسة والعشرين تزوج من تريزا Thersa أصغر بنات سالومون لويب –، كان زواجًا اجتماعيًا أتينا على ذكره مسبقًا، وأصبح شريكه فى العام التالى. بقدر ما كان لويب حذرًا بقدر ما كان جاكوب جريئًا. كان لويب يفضل تمويل التجار؛

أصبح شيف خبيرًا فى تمويل خطوط السكك الحديدية، بمجرد محادثته بشأن تمويل أحد الخطوط، كان يعرف كيف يختار فورًا أفضل وسيلة تمويل متاحة ويتمكن من استثمار قروض الشركات بأفضل ما يمكن. فى منافسة الآن مع ج. ب – مورجان J. P. Morgan، سليجمان، جوجنهايم، وبيلمونت، كان هذا الشاب الطموح وشديد المهارة لا يتورع مطلقًا عن السخرية من الجميع والاستهانة بهم. كان يقول عن بيلمونت "إنه محارة بلا صدفة"(٥٤).

بالرغم من اتساع أمريكا، لا يزال اليهود الألمان يتزوجون فيما بينهم، كما كان الحال فى ألمانيا. تزوج جوسليجمان من ابنة عمه؛ تزوج ثلاثة أشقاء من آل سليجمان من ثلاثة شقيقات من أسرة ليفى Levi ، تزوج مايرجوجنهايم من أخت زوجة أخيه؛ تزاوجت أسرة ليهمان فيما بينها. تزوج آل شيف من آل لويب، ومن آل فاربورج، الذين تزوجوا من آل سليجمان. طبقًا للتقاليد القديمة الموروثة، تزوج كثير من الأرامل من الشقيق الأصغر

للزوج المتوفى. كما كان يحدث فى إحدى القرى البولندية أو الألمانية، كان أبناء الشركاء يتزوجون فيما بينهم، ما يظهر قوة التنظيم العائلى الذى يعاد بناؤه. تزوج الابنان ساشس من الابنتين جولدمان "هنا بدأت شراكة جولدمان – ساشس"، تزوجت إحدى بنات ساشس بأحد أبناء شتراوس "هنا بدأت أسرة ماسيس Macy's". أسس زوجا أختين، ليوبولد كان Leopld Cahn وسيمون باشه Simon Bache، معًا شركة ج. س. باشه وشركاه J. S. Bache Y& Co التى سوف تصبح أهم وكيل ضرافة فى وول ستريت. كان أهم المؤسسين الأربعة لمحلات هالجارتن hallgarten "واحدة من أولى سلاسل المحلات الكبرى" مثلهم مثل جولدمان – ساشس، أيضًا أزواج شقيقات وأزواج بنات.

فى عام ١٨٧٣، أى بعد خمسة عشر عامًا من أزمة ١٨٤٧ الأولى، تفجرت الأزمة المالية الثانية الكبرى التى عرفتها الرأسمالية الأمريكية، الناجمة هى الأخرى عن المغالاة فى تقديم القروض(١٨). فى هذه المرة اتهم المصرفيون اليهود بضراوة لدرجة أن بعض المقالات المعادية للسامية قد هاجمت فى الصحافة الأمريكية، اليهود الألمان "محدثى النعمة" هؤلاء "ثوريو ١٨٤٨" هؤلاء، الذين تسلقوا إلى "مراكز التحكم فى الشئون المالية".

غير أن هذه الأزمة قد أدت إلى الانتقال التدريجى لـ "قلب" العالم الصناعى من هذا الجانب من المحيط الأطلنطى. تركزت فى الجانب الآخر صناعات الحديد والصلب، والترسانات البحرية، خطوط السكك الحديدية. عرف التزود بالكهرباء تسارعًا خاطفًا. فى تلك الانطلاقة. كان اليهود أكثر من حاضرين: موّلوا معظم مشروعات البنية التحتية، بينما قاد آخرون صناعة النسيج وابتكر آخرون أيضا جانبًا كبيرًا من استخدامات الطاقة الكهربائية.

حالة من بين حالات أخرى، كان إميل برلينر Emil Berliner، ولد عام ١٨٥١ فى هافانا، هاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٨٧٠، اخترع الميكروفون عام ١٨٨٧، الأسطوانة المسطحة، المحول الكهربى. وقبل توماس أديسون بأربعة أشهر اخترع "جهاز الإرسال التليفزيونى" الذى اشتراه منه جراهام بل Graham Bell. أسس بعد ذلك فى ألمانيا ثم فى بريطانيا العظمى، ما سوف يصير أهم شركات الأسطوانات فى أوروبا "دويتش جراموفون – الحاكى الألمانى".

إلى جانب هؤلاء المشاهير كان آلاف آخرين من اليهود يعملون فى عام ١٨٧٠ كحرفيين، معلمين، أطباء، تجار، أصحاب مطاعم، أو مجرد عمال بسطاء. كان ثلثهم لا يزال يقيم فى نيويورك، التى يصل إليها بصورة متزايدة الكثير من المهاجرين من روسيا وليس من ألمانيا فقط.

عندما عرض بعض الفرنسيين بناء تمثال الحرية تكريما لأمريكا المضيافة، لم يرغب أثرياء اليهود الألمان – فى وول ستريت – فى سماع الحديث عن مشروع يذّكرهم كثيرًا بماضيهم. بينما رأينا السفارديم مثل آل لازرايوزس وآل بنتو "الذين يعتبرون أنفسهم فيما بينهم سفارديم أو أحيانًا كنبلاء إسبان(**)، وليس من اليهود"، مدركين أن رفعة مكانتهم مرتبطة بهذا التذكار، يقومون بتمويل بناء قاعدة هذا التمثال، حتى وإن كانوا أقل ثراءً.

اكتسبت بنوك الأعمال نفوذًا هائلاً. قام جون بييربونت مورجان الابن، الذى خلف والده بتمويل خطوط السكك الحديدية، ووضع نظام شركة الكهرباء العامة "جنرال إليكتريك" وحديد وصلب الولايات المتحدة (U.S Steel) وأسس فرعًا جديدًا لمصرفه؛ يقال إنه كان أقوى نفوذًا من رئيس الولايات المتحدة شخصيًا. أقل تأثيرًا، كان جو سليجمان، وسيمون جوجنهايم، وكذلك مؤسسات أخرى أقل أهمية: لازار، كوهن – لويب، الإخوة ليهمان، جولدمان – ساشس. فى عام ١٨٧٥، أسس جو سليجمان مصرفًا ثانيًا فى سان فرانسيسكو، البنك الإنجليزى – الكاليفورنى، الذى كان يعتبر فرعًا لمؤسسة مقرها لندن. تأمرك، اهتم بالنشاط الزراعى لم يعد يتناول الطعام اليهودى الحلال "كاشير". مثل كثيرين، حاول أن ينسى أنه يهودى، لن يتوانى الآخرون عن تذكيره بذلك.

لم تتوقف أزمة عام ١٨٧٣ والتجاوزات المعادية للسامية التى تبعتها عن التسبب فى خسائر فادحة. فى تلك السنة مات ألكسندر ت. ستيوارت Alexandre T. Stewart. مالك سلسلة محلات فى نيويورك تاركًا ثروة طائلة من ضمنها أكثر فنادق ساراتوجا Saratoga فخامة، أحد منتجعات المياه الجوفية الحارة بالقرب من نيويورك الذى جلب إليه العملاء الأثرياء القادمين من الجنوب ألعاب المال "القمار"، التى كانت تمارس على البواخر فى المسيسبى، أصبح أهل نيويورك من كبار عملائه. كان جو سليجمان على الرغم من أنه لم

يكن مقامرًا، من رواد الفندق وبينما كان يتأهب للدخول إليه منعه من ذلك منفذ وصية **A. T. Stewart**، القاضى هنرى هيلتون **Henry Hilton** "ما من علاقة بينه وبين كونراد هيلتون **Conrad. H.**"، منشئ سلسلة الفنادق التى تحمل اسمه.

فضيحة، تهديد برفع دعوى قضائية: كانت أول قضية كبرى تتعلق بمعاداة السامية فى الولايات المتحدة، قلدت بعض الفنادق الأخرى فندق ساراتوجا، مثل فندق نادى بحيرة بلاسيد **Lake Placid Club**، رفضت نقابة المحامين فى نيويورك تسجيل أحد المحامين اليهود. أراد المروجون العقاريون لجزيرة كونى **Coney** منع اليهود من الدخول إلى حديقة الملاهى الجديدة، أغلقت النوادى الشهيرة أبوابها أمامهم، بل إن القاضى هيلتون قد أسس جمعية أمريكية تهدف إلى القضاء على اليهود، لكنها لم تدم طويلاً.

لم يستسلم جو سليجمان، قام بتنظيم مقاطعة لمحلات أ. ت ستيوارت، كان تراجع المبيعات كبيرًا لدرجة أن هنرى هيلتون، وقد استولى عليه القلق، سعى إلى الوفاق: تبرع بألف دولار إلى إحدى المؤسسات الخيرية اليهودية، عار ما بعده عار، ضاعف اليهود من إجراءات المقاطعة التى دعمتها الأوساط البروتستانتية بقوة. لن تتأخر محلات أ. ت ستيوارت عن إشهار إفلاسها.

متأثرًا للغاية بهذه القضية، مات جو سليجمان فى العام التالى، فى عام١٨٧٨. غيرت مدينة **Roller's Ridge** فى ولاية ميسورى اسمها إلى سليجمان. أصبح جيس **Jesse** أخو جوزيف **Joseph** وابن جاكوب شيف البكر المصرفى الأول فى أمريكا.

فى نفس العام الذى غاب فيه جو سليجمان، بدأ جيس فى الاهتمام بمشروع قديم كان يتجسد فى مخيلته من جديد: قناة تعبر بنما أو نيكاراجو لتصل بين المحيطين.

فى باريس، كان فرديناند ديليسبس، محاطًا بهالات المجد الذى جلبه له شق برزخ السويس، الذى بلغ السبعين من عمره، يعد بكثير من الدعاية لإصدار أسهم شركة عالمية لقناة تربط بين المحيطين، محدد لها أن تتبع مسارًا عبر بنما "التابعة لكولومبيا" لكنه لم يستطع الحصول إلا على ثمانية ملايين من أصل الأربعمائة مليون فرنك اللازمة للمشروع، وقد أسعد الأمريكيين، الذين لم يحبذوا مطلقًا فكرة رؤية بعض الفرنسيين يتدخلون فى تنفيذ أكبر مشروع أمريكى، فشل ديليسبس فى تحقيق مشروعه.

فى عام ١٨٨١ - أى بعد عام من انتقال مقر بنك لازار من سان فرانسيسكو إلى نيويورك - أدى شن مذابح جديدة ضد اليهود فى روسيا إلى وصول مائتين وخمسين ألف مهاجر جديد إلى الولايات المتحدة.

كانوا منذ الآن عائلات بأكملها، من الأرثوذوكس، مفلسين تمامًا فى معظمهم، لم يتجاوزوا حدود موانئ الوصول نظرًا لما عانوه من نصب. أعادت هذه الأسر المهاجرة تشكيل ما يشبه مدنا صغيرة خاصة فى منطقة لاندوست Lavendost بينويويرك والجانب الغربى لشيكاغو. أقاموا محاكمهم، افتتحوا مطاعم، مسارح، نقابات، جمعيات إخاء، مدارس تلمودية، صحفًا، استعاد بعض التجار المتعلمين مهن الوسطاء، القصابين، بائعى مستلزمات العبادة.

عمال فى غالب الأحوال، تم توظيفهم فى مصانع الأحذية، السيجار، فى ورش الخياطة - فى العادة مؤسسات صغيرة عائلية، غالبًا يهودية، استمروا فيها فى التحدث باليانيش أو بالروسية، فيما بينهم، أصبح كثير منهم نقابيين ومن بين هؤلاء، انضم قواد الإضرابات العنيفة التى بدأت فى الانتشار. على رأس محركى الإضرابات هؤلاء، كان صامويل جومبيرز Samuel Gompers، يهودى من أصل هولندى، ولد فى لندن، عمل منذ العاشرة كمتدرب لدى أحد صناع الأحذية، فى الرابعة عشرة وصل إلى الولايات المتحدة.

فى عام ١٨٦٤، أصبح عاملاً فى أحد معامل السيجار. أطلق أول إضراب عام ١٨٧٥، وأصبح فى عام ١٨٧٧ رئيس نقابة عمال السيجار؛ كان أول من وضع نظام دفع اشتراكات منظمة ونظام لمساعدة الأعضاء الجدد.

لم يرُق لليهود الألمان "شرقية" هؤلاء "الهمج الآسيويين" وأطلقوا عليهم اسم الكيكرز Kikres "لأن أسماءهم تنتهى بحرفى KY" أو Les Bohunik "البرابرة، الاشتراكيين". خائفين من فعاليتهم النقابية والسياسية، كانوا يعدون لاستقبالهم بأفضل ما يمكن وبذلوا أقصى جهودهم لمساعدتهم على الاندماج فى المجتمع. أنشئ أول مستشفى يهودى فى الولايات المتحدة سمى فى البداية "مستشفى يهود نيويورك" بواسطة مجموعة من يهود نيويورك من أصل ألمانى، من بينهم سامسون سيمون Samson Simon، أحد أفضل

الحقوقيين في تلك الفترة، صامويل ماير إيزاك Samuel Mayer Issac المصرفي – الذي مول أيضا إنشاء كلية الميمونيين في فلادلفيا – وأدولفس سيمون سولومنز Adolphos Simeon Solomons، الذي أسس مع كلارا بارتون Clara Barton، أيضًا الصليب الأحمر الأمريكي في عام ١٨٨١.

في ذلك العام، سيطر جاكوب شيف نهائيًا على والد زوجته وأصبح رئيس بنك كوهن– لويب وشركاه، ثم تزوجت ابنته الصغيرة – لم تكن إلا في السابعة عشرة من عمرها – كما رأينا فيما سبق – من فليكس فاربورج Felix Warburg الذي تقابلت معه في ألمانيا والذي أصبح آنذاك أحد المشاركين في بنك كوهين لويب مع أخيه بول Paul الذي تزوج أخت زوجة جاكوب، ابنة لويب الثانية.

وهكذا قام الاتحاد بين هاتين الأسرتين كوهن لويب وفاربورج حول جاكوب شيف، الذي صار بذلك رئيسًا لمصرفيّ الأعمال الأكثر شهرة في العالم على جانبي الأطلنطي(١٨).

كما تزوجت ابنتان لهنري جولدمان بشقيقتين من آل ساشس، تزوجت أخرى ثالثة من شخص يدعى صامويل هامرسلوغ Hammerslough، خياط شاب من سبرنجفيلد Springfield "التي تعرف فيها على أبراهام لنكولن"، الذي كان قد اشترى لتوه مع زوج أخته مؤسسة تجارية صغيرة للبيع عن طريق المراسلة سوف يصبح اسمها شهيرًا: سيرس روبوك Sears Roebuck: قام جولدمان وساشس بمساعدتها على أن تصبح واحدة من أوائل مجموعات التوزيع في الولايات المتحدة ومنافسة لمجموعة ر. هـ. ماسي R. H. Macy المملوكة لزوج ابنة ساشس الأخرى. في ذلك الوقت تقدم جيس سليجمان عن طريق بعض رجال الأعمال الفرنسيين ليمول لحسابه مشروع قناة بنما، الذي لم يتمكنوا من تنفيذه بأنفسهم.

أعد سليجمان تمويلا للمشروع بالاشتراك مع بنك باريس، بنك دركسل، ومورجان Drexel et Morgan، حالة تحالف نادرة بين البنوك اليهودية والبروتستانتية، هجوم إعلامي ضخم ضدهم، جرى اتهامهم في مجلس الشيوخ بالرغبة في "بيع أمريكا إلى فرنسا" جرى الحديث عن مؤامرة يهودية واتهم مورجان بـ "الانضمام إلى اليهود"(٥٤).

رد سليجمان بأن المستفيد الرئيس من المشروع سيكون الولايات المتحدة، التى سوف تأتى منها الآلات التى ستقوم بحفر القناة. قام جوستاف إيفل وآخرون كثر بالدعاية للمشروع، نجحوا فى ذلك: تم الاكتتاب على القرض فى أوروبا وفى نيويورك.

لكن مناصرى المسار الآخر للقناة، كلهم من الأمريكان، لم يتخلوا عن موقفهم. وفى عام ١٨٨٤، وقعت حكومة واشنطن مع حكومة ماناجوا Managua اتفاقية سميت اتفاقية زافالا Zavala لبناء قناة عبر دولة نيكاراجو، تردد مجلس الشيوخ فى التصديق على هذه الاتفاقية. فى عام ١٨٨٥، لم تكن الأعمال التى بدأت فى بنما عام ١٨٨٢ قد تقدمت كثيرًا لم يكن نصف أعمال تمهيد مسار القناة قد أنجز إلى الآن. قبل ديليسبس على مضض بفكرة الأهوسة التى طالب بها كبير المهندسين الذى قام بتعيينه فيليب بينوفاريا Philipe Bunau – Varilla،(٧٣) الذى عرفنا دوره فى قضية دريفوس.

للتوافق بصورة أفضل مع مقتضيات الاقتصاد الحديث والاستمرار فى نفس الوقت فى مقاومة الاندماج، نظمت اليهودية البروتستانتية الأمريكية نفسها بإعلان برنامج "بيتسبرغ": الذى تخلت بموجبه عن القواعد المتعلقة بالطعام، عن الختان، عن تقديس يوم السبت.

فى عام ١٨٨٧، تم "تأسيس الجمعية العبرية لمساعدة المهاجر"، مؤسسة علمانية يقوم بتمويلها كل يهود الولايات المتحدة وليس الأغنياء منهم فقط، لمساعدة الأكثر احتياجًا من بينهم. بشكل عام لم يكن اليهود أيسر حالاً من الأمريكان الآخرين. فى عام ١٨٩٠، وفقا للإحصائيات الأمريكية الرسمية، كان ٣٥٪ منهم من صغار التجار، ٢٩٪ من الموظفين، ١٢٪ عمال، ١٥٪ وسطاء، محامين، مصرفيين، ٥٪ أطباء، كان المثل الأعلى للأطفال هو المحامى أو الطبيب.

فى عام ١٨٨٦، قام صامويل جومبرز، الذى رأيناه يترأس نقابة عمال السيجار، عندما كان فى السادسة والثلاثين بتجميع كل النقابات الأمريكية فى الاتحاد الامريكى للشغل الذى تمثلت فيه كل مهنة بنقابة واحدة. مفاوض لا يشق له غبار، سوف يظل حتى وفاته فى عام ١٩٢٤، الرجل الأكثر نفوذًا فى الطبقة العاملة الأمريكية.

بعد ٩ سنوات من العمل، أى فى عام ١٨٨٩، كان ديليسبس قد أنفق كل ما حصل عليه من المكتتبين فى قروضه، أى ٤٠٠ مليون دولار "مليار فرنك"؛ بينما لم يكن قد تم حفر إلا ثلث القناة فقط، كانت المقايسة الأولى قد بلغت أولاً وأخيرًا ٦٠٠ مليون فرنك فى عام ١٨٨٩، قدم فيليب بينو – فاريا خطة لنسف الصخور تحت الماء باستخدام الديناميت.(٧٣)

فى نفس الوقت كان مصير يهودى أمريكى آخر يتشكل، مجسدًا على طريقته المتميزة للغاية روح المكتشفين، التى عاشت ألفى عام: سالمون بيبو Salomon Bibo، المولود عام ١٨٥٣ فى بروسيا، التحق عام ١٨٦٩ بشقيقيه المهاجرين منذ ثلاث سنوات إلى نيو مكسيك، عمل الأشقاء الثلاثة سويًا لدى أسرة يهودية أخرى من الرواد، آل سبيلبرج Les Spielberg .

بعد ذلك استقر الثلاثة فى موقع متقدم للاتجار مع الهنود النافاجوس Navajos. عملوا بعد ذلك كوسطاء ومفاوضين بين الهنود، المكسيكيين، الأنجلوساكسون، ودافعوا عن الأوائل عندما حاول البيض الاستيلاء على أراضيهم. فى عام ١٨٨٢، أقام سالومون بيبو مركزًا للتجارة – مهنة الوسيط الأزلية! فى أراضى الهنود الأكوما Acomas، تعلم لغتهم، درس أوضاعهم، أدرك أن البيض يستغلونهم، انضم إلى جانبهم صار مفاوضهم، كان حينها فى الرابعة والعشرين. فى مقابل عقد إيجار لـ ٩٤٠٠٠ ألف أكر تركتها لهم الحكومة الأمريكية. عام ١٨٧٧، التزم بحماية أراضيهم وماشيتهم واستغلال مناجم الفحم التابعة لهم، سوف يدفع لهم إيجارًا سنويا قدره ١٢٠٠ دولار، سوف يضاف إليها عشرة دولارات عن كل طن من المعدن الخام المستخرج، سرى العقد جيدًا لدرجة أن بيبو أصبح شبه زعيم هندى.

فى عام ١٨٨٨، – كان فى الثلاثين من عمره – اعترف به من قبل الإدارة الاتحادية فى واشنطن كـ "حاكم لشعب الأكوما"

فى عام ١٨٨٩، تزوج من حفيدة الزعيم، الأميرة جوانا Juana التى اعتنقت اليهودية، أصبح رسميًا زعيم الأكومًا، بعد أحد عشر عامًا سوف يستقر الزعيم الهندى اليهودى الوحيد فى التاريخ فى سان فرانسيسكو ليتيح لأطفاله أن يتلقوا تعليمًا دينيًا.

ومصير آخر أيضًا: أنطون أوبنهايمر Anton Oppenheimer – ليس له علاقة بأسرة موردى بلاط فيينا –، ولد فى بافاريا عام ١٨٤٠، هاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٨٥٨، فى البداية كان تاجرًا فى ولاية تكساس فى مدينة صغيرة تسمى فلسطين، أصبح جنديًا فى جيش اتحاديّ الجنوب، ثم صار تاجرًا للماشية، ثم من ملاك الأراضى، اشترى شركة لتجارة الجملة، اتخذت عام ١٨٩٠، اسم شركة القبعة والحذاء الأمريكى: نجاح ساحق!

أصبحت شركة "الإخوة ليهمان" الآن مؤسسة كبيرة جدًا لتجارة المواد الأولية، لكن آل ليهمان ظلوا يعيشون فى عالم غير عالم آل سليجمان وآل جوجنهايم، وأقل من ذلك أيضًا فى عالم آل شيف وآل فاربورج.

عندما توفى ايمانويل ليهمان، انتقلت الإدارة إلى ابنه فيليب Philip وابن اخيه آرثر Arthur؛ تزوج آرثر من ابنة أدولف لوينسون Adolph Lewinsohn، صاحب إحدى شركات المناجم الأمريكية الكبرى المرتبطة بآل سليجمان.

تربى أطفال قرابة الخمسين مصرفيًا الكبار هؤلاء فى أرقى المدارس البروتستانتية وتعلموا قراءة التلمود، لم يعد الحديث يجرى بالألمانية فى المنازل، كان القيصر الذى يتابعون سياسته المعادية للسامية بغضب، يمثل لهؤلاء المصرفيين "عدو الإنسانية" ولم يكونوا ليكرهوا أن يمولوا ثورة فى روسيا. وقد قاموا على أى حال بتمويل بدايات رابطة العمال اليهود "البوند". صاروا من لاعبى الإسكواش، هواة الأوبرا، تملكوا اليخوت، ملاعب البولو الخاصة، وخيول السباق[١٨]. قدموا الهبات إلى جمعيات الخدمة الاجتماعية، يهودية أو غير يهودية، واهتموا إلى أقصى حد بتعليم أبنائهم. عندما كانوا يسافرون بالبواخر إلى أوروبا، كان أكثرهم ثراءً يصطحب معه خادمه الخاص، عاملة الغرف "شغالة" وطباخًا، وفى قصورهم تكدست لوحات دورير Durer، رامبرانت Rambrandt، بوتشيللى Botticelli.

فى عام ١٨٩٢، وصف الأمير أندريه بونيا توفسكى Andre Boniatowsk الذى استضافه آل سليجمان نمط معيشتهم: "المال فى حد ذاته لم يكن يعنى شيئًا بالنسبة لهم خارج نطاق الأعمال" (...) إنهم لا يتحدثون إلا عن الرياضة، الأدب، الفن، خصوصًا

الموسيقى، يمولون جمعياتهم الخيرية وأحزابهم السياسية وكلهم فوق ذلك كانوا متفانين فى الحياة الأسرية، بقوة وحماسة لا نجدها اليوم إلا فى الأرياف الفرنسية. (....) إن حياة هؤلاء الناس بخلاف حبهم للرياضة تشبه حياة أصحاب البنوك فى عائلات ليون Lyon القديمة(١٨)".

لكن الهدوء لا يدوم أبدًا فى العام التالى ألمت فضيحة بآل سليجمان.

فى عام ١٨٩٣، أدى اضطراب فى بورصة نيويورك إلى إفلاس شركة ديليسبس وشركات أخرى أيضًا، كان عليه أن يوقف أعمال حفر القناة، أفلس ٨٥٠٠٠ ألف مساهم، عاد ديليسبس إلى فرنسا منهكًا، ليواجه تحقيقًا فى البرلمان، اكتشف آنذاك أنه قد قام برشوة بعض رجال السياسة المرموقين وصحافيين مشهورين لتمويه الحقيقة بشأن تقدم سير الأعمال.

لأن الفضيحة قد اتهمت من بين متورطين آخرين، اثنين من السماسرة اليهود "كورنليوس هيرتز Cornelius Herz وجاك رايناك Jaques Renach". ثار درمونت Doumont غضبًا ضد هؤلاء الذين تسببوا فى إفلاس ٨٥٠٠٠ ألف مساهم، ناسيًا أن الاحتيال كان بصورة أساسية من عمل شخصيات مرموقة تنتمى إلى الأحزاب الكاثوليكية، أدين ديليسبس، فر ولده شارل Charles إلى بريطانيا العظمى، جرى البحث عن مشتر للقناة التى لم تكتمل، كان السعر الأساسى "للمزايدة" ١٠٠ مليون دولار.

فى فرنسا لم يصرف النظر عن المشروع، أصبحت القناة إستراتيجية، لأن ألمانيا قد ثبتت أقدامها فى فنزويلا، للتحكم فى حركات السفن فى الأطلنطى. بالرغم من الفضيحة، تم إنشاء شركة جديدة لقناة بنما فى عام ١٨٩٤، نفس السنة التى تفجرت فيها قضية دريفوس، فى نفس الوقت الذى أسرع فيه الكونجرس الأمريكى بإجراء تحقيق يتهم ج. ب. مورجان وسليجمان بربح أموال طائلة من عمولات استثمار القروض الفرنسية. نُسب إلى جيس سليجمان تحديدًا أنه عرض رئاسة لجنة القناة على الرئيس السابق جرانت Grant غير أنها آلت أخيرًا إلى ر. و. تومسون R.W. Thomson، سكرتير البحرية فى عهد الرئيس هايس Hayes، الذى استقال من الحكومة ليقبل منصبا يمنحه راتبًا سنويًا هائلاً قدره ٢٤٠٠٠ دولار.

كان وجوده المطمئن قد ساهم فى اجتذاب صغار المدخرين بالرغم من أن لجنة الكونجرس فى نهاية تحقيقها المطول لم تعثر مطلقا على أى شىء يمكن أن يدين جيس سليجمان فإن هذا الأخير لم ينج من هذه الفضيحة، لقد مات بعد عدة أسابيع، ضحية، مثل أخيه منذ ستة عشر عامًا مضت، انتقادات لا مبرر لها.

قرر آل سليجمان الآخرون عدم التخلى عن مشروع الحفر، دائمًا مع الفرنسيين، ودائمًا عبر بنما، قاموا بتوظيف جزء من فريق الشركة الجديدة لقناة بنما[٧٣]، ومن بينهم فيليب بينو فاريا. بعد الفضيحة، لم يكن هناك مجال للبحث عن المال لدى العامة؛ يجب العمل على أن يساهم دافعو الضرائب. انتقلت المعركة بين المشروعين إلى الكونجرس.

فى نوفمبر ١٨٩٦، بينما يسعى بينو فاريا فى باريس إلى إظهار الحقيقة فى قضية دريفوس فى جريدته "لوماتان – الصباح – Le Matin"، ولدت فى نيويورك صحيفة كبرى أخرى، اشترى أدولف سيمون أوكس **Adolph Simon Ochs** جريدة النيويورك تايمز **New Yourk Times**، التى لم تكن حينذاك سوى ورقة واحدة فقط لا يصدر منها سوى ٩٠٠٠ نسخة. ولد فى سيسيناتى عام ١٨٦٨، من والدين من المهاجرين اليهود من ألمانيا عام ١٨٤٨، أصبح عاملاً مطبعيًا فى جريدة "كنوكسفيل كرونيكل **Knoxville Chronicle**" ثم فى جريدة شاتانووجا تايمز **Shattanooga Times**. فى العشرين من عمره، سيطر أوكس لقاء ٢٥٠ دولارا على تلك الجريدة الهزيلة المفلسة. فى عام ١٨٨٩، تزوج من ابنة الحاخام وايز **Wise**، حاخام سينسيناتى، أحد مؤسسى اليهودية البروتستانتية فى الولايات المتحدة، الذى سنراه يلعب دورًا أساسيًا فى وسط الطائفة اليهودية الأمريكية. وضع أوكس مبادئ الصحافة الأخلاقية، فى الوقت الذى راهن فيه كل من جو بوليترز **Jo Putizer** مع جريدة العالم **The World** ووليم هيرست **Willam Hearst** مع الجريدة **Le Journal** على الإثارة. أقر أوكس مبدأ فصل الخبر عن الإعلان وعن اتجاه التحرير. أصبحت شاتا نووجا تايمز الجريدة اليومية الأكثر اعتبارًا فى جنوب الولايات المتحدة، بالنسبة له لم تكن اليهودية سوى ديانة؛ كان معارضًا للصهيونية التى بدأت فى الظهور والتى يرى أنها مخالفة للقيم الأخلاقية اليهودية. عرفت النيويورك تايمز سريعًا نجاحًا باهرًا، ارتفع عدد النسخ التى تصدرها من ٩٠٠٠ إلى ٧٨٠٠٠ نسخة فى عام ١٩٢٥.

فى عام ١٨٩٧، أقر مجلس الشيوخ اختيار طريق القناة عبر نيكاراجو، الذى لا يزال يعتبر إلى الآن الأفضل تقنيًا. تدفقت قوة جديدة إلى أمريكا فى ذلك الوقت مليون يهودى روسى، هاربين، من اعتداءات الوطنيين الروس، التى بدأت عام ١٨٩٤، قلب وصولهم أوضاع بنية اليهودية الأمريكية، أصبح ثلاثة أرباع القادمين عمالاً فى المدن الكبرى، قاموا بتصنيع معظم الملابس فى البلاد. بدلاً من ١٢٪ من عددهم منذ اثنى عشر عامًا، أصبح ثلثى اليهود الأمريكان الآن من العمال، مثل الإيطاليين والإيرلنديين الذين وصلوا فى نفس الوقت مع اليهود الروس، الذين كانت المنظمات الخيرية التى يمولها الأغنياء، دائما ما تسئ استقبالهم إلى حد كبير. جاء بجريدة ياديش جازيت على سبيل المثال عام ١٨٩٧: فى المؤسسات الخيرية التابعة للارستقراطية اليهودية الألمانية (....) يجرى استجواب كل مهاجر كما لو كان مجرمًا، يحط من قدره، يرتعد كالورقة كما لو كان موجودًا أمام موظف حكومى روسى.

دفعت بهم خبرتهم العمالية إلى رأس العديد من النقابات، إلى جوار صامويل جومبرس: مثل موريس هيلكيت **Morris Hillquit**، ماير لندن **Meyer London**، سيدنى هيلمان **Sidney Hillman**. مدعومين أحيانًا من قبل البورجوازية اليهودية "جاكوب شيف، لويس مارشال **Louis Marchal**، هنرى ميزوفيتز **Henry Mesowits**"، أجبروا أصحاب الأعمال على القبول بمطالبهم الأساسية: أسبوع عمل من خمسين ساعة عمل فقط، أفضلية توظيف العمال النقابيين، إجراءات وساطة. بل إنه أنشأ فى عام ١٩٠٠، أول نقابة يهودية تمامًا: نقابة السيدات العاملات فى مجال الألبسة.

احتدت النزاعات بين البنوك اليهودية وبنوك مجموعة (الأنجلو ساكون البروتستانت البيض) **WAPS** فى أبريل ١٩٠١، واجهت معركة فى البورصة مرة أخرى بين مورجان وشيف من أجل السيطرة على تمويل خطوط السكك الحديدية، خاصة اتحاد شمال الباسفيك "معركة بين عمالقة" لم ينتصر فيها أحد.

بعد اغتيال الرئيس ماك كينلى **Mc Kinl** فى ٦ سبتمبر ١٩٠١، الذى كان يفضل مسار القناة عبر نيكاراجو، الذى حل محل نائب الرئيس تيودور روزفلت **Theodore Rossevlt**،

الأكثر ترددًا حيال ذلك، بدأت معركة أخرى بين البنوك البروتستانتية واليهودية حول اختيار مسار القناة، تخلى مورجان عن معسكر سليجمان وقاد حملة لتمويل مشروع القناة عبر نيكاراجو تمويلاً عامًا.

فى ١٩٠٢، مال مجلس الشيوخ إلى تأييد مشروع مورجان ولكن عندما ثار بركان مومونومبو Momotombo فى نيكاراجو مرة، تبعها ثورة بركان آخر - بركان جبل بليه Pelee فى المارتينك - تغيرت المعطيات. قبل التصويت بثلاثة أيام واتت بينو - فاريا فكرة إرسال طابع بريد لنيكاراجو يظهر فيه بركان مومونومبو والدخان يتصاعد(٧٣) منه إلى كل سيناتور أمريكى. نيكاراجو أرض بركانية بينما بنما ليست كذلك، لن تكون القناة فيها مهددة بالأخطار، انقلاب، صوت مجلس الشيوخ لصالح تملك الدولة الأمريكية لشركة قناة بنما. نفس العملية مع مجلس النواب الذى صوت فى نفس الاتجاه.

لم تكن كل المشاكل قد سويت: كان مضيق بنما يقع فى أرض كولومبيا وكان البرلمان الكولومبى فى بوجوتا، الخاضع للنفوذ الألمانى قد صوت لتوه ضد التنازل عن الأرض اللازمة لمتابعة أعمال شق القناة، إلا فى حال دفع عشرة ملايين دولار. أوعز بينو - فاريا إلى مجموعة سليجمان آنذاك بالعمل على انفصال بنما عن كولومبيا، أقل تكلفةً من رشوة الحكومة ثم البرلمان الكولومبيين، وعليه دفعت مجموعة سليجمان مائة ألف دولار(٥٤)- يزعم فاريا فى مذكراته(٧٣)، أنه قد دفعها بنفسه إلى مجموعة صغيرة من أنصار استقلال بنما برئاسة الدكتور أمادون Amadon. فى مكاتب سليجمان فى نيويورك، قام فاريا بصياغة إعلان الاستقلال وكذلك دستور الجمهورية الجديدة، قابل الرئيس تيودور روزفلت فى البيت الأبيض وسأله إن كان ربما سيتدخل فى بنما لحماية حياة ومصالح الأمريكيين فى حال اندلعت ثورة ما هناك. صمت يدل على الرضا من جانب الرئيس.

تفجرت الثورة فى بنما فى الثالث من نوفمبر عام ١٩٠٣، أقنع وجود الأسطول الأمريكى فى الخليج الكولومبيين بقبول الانفصال فى ديسمبر. ثم توقيع اتفاقية بين سكرتير الدولة هايس Hays ممثلاً للولايات المتحدة وبينوفاريا ممثلاً لبنما؛ تمنح الاتفاقية القناة إلى الولايات المتحدة لمدة مائة عام، تم إعلان قيام جمهورية بنما. أصبح الدكتور

أمادون أول رئيس لها. اعترفت الولايات المتحدة وفرنسا بالدولة الجديدة وعين فاريا سفيرًا لها فى الولايات المتحدة. أوج قوة مجموعة سليجمان وثأر تحقق لجيس بعد تسعة أعوام من وفاته.

فى عام ١٩٠٣، نشر بول فاربورج **Paul Warburg** شقيق ماكس والمواطن الألمانى آنذاك كتاب "خطة" لإنشاء بنك مركزى، تنبأ فيه بحدوث أزمات بنكية جديدة فى ظل غياب الرقابة على الائتمان: على غرار البنك الذى أقامه لودفيج بامبرجر فى الإمبراطورية الألمانية، اقترح إنشاء بنك مركزى يمثل ضمانة متبادلة للبنوك وتكون ملكيته مشتركة بين الحكومة وكبرى البنوك الخاصة بأنصبة متساوية، حوالى عشرة بنوك اتحادية إقليمية فقط سوف يسمح لها بإصدار النقد المرهون بالذهب وبمراقبة قروض البنوك الأخرى[١٨].

غير أن أحدًا فى واشنطن لم يعلق أهمية على المشروع الذى يروج له هذا المصرفى الألمانى الثرى الذى لا يقيم فى نيويورك إلا ستة شهور من كل عام، ويمضى بقية وقته فى هامبورج، كان الاقتصاد ينمو متفجرًا وكانت مراقبة البنوك سوف تتعارض مع كثير من المصالح.

ابتداء من الآن فصاعدًا، كان بنك كوهن لويب الذى كان يديره فى ذلك الوقت جاكوب شيف وقادم جديد أوتو كان **Otto Kahn**، الواصل حديثًا من ألمانيا، يقوم بتمويل شركة وستنجهاوس **Westing House**، شركة مطاط الولايات المتحدة **U.S. Rubber**، أرمور **Armour**، تليفون وتلغراف أمريكا **ATT**، ويعيد تنظيم شركات السكك الحديدية.

كان أصحاب البنوك اليهودية يعيشون ويتصرفون دائمًا تحت سيطرة نفس أرباب العائلات، هكذا كان فليكس وبول فاربورج فى مؤسسة كوهن لويب، فى البنك كما فى المنزل تحت سلطة جاكوب شيف المتعجرفة، الذى كان والد زوجة أحدهما وزوج أخت الآخر. فى مساء كل يوم جمعة كانت الأسر الثلاث تتناول العشاء سويًا فى العقار رقم ٩٣٢ فى الجادة الخامسة، حيث كان جاكوب شيف – كان الآن فى السابعة والخمسين من عمره، قد جهز ما يشبه قصرًا مكونًا من أربعة طوابق[١٨].

كان جاكوب شيف يتلو بالعبرية صلواته التى كانت العائلة تستمع إليها فى صمت، كان الحديث يجرى بالإنجليزية برغم أن كل الراشدين الحاضرين كانوا من أصل ألمانى.

كان جاكوب شيف مهتمًا للغاية بالجمعيات الخيرية التى تساعد على إدماج المهاجرين الروس فى المجتمع الأمريكى. أسس منظمة خيرية جديدة "لجنة اليهود الأمريكية AJC"، كذلك المدرسة اللاهوتية، وكلية اتحاد هربرت Herbert، أنشأ القسم اليهودى فى مكتبة نيويورك العامة، قام بتمويل ترجمة جديدة للتوراة إلى الإنجليزية، ترأس لمدة خمسة وثلاثين عامًا مستشفى مونتفيور Montefiore فى نيويورك التى كان يذهب إليها أسبوعيا، ثم قام بتمويل الصليب الأحمر الأمريكى وناضل من أجل الحقوق النقابية ومن أجل تحريم تشغيل الأطفال، لكن الجزء الأهم من نضاله تعلق بمصير اليهود الروس.

فى عام ١٩٠٥، بعد مذبحة "بوجروم" جرت فى أوديسا تمكن من جعل الرئيس روزفلت شخصيًا يبدى احتجاجه لدى القيصر – بلا جدوى.

فى ذلك الوقت هاجمت اليابان التى خابت آمالها فى فتوحاتها فى الصين روسيا. إذا كانت إمبراطورية الشمس المشرقة لدهشة الأوروبيين والأمريكان قد بدت قوة عسكرية عصرية، فإنها لم تكن لتستطيع التغلب على جيش القيصر دون شراء بعض الأسلحة.

قبل جاكوب شيف حينذاك أن ينظم لها قرضًا ضخمًا قدره ٢٠٠ مليون دولار، تمكن من الحصول على دعم فاربورج ومورجان، كان استثمارا صعبًا لكن جاكوب شيف تمكن من إتمامه. فى نفس الوقت رفض المشاركة فى قرض تم تنظيمه فى وول ستريت لصالح فرنسا، لأنه كان يخشى أن يذهب المال فى نهاية الأمر إلى الروس الذين كانوا كثيرى الاقتراض من باريس فى تلك الفترة.

زاد غضب الروس ضد المولين الأمريكان من حدة الاعتداءات الموجهة إلى اليهود، فى الحادى عشر من يوليو ١٩٠٦ بينما كانت الحرب تدور لصالحها، طلبت اليابان من لندن قرضًا جديدًا قدره ٣٠ مليون جنيه أسترلينى. استثمر كوهن لويب فى نيويورك، و م. م. فاربورج فى هامبورج القرض فى كثير من البنوك الأخرى، فى هذه المرة كان الطلب يفوق العرض بعشرة أمثال، لم تعد نتيجة المعركة محل شك.

بعدها بقليل كان انتصار اليابان شاملا: منحتها اتفاقية بورتسموث Portsmouth حقوقًا فى منشوريا، جزءًا من سخالين Sakhaline، امتيازات فى الصين، ووصاية على كوريا.

أصبح ماكس فاربورج وجاكوب شيف فى ذلك الوقت الممولين الرسميين لليابان، بل إن شيف قد قام برحلة ظافرة فى الأرخبيل، ما أثار غضب الروس بشدة. للمرة الأولى، قام أحد الأباطرة اليابانيين بدعوة شخص أجنبى، لا ينتمى إلى العائلة الملكية لتناول العشاء على مائدته. سوف تذهب ابنة المفوض اليابانى الذى سيكون بعد ذلك وزيرًا للمالية، ثم رئيسًا للوزراء، قبل أن يجرى اغتياله فى عام ١٩٣٦، لتقيم عدة سنوات فى نيويورك ضيفة على آل شيف.

فى عام ١٩٠٦، عندما أصبح أحد الشركاء غير المنتمين إلى العائلة، أوتو كاهن، نافذًا للغاية – جلب كوهن لويب مزيدًا من رؤوس الأموال الأوروبية لاستثمارها فى الصناعة الأمريكية: تم اقتراض ٤٨ مليون دولار من فرنسا لتمويل شبكة اتحاد بنسيلفانيا للسكك الحديدية.

فى خريف ١٩٠٧، تسبب إفلاس شركة كينكربوكر ترست وشركاه Kinckerbocker Trust & Co. فى الأزمة المالية الجديدة التى كان بول فاربورج قد توقع حدوثها منذ أربع سنوات مضت. اتهمت البنوك بأنها قد ربحت الكثير جدًا من الأموال من خلال السماح بقروض متهورة، وأنها لم تتحسب لوقوع الفوضى. أصبح مشروع البنك المركزى الذى اقترحه بول فاربورج – الذى كان أخوه فليكس أحد المصرفيين المتهمين بالتساهل – من موضوعات الساعة.

ما بين الأول من يوليو ١٩٠٨ والثلاثين من يونيو ١٩٠٩، وعلى إثر اعتداءات روسية جديدة كان الاندفاع الكبير: وصل إلى الولايات المتحدة ٤٥٠٠٠٠ ألف يهودى من روسيا مع عائلاتهم الكاملة، أغلبهم من الأرثوذكس المتشددين، جالبين معهم ثقافة يادیشیه ثرية وعميقة.

كانت الولايات المتحدة تضم الآن ثالث تجمع سكانى يهودى فى العالم – تبعًا لتقدير شديد الدقة بصورة تتعارض مع الواقع – ١٧٧٧١٨٥ نسمة، مقابل٥٢١٥٨٠٥ نسمة فى روسيا، ٢٠٨٤٥٩١ نسمة فى النمسا – المجر.

البوتقة "تعبير ابتكره فى تلك الفترة الكاتب اليهودى الإنجليزى إسرائيل زانجويل Israel Zangwill فى مسرحية مهداة إلى الرئيس تيودور روزفلت" جعلت من أمريكا الحلم، المدينة الفاضلة التى يستطيع كل شخص أن يأتى إليها ليقيم "جمهورية البشر وملكوت الرب"(٤٦٠).

أقر قانون معيار الذهب تفوق الدولار. فى كل مرة تتحول فيها بلد إلى مستودع للبضائع، فإنها تصبح تقريبًا مستودعًا للنقود، بعد ثلاثين عامًا من تحقيق السيطرة الصناعية، بدأت أمريكا التى تحقق الآن من الأرباح بأكثر مما يمكنها استثماره داخل أراضيها، فى إقراض عملاتها الأجنبية إلى المؤسسات وإلى بلاد العالم الأخرى.

بدأت بنوك الأعمال الأمريكية التى استمرت فى الاقتراض من أوروبا ما تقرضه إلى أمريكا، العمل أيضًا فى الاتجاه المعاكس، وهكذا قام كوهين لويب، و ن.م روتشيلد. فى عام ١٩١٠، بتنظيم قرض إلى جمهورية الدومنيكان، سيكون سداده مضمونًا برسوم الجمارك التى تقوم حكومة الدومنيكان بتحصيلها. قبل أن يقرر المشاركة فى هذا القرض، أرسل جاكوب شيف برقية إلى سير إرنست كاسل Sir Ernest Cassel، فى لندن تقول: "إذا لم يدفع هؤلاء، من سيذهب ليأتى برسوم الجمارك تلك؟"، ورد كاسل: "جنود بحريتكم وبحريتنا"(١٨)، لم يعد تفوق القدرة المالية — الحربية بريطانيًا فقط، لقد صارت أمريكا قوة إمبريالية "استعمارية".

فى نفس ذلك العام ١٩١٠، أصبح بول فاربورج أخيرًا مواطنًا أمريكيًا، كان حينها فى الثانية والأربعين تاركًا لأخيه ماكس وحده فى هامبورج مهمة إدارة أقدم بنك يهودى فى العالم. كان اتحاد بنوك نيويورك يدعم مشروعه بشكل رسمى. كما أن أحد أعضاء مجلس الشيوخ عن رود أيلاند، السيناتور نيلسون أندريك Nelsson Andrich— والد زوجة ج. د. روكفيلر الابن، الذى يمول تحديدًا بنك كوهن لويب، الذى كان بول أحد مساهميه رئيس لجنة النقد الوطنية، قد أبدى اهتمامه بأفكار بول.

كانت بنوك وول ستريت، وفى مقدمتها كوهن لويب، الأخوة ليهمان، جوجنهايم، سليجمان، والآن جولدمان ساشس، ثم من بعدهم بكثير وأقل حجمًا، بنك لازار، تساعد المؤسسات على أن تتمول ذاتيًا عن طريق إصدار السندات أو الأسهم.

فى عام ١٩١٠، كانت تلك هى حال مؤسسة أندر وود Ander Wood، فى عام ١٩١١، شركة ستودبيكر Studebaker، ١٩١٢، شركة وول ورث Wool Worth تبعتها كونتينتال كان Continental Can، صارت أسماء جولدمان ساشس، ليهمان، كوهن لويب، وجوجنهايم أسطورية.

اسم جديد ظهر فى عام ١٩١٠: سالومون Salomon. قام الأشقاء الثلاثة أرثر Arthur، هربرت Herbert، وبيرس Bercy، وشخص آخر يدعى بنيامين ليفى Benjamin Levy بشراء شركة سمسرة مالية صغيرة تحت اسم "الأخوة سالومون".

بدأوا بتمويل معدات خطوط السكك الحديدية وتقديم الأموال النقدية للمؤسسات، قبل أن يجعلوا من شركتهم واحدة من أهم المؤسسات المتخصصة فى إصدار السندات فى العالم.

تنامت الشكوك حول البنوك، يهودية أو غير يهودية. فى بداية عام ١٩١٢، قامت لجنة من مجلس الشيوخ بالتحقيق حول أنشطة كوهن لويب، ج. ب. مورجان، كيدر Kidder، لى هيجنسون Lee Higginson، بنك سيتى الوطنى national City Bak. صوتت بعض الولايات لصالح قوانين تنشئ رقابة على الائتمان.

فى نوفمبر ١٩١٢، طلب الرئيس ويلسون Wilson، الذى انتخب مؤخرًا متغلبًا على تافت Taft وروزفلت، من بول فاربورج أن يصوغ مشروعًا لقانون تأسيسًا على كتابه. بعد عرضه على مجلس الشيوخ بواسطة روبرت أوين Robert Owen وعلى مجلس النواب بواسطة نائب فرجينيا، كارتر جلاس Carter Glass. أصبح مشروع بول فاربورج قانون جلاس – أوين، الذى أنشأ بنوك الاحتياط الإقليمية الاثنى عشر، وكذلك بنك الاحتياط الفيدرالى التى أوصى بها بول. عرض عليه ويلسون حينها رئاسة بنك الاحتياط الفيدرالى، كان بول لا يزال يشعر أنه ألمانى أكثر منه أمريكى ولم يقبل إلا بمنصب نائب الرئيس، دون أن يجرى تعيين رئيس آخر. تم تعيين بنيامين سترونج Benjamin Strong، زوج ابنة بييربونت مورجان – الذى توفى فى نفس العام – رئيسا لبنك نيويورك الإقليمى، توازن قوى، مرة أخرى، بين البنوك البروتستانتية واليهودية.

أصبح أوتو كاهن Otto Kahn، بعد جاكوب شيف الرجل الأقوى نفوذًا فى بنك كوهن لويب، أكثر نفوذًا من بول فاربورج، المشغول بالبنك الفيدرالى، ومن فيلكس المنهمك فى اجتماعياته وأعماله الخيرية.

فى ١٩١٣، دخل ألبرت شتراوس Albert Strauss، أول شريك فى بنك سليجمان من خارج العائلة، مجلس إدارة شركة جنرال موتوز General Motors التى كانت حينها فى قمة نموها، مثلها مثل شركة فورد Ford التى كانت معادية للسامية.

فرق شاسع بين هذه الحفنة من المليارديرات وبين الآخرين، غالبية اليهود الذين كانوا فى روسيا، وفى ألمانيا، وفى النمسا، وفى فرنسا، وفى إنجلترا، وفى المغرب، وفى تركيا، وفى الجزائر، يعيشون حياة بين بين، كثيرا ماعانوا البؤس والاضطهاد. بين الذين يناضلون – بما فى ذلك النضال المسلح – ضد الرأسمالية وبين هذا المليون ونصف المليون من الآخرين الذين ظلوا منذ وصولهم إلى الولايات المتحدة فيما بين عامى ١٩٠٠ و ١٩١٤، متركزين بالنسبة لغالبيتهم فى نيويورك التى يمثلون ٢٨٪ من تعداد سكانها.

فى الحقيقة كان هؤلاء قد حققوا على الأقل آمال الثورة الفرنسية: الخلاص من الجيتو، العثور على أرض يعيشون عليها أحرارا، بعضهم، قلة أقل بكثير، كان ينتظر بالفعل نحو أرض موعودة.

رحم الصهيونية

التطلعات الأولى نحو فلسطين

بعكس كل الأساطير والأوهام، كان كل يهود العالم تقريبًا وخاصة الأكثر ثراءً من بينهم، سيبدون بعض التشكك بل الاعتراض تجاه المشروع الصهيونى عندما ظهر فى نهاية القرن التاسع عشر. انتهى بهم الحال بالاقتناع بتمويل بعض المستعمرات لإيواء اليهود الروس، ولكن فى الأرجنتين وفى كندا ليس أكثر. المشروع الصهيونى ليس مشروعًا لـ "المال اليهودى" كما سوف يندد به بعد ذلك أعداؤه.

بدأ كل شيء عام ١٨٣٣، عندما اجتاح محمد على باشا حاكم مصر فلسطين وسوريا وأعلن المساواة فى الحقوق لكل رعاياه، كانت فلسطين حينها رهانًا إستراتيجيًا على مستوى الجغرافيا السياسية، على الأقل بالنسبة للإنجليز فهى تقع على الطريق إلى الهند. ولهذا ربما دعوا فى عام ١٨٤٠، إلى عقد مؤتمر فى لندن يجبر محمد على إرجاع فلسطين إلى الأتراك مقابل وراثة الحكم فى مصر، الذى تحول فى عام ١٨٤١، إلى ملكية مستقلة. استمر بعض اليهود فى العمل هناك فى مجال التجارة ومجال المصارف(٢٣٥).

فى غضون ذلك الوقت، انتقل ساحل الجزيرة العربية إلى حكم سعود الأكبر، الذى مد المملكة الوهابية على كل أراضى الجزيرة العربية، قبل أن يوقفه محمد على والمصريون.

كان يهود الإمبراطورية العثمانية البالغ عددهم ثلاثمائة ألف يمارسون شتى المهن: بل كانوا يستطيعون آنذاك الالتحاق بالوظائف العامة، موظفين، مديرى إدارات، قضاة، قناصل، كان مصرحًا لهم منذ ذلك الوقت فصاعدًا اعتمار القبعة الوطنية الطربوش Lefez، دون أن يحملوا شارة مميزة. برزت شخصيات من رجال المصارف ومن التجار "جاباى Gabbai، أدجيمان Adjiman، كارمونا Carmona، كاموندو Camondo"، أثرت حقبة الحداثة تلك. قام المصرفى كاموندو بتمويل مدرسة حديثة مفتوحة فى إسطنبول، يجرى التدريس فيها باللغة الفرنسية متسببًا فى أزمة مع الحاخامية فى كل أنحاء الإمبراطورية.

كان كل اليهود تقريبًا فقراء للغاية، نجارين، تجار ملابس قديمة، باعة، وأحيانًا يستخدمهم الأتراك موظفين فى المناطق النائية، كما كان الحال فى المغرب حتى وصول الفرنسيين.

وقع فى سوريا، عام ١٨٤٠، حادث خطير: اتهمهم القنصل الفرنسى بقتل راهب كبوتشى لأسباب عقائدية؛ تعرض كثير منهم للتعذيب والاغتيال. قامت الحكومة العثمانية بتحرير الناجين من تلك المذبحة تحت الضغط الدولى، غير أن الخرافة الوهمية قد ترسخت طويلاً فى العالم العربى، كما ترسخت فى العالم المسيحى: أن اليهود يحتاجون إلى أن يشربوا الدماء البشرية.

فى فلسطين "التى كانت تضم آنذاك الأردن الحالية" كان وضعهم أيضًا أكثر بؤسًا. فى عام ١٨٤٥، برغم أنهم كانوا لا يزالون أغلبية فى أورشليم "ثمانية آلاف من بين أحد عشر ألفًا من السكان" فإنهم لم يكونوا أكثر من ثلاثين ألفًا فى مقابل خمسمائة وخمسين ألفًا من العرب يعيشون على كامل تراب البلاد، فى ١١ أغسطس ١٨٥٠ كتب جوستاف فلوبير(*) فى دفاتر الرحلة: "يبدو أن لعنة الرب كانت تخيم على المدينة المقدسة، من قبل ثلاث ديانات تموت ضجرا، ركودا وإهمالا"(١٤٥).

كان أول مصرفى يهودى يهتم بمصير اليهود فى فلسطين هو أحد يهود ليفورن، المدعو موسيس مونتفيور **Moses Montefiore**، الذى أصبح زوج ابنة أحد أفراد عائلة روتشيلد وبارونًا إنجليزيًا أيضًا. بعد أن أصبح شديد التدين، قام ببناء معبده الخاص فى ضيعته فى رامسجيت **ramsgate** ولم يعد يسافر إلا ومعه قصابه الخاص. إلى جوار المشروعات التى يقوم بتمويلها لتحسين أوضاع اليهود فى روسيا، بولندا، رومانيا، المغرب، اهتم أيضا بيهود فلسطين، أرض لم تكن بالنسبة له من طبيعة تختلف عن أماكن إقامتهم الأخرى.

هكذا قام ببناء قرية فى يامين موشيه **Yemin Moshe**، أسفل أسوار مدينة أورشليم القديمة — أول ضاحية خارج المدينة **Extra Mouros**— لمساعدة بعض اليهود الذين كانوا يقيمون حينها فى فلسطين، على العيش فى اكتفاء ذاتى. ولمساعدة آخرين منهم فى أن يصبحوا مزارعين، اشترى مونتفيور أولى المزارع اليهودية، عشرة هكتارات من بساتين البرتقال فى يافا، لم يكن من الوارد وقتها مساعدة يهود آخرين على الهجرة.

فى أوروبا وفى الولايات المتحدة لم تكن فكرة إنشاء دولة يهودية أيضًا تشغل بال الطوائف اليهودية، لم يكن أحد قد نسى الحلم الذى كان عمره ألفى عام، لكن قليل

(*) Gustave Flaubert (١٨٢١ — ١٨٨٠) روائى فرنسى شهير، درس القانون لكنه تكرس للأدب، أول مؤلفاته المهمة "التربية العاطفية"، ثم "مدام بوفارى"، قام برحلات إلى الشرق وحج إلى الأراضى المقدسة، وكتب كثيرا فى ذلك ... المترجم (عاصم عبد ربه).

من الحاخامات والمفكرين، وأقل منهم أيضًا من التجار كانوا يتحدثون عنه أو يكرسون أنفسهم له.

بلا شك أن البعض – مثل موسيس هيس **Moses Hess** فى كتابه الصادر عام ١٨٦٢، روما وأورشليم – كانوا قد اهتموا بتلك الفكرة، لكننا لم نعثر على أثر سياسى لذلك إلا فى محادثة جرت بين اثنين من المسيحيين فى عام ١٨٦٣، أسرّ الرئيس أبراهام لنكولن إلى قس كندى غريب الأطوار، هنرى وينتورث مونك **Henry Wentworth Monk** – الذى يعيش فى أورشليم ويعتقد أنه مكلف من الله بإعادة بناء دولة إسرائيل – بأنه يأمل فى أن يتمكن اليهود من "إعادة بناء وطنهم القومى" فى فلسطين: "إنه حلم جميل يتقاسمه كثير من الأمريكيين". ثم أضاف هذه التورية: بما أن طبيبى كان يهوديًا، ساعدنى كثيرًا على الشفاء "الوقوف على أقدامى" فإنى لا أجد سببًا فى ألا أمد يدى إلى مواطنيه "المقصود أساعدهم – لكنه استخدم كلمة ساق بدلا من يد". غير أن الطوائف اليهودية، من جانبها لم تكن مهيأة لذلك على الإطلاق، وكانت فلسطين لا تزال بالنسبة لهم مجرد طائفة من بين الطوائف الأخرى.

وفى أوروبا كانت الحالة الذهنية مماثلة. بعد أن قام بإنشاء العديد من المدارس فى تطوان **tetouan**، طنجة **Tanger**، بغداد، إسطنبول، أندرينبول **Andrinople**، سيمرن "أزمير"، سالونيك، صوفيا، افتتح التحالف الإسرائيلى العالمى، الذى تأسس كما رأينا فى باريس عام ١٨٦٠(٨٨)، مدرسة أخرى بالقرب من يافا عام ١٨٧٣، فى ميكف إسرائيل **Mikve Israel**، ثم مدرستين أخريين أيضًا: فى موتسا **Motsa** بالقرب من أورشليم، وفى بتاح تكيفا **Betah Tikve**. لكن هنا أيضًا لم يحدث أى تغير نوعى لولا الدور الشخصى الذى لعبه شارل نيتيه **Charles Netter** أحد مؤسسى التحالف، المهتم بالترويج لفلسطين والعمل على تطويرها. كان اليهود الفرنسيون، الألمان، البريطانيون أكثر اهتمامًا بمساعدة ودعم الثلاثة ملايين يهودى روسى عن مساعدة فلسطين؛ ولم يروا فيها ملجأ محتملاً.

تمت صياغة أول مشروع متماسك لإنشاء دولة يهودية فى فلسطين فى عام ١٨٨٠ عندما قام أحد اليهود الروس، ليو بينسكر **Leo Pinsker** طبيب فى أوديسا بنشر كتابه

"التحرر الذاتى" فى روسيا. كان ليو يدعم – سرًا – رابطة أحباء صهيون، التى كان هدفها هو "إحياء الشعب اليهودى سياسيًا، قوميًا، وروحيًا فى فلسطين". وكذلك تأسيس الحركة الطلابية Bilu التى تشير اختصارًا إلى "بيت يعقوب، فلنسير إذا".

نظمت هاتان الحركتان بعد فترة قصيرة رحيل ثلاثين ألف يهودى روسى، بولندى، رومانى، من أدويسا إلى إسطنبول وفلسطين، كان معظمهم من الطلاب المثاليين وعديمى الخبرة. لم تكن يافا، باب الدخول إلى العليا Alya "الصعود" تضم فى ذلك الوقت إلا عدة مئات من اليهود، ضاعف وصول هؤلاء القادمين الجدد من عدد اليهود فى البلاد لكنهم لم يكونوا يمتلكون أى مورد مادي.

بعد مساعدة مونتفيور، كانت أول مساعدة ذات قيمة قدمت لليهود الفلسطينيين قد جاءت، عام ١٨٨٢، من البارون موريس دو هيرش. كان هذا المصرفى الألمانى، البلجيكى، الإنجليزى، الفرنسى فى نفس الوقت، الذى سوف يمول مشروعات لمساعدة اللاجئين فى كثير من الأماكن، يعارض بشدة فكرة الدولة اليهودية، التى كان يراها شاذة. إذا كان اشترى فى مارس ١٨٨٢ من الأتراك ٢٢٠٠ هكتارًا من الأرض ليقيم عليها اللاجئون، فإن ذلك كان بالنسبة له مشروعًا مثل المشروعات الأخرى التى يمتلكها فى حوالى عشرة بلدان.

لقد تعلق الأمر بعمل صعب، لأن كل الأراضى تقريبًا فى فلسطين كانت تعود إلى الدولة العثمانية أو إلى بعض الأفراد الذين يعيشون فى الخارج خاصة فى دمشق وفى بيروت. كانت كل عملية شراء تستلزم إجراءات بيروقراطية لدى السلطات المحلية، المعارضة لأى وجود يهودى، ومساومات لا تقل صعوبة مع الملاك. فى يونيو ١٨٨٢، حاولت الحكومة العثمانية منع توطين أئ مهاجرين يهود جدد، وكذلك شراء أى أراض وأى أعمال بناء. ممنوعات تم الالتفاف عليها بسرعة. على أراضيه، قام البارون هيرش بإنشاءً أولى المزارع الخاصة (موشافوت ياكوف Moshavot K، ريشون لزيون Richon Lezion، روش بينا Rosh Pina، زيخرون ياكوف Zikhron Ya'akov".

بدأ المهاجرون الأوائل المتمرسون بالزراعة بتجفيف المستنقعات، إزالة الاحجار عمل المصاطب وتسويتها، بغرض جعل لأرض صالحة للزراعة، وزراعة أشجار الأوكاليبتوس.

استقر بعض اليهود اليمنيين فى أورشليم كعمال بناء وعملوا فى أولى مزارع الليمون. لكن، بسبب قلة الموارد المالية سرعان ما كانت بعض المزارع على وشك الإفلاس.

فرض أحد أوائل الأصوات اليهودية الأمريكية المشجعة لاقامة وطن لليهود نفسه على الأسماع فى العام التالى، ١٨٨٣. كان ذلك الصوت هو صوت إيما لازاروس **Emma Lazarus** سليلة إحدى أسر سان شارل التى وصلت إلى نيويورك فى عام ١٦٥٤، الشاعرة التى حفرت بعض أبياتها على قاعدة تمثال الحرية "ربما كان على فلسطين أن تكون وطنا للمشردين، لمن لا وطن له، مقصد التائهين الحائرين وملجأ المضطهدين من أمة كادت أن تزول"(٥٥).

فى عام ١٨٨٤، قبل موته بعام تقرر أن يكون عيد ميلاد البارون مونتفيور المائة يوم عيد فى كل الطوائف اليهودية فى كل أنحاء العالم، أما النصير الأكبر الآخر لليهود موريس دوهيرش، فقد ألمت به مأساة: موت ابنه الوحيد، لوسيان **Lucien** عام ١٨٨٧. استقر حينذاك فى باريس وأغرق نفسه فى العمل محاولاً السلوى، ها هو يكتب: "لقد فقدت ابنى، لكنى لم أفقد وريثى، الإنسانية هى وريثتى". انطلق فى مشروع ضخم. فى عام ١٨٩٠، أسس الجمعية اليهودية للاستعمار؛ هدفها كما رأينا تهجير ٣٢٥٠٠٠٠ يهودى روسى إلى الأرجنتين خلال خمسة وعشرين عامًا، إلى الأرجنتين وليس إلى فلسطين.

وفى نفس ذلك العام ١٨٩٠، كان الجدل حول العودة إلى فلسطين يزداد حدة، ظهرت كلمة "الصهيونية" ابتكرها كاتب من فيينا، ناتان بيرنابوم **Nathan Biranbaum**. فى عام ١٨٩١، كان أحد الكتاب الروس، أشر جينسبرج **Asher Ginsberg** المشهور أكثر باسم آهاد هام **Ahad Haam** يلح على أهمية علمنة اليهودية، اتفاق مسبق مع السكان العرب قبل الحديث عن إنشاء دولة يهودية، وعلى ضرورة اجتذاب المثقفين إلى فلسطين. إنها "الصهيونية الثقافية". فى الولايات المتحدة كانت الثقافة التوراتية والبروتستانتية تقود المسئولين باستمرار إلى إقامة علاقة توارٍ بين أمريكا وإسرائيل، أرضان موعودتان، وبالتالى إلى الاهتمام بالصهيونية. فى عام ١٨٩٢، تحولت اعتداءات "البوجرومز" فى روسيا إلى مجازر، قدم النائب العام لمجلس القضاء الأعلى والمتحدث باسم مجلس النواب،

الموقر وليم بلاكستون **William Blackston**، والكاردينال جببونز **Gibbons** إلى الرئيس بينامين هاريسون **Benjmin Harrison**، وإلى وزير الدولة جايمس بالين **James Baline** عريضة احتجاج على ما يتعرض له اليهود من ظلم وإجحاف فى روسيا وطالبوا بعقد مؤتمر دولى "لدراسة المطالب اليهودية فى فلسطين وطنهم القديم والعمل بكل الوسائل الممكنة على تخفيف معاناتهم، (...) لماذا لا تعاد فلسطين إلى اليهود؟ تبعًا لما قسمه الرب بين الشعوب، فإنها وطنهم الذى لا يمكن التخلى عنه والذى طردوا منه عنوة. لقد كانت بلدًا مبتكرًا ومثقفًا، مركزًا لحضارة ولديانة. نحن نرى أن من المناسب أن يعطى اليهود الحق فى العودة إلى الأرض التى سلبها منهم أسلافنا الرومان"، لم يكن هناك أى يهودى أمريكى بارز قد شارك بالمبادرة التى قام بها بعض كبار رجالات البلاد بالمجاهرة بآرائهم الصهيونية.

لن يعود الفضل فى إطلاق الحركة الصهيونية إلى أى من هؤلاء الرواد ولا إلى أى من المصرفيين. إنه سيعود إلى تيودور هرتزل **Theodor Herzel** مراسل إحدى صحف فيينا فى باريس، صحيفة "الصحافة الحرة الجديدة **La Noue Freie Presse**" بعد متأثرًا بموجة المعاداة للسامية التى تسببت فيها فضيحة بنما وتفجر قضية دريفوس، بأكثر مما تأثر من أوضاع اليهود فى روسيا، وضع هرتزل كتابه الشهير "دولة اليهود **Der Judestaat**[١٩٧]"، التى تحيل خلاصته إلى خلاصة كتاب بينسكر الذى أصدره منذ خمسة عشر عامًا مضت: إن الأمة اليهودية يجب أن تبعث من جديد على أرض لها فى فلسطين، إن أمكن. اقترح إنشاء "شركة يهودية" لشراء أراض هناك **Over There** دون أن يحدد حينها أين تقع "هناك"، المقصودة؛ هذه الشركة التابعة للقانون الإنجليزى، التى يبلغ رأسمالها ٢٠٠ مليون دولار، ستكون مهمتها شراء الممتلكات التى تركها اليهود فى البلاد التى غادروها وأن تدفع لهم نقدًا وفى الأراضى "هناك" **Over There**، حيث سوف يتجهون إلى الزراعة. وكانت ستحقق أرباحها من خلال إدارة وإعادة بيع الممتلكات التى تم شراؤها من اليهود، سيكون رأس مال الشركة اليهودية هذه من اكتتاب المولين اليهود فى كل أنحاء العالم، لكن أيضًا بواسطة "صغار المساهمين" من اليهود وبنوك يهودية صغيرة حتى لا تعتمد على "مصرفيين كبار" "هؤلاء الذين يمكنهم رفض المشروع، بينما تعلو الابتسامة

شفاههم – بل بواسطة مساهمين مسيحيين من الجائز أن يهمهم إيجاد تسوية للمسألة اليهودية وأن تجذبهم ربحية المشروع"(١٩٧).

وأخيرًا، إذا كان هرتزل قد أورد هذه التفاصيل فلأنه أدرك أنه لا يستطيع الاعتماد على المولين اليهود لا فى أوروبا ولا فى الولايات المتحدة، ولم يكن أى من الكبار: جوجنهايم، روتشيلد، سليجمان، شيف، فابورج، هيرش، كاهن، جولدمان، لازار، بنهايمر، سالومون مستعدين لتمويل مثل هذا المشروع. بالنسبة لهم كانت فكرة المشروع خيالية.

مات البارون دوهيرش فى عام ١٨٩٦، استمرت رابطته اليهودية للاستعمار بصورة أو بأخرى فى نقل بعض اليهود الروس إلى أمريكا اللاتينية فى السنوات الثلاث التى تلت ذلك، تبرعت زوجته، "كلارا" بخمسة عشر مليون دولار من ثروتها الخاصة إلى جمعيات خيرية غالبًا يهودية فى نيويورك، جاليسى، فيينا، بودابست، وباريس ثم أوصت بعدها بعشرة ملايين دولار إلى مؤسسات أخرى لكنها لم تقدم لفلسطين شيئًا.

رفض إدموند جايمس **Edmond James** أحد أبناء جايمس روتشيلد وكان مقربًا من هرتزل، المشاركة هو الآخر فى هذا المشروع الصهيونى(٢٨٦)، لكن عندما سأله مسئولو قرية ريشون لزيون – التى تشرف عليها حركة هوفيف زيون **Hoveve Zion** الصهيونية الموشكة على الإفلاس – فإنه قرر أن يساعدهم وكذلك قرية زيخرون ياكوف **Zikhron Ya'akov**. سوف يذهب لاحقًا لزيارتها ويعود متحمسًا، حتى وإن لم يصبح صهيونيًا مثله مثل هيرش ومونتفيور.

فى عام ١٨٩٦، ودون أن يستسلم لليأس بسبب الرفوض الأولى تلك، قام هرتزل بسلسلة من المقابلات مع بعض السلطات السياسية ليشرح لهم فكرته، لقد تناقش حتى مع القاصد الرسولى فى فيينا عن الإضافة المحتملة لأراضى الدولة بجزء من أورشليم فى حال أن أقيمت دولة يهودية فى فلسطين. أراد هرتزل تجميع أهم الداعمين لفكرته، وعقد مؤتمر صهيونى فى ميونخ، لكن معارضة الطائفة المحلية دفعته إلى نقل هذا التجمع إلى مدينة بال **Bale** التى يقيم فيها قلة قليلة جدًا من اليهود.

فى ٢٩ أغسطس ١٨٩٧، أى قبل تأسيس رابطة فيلنا **Bund a Vilna** السرى بعدة أسابيع، عقد هرتزل فى بال أول مؤتمر صهيونى عالمى: مائتا مشارك من سبع عشرة دولة

تجمعوا فى منتدى البلدية، منهم تسعة وستون مندوبًا عن منظمات صهيونية، وعدد من المدعوين بصفة شخصية، جاء كل منهم على نفقته الخاصة. شارك فى المؤتمر عشرة من غير اليهود دون أن يكون لهم حق التصويت، لم يقبل أى ممول يهودى ذو شأن الحضور، كان أمرًا يتعلق بالمفكرين والمثقفين والأطباء.

وعرض هرتزل برنامجه فى لجنة ترأسها أحد أصدقائه، ماكس نوردو **Max Nordau** ابن أحد حاخامات بودابست، صار طبيبًا فى باريس عام ١٨٨٠. تبعًا لهذا البرنامج، كانت الصهيونية تسعى لأن تقيم للشعب اليهودى "وطنًا معترفًا به علنًا وقانونًا فى فلسطين".

قرر المؤتمر "تشجيع إقامة المزارعين، الحرفيين، المقاولين اليهود فى فلسطين، وتوحيد اليهود من كل أنحاء العالم محليًا ودوليًا وفقًا لقوانين كل دولة؛ تقوية الشعور الوطنى اليهودى والسعى للحصول على موافقة الحكومات إن لزم الأمر لتحقيق أهداف الصهيونية".

بإيعاذ من ليو موتزكين **Loe Motzkin**، عالم رياضيات روسى مهاجر إلى برلين، طلب كثير من ممثلى الحركات الصهيونية بإضافة أن الدولة اليهودية القادمة يجب أن "يعترف بها دوليا" لا أن يفرض وجودها فقط، بعبارة أخرى يجب التوصل إلى اتفاق مع العرب. اعترضت بعض الأصوات على ذلك، تم التوصل إلى صيغة توافقية سيكون من الواجب أن تكون الدولة "مضمونة بالقانون العام"، يدور الحديث عن ضرورة وضع قانون نموذجى للعمل.

انتخب هرتزل رئيسًا، أصبح ناردو واحدًا من نواب الرئيس الثلاثة، أنشئت لجنة لإدارة الحركة فى فترات ما بين المؤتمرات السنوية. سيكون على كل عضو أن يدفع اشتراكًا سنويًا قدره شيكل واحد، المعادل الرمزى لفرنك واحد، مارك، نصف دولار أو ٢ شيلنج.

فى عام ١٨٩٨، أنشأ المؤتمر الصهيونى الثانى البنك اليهودى للائتمان الاستعمارى بغرض تمويل شراء أراض فى فلسطين على غرار مشروع "الشركة اليهودية" لهرتزل، هنا أيضا لم يشارك فى هذا البنك أى ممول من العيار الثقيل، ولم يتم تحصيل إلا ٣٩٥٠٠٠ ألف جنيه من أصل الثمانية ملايين المتوقعة، قدمها متبرعون صغار من الطائفة البريطانية،

فشل مالى آخر لمشروع صهيونى. للمرة الأولى، طلبت مجموعة من الاشتراكيين المشاركة فى إدارة الحركة.

عرض هرتزل على السلطان العثمانى إلغاء الدين الخارجى للباب العالى مقابل السيادة اليهودية على فلسطين. مع أن أحدًا من المصرفيين أصحاب الدين لم يصرح له بالتفاوض باسمهم بشأن عرض كهذا، الذى تم رفضه.

فى المؤتمر الثالث الذى انعقد عام ١٨٩٩، فى مدينة بال باستمرار، قدم هرتزل عرضًا لنتائج مقابلاته فى برلين، القسطنطينية، أورشليم، بذل كل ما فى وسعه لتجنب أى نقاش حول طبيعة الهوية اليهودية وحول طبيعة الدولة التى يسعى إلى إقامتها، خوفًا من أن يؤدى ذلك إلى انشقاق بين المتدينين والعلمانيين. دار النقاش حول معرفة ما إذا كان من الواجب التركيز على عمل دبلوماسى "خيالى بعض الشيء" مثل ما يقوم به هرتزل أو إذا كان من الواجب توسيع المستعمرات الزراعية "الملموسة" كما فعل روتشيلد خارج الحركة الصهيونية.

يلام على هرتزل أنه لم يهتم إلا بالشخصيات التى قابلها وليس بالتنظيم العملى للحركة. تقرر حينها أن بنك الائتمان اليهودى سوف يخصص الأموال التى يستطيع تحصيلها حصريًا لشراء أراض فى سوريا وفى فلسطين، كانت "هناك" تشير من الآن فصاعدًا إلى فلسطين.

على الأرض ظل غير الصهيونيين أكثر فاعلية من هرتزل. قام إدموند روتشيلد بتجميع المستعمرات التى يقوم بتمويلها مع مستعمرات رابطة الاستعمار اليهودية التى أنشأها البارون دو هيرش. تولى إدارتها وقام بتطوير زيخرون ياكوف، ريشون لزيون، دون أن يقصد قام بتعيين الحدود الشمالية لبلاد المستقبل بقرى روش بينا **Rosh Pina**، قرية متيولا **Metulla**، وبالسيطرة على مصادر المياه القريبة من نهر الليطانى. متحمسًا، تمادى البارون فى اللعبة، اشترى الأراضى وساعد فى استصلاحها، شجع على قيام صناعة يهودية صغيرة، راقب عن قرب شديد الأداء الاقتصادى لهذه المستعمرات، التى تستخدم الآن عمالاً عربًا، أكثر خبرة وأقام فى يافا إدارة للإشراف عليهم، ما أثار غضب المستعمرين الشديد(٢٨٦).

كان عدد اليهود فى فلسطين لا يتجاوز ٨٥٠٠٠ ألف نسمة "من أصل عشرة ملايين فى العالم"، فى مقابل أكثر من نصف مليون عربى، بما فى ذلك شرق الأردن. من الصعب تخيل دولة فى مثل هذه الظروف، كل أموال العالم لا تغير فى الأمر شيئًا، فضلا عن أن تلك الأموال لم تكن كافية.

فى ١٩٠٠ عقد المؤتمر الصهيونى الرابع فى لندن؛ كان الهدف منه هو لفت أنظار الرأى العام لأعظم قوة فى العالم وفى نفس الوقت جذب الطائفة اليهودية المزدهرة فى بريطانيا. جرت مناقشة الوضع الاقتصادى المزرى للمستعمرات الزراعية التى أقيمت فى فلسطين، انقضت ساعات فى الحديث عن مشروع حركة رياضية، المكابى **Le Maccbi**، اعترض الأرثوذكس بقيادة الحاخام يتزاك ياكوف رانز **Yitzak Yaakiv Reins** على مضيعة الوقت هذه، طالبوا بالتركيز على القضايا السياسية وعلى تمويل شراء الأراضى الجديدة، وفى هذا لم يحدث أى جديد كان الفشل شاملاً ذريعًا.

قرر المؤتمر الخامس، الذى انعقد عام ١٩٠١، فى بال، ليتدارك مؤقتًا فشل بنك الائتمان اليهودى للاستعمار، إنشاء هيئة تتولى جمع رؤوس الأموال اللازمة لشراء أراض جديدة، من عامة جماهير اليهود الـ **KKI** أو الصندوق الوطنى اليهودى، مجموعة يديرها ليو موتزكين، مارتين بوبير **Martin Buper**، حاييم وايزمان **Chaim Wzmann**، يتبنى برنامج العمل على نشر الثقافة اليهودية فى بلاد الشتات، لحث اليهود فيها على العودة إلى صهيون. وطالبت أيضا بمزيد من الديمقراطية داخل الحركة. دعمت المنظمة الصهيونية الدائمة، المتمركزة فى فيينا، من أوضاعها، لن تنعقد المؤتمرات الصهيونية ابتداءً من ذلك التاريخ فصاعدًا إلا مرة كل عامين.

على المستوى الدبلوماسى لم يحدث أى تقدم. لم يكن هناك أحد فى إسطنبول ينوى التخلى عن فلسطين. عندئذ، دون تفويض، من أحد غير هرتزل من إستراتيجية: تحدث مع السلطان عبد الحميد الثانى حول فكرة إسكان اليهود فى قبرص وليس فى فلسطين. لكن السلطان العثمانى لم يرد جوابًا: لقد كان ذلك هو جوهر المشروع القديم الذى قدمه جوزيف ها ناسى الذى أسهم مسبقًا فى هزيمة ليبانت **Lepante** المروعة...

أما الإنجليز، القلقون، بشأن حماية خطوط اتصالهم مع الهند، ومراقبة قناة السويس ورعاياتها فكان اهتمامهم بفلسطين يتزايد يومًا بعد آخر. بالإضافة إلى ذلك ولأن السفن قد بدأت فى استخدام المازوت كوقود، فإن لندن قد شعرت بتجدد الاهتمام بمنطقة الشرق الأوسط:

فى عام ١٩٠١، حصل وليام دارسى **Wlimd' Arcy** على امتياز استخراج البترول فى العراق وفى الجزيرة العربية، استولى عبد العزيز بن سعود على الحكم فى شبه الجزيرة واستعاد مدينة الرياض من أيدى الأتراك. لن تتباطأ القوى السياسية فى العالم بأسره فى التحويم حول حقوق الذهب الأسود هذه. كان مصير فلسطين ومستقبل الصهيونية سوف يعتمدان عليها إلى حد بعيد.

فى عام ١٩٠٢، قامت اللجنة الملكية للهجرة الأجنبية ومعها جوزيف شامبرلين **Jlseph Chamberlin**، سكرتير الدولة البريطانية لشئون المستعمرات باستقبال هرتزل وعرض عليه شامبرلين إقامة مستعمرة فى العريش فى سيناء التى كانت تعود آنذاك إلى مصر "التى كانت بذاتها تحت مظلة الحماية البريطانية منذ عام ١٨٨٢"، بينما تحدث هرتزل عن الأرجنتين وقبرص.

فى نفس الوقت، تكون فى فيلنا حزب دينى، مزراحى **Le Misrahi**، للمطالبة بالأرض الموعودة. لقد ولدت الرابطة **Le Bund**، كما ولد الحزب فى نفس المدينة "فيلنا" لكن أهدافهما كانت مختلفة جذريًا: أحدهما يريد حقوقًا لليهود فى روسيا، والآخر يطالب بحقوقهم فى فلسطين. هناك مزحة طريفة ستقول إن ما يميز أعضاء جماعة "البوند" عن الصهاينة هو دوار البحر.. فقط!.

فى عام ١٩٠٣، عرضت الحكومة البريطانية على هرتزل رسميًا تسكين اليهود فى أوغندا "وفق ظروف كانت ستتيح لهم مراعاة عاداتهم وتقاليدهم الوطنية". بالرغم من لا معقولية المكان المختار، فقد كان ذلك انتصارًا لهرتزل: ها هو يرى اعتراف قوة العالم العظمى فى ذلك الوقت بشرعية مطالبه الوطنية.

فى نفس العام، تمكن بنك الائتمان اليهودى من افتتاح فرع صغير له فى لندن، الشركة الإنجليزية – الفلسطينية برأس مال قدره ٥٠٠٠٠ جنيه إسترلينى فقط. أول بنك يهودى يعمل من أجل فلسطين: لم يكن أحد من بين المسئولين يدرى شيئًا وقتها عن المشروع الأوغندى.

فضيحة: فى عام ١٩٠٣، عرض هرتزل على ممثلى المؤتمر الصهيونى مشروعًا وطنيًا لليهود فى أوغندا. حل عاجل ومؤقت لليهود الروس، كما قال مدافعًا عن فكرته، اعتراف بالحق القومى، لا يقتضى التخلى عن الهدف الأسمى للصهيونية: فلسطين، مفاجأة مروعة، عاصفة! بدا اليهود الروس أشد المعارضين. دافع ماكس نوردو، واحد من أهم المقربين من هرتزل، مع بعض الآخرين عن مشروع صديقه. شبه انقسام. قرر التصويت الذى أجراه المؤتمر "٢٩٥ موافقة، ١٧٨ معارضة، ٩٨ امتناع عن التصويت" إرسال بعثة مراقبة واستطلاع صغيرة إلى أوغندا، حتى لا يستعدى بريطانيا، لكن دون الالتزام بأى شئ.

فى عام ١٩٠٤، اشترى KKL، الذى تم إنشاؤه منذ عامين، أوائل الملكيات الصهيونية – متواضعة للغاية – أراض فى يهودا وفى منطقة طبريا. مازلنا فى عام١٩٠٤، حيث رفض البابا لى التاسع مساندة الحركة الصهيونية، كان ذلك هو إحباط هرتزل الأخير، فقد مات فى الثالث من سبتمبر مستنزفًا عن أربعة وأربعين عامًا.

احتل حينذاك مكانه على رأس الحركة، الكاتب البريطانى إسرائيل زانجويل Israel Zangwill، مبتكر كلمة "الصهيونية". استبعد المسئولون الرئيسيون المشروع الأوغندى؛ وعادوا إلى الحديث عن فلسطين وحدها، على أساس شعار "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض". مع هذا، فإن البعض لم يتخل عن فكرة إقامة ملاجئ أخرى خارج الشرق الأوسط. بل إن زانجويل ذاته قد قال إنه كان سيقبل بأرض فى أى مكان كانت، حتى فى أوغندا، ومن أجل اليهود المعذبين فى روسيا. جاء ذكر كندا، أستراليا؛ أرسل بعض المندوبين إلى العراق، ليبيا، أنجولا. قام جاكوب شيف الذى ظل غير صهيونى باستمرار بتمويل إقامة ٩٣٠٠ يهودى روسى فى مدينة جالفستون Galveston فى ولاية تكساس Texas .

فى عام ١٩٠٥، استبعد المؤتمر السابع الذى انعقد من جديد فى بال بصفة نهائية، إقامة أى دولة مستقبلية خارج فلسطين أو فى جوارها المباشر. حينذاك استقال زانجوايل وأسس المنظمة الإقليمية، التى استعادت المشروع الأوغندى. مأزق: رفض نوردو أن يخلفه، كان دافيد ولفسون David Wolffsohn هو من ورث المنصب، تم نقل مكاتب الحركة الصهيونية من فيينا – التى رأى الكثير أن عمدتها كان معاديًا للسامية – إلى مدينة كولونيا Cologne، حيث تم الترحيب بهم. كنا قد انتظرنا موت هرتزل حتى نقوم بذلك، كان هناك ٨٥٠٠٠ ألف يهودى الآن فى فلسطين.

فى عام ١٩٠٧، عقد المؤتمر الثامن فى مدينة لاهاى، فى نفس وقت انعقاد المؤتمر الدولى من أجل السلام. أصبح حاييم وايزمان المتحدث الرسمى باسم الحركة الذى سبق الحديث عنه والذى كان مهندسًا كيميائيًا روسيًا حصل على الجنسية البريطانية.

تغلب رأى العمليين "البراجماتيين"، الذين يؤيدون فكرة أن اتساع حجم المستعمرات وحده سوف يسمح بالحصول على اعتراف القوى العظمى بالدولة الجديدة: افتتحت المنظمة الصهيونية أخيرًا مكتبًا للاتصال فى يافا، عين أرتور روبين Arthun Rupin على رأسه وكان أول مسئول صهيونى يأتى للعيش فى فلسطين. رجل إدارة من الطراز الأول، لكونه قد درس القانون والاقتصاد، كان روبين من أنصار قيام دولة مزدوجة القومية، يهودية وعربية. قام بإنشاء بعض القرى، حول بعض الطلاب إلى مزارعين، بعض المزارعين إلى مقاولين، ونظم دورات دراسية للتأهيل الزراعى فى بعض المزارع المتخصصة.

إثر اعتداءات روسية جديدة، وصل إلى فلسطين بحرًا، أول موجة من المهاجرين الروس. كانوا حوالى الخمسة آلاف، عدد قليل مقارنة بالخمسمائة ألف الذين توافدوا فى نفس الوقت على الولايات المتحدة. كان معظمهم من الشباب الذين يحملون الأفكار الاشتراكية مثلهم مثل من فضل البقاء إلى جانب لينين سواءً بسواء. من بينهم كان هناك دافيد بن جوريون David Ten Gourion ، موشيه شاريت Moshe Sharet ، يتزهاك بن تزفى Yitzahac Ben Zvi. ساهم القادمون الجدد فى إنشاء ثلاثين قرية بدلاً من الاستعانة بأجراء من العرب، أقاموا فى عام ١٩٠٧، منظمة للدفاع الذاتى بارجيورا Bar – Giora.

كانت أولويتهم هى إقامة حركة اشتراكية، وصل من أوديسا قائد صهيونى آخر للمشروع الوطنى، فلاديمير جابوتينسكى Fladimir Gabotinsky.

لكن مواردهم المالية كانت غير كافية على الإطلاق، تورط الرواد من بين الخمسة عشر ألفا من اليهود الروس الذين قد هبطوا إلى فلسطين، عاود النصف الرحيل مرة أخرى بعد عدة سنوات وذهبوا إلى أمريكا ملتحقين بالمليون يهودى الذين كانوا قد اتجهوا إليها مباشرة.

فى لندن اتهم مناحم أوسيشكين Menahem Oussickine، حاييم وايزمان، ناهوم سوكولوف Nahum Sokolov، وفى يافا اتهمت حركة العمال فى فلسطين رئيس المنظمة الصهيونية المقيم فى كولومبيا، وولفسون بترك الرواد لمصائرهم.

فى ذلك العام ١٩٠٧، أنشئت فى فلسطين الها – شومر هاتسير Ha- Shomer Hatsair منظمة يهودية للدفاع الذاتى، شهدنا فى يافا وفى أورشليم ظهور صحف عبرية، أحزاب سياسية، منظمات للعمال الزراعيين، شيدت أحياء جديدة فى أورشليم. تضم يافا الآن خمسمائة ألف نسمة منهم عشرة آلاف يهودى.

فى إسطنبول فتحت ثورة الشباب – الأتراك – التى يدعمها العديد من اليهود الأتراك باب الأمل أمام العرب وأمام يهود فلسطين. فى عام ١٩٠٩، تنحى السلطان عن الحكم، خلفه ابنه عبد الحميد الثالث، لكن دون سلطات أكثر من والده. تم الاعتراف بالمساواة فى الحقوق لجميع المواطنين ما عدا اليونانيين، الأرمن، اليهود.

فى أبريل ١٩٠٩، قام روبين Rupin رئيس المنظمة الصهيونية فى فلسطين بتجميع ستين أسرة يهودية فى رابطة، أهوزات بيت Ahouzat Bayit، اشترى أرضًا على الساحل بالقرب من يافا، تم توزيع الأنصبة بالاقتراع، سوف تسمى الضاحية تل أبيب Tel – Aviv. فى نفس العام أنشأ أول مستعمرة جماعية، كيبوتز "طائفة" أطلق عليها اسم دجانيا Degania، على ضفاف بحيرة طبرية، كانت قرية بلا سلطات، بلا ملكية خاصة، بلا مال، كان مُنظّر هذه المدينة الفاضلة هو أرون دافيد جوردون Aron David Gordon، مفكر اشتراكى ولد عام ١٨٥٦ فى روسيا، وصل إلى فلسطين عام ١٩٠٤. كان يرى أن العودة

إلى الطبيعة والاستغناء عن المال هما ما يسمحان وحدهما بتغيير مجريات حياة اليهود. قبل التمكن من بناء أمة بأكملها على هذه المبادئ، اقترح إنشاء طوائف – كيبوتزيم – تقوم على الملكية المشتركة للأرض وكل الثروات، المساواة المطلقة، التعليم الجماعى للأطفال والتخلى عن المال. تم تخطيط أغلب "الكيبوتزيم"، وفق نفس النمط، خزان للمياه، أكواخ للسكنى، أرض للحقول، قاعة للطعام، مكتبة، محل للبقالة، مغسلة، إسطبلات وحظائر للحيوانات. تقوم جميعة عامة بالتصويت على الميزانية وإقرار القبول بالأعضاء الجدد، ينتخب سكرتير يكون مسئولاً عن كل شيء ويكون فى نفس الوقت أمينًا للصندوق ومنسقا للعمل، تُطالب النساء بالقيام بنفس أعمال الرجال؛ لا يسمح بوجود أى عامل أجير من خارج الطائفة، يهودى أو غير يهودى. تعتمد تربية وتعليم الأطفال على الحياة الجماعية إلى أن يتلاقوا بالعالم الخارجى عند التحاقهم بالجامعة.

فى مؤتمر عام ١٩١١ – حيث عقدت أول جلسة باللغة العبرية – تم تحديد برنامج لإنشاء مستعمرات زراعية جماعية "كيبوتز" أخرى، قال الكثيرون إن "الكيبوتز" ليست سوى النموذج المصغر للدولة اليهودية القادمة التى لن يحتاج فيها إلى المال. أثار شلومو كابلانسكى **Shlomo Kaplen** مسألة العلاقات مع العرب مرة أخرى، حل أوتو فاربورج **Otto Warburg**، قريب بعيد لعائلة المصرفيين، محل دافيد وولفسون على رأس المنظمة اليهودية.

فى عام ١٩١٢، استردت اليونان سالونيك إثر حرب البلقان الأولى، وكان أكثر من نصف سكانها من اليهود ذوى الأصول الإسبانية. بدأت حملات الأهلّنة، التمييز العنصرى، محو الثقافة والديانة اليهودية.

فى عام ١٩١٣، انعقد المؤتمر الصهيونى الحادى عشر فى فيينا، المقر القديم للمنظمة، حيث تسود اليهودية الفكرية، تم مناقشة إنشاء جامعة عبرية فى أورشليم.

فى عام ١٩١٤، انتقلت "APOC" الشركة الأنجلو – فارسية – للزيت، التى أنشئت منذ خمس سنوات إلى إشراف البحرية البريطانية، التى قررت استخدام المازوت، فى تشغيل سفنها، بدأ البترول العراقى والإيرانى فى التدفق بغزارة.

إجمالاً، كان أربعون ألف يهودى قد هاجروا إلى فلسطين فى الفترة ما بين ١٩٠٤ و١٩١٤، أغلبهم من أصل روسى أو من النمسا - المجر. كان اليهود الأمريكان لا يزالون غير مكترثين بالحركة الصهيونية، وكانت المساعدة المالية للطوائف اليهودية فى باقى بلاد الشتات هزيلة لدرجة أن ثلاثة أرباع المهاجرين قد عاودوا الرحيل، خاصة صوب الولايات المتحدة. فى عام ١٩١٤، لم يكن قد بقى فى فلسطين إلا ثمانون ألف يهودى من أصل إجمالى عالمى قدره حوالى أحد عشر مليونًا ونصف المليون يهودى "أى حوالى ثلاثة أمثال عددهم فى مطلع القرن ١٩".

لقد تعرفنا على البيان المفصل لتوزيع الأحد عشر مليونًا ونصف المليون يهودى: الحقيقة أنه فى الفترة من ١٦ سبتمبر ١٩٠٩ إلى ٣ أكتوبر ١٩١٠ تم القيام بإحصاء - تقريبى بالتأكيد - لعدد اليهود فى العالم بمناسبة حلول العام ٥٦٧٠ اليهودى من خلال "كتاب العام اليهود الأمريكى"(٤٧). كان أكثر من نصف عدد اليهود يقيم فى أوروبا الشرقية، وكان ثمنهم يستقر فى الولايات المتحدة، كان أكثر من سبعين بالمئة منهم يعيشون فى ثلاثة بلدان: روسيا (٥٢١٥٨٠٠)، النمسا - المجر (٢٠٨٤٦٠٠)، الولايات المتحدة (١٧٧٧٢٠٠)، تركز الباقى الاساسى فى أوروبا (٢٠٪): ألمانيا (٦٠٧٩٠٠)، بريطانيا العظمى والإمبراطورية البريطانية (٣٨٠٨٠٠)، رومانيا (٢٥٠٠٠٠)، هولندا (١٦٠٠٠٠)، فرنسا (١٥٨٠٠٠) منهم فى الجزائر (٦٣٠٠٠)، إيطاليا (٥٢٠٠٠)، بلغاريا (٣٦٤٥٥)، الصرب (٥٥٠٠)، الدنمارك - السويد (٤٠٠٠)، إسبانيا (٢٥٠٠)، لوكسمبورج (١٢٠٠)، كريت (١٠٠٠)، النرويج (٦٤٢).

فى العالم الإسلامى لم يمثل اليهود إلا (٧٪) من مجموع أعدادهم: الإمبراطورية العثمانية (٤٦٤٠٠٠)، المغرب (١١٠٠٠٠)، تونس (٦٢٠٠٠)، إيران (٤٩٥٠٠)، مصر (٣٨٦٠٠)، ليبيا (١٨٦٠٠)، تركستان - أفغانستان (١٤٠٠٠)، الحبشة (٣٠٠٠).

لم تمثل أمريكا اللاتينية وآسيا إلا نصف فى المئة من مجموع عدد اليهود فى العالم: الأرجنتين (٣٠٠٠٠)، المكسيك (٩٠٠٠)، البرازيل (٣٠٠٠)، كوبا (٤٠٠٠)، سورينام (١١٥٨)، كوركاو (١٠٠٠)، بيرو (٥٠٠)، فنزويلا (٤١١)، كوستاريكا (٤٣)، عاش فى الصين واليابان (٢٠٠٠) فقط، كان معظمهم تقريبا يقيم فى شنغهاى.

إجمالاً: ١١٥٠٠٠٠٠ يهودى أكثر من ٩٠٪ منهم يقيم فى البلاد المسيحية. لم يؤت حتى على ذكر فلسطين فى بيان تعداد اليهود المقيمين فى بلدان الإمبراطورية العثمانية!

فى خلال قرن، كان هذا التوزيع الجغرافى قد تعدل إلى حد كبير، لم يعد اليهود مزارعين فى بولندا لكن عمالاً فى روسيا وفى أمريكا، من بين اليهود كان هناك بعض المخترعين الأفذاذ. لم يعد يندد بهم باعتبار أنهم كانوا السبب التلقائى فى كل مآسى العالم بصورة أو بأخرى فقط، وإنما باعتبارهم محتكرين، طماعين، مرابين، طفيلين بل وأيضا باعتبارهم المنظمين بوضوح وعن وعى للسيطرة على اقتصاد الكوكب.

٤ـ قانون العدد

نهاية الإمبراطوريات

فى الثالث من أغسطس ١٩١٤، عندما افتتحت السفينة الكريستوبال Cristobal بدء تشغيل قناة بنما، مرت الواقعة دون أن يشعر بها أحد: لقد اندلعت الحرب العالمية الأولى فى نفس اليوم. لم يكن اليهود، بأكثر من الآخرين، يمتلكون وسيلة لوقف سير تلك المأساة التى بدأت. حامت حولهم شبهة الخيانة من جانب الروس، البولنديين، الألمان، النمساويين، الإنجليز، الفرنسيين، متهمون على السواء بأنهم أشعلوا النزاع عن طريق بيع السلاح إلى كل الأطراف المتحاربة، بالإثراء من الحرب مع الدعوة إلى السلمية. سوف يذهب أحد المتخصصين فى تاريخ "الإمبريالية" – الاستعمار – الكاتب البريطانى أ. ر. هويسون O. R. Hobson حتى إلى كتابة أن "مؤسسة روتشيلد كانت تلعب فى فرنسا دورًا أكثر أهمية من دور أى حكومة أجنبية أخرى"(٢٠٢)، وأنه "ربما ما كانت الحرب الكبرى لتقوم لو أن روتشيلد كان قد عارض ذلك"(٢٠٢)...

ميتولوجيا ممقوتة! لم يلعب اليهود حقيقة أى دور خاص فى تمويل هذه الحرب.(٢٩٥) فى الواقع اليهود كانوا موجودين بالتأكيد فى كل المعسكرات المتحاربة لأنهم كانوا يدعمون، كما كان الحال دائمًا تقريبًا، البلاد التى كانوا من مواطنيها؛ بل إنهم كانوا فى

الأغلب وطنيين متحمسين لبلادهم. فى ألمانيا ذهب مائة ألف يهودى إلى الجبهة، بما فيهم يهود بولندا الذين تم تجنيدهم بعد تقدم قوات القيصر الألمانى نحو الشرق، تواجد آخرون فى الجيش النمساوى – المجرى. فى إنجلترا تم تجنيد خمسين ألف يهودى فى الجيش، منهم كتيبة من المهاجرين اليهود الروس، الكتيبة الملكية الثامنة والثلاثين للرماة. فى الإمبراطورية العثمانية استنفر جانب كبير من اليهود لصالح الحكومة المتحالفة مع ألمانيا.

فى روسيا أحصى أكثر من ثلاثمائة وخمسين ألف يهودى فى جيش القيصر، قاتل جايمس ابن ادموند روتشيلد فى الجيش البريطانى؛ خدم إريك Eric ابن ماكس فاربرج فى الجيش الألمانى؛ سوف يحارب جيمى Jimmy حفيد بول فاربورج فى الجيش الأمريكى بعد ذلك.

نفس الشىء بالنسبة للصناعة الحربية، أدار والتر راتينو Walther Rathenau سياسة توزيع المواد الأولية. فى فرنسا رأينا مهندسًا يهوديًا شابًا منحدرًا من عائلة أرثونكسية إلى جوار جورج مانديل GeorgesMandel الذى دخل وزارة كليمنصو Clemanceau، كان الشاب يدعى مارسيل بلوش Marcel Bloch الذى سيصبح مارسيل داسو Dassault فى المستقبل، ابتكر مروحة جديدة للطائرات ثم صنع طائرة ثورية ذات مقعدين فى عام ١٩١٧، أسماها SAE-4، استخدمها الجيش فى الحال؛ مهندس آخر، أندريه سيتروين Andre Citroen، الذى تخلى عن اختراعه السابق فى مجال التروس من أجل إنشاء مصانع للقذائف وإعادة تنظيم إدارة الذخائر ثم مصلحة البريد. فى بريطانيا العظمى كان هناك مهندس يهودى آخر، فضلاً عن كونه المتحدث الرسمى باسم الحركة الصهيونية، حاييم وايزمان الذى اكتشف طريقة جديدة لإنتاج الأسيتون، مذيب لا غنى عنه فى صناعة المتفجرات، وأصبح مديرا لمعامل البحرية البريطانية.

فى ألمانيا وضع عدد كبير من العلماء اليهود أنفسهم فى خدمة المجهود الحربى للرايخ.

كان كل المولين اليهود من الوطنيين أيضا: موّل ماكس فاربورج قروض حرب ألمانية، كما قام بتمويل الصناعات الحربية للقيصر، وقد كتب فى مذكراته الشخصية: "لم يكن

مستقبلنا المالى مرتبطًا أبدًا بمثل هذا الوثوق بمصير ألمانيا السياسى (....) من المحتمل ألا يكون هناك بنك ألمانى واحد قد ضمن من القروض المقدمة لصالح الإمبراطورية الألمانية بأكثر مما فعلنا، لقد ساهمنا فى تمويل الحرب، خاصة من خلال قيامنا بضمان بعض عمليات الشراء فى البلاد المحايدة"[١٨]. فى لندن، كانت الطائفة وكذلك البنوك اليهودية تؤيد حكومتها بكل قوة، كما كان الفرنسيون تمامًا، مثل آل روتشيلد أو هوراس فينالى **Hirsace Finaly** فى بنك باريس وهولندا.

اتفق اليهود الأمريكان مع كل من الآخرين على اعتبار أن البلد الوحيد الذى يجب محاربته هو روسيا القيصرية. أما الآخرون فكانوا منقسمين، البعض أعلن بوضوح مساندته لألمانيا، مثل أوتو كاهن **Otto Kahn**، الشريك الأساسى فى بنك كوهن لويب **Kuhn Loep**. وكذلك كاهن جاكوب شيف **Jacop Schiff** – الذى كان آنذاك فى الثامنة والستين من عمره – الذى كان أيضًا من المولين لألمانيا، لأنه كان يعتقد أن الإنجليز يمولون روسيا بشكل مباشر وغير مباشر، وكانت تلك أيضا هى حالة هنرى جولدمان. اختار آخرون مثل صامويل ساشس، المعسكر الفرنسى – الإنجليزى، وتوقفوا عن تمويل أى عمليات مع ألمانيا وحلفائها، قطع آل ساشس أى علاقات مع آل جولدمان، كان فليكس فاربورج مترددًا: كان أحد أشقائه مستشارًا للقيصر وآخر كان يدير بنك الولايات المتحدة الفيدرالى!

شيئًا فشيئًا انضم فليكس فاربورج وأوتو كاهن إلى جانب الحلفاء، بعكس شيف الذى عرض استقالته من بنك كوهن لويب، لكن طلبه قوبل بالرفض. سوف ينحاز الآخرون فى النهاية إلى موقف الحكومة الأمريكية وسوف يستنفرون لبيع سندات الحرب التى أصدرتها واشنطن. وهكذا سوف ينشئون على مستوى القارة شبكات هائلة للبيع، سوف تجد فى استثمار هذه السندات، مبتكرين بذلك تقنيات استخدمت بعد ذلك، بكثرة، لاستثمار أسهم الشركات الأمريكية.

فى عام ١٩١٤، انتخب فليكس فاربورج المعارض لهذه الحرب الناشبة بين الأشقاء، أمينًا لصندوق اللجنة الأمريكية اليهودية، التى تضم كل منظمات إغاثة يهود أوروبا فى أمريكا، فى أى جهة كانوا من خطوط النار، سوف تقوم إحدى الوكالات، لجنة التواصل، بإرسال الأموال الضرورية إلى الطوائف المتضررة من الحرب.

بينما كان الصراع يتعقد – وبريطانيا العظمى تراكم القروض لدى البنوك الأمريكية– فى الجزيرة العربية والعقيد لورانس يعد فيصل شريف مكة، بأن يجعله ملكًا على بلد عربى كبير يضم فلسطين، إذا ساعده فى التعجيل بانهيار الإمبراطورية العثمانية. وكذلك فى مايو ١٩١٦، بينما كان الجيش الفرنسى يواجه وحده الجيش الألمانى فى فردان Verdun، كان جورج بيكو George Picot فى لندن يوقع مع سايكس Sykes اتفاقا لتقسيم الشرق: اختصت باريس نفسها بمنطقة نفوذ صغيرة فى سوريا، فى لبنان، وفى منطقة الموصل، ستؤول العراق وإيران إلى البريطانيين، حيث توجد أغلب حقول البترول المعروفة. أما بالنسبة لفلسطين فسوف تظل خاضعة لقانون خاص، سوف يتقرر لاحقًا، لن يكشف لأحد عن الوعود التى قطعها لورانس لفيصل بشأنها، سيكون من المناسب دائمًا أن يقال لهم إنها يجب أن تظل عربية.

فى أبريل عام ١٩١٧، دخلت الولايات المتحدة الحرب أخيرًا متخوفة من سيطرة ألمانيا على المحيط الأطلنطى، ومتوجسة أيضًا من أن اختناق بريطانيا المترتب على ذلك ربما يمنعها من تسديد قروضها. فى ذلك الوقت، كان هناك آلاف اليهود بين الجنود الأمريكيين على الجبهة ومن بينهم جيم ابن بول فاربورج، الذى تطوع فى البحرية بعد أن أنهى دراسته فى هارفارد.

ابتعد شيف عن بنك كوهن لويب، الذى أصبح تحت إدارة أوتو كاهن ابتداءً من عام ١٩١٧، ألد أعداء ألمانيا، فقام بجمع الأموال من أجل بريطانيا العظمى وفرنسا وحث البلاد المحايدة على رفض إقراض برلين. يقال إن القيصر كان قد أعلن وقتها: "أن تصفية أوتو كاهن أهم من تصفية رئيس الولايات المتحدة أو الجنرال بيرشينج"(٥٤) طارد أسطول من الغواصات السفينة التى كان على متنها أثناء رحلته إلى أوروبا.

فى شهر يونية، كان الدور على ألمانيا فى عدم القدرة على مواجهة ديون الحرب. وبما أن أحدًا لم يوافق على قروض جديدة بفضل ضغوط أوتو كاهن، من بين آخرين، فإن القيصر قد توجه إلى البنك المركزى الذى اضطر إلى طبع مزيد من النقود؛ تضخم مستمر، انفجار. ألح ماكس على القيصر ليحاول إطلاق قروض طويلة الأجل لدى البلاد المحايدة

مقابل بعض التنازلات الإقليمية. استبعدت خطته. فى ٦ يوليو ١٩١٧. أمام البرلمان الألمانى، تكهن بفشل حرب الغواصات، وتنبأ بهزيمة ألمانيا بسبب انهيار الاقتصاد.

فى غضون ذلك الوقت، كانت القوات البريطانية بقيادة الجنرال اللنبى Allenby تتقدم نحو فلسطين بمساعدة العرب وبفضل مناورات لورانس، لم تكن الحركة الصهيونية ترغب فى السماح لحلفاء لندن العرب بالسيطرة على أورشليم. فى الرابع من يونيو، أعلن السكرتير العام للشئون الخارجية فى فرنسا، ردًا على خطاب من لورد روتشيلد، عن موافقته على إقامة "دولة يهودية" فى فلسطين. فى أغسطس، أسس حاييم وايزمان واللورد روتشيلد، مديرا المنظمة الصهيونية العالمية، لجنة أنجلو فلسطينية، التى قامت بسؤال الوزير البريطانى للشئون الخارجية، لورد بلفور Balfour عما ينوى القيام به فى فلسطين بعد الحرب، تلى إرسال هذه الرسالة مساومات شديدة من أجل الحصول على إجابة موافقة لأهداف الحركة قبل أن تدخل القوات البريطانية إلى فلسطين.

فى ٢ نوفمبر عام ١٩١٧، كتب لورد بلفور إلى لورد روتشيلد رئيس الرابطة الصهيونية البريطانية، الخطاب المنتظر منذ شهرين، والمرجو منذ عشرين عامًا، الذى يحلم به اليهود منذ عشرين قرنًا، والذى اختيرت عباراته بدقة.

عزيزى لورد روتشيلد

من دواعى سرورى أن أتوجه إليكم باسم حكومة صاحب الجلالة، بالإعلان التالى بالتعاطف مع الأمانى الصهيونية، إعلان تم عرضه على مجلس الوزراء، الذى أقره.

إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين الرضا إلى إقامة وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين وإنها ستبذل كل جهودها لتيسير تحقيق هذا الهدف، على أن يكون مفهومًا بوضوح أنه لن يتخذ أى إجراء يمكن أن يمس لا بالحقوق المدنية والعقائدية للجماعات غير اليهودية الموجودة فى فلسطين ولا بالحقوق والوضع السياسى الذى يتمتع به اليهود فى أى بلد آخر. سوف أكون ممتنًا لكم إن تفضلتم بنقل هذا التصريح إلى علم المنظمة الصهيونية.

إذا كان اللورد روتشيلد هو من وجه إليه وحده هذا الخطاب، فذلك لأن حاييم وايزمان لم يكن قد شارك فى الإجراءات الأولى وفى تحرير المشروع الأولى للخطاب. وصلت هذه الرسالة فى موعدها تمامًا: بعد عدة أسابيع، استولى الجيش البريطانى بقيادة اللنبى على أورشليم منُهيًا أربعمائة عام من السيطرة التركية على المدينة. واقعيًا، كانت فلسطين قد وقعت تحت مظلة الحماية البريطانية. لم يكن يعيش فيها إلا ٥٦٠٠٠ ألف يهودى، ٦٠٠٠٠٠ ألف عربى "ربما فى ذلك شرق الأردن".

سرعان ما وافقت فرنسا وإيطاليا – حليفتا لندن فى الحرب – على إعلان بلفور حتى لا تتركا قضية الشرق تحت سيطرة بريطانيا وحدها.

فى السادس والعشرين من نوفمبر ١٩١٧، بعد أقل من شهر من استيلاء البلاشفة على السلطة طلبت روسيا اللينينية الهدنة.

فى ٣ مارس ١٩١٨، وقع الروس بزعامة تروتسكى معاهدة السلام فى بريست – ليتوفسك Brest – Litovsk، مقدمين تنازلات إقليمية واسعة. اعتقدت المملكة الألمانية حينها أنها المستفيدة من فترة الراحة هذه، بل توقعت نصرًا مرتقبًا، حقيقة الأمر أنها كانت قد دخلت مرحلة عدم القدرة على التمييز.

فى شهر أبريل، استقبل أوتو كاهن فى فرنسا استقبال الأبطال بعد أن قام باسم المصرفيين بتنظيم المقاطعة التمويلية لألمانيا، تناول العشاء مع كليمنصو الذى وصفه بـ "أعظم الأمريكيين الأحياء"، قام بزيارة الجبهة وأبلغ الحلفاء أنه قد علم – من خلال حديثه مع الفونس الثالث عشر ملك إسبانيا غير المتحفظ الذى استقبله فى مدريد – أن ثورة شيوعية وشيكة تهدد بالوقوع فى ألمانيا(٥٤)، كان النبأ مهمًا: ربما يتحقق النصر فى الخطوط الخلفية قبل أن تكون على الجبهة.

فى شهر يونية ١٩١٨، عند تجديد ولايته، عرض بول فاربورج على الرئيس ويلسون أن يترك منصب نائب رئيس البنك الفيدرالى حتى لا يتركه بعد دخول الولايات المتحدة

الحرب بين أيدى مواطن ألمانى سابقًا(١٨). لدهشته الشديدة، قبلت هذه الاستقالة. شاعرًا بالمرارة، عاد إلى بنك كوهن لويب. فى ذلك الوقت كتبت صحيفة "نيويورك تايمز" أن: "ما من أحد سواه، مع تواضعه، كان ليستطيع أن يطمح فى لقب مؤسس نظام الاحتياط الفيدرالى"(١٨). فى شهر أغسطس ١٩١٨، بعد سبعة شهور من التردد، اعترف الرئيس ويلسون بموافقته على وعد بلفور.

فى برلين تسارعت نذر الهزيمة، التى كانت حينذاك سياسية أكثر منها عسكرية. فى مطلع شهر أكتوبر استدعى القيصر الأمير ماكس دو باد **Max De Bade** إلى المستشارية وعرض على ماكس فاربورج منصب وزير المالية، رفض الأخير: فى العائلة لا يدخل أحد إلى الوزارة.

فى الخامس من نوفمبر استولت لجنة ثورية على السلطة فى هامبورج؛ كانت منزلة ماكس فاربرج كبيرة لدرجة أن هذه اللجنة بعد أن أخذته رهينة وضغطت عليه حتى يخبرها أين توجد أموال المدينة، قد قامت بحماية أسرته، دعته لتناول الغذاء واستمعت إلى نصائحه(١٨). تنازل جيوم الثانى عن العرش وسافر منفيًا إلى هولندا. رأينا ألبرت بالين **Albert Ballin**، الصديق اليهودى للقيصر، ولماكس، مؤسس خط هامبورج الأمريكى الملاحى، أحد أكبر رجال الصناعة الألمانى، ينتحر حزنًا أمام هزيمة بلاده.

أصبحت الولايات المتحدة من الآن فصاعدًا أعظم قوة فى العالم. أول منتج للقمح، للفحم، للصلب، تمتلك نصف الذهب الموجود على الكوكب، الدولار هو العملة الوحيدة التى لا تزال قابلة بحق للتحويل إلى ذهب، كان عهد الجنيه الإسترلينى قد انقضى زمنه.

طلب رئيس الحكومة الألمانية الجديد، فريدريك إيبرت **Friedrich Ebert**، من ماكس فاربورج أن يتولى إدارة البعثة المالية فى مفاوضات معاهدة السلام(٢٢٣). سيكون أخوه بول فاربورج عضوًا فى البعثة الأمريكية، فضلاً عن ذلك، سيكون هناك بعثة يهودية يترأسها برنارد باروخ **Bernard Baruch**، أحد رجال المال فى وول ستريت الذى صار شهيرًا لأنه كون ثروة كبيرة من العمل فى البورصة منذ ثلاثين عامًا خلت، والذى كان مستشارًا لكثير من رؤساء الولايات المتحدة منذ ذلك الوقت.

بدأت المناقشات فى ١٢ يناير١٩١٩، أثناء الأسبوع الدامى فى ألمانيا، فى قلب الإضراب العام. بعد قليل سوف يجرى اغتيال كارل ليبكنشت **Karl Liebknecht**، روزا لوكسمبرج **Rosa Luxemburg** من يهود بولندا.

عندما نوقش موضوع مستقبل الإمبراطورية العثمانية، أعلن حاييم وايزمان، عضو البعثة اليهودية أمام المؤتمر الذى يناقش مصير فلسطين: "نحن لا نطالب بحكومة يهودية، نحن نطالب أن تترسخ فى البلاد، فى ظل حكومة المنطقة، أوضاع محددة وإدارة تمكننا من إرسال مهاجرين إلى فلسطين، إننا نتطلع إلى إقامة مدارس ستدرس فيها اللغة العبرية ولسوف نقيم بالتدريج دولة ستكون يهودية بقدر ما تكون فرنسا فرنسية وبريطانيا العظمى بريطانية، فى الوقت الذى ستتشكل فيه هذه الأمة أغلبية السكان ستكون اللحظة قد حانت للمطالبة بحكومة هذا البلد"[٤٤].

وقع الأمير فيصل بن الشريف حسين، الواثق فى الوعد الإنجليزى، فى فرساى اتفاقًا مع وايزمان، الذى تحدث عن "تعاون بغرض تحقيق الألمانى الصهيونية". وافق على تنفيذ وعد بلفور مقابل الوعد بإقامة دولة عربية تضم المنطقة بأسرها، حصل باروخ على ضمانة بأن يمنح اليهود المقيمون فى كل البلاد الأوروبية حقوقهم المدنية والثقافية العقائدية وكذلك حق إشراف الصهاينة على فلسطين.

سلم الألمان بفقدان مستعمراتهم، بتحييد الضفة الغربية من نهر الراين، بالتنازل عن استثماراتهم فى الخارج، بالتنازل عن معظم قطع أسطولهم، وعلى سداد الـ ١٣٢ مليون مارك ذهبى قيمة "التعويضات" إلى الحلفاء، منها خمسة ملايين واجبة السداد قبل أول مايو ١٩٢١، مقابل تزويد ألمانيا بالمؤن الغذائية والمواد الأولية. تم تفكيك الإمبراطورية النمساوية – الهنغارية "المجرية" ظهرت إلى الوجود مجموعة من الدول: تشيكوسلوفاكيا، هنغاريا "المجر"، بولندا، دول البلطيق...

صار السبعة ملايين يهودى، عثمانى، روسى، نمساوى، مجرى منفصلين الآن، تفصل بينهم حدود سبع وعشرين دولة.

مولد الاتحاد السوفيتى

كان كارل ماركس قد توقع أن التخلص من الرأسمالية سيؤدى إلى زوال العداء للسامية. لم يحدث شيء من هذا عندما أقيم النظام الاشتراكى فى روسيا.

فى مارس ١٩١٧، أدى سقوط النظام القيصرى إلى هجرة بعض الأسر اليهودية، التى بقيت فى بيترسبورج Petersbourg بعد الأحداث الثورية التى وقعت عام ١٩٠٥، كان من بينهم البارون ألكسندر دو جانزبورج Alexandre De Gunzburg وزوجته شقيقة جورج فاربورج[١٨]. غير أن الجماهير اليهودية الواسعة شاركت بحماس فى إسقاط نظام الحكم الفردى. إذا كان هناك عدد قليل نسبيًا من اليهود فى صفوف الحزب البلشفى، فإننا نجد العديد منهم فى الهيئة العليا للحزب، أربعة على وجه الخصوص جريجورى فاسيايفتش رادوميلسكى Grigorie Evseievich Radomylsky الشهير بزينوفييف Zinoviev الذى أصبح أحد أقرب معاونى لينين، عين على رأس المؤتمر العالمى الثالث، ليف دافيدوفيتش برونشتين الملقب بليون تروتسكى Leon Trosky، أسس الجيش الأحمر مع كثير من الضباط اليهود، إيزاك ناهمان شتينبرج Isaac Nahman Steinberg، كاتب يابيشى. ينحدر من عائلة يهودية ليتوانية تقليدية، صاحب أطروحة دكتوراه فى القانون حول قانون العقوبات فى التلمود، عضو فى القسم البلشفى للحزب الاشتراكى الديمقراطى الروسى، ثم عضو فى الحزب البلشفى فى الثلاثين من عمره. أصبح مفوض الشعب لشئون العدالة، وأخيرًا مكسيم ليتفينوف Maxime Litvinov الذى ألقى القبض عليه فى لندن، ثم مبادلته بأحد القناصل البريطانيين، وصار مفوض الشعب المساعد للشئون الخارجية.

كان هناك آخرون منهم أقل شهرة، مثل سوكولنيكوف Sokolnikov مفوض الشعب للشئون المالية، أوسفردولف Sverdlov، الرئيس التنفيذى للسوفيتات (*)Soviets، كان الكثيرون حول تروتسكى يحلمون باشتراكية عالمية بـ "وحدة عالمية" لم تكن الثورة الروسية تمثل إلا المرحلة الأولى منها.

(*) Soviet : سوفيت ، مجلس مندوبى العمال والجنود بعد ثورة ١٩١٧ ، أو مجلس ممثلى الأمة ، ثم مجلس اتحاد الجمهوريات السوفيتية ، انهار هذا النظام بهدم جدار برلين ١٩٩١ ، وانهيار منظومة الدولة الاشتراكية.(المترجم - عاصم عبد ربه)

اعترف "إعلان حقوق الشعوب الروسية" أولاً بالحقوق الدينية والقومية لليهود. افتتحت معابد ومدارس يهودية، ظهرت مطبوعات باللغة العبرية أو باليايديشية، لكن مراسيم التطبيق أحاطت بهذه الحريات الجديدة بكل قسوة. منذ يناير ١٩١٨، كان الفصل بين الكنائس والدولة قد أدى إلى مصادرة ممتلكات مختلف رجال الكهنوت وإلى منع التعليم الديني، مسيحي أو يهودي.

يرى البلاشفة مثلهم مثل ماركس أن الديانة سوف تختفي بصورة طبيعية مع اختفاء الرأسمالية. ومن وجهة نظر لينين، لم يكن من الوارد تشجيع الإبقاء على الثقافة اليهودية "شعار الحاخامات والبورجوازيين أعدائنا"[٢٣٦]. بالنسبة لتروتسكي أيضا كانت اليهودية ستختفي بقيام النظام الاشتراكي.

في ربيع عام ١٩١٨، عندما امتدت الثورة البلشفية إلى أوكرانيا، اندلعت فيها حرب أهلية، كان على الجيش الأحمر أن يواجه في نفس الوقت حرب العصابات الأوكرانية في بتليورا Petlioura، القوات البيضاء في دينكين Denikine، وفارنجل Warngel، ضد الجيش البولندي في بيلسودسكي Pilsudski؛ تدخل بعض زعماء العصابات Les atamans في المعركة أيضًا. كان العدو الآخر الوحيد المشترك لكل هذه الجيوش المعادية للبلشفية هو هؤلاء اليهود الذين يقارب عددهم على المليونين، الذين يعيشون هناك؛ وفي مواجهتهم استعادت تلك الجيوش معا شعار "البوجرومز" القديم "اضرب اليهود لتنقذ روسيا".

تشكلت جماعات يهودية للدفاع الذاتي. عندما تغلب الجيش الأحمر على القوات البيضاء، قامت هذه القوات أثناء انسحابها بالقضاء على كل من قابلتهم من اليهود. حوالي ألفي "مذبحة" أسفرت عن أكثر من مائة ألف قتيل يهودي وتركت حوالي نصف مليون مشرد.

في نهاية الحرب، في نوفمبر ١٩١٨، استعادت بولندا وليتوانيا استقلالهما المفقود عام ١٧٩٥. غادر جزء من يهود بولندا حينذاك الإمبراطورية الروسية، لكن هذا كان لقاء تحركات سكانية مهمة:

استقبلت بولندا الجديدة ستمائة ألف يهودى قادمين من روسيا. عمليات بيع إجبارية، قتل، مجاعة...، بقى مليونان ونصف المليون من اليهود بصفة نهائية فى الفلك السوفيتى، تواجد مليون ونصف المليون آخرون فى بولندا متحررين ظاهريًا من الديكتاتور. بعد عشرين عامًا، سوف يظل على قيد الحياة جزء من يهود الاتحاد السوفيتى، أما كل يهود بولندا فسوف يختفون نهائيًا.

فى عام ١٩١٩، أعيد تشكيل "البوند Bund" البولندية وسط شعور بالنشوة، انضمت البوند الروسية إلى الحزب الشيوعى وشكلت "الفصائل اليهودية"(٢٢٦) "Les Yevsektsiya".

استمرت المعركة فى غرب روسيا، استولى البولنديون حلفاء الأوكرانيين بشكل مؤقت على مدينة كييف فى مايو ١٩٢٠، ثم تراجعوا أمام الجيش الأحمر. معركة على أبواب مدينة وارسو.

أوقف البولنديون الخيالة الروس بقيادة Toukhatchev Sky وتقدمها نحو برلين. مهددة بالضياع من جديد، قبلت بولندا بالهدنة التى تم توقيع اتفاقيتها فى Riga فى ١٢ أكتوبر ١٩٢٠: أما أوكرانيا التى كانت تأمل فى الحصول على استقلالها فقد ابتلعتها روسيا. اعتبر اليهود، الذين كانوا قد ظلوا فى روسيا والذين حاربوا مع البولنديين، خونة وعوملوا على هذا الأساس؛ ألقى القبض على مبعوثى الطوائف اليهودية القادمين من كل أنحاء روسيا لحضور أحد المؤتمرات الصهيونية وتم نفيهم إلى سيبريا.

تم حل المنظمات اليهودية المتهمة بأنها تمثل "فئة بورجوازية - كهنوتية" سعت السلطات للتمييز بين "طبقة البورجوازية" الذين أخطأوا برغبتهم فى البقاء على دياناتهم اليهودية، "طبقة العمال" الذين يقال إنهم حملوا على التخلى عن يهوديتهم.

طبقت نفس الإجراءات التى فرضت على الكنائس المسيحية: أغلقت معابد، مدارس، صودرت الكتب، أعيقت حركة جمعيات الإغاثة، ألقى القبض على بعض البورجوازيين

اليهود الذين ظلوا موجودين داخل البلاد بواسطة البوليس السياسى الـ Tcheka التابع لبيريا(*) Peria ، ودتزجيرينسى Dzerjinsky. لا يزال مسموحًا باستعمال لغة اليادیش، مسرحها، صحافتها، لكن بما أنه لا توجد عمليًا مدارس ثانوية ولا جامعات تستخدم هذه اللغة فإن عدد المتكلمين بها ظل يتناقص إلى أن اندثر، كان تعليم العبرية "لغة رجعية وكهنوتية" ممنوعًا هو الآخر.

خاطبت الحكومة السوفيتية آنذاك التجار اليهود، الذين أممت لتوها ١٩٢٠، متاجرهم: "إن السلطة السوفيتية فى نضالها الذى لا يلين ضد المضاربة وضد التجارة الحرة، قد وجهت عن غير قصد ضربة قاسية إلى جماهير اليهود، التى كانت مجبرة حتى الآن بسبب سياسة الحكم القيصرى على العيش معتمدة على التجارة البسيطة وعلى أعمال متواضعة ومؤقتة. لكنها بينما كانت تحرمكم من أعمالكم المُهينة وغير المجزية، فإنها تقدم لكم فى نفس الوقت الحق والفرصة فى الانخراط فى عمل شريف محترم ومنتج، بما فى ذلك الزراعة التى كانت ممنوعة عليكم تحت الحكم القيصرى؛ التحقوا بصفوف العمال وسوف تقوم السلطات السوفيتية بمساعدتكم"[٢٢٦]!

استمرت إجراءات القضاء على الديانة اليهودية فى روسيا، أغلقت منافذ الهجرة أمامهم، لم يعد من الوارد السماح لهم بالرحيل إلى أمريكا، كانت روسيا جحيمًا مفتوحًا وأصبح الاتحاد السوفيتى جحيمًا مغلقًا.

مع ذلك تمكن البعض من الهجرة، غادر مارتوف Martov روسيا؛ استقر فى برلين مع عائلة نابوكوف Nabpkov كممثل للمناشفة، سمح لبنحاس روتنبرج Pinhas Rutenberg حاكم بتروجراد Petrograd فى ظل حكم كرينسكى Kerensky، بعد سجنه ٦ شهور، بالهجرة إلى فلسطين حيث سوف يؤسس شركة الكهرباء ويدير أول تكوين لجنين الجيش اليهودى، كتيبة الهاجناه.

(*) Reria (١٨٩٩ - ١٩٥٣) سياسى سوفيتى ، كان رئيسا للأمن السوفيتى ورئيس جهاز البوليس السياسى فى عهد ستالين، ثم وزيرا للداخلية ورئيسا للبرلمان ، بعد حركة التصحيح فى صفوف الحزب والحكومة عام (١٩٣٧ - ١٩٣٨) .. المترجم (عاصم عبد ربه).

فى غرب أوروبا يتواصل التأكيد على أن اليهود هم من يقودون الثورة البلشفية فى بريطانيا العظمى، فى فرنسا، فى الولايات المتحدة يدور الحديث عن صلة بين "اليهودية العالمية" و"الثورة الروسية".

فى الثامن من فبراير ١٩٢٠، يكتب ونستون تشرشل Winston Churchill : "بالاستثناء الواضح عن لينين، فإن غالبية المسئولين الروس من اليهود. وأكثر من ذلك، فإن الفكر والإلهام والقوة تأتى من جانب القادة اليهود"(٢٢٦). ما يدعو للدهشة، أن خطابًا من أحد قراء جريدة "التايمز" اللندنية قد كشف فى ذلك الوقت عن شخصية كاتب الخدعة المسماة بروتوكولات حكماء صهيون، التى عثر عليها فى ملفات أرشيف الأوخرانا L;okhrana شرطة القيصر الروسى السرية، فى نفس الوقت ظهرت فى إسطنبول مخطوطة التحفة الأدبية الروسية الغامضة: رواية مع الكوكايين Roman Avec Cocaine .

فقد بعض قادة الثورة اليهودية حظوتهم(٢٢٦): فى عام ١٩٢٣، نجح إيزاك ناهمان شتينبرج Issac Nahman Steinberg المفوض الشعبى لشئون العدالة فى مغادرة موسكو. بعد استقراره فى نيويورك، سوف يكتب بعض الدراسات السياسية باللغة البادیشية، ينشر بعض المطبوعات اليهودية وسوف يصبح مديرًا لمعهد الدراسات اليهودية. أبعد ستالين (*) زينوفيف Zinoviev، بعد تورطه فى فضيحة تتعلق بإرسال خطاب إلى الحزب الشيوعى البريطانى، كما حدث ذلك أيضا مع تروتسكى. فى عام ١٩٢٥، كتب مراسل التايمز فى الاتحاد السوفيتى روبرت ويلتون Robert Wilton،(٤٤٨) معتقدًا أنه لا يزال يستطيع الكتابة، مدعومًا ببعض الأسماء، أن ثلاثة أرباع اللجنة المركزية للحزب الشيوعى كانوا من اليهود، مثل سبعة عشر وزيرًا من أصل ثلاثة وعشرين، وكذلك أربعين عضوًا من

(*) Staline جوزيف فيسار يونوفيتش ستالين (١٨٧٨ جورجيا – ١٩٥٣ موسكو) من أهم رجالات الثورة البلشفية وروسيا ثم الاتحاد السوفيتى، تعرض للنفى عدة مرات وقدم الكثير للحزب والدولة، أسس جريدة البرافد ١٩١٣ الناطقة بلسان الحزب الشيوعى السوفيتى، ضمه لينين مع تروتسكى إلى اللجنة المركزية للحزب، بعد الحرب الأهلية الروسية (١٩١٧ – ١٩١٩) أصبح السكرتير العام للحزب الشيوعى السوفيتى من عام ١٩٢٢ إلى ١٩٥٢، وزيرا للدفاع من ١٩٤١ إلى ١٩٤٦، ثانى رؤساء الاتحاد السوفيتى والمؤسس الحقيقى له الذى حوله من مجتمع زراعى إلى دولة صناعية وعسكرية كبرى.

المكتب السياسي من أصل ستين عضوًا، أمر لم يمكن التحقق منه، لم تثبت الأسماء شيئا ولم يقدم الكاتب أى دليل مقنع.

فى عام ١٩٢٤، لمساعدة اليهود على العيش بصورة أفضل فى الاتحاد السوفيتى الجديد - الذى لم يعترض اليهود على مشروعه - أنشأ فليكس فاربورج وجوليوس روزنوالد Julius Rosenwals "صاحب مؤسسة سيزارز ورويبوك Sears & Roebuck" النقابة الزراعية الأمريكية اليهودية المشتركة بمساعدة جون .د روكفلر الابن "الذى سوف يزعم المعادون للسامية أنه كان يهوديًا متخفيًا". كان طموحهم هو أن يجتمع فيها بالاتفاق مع السلطات السوفيتية مئات الآلاف من اليهود فى مائتين وخمس عشرة مستعمرة زراعية تمتد على مساحة قدرها مليونان ونصف المليون أكر. اشترت النقابة الأراضى، الماشية، الجرارات الزراعية، وقامت بتمويل أربعمائة مدرسة للتأهيل لممارسة المهن الحرفية "الطباعة، أعمال الخشب". فى عام ١٩٢٧، قام فيلكس فاربورج بزيارة أربعين من هذه المستعمرات الزراعية اليهودية، التى كانت اثنتان منهما تحملان اسمه، وتم استقباله بترحاب كبير لدرجة أنه امتدح النظام السوفيتى لدى عودته، "الذى قام بتحسين مستقبل اليهود الاقتصادى" دون أدنى إشارة إلى محو الثقافة اليهودية. فى نفس العام، عزمت الحكومة السوفيتية على إنشاء "منطقة يهودية ذاتية الحكم" البيروبيدجان Birobidjan، منطقة إستراتيجية على الحدود الصينية، قامت النقابة المشتركة بالمساهمة فى تمويل إقامة المستعمرات الأولى فى عام ١٩٢٨. قضت المجاعة على ملايين المزارعين اليهود، الروس والأوكرانيين.

فى عام ١٩٣٠، تم حل الفصائل اليهودية فى الحزب وتعرض قادتها للترحيل أو الإعدام بعد أن اتهمهم ستالين بأنهم يمثلون "فئات قومية". كنقش على شواهد القبور، قال ستالين: "إن اليهود ليسوا أمة إلا على الورق فقط، الصهيونية حركة بورجوازية رجعية، وإن اليادیش رطانة غير مفهومة تخصهم وحدهم". لا يزال لازار كاجانوفيتش Lazare Jaganovitch وبعض اليهود الآخرين يحتلون أعلى المناصب فى البلاد؛ ومازال ليف إيفيموفيتش مرياجين Lef Efmovitch Meriajine رئيسًا للبنك المركزى.

مصير يهودى متميز: أرماند هامر **Armand Hammer**، المولود فى نيويورك عام ١٨٩٨، لأبوين من اليهود المهاجرين – القادمين من روسيا، وفقًا لتقاليد العائلة نزوحًا من أورشليم –، أحد أحفاد يهودا مكابى **Judas Maccabee**، المدعو أيضًا يهودا المطرقة "إلا إذا كانت كلمتا ذراع **Arm** ومطرقة **Hammer** قد اختيرت عمدًا لأن الذراع والمطرقة كانا رمزىّ الحزب الاشتراكى الديمقراطى الروسى؟..." . لعل والده قد استلهم اسمه الأول من أسماء أبطال رواية غادة الكاميليا. فى عام ١٩١٧ تولى إدارة معمل المستحضرات الصيدلانية المملوك لأسرته، أثناء دراسته للطب، أصبح واحدًا من أهم منتجى الزنجبيل فى العالم، جمع ثروة طائلة، أنهى دراسة الطب عام ١٩٢١ فى كولومبيا، قدم خدماته كطبيب فى روسيا التى اجتاحتها المجاعة، حيث اكتشف هناك أنواعًا ثمينة من الفراء قام بمبادلتها لقاء القمح الأمريكى. أحس أنه بذلك قد صار أكثر نفعًا منه كطبيب وأصبح أحد سادة التجارة بين الشرق والغرب، موفقًا بين صداقته مع لينين وبين انتمائه الكامل للنظام الرأسمالى. استغل مناجم الأميانت فى الاتحاد السوفيتى، واستورد منه السيارات والجرارات واشترى عددًا لا يحصى من الأعمال الفنية الروسية من الدولة مقابل المنتجات الصناعية. غادر الاتحاد السوفيتى عام ١٩٣١، وتقاعد عن الأعمال إلى أن وجد نفسه مالكًا لإحدى شركات البترول الصغيرة وجعل منها واحدة من كبريات شركات البترول "الغربية للبترول" التى قامت باكتشاف وتطوير استخراج البترول الليبى، من بين أماكن أخرى.

فى عام ١٩٢٨ أعلنت البيروبيدجان "إقليم يهودى مستقل"، بالرغم من أن اليهود لم يمثلوا إلا خُمس عدد السكان. فى إطار شيوع ملكية الأراضى، نزعت السلطات السوفيتية ملكية المستعمرات الغنية التابعة للنقابة المشتركة وتم إلحاقها بالمزارع السوفيتية المجاورة وأجبر سكانها اليهود على الاختلاط بالمزارعين الروس.

منذ ذلك الوقت، توزع ٤٠٪ من اليهود السوفيت فى ست مدن، أصبح مئات الآلاف منهم عمالاً، زاد عدد الزيجات المختلطة، بالرغم من القهر وبينما لم يمثل اليهود إلا ٢٪ من تعداد السكان فقد مثلوا مع ذلك ١٥٪ من عدد الطلاب.

ابتداء من عام ١٩٣٠، تولى مكسيم ليتفينوف **Maxim Litvinov**، الذى كان حتى ذلك الوقت نائبًا لتشيتشرين **Tchitcherine** إدارة الشئون السياسية الخارجية للاتحاد السوفيتي. فى عام ١٩٣٣، تمكن من الحصول على اعتراف الولايات المتحدة بالاتحاد السوفيتي، جعل من نفسه مدافعًا عن فكرة التحالف معهم ضد النازى، قبل أن يقال من مناصبه.

فى مايو ١٩٣٩، بعد توقيع اتفاقية عدم الاعتداء الألمانية – السوفيتية، حل محل مولوتوف **Molotov** وأصبح سفيرًا فى الولايات المتحدة حتى عام ١٩٤٣. توفى عام ١٩٥١.

عندما اندلعت الحرب أدى ضم شرق بولندا ودول البلطيق إلى إضافة مليونى يهودى بولندى إلى الثلاثة ملايين المتواجدين فى روسيا.

٥- الجديد، الأزمة، القديم

فايمار **Weimar**، وول ستريت **Wall Street**

لاحظ هاناه أرنت **Hannah Arendt**، أنه فى الوقت الذى يفقد فيه اليهود دورهم ونفوذهم عندما يندمجون ويتأملون ويتشبهون بالمجتمعات التى يعيشون فيها تزداد حدة العداء للسامية ويصبحون أكثر عرضة للأخطار[١٤]. هذا ما حدث فعلا بعد الحرب الكبرى، وما تكرر كثيرًا عبر القرون السابقة.

فى النمسا، لم تظهر معاداة السامية بصورتها الأكثر حدة فى عهد مترنيخ وفرانسو جوزيف، وإنما فى ظل حكم جمهورية ١٩٢٠. فى فرنسا لم يكن فى عهد الإمبراطورية الثانية، الفترة التى كان فيها اليهود الفرنسيون فى أوج نفوذهم المالى، أن وقعت أبشع الاعتداءات ضدهم، ولكن خلال الحرب العالمية الأولى عندما كانوا أقل تواجدًا فى المناصب المهمة[١٤]. فى ألمانيا غداة كارثة ١٩١٨، كان اليهود مندمجين تمامًا، متماثلين مع ثقافة البلاد التى يمثلون أقل من ١٪ من تعداد سكانها (٤٦٠٠٠٠ نسمة) لم يلبث اليهود أن كانوا عرضة لاعتداءات غاشمة بل وحتى وصل الحال إلى اغتيال أقوى شخصياتهم.

قام أهم مصرفى فى البلاد، ماكس فاربورج، بتمويل شراء سفن جديدة (للخط الملاحى، الذى أنقذه من الإفلاس، بعد موت بالين Ballin[١٨]. للالتفاف حول ما فرضته معاهدة فرساى Versailles على ألمانيا وتفادى مصادرة فروع زايس Zeiss وكروب Krupp فى الخارج، قام فاربورج بتمويل هذه الفروع فى صورة مؤسسات بريطانية وهولندية، عبر شراء هذه المؤسسات بواسطة فرعين لبنك م. م. فاربورج تم افتتاحهما فى لندن وفى أمستردام[١٨].

تفاوض والتر راتنو Walther Rathenau، الذى أصبح وزيرًا للتعمير بشأن اتفاقية رابلو Rapallo مع تشيتشرين، بوصفه وزيرًا للشئون الخارجية. وضع كتاب "المجتمع الجديد" لينتقد فيه كل من الاشتراكية الشمولية والرأسمالية التى أفقدها التطور التقنى إنسانيتها، ولكى يقدم طريقًا ثالثًا سوف يمكن الدولة من خلاله التحكم فى الاقتصاد وسوف يدير فيه العمال المؤسسات. قام هوجوبريوس Hugo Preuss، رجل قانون يهودى، بصياغة دستور فايمار، قاد كيرت إسنر Kurt Eisner الحكومة الثورية البافارية، على رأس فريق كان أغلب وزرائه من اليهود.

تفجرت مشاعر العداء للسامية، افتتح موسم اصطياد اليهود فى ربيع ١٩٢١، اغتيل كيرت إسينر والعديد من وزرائه اليهود وهوجو بريوس أيضا. فى ٢٤ يونيو ١٩٢٢، حل الدور على والتر راتنو الذى كان حينها وزيرًا للخارجية والذى اغتاله اثنان من الوطنيين المعادين للسامية، الأعضاء فى منظمة سرية "منظمة كونسول Consul" اتهموا الجميع بأنهم لم يتمكنوا من إلغاء العقوبات المفروضة على ألمانيا، أفلست كل البنوك الألمانية تقريبًا، لم يصمد بنك م. م. فاربورج إلا بفضل قرض من بنك كوهن لويب.

فى نهاية سبتمبر ١٩٢٣، قام بول وماكس فاربورج مع بنك الشمال الألمانى orddeutsche Bank وبنك دريسدنر Dresdner Bank بإنشاء بنك هامبورج الذى أصدر عملاته المضمونة بالذهب والتى يمكن استبدالها بالدولار عبر وساطة بنك م. م. فاربورج، هنا أيضا جاءت الأموال من بنك كوهن لويب، أدى هذا أولاً إلى إنقاذ بنك م. م. فاربورج، ثم هامبورج، كما حدث منذ ستة وستين عامًا مضت. استعاد هجالمار شاشت Hjalmar Schacht

الموجود منذ عامين ببنك الرايخ، الفكرة ذاتها لحسابه الخاص، واقترح على رئيس المجلس جوستاف شتريزمان **Gustav Stresemann** إيجاد عملة جديدة لألمانيا كلها، الرينتن مارك، المضمون برهن على مجموع أصول الاقتصاد الألماني، مع مؤسسة إصدار جديدة، بنك الرنتن. نجاح هائل: مكنت بنوك فاربورج جمهورية فايمار من الرسوخ والاستقرار.

فى صيف عام ١٩٢٥، أثناء مأدبة غداء لدى شاشت، تقابل ماكس فاربورج مع المارشال هيندنبرج **HindenBurg**، الذى انتخب لتوه رئيسًا للجمهورية بعد موت إيبرت **Ebert**، فى ٢٨ فبراير ١٩٢٥. أرسل إلى موسكو على رأس اتحاد لأصحاب المصارف ليفتح ائتمانًا اقتصاديًا لدى السوفيت، هناك قابل أخاه فليكس الذى ذهب إلى هناك وقتها ليزور مستعمراته الزراعية.

فى ذلك العام وبسبب البطالة التى تفشت فى أمريكا حددت بعض الحصص وصول مهاجرى أوروبا الشرقية، توقفت حركة الهجرة الواسعة فى الوقت الذى صارت فيه ضرورية للغاية.

فقد اليهود حينذاك معظم المناصب المهمة التى شغلوها منذ أكثر من مائة عام، فى البنوك ومراكز الصناعة الألمانية، باستثناء البنك الألمانى الذى يديره أوسكار فاسيرمان **Oscar Wassermann**، وبنك دارمشتاتر **Darmtadter** الذى يملكه جاكوب جولد شمايت **Gacop Goldschmidt**. كانت الطائفة اليهودية الألمانية مندمجة تمامًا فى مجتمعها، تضاعفت الزيجات المختلطة. كان تأقلمها سريعًا للغاية لدرجة أن الإحصائيات فى تلك الفترة توقعت اختفاءها بحلول عام ١٩٥٠.

فى وسط هذا الركود كان هناك بعض الاستثناءات. فى بريطانيا العظمى، آل روتشيلد[٢٨٦] الذين ظل بنكهم هو المسيطر؛ فى فرنسا، تولى هوراس فينالى **Horace Finaly** رئاسة بنك باريس وهولندا وجعل منه بنكًا عظيم الأهمية. يقوم مارسيل بلوش **Marccel Bloch** الآن بتصنيع السيارات والقاذفات المقاتلة ضعيفة الكفاءة، بسبب نوعية المحركات الفرنسية المتواضعة القوة. شيد أندريه ستروين عام ١٩١٩، أول مصنع أوروبى لإنتاج السيارات بالتسلسل؛ ابتدع نظم التسويق والدعاية – إلى أن أصابه جنون العظمة: قام

بإضاءة برج إيفل بواسطة ٢٥٠٠٠٠ ألف مصباح كهربائي شكلت حروف اسمه! شخصية يهودية عظيمة ساعد في تطوير آلـ O.R.T في فرنسا، مؤسسة اجتماعية مخصصة لتأهيل الشباب اليهودي للعمل الصناعي، قليل الاهتمام بالمال، مولع بالقمار والنساء، أفلس في عام ١٩٣٤، اضطر إلى التنازل عن مؤسسته إلى ميشلانMichlan، دائنه الأساسي بعد أن أطلق "السيارة الصغيرة" ذات الدافع الأمامي قبل موته ببضع شهور في عام ١٩٣٥.

في الولايات المتحدة، يعيش أربعة أخماس اليهود الآن في نيويورك، شيكاغو، ولوس أنجلوس. إذا كان ربع الشعب اليهودي الأمريكي لا يزال ينتمي إلى الطبقة الكادحة، فإن المهاجرين ذوي الأصول الألمانية قد انتقلوا من صناعة النسيج إلى مجال البنوك، تاركين المهن الأخرى إلى المهاجرين الأحدث القادمين من بلاد أوروبا الشرقية، الذين سوف ينتقلون قريبا من فئة العمال إلى فئة المحامين أو من طبقة تجار الخردة إلى طبقة التجارة، ٦٠٪ يعملون الآن في التجارة، ١٧٪ في الأعمال الحرة "مقابل ٣٪ عام ١٩٠٠"، قليل جدًا لا يزالون عمالا. استخدمت كل وسائل الترقي الاجتماعي لتقدمهم، كان ستة وعشرون يهوديًا أمريكيًا من أبطال العالم في الملاكمة في فترة ما بين الحربين، أكثرهم شهرة كانا بارني روس **Barney Ross**، بيني ليونارد **Benny Leonard**. تحول وطفرة مدهشة.

في الصناعة لدينا مشوار حياة متميز: في عام ١٩٢٢، أسس لويس بلوشتين **Louis Blaustein** شركة رائدة في مجال البترول، شركة الزيت الأمريكية "الأماكو". وصل لويس من ليتوانيا عام ١٨٨٣. كان بائعًا جائلاً في البداية. ابتكر عام ١٩٠٠، خزانًا معزولاً تجره الخيول لبيع الكيروسين إلى محلات البقالة، ثم في عام ١٩١٠، البنزين، ونوع آخر من الوقت المتميز الذي أسماه الأموكو **L'amoco**. أنشأ بعض محطات الوقود، وفي عام ١٩٢٣، عندما تطور استعمال السيارات تنازل عن نصف شركة أموكو إلى شركة "بان أمريكان" حتى لا يعتمد بعد ذلك على شركة "أستاندرد أويل **Standard Oil**" التي تمده بالبترول، غير أن أستاندرد أويل قد اشترت بان أمريكان في عام ١٩٢٥، لم تستعيد أماكو استقلالها إلا بعد عدة سنوات عندما تفككت إمبراطورية روكفلر بتدخل سلطات مكافحة الاحتكار.

توارت أسماء العائلات الكبيرة. فى أبريل ١٩٢٠، مات جاكوب شيف، الذى لم يدرك شيئًا عن الحرب مخلفًا ثروة قدرت بين ٥٠ و ٢٠٠ مليون دولار أى أقل بكثير مما قام بتوزيعه على الأعمال الخيرية طوال حياته. خلفه ابنه مورتيمر **Mortimer** فى إدارة بنك كوهن لويب، الذى لا يزال يجتذب تسعة مليارات من الدولارات سنويًا، الثلثان لتمويل مشروعات السكك الحديدية والباقى موجه للصناعة ولبعض المصدرين الأجانب(١٨).

لا يزال كل مساهم فى البنك يربح كل عام ما يربو على المليون دولار، لم يعد أهم بنوك الأعمال فى البلاد، اتجهت البنوك اليهودية الأخرى إلى التوارى عن صدارة المشهد، اختفى بنك سليجمان، بنك ليهمان، وجوجنهايم فقد نفوذه، ما زال بنكا جلدمان شاشس وسالمون صامدين.

أصبحت الزيجات المختلطة أكثر شيوعًا. فى أوروبا، جعل منها آل روتشيلد قاعدة. فى الولايات المتحدة، غير كثير من آل سليجمان ديانتهم، أعلن أوتو كاهن الذى أصبح بسبب الحرب المصرفى الأكثر شهرة فى نيويورك أن "القديس بول **Saint Paul**، القديس فرانسو **Saint Francois**، والمسيح **Jesus** هم أهم ثلاث شخصيات فى التاريخ"(٥٤).

رفض ديلون **Dillon** "صاحب بنك ديلون ريد **Dillon Read**" الذى يسمى فى الحقيقة لابوفسكى **Lapowski**، رفض أن يعتبر يهوديًا. لم يعد فليكس فاربورج أحد أغنى أغنياء عصره من الأمريكان، يذهب إلى البنك، إنه لا يزال الرجل الذى ينحنى أمامه قائد الفرقة الموسيقية عندما يذهب إلى دار أوبرا العاصمة لكنه لم يعد غندور "فتى المدينة المُدلل" فترة ما قبل الحرب، مهمومًا بقضايا اليهود، متحليًا بنشاطه النضالى، ترأس بحماس لجنة التوزيع المشتركة ابتداء من ١٩١٤ التى تساعد المهاجرين اليهود، أنشأ لها فروعًا فى كل أنحاء العالم، ساهم فى تأسيس منظمة (**Appel**) اليهودية الأمريكية، التى تقوم بتنظيم جمع التبرعات لصالح لجنة التوزيع المشتركة.

لم يكن فليكس فاربرج صهيونيًا وظل كذلك، ولكن مصير اليهود فى كل أنحاء العالم كان يهمه كثيرًا؛ لم يؤيد شيئًا مما يجرى فى فلسطين – التى وفقًا لما يراه يحمل اليهود الروس إليها الشيوعية – ومع هذا فقد قام بتوزيع أكثر من ١٣ مليون دولار على الجمعيات الخيرية اليهودية(١٨) فى الخمسة عشر عامًا الأخيرة من حياته.

لم يعد بول فاربورج يأتى إلى مكتبه فى بنك كوهن لويب. فى بداية عام ١٩٢٩ حذر من "الفقاعة" المالية التى يراها تتشكل وتنبأ "بكساد عام فى كل أنحاء البلاد"[١٨]، لم يصغ إليه أحد مرة أخرى.

بحلول شهر أكتوبر، وقعت الأزمة فى فيينا، عن طريق بنك الائتمان. كانت كارثة لكل بلدان الشتات كما كانت بالنسبة لباقى بلدان الغرب، فى لندن ازدحم حى وايت شابل White Chapel من جديد بفقراء اليهود البؤساء.

فى باريس كانت احتياجات مهاجرى الشرق تتجاوز إمكانيات المساعدة التى تقدمها الطوائف اليهودية، فى ألمانيا تمكنت البنوك اليهودية بالكاد من الصمود، أثارت الأزمة مشاعر العداء للسامية. مر بنك جاوكوب جولد شميت "دار مشتاتير" وكذلك بنك م.م. فاربورج بأوقات عصيبة، سقط ثلث اليهود الألمان فى لجة البؤس. فى الثامن من ديسمبر عام ١٩٣١، فرضت الحكومة الألمانية "ضريبة الخروج" وطبقت على كل من يريد مغادرة البلاد، تساوى ربع القيمة الحالية لممتلكاته وقت الرحيل. فى كل مكان، فى أوروبا وفى الولايات المتحدة اتهمت البنوك اليهودية، بدون دليل، بالمسئولية عن حالة الركود. شيئًا فشيئًا صارت مشاعر معاداة السامية أكثر غضبًا ضد "طبقة أثرياء اليهود الحاكمة". من بين الأربعة ملايين ونصف المليون يهودى الموجودين على الأرض الأمريكية انقلب قرابة مليون شخص إلى حالة الفقر. بل إن بعض منظمات الإغاثة التابعة لبعض الطوائف اليهودية قد أفلست. للمرة الأولى فى أمريكا انحطت مكانة العديد من الأسر اليهودية فى السلم الاجتماعى. أحكمت أمريكا إغلاق أبوابها أكثر فأكثر ووجد مئات الألوف من اليهود الأوروبيين الباحثين عن ملجأ، الباب مغلقًا أمامهم الآن فى الولايات المتحدة.

كانت المصارف اليهودية الكبيرة العريقة تواجه خطر الزوال. جولدمان ساشس الذى أنشأ صندوقا للاستثمار فى عام ١٩٢٨ – بيعت نصف أسهمه إلى الجماهير، أصبح شبه مفلس. تمامًا كما كان الحال لبنوك كوهن لويب، بل وبعض البنوك البروتستانتية أيضا مثل بنوك مورجان، كايدر بيابوديز Kidder Peabobys، ولى هيجينسون Lee Higginson.

توفى مورتيمر شيف Mortimer Schiff فى أغسطس ١٩٣١، ولم يترك لابنه جون John وورثته الآخرين سوى ٧،٦ ملايين دولار من الأموال السائلة وبعض الأسهم فى ٨١ شركة. بلغت قيمة تلك الأسهم ٢٨،٧ مليون دولار، فى يوم وفاته، انخفضت بنسبة ٥٤٪ بسبب انهيار البروصة، فى الوقت الذى وزعت فيه على الورثة، لم يزد ما تركه مورتيمر آنذاك على عُشر ما تركه له والده منذ أحد عشر عامًا مضت.

أما بول فاربورج، الذى كان عليه أن يتنازل عن جزء كبير من ثروته حتى ينقذ ابنه جيمى Jummy من الإفلاس، فقد توفى فى ٢٤ يناير عام ١٩٣٢ إثر أزمة قلبية ولم يترك سوى ٢،٥ مليون دولار. عند موته، كتب الصحافى والترليبمان Walter Lippmann "لقد توقع الأسوأ وأعلن عن ذلك فى الوقت المناسب لقد كان أحد مهندسى أقوى ما يوجد فى بنكنا المركزى، وأصدق النُقاد لنقاط ضعفه".

فليكس Filix عن نفسه، كان لا يزال يمتلك ما يمكنه من الظهور كرجل كريم معطاء. فى عام ١٩٣١، أرسل إلى البنك الألمانى "دويتش بنك" الذى كان يرأسه آنذاك أوسكار فاسيرمان Oscar Wassermann ثلاثة ملايين دولار ليقوم بتحويلها إلى اليهود ضحايا هجمات البوجرومز فى جاليسى التى ضمت إلى بولندا.

فى عام ١٩٣٥، كان هناك شركة تمويل أمريكية يهودية واحدة فقط، بدت أنها قد خرجت سالمة من تلك الأزمة: الأخوة سالمون، أحدث الشركات التى أعادت إصدار السندات. فى عام ١٩٣٦، وفقا لمجلة الثروة Fortune كان هناك ٣٠ فقط من بين ٤٢٠ مديرًا لشركة نيويورك للمقاصة New Your Clearing House من اليهود، كما كان ٤٦ من بين ٢٥٢ عضوًا فى بورصة نيويورك New Your Stock Exchang.

مات جيف Jeff آخر أفراد عائلة سليجمان فى عام ١٩٣٧، دون أن يخلف وريثًا، ازدهرت المؤسسة بعد غياب مؤسسيها. لم يكن أبناء فليكس فاربورج أكثر شغفًا من أبيهم بعالم المال، استقر فردريك Frederick ابنه البكر فى مدينة ميدلبرج Middleburg فى ولاية فرجينيا، حيث امتلك محطة لتحسين نسل الخيول؛

نجح جيرالد gearld ، ابنه الثانى فى مهنته كعازف كمان وقائد فرقة موسيقية نجاحًا كبيرًا. عند تخرجه فى جامعة هارفارد، كتب جيمى ابن بول فاربورج تحت اسم مستعار نص كوميديا موسيقية لاقت نجاحًا كبيرًا Time and Dandy.(١٨)

فى عام ١٩٣٩، كان نصف يهود أمريكا يعملون بالتجارة ويمارس الربع أعمالاً حرة – قطاعان مواتيان للترقى الاجتماعى – جاء بمجلة الثروة "إن الطائفة اليهودية لم تحتكر الصناعة كما يقال غالبًا، حتى وإن كان بعض اليهود يهتمون بمجالات بعينها. لقد كان وسوف يكون هناك دائمًا بعض اليهود لشغل بعض المناصب الرفيعة فى البنوك وشركات التأمين"، وكانت تجارة المشروبات الكحولية "التى كانت تقليديا تجارة يهودية فى بولندا حيث لم يكونوا يشربونها" فى الولايات المتحدة بين أيدى اليهود غير الألمان "كانوا يمثلون فيها نصف مقطرى هذه المشروبات".

برز اسم صامويل برونكمان Samuel Bronfman من بين أفضل مقطرى الكحول هؤلاء. بعد بدايته فى مجال الفنادق مع والده، أقام فى كندا مشروعًا لإنتاج المشروبات الروحية، قاده إلى السيطرة على أحد أكبر شركات التقطير فى العالم "سيجرامز ليمتد Seagram's Ltd". ووفقًا لما يقول كاتب سيرة حياته "بينما كان مشروب الويسكى الأيرلندى يحتاج إلى اثنى عشرَ عامًا حتى يتعتق، لم يكن ذلك يتطلب من ويسكى سام برونكمان سوى يومين فقط"(٥٤). كان الكحول قد نال من المناطق الفقيرة فى المجتمع الأمريكى وتغلغل فيها وبالتالى أيضا فى المناطق اليهودية الأمريكية.

شيكاغو

بكل تأكيد لا يخلو أى مجتمع من المجرمين ولم تكن مجتمعات الشتات اليهودى فى ذلك أكثر اختلافًا عن غيرها، غير أن اليهود قد بذلوا ما فى وسعهم لتجنب العنف. كان هاجس الطوائف اليهودية الدائم هو العمل على تجنب فساد أخلاق أعضائها، وكانت الأخلاق العقائدية اليهودية تحميهم بأفضل من غيرها، من الوقوع فى الجريمة. لدرجة أن، كما رأينا منذ فجر التاريخ، أى طائفة كانت تعتبر نفسها مسئولة مسئولية جماعية عن كل

جريمة قتل تقترف فى جوارها، وكانت تحرم على نفسها قبول أى هبة أو عطاء ناتج عن سرقة أو جريمة.

كانت تعاقب بكل شدة أى غش – خاصة، كما رأينا ذلك أيضًا، تجاه غير اليهود.

بخلاف اتهامات بـ "جرائم طقوسية"، لم يوجد أى اتهام جاد بجريمة قتل نفذتها عصابة منظمة، قبل وصول اليهود الروس بكثافة إلى الأرض الأمريكية، نحو عام ١٩١٠، غير أن الشائعات كانت بلا حصر، مثل تلك التى تقول إن جاك السفاح الذى لم يقبض عليه أبدًا كان يختفى فى حى (وايت شابل White Chapel) أحد أحياء اليهود فى لندن.

لذلك فإن هؤلاء الذين سوف نأتى هنا على ذكر مسارات حياتهم، التى كانت بلا معالم، بلا بنية ترحب بهم، بلا تعليم، بلا أسرة، ولا طائفة، قد شكلوا مثل هذه الأدلة التى تتعارض مع متانة الأخلاقية اليهودية عندما يتم التمسك بها.

فى أمريكا الخارجة على القانون، يصبح كل شىء ممكنًا. ومن بين الثلاثة ملايين ونصف المليون يهودى أمريكى فى فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى، ظهر عدة مئات من المجرمين المنفردين، لكن داخل تلك الفئة وكما هى العادة لابد من إتقان كل شىء: إن اقتضى الحال أن نكون مجرمين، فالأولى أن نكون الأعظم وفقا لما جاء بـ "التقويم اليهودى The Jewich Almanach"، "ليس من المبالغة أن نقول إن نفوذهم على الجريمة المنظمة فى الولايات المتحدة فى العشرينيات والثلاثينيات يعادل بل يتجاوز نفوذ الإيطاليين". قبل عام ١٩١٤، هاجر ثلاثة ملايين من الإيطاليين ومعهم نفس العدد من اليهود القادمين من روسيا ومن المملكة النمساوية – المجرية، استقر الجميع أو تقريبًا كذلك فى نيويورك وفى شيكاغو، داخل العديد من الأحياء الخاصة "إيطاليا الصغيرة" أو أحياء شبيهة بحارات اليهود "الجيتو".

جلب الإيطاليون معهم أعراف وأخلاق عصابات "اليد السوداء" و "الكامورا"، انضم اليهم بعض اليهود – دون أن تكون لطوائفهم علاقة بذلك ودون أى ارتباط بينهم– وصاروا شركاءهم.

كان أرنولد روتشتاين Arnold Rothstein، الشهير بالمخ، أول زعيم يهودى للجريمة المنظمة فى نيويورك. نحو عام ١٩١٠، نظم روتشتاين، المراهنات، الفساد الرياضى والرشوة والتزوير فى نتائج مباريات البيسبول، سيطر على شرطة المدينة وضع خطط استيراد المشروبات الكحولية "المحظور استهلاكها ابتداء من عام ١٩١٩" من كندا أو من أوروبا، مع قيامه فى نفس الوقت بالتحكيم والحفاظ على النظام بين زعماء أقوياء لعصابات أخرى، من أمثال أرثر فلجنهايمر Srthur Flegenheimer "المسمى بشولتز الألمانى"، لويس بوشالتير Louis Buchalter الذى قتل أفراد عصابته شخصيًا بمساعدة معاونه الأول جاك دياموند Jack Diamond الشهير بـ لجز Legs.

اكتشف روتشتاين معاونًا شابًا، ابنا لعائلة من المهاجرين الروس، ولد عام ١٩٠٢، فى مدينة جروندو فى روسيا، مايرلانسكى MayerLansky. بدأ الفتى منذ عام ١٩١٦، أى بعد خمس سنوات من وصوله إلى أمريكا – بسرقة السيارات والمراهنة فى زوايا شوارع نيويورك، ثم انزلق إلى عالم الجرائم الكبرى، ولم تكن اليهودية بالنسبة له إلا صلة غامضة تربطه بذكرى والده ليس أكثر. فى أسرته يجرى الاحتفال بمولد المسيح (نويل Noel) وتجاهل كل الأعياد اليهودية، منظم من الطراز الأول، بلا أى وازع أخلاقى، كان يبدو كرجل عادى، تزوج، أنجب أطفالا، كان يتجنب الشهرة، تاركًا للآخرين مهمة القتل لحسابه، وإن تصادف أن قتل بنفسه(١١٠).

فى عام ١٩١٩، بينما كان يعمل لحساب روتشتاين مع صديق طفولته بجسى سيجل Bugsy Siegel– قاتل مريض نفسيًا – جاء إليه رجل إيطالى يسمى شارلى لوتشيانو Charlie Luciano وعرض عليه أن يقوم بحمايته مقابل مبلغ من المال، رفض ماير عرض لوتشيانو واقترح عليه بدلاً من ذلك أن يشاركه، قبل الإيطالى. تحالف مدهش، لم يكن من عادة رجال المافيا القبول بالتعامل إلا مع الإيطاليين الذين ينتمون إلى نفس الإقليم فى إيطاليا.

غير أن الروسى والصقلى قد تبادلا التقدير والإعجاب وكانا يتفاهمان بمجرد الإيماءة، بنصف الكلمة، فرضا السيطرة على المرابين وعلى سماسرة التأمين والمراهنات فى الأحياء

اليهودية فى الأحياء الإيطالية، اشتريا بعض المؤسسات من باريس إلى نيويورك وقاما بإنشاء نقابة "صناع الكتب" فى كل أنحاء البلاد مع التخطيط فى نفس الوقت لرشوة وإفساد رجال الشرطة والسياسيين.

الأمر الذى بدأه روتشتاين. لم يكن لا نسكى يعارض لوتشيانو إلا عندما أراد هذا الأخير الدخول فى مجال الدعارة، فيما عدا هذا كان اليهود الإيطاليون والأيرلنديون يفرضون القانون سويًا "قانونهم". وهكذا، فى عام ١٩٢٠، كان الأيرلنديون يسيطرون على شمال شيكاغو ويسيطر الإيطاليون على الجنوب وكان يدعم هؤلاء وهؤلاء مساعدون من اليهود. يتحايل الجميع لاختراق قوانين حظر الكحول على الساحل الشرقى، كان جيوزب ماسيريا **Giuseppe Masseria**، وسال مارانزانو **Sal Maranzano** يديران المافيا، وقد طلبا من لوتشيانو أن يتخلص من لانسكى، أن يستعيد منطقته وأن ينضم إليهما: قالا له إن الصقلى لا يعمل مع يهودى، رفض شارلى وابتعد عن الصراع القائم بين ماسيريا ومارنزانو للحصول على لقب رئيس الرؤساء **Capo Dei Tutticapi** .

لم يتدخل مكتب التحقيقات الفيدرالية **FBI**، لم يكن رجال العصابات يمثلون العدو الأول بالنسبة لإدجار هوفر **Edgar Hiiver**، رئيس المكتب منذ ١٩٢٤، ولكن الشيوعيين. لم تكن المافيا هى الأولوية.

فى سبتمبر ١٩٢٨ اغتيل أرنولد روتشتاين فى نيويورك، من المحتمل أن يكون ذلك بناءً على أمر من شولتز الألمانى، الذى يريد أن يأخذ مكانه. فى التاسع من مايو ١٩٢١، قام لانسكى ولوتشيانو فى أطلانتيك سيتى بدعوة كل زعماء الجريمة فى الغرب الأمريكى جوزيك **Guzik**، وكابون **Capone** من شيكاغو، بوشالتير من نيويورك، برنشتاين **Bernstein** من ديترويت، داليتز **Dalitz** من كليفلاند، هوف و روزن **Hoof et Rosen** من فيلادلفيا. لإيقاف عمليات الثأر. اقترحا إنشاء "النقابة" شكل من أشكال التعاونيات بلا رئيس لتقسيم مناطق السيطرة.

أسس لانسكى ما سوف يسمى "اتحاد القتلة **Murder Inc**" مجموعة من القتلة المأجورين يعملون تحت إمرته، وعهد بإدارته إلى سيجال وإلى بوشالتير. منذ ذلك الوقت أصبح لانسكى وشولتز أكبر زعماء الجريمة اليهود الأمريكيين.

بعد سقوط مارسايا فى ١٠ سبتمبر ١٩٣١، قام اثنان من رجال العصابات اليهود، بجسى سيجل "قاتل لانسكى المأجور" وبو فاينبرج Bo Weinberg "مساعد شولتز الألمانى" بناءً على أوامر لانسكى ولوتشيانو بتصفية المنتصر، رئيس الرؤساء الجديد مارانزانو فى مكتبه فى "اتحاد صقلية" وهكذا جعل لانسكى من شارلى لوتشيانو الذى أصبح اسمه لاكى Lucky زعيما للمافيا فى الشرق. بدوره قام لوتشيانو بمساعدة لانسكى فى التخلص من أحد أهم معارضيه، واكسى جوردون Waxey Gordon، الذى يقوم بالسيطرة على إنتاج الكحول فى فيلادلفيا، منذ مقتل روتشتاين ولإنجاز ذلك قام الصقلى ببساطة بإبلاغ مصلحة الضرائب ببعض المعلومات عن جوردون، الذى ألقى به فى السجن دون أن يعرف مطلقًا من قام بالوشاية به. أحيانا يكون إبعاد شخص ما، أقل وداعة، مثلما ساعد لانسكى ولوتشيانو حليفهما بوشالتير فى تصفية معاونه الخاص جاك دياموند "ليجز". ساعتها، أحكم الثلاثة السيطرة الكاملة على منطقتهم، ثم وضعوا نظم نقابة الجريمة فى الولايات المتحدة.

بالرغم من أن هوفر كان يصر على إنكار وجودها، فإن المافيا الإيطالية، التى أعادت الشرطة تسميتها بـ كوزا نوسترا حتى لا تعترف بخطأ مدير مكتب التحقيقات الفيدرالى — قد بدأت فى التفكك شيئًا فشيئًا.

ألقى القبض على آل كابون فى عام ١٩٣٢، بسبب التهرب الضريبى. أوقف لاكى لوتشيانو نفسه عام ١٩٣٥، مات شولتز الألمانى منافس لانسكى فى تلك السنة بين أيدى رجال الشرطة بعد تبادل إطلاق النار معهم متفوهًا بعبارات غامضة. قام لانسكى الذى كان ربما وراء تصفيته بالتخلص من عدوه الأخير، تشارلس كنج سالمون Charles King Salomon من بوسطن الذى كان يستورد معظم ما يدخل البلاد من الويسكى.

بعد إلغاء قانون حظر الخمور، اتجه لانسكى نحو القمار أولاً فى مدينة ساراتوجا Saratoga ثم فى نيو أورليانز وفى لاس فيجاس، حيث سيأمر بالتخلص من آخر قتلته المأجورين، بجسى سيجل، المتهم بعدم احترام مقايسات بناء أحد الفنادق[١٨٠].

بعد عدة سنوات سوف يحاول لانسكى اللجوء إلى إسرائيل، التى سوف ترفض أن يستفيد من قانون حق العودة، بسبب جرائمه: سوف يفقد حق أن يعترف به كيهودى. وسوف يموت فى ميامى. فى فراشه.

هوليوود

توافق تراجع نفوذ اليهود فى عالم المال مع ظهورهم المتوهج فى صناعات الاستعراض، بعد أن كانوا مع غيرهم فى أوروبا، السبب فى قيام صناعات الهاتف، الأسطوانة، السيارة، وسائل النقل الجوى، ها هم فى صناعة السينما[١٥٤]. ربما كان المسرح فى فيينا قد بشر بالفيلم فى هوليوود.

لم يكن اختراع التصوير السينمائى فى عام ١٨٩٤، يهوديًا. لم يكن لومير **Lumiere**، ولا ميلاس **Melies**، ولا باتيه **Bathe**، ولا جومون **Gaumont**، من اليهود. وتوماس أديسون **Thomas Edlson** مخترع الكاليدوسكوب فى عام ١٨٨٩، لم يكن كذلك أيضًا وأسس شركة إنتاج غاية فى الأهمية؛ أهم الاستوديوهات قبل عام ١٩١٤، "سليج **Selig**، فيتاجراف **Vitagraph**، بيوجراف **Plograph**، لوبين **Lupin**" لم تكن من ممتلكات اليهود. غير أن أهم المؤسسات السينمائية فى يومنا هذا تعود إليهم: يونيفرسال **Universal**، فوكس **Fox**، بارا مونت **Para Mount**، الأخوة وارنر **Warnar Bros**، أم. جى. م. **M.G.M**، آر. سى. ايه **R.C.A**، سى بى سى **C.B.C**، كلها من ابتكار مهاجرين يهود من أوروبا الشرقية[١٥٤].

كما كان الحال بالنسبة للبنوك، فإن رواد المستقبل هؤلاء لم يكونوا يعرفون بعضهم عند وصولهم إلى أمريكا، ولم تكن مشاوير صعودهم الاجتماعى بأى صورة نتيجة فعل منظم. فى الواقع، إن كثيرًا منهم لا يشعرون كثيرا بأنهم من اليهود. ومن هذا وعن غير إدراك، فقد أظهروا واستغلوا قدرات رواد، رأيناها من قبل تعبر عن نفسها وتبرز فى كثير من المناسبات، إليكم بعض المسيرات التى أدت إلى وجود سينما اليوم.

سينما اليوم: أدولف زوكور **Adolf Zuko**، وصل من المجر عام ١٨٩٠، عمل أولاً فى تجارة الفراء ثم اشترى بعض آلات **Nickeldones**، التى تعرض الرسوم المتحركة، وضعها

فى أقبية غير صحية لم يكن يهبط إليها إلا رجال الأوساط الشعبية ليشاهدوا تلك الأفلام لقاء خمسة سنتات والتى لم تكن تستمر دقيقة واحدة. وبسرعة جدًا أدرك ذكور أن للسينما روحًا وعبقرية خاصة؛ عند ظهور قاعات العرض عام ١٩٠٥، بدلاً من أن يناوب كما يفعل الآخرون بين العروض المسرحية والأفلام القصيرة، انطلق فى تجارة الأفلام الأطول من خلال عرض أول الأفلام التى يستغرق عرضها عشرة دقائق، فى العديد من قاعات العرض فى نفس الوقت، حدث ذلك ابتداءً من عام ١٩٠٧، وكان الفيلم بعنوان "سرقة القطار الكبرى" The Creat Train Robbery .

أصبح ذكور منتجًا بعد ذلك لأن المرء كما يقول يبيع بشكل أفضل ما يصنعه بنفسه وفى هذا كتب يقول: "إن مؤلفى الأفلام ينظرون تحت أقدامهم، إنهم يكتفون بالنوادر. بينما تحتاج السينما إلى الطموح الفنى(١٥٤)".

أثناء إحدى رحلاته إلى بافاريا عام ١٩٠٧، قام بتسجيل تصوير طويل جدًا لقصة "آلام المسيح" معادية للسامية إلى حد كبير، دون أن يزعجه ذلك ! حقق الفيلم نجاحًا كبيرًا فى نيويورك. بذلك ابتكر الأفلام الطويلة. عشية الحرب العالمية الأولى، اشترى حقوق الانتفاع بفيلم "الملكة إليزابيث" الذى لعبت بطولته سارة برنار Sarah Bernhardt، وفيلم تيس دابرفيل Tess D'ubervill، وفيلم الكونت دومونت كريستو Le Comte de Monte – Cristo .

فى عام ١٩١٦. استقر فى هوليوود. بالمشاركة مع جيس لاسكى Jess LAsky منتج مسرحى – كان المسرح فى شارع برودواى يهوديًا، كما كان المسرح فى فيينا، وكان غالبًا عامرًا بأهل فيينا – قام ذكور بإنشاء شركة بارامونت للأفلام ووضعها فى خدمة الدعاية للحرب.

كارل لاميل Carl ILaemmel، من مواليد مدينة لوفايم Laupheim فى مقاطعة فرتمبرج Wurtemberg، عمل صبيًا لدى أحد الخياطين ثم عاملاً زراعيًا، اكتشف آلات عرض الصور المتحركة فى شيكاغو فى بداية القرن. ابتداءً من عام ١٩٠٦، قام بتوزيع بعض الأفلام فى صالات عرض حقيقية مزودة بحوالى مائة مقعد، ممكن أن ترتادها السيدات بمفردهن

والعائلات أيضًا. قامت تلك الصالات بعرض أفلام وثائقية قصيرة – مشاهد من الحياة الأمريكية – ومسرحيات مختلطة. فى عام ١٩٠٩، دخل هو الآخر فى مجال الإنتاج، أقام فى نيويورك شركة أسماها الحركة الحرة Independent Motion وقام بتصوير ما رآه تعبيرًا عن إحدى قصائد الشاعر لونج فيلو Longfellow. غادر نيويورك فى عام ١٩٢٢، وأسس أول شركة إنتاج فى كاليفورنيا، استوديوهات نيفرسال Universal متخذًا فى نفس الوقت مساعدًا له، يهودى مجرى هو الآخر، ويلهليم فوشس Wilhelm Fuchs ابتكر "فكرة النجم" مع مارى بيكفورد Mary Pickford. سوف يستقر فوشس "الذى سيصير فوكس Fox" فى مدينة لونج إيلاند وسوف يؤسس فيها شركة فوكس القرن العشرين.

افتتح الإخوة وارنر Warner، ولد ثلاثة منهم فى بولندا وولد الرابع فى كندا، أول قاعة لعرض الرسوم المتحركة فى مدينة بيتسبرغ Pittsburgh فى بنسلفانيا عام ١٩٠٣، شرعوا فى تحسين نوعية قاعات العرض بالتدريج، فى عام ١٩١٢، قاموا بإنتاج أول أفلامهم فى نيويورك.

فى ١٩١٨، أنشأوا أول موقع تصوير خاص بهم "استوديو" فى هوليوود، وفى عام ١٩٢٣، أسسوا شركة الإخوة وارنر.

ماركوس لويو Marcus Loew، ولد عام ١٨٧٠، فى نيويورك لعائلة نمساوية. انتقل من تجارة الخردة إلى عالم الاستعراض تشكك طويلا فى مستقبل السينما معتقدًا أن المسرح سيحتل المرتبة الأولى دائمًا، ومع ذلك فقد شرع ابتداءً من عام ١٩٠٩ فى توزيع أفلام ذكور، وعشية الحرب العالمية الأولى أقام أول شبكة توزيع، ضمت حوالى مائة قاعة عرض حديثة، كان المشاهدون يرتادونها مع أسرهم. فى عام ١٩١٣، كان عشرة ملايين أمريكى يذهبون إلى قاعات السينما.

كان لويس ب. ماير Louis B. Mayer، فى مطلع شبابه تاجرًا للخردة، وكان يزعم أنه لا يعرف اسم المدينة التى ولد فيها – مدينة مينسك Minsk، ولا تاريخ ميلاده "اختار لنفسه عام ١٨٨٥ واختار يوم ٤ يوليو، العيد الوطنى للولايات المتحدة".

قام ماير ببناء قاعات عرض على أعلى مستوى، مبتدأ مدينة هافرفيل Havervill فى ولاية ماسا شوسيش، أسس شركة ألكو Alco التى أصبحت شركة ميترو Metro، التى أدمجها عام ١٩٢٠، مع شبكة قاعات عرض ماركوس لويو.

فى عام ١٩١٦ قام صامويل جولدفيش Samuel Goldfish بالاشتراك مع الإخوة سلوين Selwyn بإنشاء استوديو دولدوين Stodio Goldwyn الذى أصبح شركة جولدوين عام ١٩٢٠.

فى ذلك العام منع كارل لاميل رئيس شركة يونيفرسال على شركته الخاصة تقديم شخصيات يهودية بصورة كاريكاتورية، الأمر الذى لم يثر أيضا اهتمام الآخرين.

فى عام ١٩٢٤، اندمجت شركات مترو المملوكة للويو، شركة ماير، شركة جولدوين المملوكة لجولدفيش وسلوين فى شركة واحدة وأصبحت المؤسسة المشتركة تحمل اسم متروجولدون ماير Metro Goldwyn Mayer ثم م. ج. م. M.G.M التى يترجمها الكثيرون باللغة الياديشية – لغة شائعة جدًا فى هوليوود فى تلك الفترة – إلى معناه "كل عائلة ماير".

أصبح إيرفنج تالبرج Irving Thalberg، المولود فى بروكلين لعائلة يهودية غير ملتزمة من الراينلاند رئيسا للكيان الفنى M.G.M.

فى عام ١٩٢٦، أنتج الإخوة وارنر أول فيلم أمكن أن تكون الموسيقى متزامنة فيه مع الصور، فيلم دون جوان Don Juan.

ثم فى عام ١٩٢٧، أول فيلم ناطق "مغنى الجاز The Jazz Siner" قام بتمثيل الدور مطرب يهودى وروى فيه قصة حياته، ابن الحاخام موسيس يبولسون Mosesy Yoelson الذى وصل إلى واشنطن عام ١٨٩٠، إنها قصة جاكى رابينوفيتز يولسون Jackle Rabinowitz Yoelson المولود فى ليتوانيا والذى غير اسمه عام ١٨٩٩ إلى آل جولسون Al Jolson ثم سافر فى جولة مسرحية مع أخيه وقد طلى وجهه بالسواد.

حقق الفيلم نجاحًا باهرًا. تغير كل شيء لم يعد المشاهدون محتاجين لمعرفة القراءة بالإنجليزية . لكن للتحكم فى جودة الصوت، لم يعد التصوير يجرى إلا فى أماكن مغلقة "تصوير داخلى" وللنصوص الجيدة فقط، عادة ما كانت كوميديات مأخوذة عن مسارح برود واى، بممثلين يتقنون الإنجليزية تماما، وصورت أحيانًا بعض الأفلام باليادييشية فى نيويورك من أجل جمهور بروكلين وجمهور شيكاغو.

نحو عام ١٩٢٨ اشترى الإخوة وارنر المائتين وخمسين قاعة عرض وكذلك استوديوهات التصوير المملوكة لـ بوربانك Burbank ، تحسنت نوعية صالات العرض كما تحسنت نوعية الأفلام المعروضة أيضًا.

أوجدت الأزمة احتياجًا إلى مسرحيات كوميدية موسيقية. قام بعض الموسيقيين اليهود – من ضمن الآخرين – بسد تلك الحاجة، استلهم جورج جرشوين Georg Gershwin على سبيل المثال بعض هدهدات طفولته باللغة اليادييشية ليضع بعض ألحان الأوبرا التى ألفها للجنوب، بورجى وبيس Porgy and Bess .

باختصار، أسس ماركوس لويو شركة مترو، وكارل لاميل شركة يونيفرسال، أدولف نكور شركة بارامونت، ويليام فوشس شركة فوكس، لويس ب. ماير، صامويل جولد فيش، ماركوس لويو وايرفنج تالبرج الـ م.ج.م، جاك وارنر؛ شركة إخوان وارنر كل هذه الشركات ، بصورة أو بأخرى ، ما زالت موجودة إلى يومنا هذا.

لم يكشف أحد منهم فى أى من الأفلام التى قاموا بإنتاجها عن أصوله ، تلك التى بذلوا كل ما فى وسعهم للفكاك منها، لم يدخل أحد منهم فى السياسة. وحده لويس ب. ماير ، صديق و. ر هيرست W.R. Hearst ، كان مقربًا من الرئيس هوفر وأحد أهم ممولى الحزب الجمهورى.(٣٢)

فى عام ١٩٣٣ ، كان هناك ثلاثة وخمسون يهوديًا من بين الخمسة والثمانين منتجًا أمريكيًا، عندما وصل من ألمانيا الهتلرية بعض المخرجين اليهود "لوبيتش، كوكور، شترنبرج ، مانكيويكتز" .شهّر جوبلز Goebbels بهوليوود فى ذلك الوقت باعتبارها عاصمة اليهودية – دون أى رد فعل من وسائل الإعلام الأمريكية، ولا حتى المنتجين اليهود

أنفسهم . عندما انتقد سيسيل. ب. دوميل Cecil B. De Mille فى أحد المؤتمرات الصحفية. عام ١٩٣٧ «تجاوزات النفوذ اليهودى فى صناعة السينما»(١٥٤)، غادر جون فورد قاعة المؤتمر صافقًا الباب خلفه غير أن أحدًا من المنتجين لم يبد اعتراضًا. عندما دخلت الولايات المتحدة الحرب حاذر يهود هوليوود حتى من استخدام نفوذهم لإنتاج أفلام معادية للنازية. وكان الفيلم الوحيد الذى تحدث قبل الحرب عن الخطر الهتلرى هو فيلم العاصفة الأخلاقية «The Moral Storm» قد أشار فقط إلى «غير الآريين» ولم يشر إلى اليهود صراحة.(٣٢) فى عام ١٩٣٥، عندما سئل تالبرج Thalberg عن السلوك الواجب اتخاذه فى مواجهة هتلر قال هذه العبارة الرهيبة « سوف يموت كثير من اليهود، لكن اليهودية سوف تبقى بعد زوال النازية». (٣٢) ردًا على سؤال وجهه إليه أحد الصحافيين عام ١٩٣٦ مستفسرًا عن السبب فى أن أفلامه لم تتناول النازية مطلقًا جعل أدولف نكور – الذى ظل شقيقه حاخامًا فى برلين حتى عام ١٩٣٢ – إجابته أكثر قسوة :« إن هوليوود لا يجب أن تعتنى إلا بتسلية الناس والترفيه عنهم، الدفع بالسينما إلى أن تلعب دورًا سياسيًا سوف يكون خطأ من قبيل الدعاية»(١٥٤).

فى عام ١٩٤٠، كان شارلى شابلن Charlie Chaplin ، أول مخرج يهودى يقوم بإخراج فيلم مناهض للنازية، الديكاتور، من خلال شخصية الرجل شبه المتسول ، التائه المحتار المضطهد، كان شابلن بلا شك أكثر رجال السينما يهودية. لقد كان على أى حال الوحيد الذى وقف فى وجه هتلر، الذى كان يظنه مثله مثل روبرت براسيلاش Robert Brasillach يهوديًا، بينما لم يكن كذلك حتى وإن كان يحيط أصوله بالغموض وكان يطيب له فى كثير من الأحوال أن يقال إنه « يأمل أن يكون يهوديًا .. قليلاً »...

فى سبتمبر عام١٩٤١ ، قام تشارلس ليندبرج Charles Lindberg المعارض لدخول الولايات المتحدة الحرب والمؤيد للنازية بالتنديد باليهود مرة أخرى : «إن أكبر خطر يتهدد هذه الدولة هو ملكية وسيطرة اليهود على صناعة السينما»(١٥٤) لا الألمان ولا اليابانيون.

سوف نجد أيضا بعض اليهود فى صدارة من طوروا وسيلتى الاتصال الأخريين، الإذاعة والتليفزيون، هناك شخصيتان تمثلانهما فى هذين المجالين:

دافيد سارنوف David Sarnoff : ولد بالقرب من مدينة مينسك عام ١٨٩١، هاجر إلى نيويورك عام ١٩٠٥ ، بعد دراسة قصيرة فى إحدى المدارس التلمودية أصبح بائعًا للصحف فى الخامسة عشرة من عمره ، ثم عامل تلغراف لدى ماركونى . فى ١٤ أبريل ١٩١٢ كان سارنوف قد تلقى الرسائل الأخيرة التى بعثت بها "تيتانيك" ونقل إلى العالم أجمع أسماء الناجيين من ركابها. فى عام ١٩١٩ ، كان الرجل مديرًا تجاريًا فى R.C.A التى اندمجت مع ماركونى. فى عام ١٩٢١ ، واتته فكرة أن ينقل إلى الجماهير تعليقًا على مباراة بطولة الملاكمة كاربنتيه Carpentier وديمبسى Dempsey باستخدام جهاز إرسال تابع للبحرية.

هكذا ولدت الإذاعة – بقى تعميمها بين الناس. استثمرت شركة R.C.A ألفى دولار فى فكرة ستنوف ثم واتته بعد ذلك فكرة الجمع بين الراديو والفونغراف "مشغل الأسطوانات".

فى عام ١٩٢٦ أقام أول شبكة إذاعية بعدها أصبح رئيسا لشركة R.C.A فى عام ١٩٣٠، وفى عام ١٩٣٩ أطلق فكرة التليفزيون وأسس شركة N.B.C .

ويليام س. بالى William S. Paley ، ابن أحد المهاجرين الروس الذى أصبح مُصّنعًا للسيجار، درس بمدرسة وارتون Warton، اكتشف الراديو عام١٩٢٧ بمناسبة الدعاية التى قامت بها المؤسسة العائلية فى إحدى محطات الإذاعة الصغيرة فى فلادلفيا، والتى قام بشرائها عام ١٩٢٩. جعل منها محطة C.B.C ، أدخل بينج كروسبى Bing Crosby وفرانك سيناترا Frank Sinatra إلى الإذاعة. فى عام ١٩٣٩ أطلق C.B.C فى التليفزيون فى نفس الوقت الذى أنشأ فيه سارنوف شركته N.B.C . ظل رئيسًا لشركة C.B.C حتى بلغ التسعين عاما، فى عام ١٩٩٠ بعد أن أقال ثلاثة من... خلفائه !

فى أثناء ذلك الوقت من ١٩٢٤ إلى ١٩٣٨، تمكن مائة وخمسون ألفًا من اليهود ذوى الأصول الألمانية والنمساوية من الانتقال إلى الولايات المتحدة بالرغم من الحصص المحدودة المخصصة ليهود الرايخ من بينهم كان هناك ألبرت أينشتاين ، هاناه أرنت Hannah Arendt، هربرت ماركوس Herbert Marcuse، برنو بيتلهيم Bruno Bettelheim،

وأيضًا إدوارد تيلر Edward Teller الذى سوف يطلق المشروع النووى الأمريكى فى لوس الاموس Los Alamos ، تحت إشراف عالم فيزيائى يهودى من نيويورك، روبرت أوبنهايمر Robert Oppenheimer.

أورشليـم

عقب الحرب العالمية الأولى أصبحت أراضى الإمبراطورية العثمانية القديمة وبلاد فارس مناطق مواجهات بين القوى الغربية، لأن هاتين الدولتين كانتا تتحكمان آنذاك فى أهم احتياطات العالم من البترول. كان البريطانيون يدعمون السعودية والعراق ويؤكدون على استقلال الكويت التى تكونت عام ١٩١٥، تم التنازل عن النصيب الألمانى فى شركة البترول التركى التى تأسست عام ١٩١٢ بواسطة البنوك الألمانية للسيطرة على البترول العراقى، إلى فرنسا. فتات بالمقارنة مع الكعكة التى تتقاسمها فيما بينها الشركة الإنجليزية – الفارسية للزيت(APOC)، شركة شل La Shell والمجموعة المحلية الخاصة Gulbenkian .

فى الثالث من مارس ١٩١٩ ، تحدث الرئيس ويلسون Wilson عن «كومنولث يهودى Jewish Commonwelth». كانت المنظمة الصهيونية وبعض الأنصار غير الصهيونيين يشترون الأراضى فى منطقة أورشليم، وتل أبيب، وحيفا، وفى مناطق أخرى حتى فى الأماكن التى يصعب الوصول إليها، فى النقب ، شرق الأردن.

فى نفس العام تأسست نقابة الهيستادروت فى حيفا وسرعان ما كانت تضم أربعة آلاف عضو تحولت بسرعة إلى كيان اقتصادى واجتماعى متكتل «إن الهدف ، كما تقول نظمها الأساسية هو إشراك كل عمال فلسطين الذين يعيشون من عملهم دون استغلال أحد فى إقامة مستعمرات جديدة وفى كل المسائل الاقتصادية والثقافية المؤثرة فى قضايا العمل فى فلسطين». سوف تضم النقابة بعد قليل نصف عدد الأجراء العاملين فى البلاد. فى فلسطين – بما فيها شرق الأردن – عاش فى ذلك الوقت ٦٠٠٠٠٠ ألف عربى و ٦٠٠٠٠ ألف يهودى، عاود ٢٥٠٠٠ ألف مهاجر الرحيل تحت الضغوط التركية، غير أن إيلياء جديدة قد انطلقت، جاء بدلا منهم ٤٠٠٠٠ ألف مهاجر جديد.

فى عام ١٩٢٠، حرض العرب على أعمال شغب فى أورشليم، ثم فى يافا. كان روبين Rupin حتى ذلك الوقت من أنصار قيام دولة مزدوجة الجنسية يهودية / عربية، غير أنه انضم مؤخرًا إلى فكرة الدولة اليهودية المنفصلة. فى ١٩٢١ انعقد المؤتمر الصهيونى الأول فى فترة ما بعد الحرب فى مدينة كارلسباد karlsbad (كارلوفى فارى باللغة التشيكية Karlovy Vary)؛ الذى أصبح حاييم وايزمان رئيسه، نوقشت مشكلة عدم كفاية التبرعات التى تم جمعها من الطوائف اليهودية لصالح فلسطين وكذلك مشكلة الصعوبات التى يقابلونها من جانب العرب. انتهى المؤتمر إلى أن الصهيونية « تود أن تعيش علاقات انسجام واحترام مع الشعب العربى» وطلب من اللجنة التنفيذية للحركة التوصل إلى«تفاهم صريح وحقيقى مع الشعب العربى».

فى يوليو ١٩٢٢ ، عهدت عصبة الأمم رسميًا إلى بريطانيا العظمى بوضع فلسطين تحت حمايتها (تحت الانتداب) تمت الإشارة إلى وعد بلفور فى مقدمة هذا التكليف. قرار لاقى من بين موافقات أخرى، دعم الصين فى عهد صن يات سين Sun Yat Sen الذى كان مستشاره الأول أحد يهود شنغهاى، موريس كوهين Morris Kohen ، الذى صار جنرالاً صينيًا. فى هذه الأثناء كان هناك فى المقابل طبيب يهودى نمساوى جاكوب روزنفليد Jacob Rosenfeld الذى أصبح طبيبًا فى الجيش الشعبى المقبل الذى بناه ماوتسى تونج Maotsé-toung.

فى سبتمبر ١٩٢٢، أعطيت شرق الأردن، الجزء الشرقى من فلسطين ، إلى أحد أبناء الشريف حسين، الأمير عبدالله، وأقيمت بذلك دولة عازلة بين سوريا الواقعة تحت الانتداب الفرنسى وبين شبه الجزيرة العربية التى لا تزال واقعة تحت نفوذ آل سعود. سوف يكون علينا الانتظار ثلاث سنوات حتى تستعيد ولاية شرق الأردن مدينة العقبة على حساب السعوديين وليصير لها منفذ على البحر. لم تكن هناك أى هوية وطنية توحد بين سكان بقية فلسطين، القادمين من سوريا، من لبنان، ومن الجزيرة العربية ومن أماكن أخرى .

عُين هربرت صامويل Herbert Samuel مندوبًا ساميًا على بقية فلسطين. التى يعيش فيها الآن ٦٦٠٠٠٠ ألف عربى و ٨٤٠٠٠ ألف يهودى، بالرغم من أن الإنجليز كانوا يرغبون

فى الحد من الهجرة اليهودية ، فقد أقيمت خمسة وعشرون مستعمرة زراعية جديدة فى ظل أوضاع اقتصادية هشة ومتزعزعة؛ ارتفعت أسعار الأراضى المجاورة للمستعمرات وتلك التى تضم مصادر للمياه ارتفاعًا سريعًا مفاجئًا.

كانت إقامة المهاجرين فى المدن أكبر منها فى غيرها، خلال ثلاث سنوات ارتفع عدد سكان تل أبيب من ١٣٠٠٠ إلى ٤٠٠٠٠ ألف نسمة، انتشرت فيها بعض الصناعات الصغيرة، نشطت التجارة. غير أن قادة الوكالة اليهودية لم يمتلكوا رأس المال اللازم لمساعدة ٦٠٠٠٠ ألف قادم جديد، فى خلال ثلاث سنوات ، من بولندا ومن الاتحاد السوفيتى الجديد (من بينهم كانت جولدا ميرسون Golda Neyerson التى سوف تصبح جولدا مائير Gdda Meir).

كان السبب فى عدم كفاية هذه الموارد واحدًا باستمرار: بالرغم من تصريح بلفور ظل معظم اليهود الأغنياء معارضين أو غير معنيين بالصهيونية ؛ بينما كان رجال السياسة الأمريكان والأوروبيون يؤيدونها، مثلما فعل الرئيس هاردنج harding ، الذى تحدث عام ١٩٢١ عن « إعادة اليهود إلى موطنهم التاريخى»، أو كالفين كوو ليدج Calvin Coolidge الذى أتى على ذكر «الوطن اليهودى الأم فى فلسطين»(٧).

قام أحد قادة الصهيونية مناحم أوسيشكين Menahem Ussiskin المنتخب فى عام ١٩٤٣ رئيسًا لبنك المستعمرات اليهودية بالسفر إلى أوروبا وألمانيا، فى صحبة حاييم وايزمان فى محاولة لجمع التبرعات. بالمبالغ الزهيدة التى سوف يجلبها، سيقوم مسئول صهيونى آخر ، يوشوا هانكن yehoshua hankin ، ممول لا مثيل له فى إقناع حاخام بالتفاوض مع البدو لشراء ٦٠٠٠٠ ألف هكتار فى رهوفوث rehovot، هاديرا Hardeira، الجليل Galilee، فى وادى بيت شيان Beit She'an ، بالقرب من الأردن، جنوب بحيرة طبريا. لم يكن فى مخيلة أحد خريطة محددة للدولة التى يجب إقامتها.

فى ربيع عام ١٩٢٣ ، تقابل فليكس فاربورج فى نيويورك مع حاييم وايزمان، القادم سعيًا لالتماس الدعم السياسى والمالى من الطوائف اليهودية الأمريكية. وهكذا روى أول رئيس قادم لدولة إسرائيل مقابلته مع أحد أكثر اليهود ثراءً فى العالم – ربما كان أغناهم– والتى تلخص بوضوح موقف اليهود الأمريكان فى ذلك الوقت حيال الصهيونية:

« كان فليكس رجلاً استثنائيًا، خيرًا إلى أبعد الحدود ، شخصية محورية فى الطائفة اليهودية الأمريكية، حتى وإن لم يكن على اتصال لصيق بقاعدتها. كان فيه شىء من نبل الأمراء (...)، لقد لخص لى السيد فاربورج، وفقًا لمعلوماته، ما كان يجرى فى فلسطين. لكى أكون أمينًا فلم أكن قد سمعت مطلقا هراءً أكثر غرابة يصدر عن شخص يوحى بالثقة كالسيد فاربورج : بولشوفيه ، لا أخلاقية، إهدار للأموال، تقاعس، عدم فاعلية، كل هذا مبنى على ما يقال ويسمع على شائعات...»[١٨]

آنذاك اقترح وايزمان على فليكس فاربورج الذهاب إلى فلسطين حتى يكّون عنها فكرة بنفسه . لدهشته الكبرى ، قبل فاربورج . بل إنه سافر إلى فلسطين فى غضون الأسابيع التى تلت ذلك . لدى عودته قابل وايزمان من جديد، كان لا يزال موجودًا فى أمريكا، والذى لاحظ تغيرًا ما فى موقف الملياردير الذى انتقل من المعارضة إلى الإحسان المتحفظ :

« نحن لا ننظر إلى فلسطين من نفس الزاوية : بالنسبة لنا، نحن الصهاينة كانت حركة للتجدد الوطنى ؛ أما بالنسبة له ، فقد كانت ، على الأقل عندما بدأ الاهتمام بها ، واحدة من اهتماماته الخيرية السبعة والخمسين، ربما كانت أكثر أهمية وأكثر جاذبية من نشاطاته الأخرى التى لا تختلف عنها فى الطبيعة.

كل التعليم الذى تلقاه كان يمنعه من أن يشاركنا وجهة النظر؛ فضلاً عن ذلك فإن زملاءه، فى الأعمال ألتى لا حصر لها المنخرط فيها، ربما كانوا يحذرونه باستمرار من الخطر الذى يتهدده من التماهى بأكثر مما يلزم مع الصهاينة. كان فاربورج أحد أهم الأوراق الرابحة فى طائفتهم، وقد كانوا يخشون كثيرًا أن يفقدوه من أجل فكرة جديدة كانت من الممكن أن تستأثر فى مبدأها وجوهرها على كل اهتمامه»[١٨]

ابتداءً من ذلك اليوم ، سوف يتعاون فليكس فاربورج مع حاييم وايزمان لدعم سلسلة من المشروعات الثقافية فى فلسطين. غير أنه لم يهتم فعليًا بشراء الأراضى وأقل من ذلك بالمشروع السياسى الصهيونى . بل إن التعارض كان قائمًا بقوة بين كل من الإستراتيجيتين، إحداهما ثقافية ، والأخرى سياسية.

بالنسبة لفاربورج كان يجب على فلسطين أن تصبح موطنًا ثقافيًا لليهودية ، مكانًا لانبعاث الهوية الأخلاقية وليس لمجرد دولة من بين دول أخرى؛ عدا ذلك فإنه اعتقد أن وايزمان كان على وجه الخصوص يضمر طموحًا سياسيًا شخصيًا.

بناءً عليه ، أنشأ فاربورج لجنة مخصصة لتمويل عمليات تطوير جامعة فى أورشليم تلك التى أقيمت نواتها مؤخرًا فى جبل سكوبس Scopus . كانت الحركة الصهيونية قد فكرت فى إنشائها منذ عام ١٩١٣. أخذ على عاتقه الجانب الأعظم من تكاليف المشروع ، شريطة أن يجعلها جامعة صهيونية بينما كان وايزمان - وبعد ذلك أينشتاين - يتمنى أن تصبح معهدًا علميًا فرض فليكس الذى أتى بالمال وجهة نظره . لمعارضة فليكس، قام وايزمان وأينشتاين سويًا فى ذلك الوقت بإقامة ما سوف يصبح فيما بعد معهد وايزمان، بالقرب من تل أبيب ، الذى كان واحدًا من أوائل المعاهد العلمية فى العالم . فى أكتوبر عام ١٩٢٤ سوف يحضر الجميع لافتتاح أولى مقرات جامعة أورشليم العبرية ، التى شكل الحضور - غير المتفقين دائما - أول مجلس إدارة لها.

بدا بعض اليهود الأوروبيين فقط متحمسين لشراء الأراضى . مثل آل روتشيلد الذين صار بعضهم أيضا من الصهاينة. فى عام ١٩٢٣، قام إدموند جايمس بتأسيس الجمعية اليهودية للاستيطان فى فلسطين ، التى كانت أولى مستوطناتها بنيامينا Binyamina (التى اشتق اسمها من اسم والده بالعبرية). انتخب جايمس رئيسًا شرفيًا للمنظمة الصهيونية العالمية التى كان وايزمان رئيسها التنفيذى . غادر المجلس التنفيذى للمنظمة لندن ليستقر فى أورشليم ومعه بنك الاستيطان اليهودى الذى تحول أحد فروعه ، الشركة الإنجليزية - الفلسطينية، إلى بنك ليومى Leumi «البنك الوطنى» .

ارتفع عدد اليهود فى فلسطين من ٩٠٠٠٠ ألفًا عام ١٩٢٧ إلى ١٦٠٠٠٠ عامًا نسمة فى عام ١٩٢٦ .

تحولت شركة البترول التركى (TPC) إلى شركة بترول العراق ، وظهرت أسماء شركات إسو Esso ، جولف Gulf ، تيكساكو Texaco ، سوكال / شيفرون Socal/ Chevron، وشركة سوكونى / موبيل Socony/Mobil كأعضاء مساهمين فى رأس مالها .

فى عام ١٩٢٨ ، منع الاتفاق المسمى بـ (الخط الأحمر) على الشركات المساهمة فى الشركة الإنجليزية – الفلسطينية من استخراج البترول بدون موافقة الشركات الأخرى العاملة فى حدود الإمبراطورية العثمانية السابقة بما فى ذلك أراضى السعودية، وباستثناء الكويت. فقدت فرنسا الموصل ولكنها تلقت فى مقابل ذلك ربع إنتاج الخام المستخرج من تلك المنطقة من خلال وساطة الشركة الفرنسية للبترول (التى تحمل اليوم اسم توتال – فينا – إلف Total – Fina – Elf) ثم وضع قواعد تقسيم بترول الشرق الأوسط ، وكذلك مصير من يتولى إدارة أقاليمه : سوف تخضع لمظلة الحماية الأنجلوساكسونية. ليس من غير أن تقع بعض الخيانات فيما بينها ، كما سوف نرى.

فى عام ١٩٢٩، وللمرة الأولى جمع أحد المؤتمرات التى عقدت فى لندن، المنظمة الصهيونية العالمية وبعض ممثلى الطوائف اليهودية من كل أنحاء العالم . مقررًا دعم الحركة الصهيونية ، شكل هذا المؤتمر هيئة جديدة (كان هناك ثلاث أخريات على الأقل) الكيرن هايزود Le keren Hayesod لجمع التبرعات من الطوائف الفقيرة والمتشككة فى أوروبا وأمريكا ، وبخاصة وكالة مكلفة ، بالتعاون مع البريطانيين، بتنظيم استقبال اليهود فى فلسطين: «الوكالة اليهودية» التى كان مبدأ وجودها مقررًا منذ عام ١٩٢٢، فى نص الانتداب البريطانى .استقر مجلس إدارة الوكالة فى لندن التى غادرها لتوه المجلس التنفيذى للمنظمة الصهيونية. إنها لا تزال مجرد أحد المنتديات: «إن الوكالة اليهودية، يقول وايزمان ، تضم مجموعة من أكثر الشخصيات تميزًا : كل طبقات المجتمع ، كل إبداعات العقل البشرى ممثلة فيها ، ابتداءً من ليون بالوم Leon Balum الزعيم الاشتراكى الكبير وصولاً إلى مارشال Marshall وفاربورج ، شخصيات تنتمى إلى اليمين ؛ من لورد ملشيت Lord Melchet أحد أهم رجال الصناعة فى بريطانيا العظمى، إلى ألبرت أينشتاين وإلى الشاعر حاييم ناحمان بياليك Chaim Nachman Bialik»[٤٤٣].

فى نفس ذلك العام، فى الخليل، فى حيفا وفى بعض البلدات الأخرى ، أسفرت أعمال الشغب عن ١٣٥ ضحية من اليهود و١١٦ من العرب ، بناءً على طلب المسئولين، حاولت حكومة ماك دونالد Mac Donald فرض بعض القيود على هجرة اليهود مرة أخرى.إشارة إلى اعتراضهما ، استقال فليكس فاربورج وحاييم وايزمان ، المتفقان هذه المرة على نفس

الرأى، من مجلس إدارة الوكالة ولم يعودا إليها إلا بعد أن تراجع رئيس الوزراء البريطانى عن هذه القيود.

غير أن فاربورج ظل متشككًا فى نوايا وايزمان، الذى كان يراه بصورة متزايدة «رجلا من طراز موسولينى Mussolini» . فى عام ١٩٢٩ كتب فاربورج إلى أحد كبار القادة اليهود البريطانيين، مؤسس أول شركة أوروبية تعمل فى مجال الكيمياء، شركة الكيماويات الإمبراطورية ، السير ألفريد بوند Alfred Bond، الذى أصبح لورد ملشيت، أحد الشخصيات اليهودية النادرة التى لا تزال تتمتع بالنفوذ فى أوساط الإدارة البريطانية، والذى كان مثله عضوًا فى مجلس الوكالة اليهودية :«إننى موافق على أى تحرك يسمح بالتوصل إلى اتفاق مع العرب ويوضح أن طموحاتنا محدودة» .

لم يكن هناك بد من أن تتوتر العلاقات بين فاربورج ووايزمان من جديد. فضلاً عن أن البريطانيين لم يحجموا عن المراهنة فى الغالب على فاربورج، الداعى إلى فكرة وطن ثقافى، ضد وايزمان المطالب بإنشاء دولة .

فى عام ١٩٣٠ ، قام إدموند جايمس دو روتشيلد، رجل المال المهم الوحيد المنتمى إلى الصهيونية، بشراء ٢٥٠٠ هكتار من الأرض من ماله الخاص، وأقام عليها بعض القرى (باردیس، هانا، بنيامينا، جيفات ادا، بنى براك، هرتزليا)، المستوطنات، المزارع الجماعية، مزارع الكروم، شركة للكهرباء، مقبرة. فى عام وفاته ١٩٣٤، اشترى ٥٦٠٠ هكتار أخرى من عائلتين عربيتين من سوريا وأقام مستوطنات فى الجليل الأعلى وفى وادى حوليه Huleh ، إجمالاً كان قد اشترى ٥٠٠٠٠ ألف كيلو متر مربع من الأراضى وأقام قرابة الثلاثين مستوطنة ، عادت ملكيتها آنذاك إلى مؤسسة لم يكن يحق لها أن تعاود بيعها.

فى عام ١٩٣٣ خرق الأمريكيون اتفاق «الخط الأحمر»: حصلت شركة سوكال / شفرون من الملك ابن سعود ، الذى اعترفت به بريطانيا مؤخرًا ملكًا على شبه الجزيرة العربية، على امتياز استخراج البترول من الأراضى السعودية ، التى اكتشف فيها البترول عام ١٩٣٠، دون موافقة الشركات الأخرى.

فى نفس العام أثارت اللجنة التنفيذية العربية العليا برئاسة مفتى القدس الحاج أمين الحسينى بعض الاضطرابات فى القدس (أورشليم)، وفى يافا ضد الإنجليز، أدت إلى مقتل ٢٥ عربيًا وأحد رجال الشرطة الإنجليز.

مع وصول هتلر إلى الحكم تسارعت وتيرة الهجرة من أوروبا : من عام ١٩٣٣ إلى ١٩٣٦، سيصل ١٧٤٠٠٠ مهاجر – من العمال ، عمال الزراعة، الموظفين، الأطباء – من ألمانيا وأيضًا من بولندا، من النمسا، من تشيكوسلوفاكيا، من المجر؛ من بينهم سيكون ٦٠٠٠٠ ألفًا من بلاد الرايخ، من ضمنهم الفيلسوف الألمانى الكبير مارتين بوبر **Martein Buber** . استمرت المنظمات اليهودية فى شراء الأراضى . صار عدد اليهود الآن فى فلسطين مائتى ألف مقابل مليون عربى اجتذبهم نمو البلاد الاقتصادى.

فى يناير ١٩٣٥، نصّبت الوكالة اليهودية نفسها حكومة رسمية ليهود فلسطين. فى ٢٦ يناير ١٩٣٥، أطلق مفتى القدس الأكبر فتوى ضد من يبيع أرضه إلى اليهود من العرب. فى نوفمبر طالبت اللجنة العربية العليا التى قام المفتى بتطويرها بمنع بيع الأراضى إلى المنظمات الصهيونية أيضًا بإيقاف الهجرة اليهودية وبمسألة جديدة تماما: إقامة حكومة عربية مستقلة .

قبل المندوب السامى البريطانى واقترح إقامة مجلس تشريعى . ولكن لندن رفضت المشروع؛ فى فبراير ١٩٣٦ ، لا يزال الوقت مبكرًا جدًا : كان الاختلال بين عدد السكان اليهود والعرب لا يزال كبيرًا للغاية .

فى ١٩ أبريل ١٩٣٦ ، قضت إحدى نوبات التمرد العربى على بعض المارة اليهود فى يافا ، ثم على آخرين فى تل أبيب. فى شهر مايو ، سعى إضراب العمال العرب، الذى استمر مائة وخمسة وسبعين يومًا، إلى قطع الاتصالات بين مختلف المستوطنات اليهودية، ليثبت أن تسيير أحوال البلاد يعتمد على السكان العرب ولإجبار البريطانيين على إيقاف تمدد المشروع الصهيونى وعلى إقامة حكومة عربية وطنية على كامل التراب الفلسطينى فورًا.

فى نفس الوقت أدى التهديد الهتلرى إلى إنشاء المؤتمر اليهودى العالمى، منظمة أخرى ! ، الذى يهدف إلى تجميع المنظمات التى تدير شئون الطوائف اليهودية فى كل بلاد العالم، سواء كانت صهيونية أو غير ذلك. إنها المرة الأولى فى التاريخ التى يحاول فيها كل يهود الشتات التنسيق فيما بينهم . سيظل المؤتمر اليهودى دائمًا مكانًا للتلاقى بلا سلطة وبلا شرعية حقيقية لتمثيل اليهود.

بالرغم من رغبة اليهود فى تأجيل القرار أكثر من ذلك ، فى انتظار تدفق موجات جديدة من المهاجرين، فقد قامت لجنة بريطانية مكلفة، تحت إشراف اللورد بيل **Lord Peel** ، بالبحث عن حل نهائى ، للمرة الأولى باقتراح تقسيم البلاد إلى ثلاثة كيانات : دولة يهودية تضم منطقة ساحلية تمتد من جبل الكرمل إلى بيير توفييا **Be'er Tuvia** ووادى جزريل **Jazreel** والجليل ، دولة عربية تضم يهوذا السامرة والنقب والتى سوف تندمج مع شرق الأردن ؛ منطقة وسطى بين يافا وأورشليم (القدس) كانت ستظل تحت الحماية البريطانية. من المقرر أن تكون هناك ممرات تتيح للجميع الوصول إلى الأماكن المقدسة «ودائع الحضارة المقدسة» التى ستظل دائمًا تحت الحماية البريطانية. فى انتظار إقامة هاتين الدولتين سيكون ممنوعًا على اليهود شراء أراض فى المنطقة المخصصة للعرب. إنها المرة الأولى التى بدا فيها الإنجليز قد أخذوا فكرة إقامة دولة يهودية خالصة على محمل الجد.

قبلت الحكومة والبرلمان البريطانى بما انتهت إليه لجنة بيل **Peel** .أما الصهاينة فقد كانوا منقسمين: ستكون الدولة صغيرة المساحة ، لا تتسع إلا لضم مائتى ألف من السكان؛ لن تكون القدس من ضمن أراضى الدولة اليهودية . أراد دافيد بن جوريون **David Ben Gourion** قبول الخطة : إنهم دولة صغيرة أفضل من لا شىء . أعلن العرب عن رفضها: لا يريدون وجود دولة يهودية، حتى فى مقابل إقامة دولة فلسطينية. فى ذلك الوقت قامت جماعات الهاجناه العسكرية ، الجيش الرسمى للوكالة اليهودية وكذلك جماعات الإرجون، ميليشيا يمينية صهيونية عسكرية أنشئت عام ١٩٣٧، بمهاجمة البريطانيين مرات عديدة لتخلق أمرًا واقعًا على منطقة أكثر اتساعًا من المنطقة التى حددتها لجنة بيل. استؤنفت الانتفاضة العربية ، قام الإنجليز بحل اللجنة العربية العليا. هرب مفتى القدس الأكبر إلى لبنان .

ما بين عامى ١٩٣٧ و ١٩٣٩ تمكن ٢٥٠ ألف مهاجر من الوصول إلى فلسطين هربًا من جحيم النازى ؛ وكان على كثير من الآخرين مغادرتها ، أعاقت الحواجز والضغوط العربية الإنجليز من السماح بدخولهم. وصل عدد السكان اليهود حاليًا إلى ٤٥٠ ألف نسمة.

ازدهرت الأحوال الاقتصادية: صناعات غذائية زراعية ، منسوجات ، معامل تكرير بترول ، تعاونيات للنقل ، شركات توليد وتوزيع الكهرباء ، شركات مياه ، مصانع لبوتاس البحر الميت ، أنشئت مستعمرات زراعية جماعية جديدة فى مواقع إستراتيجية.

فى عام ١٩٣٩، دعت الحكومة البريطانية إلى عقد مؤتمر بين اليهود والعرب للانتهاء من تلك المشكلة ؛ رفض العرب المشاركة فيه . أصدرت لندن فى مايو «كتابًا أبيض» جديدًا يقرر انتهاء الحماية البريطانية بانقضاء مدة عشر سنوات مهما حدث. كارثة بالنسبة للصهاينة : تجاهل الكتاب وعد بلفور وتوقع قيام (دولة واحدة مستقلة فى فلسطين) مقسمة إلى ثلاث مناطق وتحديد عدد السكان اليهود بثلث عدد السكان العرب. كانت حدود هذه المناطق الثلاثة تختلف عن خطوط التقسيم التى وضعتها لجنة بيل . إحدى هذه المناطق التى تضم مرتفعات يهوذا والسامرة والجليل الغربية وشمال النقب ستكون عربية ، لن يكون لليهود الحق فى شراء أى أراضٍ فيها .

منطقة أخرى (وادى جزريل والجليل الشرقية، معظم السهول الساحلية) ستكون يهودية، وسيكون من الممكن الاستمرار فى شراء الأراضى فيها بموافقة المندوب السامى .وأخيرًا منطقة ثالثة (شريط ساحلى يمتد من زيخرون يا كوف إلى نقطة تقع فى شمال ريهوفوت Rehovot تضم المناطق المدنية) ستكون هى الأخرى يهودية ولن يخضع شراء الأراضى فيها لأى قيود . إنها لم تعد نفس الخريطة على الإطلاق! خاصة وأن هذا الكتاب الابيض يحدد الهجرة اليهودية بـ ٧٥٠ ألف تأشيرة دخول فى خمسة أعوام ، ما يحتجز فى أوروبا من كانوا يرغبون فى الفكاك من النازية . تخلى الإنجليز عن كل وعودهم . ومع هذا فعندما اندلعت الحرب ، وجد اليهود والبريطانيون أنفسهم فى نفس المعسكر؛ تأجل النظر فى القضايا اليهودية – العربية.

فى عام ١٩٤١ ، نادى مفتى القدس الأكبر بالقضاء على اليهود فى فلسطين وطلب من هتلر «إنهاء المسألة اليهودية من أجل الصالح الوطنى والشعبى على الطريقة الألمانية» .

فى السادس من مايو ١٩٤٢، فى نيويورك ، قابل قادة الوكالة اليهودية ممثلى الحكومة الأمريكية فى فندق بيلمور Biltmore . قال دافيد بن جوريون، رئيس الوكالة اليهودية : إنه لن يكون هناك نظام عالمى جديد (ما دامت بقيت مشكلة الوطن اليهودى بلا حل)، لم يكن يعرف أن المحرقة قد كانت بدأت فى أوروبا.

٦- اقتصاد المحرقة

لعدد لا يحصى من المرات عبر التاريخ ، طرد اليهود بعد أن تم استغلالهم. فى هذه المرة ، سوف تُدفع الهمجية إلى أقصى حد لها : لقد ساعد اليهود فى عولمة الاقتصاد؛ لم يكن بوسع كل من كان يكرههم إذن أن يخاطر بطردهم خشية أن ينقلبوا عليه من الخارج ؛ كان الحل الوحيد للكراهية إذًا « نهائيًا» .

كانت كل التيارات المعادية لليهودية وللسامية الصريحة والضمنية ، من ماركس إلى درومونت Drumont ، من فيبير Webert إلى سومبارت Sombart ، قد تجمعت وتصاعدت إلى قمة مأساوية: كانوا يريدون الخلاص من اليهودية؛ سوف يتخلص النازيون من اليهود.[٧٤] لم يكن اليهودى بالنسبة لهم كبشا للفداء ، ولكن نقطة بؤرية يعود إليها كل شيء، الشخص الذى يجب التخلص منه للتخلص من أهم قيدين فى العالم المال ، الرب . لا يوجد هنا أى منطقية، مجرد وحشية .

فى البداية كان الأمر لا يزال متعلقًا بالطرد : برنامج الحزب الوطنى الاشتراكى الصادر فى ٤ فبراير ١٩٢١ يقول بكل وضوح، فى بنده السابع عشر: إنه بمجرد تسلمه للسلطة، فإن كل من كان له جد أو جدة من اليهود ودخل إلى البلاد بعد ١٢ أغسطس ١٩١٤، سوف يفقد الحق فى الجنسية الألمانية وسوف يجرد من ممتلكاته وسوف يطرد من المجال الحيوى الألمانى. فى عام ١٩٢٤، كتب هتلر فى كتابه (كفاحى) إنه يجب حماية

«وجود واستمرار جنسنا وشعبنا، أقوات أطفالنا ونقاء دمنا، حرية واستقلال وطننا»[٢٠١].
نادى ألفريد روزنبرج **Alfred Rosenberg**، مفكر الحزب النازى، عام ١٩٣٠، فى كتابه (أسطورة القرن العشرين) بـ «تنقية الجنس الشمالى» للحفاظ عليه من الاختلاط بأجناس أخرى، بتصفية غير الاجتماعيين الطفيليين ، غير المرغوب، فيهم خاصة اليهود، عملاء الثوار المتحالفين مع البلاشفة من أجل السيطرة على العالم. ربما كان من الممكن الاكتفاء بطردهم ، لكن هذا الحل لا يضع فى حسبانه مخاطر أنه بطردهم فإنهم يزيدون عدد الأعداء فى الخارج . إن يهوديًا فى الخارج يظل خطرًا كما كان فى الداخل، لن يتبقى أمامنا إذًا إلا «الحل الأخير – النهائى» إن ما لم يطلق عليه بعد مسمى العولمة كان يمنع الطرد ،لكنه كان يجبر على الإبادة . إن معاداة السامية التى صاحبت الثورة الصناعية منذ قرون، وجدت فيها محصلتها النهائية:تصفية أعداء ألمانيا الجديدة ، بتطبيق نفس مبادئ هذه الثورة ، من أجل منعهم من الإضرار بألمانيا، من الداخل ومن الخارج . كل الفاعلين فى الاقتصاد الألمانى وليس النازيون فقط سيلعبون دورهم فى ذلك .[٧٤] لن يتم إنشاء هيئة نوعية للقيام بهذا: فى النقل ، المحاسبة ، الإدارة ، استعادة المنتجات الثانوية وإعداد معسكرات الموت ، كان كل شىء محاكاة للمصانع وللمجتمع .

اقتصاد الاستيلاء على السلطة

فى العاشر من أبريل عام ١٩٣٢ ، أعيد انتخاب المارشال هندنبرج **Hindenberg** بـ ١٩,٢ مليون صوت مؤيد ضد ١٣,٥ مليون صوت لصالح أدولف هتلر ، ظل هيزيش برويننج **Heinrich Bruning** الذى ساند المارشال، مستشارًا واستمر فى التذرع بالبطالة – التى تطال الآن أكثر من خمسة ملايين ألمانى – من أجل المطالبة بالإلغاء النهائى لتعويضات الحرب العالمية الأولى. فى التاسع والعشرين من مايو استقال الرجل من منصبه ، حل محله فرانز فون بابن **Franz Von Papen** على رأس حكومة من التقنيين و «البارونات»؛ بذل قصارى جهده فى إدخال النازيين إلى الأغلبية بغرض التحضير لانتخابات جديدة ، أملاً فى تحييدهم . فى شهر يونية، فى مؤتمر لوزان **Lausanne** حقق بابن مسعاه بإلغاء

التعويضات نهائيًا مقابل وعد غامض بأن تسدد ألمانيا لاحقا ثلاثة مليارات من الماركات إلى صندوق إعادة إعمار أوروبا ، الذى لم يكن قد تشكل بعد . فى الانتخابات التشريعية التى جرت فى يولية تراجع النازيون قليلا حصلوا على ٢٠٠ مقعد من أصل ٦٠٧ ، أصطف هجالمار شاشت Hjalmar Schacht آنذاك خلف هتلر . قدم بابن استقالته . استنجد هيندنبرج بالجنرال فون شلايشر Von Schleicher ، تضاعفت الاضطرابات. صار عدد العاطلين الآن أكثر من٦ ملايين شخص . قرر هيندنبرج حل البرلمان مرة أخرى فى نوفمبر ١٩٣٢. إثر الانتخابات الجديدة فقد النازيون ٣٤ مقعدًا .

فى ٣٠ يناير ١٩٣٣ ، قام هيندنبرج، بناءً على تعليمات بابن Papen الذى كان يعتقد أنه كان قادرًا على التحكم فى الفوهور الجديد ، بتعيين هتلر فى منصب المستشار ومعه ثلاثة فقط من الوزراء النازيين من بين ١١ وزيرًا . بعد لقاء عقد فى ٨ فبراير، لجمع التبرعات، وبعد اجتماع جرى فى العشرين من نفس الشهر فى دار هيرمان جورنج Hermann Goering، رئيس مجلس النواب ، انضم إلى الحزب النازى كبار رجال الصناعة الألمان – فردريك فليك F. Flick ، روشلنج Rochling ، سيمنس Siemens ، فستروك Westruck ، هوجو شتينس Hugo Stinnes ، فيلهلم زانجن Wilhelmazangen ، رئيس جمعية رجال الأعمال الألمان وخاصة آل كروب Kripp– . فى ٢٧ فبراير ، احترق مبنى الرايخستاغ (البرلمان الألمانى) ؛ فى الثامن والعشرين ، بناءً على طلب من هتلر، علق المارشال / الرئيس قوانين الحريات الأساسية وقام بإلقاء القبض على عدد من الشيوعيين ؛ دعا هيندنبرج إلى انتخابات فى الخامس من مارس ١٩٣٣. حصل النازيون على ٤٤٪ من الأصوات . تأكد وجود هتلر على رأس المستشارية .

عملية القضاء على اليهود – المنظر لها منذ وقت طويل جدًا – تطبق الآن عبر ست مراحل ، مصادرة الممتلكات ، معسكرات التجميع ، الأعمال الشاقة الجبرية ، مجازر هنا وهناك ، ترحيلات ، إبادة .

مصادرة الممتلكات

فى ١٤ مارس ١٩٣٣ ، علم ماكس فاربورج أن عمدة مدينة هامبورج لن يستشيره بعد ذلك بشأن مشاكل المدينة المالية لأنه قد تلقى العديد من العرائض ضد «ديكتاتور» عائلة فاربورج. لم يهتم ماكس كثيرًا : لقد عاد صديقه شاشت Schacht الذى اختير لتوه مسئولاً ماليًا عن حملة هتلر الانتخابية ، منذ السابع عشر من مارس، إلى رئاسة البنك الألمانى ، الذى كان قد غادره منذ ٣ سنوات . أفضل من ذلك: فى قرار تعيين شاشت الموقع بيد هتلر شخصيًا ، وردت أيضًا أسماء الثمانية أعضاء الآخرين فى مجلس إدارة البنك المركزى ، من بينهم كان هناك ثلاثة من رجال المصارف اليهود ، مندلسون Mendelssohn ، فاسرمان Wassermann ، من البنك الألمانى، وماكس فاربورج واحد من آل فاربورج. عينه هتلر بنفسه !... كان هذا دليلاً على أنه ليس هناك ما يدعو للخوف : لن يفعل النازيون شيئًا مما يقولونه. فضلاً عن ذلك كان شاشت القوى النافذ يكرر دائما لكل من يود الأصغاء إليه إنه ليس من الوارد المساس باليهود «المهمين جدا لسلامة الأوضاع المالية الدولية لألمانيا»(١٨) مثله مثل معظم اليهود الألمان الآخرين كان ماكس فاربورج لا يزال مطمئنًا، حتى عندما اتهم النازيون اليهود بالهيمنة على الصحافة واحتكار الصناعة بالكامل بالاستفادة من أزمة ١٩٢٣ . عندما غادر ابن أخيه سيجموند ألمانيا، فى مارس ١٩٣٣، متخليًا عن كل شيء ورجاه أن يفعل نفس الشيء أجاب ماكس : «إنه يعرف من مصدر موثوق أن القادة النازيين أنفسهم لا يأخذون ما تكتبه صحفهم الخاصة على محمل الجد»(١٨) ، ألمانى منذ أربعة قرون، لم يكن بإمكان ماكس أن يصدق تلك اللوثة التى أصابت بنى وطنه ...

فى السابع من أغسطس ١٩٣٣ ، أثناء مؤتمر ما، عقد فى أمستردام طالب أحد المحامين من مدينة نيويورك ، صامويل إنترماير Samuel Untermeyer ، باسم كل اليهود الأمريكان بمقاطعة ألمانيا . قامت عدة منظمات يهودية بإعداد وتمويل بعض عمليات الترحيل من ألمانيا باتجاه فلسطين والولايات المتحدة . لم تعلن أى دولة أخرى عن رغبتها فى استقبالهم. بل إن كندا أغلقت أمامهم أبوابها صراحةً : (أى شخص جديد سيكون زائدًا عن الحاجة). آنذاك كان هناك تسعة ملايين ونصف المليون يهودى فى أوروبا، يعيش خمسة ملايين ونصف المليون منهم فى الاتحاد السوفيتى وفى بولندا .

فى مايو ١٩٣٣ ، فاوض هايم أرلوزوروف Haim Arlozorof المسئول فى ذلك الوقت عن الإدارة السياسية فى الوكالة اليهودية اتفاقًا سريًا مع النازيين (كان يحمل الاسم الرمزى الترحيل Haavara) .

بمقتضى شروط هذا الاتفاق ، يعهد اليهود الألمان المغادرون صوب فلسطين بممتلكاتهم إلى منظمات يهودية ، ستقوم ببيعها إلى الألمان وبالمتحصل من بيع هذه الممتلكات تقوم بشراء منتجات ألمانية ترسل إلى فلسطين، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تقوم بمساعدة المهاجرين الجدد عند وصولهم إلى أرض الميعاد ، لسنا بعيدين عن فكرة الشركة اليهودية التى تخيلها هرتزل منذ أربعين عامًا . اعترض كثير من الصهاينة. فى يونيو ١٩٣٣ ، اغتيل أرلوزوروف إثر انتهاء نقاش محتدم – هل يجب ، بالقيام بذلك، مساعدة الاقتصاد النازى بطريقة غير مباشرة؟ – ، تمت الموافقة على المشروع فى المؤتمر الصهيونى الذى انعقد فى براغ Prague . فى أكتوبر ١٩٣٣. وقع روبين Rupin الاتفاق . تولى بنك م. م. فاربورج تنظيم تمويله . من ناحيته رأى جابوتينسكى Jabotinsky ، أحد قادة الحركة الصهيونية الراديكالية أن الاتفاق «شائن ، مخزٍ ، حقير»، ونادى على عكس ذلك بدعم وتشديد تيار مقاطعة ألمانيا. سوف ينجو قرابة العشرين ألف يهودى ألمانى الذين استفادوا من هذا الاتفاق بحياتهم فى نهاية الأمر .

فى نهاية عام ١٩٣٣ ، ألقى النازى القبض على هنرى جولدمان Henry Goldman، الذى كان قد عاد إلى ألمانيا عام ١٩٣٢ ، ثم أطلقوا سراحه فغادر بأسرع ما أمكنه إلى نيويورك مرة أخرى .

فى يوليو ١٩٣٤ ، طمأن شاشت صديقه فاربورج مرة أخرى ، لقد حصل من أدولف هتلر شخصيًا على التأكيد بأن اليهود «سوف يحتفظون بالحق فى العيش فى ألمانيا بصورة طبيعية ».

فى يوليو ١٩٣٥ – بعد عدة أيام من عبور الموكب الجنائزى لألفريد دريفوس ساحة الكونكورد فى باريس أمام الجنود شاكى الأسلحة – أصدرت قوانين نورمبرج Nuremberg «لحماية الدم والشرف الألمانى» التى تمنع الزواج بين اليهود وغير اليهود . تعد يهودية كل

امرأة كان لها سواء ثلاثة من الأجداد اليهود أو جدين فقط ، إذا كان زوجها يهوديًا. ابتداءً من ذلك التاريخ فصاعدًا استبعد اليهود من الوظائف العامة ، من القضاء ، من مجالات التعليم ، من المهن الحرة ، من الجيش من المهن الثقافية. وضعت حصة تحدد عدد المقبولين منهم في المدارس والجامعات.

استمرت المؤسسات اليهودية عن نفسها، في العمل . في عام ١٩٣٦ – عندما وصل تحالف الجبهة الشعبية التي يقودها ليون بلوم إلى السلطة في فرنسا ، متسببًا في ظهور موجة جديدة من معاداة السامية– كانت حسابات بنك م. م. فاربورج لا تزال متوازنة .استمر كروب في سداد الفوائد المستحقة بصفة قروض . كان كثير من اليهود الألمان لا يزالون يعتقدون أن النازية ظاهرة عابرة سوف تختفي سريعًا.

بل كان من بينهم من أشاع أن النازيين يساندون الصهيونية ! غير أن منشورًا إداريًا صادرًا من وزارة الخارجية الألمانية في ٢٢ ألمانيا . تؤكد هذه الوثيقة الأساسية أن «الحل النهائي» كان موجودًا في عقول الجميع منذ فترة ما قبل الحرب: «غير أنه سيكون من الخطأ افتراض أن ألمانيا تساند إقامة بنية لدولة ما في فلسطين، تكون بصورة ما تحت سيطرة اليهود . بعد التحركات المعادية لألمانيا، التي قامت بها المنظمات اليهودية الدولية ، لم يكن بإمكان ألمانيا الموافقة على (فكرة) إقامة دولة يهودية في فلسطين ربما ساعدت على تطور دول العالم بشكل سلمي». رددت مذكرة داخلية لقلم الشئون اليهودية في البوليس السياسي النازي–SS– هذه الفكرة وأكدت أن «إعلان دولة يهودية أو عن فلسطين تحت إدارة اليهود ربما أوجدت لألمانيا عدوًا جديدًا سيكون له نفوذ عميق على التطورات "السياسية" في الشرق الأوسط ». دولة يهودية « لعلها ستعمل على إيجاد حماية خاصة للأقليات اليهودية في كل بلاد العالم ، خالقةً بالتالي حماية شرعية لنشاط اليهودية العالمية الطفيلي». إن دولة كهذه ربما لن تستطيع استيعاب كل اليهود، ولكنها « سوف تكون بمثابة قاعدة لليهودية الدولية ، كما تلعب موسكو دور قاعدة الشيوعية الدولية».

لقد وضح هنا كل شيء : بما أن إبعاد اليهود يمثل خطرًا فان إبادتهم هي الحل الوحيد المناسب. في السفارات الإنجليزية ، الفرنسية ، الأمريكية ، ينتاب القلق الكثيرين خوفًا

على مصالحهم العربية ، لم يكونوا هم الآخرون بعيدين عن الاعتقاد بأنه من الواجب عدم السماح لليهود بالاستقرار بصورة جماعية فى مكان آخر أى فى فلسطين.

غير أن تسريح اليهود من أعمالهم كان يجرى فى البداية وفقًا للقانون الألمانى ؛ تناولت المحاكم العديد من النزاعات التى نظرتها بكل حياد ، مثل قضية مدير التصوير اليهودى الذى قاضى إحدى الشركات السينمائية، بسبب فسخ عقده ، نظرًا لأن الشركة كانت تظن نفسها محقة فى فصله ، بمقتضى أحد البنود فى عقد عمله، ينذر بوقف سريان العقد فى حالة «المرض أو الموت أو الأسباب المماثلة التى تجعل مدير التصوير غير قادر على العمل» .

فى عام ١٩٣٨، أكدت أعلى سلطة قضائية فى ألمانيا (Le Reichsgericht) فضلاً عن ذلك أن ذلك البند فى عقد العمل «قابل للتطبيق بلا جدال»، بسبب أن «الصفات العرقية الخاصة» للمدعى تعادل المرض أو الموت.[١٩٨] بعبارة أخرى منذ عام ١٩٣٨ كان كبار قضاة ألمانيا وكذلك دبلوماسييها يعتبرون بالفعل أن كل يهود الرايخ اعتبارًا من ١٩٣٨ ، قد كانوا فى عداد الموتى قانونًا.

فى نفس تلك السنة ١٩٣٨ ، بدأت مصادرة الشركات اليهودية. فى شهر أبريل، كان على اليهود الإعلان عن أى ملكية تزيد قيمتها على خمسة آلاف مارك : أعلن ١٣٥٧٠٠ يهودى ألمانى سويًا عما قيمته سبعة مليارات من ماركات الرايخ ؛ أعلن ٩٥٦٧ يهوديًا أجنبيًا عن ٤١٥ مليون مارك ألمانى، أعلن ٢٢٥٩ من اليهود (عديمى الجنسية) عن ٧٣ مليون مارك ألمانى، إجمالاً ٧,٥ مليارات مارك من ماركات الرايخ ، فرضت على هذا المبلغ ضريبة بلغت ٢ مليار مارك ، أى قرابة ثلث قيمة الممتلكات التى تم حصرها.

فى ١٤ يونية ١٩٣٨، طالب مرسوم من وزير الداخلية بأن يتم الإعلان عن كل الشركات الصناعية اليهودية، بغرض مصادرتها لاحقًا . وتعتبر أيضًا (يهودية) كل الشركات المملوكة ليهود أو التى يكون رئيسها أو أحد ممثليها القانونيين أو أحد أعضاء مجالس إدارتها يهوديًا ، كل هذه الشركات يجب أن تنتقل ملكيتها إلى غير اليهود والآريين.

تقرر بعد ذلك (آرينة) المؤسسات الخدمية (البنوك ، شركات الاستشارات المالية والائتمانية ، المعاملات العقارية ، السمسرة فى البورصة). فى مايو١٩٣٨ انتقلت ملكية بنك م. م. فاربورج إلى أحد موظفى البنك بعد أن صار نازيًا برينكمان Brinckmenn.(١٨) وكان هذا أيضًا هو حال بلايشرودر Bleichroder ، أوبنهايم Oppenheim ، ومئات البنوك اليهودية الأخرى. فى شهر يوليو١٩٣٨ ، ألغيت تراخيص الأطباء والمحامين اليهود ، فى مقاطعة فرانكونيا Franconie، استدعى يوليوس شرايشر Julius Streicher كل أصحاب المساكن اليهود وأجبرهم على التوقيع بنقل ملكية مساكنهم لصالح بلدية مدينة فورت Furth ، أو إلى مشتر آخر يحدده بنفسه لقاء ثمن رمزى . كانت المدينة تدفع ١٠٠٠ مارك (رايخ مارك) لتحصل على شقق تساوى الواحدة ١٠٠٠٠٠ ، اشترى أحد الأشخاص منزلاً يساوى ٢٠ ألف مارك بمبلغ ١٨٠ ماركًا فقط .(١٩٨) قرر ماركس فاربورج أن يغادر هامبورج.

بعد ذلك، جاء الدور على التجار ، فى ليلة العاشر من نوفمبر ١٩٣٨، بعد أن اغتيل فى باريس أحد الدبلوماسيين الألمان على يد شاب من يهود بولندا يدعى هيرشل جرانزبان Hershel Granszpan ، قام النازيون بالقضاء على مئات الأشخاص وإصابة ألف آخرين بجراح خطيرة ، سلب ٧٥٠٠ متجر ، أحرق ٣٠٠ معبد يهودى ، كان ذلك ما سمى لاحقًا «ليلة الكريستال» .

بعد يومين من ذلك ، ١٢ نوفمبر ١٩٣٨ ، فى الحادية عشر صباحًا صدر عن اجتماع سريالى برئاسة جورنج Goering ، مع جوبلز Goebbels، هايدريش Heydrich الأمر بأن تدفع شركات التأمين قيمة التلفيات التى لحقت بالمتاجر اليهودية إلى وزارة المالية بهدف تعويض الضرائب التى لن يستطيع التجار اليهود سدادها ، ذهل أصحاب شركات التأمين الموجودون. أضاف جورنج، أن الوزارة سوف تقرر قيمة المبالغ الواجب سدادها عند الاقتضاء إلى الملاك اليهود ، وقال :« لقد اتخذ القرار بآرينة الاقتصاد الألمانى ، بإخراج اليهود منه ، لقد تأخرنا كثيرا فى التنفيذ(...) إن ألمانيا تريد أن تسترد ما نهب منها ، وبالتالى، فالحكومة الألمانية هى التى يجب تعويضها (...) على اليهود نقل ملكياتهم إلى الدولة». تلى ذلك نقاش: اقترح جوبلز أن يؤمر اليهود بالقيام بتدمير معابدهم بأنفسهم لتستبدل بمرائب للسيارات، نوقشت مسألة معرفة كيف سيتم استيراد الستة ملايين لوح من الزجاج – أى ما يعادل الإنتاج السنوى

لبلجيكا من المنتجات الزجاجية – البلد المورد – اللازمة للإصلاحات وجرى التساؤل أخيرًا حول طريقة تخصيص أماكن منفصلة لليهود فى القطارات دون أن يمنحوا لهذا السبب ميزة أن يكونوا أقل تكدسًا فى تلك الأماكن مثل الآخرين ...

ختامًا تقرر فرض غرامة إضافية قدرها مليار مارك على اليهود لأنهم تسببوا فى إثارة «غضب الشعب الألمانى "المشروع"» . أرسل ٢٥ ألفًا منهم إلى معسكرات الاعتقال فى داخاو dachau ، أورنيابرج – زاخذنهاوزن Oranienberg – Sachenhausen ، بوخنفايلد Buchenwald ، رافنزبروكRavensbruck ، ماوتهاوزن Mauthausen بسبب سلوكهم المعادى (للمجتمع) و (الإجرامى) .

بعد عدة أسابيع تم مصادرة كل ما تبقى من الشركات الصناعية ، آخر الممتلكات العقارية ، الأموال المنقولة ، الحسابات البنكية الخاصة باليهود.

فى يناير ، ١٩٣٩ كرر جواخيم فون ريبنتروب Joachim Von Ribbentrop أن «على ألمانيا أن تعتبر أن إقامة دولة يهودية يعد خطرًا» ، لأن «ذلك سيؤدى إلى زيادة النفوذ الدولى لليهودية العالمية» ، لا يريد أحد أن يدرك أن خطابه يتضمن فى الحقيقة تصفية كل اليهود الواقعين تحت الحكم الألمانى. من عام ١٩٣٨ إلى مايو ١٩٣٩، تمكن ١٥٠٠٠٠ ألف فقط من بينهم من مغادرة أرض الرايخ .عندما اندلعت الحرب كان لا يزال هناك ٣٧٠٠٠٠ ألف يهودى فى ألمانيا.

بدأت عمليات المصادرة فى سبتمبر ١٩٣٩ فى بولندا ، وابتداءً من ١٨ أكتوبر عام ١٩٤٠ فى فرنسا ، كما كان الحال فى كل البلاد التى تم ضمها أو المهزومة أثار تقسيم الممتلكات اليهودية كثيرًا من النزاعات بين السلطات النازية وبعضها .[٣٦٩] ذهب مخزون المواد الأولية إلى الجيش . أراد هينريتش هيملر Heinrch Himmler والمكتب الرئيسى لدعم "الألمنة" أن تمنح الشركات التى تم تصفيتها إلى المحاربين الألمان الذين قتلهم البولنديون، أخيرًا إلى ورثة المقاتلين الذين سقطوا على كل الجبهات.[١٩٨] تقرر تخصيص بعض الشركات إلى من سيكونون قدامى المحاربين لاحقًا وأسست حينذاك بعض «شركات الحجز» المكلفة بإدارة الشركات الصهيونية انتظارًا لعودة المحاربين .

فى فرنسا ، عهد الألمان للمرة الأولى إلى حكومة أجنبية بمهمة البدء فى إجراءات مصادرة الممتلكات اليهودية لصالح الحكومة الألمانية .[٢٦٩] وفى ذلك كتب الدكتور / إيلمر ميشيل Elmer Michel رئيس الأركان العامة الإدارية - الألمانى - للقيادة العسكرية الألمانية: « ستبذل أقصى الجهود لاستبدال اليهود بفرنسيين حتى يشارك الشعب الفرنسى أيضًا بهذه الطريقة فى إبادة اليهود» ولكى نتفادى الانطباع بأن الألمان يرغبون أن يحلوا وحدهم محل اليهود .[١٩٨] قرر الجنرال أوتوفون شتبناجل Ottovon Stupnagel ، أحد ممثلى ألمانيا الدبلوماسيين ، أن الشركات التى تضم مساهمة يهودية غير مهمة يمكن ألا يتم نزع ملكيتها فى حال تخلصها (طوعا) من مساهميها ومسئوليها اليهود. دفع دكتور ميشيل الشركات آنذاك إلى التنازل الطوعى إلى مشترين من «الآريين» . إذا رفض اليهود بيع ممتلكاتهم بأثمان زهيدة ، يجرى البيع قسرًا تحت إشراف القيادة العسكرية. إذا لم يوجد مشترون ، تقوم إدارة المراقبة التابعة لوزارة الإنتاج الصناعى والعمل التى يتولاها الرئيس فورنييرFournier أحد الأعضاء القدامى فى مجلس بنك فرنسا بتعيين مجالس إدارة مؤقتة لهذه الشركات[٢٦٩] . بذلت كل الجهود للحفاظ على مظاهر الشرعية، لم يكن ذلك كافيًا بلا شك .

فى شهر يناير عام ١٩٤١ ، كتب الدكتور ميشيل إلى القيادة العسكرية « يحاول البعض أن يثير بعض الشكوك حول الصلاحية القانونية التى سوف تكتسبها العقود التى تبرمها مجالس الإدارة المؤقتة هذه بعد نهاية الاحتلال»[١٩٨] .

كان قانون حكومة فيشى ، الصادر فى ٢٢ يوليو عام ١٩٤١ ، يهدف إلى «إنهاء النفوذ اليهودى على الاقتصاد الوطنى » من خلال استخدام «الودائع الوطنية ». كلفت القيادة الألمانية صندوق الودائع والأمانات بتحصيل غرامة قدرها مليار مارك من يهود فرنسا. سيقوم الصندوق بتجميع هذه الودائع اليهودية عن طريق شراء السندات المصادرة فى الحسابات البنكية لثمانية وعشرين ألف مودع يهودى من إدارة الأملاك وبأسعار زهيدة.

ابتداءً من مارس١٩١٤ ، فقد المالكون الألمان الجدد الحق فى استخدام علامات المصنع والأسماء التجارية اليهودية فى كل أنحاء ألمانيا والبلاد التى قامت باحتلالها .

تحول بنك م. م. فاربورج إلى م. م. برينكمان [١٨]. كانت شهرة (ماركة) بورسلين روزنتال Rosenthal محل جدل واسع ، أرادت الشركة التى (تأرينت) أصبحت ألمانية بالكامل فى عام ١٩٣٦، وصار اسمها (روزنتال بورسلين أ. ج)، الاحتفاظ باسمها الأصلى (« لم يكن الأمر يتعلق باسم تجارى لكن برمز لمنتج ما ») ؛ لفت وزير الدعاية النظر إلى أن مجلس الإدارة قد صار آريًا بالكامل وأن رئيس الشركة فيليب روزنتال المؤسس، كان قد هاجر عام ١٩٣٣، وأنه قد توفى وأن أرملته «آرية نقية تمامًا»، وأن الملاك الجدد كلهم من الآريين وأن إدارات الشركة تفضل الاحتفاظ بالاسم التجارى ، غير أن أحدًا لم يجسر على اتخاذ القرار بالسماح لإحدى الشركات بأن تظل حاملة لاسم يهودى[١٩٨] . بانتهاء عام ١٩٤١ ، انتهى النازيون إلى الإقرار بأن... «روزنتال» لا يعد اسمًا يهوديًا ! .

فى أكتوبر ١٩٤٣، كانت أوضاع إحدى عشرة ألف شركة ومسكن قد (سويت) فى فرنسا (ثلثها فى المنطقة المحتلة. حذرون ، شكل المشترون الفرنسيون لهذه الممتلكات المنهوبة اتحادًا « لملاك الشركات التى كانت من قبل يهودية » ليقطعوا الطريق أمام أى اعتراضات لاحقة على ملكيتهم. خلال صيف ١٩٤٤، بينما كان الحلفاء يقتربون من باريس، أعرب الدكتور ميشيل مرة أخرى عن رضاه بتقدم «عمليات تنقية الاقتصاد الفرنسى من اليهودية»[٣٥] صارت ٤٢٧٣٩ شركة تحت وصاية مجالس إدارة قامت الدولة بتعيينها ، تم تصفية أكثر من ٧٥٠٠ شركة ، وبيع نفس العدد لقاء مبلغ ٢,١ مليار فرنك.

اعتقــال

أدت عمليات الإفقار الفظة التى تعرض لها اليهود وطردهم من مجالات العمل إلى تكدسهم فى المدن الكبرى ، أولا فى فيينا وفى برلين . منذ عام١٩٣٩، تجمع فيهما أكثر من نصف يهود الرايخ . وفى بولندا ، عندما وصل المحتل الألمانى إلى كراكوفيا Cracovie، فى السادس من سبتمبر ١٩٣٩، كان هناك خمسون ألف يهودى ، فى شهر أبريل من عام ١٩٤٠، أمهل اليهود أربعة أشهر لإخلاء المدينة ، غادر منهم ٣٥٠٠٠ ألفًا وسمح للباقى ١٥٠٠٠ ألفًا بالبقاء ، ثم تم إرجاعهم و حبسهم فى جيتوهات (معازل) . أنشئ الأول فى

لودز Lodz، فى مطلع ١٩٤٠ ؛ كان يضم ١٥٠٠٠٠ ألف شخص . أقيمت جيتوهات أخرى (معسكرات تجميع)، فى مارس ١٩٤١، فى كراكوفيا (ضم ٢٠٠٠٠ ألف يهودى ، منها ٦٠٠٠ ألف شخص من القرى المجاورة) ، فى لوبلين Lublin وفى وارسو Warsovie (حيث تم تجميع ٥٠٠٠٠٠ شخص تحت ظروف شديدة القسوة) بمجرد إنشاء الجيتو، عهد الألمان بإدارة شئونه إلى الطائفة اليهودية (١٩٨). بهذا شكل كل جيتو ما يشبه مدينة / دولة محاصرة بثوراتها ، بأبطالها ونقاط ضعفها .

فى أبريل ١٩٤١ ، أكد بايتش Paetsch ، مدير البنك المركزى للرايخ، أن إدارة جيتو مدينة لودز تكلف مليون مارك ألمانى شهريًا ، وأن جيتو وارسو سيكلف نفس القيمة ، وأضاف شبندلر Spindler، رئيس القسم المالى للحكومة العامة لبولندا المحتلة، أن جيتو وارسو يمثل إنفاقًا سنويًا «غير محتمل» يتراوح بين سبعة وعشرة ملايين زيلوت(١٩٨)«العملة البولندية»، رأت الإدارة الألمانية آنذاك أن يتحمل اليهود كل هذه النفقات، اعتقادًا منها بأن اليهود يخفون فى معسكراتهم ممتلكات ثمينة هائلة. فى شهر يوليو ١٩٤٢، فى وارسو، تلقى كتزريناكوف Czerniakow ، رئيس مجلس إدارة الجيتو، فواتير من الشركة الألمانية للأشغال العامة شميت Schmidt ومونشترمان Munstermann، خاصة بأعمال، بناء سور المعسكر بقيمة إجمالية قدرها ١,٣ مليون مارك ألمانى(١٩٨).

عمل إجبارى

لتقليص نفقات إدارة الجيتوهات «معسكر العزل» اهتم الألمان بجعلها تدر دخلاً. كان الدكتور جات Gate، خبيرا اقتصاديا فى المكتب الوطنى للعوائد فى الحكومة العامة أخصائيًا فى ترشيد وتخطيط الإنتاج ، وقد أوصى باستخدام اليهود فى الأعمال الجبرية:«بافتراض أنه يمكن تشغيل ما بين ستين إلى خمسة وستين ألفًا من اليهود فى المعسكرات، وبالاعتماد على إنتاجية فى حدود خمسة (زيلوت) لكل عامل يوميًا، مفترضين أن عدد اليهود الذين يعملون فى مواقع عمل خارج المعسكر لمدة سبعة أو ثمانية شهور سنويا سوف يستمر فى نفس المعدل بدون تغير فى الأجور. فإن مجموع هذه الأجور سوف

يكون حوالى نصف مليون (زيلوت) تستخدم فى سداد قيمة مؤن المعسكر، أى ٩٣ زيلوتا لكل فرد[١٩٨]. لتحقيق هذا الهدف، قدر قيمة الاستثمارات اللازمة للشركات الألمانية بـ ٤٠ مليون زيلوت سنويًا، وصفت تلك التقديرات بأنها «نظرية» للغاية.

ابتداءً من ٢٦ أكتوبر ١٩٣٩، اقتيدت للعمل مجموعات عشوائية من اليهود من سكان المعسكرات وفقًا للحاجة المطلوبة: كانت كل إدارة تحتاج إلى عمالة يدوية تقدم طلبًا للحصول عليها، وضع قائد الشرطة وقائد قلم البوليس السياسى، كروجر **Kruger** بطاقة عامة تتضمن تعريفًا بالمهنة، العمر، الجنس ..إلخ. تنازع بين السلطات: رفض الحاكم العام هانز فرانك **Hans Frank** الاعتراف لقوات النخبة النازية **(S S)** بأى سلطة فى هذا المجال. لم يكن العمل القسرى مدفوع الأجر بالطبع. استثناء واحد: فى وارسو، فى ربيع ١٩٤١، كان أحد أهم مستخدمى العمالة اليهودية، صاحب إحدى شركات جمع نفايات الحديد، الرائد فى سلاح الفرسان، شين **Sehn**، قد ادعى أنه «مناهض للعبودية»، وقام بدفع ٢ زيلوت [١٩٨] عن كل رجل يوميًا.. إلى كتزرنيا كوف **Czerniakow**.

لترشيد استخدام العمل الإجبارى أقيمت كيانات جديدة: معسكرات العمل. بدلاً من تشغيل اليهود خارج الجيتو مع التصريح لهم بالعودة إليه فى المساء، يرسل إلى المعسكرات أرباب الأسر الذين يتركون ذويهم رهائن داخل الجيتو. بعد قليل انتشرت معسكرات العمل فى بولندا، حيث استخدمت الأيدى العاملة فى حفر الخنادق المضادة للدبابات، أشغال وتجهيزات مائية، خطوط سكك حديدية. فى شهر فبراير ١٩٤٠، قرر هيلمر القيام بحفر خندق شاسع لمنع تقدم الدبابات على الحدود الشرقية الجديدة لألمانيا: تم تجميع آلاف اليهود — ليس الملايين، كما كان مقررًا فى الخطة الأصلية للمشروع — فى بيلتزيك **Belzec** ، وفى بلاستزوف **Plaszow** ، للقيام بأعمال الحفر وشق الخندق بين **Le Bug** و **Le San** ، لقاء خمسين بفنغ **Pfennig (s)** للعامل يوميا. أتم خمسة آلاف يهودى أعمال شق وتعبيد محور الطريق بين جليفيتز **Gleiwitz**، أوبلن **Oppeln** فى مقاطعة سيلزيا العليا **Haute-Silesie**[١٩٨] الأشغال النهرية فى مقاطعة وارسو خمسة وعشرون ألف يهودى.

صارت معسكرات العمل بعد ذلك مصادر لتوريد اليد العاملة للشركات الصناعية ذات الطبيعة الحربية. فى ١٩٤١، أدخل عشرات الآلاف من اليهود قسرًا فى صناعات الأسلحة وفى الصناعات الكهربائية، لم تكن أطقم العمل تحتاج إلى رقابة صارمة بسبب الرهائن المتروكين فى الجيتوهات، كانت تكلفة اليد العاملة منخفضة للغاية وكانت الإدارة المالية فى غاية البساطة: لم يكن هناك ما يجبر على دفع أى أجور. إذا كان مسئولو الرايخ لشئون العمل قد اشترطوا دفع أجور رمزية، فى ١٩٤٢. فقد كانت الإدارات الإقليمية تقتطع معظم هذه الأجور للقيام «بأعمال صيانة» المعسكرات.

أصبحت الجيتوهات نفسها معسكرات. فى لودز كانت محطة القطار فيها تقوم بتحميل من ٧٠ إلى ٩٠ عربة قطار يوميًا بسلع ومنتجات رخيصة الثمن تمت صناعتها فى الجيتو، منح رومكوفسكى **Rumkowski** أقدم اليهود فى المعسكر، سلطة «إكراه كل اليهود على العمل بدون أجر[١٩٨]» ، فى جيتو وارسو، فى يوليو ١٩٤٢، قام ٩٥ ألف يهودى من (الناشطين اقتصاديًا) بأعمال تصدير كانت تارة رسمية وأخرى سرية. كانت المنتجات التى يجرى تصنيعها تماثل منتجات لودز: ألبسة وأزياء عسكرية، صناديق ذخيرة، أحذية، خردوات بسيطة، فراشى، مكانس، حشيات ، لعب اطفال، إصلاح أثاث، ترقيع ورتق الملابس القديمة[١٩٨]. أما المشترون فكانت القوات المسلحة الألمانية ، إدارة الشرطة السياسية ، الشرطة العامة، هيئات الأشغال العامة ، المؤسسات الخاصة ، سريعًا أصبح الجيش المشترى الأساسى وصار يعتمد على ما تنتجه القوة العاملة اليهودية.

غير أن المكاتب المركزية كانت تتحرق شوقًا لتصفية الجيتوهات حتى تستولى على «الكنوز المخبأة» فيها. سوف يصيبهم الإحباط عندما يحدث ذلك، لم يكن المليونان ونصف المليون يهودى من سكان الأقاليم المحتلة ومن رعايا الحكومة العامة يمتلكون شيئًا تقريبًا ، أقل بكثير على أى حال مما كان يمتلكه الثمانمائة ألف من يهود الرايخ.

المحرقة الحرفية (أولاً)

بعد إتمام المراحل الأربع الأولى – تحديد الهوية ، مصادرة الثروات ، التجميع ، العمل الإجبارى – يأتى الحل الأخير (النهائى) ، كلما أحرز الرايخ نجاحًا عسكريًا وزاد عدد اليهود فى البلاد التى يسيطر عليها ، كلما قلت قدرته على إدارتهم داخل معسكرات العمل .عندما وقع الهجوم الألمانى على الاتحاد السوفيتى، ٢٢ يونيو ١٩٤١، كان هناك بالفعل ٢١٦٠٠٠٠ يهودى فى المناطق التى احتلها الألمان (أوكرانيا – بيلاروسيا – القرم). تمكن مليون ونصف المليون يهودى من الفرار أمام تقدم القوات الألمانية ؛ وقع أكثر من مليونى ونصف المليون يهودى فى الفخ النازى ، تجمع ٩٠٪ منهم فى أقل من خمسين مدينة . لم يكن ممكنًا طرد هؤلاء الذين لا يمكن استغلالهم فى العمل، وكانت هناك حاجة ماسة إلى المكان : كان من اللازم التخلص منهم.

فى يوليو ١٩٤١ ، أكد هيملر رغبته فى القضاء على كل اليهود ، (خمائر الفساد الأزلية)، فى ترحيل واحد وثلاثين مليونا من السلافيين إلى سيبريا ، وفى إحلال أربعة ملايين ألمانى محلهم ، يجرى إرسالهم إلى الأرياف لحمايتهم من (فساد المدن).

بعد أن تم اتخاذ القرار، خلال الأشهر التى سبقت غزو الاتحاد السوفيتى، إستكمل الألمان أولى طرق الإبادة الجماعية ، كتائب الإعدام **Einsatzgruppen** كانت تلك الوحدات الخاصة تضم عناصر من النخبة النازية **S S** ،رجال الشرطة الألمانية العادية وأحيانًا بعض قوات الشرطة المحلية أيضًا [١٨٦] .

بمجرد دخول القوات الألمانية ، الاتحاد السوفيتى ، أرسلت أربعًا من هذه الوحدات ، أى ثلاثة آلاف رجل – من الفيرماخت (*)**Wehrmacht** وليس من أفراد الـ **SS**– للاستطلاع مع الأمر بمباغتة اليهود والقبض عليهم واقتيادهم خارج المدينة، ثم القضاء عليهم ، ومن

(*) Wehrmacht قوات الدفاع النازية ، التى صارت القوات المسلحة الألمانية فى الفترة من١٩٣٥إلى١٩٤٥ ... المترجم (عاصم عبد ربه).

الأفضل أن يتم ذلك بالقرب من حفرة يكونون قد قاموا أنفسهم بحفرها ثم دفنهم(١٦٨). قام بتلك العمليات جنود ألمان عاديون ربما كان بمقدورهم رفض تنفيذ الأوامر دون المخاطرة بحياتهم شخصيا ؛ بعضهم – قلة نادرة – قام بذلك فعلاً(١٦٨)

بدءًا من ضواحى لنينجراد إلى أوديسا ، وسيمفروبول Simferopol ، ورستوف Rostov ، وبابى يار Babi Yar (قرب كييف) ، وبونار (بالقرب من ڤيلنا Vilna) وكوناس Kaunas ، قامت كتائب الإعدام هذه بتصفية خمسمائة ألف يهودى . فى نوفمبر كان مليونا يهودى لا يزالون يعيشون فى الاتحاد السوفيتى . أطلقت حملة قتل ثانية ، هذه المرة بعدد أكبر من القتلة ، دائمًا من (جنود الفيرماخت). بنهاية عام ١٩٤٣ ، قتل تسعمائة ألف يهودى آخرون بنفس الطريقة . كانت تلك المذابح موضوع بعض التقارير التى تراوحت تواريخها، أماكنها ، نوعية ضحاياها(١٩٨) ، يقوم بتحريرها بعض ضباط الصف ، ثم تجمع وتلخص يوميًا عن طريق (المكتب المركزى لأمن الرايخ RSHA) .

أرسل بعض اليهود الآخرون آنذاك إلى معسكرات لم تكن تشبه معسكرات الاعتقال ولا معسكرات العمل(٢٦٣) . غير أن تلك العمليات كانت تهدد إنتاج الشركات المشاركة فى تشغيل هذه المعسكرات . فى ١٤ أكتوبر١٩٤١، أرسلت إحدى شركات تصنيع الأسلحة الملحقة بأحد معسكرات العمل برقية إلى هايدريش Hedrich :« كما يعرف الجميع ، إننا قد شرعنا حاليًا فى عملية جديدة لنقل اليهود تمس بعمالنا اليهود الذين تم تأهيلهم بكثير من الجهد للقيام بمهام تخصصهم ، لقد تم تدريبهم على أعمال اللحام وعلى التدريع بالزنك، وربما تسبب رحيلهم فى تقليص الإنتاج بما يقارب الثلث»(١٩٨) . يجب المحافظة على طاقة الإنتاج ، نظرًا لأن هؤلاء العمال اليهود قد أثبتوا أنهم أكثر كفاءةً وجلدًا من الآخرين وأنهم يحققون الآن معدلات إنتاج قياسية يمكننا أن نقارن من خلالها إنتاجية العامل اليهودى بإنتاجية اثنين من العمال الآريين المتخصصين (١٩٨) . قبل هايدريش بإرجاء ترحيل اليهود العاملين فى مجالات التسليح أسرهم.

غير أن عمليات الإبادة تواصلت فى كل الأماكن الأخرى ، وواقع الأمر أننا نصادف الآن هنا نفس تردد مضطهدى اليهود الألفى العمر ما بين استغلالهم زمنًا طويلاً وبين

إبادتهم الفورية . طوال عدة أشهر ، سوف يقاوم المنادون باستغلال قوة العمل اليهودية رغبات الفوهرر مفضلين أن يموت اليهود كدحًا بدلاً من الموت اختناقًا بالغاز . لم يصمد هؤلاء أمام قرارت هتلر المتلهفة.

في ديسمبر ١٩٤١، بدأت تجارب الإعدام بالغاز في شلمنو Chelmno ، في بولندا ، باستخدام عربات النقل عبر إطلاق غازات عوادمها على السجناء المكدسين في صناديقها الخلفية.

الإبادة الصناعية

في العشرين من يناير ١٩٤٢ ، داخل فيلا أنيقة على شاطئ بحيرة فانسيه Wannsee، في برلين ، اجتمع كل ممثلي الوزارات الألمانية لترتيب «الحل النهائي» . ما أن انتهى المؤتمر في ٢٥يناير ١٩٤٢ ، حتى كتب هملر إلى جلوكس Glucks: «سوف تبدأ معسكرات الاعتقال في مهام اقتصادية كبرى خلال الأسابيع القادمة» وطلب منه تحديد أكثر التخلص من مائة ألف رجل وخمسمائة ألف امرأة بأسرع ما يمكن[١٩٨]، وأمر بأن يجرى إعدام كل اليهود الموجودين تحت سلطة الحكومة العامة قبل نهاية عام ١٩٤٢. قدم وزير الإنتاج الحربي ألبرت شبير Albert Speer وقائد جيش الاحتياط، الجنرال فروم Fromm شكواهما إلى هتلر مع اعتراضهما على صحة ما يرد بإحصائيات وحدات النخبة النازية الـ (S.S) : إن الحل النهائي يمثل خطرًا يتهدد احتياطي الأيدي العاملة اليهودية ويحتجز في معسكرات الاعتقال جنودًا ألمانًا من الممكن أن يكونوا أكثر فائدة في أماكن أخرى. في السابع والعشرين من مارس ١٩٤٢، كتب جوبلز قائلاً :« لن يتبقى من اليهود شيء .. إن النبوءة التي تنبأ بها الفوهور بشأنهم لأنهم قد أشعلوا حربًا عالمية جديدة قد بدأت في التحقق بأفظع الطرق»[١٩٨] .

قام كبار موظفي الدولة بإصدار القرارات ووضع القواعد اللازمة ، للتفاوض مع البلاد المحتلة بشأن ترحيل اليهود ، تكفلت إدارة خطوط السكك الحديدية بأعمال النقل[٢٣٦]، اتخذت عملية النقل بعدًا صناعيًا أصبح استخدام الغاز الخانق هو القاعدة.

بعد معسكر شلمنو، تم اختيار ستة معسكرات أخرى : بلتزيك Pelzec، شوبيبور Sobibor ، تربلينكا Treblinika ، ما يدانك Maidanek، أوشفيتز Auschwitz .

إذا كان هيملر قد اختار هذا الموقع الأخير على بعد عشرات الكيلومترات من مدينة Kazimierz فذلك لسهولة الوصول إليه بالسكك الحديدية وبسبب انعزاله. سوف يعين رودلف هوس Rodolf Hoes ، مديرًا لهذا المعسكر الأكثر عصرية من غيره ، يضم وحدات تتكون من غرفة انتظار، غرفة للغاز ، أفران حريق لإحراق الجثث . شيئًا فشيئًا بدأت مراكز الإعداد للموت هذه في الخدمة : كان بلتزيك هو الأول، وفي الفترة من أكتوبر ١٩٤١ إلى فبراير ١٩٤٢ ، استخدم كنموذج أولى ؛ بعد ذلك تم تجهيز معسكر شوبيبور بسرعة جهنمية ، في الفترة من مارس إلى أبريل١٩٤٢ ؛ ثم أقيم معسكر تربلينكا بواسطة اليهود المجلوبين من جيتو وارسو، حيث استولى النازيون كذلك على المسامير ، الأسلاك ، ومفاتيح الكهرباء ، والمنصهرات ، غير أن تنفيذ هذه التجهيزات المتقدمة تطلب وقتًا أطول من الوقت المقرر.

توصلت شركة ديجيتش Degesch ، شركة متخصصة في مكافحة الطفيليات مملوكة لـ IG-Farben ، Degussa ، Gold Schmidt ، إلى تركيب غاز الزيكلون ب Zyklon. B ، الذى قامت بإنتاجه بعد ذلك شركات ديسوار فيركه Dessauer werkeو كايلفيركه kailwerke في مدينة كولين Kilin .

قامت ديجيش بمراقبة إنتاج وتوزيع الزيكلون وقامت شركتا Heli و Testa بتأمين عمليات – البيع المباشر إلى «المستخدمين» ؛ الفيرماخت (القوات المسلحة الألمانية) ، والـ S.S (وحدات النخبة النازية) – .

قامت شركة IG. Farben ، بتصنيع (مثبط) هذاالغاز بالرغم من الغارات الجوية على مصنع ديساو Dessau الذى يقوم بإنتاج الزيكلون فإن قوات النخبة النازية الـ S.S لم تفتقر مطلقًا إلى الغاز(١٩٨).

كان الانتقال إلى معسكرات جديدة يتطلب حسابات دقيقة يتم الإعداد للنقل باستخدام قوائم بالأسماء معدة سلفًا في معسكرات العبور في بولندا . كانت إدارة

السكك الحديدية تطلب من مستخدميها تسجيل عدد المنقولين فى كل قطار لمطالبة شرطة الأمن بتكاليف النقل .

فى البداية سجلت هذه العمليات فى دفاتر الحسابات ؛ أما إدارات المعسكرات فلم تكن تسجل إلا اليهود الذين تم الإبقاء على حيواتهم .

كان نقل اليهود إلى المعسكرات يتطلب تنظيمًا كبيرًا ، وما كان ذلك التنظيم خاضعًا لسلطة مكتب **IV – B – 4** التابع للمكتب المركزى لأمن الرايخ الذى يرأسه إيخمان **Eichmann**، الذى كان تابعًا لإشراف هايدريش ثم لرئيس الجستابو، الجنرال مولر **Muller** ولهيلمر. كانوا يستفيدون من خدمات رايخسباهن **Raichsbahn** (السكك الحديدية الألمانية) ، وحش إدارى يسيطر على خمسمائة ألف موظف . كان مسئولو قطارات الركاب هم من يشكلون ويخططون لقوافل الموت فى أوروبا بأكملها، « من خلال الإدارة اليومية لبرامج النقل»[١٩٨]، كما سوف يلفت إلى ذلك إيخمان أثناء نظر قضيته، « كان وضع التوقيتات علمًا فى حد ذاته». فى نوفمبر عام ١٩٤١، غداة أولى عمليات النقل ، أما المنظمة اليهودية المركزية فى ألمانيا **Reichswehrnigung** التى كانت تعتقد أنها تستطيع إيقاف الكارثة من خلال التفاوض مع النازيين ، فكانت قد تلقت أمرًا من النقيب جوتفاسير **Gutwasser** ، من المكتب المركزى لأمن الرايخ **RSHA** ، بأن تقتطع من الممتلكات الأخيرة لمن سيجرى نقلهم مبلغًا ، سوف يصب فى حساب خاص —**W**—بغرض سداد، من بين أشياء أخرى ، قيمة تكلفة رحلتهم بواسطة القطارات.[١٩٨] فى ٣ ديسمبر ١٩٤١ ، قام إبشتاين **Eppstein**، وليلينتال **Lilienta**l من أعضاء «الاتحاد الوطنى اليهودى» مسئولا الطوائف اليهودية البولندية ، بنقل الأوامر التى تلقياها من «شرطة المراقبة» الجستابو : مطلوب من كل من يجرى نقله أن يسدد مبلغًا يساوى أو يزيد على قيمة ٢٥٪ مما لا يزال يملكه[١٩٨] . تمويل (الحل النهائى) ذاتيًا : حتى وإن تم نقلهم داخل عربات نقل الحيوانات ، فقد كانت التعريفة الأساسية لمكان فى الدرجة الثالثة هى ٤ بيفنغ **Pfenning** لكل كيلومتر من السكة الحديد يدفع الأطفال الأقل من عشر سنوات نصف تعريفة ويسافر الأطفال الأقل من أربع سنوات مجانًا.

سمح للمجموعات الأكثر من ٤٠٠ شخص بدفع تعريفة مخفضة (نصف تعريفة الدرجة الثالثة) . ترسل الفواتير إلى الجهة التى تطلب إعداد الرحلة ، RSHA. لنقل اليهود، كان المكتب المركزى لأمن الرايخ يسدد للمرحلين ثمن بطاقة ذهاب فقط ، أما بالنسبة للحراس فكان يشترى بطاقة ذهاب وإياب[١٩٨]

بدأ ترحيل اليهود إلى معسكرات الإعدام[٧٤] فى شهر يونية ١٩٤٢ . أرسل خمسة آلاف يهودى من كراكوفيا إلى معسكر بلتزيك ، حيث أعدموا خنقًا بالغاز. فى صيف ١٩٤٢ ، وبسبب ازدحام الخطوط المتجهة إلى بلتزيك وإلى شوبيبور ، اقتيد إلى ميدانك Maldanek عدة آلاف من اليهود ، وخلال شهرى سبتمبر وأكتوبر شيدت فيه «ثلاث غرف غاز صغيرة»[١٩٨] سرعان ما أرسل إليها معظم الوافدين. فى أكتوبر، أرسل ستة آلاف آخرين من اليهود إلى بلتزيك وأعدموا بالغاز . كانت مراكز الإعدام هذه تعمل بسرعة وكفاءة « كان الوافد الجديد يهبط من القطار فى الصباح وفى المساء يتم حرق جثمانه ، تحزم ملابسه وتخزن لترسل إلى ألمانيا»[١٩٨] .

كان استرجاع ممتلكات المنقولين المغادرين للمعتقلات وضحايا معسكرات العمل مخططًا بشكل جيد للغاية . كانت الممتلكات التى يحملها المنقولون من جيتو لودز إلى معسكر كولمهوف Kulmhof والمتعلقات المتروكة فى الجيتوهات (المعتقلات – معسكرات العمل) تتجمع فى إدارة لا تتبع لا وحدات النخبة النازية S.S ولا الشرطة[٧٤]. كانت (الإيرادات) تذهب إلى إدارة الجيتو وكانت تلك الأخيرة تقوم بمحاسبة دقيقة لمجمل عمليات البيع (باستثناء الفراء الذى يرسل مباشرة إلى رافنسبروك حيث يعمل مصنع الملابس المخصصة لقوات الفافن Waffen. S.S) . تصبح كل الأمتعة التى يجرى مصادرتها من ممتلكات الرايخ . يقوم الـWVHA (المكتب المركزى الاقتصادى السياسى) بتوزيعها على قوات النخبة النازية S.S أنفسهم، خاصة على الجنود الجرحى وحاملى الأوسمة أو كهدايا لعائلاتهم فى عيد الميلاد.

وضع توجيه من هانز فرانك Hans Frank ، الحاكم العام ، بدقة متناهية نظام تقدير ثمن مفردات تلك «البضائع»[١٩٨] . كل الأشياء القيمة (نقود ، حلى ، ساعات يد ذهبية ، أطقم

أسنان ذهبية) ترسل إلى بنك الرايخ ، الذى يرأسه وزير الاقتصاد، إيالتر فونك Ealther Funk ؛ أما الجزء الأكبر من المنسوجات (باستثناء الحرير الذى يذهب مباشرة إلى وزارة الاقتصاد) فتؤول إلى منظمة إعانة اجتماعية ترعى «الألمان الأصليين»[١٩٨] . توضع المبالغ النقدية فى الخزانة العامة فى حساب خاص مخصص لتمويل وحدات النخبة النازية S.S .

فى أوشفيتز يقوم المدير الإدارى بعمليات التجميع ، الفرز ، الجرد والتعبئة. فى مايدانك ، شوبيبور ، تريبلينكا ، بلتزيك ، وضع قائد وحدات النخبة النازية S.S وشرطة لوبلين Lublin ، جلو بوكنيك Globocnik ، سجلاً مركزيًا بكل الممتلكات التى تم جمعها وحدد الاختصاصات[١٩٨]: يعهد إلى جورج فيبرن Georg Wippern بالحلى ، العملات الأجنبية ، المتعلقات المتنوعة (القيّمة) ؛ اختص هيرمان هوفل Hermann Hofle بفرز الملابس ، الأحذية ..إلخ.

كانت مقتنيات معسكرات بولندا ترسل بعد ذلك إلى مستودعات لوبلين حيث يتنافس النازيون للحصول عليها . ابتداء من ٤ أبريل ١٩٤٢، كتب الجنرال جرافيتز Grawitz ، كبير أطباء وحدات النخبة النازية S.S والشرطة، إلى فينجاد Wingad قائد وحدات النخبة النازية والشرطة فى وارسو :« بلغنى أن قواد الـ S.S والشرطة فى وارسو ولوبلين يحتفظون بودائع من الذهب القديم الذى يعود إلى اليهود»[١٩٨]. أوصى هيملر آنذاك وزير الاقتصاد رودلف برانت Rudolf Brandt ، من الأركان العامة الشخصية لهتلر، الذى كتب إلى الجنرال س.س أوزفالد روهل S.S. Oswald Pohl :« بتوفير معاملة كريمة لكل طلبات الذهب والفضة الصادرة عن S.S " قوات النخبة النازية " [١٩٨] . فى أغسطس ١٩٤٢ ، التمس جلوبوكينك Globocnik السماح باقتطاع ٢مليون زيلوت من أموال «إجلاء اليهود» لتمويل المدارس المخصصة للمستوطنين الألمان فى المقاطعة . فى فرنسا ، نُصح اليهود عند توقيفهم بأن يحملوا من الأموال السائلة ، المنقولات الثمينة ، الحلى بقدر ما يستطيعون ، حتى لا يجدوا أنفسهم فى أوضاع صعبة فيما بعد[٥٣] . وبمجرد وصولهم إلى معسكر درانسى Drancy تجرى مصادرة النقود ، الأوراق المالية (أسهم ، سندات ، كمبيالات) والحلى والمجوهرات فى الحال بواسطة رجال الشرطة الفرنسية.

أقيمت مؤسسات تابعة للحرس النازى (S.S) عملت على تشغيل السجناء فى معسكرات الموت هذه ، قبل إعدامهم ، وذلك بغرض إقامة إمبراطورية صناعية تابعة لـS.S. مرة أخرى كانت هناك معضلة المفاضلة بين إنزال الموت باليهود من خلال العمل الجبرى وبين تطبيق (الحل النهائى) بدون عمل...

ضم فرانك، الذى يترأس المكتب المركزى الاقتصادى السياسى WVHA واستثمر مراكز الموت الواقعة فى نطاق الحكومة العامة . حرص على استخدام الأيدى العاملة اليهودية فى مؤسساته مهما كلف الأمر ، حتى وإن كانت نتيجة تلك الحتمية هى تأخير تنفيذ «الحل النهائى». فى السادس عشر من سبتمبر ١٩٤٢ ، كتب إلى هيملر: «سيكون على اليهود الممكن استخدامهم فى العمل والمهاجرين نحو الشرق إيقاف رحلتهم والعمل فى الصناعة الحربية»[١٩٨]، عليهم أن يستمروا « فى العطاء حتى الثانية الأخيرة من الوقت الذى تبقى لهم فى الحياة ، حتى تستطيع وحدات النخبة النازية – الحرس النازى S.S أن تقيم قاعدتها الصناعية وتمارس دورًا اقتصاديًا نافذًا»[١٩٨] . فى الثامن عشر من سبتمبر، احتج الجنرال فون جنارت Von Ginart لدى الأركان العامة على سحب اليهود من الشركات :« مستحيل أن يستطيع البولنديون أن يحلوا محلهم . إنهم غير مؤهلين بشكل كاف» .

فى نوفمبر ١٩٤٢ ، طلب هتلر شخصيًا أن يتم سحب كل اليهود من صناعات التسليح، وأن يحل البولنديون محلهم ، بمجرد أن يتم تدريب هؤلاء الآخرين على العمل . آنذاك أرسل مسئولو المعسكرات غالبية القوافل إلى غرف الغاز ، ما أغضب مسئولى الـS.S على مخصصات اليد العاملة . لم يعد بوهل Pohl قادرًا على تأخير سير الأحداث . فى ربيع ١٩٤٣، لم يكن قد تبقى تحت إمرته إلا ١٦٠٠٠٠ ألف سجين : ١٥٪ منهم كانوا مخصصين لصيانة المعسكر وخدمته (مطبخ ، تمريض ، تفريغ ...إلخ) وللعمليات المتعلقة بالإعدام (يقوم "مسئولو النقل" بتنظيف عربات القطار بعد تفريغها، يقوم Ffeketen Kammer Kommandos بحفظ الأشياء الثمينة ، يتولى Sonder Kommandos تشغيل أفران حرق الجثث) .

يعمل الآخرون لصالح مؤسسات الـ (س.س) S.S ، لصالح بعض الشركات الخاصة (IG. Farben) وفى إنشاءات المعسكرات . تخصصت شركات الـ S.S أساسًا فى الأنشطة الأولية مقالع الحصى ، (أوشفيتز وتربلينكا ١) ، مصانع الأسمنت (مايدانك) منتجات مشتقة من الخشب[١٩٨].

أقامت مؤسسة IG. Farben مصنعًا للمطاط الصناعى فى أوشفيتز ، مصنع «Buna» كان ينتج ٢٥ ألف طن ، استثمر فيه ٧٠٠ مليون مارك ألمانى . كان السجناء العاملون فيه يخضعون لنظام المعسكر الغذائى. كانت IG. Farben تضيف إلى الوجبات قليلاً من حساء (Buna) من «أجل تحسين الإنتاجية »[١٩٨] ، كانت قوات الـS.S تؤمن الحراسة. عندما كانت IG. Fraben تطالب بمعاقبة بعض المعتقلين ، كانت قوات الـS.S تقوم بتوقيع العقوبة . أصبحت نظم وعقلية الـS.S مثل نظم وطرق تفكير الشركات: فعلى سبيل المثال ، أثناء بناء المصنع كان على السجناء (نقل الأسمنت بالخطوة السريعة) من بين الخمسة والثلاثين ألف معتقل الذين عملوا بمصنع BunaIII هلك خمسة وعشرون ألفًا على الأقل[١٩٨] . فى أثناء زيارة قامت بها مجموعة من المسئولين فى IG. Farben للمصنع أشار أحدهم إلى سجين مسن ، الدكتور فريتز لوهنر — بيد Fritz Lohner – Beda :« ربما كان على هذا الخنزير اليهودى أن يعمل بأسرع من هذا» ، ثم أضاف «إن كانوا غير قادرين على العمل فأرسلهم إلى غرف الغاز[١٩٨]» بعد الزيارة أخرج الدكتور لوهنر– بيدا من طاقم العمل وتعرض للضرب حتى الموت[١٩٨].

بالرغم من أوامر هتلر، الذى لم يكن يحبذ العمل الإجبارى، فقد لحق العديد من الشركات الكبرى بـ IG. Farben فى معسكرات الموت ، كانت مصانع كروب لصواعق التفجير ، التى دمرتها غازات الحلفاء على مدينة إيسن Essen. فى ٥ مارس ١٩٢٣، محل سبعة عشر مشروعًا بإعادة بنائها فى أوشفيتز ، عثر هولكسكامب ، أحد مديرى كروب Krupp على خمسمائة عامل يهودى كانوا لا يزالون يعملون فى مؤسسات برلين ، وقام بإرسالهم إلى أوشفيتز ليكونوا تحت تصرف مصنعه هناك[١٩٨] . فى غضون ذلك تعرض المسنون ، المرضى ، النساء ، الأطفال غير القادرين على العمل للإبادة. فى عام ١٩٤٣ ، ماتت صغرى بنات تيودور هرتزل فى معسكر تريزينشتات Theresienstadt كانت ابنتاه البكر قد انتحرتا عام ١٩٣٠ .

فى ٢٣ مارس ١٩٤٣، قام الإحصائى ريتشارد كورهر Ritchard Korherr بتلخيص الوضع فى يوم ٣١ ديسمبر ١٩٤٢ ، فى ست عشرة صفحة، آتيًا صراحة على ذكر «الحل النهائى للمشكلة اليهودية» .

مع ذلك فقد قامت هنا وهناك بعض حركات المقاومة . رفض الجيش الإيطالى منذ شهر يناير ١٩٤٣ ، التعاون مع الجيش الألمانى وتسليم اليهود الواقعين تحت سلطته ، مانعًا الألمان من إرسالهم إلى معسكرات الاعتقال . حتى إنه أجبر الفرنسيين فى شهر فبراير على رفض أمر بترحيل عدة مئات من يهود نيس Nice إلى أوشفيتز . شكا وزير الخارجية ريبنتروب Ribbentrop إلى موسوليني Mosolini من أن «الدوائر العسكرية الإيطالية ، تفتقر إلى رؤية (...) واضحة بشأن المسألة اليهودية».

قامت بعض حركات المقاومة أيضا فى المعسكرات ، فى كراكوفيا صمدت حركة أكيبا Akiba، إلى أن أرسل فى مارس ١٩٤٣ إلى معسكر العمل فى بلازتسوف Plaszow كل من بقى على قيد الحياة . ثار معسكر ترابلينكا فى ٢ أغسطس ١٩٤٣، شوبيبور فى ١٤ أكتوبر، ١٩٤٣ مايدانك وأوشفيتز – بيركناو ، فى ٧ أكتوبر ١٩٤٤، دفاعًا عن الشرف .

فى أكتوبر ١٩٤٣، كان مليون ونصف المليون يهودى قد لقوا حتفهم قتلاً فى معسكرات الموت .

مصائر ، فى نوفمبر ١٩٤٣ ، تم ترحيل الحاخام ريكارد باسيفيتشى دو جين Ricardo Pacifi De Genes ، ومائتى فرد من أعضاء طائفته ، مائة يهودى من المهاجرين إلى مدينة جنوة قادمين من شمال أوروبا إلى معسكر أوشفيتز حيث أعدموا خنقًا بالغاز. فى ١٩٤٤ داهم النازيون المائتين وستين يهوديًا المقيمين فى جزيرة كريت فى مدينة كاندى Candie (اسم آخر لمدينة Heraklion) ووضعوهم على ظهر سفينة مع أربعمائة رهينة يونانية ، وثلاثمائة جندى إيطالى، غرقت السفينة : لم ينج أحد.

خلال ذلك الوقت ، كان اليهود لا يزالون يعملون فى مصانع معسكرات الموت ، فى ١ مارس ١٩٤٤ ، احتاجت لجنة تنسيق برئاسة شبير Speer ، المكلفة ببناء مصانع للطائرات فى أقبية شاسعة ، إلى مائتين وخمسين ألف عامل.

طلبت اللجنة استخدام اليهود . قبل هتلر، بتحفظ بأن تستخدم (كحل أخير) المائة ألف يهودى مجرى الذين لم يتم ترحيلهم إلى معسكرات الاعتقال بعد ، سأل الجنرال بوهل Pohl: «هل يمكن استخدام النساء فى برنامج بناء منظمة Todt[١٩٨] ؟ ». رد ساخر من هيملر، فى الثانى من مايو ١٩٤٤:«عزيزى بوهل! بالتأكيد يجب استخدام نساء اليهود! سوف يتعين فقط العناية بتغذيتهن جيدًا، المهم هنا، هو التزود بالخضروات الطازجة، فلا تنس إذن أن تجلب كثيرًا من ثوم المجر[١٩٨]!». فى ٩ يونيو ١٩٤٤ ، أعلن بوهل أن من عشرة إلى عشرين ألف «يهودية مجرية» جاهزات للعمل بالفعل . قال مدافعًا (لقد حصلنا بالأمس القريب على نتائج استثنائية فى مصانع سيمنس Siemens باستخدام اليهوديات فى التركيبات الإيكتروميكانيكية»، وقد رد عليه مسئول فى وزارة الأقاليم الشرقية المحتلة « إن المسألة الاقتصادية لا يجب أن تؤخذ فى الحسبان عند حل المسئولية اليهودية[١٩٨].»فى صيف ١٩٤٤، أنهى الأربعمائة وخمسون ألف يهودى مجرى عهد عذابهم فى أوشفيتز[٤٤٥] .

كلما تطور برنامج الإبادة . ازدادت التكاليف . قدرت التكاليف الإجمالية للنقل ، إقامة المعسكرات ، عمليات الإعدام بمئة وخمسين مليون مارك ألمانى.

فى ٣١ يوليو ١٩٤٤، قبل وصول قوات الحلفاء إلى منطقة باريس[٣٢] ، قام موريس كيفر Maurice Kiffer بعمل حسابات معسكر الاعتقال فى درانسى ، الذى يقوم بإدارته منذ شهر أكتوبر عام ١٩٤١، نيابة عن مدير شرطة باريس أميديه بوسيير Arnedee Boussiére. قدر كيفر القيمة الكلية لـ (التحصيلات) ، أى المبالغ التى تم مصادرتها من٦٧٠٠٠ ألف معتقل فى درانسى قبل ترحيلهم إلى معسكرات الموت ، بمبلغ٢٤٢٠٨٤٢٢ فرنك فرنسى. كتب كيفر قائلاً: « لقد نقلت الجزء الأكبر من المبالغ المتبقية فى خزينتنا إلى صندوق الودائع والأمانات ، أى ما يساوى ١٢٠٣٩٨٩٢,٨٥ فرنك»، (حوالى٢,٥مليون يورو بأسعار ٢٠٠٢) . ماذا تعنى كانت عبارة «مبالغ متبقية فى خزينتنا»، غير أن الكل كان يأخذ منها على هواه ؟ يوضح كيفر أنه قد تبقى في خزائنه أيضًا أموال منقولة (أسهم ، سندات لحاملها)، «لم يتخذ بشأنها أى قرار» ، وكذلك بعض الحلى والمجوهرات والمقتنيات الثمينة. قدر إجمالى قيمة ما تم مصادرته فى درانسى بـ ٢٤ مليون فرنك (٥ ملايين يورو بتقدير عام ٢٠٠٢).

كما رأينا للتو فإنه قد أودع على هذا الإجمالى فى يوليو ١٩٤٤ ،بقيمة الرصيد البالغ ١٢ مليون فرنك فى صندوق الودائع والأمانات ، الذى يعلن اليوم أنه غير قادر على إيضاح ماذا حل بهذه الأموال.

من المحتمل أنها قد حُولَت إلى حسابات ودائع مفتوحة فى الصندوق بواسطة مدير الشرطة...

غادرت آخر قوات الحزب النازى S.S معسكر درانسى فى السابع عشر من أغسطس ١٩٤٤ ، إن مجموع اليهود الذين تم اعتقالهم فى فرنسا وترحيلهم قد بلغ ٧٥٧٢١[٢٢٤] يهودى ، ٣٠٠٠٠٠ ألف صودرت ممتلكاتهم ولم يستطع الكثير منهم استرجاعها أبدًا.

فى نوفمبر ١٩٤٤ ، قرر النازيون أن المشكلة اليهودية قد حلت وأوقفوا عمليات الإعدام بالغاز فى معسكر أوشفيتز ، آخر معسكرات الإعدام التى كانت لا تزال فى الخدمة، قاموا بتدمير غرف الغاز وأفران حرق الجثث ، وصل الروس إلى أوشفيتز فى العشرين من يناير ١٩٤٥.

فى الثانى من أبريل ١٩٤٥ ، استخدمت مذكرة داخلية فى إدارة صندوق الودائع، فى مواجهة ضرورة إعادة هذه السندات أو سداد قيمتها وفقًا لأسعار شرائها ، تعبير (اليهودى)ست وعشرين مرة ، منها خمسة عشر مرة فى الصفحتين الأوليين . على سبيل المثال كان بالإمكان أن نقرأ فيها: « من المؤكد أن اليهودى سوف ينحاز إلى الجانب الأربح بالنسبة له[٢٢٣]».

حتى وإن كان من غير الممكن للخسة أن تقتصر على تجريدات الأرقام ، فإن هذه الأرقام تقول ما يكفى : لقد كان هناك تسعة ملايين يهودى فى أوروبا عام ١٩٣٣؛ تعرض ثلثهم للإبادة.

البال الخامس

سفر التثنية

(-١٩٤٥)

١- الأراضى والكتاب.

٢- لا حضر مقيمين بدون بدو رحل.

٣- حلقة الوصل بالشرق – إسرائيل.

٤- حلقة الوصل بالغرب – بلاد الشتات.

٥- من الشرق ومن الغرب.

بانتهاء الحرب العالمية الثانية، انهارت كل الإستراتيجيات التى ظلت قائمة ثلاثة آلاف عام، لم تكن المنافى القديمة ملاجئ آمنة، ولم يبعد المال العنف، لم ينج الرب شعبه من الجحيم.لم يستطع اليهود الأمريكان الذين كان يقال إنهم أقوياء، لا منع المجازر، ولا إقامة الدولة – الملجأ، ولا التعجيل بإنهاء الحرب، لم يكن النفوذ المزعوم سوى وهم من تصور الجلادين.

إن نتيجة المحرقة تفرض حقيقة واضحة: إن غالبية هذا الشعب كانت مكونة من عمال فقراء من وسط أوروبا، وليس من رجال مصارف أغنياء من ألمانيا، إن الناجين يلتزمون الصمت، شهودًا على مذابح لم يعد أحد من حولهم يريد أن يسمع عنها شيئا.

كان البعض يتمنى العودة إلى حالة التخفى والتستر، حتى ولو بتغيير أسمائهم، ألا يقوم بإحصائهم بعد ذلك أحد ولا أن يختارهم أحد، ولو كان الرب ذاته. وآخرون، بعكس ذلك، يريدون إيقاظ ذكريات الشتات، أن يعيدوا إليها بهاءها القديم، يردوا إليها إمكاناتها، وقبل كل ذلك إعادة بناء مؤسسات التضامن لصالح أولئك الناجين من أوروبا.

وختامًا، فهناك آخرون يرغبون فى بناء الدولة – الملجأ، بأسرع ما يمكن، ذلك الوطن الذى كثيرًا ما اشتاقوا إليه. بالنسبة لبعض هؤلاء كان لابد لهذا الوطن أن يكون عاديًا، مجهولًا، لابد له من الفكاك من تميزه الملعون، من نسيان عقيدته اليهودية، لابد أن يتمكن الجميع من مزاولة أى مهنة، حتى وإن كانت غير مشروعة؛ ورأى آخرون أنه لابد لهذا الوطن أن يكون مثالًا للأخلاقية العلمانية، اشتراكيًا على الطريقة الألمانية وفى نفس الوقت ديمقراطيًا على الطريقة الإنجليزية، يمكن أن يولد فى إنسان جديد متحرر من مقتضيات الإرث اليهودى والبلاد التى استقبلتهم، بطل توراتي، وفى نفس الوقت، مفكر من فيينا، وختامًا يرى نفر آخر، أن الدولة الجديدة يجب أن تكون دولة دينية لا تخضع إلا لشرائع

مملكة داوود وحدها، بما فى ذلك الاحتفال باليوبيل(*)، تحريم القروض الربوية بين اليهود وبعضهم، التصدق، معجلة بذلك مقدم المسيح، فى كل هذه المشروعات الثلاثة، تعلق الأمر ببلد خيالي، يوتوبيا، يجب بناؤه بلا أموال، بلا جيش، بلا تنظيم دولة، حتى بلا شعب...... بل وفي وسط بيئة معادية

كان هذا هو أيضًا، للغرابة، رهان السفر الأخير من توراة موسى الخماسية الأسفار، سفر التثنية، (الكلمات) ٩٠. سفر للخيالات والأحلام، ربما أمكنه للمرة الأخيرة ؟، مجازًا على الأقل، مواكبة التاريخ.

تأمل فى مجمل ما جاءت به الشريعة، التى نقل الله معظمها إلى موسى وفقًا للمأثور، فى الأيام السبعة والثلاثين الأخيرة من حياته، على مشارف الأرض الموعودة، يلخص السفر الخامس المبادئ الضرورية للحياة فى إسرائيل فى وسط الشعوب المناهضة: الوصايا العشر، الجملتان الأوليان فى الشيما –الصلاة التى تجمع اليهود، أينما كانوا فى معظم الأوقات جلالًا وروعة– وآخر أحاديث الأب، الرؤية الأخيرة لمكانة الحرية فى حياة البشر.

يضم هذا السفر مجموع الشرائع الأساسية، التى تتيح لإسرائيل أن تكون مثالًا أخلاقيًا، ومجمل العقوبات التى تنتظرها إن لم تكن كذلك، أنه يصف للمرء على وجه الخصوص كيف ينشر الخير من حوله، كيف يؤمن رخاءه عبر رخاء جيرانه.

موضوع، دون شك– على الأقل بشكل جزئى بعد الخروج من الصحراء بوقت قليل، يهدف سفر التثنية إلى مكافحة المعتقدات الوثنية المحيطة بهم وإبعاد عدوى الشعب الرحال الذى عاد أخيرًا إلى أرضه: الوثنية المفسدة، الخلاف المؤدى للفرقة.

إنهما تحديدًا القضيتان المطروحتان على الناجين من الشعب اليهودى لدى خروجه من صحراء المحرقة.

(*) jubilie اليوبيل، عيد عبرانى فى الديانة اليهودية ، يحتفل به كل خمسين عامًا ...(عاصم)

١ - الأراضى والكتاب

عندما طلع الفجر على الأنقاض، أدرك الجميع هول الكارثة، اختفى عشرات الملايين من الروس الأوكرانيين، الغجر، الألمان، البولنديين، المجريين، ستون مليون من القتلى كان ثلثاهما من اليهود الأوروبيين.

لم يعد يتبقى شىء من تلك الطوائف التى كانت قد نجحت مع ذلك فى الصمود، أحيانًا طوال ألفى عام، ضد كل صنوف الاضطهاد من أنفرس إلي أوديسا، من بوردو إلى سميرن (أزمير)، من ليفورن إلى فيلنا، من فرانكفورت إلى تريستا، Triesta من فيينا إلى كييف، من هامبورج إلى سالونيك Salonique، من برلين إلى برسلو Breslau، من أمستردام إلى لودز، لا شىء، لم يعد هناك أحد، هلك عدد كبير أيضًا من يهود الجزائر.

فى كازيمرز خرج ألفان، من الناجين بمعجزة من الأقبية ومن أدغال جالسي. فى كل أنحاء بولندا، يدين المئتان وخمسون ألفًا من اليهود الباقين على قيد الحياة بنجاتهم إلى بعض البولنديين المنصفين وإلى وصول الجيش الأحمر، انضم بعض الآخرين مؤقتا إلى شبكات المقاومة فى هولندا وفى فرنسا، حيث أوكلت إليهم فى الغالب أكثر المهام خطورة، ترك اتساع الكارثة، التى لا يمكن تفسيرها، الباقين على قيد الحياة متحجرين، يغمرهم شعور جارف بالذنب الجماعي: بالنسبة ليهود أوروبا لأنهم لا يزالون على قيد الحياة، وبالنسبة للآخرين لأنهم لم يدركوا فى الوقت المناسب ماذا كان يجرى فى الجحيم النازي، لأنهم لم يتمكنوا من التعجيل بالإغارة على الطرق المؤدية إلى أوشفيتز، ولا إنزال الحلفاء فى نورماندي، وفى صقلية، ولا الهجوم السوفيتى المضاد.

عـودة إلى الأرض

ما إن تم تحريرهم من معسكرات الاعتقال، حتى غادر الناجون فى ألمانيا والمجر، بولندا، وسط أوروبا، واتجه معظمهم إلى فلسطين عبر منظمة التضامن الموحدة «LEJOINT» وَصْلْ، قام اليهود الأمريكيون بتمويل عمليات السفر التى كانت سرية

بشكل عام: « هروب» وفقًا لتعبير منظمى هذه الرحلات، من أطلق عليهم آنذاك تأدبًا الـ displaced people النازحين.

فى الجغرافيا السياسية الجديدة التى تشكلت آنذاك قامت حدود بين المعسكرين وبدا أن كل شيء يجب أن يقرأ من الآن فصاعدًا وفقًا للمواجهة الجديدة بين الشرق والغرب. غير أن فلسطين لم تكن حتى ذلك الوقت أحد رهانات الحرب الباردة ، وبدا ستالين، الذى أصبح حاكم الشرق مؤيدا لميلاد دولة يهودية، كانت على أى حال إلهامًا روسيًا، سوف تساعد كما يأمل، فى كبح جماح نفوذ البريطانيين فى الشرق الأوسط. هؤلاء الأخيرون، الذين يريدون التخلص من الوصاية على فلسطين بأسرع ما يمكن، لم يعودوا يقرون إلا على مضض، مثل ذلك المشروع الذى يأسف، البعض منهم، لأنهم كانوا أول من دعا إليه فى عام ١٩١٧. فى واشنطن، كان الرئيس ترومان مؤيدًا للمشروع معتقدًا أن تطبيق وعد بلفور قد صار واجبًا، بعد المحرقة، بينما كانت وزارة الخارجية، ووزارة الدفاع معارضين له بكل صراحة. كان الصهاينة بالنسبة لهم، اشتراكيين بأكثر مما يجب، وأن البلاد العربية البترولية ربما راودتها فكرة الاصطفاف خلف ستالين لإبعاد الخطر الصهيوني.

لم يكن من الوارد أبدًا التنازل عن البترول للسوفيت.

مدركين أن البريطانيين يريدون التخلص من وصايتهم على فلسطين بأسرع مما يمكن، قرر الصهاينة احتلال مواقع إستراتيجية تسمح لهم بالتحكم فى إقليم مترابط بما يكفى لإقامة دولة، هكذا أدارت الوكالة اليهودية حوالى مائة مستوطنة بدعم مالى « لا يزال متواضعًا للغاية: أقل من خمسين مليون دولار» من « وصل» Joint الأمريكية، المهتمة مبدئيًا بمساعدة اللاجئين فى أوروبا.

فى مارس ١٩٤٥ ، قامت ست دول عربية، مصر، سوريا، العراق، لبنان، المملكة العربية السعودية، وشرق الأردن بإنشاء الجامعة العربية فى القاهرة، كان النزاع يتهيأ للظهور.

فى يناير ١٩٤٦ ترك البريطانيون العراق للأمير فيصل، الابن الأكبر للشريف حسين ملك الحجاز، وشرق الأردن إلى الأمير عبد الله، أخيه الأصغر. فى نفس الوقت تقريبًا فى مارس، أعلن ونستون تشرشل فى خطاب Fulton الشهير أن ستارًا حديديًا قد أسدل بين شطرى أوروبا.

لتسوية الوضع القانونى للفترة المتبقية من الانتداب البريطاني، خلصت لجنة أنجلو أمريكية إلى ضرورة أن يجرى ذلك من خلال منظمة الأمم المتحدة التى تم إنشاؤها مؤخرًا. لا يزال كثير من السفارات مترددًا فى الاختيار بين دولة واحدة تضم اليهود والعرب، وبين دولتين منفصلتين، ولم يكن أحد يعرف، فى كلتا الحالتين، ما سيكون عليه مصير القدس.

خلال اجتماع سرى فى باريس، عقد فى أغسطس ١٩٤٦، قررت إدارة الوكالة اليهودية قبول التقسيم وحصلت على موافقة الرئيس ترومان بشأن ذلك. بوصول اليهود الناجيين من الشرق، تغير التوازن السكانى فى منطقة ما بين البحر ونهر الأردن. يوجد الآن فى فلسطين ٦٥٠٠٠٠ ألف يهودى ودائما كان هناك مليون عربي. قادمين من بعيد، جذبتهم فرص العمل التى خلقها المستوطنون والدعم الإنجليزى. إلى جانب مائة ألف يهودى بولندي، انضم مائة وثلاثة وعشرون ألف يهودى رومانى. فى أكتوبر ١٩٤٧، منحت إحدى عشرة مستوطنة جديدة موزعة بعناية، للوكالة اليهودية ولرئيسها، بن جوريون، السيطرة على صحراء النقب.

ما إن بدأت منظمة الأمم المتحدة نشاطها حتى عرض البريطانيون القضية الفلسطينية أمام مجلس الأمن.كان أحد أوائل قراراته هو إنشاء لجنة خاصة بفلسطين (UNSCOP) ، فى ١٣ مايو ١٩٤٧ مكونة من ممثلى إحدى عشرة دولة. منذ اليوم التالي، انحاز المندوب السوفيتى الدائم فى مجلس الأمن، أندريه جوريميكو Andrei Gromyko، بوضوح إلى جانب قيام دولة يهودية مستقلة على جزء من هذا الإقليم.«لم تتمكن أى دولة أوروبية من الدفاع عن الحقوق الأساسية لليهود فى مواجهة العنف الفاشيستي. إن هذا يفسر آمال اليهود فى الحصول على دولتهم. سيكون من الظلم إنكار هذا الحق.»

انضم الدبلوماسيون الأمريكيون والبريطانيون إلى موقف جوريميكو على مضض: في الوقت الذى كانت خطة مارشال تتأهب فيه لضخ ثلاثة عشر مليارًا من الدولارات فى أوروبا، لم يكن هناك قرش واحد متاح للشرق الأوسط لا فى واشنطن، ولا فى لندن ولا فى موسكو، لا من أجل المهاجرين غير الشرعيين، خصوصًا مهاجرى «الهروب » الذين وصلوا فى شهر يوليو ١٩٤٧، بعد تيه طويل. ولا لعرب مناطق الانتداب. أجرت اللجنة الخاصة التابعة للأمم المتحدة تحقيقًا ميدانيًا خلال شهرى يونيو ويوليو. شرحت لها الوكالة اليهودية مشروعها، قاطعت اللجنة العربية العليا لجنة الأمم المتحدة التى قدمت تقريرها فى سبتمبر: طالبت سبع دول «كندا، أورجواي، تشيكوسلوفاكيا، جواتيمالا، بيرو، هولندا، السويد» بإنشاء دولتين منفصلتين ومنطقة دولية فى محيط القدس، تتجمع تلك الكيانات الثلاثة فى وحدة اقتصادية تضم الدولة العبرية كل المستعمرات الموجودة بالفعل وسوف يكون عدد سكانها ٥٥٨٠٠٠ ألف يهودى و٤٠٥٠٠٠ ألف عربي، الدولة الفلسطينية سوف تضم ٨٠٠٠٠٠ ألف عربى و١٠٠٠ ألف يهودى ، وتضم المنطقة الدولية ١٠٠٠٠٠ ألف يهودى و ١٠٥٠٠ ألف عربي، طالبت الهند، إيران، يوغسلافيا بإقامة دولة موحدة تضم « إقليمين » الأول تحت إدارة يهودية، الآخر تحت إدارة عربية. امتنعت أستراليا عن التصويت.

وافق الصهاينة على الخطة، بالرغم من ضيق الإقليم الذى منح لهم وغياب أورشليم (القدس): دولة، أخيرًا ! رفضت الدول العربية خطة التقسيم وهددت بالدخول فى حرب إذا أقيمت دولة عبرية بهذا الشكل. حاكم عربى واحد، ملك شرق الأردن، أوصل إلى علم مسئول الوكالة اليهودية، بن جوريون، أنه ربما يسمح بإقامة دولة يهودية شريطة انضمام الجزء المتبقى من إقليم الانتداب إلى مملكته، كما كان البريطانيون قد نقلوا إلى أسماع والده عام ١٩١٧.

تصاعد التوتر.خلال مقابلة سرية جرت فى نيويورك، قبل التصويت بقليل، فى ١٦ سبتمبر ١٩٤٧، قال أمين الجامعة العربية عزام باشا لممثل الوكالة اليهودية أبا إيبان Abiba Ebari: « إنكم لن تستطيعوا الحصول على شيء إلا بقوة السلاح. سنحاول أن

نلحق بكم الهزيمة. لست متأكدًا من أننا سوف نربح. لقد طردنا الصليبيين، لكننا فقدنا إسبانيا وإيران، من المحتمل أن نفقد فلسطين، لقد تأخر الوقت كثيرًا لنبدأ الحديث حول حل سلمي (١٣٦)». كان من غير الممكن تفادى الحرب.

بدأ النقاش فى الجمعية العامة حول تقرير اللجنة الخاصة فى ٢١ أكتوبر ١٩٤٧ ، فى حلقة التزلج فى استاد فلشنج ميدوز **FLUSHING MEADOWS**، الذى استخدم كمقر مؤقت للأمم المتحدة. كانت الحرب الدبلوماسية غير محسومة النتائج. أعلن الرئيس الأمريكى أن الدولتين فى حال توحدهما، يمكنهما أن يشكلا كيانًا اقتصاديًا قادرًا على البقاء « إذا قمنا بتطوير هذه المنطقة كما قمنا بتطوير منطقة حوض التنيسي، يمكنها أن تعيل من عشرين إلى ثلاثين مليون شخص».

فى اجتماع سرى آخر جرى فى نهاريا **Naharaya** فى منزل أفراهام روتنبرج **Avraham Ruthenberg** ، مدير محطة توليد كهرباء أقيمت على نهر الأردن (١٣٦)، فى ١٧ نوفمبر ١٩٤٧ وقع عبد الله ملك الأردن مع نائبة بن جوريون، جولدا مائير اتفاقا يلتزم بمقتضاه بعدم التدخل فى الصراع فيما بعد خطط التقسيم الذى اقترحته اللجنة الخاصة، فى مقابل أن يتم التنازل لصالحه عن الإقليم المخصص للفلسطينيين: فلسطين، إنه شخصيًا هو فلسطين.

فى التاسع والعشرين من نوفمبر، فى إحدى جلسات الاقتراع الأخيرة غير متأثرة بأجواء الحرب الباردة، وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على التقسيم، بثلاثة وثلاثين صوتًا ضد ثلاثة عشر صوتًا رافضة وامتناع عشرة أعضاء عن التصويت. تم التوصل إلى الحد الضرورى لصحة التصويت، موافقة ثلثى الأعضاء. صوتت الولايات المتحدة، الاتحاد السوفيتي، بريطانيا العظمي، فرنسا لصالح التقسيم، صوت بعض حلفاء الولايات المتحدة (اليونان وكوبا) ضد التقسيم، وامتنع آخرون (السلفادور وهندوراس) عن التصويت، تقرر أن يعلن عن قيام الدولتين بانتهاء فترة الانتداب البريطاني، المحددة فى ١٤ مايو ١٩٤٨. فى تلك الليلة تحديدًا قام فدائى عربى باغتيال سبعة ركاب يهود فى إحدى الحافلات.

فى الخامس من ديسمبر، قررت الولايات المتحدة حظر توريد الأسلحة إلى المنطقة، بينما واصل البريطانيون توريدها إلى العرب وواصل اليهود شراءها من تشيكوسلوفاكيا عن طريق التهريب.

وفى يناير ١٩٤٨، أول هجوم عربي، الذى قام به جيش التحرير العربى برئاسة فوزى القاوقجي، على مستوطنات الشمال. حاولت الهاجانه تحقيق اتصال أرضى بين المستعمرات وتأمين السيطرة على مصادر المياه التى تمد بحيرة طبرية ونهر الليطاني: كانت تلك هى الخطة D التى وضعها بن جوريون. وفى الأول من مارس ١٩٤٨، تحول مجلس اليشوف YISHOUV، الهيئة الإدارية للوكالة، إلى مجلس شعب مؤقت يضم سبعة وثلاثين عضوًا، شبه برلمان مؤقت يمهد لإعلان الدولة. رفض ألبرت أينشتاين، الذى ناضل من أجل قيام الدولة، التماس بن جوريون بأن يكون أول رئيس لدولة إسرائيل، سوف يرفض مرة أخرى عام ١٩٥٢ « حزين لعدم استطاعتى القبول ». سيكون المنصب لحاييم وايزمان، الذى يحلم به منذ ثلاثين عامًا. حتى شهر أبريل ١٩٤٨، كان الهجوم من جانب العرب، كان يهود أورشليم معزولين، فى السادس من أبريل، حاولت قوات الهاجانه، بلا جدوى، فتح طريق أورشليم. فى اليوم التاسع تعرضت بلدة دير ياسين الواقعة على هضبة تتحكم فى طريق أورشليم لهجوم من عصابة الإيرجون IRGOUN(*) بالرغم من المعارضة المعلنة من الهاجانه لذالك. أسفرت المجزرة عن حوالى مائة ضحية – أقل ما أعلنته الوكالة اليهودية مرارًا بنفسها – لإثارة نعر السكان العرب، أو ما أعلنه العرب (للتنديد بإيرجون) تسبب ذلك فى رحيل جماعى للعرب، تاركين منازلهم، حقولهم[٣٧٨].

بعد ذلك بأربعة أيام، وقعت قافلة صحية يهودية، كانت فى طريقها إلى مستشفى Hadassah فى أورشليم، فى أحد الأكمنة لقى سبعة وسبعون شخصا مصرعهم قتلا: أطباء، ممر ضيق، مرضى وجرحى، فى الثانى والعشرين من أبريل استولت قوات

(*) IRGOUN المنظمة العسكرية اليهودية الوطنية – قوات قتالية تنادى بحرية إسرائيل، وصفتها الإدارة البريطانية بالإرهابية، ارتكبت العديد من المجازر فى فلسطين ....(المترجم – عاصم عبد ربه).

الهاجاناه(*) على حيفا، في الرابع من مايو هاجمت الفرقة العربية قرية كفار إيزيتون Kfar Etzion، وأبادت الأحياء بعد استسلامهم، في الرابع عشر من مايو، بعد رحيل البريطانيين أعلن دافيد بن جوريون مولد دولة إسرائيل بعد ١٨٧٨ عامًا من الغياب، كان عدد السكان وقتها من اليهود ٧٠٠٠٠٠ ألف ومن العرب ١٥٦٠٠٠ ألف عربي اختاروا البقاء.

إلى هذا الإقليم الذي كان لا يزال غير ثابت الحدود، ضمت معظم الأراضي التي كانت تحت مظلة الحماية الإنجليزية، وقام حاييم وايزمان بتكليف دافيد بن جوريون بتشكيل حكومة مؤقتة مؤلفة من دوائر الوكالة اليهودية الخمسة، التي لم تعد تحتفظ إلا بمسئولية استقبال اللاجئين بمساعدة البنك الأنجلو / فلسطيني.

إن التاريخ الذي يبدأ الآن متفردًا تمامًا كما كان في القرون الماضية. وسوف يتسم اقتصاد الشعب اليهودي مرة أخرى، في هذا الموضوع، بسمات نوعية خاصة، في بحر خمسين عامًا، سيكون عليه أن يقيم دولة جديدة سيتضاعف عدد السكان خلالها سبع مرات، سيكون على ربع إنتاجها أن يخصص للدفاع، ولن يكون بمقدورها أن تمارس أي تجارة مع جيرانها.

وبرغم هذه العقبات التي لا مثيل لها في التاريخ، سوف يرتفع مستوى المعيشة فيها بمقدار أربعين ضعفًا خلال نصف قرن، ستصبح الأولى على مستوى العالم في مجال التعليم، البحث، التصدير الصناعي، التأهيل المهني، والابتكارات التكنولوجية. إن المساعدة الخارجية،الهزيلة جدًا في البداية، ثم هائلة جدًا، لا تبرر كل هذا التطور، بل كانت عكس ذلك: فالمساعدات التي سوف يتلقاها جيرانها سوف تكون بنفس القدر بينما سيظل مستوى المعيشة في تلك البلاد أقل بعشرة أمثال.

(*) Haganah منظمة الدفاع الصهيونية تكونت عام 1921 للدفاع عن أرواح وممتلكات سكان المستوطنات اليهودية في فلسطين أثناء الانتداب...كانت نواة الدفاع فيما بعد ...(المترجم - عاصم عبد ربه).

بالطبيعة لم يكن بإمكان الدولة الجديدة أن تتقيد بالمبادئ الاقتصادية للتلمود. إنها دولة يهودية، وليست دولة توراتية. إنها حكومة اشتراكية ، ليست دينية. تمتلك الدولة كل الأراضى تقريبًا وكل البنوك وثلثى جهاز الإنتاج الصناعي.يعود الباقى إلى الوكالة اليهودية، النقابات والمستوطنات الجماعية. مثلت صور التجارة الصغيرة وحدها المؤسسات الخاصة فيها. لن يزاحم أحد بعد الآن البنوك فى حق الحصول على فوائد على قروض عملائها.

كانت الولايات المتحدة أول من اعترف بواقع الدولة الجديدة، بعد الإعلان عن قيامها بإحدى عشرة دقيقة. كان الاتحاد السوفيتى أول من اعترف بها قانونيًا، ما ستقوم به فرنسا بعد أربعة شهور، ولن يقوم البريطانيون والأمريكيون بذلك إلا بعد ثمانية شهور. سوف يكتب ليون بلوم إلى الرئيس وايزمان قائلًا: « إننى يهودى فرنسي، ولدت فى فرنسا لسلسة طويلة من الأجداد الفرنسيين، لا أتحدث سوى لغة بلادى، نهلت من ثقافتها، رفضت أن أغادرها حتى فى الوقت التى تعرضت فيه لأشد الأخطار، غير أننى شاركت بكل جوارحى فى الجهد الرائع – الذى انتقل بمعجزة إلى مرتبة الحقيقة التاريخية – الذى ضمن منذ الآن فصاعدًا وطنًا كريمًا، مستقلًا، حرًا من أجل كل اليهود، الذى لم يكن لهم مثلي، الحظ فى أن يجدوه فى أوطانهم الأم.»

لم يعد أحد يفكر فى إعلان الدولة الفلسطينية التى أرادتها الأمم المتحدة، أما الجيران العرب من جانبهم، فلم يفكروا إلا فى تدمير الدولة العبرية.

فى الخامس عشر من مايو، أعلن عزام باشا، أمين الجامعة العربية (حرب إبادة) فى نفس اليوم، هاجمت إسرائيل جيوش مصر، سوريا، شرق الأردن، لبنان، العراق. فى مواجهتها كانت هناك قوات الهاجانه – تساهال – التى لم تكن تمتلك أى دبابة أو أى مدفع، من بين ٦٠٠٠٠ ألف مقاتل كان ١٩٠٠٠ ألف فقط مزودين بأسلحة ثقيلة قادمة من تشيكوسلوفاكيا ثم من فرنسا. بدت المعركة خاسرة فى بداية الأمر، فى ١٩ مايو استسلم الألفان وخمسمائة يهودى الموجودون فى مدينة القدس القديمة، فى ١١ يونيو أعلن وقف إطلاق النار، لكنه لم يصمد طويلا. ثم انعكست الحركة فى ١٢ يوليو، استولى عقيد شاب

من تساهال(*)– إسحق رابين– علي«اللود lod» .طرد منها العرب وأعيد فتح طريق أورشليم بعد معركة عنيفة بين تساهل وقوات الفرقة العربية التى يقودها جلوب باشا الإنجليزي. تكررت هدنة ثانية فى ١٨ يوليو لم تستمر هي الأخرى. فى شهر أغسطس، وصل الكونت برنادوت للتباحث بشأن اتفاق يجرى تحت رعاية الأمم المتحدة، اقترح برنادوت أن تقوم إسرائيل برد صحراء النقب وأورشليم فى مقابل الحصول على الجليل، الأمر الذى رفضه الطرفان، ثم اغتيل الكونت، واستمر القادة العرب فى حث مواطنيهم على الرحيل، انتظارًا لأن يتم إلقاء اليهود فى البحر. احتل تساهال الجليل ووصل إلى مرتفعات الجولان وإلى جبل حرمون. استمرت الفرقة العربية – فى قصف أورشليم حتى شهر أكتوبر . لا يزال الرئيس ترومان مترددًا فى مساندة الدولة الجديدة بوضوح كامل. كانت تصريحاته حذرة للغاية، وهكذا قال فى ٢٨ أكتوبر ١٩٤٨: " إن التأكد من أن سياستنا فى إسرائيل تتفق مع سياستنا العالمية، مسئولية كبري، إن من دواعى سرورى أن أساعد فى بناء دولة ديمقراطية قوية، مزدهرة، حرة مستقلة، على أرض فلسطين. يجب أن تكون كبيرة بما يكفي، حرة بما يكفي، قوية بما يكفي، كى تتيح لشعبها أن يتكفل وحده بتطويرها وتأمينها[١٣٦]. بعبارة أخرى إننا لا نرغب أن تسقط الدولة الجديدة فى المدار السوفيتي.

فى ديسمبر اتخذ عبد الله لقب ملك المملكة الأردنية الهاشمية، اسم جديد لشرق الأردن. للمرة الأولي، أصبح جزء من فلسطين مستقلاً بشكل واضح.وطالب قرار الأمم المتحدة [١٧٤]إسرائيل بأن تسمح بعودة اللاجئين الفلسطينيين " إلى ديارهم بأسرع ما يمكن" وبتعويض لكل من قرروا عدم العودة ". لم يستجاب إلى أى شىء وسوف يتكدس اللاجئون فى معسكرات دون أن يفعل القادة العرب شيئا لإخراجهم منها .[٣٧٨]

(*) Tsahal جيش الدفاع الإسرائيلى : تكون عقب إعلان قيام الدولة الإسرائيلية فى ١٤ مايو ١٩٤٨، كانت نواته الأساسية قواته الهجاناه.... (المترجم : عاصم عبد ربه)

إجمالًا، غادر ٧٠٠٠٠٠ ألف عربى ديارهم – نصفهم وفقا للمؤرخين الجدد الإسرائيليين– تحت ضغط الإسرائيليين. أثناء ذلك الوقت ، تشكل جهاز إدارى للدولة العبرية ابتداء من بعض الوكالات.ومن إدارة الانتداب البريطانى ، أقر أول وزير للمالية، إليعاذر كابلان،الليرة «كانت ليرة واحدة تساوى آنذاك خمسة دولارات » كعملة للدولة، وقام البنك الأنجلو / فلسطينى بإصدارها فى البداية– سوف يتحول إلى بنك ليومي Leumi ، كان أهم أولوياته التحكم فى النفقات الاجتماعية وتحصيل الضرائب.

بلغت أول ميزانية للدولة، ميزانية عام ١٩٤٩ ، ١٦٠ مليون دولار مقابل ناتج محلى إجمالى قدره مليار دولار على الأقل.

بلغ مقدار العجز الخارجى ٢٢٠ مليون دولار. وبلغت معونة يهود الشتات ٦٠ مليون دولار معادلة صعبة الحل.

وفى ٣١ يناير ١٩٤٩ ، نفس اليوم الذى اعترفت فيه الولايات المتحدة بإسرائيل، أكدت الولايات المتحدة الحظر التام على توريدات الأسلحة ووافقت على منح الدولة الجديدة أول قرض بقيمة ١٣٥ مليون دولار، ما يغطى بالكاد نصف الدين الخارجى لتلك السنة الأولى .

وفى ١٤ فبراير ١٩٤٩ وافق البرلمان العبرى على " القانون الانتقالي "،الذى سوف يطلق عليه مسمى الدستور الصغير:

لم يكن يقطع فى أى قضايا شائكة، كان فيها مسئولو تلك الفترة من العلمانيين، لا يرغبون فى مواجهة رجال الدين الحالمين بدولة دينية.

فى عام ١٩٤٩ ، جرى توقيع أربع اتفاقيات متوالية للهدنة: فى ٢٤ فبراير مع مصر، فى الثالث من أبريل مع المملكة الأردنية الهاشمية فى رودس Rhodes،فى ٢٣ مارس مع لبنان فى نهاريا.(١٣٦)، وأخيرًا فى سوريا فى العشرين من يوليو فى ميشمان حاياردن Mishman Hyarden.فى حين رفض العراق التوقيع. استمر الفلسطينيون فى مغادرة أراضيهم، ذهب أهل المجدل إلى غزة وتحولت القرية إلى أشكلون Ashkelon ، فى كلا

الجانبين دمرت بعض القرى، وقتل بعض المدنيين. غطت دولة إسرائيل مساحة ٨٣٦٠٠٠ ألف هكتار، منها ٤٨٦٠٠ قابلة للزراعة، تضمنت ٢٢٧ منشأة ريفية و١٥ قرية ، و٩٩ موشافييم(*) Moshavim، ١٥٩ مستعمرة زراعية جماعية كيبوتس(**) Kiboutzim.زودت سكان الدولة البالغ عددهم ١١٠ آلاف نسمة بكل المنتجات الزراعية التى تحتاجها تقريبا .

فى ٥ يوليو ١٩٥٠ ، وصف دافيد بن جوريون قانون حق العودة باعتباره واحدًا من القوانين الأساسية فى الدولة. ووفقًا لما يقول فإنه يجسد مهمتها الأولى فى تجميع المشتتين.ينص هذا القانون على أن منح اليهود الذى يعيشون فى الخارج حق الإقامة داخلها لا يعود إلى الدولة، وإنما هو حق طبيعى متأصل فى حال رغبة اليهود فى الإقامة فى البلاد.بعبارة أخري، إن الدولة فى خدمة المهاجرين، وقد تدفق حينها ١٢١ ألف يهودى عراقي، أُجبروا على بيع ممتلكاتهم عند تقدمهم بطلب الهجرة، ثم كثير من الآخرين. أقيمت جسور جوية بدءًا من شنغهاى «التى استولى فيها الشيوعيون على السلطة فى عام ١٩٤٩»،من أزمير، من اليمن. إجمالًا، طرد من اليهود من البلاد العربية بقدر ما طرد من العرب من فلسطين. تلا ذلك البلغار يون والليبيون الذين لم يلقوا من الترحيب مثل ما لقى البولنديون: استؤجر للأول غرف بالفنادق، وللآخرين مجرد خيام بسيطة [٣٧٨]. إجمالًا وصل ٧٠٠٠٠٠ ألف مهاجر فى الفترة ما بين ١٩٤٨ و١٩٥١ ليضاعفوا عدد السكان فى إسرائيل.

ونظرًا لأن أحدًا لم يكن يريد أن يقرض – وأقل من ذلك أن يمنح – الدولة الجديدة، فقد غطت الدولة احتياجاتها المالية عن طريق إصدار "سندات إسرائيل" ، بدءًا من مايو ١٩٥١، بيعت هذه السندات فى بلاد الشتات، غالبا عن طريق الحاخامات الذين أباحوا

(*) Moshavim • • مصطلح عبرى يشير إلى قرية زراعية تكون فيها الأسر وحدات اقتصادية تدير قطعة أرض زراعية بشكل خاص، تعود ملكية الأرض إلى الصندوق القومي.

(**) Kiboutzim • • مصطلح عبرى يشير إلى مستوطنة زراعية عسكرية ، تفرق سكانها إلى عمال ومزارعين يعملون ويعيشون معا. تأسس أول كيبوتس عام ١٩٠٩ على ساحل بحيرة طبريا ، من أهم المؤسسات التى أوجدتها الحركة الصهيونية ووصل عددها الآن إلى أكثر من ٣٠٠ كيبوتس ...(المترجم – عاصم عبد ربه) .

بشكل استثنائى احتساب فائدة على اليهود: مفسرين بأن العلة[٤٩].فى ذلك أن أحدًا لا يعرف على وجه التحديد اسم المقترضين النهائيين، أى مواطنى إسرائيل الذين لم يكونوا جميعا من اليهود.جلبت تبرعات يهود الشتات إلى الوكالة اليهودية ، التى تم جمعها فى ٧١ بلدا عن طريق « صندوق الاستعمار الصهيوني» كيرن هايسود، ومن الولايات المتحدة عن طريق صندوق الغوث اليهودى الموحد حوالى ستين مليون دولار سنة ١٩٥١ . استخدم أغلبها فى تسكين الوافدين الجدد. تطور إسرائيل نفسها فى ظل اقتصاد حرب، غير أن الحظر المطبق عليها كان بمثابة حافز للنمو، كان معدل هذا النمو ٣٠٪ سنة ١٩٥١ ، العام الذى تلقت فيه الميزانية منحة أولى من الولايات المتحدة ٦٥ مليون دولار للمساعدة فى توطين المهاجرين [٤١]. من جانبها رفضت سوريا المساعدة الأمريكية وانتقلت شيئا فشيئا إلى المدار السوفيتي. وفى سبتمبر ١٩٥٢ وقعت اتفاقية مع ألمانيا الاتحادية حول تعويضات بقيمة هزيلة بالنسبة لما تلقته ألمانيا الاتحادية من خطة مارشال !–٦٠ مليون دولار لمدى إحدى عشرة سنة، أى ما يساوى قيمة المعونة الأمريكية السنوية لإسرائيل، أى أيضًا حوالى سدس الميزانية، بينما تقلصت معونة الشتات إلى أن وصلت إلى ٢٧ مليون دولار. لا يزال العائد الفردى ضئيلا.للغاية: ٤٧٠ دولارًا لكل شخص، أى ربع الدخل الفردى فى فرنسا.[٤٢] . وفى عام ١٩٥٣ تراجع معدل النمو مع تزايد أعداد المهاجرين، بينما ارتفع معدل التضخم إلى أن بلغ ٥٧ ٪ سنويا، تعقدت الأمور بالنسبة لإسرائيل، وبدا المشروع الصهيونى متعثرًا. فضلًا عن أن الموقف السياسى للجيران قد بات أكثر تهديدًا. فى الأردن حل طلال بن عبد الله محل أبيه الذى تم اغتياله مطلع العام، غير أن طلال قد تنازل عن العرش فى منتصف مايو إلى ولده حسين، الذى صار ملكًا قبل أن يبلغ الثامنة عشر. وفى القاهرة انقلب مجموعة من العسكر على نظام الملك فاروق[*]الذين كانوا أكثر مناهضة لإسرائيل منه. وفى عام ١٩٥٣ توفى الملك ابن سعود الذى يتربع على عرش الجزيرة العربية منذ أكثر من أربعين عامًا، تنازع ابنه البكر سعود مع شقيقه الأصغر الأمير فيصل السلطة،واصل الأمريكان ثقتهم فى قدرة البريطانيين على إدارة هذا الجزء

(*) لم يشر النص الفرنسى إلى جماعة الضباط الأحرار التى قامت بثورة يوليو ١٩٥٢، واكتفى بما أورده. لذا وجب التنويه ...عاصم

من العالم وتفادى أن يتحول إلى الجانب السوفيتي.وسوف يكتب الرئيس الأمريكى دوايت أيزنهاور رئيس الولايات المتحدة فى الفترة من ١٩٥٢ إلى ١٩٦٠ فى مذكراته " إننا نعتبر حقيقة أن البريطانيين بصرف النظر عن المصالح الأمريكية والفرنسية، عليهم أن يبقوا هناك على مسئوليتهم فى مجال الأمن والاستقرار. لقد كان البريطانيون على دراية عميقة بتاريخ وتقاليد شعوب تلك المنطقة من العالم، ولكن عندما أزاح العقيد ناصر اللواء نجيب فى أكتوبر ١٩٤٥ واستقر على رأس الدولة المصرية، دعمه الأمريكان وقاموا بتزويده ببعض الأسلحة، بينما توجس البريطانيون من طموحات الرئيس الشاب. من جانبها ، واصلت فرنسا توريد الأسلحة وتبادل الأسرار الحربية مع إسرائيل . وفى عام ١٩٥٥ اقترحت الولايات المتحدة فى أول تدخل لها بالمنطقة من خلال خطة جونستن اقتسام مياه نهر الأردن ومياه رافده، نهر اليرموك، بين البلاد الواقعة على ضفافهما، التى رفضت جميعها تلك الخطة ، رغبة من الجميع فى الحصول على بعض الامتيازات، وفى نفس العام اقترح ابن الرئيس السورى الزعيم(*) على الإسرائيليين بدء مفاوضات واستقبال ٣٠٠٠٠٠ ألف فلسطيني. تأخر بن جوريون فى إبداء رده فقامت دمشق بسحب اقتراحها.

وفى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ ، قام الرئيس جمال عبد الناصر بتأميم قناة السويس، ردت فرنسا وإنجلترا بإنزال قواتهما فى السويس، واجتاح الإسرائيليون سيناء، دون موافقة الولايات المتحدة. وفى الخامس من نوفمبر، هدد المارشال بولجانين رئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفيتى كلًا من فرنسا وبريطانيا إذا لم ينسحبا. تراجعت القوتان الأوروبيتان وخرجتا من اللعبة، وانسحبت إسرائيل من سيناء، وحلت قوات التدخل التابعة للأمم المتحدة محل قواتها. امتد الصراع بين الغرب والشرق إلى منطقة الشرق منذ ذلك فصاعدًا، حرك الجميع بيادقهم استعدادًا. فتح الأمريكان الذين بدأوا فى توقع إمكانية استخدام الإسلام كمضاد للشيوعية، خطوط الإقراض مع الأردن، مع مصر، مع الفلسطينيين عبر مؤسسة الأونروا، منظمة غوث اللاجئين التابعة للأمم المتحدة، رأى السوفيت أيضًا فى

(*) حسنى الزعيم (١٨٩٧-١٩٤٩) رئيس أول جمهورية سورية عبر انقلاب مارس ١٩٤٩ الذى يعد أول انقلاب عسكرى فى الشرق الأوسط والوطن العربى ، استمرت فترة رئاسته ثلاثة أشهر فقط. من ٣٠ مارس إلى ١٤ أغسطس ١٩٤٩ (عاصم).

الإسلام بابًا للدخول إلى بلدان الجنوب، وضاعفوا من جهود مساعدتهم للبلاد العربية ، وانتقلت مصر، العراق، سوريا تدريجيا إلى معسكرهم، وفى عام ١٩٥٩ أسس ثلاثة من الطلاب هم ياسر عرفات، خليل الوزير، صلاح خلف فى الكويت منظمة فتح التى كان هدفها استعادة كامل التراب الفلسطينى عن طريق الكفاح المسلح.

بعد فترة من الثبات، بدأ الاقتصاد الإسرائيلى فى النمو من جديد مع وصول مهاجرين جدد، ممولًا دائمًا بقروض متعاقد عليها فى الولايات المتحدة والطوائف اليهودية فى بلاد الغرب، كان التضخم يلتهم الباقي. فى ذلك الوقت وصل المهاجرون الجدد المصريون والتوانسة والمغاربة ، ثم وصل ١٤٠٠٠ يهودى من الجزائر، وفى عام ١٩٦٢ فضل ٢٠٠٠٠٠ ألفا آخرون اللحاق بالفرنسيين إلى الوطن الأم. من ناحية أخرى وقعت إسرائيل اتفاقية توحيد التعريفة الجمركية مع الاتحاد الأوروبى فى عام ١٩٥٦ .

وفى الجزيرة العربية أبعد فيصل شقيقه سعود الرابع نهائيًا. وفى عام ١٩٦٥ تأسست منظمة التحرير الفلسطينية التى ترأسها فى البداية أحمد شقيري، برعاية جمال عبد الناصر، والتى أصبحت فتح جناحًا فيها.وفى مايو ١٩٦٧، وبناء على طلب مصر انسحبت قوات الأمم المتحدة من سيناء .وفى يونيو حاصرت القوات المصرية ميناء إيلات على البحر الأحمر وقامت بإغلاق خليج العقبة . واندلعت حرب خاطفة بين كل من إسرائيل من جهة وسوريا والأردن ومصر من جهة أخري، وفى أقل من أسبوع سيطرت على الضفة الغربية لنهر الأردن، سيناء، الجولان، القدس الشرقية ، مع مليون من الفلسطينيين ضمت إسرائيل القدس الشرقية ، واحتلت فقط باقى تلك الأراضى .

وفى إشارة إلى اعتراضها ، أوقفت فرنسا توريدات السلاح إلى إسرائيل . سوف تبدأ الولايات المتحدة وقف توريداتها هى الأخرى.

فى يونيو ١٩٦٧ قرر ياسر عرفات قائد حركة فتح إطلاق حركة كفاح مسلح فى الضفة الغربية لنهر الأردن التى عاد إليها سرًا فى يوليو. وفى أغسطس رفض مؤتمر القمة العربية بالخرطوم أى مفاوضات مع إسرائيل . وفى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧، كان قرار مجلس الأمن ٢٤٢ الذى كانت نسختاه الإنجليزية والفرنسية متعارضتين عمدًا، يلزم إسرائيل

بإعادة الأراضى المحتلة أو "أراض" محتلة. اعترف القرار كذلك بإسرائيل صراحة، قبل عبد الناصر بقرار مجلس الأمن، بعكس فتح.

وفى ديسمبر ١٩٦٧ استقال أحمد شقيرى من رئاسة منظمة التحرير الفلسطينية.

تردد القادة العلمانيون الإسرائيليون « موشى ديان، دافيد بن جوريون، جولدا مائير»: رد الأراضى المحتلة إلى الأردن ، مصر وسوريا ، ألا يعيد ذلك بعث التهديد السابق ، دون الحصول على شىء فى المقابل ؟. إعادتها إلى من ؟ إلى المحتل الأردنى القديم؟ إلى دولة لا ترغب البلاد العربية حقا فى وجودها؟ إقامة الدولة الفلسطينية، ألا يمثل ذلك مجازفة بإيجاد عدو إضافى ؟ ضمها لتحسين الأوضاع الأمنية . ألا يعنى التحول إلى جنوب إفريقيا جديدة؟ لم يتقرر شىء بوضوح.

حلت بإسرائيل فى ذلك الوقت حالة من النشوة السياسية والولع الطاغى بالاستهلاك. إذا كان عدد السيارات لكل ألف من السكان لا يزال، فى عام ١٩٦٨، أقل بعشرة أمثال من عددها فى الولايات المتحدة، فإن الفرق فى مستوى المعيشة مع أوروبا قد تقلص بينما ارتفع كثيرًا عن مستوى المعيشة فى الضفة الغربية والبُلدان المجاورة.

كانت فتح تستقر الآن فى الأردن،حيث تنطلق الاعتداءات.

وفى ١٨ مارس ١٩٦٨ ، مرت حافلة تقل أطفالاً على لغم بالقرب من إيلات، قتل اثنان من الركاب. وفى رد على ذلك، هاجم الإسرائيليون فى ٢١ مارس قاعدة لفتح فى كرامة "قرية للاجئين فى الأردن"، وتزايد عدد اللاجئين الفلسطينيين فى الأردن إلى الحد الذى مثل تهديدا لسلطة " الملك الصغير". رأى بعض القادة العرب وبعض الإسرائيليين من ناحية أخرى أن حل المشكلة يكمن فى استبدال الحكام الأردنيين بقادة منظمة التحرير الفلسطينية: تتحول الأردن إلى فلسطين وتعود كل الأمور إلى نصابها. وفى عام ١٩٦٨، أصبح ياسر عرفات متحدثا باسم منظمة التحرير، وتبنى المجلس الوطنى الفلسطينى ميثاقًا جعل من الكفاح المسلح (...) الطريق الوحيد. واستقر الفلسطينيون كذلك فى جنوب لبنان.

وفى هذه الأثناء، تسارع سباق التسلح: أظهرت معركة الأيام الستة أن الشرق الأوسط يمكن أن يمثل منضدة اختبار لكل من المعسكرين، لذالك شرعت الصناعة الأمريكية، بعد مثيلاتها الفرنسية فى استغلال النجاحات العسكرية الإسرائيلية كمبررات تجارية مع عملاء آخرين فى شتى أنحاء العالم. نتيجة لذالك، حصلت إسرائيل فى نفس العام على وعد بأن المؤسسة العسكرية الأمريكية سوف تسمح لها بالإبقاء على تفوق نوعى مقارنة بالتسليح السوفيتى لجيرانها، فضلاً عن نلك، اعترف ريتشارد نيكسون بالفائدة الاقتصادية التى تحصل عليها الولايات المتحدة من خلال تمويل الدفاع الإسرائيلى " إن التزام الولايات المتحدة بأمن ومستقبل إسرائيل يقوم على مفهومنا الأخلاقي، مثلما يقوم على مصلحتنا الخاصة " كانت اللهجة تختلف كثيرا عمن سبقوه.

وفى فبراير ١٩٦٩ ، أصبح ياسر عرفات رئيسا لمنظمة التحرير الفلسطينية، سيطرت الحركات المسلحة على الضفة، بينما كانت حركة فلسطينية أخري– الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين– تعد لاختطاف الطائرات فى أوروبا، كانت فتح، الجناح الأساسى لمنظمة التحرير الفلسطينية، تستأثر أكثر فأكثر بالسلطات فى الأردن. وفى يونيو ١٩٧٠، احتجزوا بعض نزلاء الفنادق الكبرى فى عمان. فى شهر يوليو، وافقت مصر والأردن على خطة سلام تقدم بها وزير خارجية الأمم المتحدة وليام روجرز. ووافقت إسرائيل. كان السلام فى متناول اليد.وفى نهاية أغسطس رفض الفلسطينيون، وفى السادس من سبتمبر قامت الجبهة الشعبية باختطاف طائرتين (واحدة أمريكية والأخرى سويدية)، ثم فى التاسع من نفس الشهر طائرة ثالثة، واقتيدت الطائرات الثلاثة إلى الأردن.وفى السادس عشر من شهر سبتمبر، أباد الملك حسين عشرين ألفًا (وفقا لبعض المصادر) من الفدائيين الفلسطينيين قبل أن يقوم بطرد من بقى منهم على قيد الحياة.حط ياسر عرفات وفتح آنذاك الرحال فى بيروت، ومعهم منظمة أيلول الأسود الموصوفة بأنها حركة إرهابية.

ظل الاقتصاد الإسرائيلى اشتراكيًا: كانت الوكالة اليهودية، النقابة، الكيبوتسات، والجيش أربعة أعباء وفقًا للنظريات التقليدية، أربعة نقاط ارتكاز وفقًا للتطبيق الصهيوني، لا تزال تتقاسم السلطة الاقتصادية والاجتماعية. ظل القطاع الخاص هامشيا:مثلما كان الحال فى بلاد الشتات منذ ألفى عام.

لم يرغب يهود إسرائيل فى أن يكونوا أُجراء لدى صاحب عمل خاص حتى وإن كان يهوديًا، وفى عام ١٩٧١ كان الدخل القومى للفرد قد تضاعف مع ذلك ثلاثة أمثال ما كان عليه عند قيام الدولة، وبمعدل زيادة بلغ ١٠٪ سنويًا، ظل النمو الاقتصادى متفوقًا على مثيله فى الغرب الذى كان مع ذلك يتباهى باقتصاد السوق.

نظرًا لعدم توافر الأيدى العاملة بعدد كاف، بدأ الاقتصاد فى الاعتماد على الأيدى العاملة العربية، بدأ حينذاك استعمار الضفة الغربية لنهر الأردن وقطاع غزة.

بزيادة مساعدات يهود الخارج مساعدة كبيرة بعد حرب الأيام الستة، بدأ اليهود الأمريكان فى ممارسة نفوذ واضح على الوكالة اليهودية: أنهم يقومون الآن بتعيين ٣٠٪ من مسئوليها ظلت هذه المعونة مساوية لمعونة الولايات المتحدة، وظلت فى حدود مائة مليون دولار سنويًا، أى أقل من الميزانية الإسرائيلية بـ٥٪ ٤١. وخلال نفس المدة تلقت البلدان العربية المجاورة إجمالاً من الولايات المتحدة ضعف مقدار المساعدة التى تلقتها إسرائيل(*).

وفى نوفمبر ١٩٧١، اغتيل رئيس الوزراء الأردنى وصفى التل، الذى قام بسحق آخر الفدائيين الفلسطينيين، على يد منظمة أيلول الأسود.

تطلب تسارع وتيرة سباق التسلح تمويلًا باهظًا متزايدًا باطراد، وفى عام ١٩٧٢ وللمرة الأولى أضيفت إلى المنح الأمريكية قروض مخصصة لتمويل المعدات الحربية القادمة من أمريكا. تمثل الميزانية العسكرية الآن نصف الميزانية العامة وتتجاوز ثلث الدخل القومي. ازدادت النفقات منذ ذلك الحين بأسرع من زيادة الإيرادات، برغم أن إدارة الأراضى المحتلة لا تزال تحوّل قليلًا جدًا من الموارد المالية (٣٠٠ موظف إسرائيلى و١٥٠٠٠ فلسطيني).

(*) لم يورد المؤلف اسم المصدر الذى يمكن الرجوع إليه لمعرفة مقدار تلك المعونة وأسماء البلدان العربية التى تلقتها، والتأكد من صحة تلك المعلومة. كعادته عندما يتعلق الأمر بالأرقام والمعلومات الموثقة...(المترجم- عاصم عبد ربه).

وفى سبتمبر ١٩٧٢، قامت مجموعة من فتح باحتجاز بعض الرهائن من الرياضيين الإسرائيليين المشاركين فى دورة الألعاب الأوليمبية المقامة فى ميونخ: قتل أحد عشر شخصًا. صار التوتر العسكرى والتهديد الإرهابى أكثر قوة . واغتيل العديد من القادة الفلسطينيين فى بيروت بواسطة رجال القوات الخاصة الإسرائيلية. لم تعتقد رئيسة الوزراء الإسرائيلية، جولدا مائير، التى تم تحذيرها من قرب وقوع هجوم عربي، غير أن مصر وسوريا قد قامتا فى السادس من أكتوبر ١٩٧٣ – يوم كيبور- عيد الغفران- بمهاجمة إسرائيل واستعادتا جزءا من سيناء والجولان. بعد أسبوعين من المعارك، التى كان وجود إسرائيل نفسه مهددًا فيها، وجزئيًا بفضل حركة جريئة قام بها قائد عسكرى شاب، إيريل شارون، بمهاجمة القوات المصرية فى سيناء من الخلف، فقدت مصر عشرة آلاف رجل، وستمائة وخمسين دبابة، ومائة وثمانين طائرة. وقعت الهدنة، واستعاد قرار الأمم المتحدة رقم (٣٣٨) منطوق القرار (٢٤٢). ناصر يستقيل قبل أن يستدعيه شعبه مرة أخرى ويطالبه بالبقاء فى منصبه. اعترفت مؤتمرات القمة العربية (نوفمبر ١٩٧٣) وفى الرباط ١٩٧٤ بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلًا وحيدًا للشعب الفلسطيني.وفى يونيو ١٩٧٤ أعلنت منظمة التحرير عن برنامجها، إقامة سلطة وطنية مستقلة على كامل الأراضى الفلسطينية التى سيتم تحريرها، لكنها لم تقم بإلغاء ميثاقها، وفى نوفمبر ١٩٧٤ تكلم عرفات أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة عن حلم بدولة ديمقراطية يعيش فيها المسيحيون واليهود والمسلمون بمساواة تامة.صار الوضع الاقتصادى فى إسرائيل أكثر صعوبة بكثير، كان ارتفاع أسعار البترول وزيادة النفقات العسكرية، قد أبطئا النمو وأديا إلى تفجر معدلات التضخم منذ عام ١٩٧٤.

من الآن فصاعدًا، صار الدولار يساوى ست ليرات ! أما بالنسبة للنفقات العامة، فصارت تمثل الآن ٨٠٪ من الدخل القومي، كما هو الحال فى الاتحاد السوفيتي، أو تقريبًا كذالك. وازدادت الديون العامة زيادة صارخة. لتمويل هذا العجز، احتكرت الدولة كل مدخرات البلاد، مؤدية لاختناق الاقتصاد الخاص، وبرغم هذا ستشهد إسرائيل أيضًا نموًا فى معدلات الإنتاج تعد من ضمن الأعلى على مستوى العالم، بمستوى قدره ٤،٤ ٪ لمدة ٢٥ عاما. عانت ميزانيات التضامن كثيرًا من الصعوبات كان المهاجرين الجدد أول

ضحاياها. بدأت بعض الحركات الاجتماعية فى الظهور مثل حركة الفهود السوداء، حركة راديكالية من اليهود المغاربة طالبت بموارد إضافية من أجل إدماج السفرديم فى هذه الدولة التى أقامها الأشكناز.

وفى مايو ١٩٧٤ أصبح إسحق رابين رئيسًا للوزراء.

وفى مواجهة تدفق السلاح السوفيتى إلى البلاد المجاورة ، احتاج الإسرائيليون إلى أسلحة جديدة لم تتوفر إليهم دائما إمكانيات شرائها .ولهذا قامت الولايات المتحدة فى هذا العام ، وللمرة الأولى بتقديم منحة قدرها ٢،٢ مليار دولار لشراء أسلحة من الشركات الأمريكية، وبالطبع وقف بيع الأسلحة التى تنتجها هذه الشركات إلى بعض البلاد العربية، بعينها.

فى نفس الوقت شرعت واشنطن فى البحث عن حلفاء من داخل الدول الإسلامية لمواجهة النفوذ المتنامى للسوفيت فى أفغانستان، فى إفريقيا وغيرها أملًا فى توريط منافسها بل وحتى فى إشعال حركة تمرد فى جمهوريات آسيا الوسطي.

فيما يشبه تلخيصًا لأوضاع سابقة، قال جيمى كارتر الذى تم انتخابه ١٩٧٧ « إن الدعم الأمريكى لإسرائيل يقوم فى نفس الوقت على الوازع الأخلاقى الدينى وكذلك على المصلحة الاقتصادية للولايات المتحدة »«للولايات المتحدة مع إسرائيل علاقة متفردة ومشروعة أخلاقيًا. علاقة متوافقة مع معتقداتنا الدينية القديمة وعادلة ومنصفة من زاوية المصلحة الإستراتيجية للولايات المتحدة» ، وبالرغم من هذا الدعم، كانت إسرائيل معزولة وبشكل مطرد على المستوى الدولي.وفى يناير ١٩٧٥ كان عليها أن تدافع عن نفسها ضد الاعتداءات الآتية من جنوب لبنان. بدأت الحرب بين الكتائب المسيحية والفلسطينيين. وفى ١٠ نوفمبر ١٩٧٥، أقرت الأمم المتحدة اقتراحًا يشبه الصهيونية بالعنصرية.

وفى يونيو ١٩٧٦، تدخل الجيش السورى إلى جانب المسيحيين اللبنانيين ضد الفلسطينيين.

دفع ارتفاع جديد لأسعار البترول معدل التضخم فى إسرائيل إلى ٣٠٪ فى عام ١٩٧٧ وابتلع المعونة الأمريكية بالكامل ..يلزم الآن عشر ليرات مقابل دولار واحد

وفى أغسطس ١٩٧٧ وصل مناحم بيجن رئيس حزب الليكود اليمينى إلى السلطة، كان الوضع الاقتصادى والاجتماعى للبلاد بالأحرى ميئوسًا منه بينما يرتفع الإنفاق العسكرى بلا توقف. وفى مفاجأة للجميع، توجه أنور السادات إلى القدس، فى نوفمبر ١٩٧٧ . لم يكن الوضع الاقتصادى لمصر بأفضل من وضع غريمتها. وفى سبتمبر ١٩٧٨ بدأت المحادثات فى كامب دافيد تحت رعاية الرئيس كارتر. وبمقتضى اتفاقية تم توقيعها فى ٢٦ مارس ١٩٧٩، أعادت إسرائيل سيناء إلى مصر مقابل اعترافها بالدولة الإسرائيلية. قاطع القادة العرب مصر وحددوا منظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها الممثل الشرعي والوحيد للفلسطينيين. أعلن عرفات عن استعداده للقبول مؤقتا بالضفة الغربية لنهر الأردن وغزة كدولة لا تزال غير واضحة الحدود. اجتاح الاتحاد السوفيتى أفغانستان فى ديسمبر ١٩٧٩ .

فى إسرائيل، لم يحل السلام مع مصر الأزمة المالية، وفى ١٩٨٠ وصل معدل التضخم إلى ١٣١٪ ومثل الإنفاق العام بالميزانية أكثر من ثلثى الدخل القومي، حتى مع استبدال الليرة بالعملة الجديدة الشيكل. - عودة إلى المغارة التى اشتراها إبراهيم !

أصبح لبنان، الذى استقر فيه مركز قيادة منظمة التحرير، التهديد الأساسى لإسرائيل بعد أن قامت على الحدود الشمالية للبلاد، فى فبراير ١٩٨١، حركة أصولية شيعية مرتبطة بإيران، حزب الله. للتحرر من هذا الخطر، قامت إسرائيل بقصف جنوب لبنان واجتياحه.وفى ٦ يونيو ١٩٨١ ، فرض جيش الدفاع الحصار على بيروت. اضطر عرفات إلى اللجوء إلى طرابلس فى شمال لبنان، وفى سبتمبر ١٩٨٢ اعترف مؤتمر القمة العربية فى فاس بالمغرب بحق جميع دول المنطقة فى السلام على أنه لم يأت على ذكر إسرائيل.

وفى ١٦ و١٧ سبتمبر، وكرد فعل انتقامي، بعد اغتيال الرئيس بشير الجميل، قامت الميليشيات المسيحية بإبادة حوالى ألفى مدنى فلسطينى ولبنانى فى معسكرات صابرا وشاتيلا للاجئين، دون أى تدخل من قوات الجنرال شارون التى كانت تحتل بيروت آنذاك.

وفى ٢٠ ديسمبر ١٩٨٢، غادر ياسر عرفات ورفاقه بيروت على متن سفن يونانية متجهة إلى تونس، فى حراسة قطع من البحرية الفرنسية. أصبح الوضع الاقتصادى والسياسى حرجًا فى إسرائيل، حتى وإن بدا أن التهديد العسكرى قد ابتعد، سجل الدين الخارجى معدلًا من أعلى المعدلات فى العالم، لم تعد المعونة الأمريكية قادرة على تسديد أقساطه السنوية.وفى أغسطس ١٩٨٣ استقال بيجن ولم يستطع خليفته إسحاق شامير هو الآخر تقليص العجز.فيما يشبه الإفلاس أممت الدولة الأربعة بنوك الكبرى.وفى عام ١٩٨٤ قفز معدل التضخم إلى ٤٠٠٪ ، صار الدولار يبدل ب ٨٠٠ شيكل !.

وفى سبتمبر ١٩٨٤، أحدث شيمون بيريز الذى صار رئيسًا للوزراء حكومة وحدة وطنية، انقلابًا جذريًا فى سياسة إسرائيل الاقتصادية، قام بتخفيض الأجور والمرتبات بنسبة ٣٠٪ ، ثبت الأسعار، قلص عجز الميزانية، خصص جانبًا من الاقتصاد، وأصدر الشيكل الجديد «يساوى ألف شيكل قديم» وطرحه للتداول.

كان تحولًا جذريًا لمواكبة الإصلاح، استقرت المعونة الأمريكية بمعدل سنوى قدره ثلاثة مليارات دولار منحة لا ترد، ١٫٨ مليار دولار مساعدات عسكرية، ٢٫١ مليار دولار مساعدات مالية مدنية، أى ٨٪ من الميزانية الكلية. فى ذلك العام لن تتغير هذه القيمة بعد ذلك حتى ١٩٩٧ ، ثم سوف تنخفض وسوف تميل إلى أن تمثل جزءًا متناقصًا.من الإنفاق العام للدولة، فضلًا عن أن ثلاثة أرباع المساعدة العسكرية تعود إلى الولايات المتحدة، فى أكثر من ألف مؤسسة أمريكية موزعة فى سبعة وأربعين ولاية أن السياسة الأمريكية الداخلية يقظة تراقب ما يجري..

فى عام ١٩٨٥ ، وقعت الولايات المتحدة مع إسرائيل أول اتفاقية لتوحيد التعريفة الجمركية. أفادت اتفاقية التبادل الحر هذه المؤسسات التجارية الأمريكية، التى ستضاعف صادراتها إلى إسرائيل ثلاث مرات فى خلال عشر سنوات. وفى صراحة أكثر من أى وقت مضى تحدث رونالد ريجان فى ذلك الوقت عن إسرائيل باعتبارها " أصلاً " إستراتيجيًا للولايات المتحدة." من خلال إدراكنا فقط للدور الجوهرى لدولة إسرائيل فى حساباتنا الإستراتيجية، يمكننا أن نقيم المؤسسات الموجهة لإبعاد مطامع موسكو فى أراض وموارد حيوية لأمتنا ولرخائنا"

تكلل برنامج شيمون بيريز الذى يعتبر امتدادًا لإصلاحات حكومة بيجن بالنجاح. خلال عام واحد فقط انخفض معدل التضخم من ٤٠٪ إلى ٢٠٪ فقط، انخفض نصيب النفقات العامة فى الدخل القومى بمقدار الربع، بدأ الاقتصاد الخاص فى النمو مع الخصخصة التدريجية لمجمل أصول الدولة –١٦٥ مؤسسة– معظمها صغيرة جدا.كانت تمثل ٨٪ من العاملين بالصناعة، والنقابة، والهستادروت.

وفى أكتوبر ١٩٨٥، اختطفت مجموعة فدائية فلسطينية العبارة الإيطالية "أكيلى لاورو" " AchilleLauro"، من أجل إطلاق سراح خمسين سجينًا فلسطينيًا فى إسرائيل، للمرة الأولى يجرى تصفية أحد اليهود الأمريكان. تدهور الوضع الاقتصادى والاجتماعى فى الأراضى المحتلة وازداد سوءًا. بلغ متوسط أعمار نصف السكان فى ذلك الوقت أقل من ثمانية عشر عامًا. فى ٨ ديسمبر ١٩٨٧، تسبب حادث سير صدمت فيه شاحنة إسرائيلية أربعة عمال فلسطينيين من جباليا، مدينة فقيرة فى غزة، فى إشعال حركة تمرد استخدمت فيها الحجارة وزجاجات المولوتوف، بدأت الانتفاضة الأولى، رشقت النسوة والأطفال جنود الاحتلال والمستعمرين بالأحجار، أولًا فى غزة، ثم فى الضفة الغربية، ومع هذا جرى العديد من الاتصالات السرية للتقريب بين الفلسطينيين والإسرائيليين.

بدأ الاستقرار الاقتصادى فى التأرجح، أصبحت إدارة الأرض المحتلة مُكلفة باطراد. ظلت إسرائيل أيضًا فى مقدمة دول العالم من حيث نصيب الفرد من الدين الخارجي. وفى عام ١٩٨٨، جاءت حكومة وحدة وطنية أخرى « أصبح شامير رئيسًا للوزراء فى حكومة تولى فيها شيمون بيريز حقيبة المالية» قررت خطة تقشف تكميلية : استقرت نفقات الدفاع دون زيادة « قبل أن تبدأ الانخفاض تدريجيا من ٣٠٪ إلى ١٤٪ من حجم الإنتاج القومى PIB»

بوصول جورباتشوف إلى قمة السلطة فى الاتحاد السوفيتى بدأ الصراع بين الغرب والشرق فى التلاشي، ومعه، التوتر فى الشرق الأوسط.

وفى يوليو ١٩٨٨، تخلى الملك حسين عن أى مطامع إقليمية فى الضفة الغربية. وفى نوفمبر ١٩٨٨، اعترفت منظمة التحرير، فى الجزائر، بقرارى الأمم المتحدة رقم

٢٤٢ و ٣٣٨، معترفة بذلك ضمنًا بحق إسرائيل فى الوجود ومعلنةً عن تخليها عن «الكفاح المسلح ». فى مايو ١٩٨٩ ، أعلن ياسر عرفات فى باريس أن ميثاق منظمة التحرير الذى كان يهدف إلى القضاء على دولة إسرائيل قد أصبح «ملغيًا»، وتخلى فى جينيف عن الإرهاب. وفى نوفمبر ١٩٩٨ تسبب سقوط حائط برلين فى تدفق مائتى ألف يهودى من الاتحاد السوفيتى إلى إسرائيل، ٥٣٪ فى سن العمل ومن بينهم كانت الغالبية من أصحاب المستويات العلمية العليا أو المهندسين، وفى ٢٥ مايو ١٩٩١ قام جسر جوى بإعادة يهود الفلاشا إلى الوطن انطلاقا من إثيوبيا كان من المتوقع أن يمثل هؤلاء القادمون الجدد عبئًا جديدًا، ووعد الأمريكان بتقديم معونات إضافية تصل إلى ١٠ مليارات دولار فى خلال خمس سنوات.

لتحويل نفقات توطينهم.الواقع أن هؤلاء اللاجئين على الفور قد مثلوا على الفور عاملًا من عوامل النمو، بسبب مؤهلاتهم الاستثنائية. وحتى وإن كان هؤلاء القادمون الجدد يتقاضون لقاء عمل مماثل، أجورًا تقل بنسبة ٤٠٪ عن أجور الآخرين، إلا أنهم قد تمكنوا من تعويض معظم هذا التأخر فى ظرف عدة سنوات. وتطورت بفضلهم الصناعة وانطلقت نحو قطاعات التقنية العالية.ظل معدل النمو ثابتًا عند مستوى ٦٪ فى المتوسط.

لم يعد الصراع فى الشرق الأوسط صراعًا بين الشرق والغرب، كما لم يتحول إلى صراع بين الشمال والجنوب. لم يعد للولايات المتحدة، من الآن فصاعدًا، نفس الأسباب الإستراتيجية لمساعدة إسرائيل. فضلًا عن أنها كانت تحتاج بصورة خاصة، فى يناير ١٩٩١، إلى تحالف كل العرب – وتحالف السوفيت، فى أوج أزمتهم – لكى تطرد من أرض الكويت العراق، المدعوم من قبل الأردن ومنظمة التحرير، والذى كان قد اجتاح الإمارة فى الصيف الماضي.

فى الثالث من أكتوبر ١٩٩١، بعد هزيمة العراق، كان السلام يقترب. تقابل الإسرائيليون والفلسطينيون علانية فى مدريد، ثم سرًا فى أوسلو. وفى التاسع من سبتمبر ١٩٩٣، تبادلت إسرائيل ومنظمة التحرير الاعتراف ببعضهم.ومنحت إسرائيل نظام حكم ذاتى لبعض مناطق الأراضى المحتلة.لكن، من بين كثير من القضايا الأخرى، ظلت قضية

القدس عالقة دون تسوية، كما ظلت قضية اللاجئين كذلك هى الأخرى.فى الثالث عشر من سبتمبر ١٩٩٣ رابين فى البيت الأبيض أمام بيل كلينتون.حمل مؤتمر الدول المانحة وعدًا بتقديم ٤،٢ مليارات دولار من المساعدات إلى الفلسطينيين.عمليًا ستقدم بالكاد نصف هذه المساعدات. أوقفت العمليات الإرهابية – من ناحية وأخرى – كل تقدم نحو السلام. وفى خضم المفاوضات، قام مستوطن يهودى أمريكي، فى فبراير ١٩٩٤، بإطلاق النار على أربعين شخصًا فى مسجد الخليل وأرداهم قتلي. تلت تلك المأساة أول عملية انتحارية لحركة حماس الإسلامية. لكن هذا لم يمنع إسرائيل من توقيع اتفاق مع منظمة التحرير، فى ٢٦ أبريل ١٩٩٤، يتناول أمورًا اقتصادية ويهدف إلى تشجيع بعض الشركات الإسرائيلية على التواجد فى غزة، وإلى المساعدة فى إنشاء مؤسسات فلسطينية وإلى تقليص تبعية العمال الفلسطينيين إلى أصحاب العمل فى إسرائيل.

في١٧ أكتوبر ١٩٩٤، وقعت اتفاقية مع الأردن تقضى بأن تقدم إسرائيل إلى هذه الدولة ٥٠ مليون متر مكعب من المياه سنويًا إلى حين توقيع اتفاقية نهائية لتقسيم مياه نهر الأردن.

أقامت آنذاك أكثر من عشرين دولة علاقات دبلوماسية مع الدولة العبرية.زادت صادراتها إلى الهند بأكثر من النصف، بحوالى الثلثين مع تايلاند، وأصبحت الصين أحد أهم عملاء الصناعات المدنية والعسكرية الإسرائيلية، التى شهدت نقص طلبات جيش الدفاع.

فى سبتمبر ١٩٩٥، بعد مفاوضات جديدة فى أوسلو، تم توقيع اتفاق انتقالى جديد بين الفلسطينيين والإسرائيليين. تم تقسيم الضفة إلى حوالى مائة منطقة لها ثلاثة أوضاع قانونية مختلفة، تحدد هذه المناطق تعاريج حدود الدولة المقبلة، يجب على الجيش الإسرائيلى الانسحاب من أكبر ثمان مدن، يجب أن يجرى انتخاب مجلس وطنى فلسطينى، لم يكن قيام الدولة الفلسطينية بعيدًا عندما تم اغتيال إسحق رابين، فى نوفمبر ١٩٩٤. على يد متطرف إسرائيلي. وعلى الفور استؤنفت العمليات الإرهابية التى تدبرها حماس. عاد الاقتصاد إلى السقوط . ابتعد السلام. فى مايو ١٩٩٦ فاز اليمين فى الانتخابات التشريعية

وأصبح بنيامين نتنياهو رئيسا للوزراء . أعيد توجيه الاتهام إلى تطبيق اتفاقية أوسلو. فى محاولة للتقليل من الاعتماد على الولايات المتحدة فى مفاوضات السلام، اقترحت إسرائيل وقتها على الولايات المتحدة وقف معونتها الاقتصادية وزيادة المساعدات العسكرية بمقدار النصف « رفعها من ١,٨ مليون دولار ما بين ١٩٩٠ إلى ١٩٩٨ »(*) استمر ٨٠٠٠٠٠ ألف يهودى روسى فى التدفق إلى إسرائيل، أى بقدر ما يعادل وصول عدد السكان، يساوى عدد سكان فرنسا، للإقامة فى الولايات المتحدة !، بعكس ما تخوف منه الكثيرون، كانت الثروات التى أوجدوها تفوق بمراحل تكلفة توطينهم.

كانت وعود السلام لا تزال تجذب الاستثمارات الأجنبية بصورة هائلة: ارتفعت هذه الاستثمارات من ١٠٠ مليون دولار عام ١٩٩٠ إلى ٢ مليار دولار عام ١٩٩٨ . بعد توقيع اتفاقيات تخصيص جرت فى مدينة واي، فى ٢٣ أكتوبر ١٩٩٨ حصلت إسرائيل على الوعد بمساعدة خاصة من أجل سحب قواتها فى بعض المناطق التى تقرر إعادتها إلى السلطة الفلسطينية ، التى تلقت مساعدة لإنشاء قواتها .

استؤنفت مفاوضات السلام بعد تشكيل حكومة عمالية جديدة برئاسة إيهود باراك، فى ١٧ مايو ١٩٩٧ . فى سبتمبر ١٩٩٩، تحدد جدول زمنى جديد يستهدف التوصل إلى سلام شامل فى ١٣ سبتمبر ٢٠٠٠ .

كان الأمل فى التوصل إلى اتفاق السلام لا يزال كامنًا فى حقيقة أن قيادة المفاوضات فى كل من الجانبين كانت فى أيدى مفاوضين علمانيين؛ على وعى بالأخطار التى تهدد معسكرهم ذاته إذا سمحوا لمعركة حول الأرض بالتحول إلى صراع ديني، ولهذا لعله كان من المفترض تكتيكيًا تجنب الخوض فى القضايا العقائدية إلا بعد التوصل إلى اتفاق بشأن تقسيم الأراضي، بشأن عودة اللاجئين وكذلك بشأن مشكلة المياه « يستغل الإسرائيليون ٩٠ ٪ من مياه نهر الأردن ».

(*) من الواضح وقوع خطأ مطبعي لم يتم الانتباه إليه، والصواب أن اقتراح إسرائيل رفع المعونة من ١،٨ إلى ٢،٤ مليار دولار وليس مليون دولار، كما ورد بالنص الفرنسي ص ٦٦٢ ، السطر قبل الأخير ....(المترجم - عاصم عبد ربه).

في يوليو ٢٠٠٠ ، بعد العديد من الأعمال التحضيرية ، بدأت في كامب دافيد، بعد إلحاح من باراك وضد رغبة الفلسطينيين، جلسات اجتماع قمة كانت تهدف هذه المرة إلى إنشاء دولة فلسطينية والتوصل إلى سلام نهائي. لم يهتم أحد إلى الآن بمعرفة ما سوف تكون العملة أو العملات فى الكيان الجديد، كيف سيجرى تنظيم الانتقال الحر للعمال، وما إمكانيات وأوجه السيادة التى ستكون فى متناول فلسطين المقبلة، حيث سيظل البطالة والفساد ألد أعداء السلام. كما أن أحدًا لا يعرف كيف سيجرى الحفاظ على هوية وطنية إسرائيلية، عندما يتم فتح الحدود، ومع ذلك، فقد كنا على وشك التوصل إلى اتفاق بشأن الحدود، على أساس مقترحات بيل كلينتون، عندما أثيرت مسألة اللاجئين رسميًا كان عددهم ٣,٧ ملايين، معظمهم فى الأردن وفى غزة — ومشكلة القدس لتدعيم موقفه بشأن تلك النقطة، دعا ياسر عرفات إلى اجتماع إلى لجنة القدس، يضم كل البلاد العربية المهتمة بشأن المدينة المقدسة، أكد هذا الاجتماع إلى أنه يجب أن تصبح القدس عاصمة الدولة الفلسطينية الجديدة. اقترح كلينتون أن يدير الفلسطينيون الجزء العربى من المدينة مع البقاء تحت السيادة الإسرائيلية. أتاحت بعض المناورات الأخرى التوصل إلى تفاهم. كان الاتفاق فى متناول اليد بشأن دولة فلسطينية تقام على ٩٦٪ من أراضى الضفة الغربية « مع تعويض لقاء الـ ٤٪ المتبقية » يعترف بالسيادة الفلسطينية على الأحياء ذات الأغلبية العربية، على أن يخضع الحائط الغربى للسيادة الإسرائيلية.

لأنهم يعيشون فى نظام ديمقراطى لم يملك الإسرائيليون أى وسيلة لمنع جنرال قديم مُغطى بالمجد والعار، آرييل شارون، من الإشارة عامدًا، بوجوده فى ٢٨ سبتمبر، فى ساحات المساجد(*)، إلى الطبيعة المعقدة لمشكلة القدس، ولأنهم لم يعيشوا بعد فى نظام ديمقراطي، لم يكن للفلسطينيين أيضًا أى وسيلة لمنع بعض متطرفيهم من تدمير أماكن مقدسة بالنسبة للمسلمين بقدر ما هى مقدسة بالنسبة للموحدين الآخرين(**). تطرقت

(*) المقصود هو اقتحام شارون للمسجد الأقصى...عاصم

(**) لم يذكر المؤلف أى حادث أو تواريخ أو مصادر يستدل بها إلى أعمال قام بها متطرفون فلسطينيون لتدمير أماكن مقدسة بالنسبة لكل الموحدين — مسلمين أو غير مسلمين — بينما وثقت واقعة اقتحام شارون للأقصى كل وسائل الإعلام والتوثيق فى العالم...(المترجم — عاصم عبد ربه) .

المفاوضات إلى مناقشات عبثية بشكل مطرد حول شروط عودة أو عدم عودة اللاجئين، المهملين حتى الآن من الجميع، وحول شروط ممارسة السلطة على جبل المعبد وساحات المسجد.

فى ٤ مارس ١٩٩٤، بعد تصدع أغلبية باراك وبعد الانتخابات، أصبح الجنرال آرييل شارون رئيسًا لوزراء دولة إسرائيل. لم يكن السلام أبدًا بعيدًا إلى هذا الحد. تخطى عام ٢٠٠١ بأكمله، بمحاولات الاعتداء، أعمال الثأر، حركات الغضب الشعبي، بالفرص الضائعة.

أقيمت خمس وعشرون مستعمرة سكنية جديدة. تدهور اقتصاد المنطقة. اختفت السياحة .للمرة الأولى أصبح معدل النمو الاقتصادى فى إسرائيل سلبيًا، دفعت إسرائيل وفلسطين ثمن عودة العنف، وفى الرابع والعشرين من ديسمبر ٢٠٠١، منع شارون عرفات من دخول مدينة بيت لحم.

إسرائيل.. هل هى دولة يهودية ؟

بلد غنى تضاعف ناتجه القومى عشرين مرة منذ قيامه حتى تضاعف نصيب الفرد من الدخل القومى أربعين مرة وهو يقارب الآن نصيب الفرد فى إسبانيا ، البرتغال، اليونان، يعد معدل الإضافة إلى رأس المال فى البورصة واحدًا من أعلى المعدلات فى العالم نسبيًا: هناك أكثر من مليون إسرائيلى يمتلكون أسهمًا وسندات، متوسط عدد السيارات « ٤،٣ سيارة للفرد » قريب من المتوسط فى أوروبا، الأسر «التى تمتلك فى المتوسط ما يربو على ١٦٠ ألف دولار» ظلت غارقة فى الديون، نصيب الدفاع لا يزال يمثل أكثر من ١٥٪ من الدخل القومى، أى ثلاثة ما هو عليه فى الدول المتقدمة.

لم تعد إسرائيل اشتراكية، لم يعد نصيب الميزانية من الناتج القومى يمثل إلا ٤٧٪ فقط فى عام ٢٠٠١ ، مقابل ٧٧٪ عام ١٩٤٨، ارتفعت التفاوتات الطبقية كثيرًا ابتداءً من ١٩٧٥، يعيش مليون يهودى تحت خط الفقر، لا يملك ربع الأطفال الحد الأدنى من

مستلزمات الحياة. إذا كانت الدولة لا تزال تمتلك ٩٠٪ من الأرض و١٦٠ مؤسسة فإن البنوك الكبرى والصناعة، التى كانت مملوكة للدولة وللنقابات سابقًا قد تخصخصت الآن[٤١] حتى وإن كانت الكيبتوس لا تزال تؤمن ثلث الإنتاج الزراعي، فإن هذه الكيبوتوس البالغ عددها ٢٧٠ ، والمنتشرة فى أنحاء البلاد لا تمثل أكثر من واحد على خمسين من عدد السكان وواحد على خمسة عشر من الإنتاج الصناعى . بعضها لم يعد سوى مراكز سياحية، وصنعت أخريات، مع توسعات المدن، مراكز تجارية كبرى ومغاسل آلية، كما تم خصخصة بعضها أيضًا.كان الأطفال يعيشون فيها مع آبائهم حتى سن الدراسة الثانوية. واحد فقط من كل ثلاثة أطفال من أبناء المستعمرات يعود إليها بعد أداء الخدمة العسكرية. من ناحية أخرى لم تعد الهستادورت (نقابة العمال) التى كانت فى البداية نقابة فريدة تلعب أى دور اقتصادي، تم تفكيك قطبها الصناعى «KOOR»مصرفها الخاص «HABOALIM» تم خصخصته، أصبح صندوق العلاج التابع لها مستقلًا بذاته، صار ٣٠٪ فقط من العاملين الأجراء فى إسرائيل من أعضاء النقابات، بدلًا من ٩٠٪ مطلع الخمسينيات، تحولت إسرائيل إلى اقتصاد ذهنى بعكس النخب السابقة التى نبغت فى الجيش والمستعمرات الجماعية، فإن نخب اليوم – خليط من الصابرا أبناء المستعمرات، والمغاربة والسوفيت السابقين – قد أقاموا واحدة من أهم صناعات المعرفة. بمعدل معرفة بالقراءة والكتابة. يبلغ أكثر من ٩٥٪، امتلكت إسرائيل أعلى نسبة من العلماء والمهندسين فى العالم « ١٤ عالم ومهندس لكل ألف أجير ، مقابل ٨ فى الولايات المتحدة واليابان»، أمضى ١٥٪ من العاملين فى عام ٢٠٠٢ أكثر من ١٦ عاما فى الدراسة، بينما لم يكونوا سوى واحدً فى المائة عام ١٩٧٩ . أولى دول العالم من حيث نصيب الإنفاق على التعليم (٧٪ من الدخل القومي)، تحظى إسرائيل سنويًا بأكبر عدد من براءات الاختراع لكل مواطن، تمثل التقنيات الجديدة ١٥٪ من الدخل القومى للبلاد وثلثى الإنتاج الصناعي. تتفوق اليابان وحدها نسبيًا على إسرائيل فى تصدير برامج المعلومات، كما تأتى بعد السويد مباشرة فى العد النسبى للعاملين فى مجال تكنولوجيا المعلومات. طورت تقنياتها كل القطاعات، بما فى ذلك الزراعة التى لا تشغل الآن سوى ٢٪ فقط من السكان، مع أعلى معدل إنتاجية للهكتار فى العالم. ولشغل وظائف أخرى،

استقدمت إسرائيل ٣٠٠٠٠٠ ألف رومانى وتايلاندي، نصف عمال البناء و١١,٥ ٪ من عمال الصناعة من الأجانب، من بينهم ٤٥ ٪ من الفلسطينيين .

ومع هذا فلا تزال إسرائيل تحمل بعض ملامح بلد لا يزال ناميًا: لا يزال ثلث الميزانية مخصصًا للدفاع، لا يزال حجم الاقتصاد السرى كبيرًا للغاية، خاصة مع استخدام اليد العاملة الفلسطينية غير الشرعية، نسبة كبيرة من الدخول – ٣٪ على الأقل مكرسة لليانصيب الوطنى والمقامرات والمراهنات غير القانونية.

مساعدة خارجية تقل أهميتها تدريجيًا، أصبحت تبرعات اليهود فى بلاد الشتات هامشية، بعد أن كانت جوهرية فى السنوات الأولى من عمر الدولة، بالرغم من محاولة توحيد جهات التبرع «مؤسستا النداء اليهودى الموحد فى الولايات المتحدة وفى فرنسا»، تنافست آلاف الجمعيات فى جمع مبالغ بدت مراجعتها صعبة. هكذا جمعت منظمة النداء اليهودى الموحد فى الولايات المتحدة حوالى مليار دولار فى بحر عام واحد، وقامت بإعادة توزيعه بين المؤسسات الاجتماعية فى أمريكا ، باقى بلاد الشتات وإسرائيل. لم تعد "سندات إسرائيل" التى جلبت حوالى ٢٠ مليار دولار خلال ٤٠ عامًا، تستخدم إلا فى سداد السندات السابقة والحفاظ على منظومة الطوائف، فى الولايات المتحدة تقوم أربعة آلاف جمعية بجمع أموال موجهة لهيئة البر اليهودية، ويخصص لها بشكل أو بآخر نصف يهود الولايات المتحدة مبلغ خمسين دولارًا سنويًا على الأقل.

يجتمع أهم عشرين جهة أمريكية مانحة « يقدمون سنويا ٣٠٠ مليون دولار من أصل المليار المطلوب » مرتين كل عام، للتشاور بشان أفضل استخدام ممكن لهباتهم، هكذا تتلقى إسرائيل من الطوائف اليهودية خارج إسرائيل ٢٠٠٠٠ ألف دولار لكل مواطن فيها، أى ما يعادل عامًا من الدخل، الآن لم تعد هبات الطوائف اليهودية خارج إسرائيل تمثل إلا حوالى ٠,٣ ٪ من الدخل القومى الإسرائيلي، بعد أن كانت تمثل ٥٪ منه قبل ذلك. إلى هذا يضاف ما تدفعه الولايات المتحدة «٢,٧ مليار دولار من المنح، معظمها مساعدات عسكرية أى حوالى ستة أمثال ما يأتى من طوائف بلاد الشتات » وألمانيا (٦٠٠ مليون دولار على هيئة تعويضات شخصية حلت محل التعويضات« العامة» ابتداءً من ١٩٦٥)[٤١] . إجمالًا

أصبحت المساعدات الخارجية، برغم ضخامتها سلبية في واقع الأمر، لأن سداد القروض السابقة يتخطى سنويًا قيمة المنح الجديدة بمقدار ستة مليارات دولار. لم تعد المساعدات إذًا إلا وسيلة للمحافظة على الروابط الثقافية مع طوائف الشتات والروابط التكنولوجية بصناعة الدفاع الإلكترونية، ليس أكثر.

لم يكن الاقتصاد يهوديًا في كل شيء، أندمج في الاقتصاد جانب ضئيل من أموال الأرثوذكس في إسرائيل، ثم إن الاقتصاد في حد ذاته لا يتقيد كثيرًا بالشريعة وإلا لعاد إلى حالة البداوة: بالانتقال إلى الاقتصاد الذهني، كان بمقدور الصناعة وكوادرها مغادرة البلاد وقتما يحلو لها: طائفة مهاجرة تجمع خمسمائة ألف شخص من اليورديم Yourdim أي "الهابطين" بخلاف "الصاعدين" أي الإسرائيليين الذين غادروا البلاد، هكذا ظهرت في إسرائيل اليوم ما يشبه صهيونية متقدمة، جعلت من البلاد طائفة عادية أقل عقائدية، أكثر تأثرًا بأمريكا بالرغم من الحضور القوى لليهود المتدينين، بل لقد امتهن الوضع القانوني للمواطنين غير اليهود، لدرجة أن المحكمة العليا سمحت لعرب إسرائيل الذين ارتفع عددهم إلى ١٥٦٠٠٠ إلى ١،١ مليون خلال خمسين عامًا بشراء الأراضي في أي مكان في البلاد(*).

إلى جوار إسرائيل، نجد أن الاقتصاد الأردني – الذي انطلق عمليًا بنفس أسباب النجاح ونفس أوجه القصور الموجودة في الاقتصاد الإسرائيلي – قد ظل ضعيفًا للغاية، بعائد سنوي للفرد يقل عن مثيله الإسرائيلي بسبعة أمثال، في عام ٢٠٠٠ ، كان الدخل السنوي للشخص في فلسطين يقل عن دخل الفرد في إسرائيل بعشرة أمثال « وبخمسة عشر ضعفًا عام ٢٠٠١ ، من جراء الحرب». ويعيش ثلث السكان تحت مستوى الفقر: يعتمد اقتصادها على الاقتصاد الإسرائيلي إلى حد كبير جدًا: إن الموانى الإسرائيلية هي من تقوم بتحصيل رسومها الجمركية، التي تمثل معظم الدخول في ميزانيتها، يتوقف ربع الدخل القومي على العمال المستخدمين في إسرائيل، تجرى معظم المبادلات التجارية

(*) هل لنا أن نشكر سماحة المحكمة العليا في إسرائيل التي تكرمت للسماح لمواطنين من غير اليهود (العرب الإسرائيليين كما أسماهم المؤلف) بشراء الأرض من أي مكان ..من بلاد العرب؟...(المترجم - عاصم عبد ربه).

فى غزة والضفة الغربية بالشيكل الإسرائيلي، وتتم العمليات الاستثمارية بالدولار. المعونات السنوية للمهاجرين الفلسطينيين فى حدود التسعين مليون دولار، يرسل معظمها عن طريق منظمة WELFARE والتى أنشئت عام ١٩٨٣ ، والتى تقوم بتوزيع هذه الأموال على الهيئات الإنسانية فى فلسطين، قوية، علمانية، مثقفة، متألقة، تجلب طائفة النخبة الفلسطينية المهاجرة التى زادت فى أمريكا، بريطانيا وفى الخليج، فضلًا عن ذلك ١٠٠ مليون دولار، فى بعض السنوات، لتمويل بعض الاستثمارات الصناعية و٢٠٠ مليون دولار لتشييد المنازل. لعدم وجود ادخار داخلي، تمثل تلك الاستثمارات غالبية الاستثمارات التى تحققت فى فلسطين، ومن جهة أخرى كانت أكبر الشركات الفلسطينيين Papico ، أنشئت ١٩٩٤ ، برأسمال قدره ٣٥٠ مليون دولار، ساهم فيها ١٤٠ من رجال الأعمال الفلسطينيين المقيمين فى الخارج، فى حين تحاول بعض الشركات الأخرى Apic، Apaff، بنك فلسطين للاستثمار، سلام الدولية للاستثمار، تنظيم انطلاق اقتصاد تخنقه الحرب والفوضى الإدارية.

صحوة طوائف المهجر

بعكس ما حدث فى العصور الوسطى، فإن صدمة المحرقة لم يعقبها نهضة للطوائف اليهودية فى مناطق نكباتهم. طوائف أوروبا الوسطى لم يعاد تكوينها، أما طوائف غرب أوروبا فقد عانت كثيرا فى تمويل استقبال الناجين من المحرقة.

فى الاتحاد السوفيتي حيث لا يزال يعيش أكثر من مليوني يهودى فى العام ١٩٤٥، ظلت أحوالهم غاية فى الصعوبة. ظل العداء للسامية حاضرًا بقوة، برغم الحرب والدور الذى لعب المائة جنرال يهودى فى خدمة الجيش الأحمر، والمائة والواحد والعشرون الذين حصلوا على لقب بطل الاتحاد السوفيتي والخمسمائة ألف جندى يهودي، فى ١٩٤٧، منع ستالين نشر الكتاب الأسود، مجموعة من شهادات الروس على المحرقة، قامت بتحريره لجنه مناهضة للفاشية فى الاتحاد السوفيتي، تم القبض على أعضائها السبعة والعشرين واتهامهم بعدم الولاء للوطن وصدرت الأحكام بإعدامهم، على الرغم من عرفانهم بالامتنان

لستالين لأنه تمكن من التغلب على هتلر ولأنه كان أول من اعترف بدولة إسرائيل، فإن كثيرا من يهود الاتحاد السوفيتى قد حاولوا مغادرته متجهين إلى إسرائيل أو إلى أماكن أخرى. عندما تخلى ستالين، عام ١٩٥٠ ، عن آماله فى أن يجعل إسرائيل دولة تابعة، هاجمت الصحافة اليهود، الروس، المجريين، التشيكيين، باعتبارهم أجانب بلا جذور، مدمرى الكبرياء الوطني، عملاء فى خدمة الإمبريالية الغربية.وفى أغسطس ١٩٥٢ أعدم من أصدرت بحقهم الأحكام من أعضاء لجنة مناهضة الفاشية، سرًا فى سجن لوبيكانا مع أربعمائة وخمسين آخرين من المفكرين اليهود. كان نفس المصير ينتظر العديد من أعضاء الأحزاب الشيوعية فى غرب أوروبا.

فى الثالث عشر من يناير١٩٥٣، اتهم ستالين الذى توقف تمامًا عن مساندة إسرائيل، مجموعة من الأطباء اليهود «الذين يقومون فى إحدى العيادات الخاصة بعلاج نخبة الحزب ومسئولى الأحزاب الشقيقة» بالتحريض على تسميم بعض القادة السوفيت. إنها مؤامرة المعاطف البيضاء. أمر ستالين بالقبض على هؤلاء المخربين، عملاء المنظمات الصهيونية، ونوى أن ينفى إلى سيبريا كل اليهود السوفيت، الذين ضمتهم سجلات بيريا(*). وفى الثامن والعشرين من فبراير، تم مناقشة خطة الترحيل فى المجلس العمالى وفقًا لإحدى الروايات التى ترددت، فإن مولتوف الذى كانت زوجته يهودية، قد أبدى اعتراضًا عنيفًا على قرار الترحيل، وأن المارشال فوروتشيلوف، بطل الحرب، كان قد صرخ قائلًا: « سأشعر بالعار لو بقيت عضوًا فى حزبنا الذى سوف يتدنس شرفه تمامًا !» وصاح ستالين « أيها الرفيق أنا من سيقرر الوقت الذى سوف تفقد فيه بطاقة عضويتك «وعندها راح فى غيبوبة قبل أن ينتهى عمره بعد ذلك بعدة أيام. تبعًا لرواية أخرى، يقبل بها اليوم كل المؤرخين، فإن ستالين سيكون قد مات فى ذلك المساء بعد عشاء أفرط فيه فى الشراب برفقة بيريا، مالينكوف، بولجانين، وخورتشوف، وسوف يتم اكتشاف جثته فى اليوم التالى فى غرفته المغلقة بالمفتاح من الداخل.

(*) بيريا ..وزير الشئون الداخلية فى الاتحاد السوفيتى فى عهد ستالين ، ورئيس البرلمان السوفيتى ، سبق الإشارة إليه- (المترجم - عاصم عبد ربه)

لم تتحسن أوضاع اليهود السوفيت خلال ولاية جورباتشوف، لم يتمكن بوريس باسترناك(*) من نشر روايته « دكتور زيجافو » ، وأرسل فاسيلي جروسمان إلى معتقل الجولاج في سيبريا ، وفي عام ١٩٥٩ ، كان عددهم في الاتحاد السوفيتي لا يزال في حدود ٢،٥ مليون اندمج معظمهم في المجتمع السوفيتي أكثر فأكثر. ومع أن الثلثين من بينهم قد أتموا دراسات عليا، ومع أنهم لا يمثلون ١٥٪ من عدد الأطباء، ١٠٪ من المحامين والممثلين، فقد فرضت عليهم حصص تحد من وصولهم إلى مناصب مهمة في مجال البحث العلمي، الجامعة، الإدارة، القضاء، الجيش والحزب.

بعد حرب الأيام الستة التي هزمت فيها الجيوش العربية، المزودة بالأسلحة السوفيتية، تدهورت أوضاعهم بصورة خطيرة.وصفت اليهودية في موسكو بأنها ديانة إجرامية تختلف عن الديانات الأخرى، وبعد حملة واسعة مناهضة للسامية، أسقطت عنهم جنسيتهم ،حصل آخر اليهود في بولندا وفي رومانيا على تصريح بالهجرة ، غادر آخرهم مدينة كازيميرس عام ١٩٦٨. في أوروبا الوسطى التي عاش فيها منذ ثلاثين عاما مضت ثلثي الشعب اليهودي، لم يعد هناك غير المقابر.

وفي المقابل لم يسمح ليهود الاتحاد السوفيتي بالرحيل بافتراض أنهم يحملون كثيرًا من أسرار الدولة. تتابع التطهير في الجامعة، في وسائل الإعلام، في مراكز المؤسسات الحكومية وداخل الحزب. تعرض إيدا نودلIda Nadel، ناتان شاترانسكي Nathan Chatranski وكل من رفض منحهم تأشيرة خروج، المرفوضون، في ذلك الوقت للاضطهاد صراحة،وفي عام ١٩٧٠ حاول بعض يهود لينينجراد اختطاف طائرة وتوجيهها إلى إسرائيل، سجلت قضيتهم بداية حملة دولية لمنحهم حق الهجرة، متهمون هنا بالضلوع في سقوط النظام القيصري، معتقلات الجولاج والرعب الستاليني، ومتهمون بالمسئولية عن الفشل الاقتصادي والعسكري للبلاد، متهمون على السواء بكونهم عملاء

(*) بوريس باسترناك (١٨٩٠-١٩٧٠) كاتب وشاعر روسي شهير ، حائز على جائزة نوبل في الأدب، اشتهر بالغرب بروايته عن الحياة في الاتحاد السوفيتي المشار إليها «دكتور زيفاجو » رغم أهميته كشاعر عظيم لم ينل إنتاجه الشعري ، الذي يعد من أهم إبداعات الروس في القرن العشرين ، ما يستحق من الاهتمام...المترجم - عاصم عبد ربه.

للإمبريالية الغربية، وبالتحريض على التآمر ضد الاتحاد السوفيتي، وفى نفس الوقت فى الجهة الأخرى بأنهم ستاليون شموليون.من عام ١٩٦٨ إلى عام١٩٨١ ، خرج ٢٥٠٠٠٠ ألف يهودى من الاتحاد السوفيتي، تم انتزاعهم واحدًا فآخر عبر تدخلات غربية، فى مقابل إمدادات من القمح أو سلع غذائية أخرى .فى عام ١٩٨١ ، أوقف برجينيف منح تأشيرات الخروج ، سيكون عليهم الانتظار حتى عام ١٩٨٦ ووصول جورباتشوف لتنتهى معاداة الدولة السامية ولتفتح أبواب الإمبراطورية السوفيتية أمام مليونى من السجناء خلال خمسة عشر عاما، غادر منهم ١،٤ مليون، توجه ٩٠٠٠٠٠ ألف إلى إسرائيل، لا يزال هناك ٣٠٠٠٠٠ ألف يهودى فى روسيا و ٢٠٠٠٠٠ فى أوكرانيا، ولا يزال منهم من يصر على عدم مغادرته جمهوريات أسيا الوسطى الجديدة.

تراجعت الطوائف اليهودية فى كل بلاد العالم منذ الحرب العالمية الثانية، ما عدا كندا وفرنسا، حيث زادت أعدادهم، وفى الولايات المتحدة حيث ظلت الطائفة اليهودية كبيرة جدًا.

فى أوروبا لا يزال هناك مليون ونصف المليون يهودى «ثلثاهم فى فرنسا والباقى فى المملكة المتحدة على وجه الخصوص » أى أقل مما وصل إليهم عددهم منذ القرن الرابع عشر. لم يعد يتبقى فى بريطانيا سوى ٣٠٠٠٠٠ ألف بعد أن كان عددهم عام ١٩٦٧ أربعمائة عشرة آلاف يهودي. وقد شكل يهود بريطانيا الحاليون طائفة منسجمة ومندمجة تماما مع مجتمعها ، ضمت الكثير من الفنانين ورجال المسرح، وقد تقدم العمر بأعضائها، بالرغم من وصول ثلاثين ألف يهودى « بقدر عدد اليهود الذين غادروا بريطانيا صوب إسرائيل».

فى بلاد الإسلام لم تعد هناك طائفة واحدة تزيد على عشرين ألف عضو، أكبرها لا تزال فى تركيا ١٩٠٠٠ ألف عضو وفى المغرب ٦٠٠٠ آلاف عضو.

فى أمريكا اللاتينية لم يعد مجمل اليهود أكثر من أربعمائة ألف شخص قدم أغلبهم من أوروبا فى الثلاثينيات، هاجر كثير منهم إلى إسرائيل، إسبانيا وخصوصًا إلى ميامى .

فى الولايات المتحدة، حيث لا يزال يعيش قرابة نصف يهود العالم، ثبت عددهم منذ عام ١٩٦٠، فى حدود الخمسة ملايين، فضلًا عن أن هذا العدد لم يستقر على حاله إلا بعد وصول هجرة جديدة، أربعمائة ألف مهاجر من الاتحاد السوفيتى وثلاثمائة ألف آخرين قادمين من إسرائيل. أصبحوا يشكلون من هذا الوقت فصاعدا ٢،٥ ٪ من عدد السكان الأمريكان مقابل ٤٪ من عدد السكان عام ١٩٢٠ ، عاش منهم ٨٥٪ فى المائة فى خمس عشرة مدينة ، ولا تزال أكبر ثلاث طوائف يهودية فى العالم موجودة فى نيويورك «١،٩ مليون »، لوس أنجلوس ٨٥٠٠٠ ، وفى ميامى ٥٣٥٠٠٠ . لا يزال كثير منهم يتجمعون وفقًا لأصولهم: يعيش عدد من اليهود فى برايتون بيتش فى بروكلين، السوريون فى كوينز، الإيرانيون فى لوس أنجلوس.مثل بقية الأمريكان يميل اليهود إلى الانتقال نحو الغرب والجنوب ، ينتمى ٣،٥ ملايين فقط من بينهم إلى أسر يكون فيها الوالدان من اليهود، يرتاد ١٥٪ من الأطفال مدارس يهودية.تنقسم الطوائف إلى العديد من الحركات: الأرثونكس، المحافظون،المطالبون بإعادة بناء الدولة، التقليديون والبروتستانت، أو اللوثريون. مع حدوث تغييرات مهمة: قام اللوثريون بتنصيب أول سيدة فى منصب الحاخام، فى عام ١٩٧٢ ، وتبعهم المحافظون فى عام ١٩٨٣ . تميزت الطائفة اليهودية عن بقية الأمريكان بمستواها التعليمى أكثر من مستوى المعيشة فيها، يقوم ٩٠٪ من اليهود فى سن الأطفال التعليم المدرسى والجامعى بالدراسة، مقابل ٥٥٪ بالنسبة إلى باقى السكان، إذا كان الدخل يزيد بمقدار ١٠٪ عن المتوسط العام للدخول، فإن مائة وخمسين ألفًا من يهود نيويورك يمكنهم أن يطالبوا بالاستفادة من البرامج الاجتماعية العامة لمكافحة الفقر، و٢٧٥٠٠٠ آخرين «كوادر متوسطة تعانى من البطالة أو من مديونيات كبيرة، مهاجرون من الاتحاد السوفيتى سابقا، إلخ...»مصنفون من ضمن أشباه الفقراء دون أن يكون لهم الحق فى الحصول على أى مساعدات من المدينة.غير أن معظم هبات الأيسر حالًا، تكرس لمساعدتهم فى الحصول على مسكن وعلى عمل.

فى فرنسا تعيش ثانى أكبر طائفة يهودية خارج إسرائيل، متنوعة للغاية، متعارضة، تعيش فى مستوى معادل لمستوى المعيشة فى فرنسا، تضم هذه الطائفة ٦٠٠٠٠٠ ألف نسمة، يعيش نصفهم فى منطقة باريس ويتشكل أغلبهم من السفارديم ، ارتفع عدد المعابد

من ٣٠ عام ١٩٦٥ إلى ٣٠٠ عام ٢٠٠٢، إذا كان ٤٠٪ منهم من أعضاء أى من هذه المعابد، ويرتاد ٤٪ فقط من أطفالهم (٢٦٠٠٠) إحدى المدارس اليهودية التى يبلغ عددها مائة مدرسة. وهناك أيضا يقوم ٩٠٪ من الأطفال والشباب ممن هم فى سن التعليم المدرسى والجامعى بمتابعة دراساتهم، مقابل ٧٠٪ بالنسبة لباقى السكان. استكملت المنظومة الدينية المجتمعة حول مجالس الحاخامات التى وضعها المجلس اليهودى الأعلى "السانهيدران" الذى أنشئ فى عهد نابليون ١٨٠٧ بعدد كبير من هيئات البر الاجتماعية العلمانية تدور فى فلك الصندوق الاجتماعى اليهودى الموحد، الذى أنشئ بعد الحرب، انجذبت نسبة معتبرة ومتنامية من أعضاء هذه الطائفة نحو يهودية بروتستانتية (لوثرية) ديناميكية للغاية ، واحدة من أكبر الطوائف حيوية فى العالم، يعتبر ١٥٪ منها فى عداد المحافظين و ٥٠٪ من التقليديين.

بتعداد يبلغ ٣٠٠٠٠٠ ألف نسمة، كثير منهم ذوو أصول بولندية، روسية ومغربية، يستقرون فى مونتريال وتورنتو، وينيبج Winnipeg، فانكوفور Vavcouver،تميزت الطائفة الكندية أيضًا بحيوية كبيرة للغاية، حاضرة بقوة فى الحياة السياسية، الاقتصادية، «آل برونفمان Bronfmann، آل ريتشمان Richmann » والفنية «ليونارد كوهين Leonard Cohen». أقدار ومصائر: إننا نجد اليوم فى أسرة شومياتشير، التى تعيش فى كندا منذ قرن مضي، كتابا، سينمائيين، مهندسين معماريين، محامين، قضاة، مدرسين، رجال بنوك، شعراء، متعهدين فنيين...

يعيش أربعة أخماس يهود الشتات البالغ عددهم ٧،٥ ملايين شخص فى خمسة بلدان، الولايات المتحدة، فرنسا، كندا، المملكة المتحدة، روسيا، يقيم الآخرون بصورة أساسية فى الأرجنتين (٢٢٠٠٠٠)، أوكرانيا (١٥٠٠٠٠)، جنوب أفريقيا (١١٤٠٠٠)، البرازيل (١١٠٠٠٠)، وفى سبعين بلدا ، من تركيا (١٩٠٠٠) إلى سوريا (١٠٠) مرورا بأستراليا (٨٠٠٠).

إجمالًا يضم الشعب اليهودى اليوم حوالى ١٢،٥ مليون شخص أى ٠،٢ ٪ من عدد سكان العالم «بدلًا من ٣٪، على نحو ما بدا، منذ ألفى عام » نسبيًا يقل عدد اليهود اليوم

عن عددهم فى الحقبة الرومانية بمقدار خمسة عشر مثلًا، لم تعد حصته فى الثروة العالمية تمثل إلا ٠،٥٪ على أقصى تقدير، الأمر الذى يجب أن يكون كافيا لتبديد أوهام الثروة التى تنسب إليهم.

للخلاص من أسطورة المال اليهودى

بعد المحرقة أصبح من المستحيل الحديث عن مكانة اليهود فى اقتصاد العالم. أصبحت المؤسسات التى بقيت يهودية تمامًا نادرة جدًا. فمعظم هذه المؤسسات التى تحدثنا عنها حتى الآن، كانت يهودية بفضل مؤسسيها اليهود، لم تعد كذالك أو حتى اختفت من الوجود. من جيل إلى جيل، انتهت النار المقدسة إلى الضعف، ثم إلى الانطفاء. مثل الآخرين، اندمج اليهود وكفت مؤسساتها عن الإشارة إلى هوية مؤسسيها، وحتى وإن كان هؤلاء قد تركوا أسماءهم عليها. أخيرًا، فإن من لا يزال يدير هذه المؤسسات، كموظفين، لا يسبغون على هذه المؤسسات تميزًا يهوديًا ولا يشكلون جماعة خاصة، لم يعد هناك تقريبًا "مال يهودي".

أولًا، توقف بعض الصناعيين اليهوديين عن نشاطهم، من بين هؤلاء، تحول مارسيل لوش إلى مارسيل داسو لدى عودته من بوشينفالد **Bunchwald**، وتحول إلى المسيحية وقام، فى ١٩٤٩، بإنتاج أول طائرة نفاثة، الأورجان« الإعصار» ثم المستير « اللغز» ثم الميراج« السراب ». غير مخترعون آخرون أسماءهم، أحيانًا دون إخفائها مثل رالف ليفيشتز **Ralf Lifchitz** الذى أصبح رالف لورين **Ralph Lauren**، لتكون أحيانًا أكثر بساطة.

وبعكس ذلك، فإن إدارة بعض المؤسسات بواسطة بعض الكوادر الإدارية اليهودية، كما يزعم العديد من المنشورات المعادية السامية. وعلى سبيل المثال، فإن مؤسسة دوبون دونيمور **Dupont Nemours**، شركة كيماويات تأسست فى نهاية القرن الثامن عشر بواسطة أحد البروتستانت الفرنسيين، قد أديرت فى وقت ما عن طريق يهودى ليتواني، أرنست شابيرو، واستحوذت أسرة برونفمان فى فترة ما على جانب من أسهمها، دون أن تصبح مؤسسة يهودية على الإطلاق. وعلى النحو ذاته، فإن شركة والت ديزني، التى أصبح

معظم مسئوليها اليوم من اليهود، ليست شركة يهودية، بالرغم ما تقوله أيضا العديد من مواقع الدعاية المناهضة للسامية فى الولايات المتحدة، وهذه هى أيضا حالة تايم وارنر، شركة وارنر للموسيقي، وحالة CBS، ABC .إن ميشيل بلومبرج،الذى أسس وكالة أنباء مالية وعمدة نيويورك الجديد لارى أليسون،مؤسس شركة أوراكل، وستيف بالمر، رئيس شركة مايكروسوفت، لا يجعلون بالطبع من المؤسسات التى يقومون بإدارتها –أو التى قاموا بتأسيسها " مؤسسات يهودية".

فى هوليوود، تظل شركة أفلام جولدوين مع شركة NBC«التى يديرها ابن دافيد سارنوف » هى الشركة الوحيدة ذات الأصل اليهودى التى لا تزال تحت إدارة واحد من نسل مؤسسها «ابن صامؤيل جولدوين» فى لندن.نجد أن وكالة رويتر التى لا تخفى أصولها اليهودية فى سيرتها الرسمية – لم تحمل مطلقا أيًا من ملامح وكالة يهودية بنوع خاص.

فى الإعلام المكتوب،تقوم مجموعة أعلى« التى أسسها صامويل أعلى المولود فى روسيا سنة ١٨٩٥ ، والتى يقوم والده صامويل وروناند بإدارتها » بامتلاك ستة وعشرين صحيفة يومية، بعض دور النشر، بعض المجلات « فوج،فانتى فير،نيويورك» دون أن تكون يهودية على وجه الخصوص. مثل صحيفة النيويورك تايمز التى لا تزال مملوكة إلى أسرة أوكس، والتى لا تزال تحت إدارة مالكها الأول، آرثر أوكس سولزبرجر.

وتعود ملكية جريدة الواشنطن بوست إلى ابنة أوجين ماير التى أصبحت كاتى جرهام التى يقود ابنها المجموعة فى أيامنا هذه، والتى تمتلك أيضًا مجلة النيوزويك، ما من منظومة سرية تجمعهم، لا علنًا ولا من وراء ستار. وإذا كان آل بريتزكير Pritzker، يمتلكون سلسلة فنادق حياة، فليس هناك بالتأكيد أى صفات نوعية تختص باليهود فى عملائها أو أعمالها.

وأخيرًا فإن عددًا قليلًا فقط من البنوك اليهودية، التى قامت بتمويل الاقتصاد فى القرن التاسع عشر، قد تمكنت من البقاء: فاربورج، سليجمان، بيشوفشايم، كوهين لويب، ابتلعتهم بنوك أخرى، أما أبونهايم، جوجنهايم، ليهمان،بليشرودير، فقد أصبحت هامشية تقريبًا.

فى مجال توظيف القروض ظلت مؤسستان فقط من أصل يهودي، الإخوة سالومون ودايلونريد أوبنهايم، أهم وسطاء فى استثمار السندات، فيما كانتا قد فقدتا منذ وقت طويل كل ما يربطها باليهودية من صفات نوعية. أنقذ الأخوة سالمون نيويورك من الإفلاس عام ١٩٧٥ –بالتعاون مع فيلكس روهاتين، دولازار–وشركة كريسلر عام ١٩٨٠ ، عندما وفرت لها خمسة مليارات دولار من القروض المضمونة من الحكومة الفيدرالية لم تدر الواحدة ولا الأخرىمن هاتين المؤسستين بأحد من نسل العائلتين المؤسستين لهما، ولا يشير شيء – ولا حتى فى منشوراتهما الدعائية أو على موقعيهما فى الإنترنت – إلى أصولهما التى حاولت شركة ديلون إغفالها دومًا.

من بين بنوك أعمال القرن التاسع عشر لم يحتفظ بشيء من الأهمية إلا مصارف جولدمان –ساشسGoldmann Sachs،لازار،وروتشيلد، كان الأخيران فقط هما من أديرا بواسطة نسل العائلة المؤسسة.

مصرف جولدمان – ساشس، الذى تقدم مع مصرف ميرى لانش Merry Lunch إلى صدارة بنوك الأعمال العالمية ابتداءً من عام ١٩٨٦ ، لم يعد أيضًا منذ بداية القرن العشرين، تحت إدارة أفراد من العائلات التى أنشأته.وحتى إلى وقت قصير مضي، أدير المصرف عن طريق جون لـ فاينبرج John L Weinberg، ابن أحد أحفاد مديرى المؤسسة، لكن بدون أى صلات قربى مع المؤسسين.

أما بنك لازار الذى قام بتطويره أندريه ماير ابتداءً من أربعينيات القرن الماضي، فقام على إدارته ميشيل دافيد– فايل Michel David Weil، سليل واحدة من العائلات المؤسسة منذ ١٩٧٥، فقد صار اليوم مؤسسة عالمية كبرى للاستثمارات، دون أن تكون يهودية بنوع خاص. قادمًا من المجر مرورًا بباريس، لعب فيلكس روهاتين دورًا مهمًا فى ذلك، يكمله اليوم بروسفاسرشتاين Bruce Wasserstein الذى حل محله ميشيل دافيد فايل فى إدارة المؤسسة.

حافظت مصارف روتشيلد على مكانتها فى بريطانيا، فى فرنسا، أعاد دافيد روتشيلد ابن جى Guy حفيد جايمس روتشيلد، وجود المؤسسة فى باريس كمصرف

أعمال، وفى ١٩٨٧ بعد تأميمها كبنك تجارى فى ١٩٨٢ ثم اشترك بعد ذلك فى الإدارة مع بنك لندن وجعل من الاثنين معًا، مع ابن عمه إيفلين Evelyen واحدًا من أهم بنوك الأعمال فى العالم .

لا يزال دافيد يدير، بعد والده، جى، هيئة المعونة الاجتماعية للطائفة اليهودية الفرنسية، ويقوم ابن عمه بنيامين ابن ادموند بإدارة مجموعة أخرى من مؤسسات روتشيلد، مجموعة بنوك أخرى، ليس لها أى علاقة تمويلية بالمجموعة السابقة أو تقريبيًا كذلك.

اختفى عدد من المصارف التى أقامها اليهود فى أوروبا أثناء الحكم النازى ولم تعاود النهوض من أنقاضها مرة أخرى. فى بروكسل، تحول بنك فيلبسون الذى أنشأه فرانز فيليبسون Franz Philippson عام ١٨٧١ ، إلى بنك ديجروف Degroof خلال الحرب العالمية الثانية، ولم يستعيد اسمه مرة ثانية،صار أحفاد الملاك الأوائل الأصليين مساهمين أقلية وترأس أحدهم مجلس إدارة بنك ديجروف.وفى هامبورج، تحول بنك فاربورج إلى بنك براينكمان فى عام ١٩٣٩، ثم عاد إلى اسمه الأصلى Warburg عام ١٩٩١، وبعد عامين من تقاعد أسرة براينكمان، اختفى عمليًا تمامًا، أما البنك الألمانى الذى لم يذكر فى سيرته الذاتية الرسمية، يهودية مؤسسة، لودفيج بامبرجر- وكذلك بنك ديسدنر Dresdner- الذى عن نفسه لا يخفى ذلك، لم يعودا يهوديين فى شيء مطلقًا. وفى بولندا أيضًا كانت هى حالة مصارف هاندلوى Handllowy و P.K.O ، وعلى النحو ذاته توقف بنك هامبروز منذ وقت طويل عن أن يكون بنكًا يهوديًا، من خلال مساهميه أو من خلال مديريه.

مسيرة لامعة: أنشأ سيجموند فاربورج، ابن شقيق ماكس مؤسسة س.ج فاربورج فى لندن عام ١٩٣٨، قبل أن يشارك فى تمويل اقتصاد الحرب، ابتكار OPA ، ثم فى إصدار أول القروض باليورو دولار، حاول، دون جدوى، الاندماج مع كوهن لويب، حتى يستأنف التقليد العائلي. مات سيجموند عام ١٩٨٢ دون أن يشهد اختفاء المؤسسة التى قام بتأسيسها، التى جعل منها فى ذلك الوقت واحدة من أهم مؤسسات العالم المالية، والتى ابتلعها بعد ١٥ عامًا من وفاته، اتحاد البنوك السويسرية.

من جهة أخرى لعب بعض اليهود البارزين دورًا مهما فى إنشاء المؤسسات المالية الدولية التى استقرت ابتداءً من عام ١٩٤٤ مثل هارى ديكستر وايت، الذى ولد فى بوسطن عام ١٨٩٢ ، لأسرة من المهاجرين الليتوانيين. قدم ديكستر أطروحته عن الحركات التمويلية الأجنبية فى فرنسا، مظهرًا أن تصدير رؤوس الأموال ممكن أن يقود البلاد إلى كارثة. بعد هزيمته على الجبهة عام ١٩١٧ ، قام بتدريس الاقتصاد فى العديد من الجامعات الأمريكية قبل أن يعمل بالإدارة عام ١٩٣٤ . أصبح نائبًا لوزير المالية ثم مساعدًا لهنرى مورجنتو عام ١٩٤٢ ، شارك مع البريطانيين فى إعادة قوانين المؤسسات المالية الدولية المقرر إنشاؤها عقب انتهاء الحرب،التى كانت نهايتها لا تزال غير محسومة آنذاك. اقترح إنشاء صندوق تثبيت أسعار الصرف، الذى سيقوم بإصدار عملة احتياطية، اليونيتاس، وكذالك بنك دولى للاستثمار يقوم بتمويل تنمية البلاد التى يجب إعادة إعمارها وكذلك إدارة احتياطى الذهب العالمي، وفى مواجهته، قام المفاوض البريطاني،جون ماكينز،الذى كان فيما قبل أحد المفاوضين البريطانيين فى معاهدة فرساى بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى باقتراح نظام أقل اعتمادًا على الولايات المتحدة: عملة عالمية،البانكورBancor، وبنك مركزى عالمي. فرض ديكستر وجهة نظره بسهولة أكثر من كينز، بينما بدا أن قوافل سفن الإنقاذ الأمريكية التى تعبر الأطلنطى كانت تبطئ أو تسرع من سيرها وفقًا لإيقاع التقدم الذى يحرزه المفاوضون، فى يوليو ١٩٤٤، تقلص دور صندوق النقد الدولي، فى بريتون وودز، بالولايات المتحدة، إلى مجرد تقديم قروض قصيرة الأجل لتعويض التقلبات فى أسعار صرف العملات، أما دور البنك الدولى فقد آل إلى اعتماد بعض القروض لإطلاق بعض المشروعات النوعية فى بلدان العالم الثالث.عين هارى ديكستر وايت أول مدير أمريكى لصندوق النقد الدولي، ولشدة مرضه اضطر إلى تقديم استقالته فى مارس ١٩٤٧. فى يناير ١٩٤٨، اتهم بأنه كان عميلًا شيوعيًا لأنه كان يأمل فى انضمام الاتحاد السوفيتى إلى FMI، ولأنه كان قد اقترح مع هنرى مورجانتو، تفكيك الصناعة الألمانية، فى أبريل مثل أمام لجنة تحقيق فى مجلس الشيوخ.كان التحقيق متوترًا: رُفِضَ التماس الاستراحة الذى قدمه،مات بعدها بـ ٢٤ ساعة فى عام ١٩٣٥، سوف يتهم السيناتور ماركاثى الرئيس ترومان بإخفاء أن هنرى ديكستر وايت كان جاسوسًا سوفيتيًا، قبل أن تثبت وثائق الأرشيف أنه لم يكن كذلك البتة.

بعد قليل سيقوم آخرون بلعب دور مؤثر لدى النافذين فى بعض بلاد أوروبا لإنشاء العديد من المؤسسات المالية الدولية الأخرى ولمواصلة الهروب من المهن المتعلقة بالمال، للجوء إلى الأدب أو العلوم.

فى يومنا الحاضر، تقوم دور السمسرة وصندوق المعاشات بإدارة الجانب الأعظم من الادخار العالمي، تتخذ مهنة السمسرة المالية اتجاهات جديدة، مرة أخرى، نجد الوسطاء اليهود فى القطاعات الأعلى مخاطرة :أولا سندات جانك، سندات عالية المخاطر، كانت مفيدة جدا للصناعة الأمريكية فى وقت ما، ثم صناديق الاحتياط، آلية لتغطية المخاطر.عمل بعضهم فى مجال البنوك، أو فى صناديق مالية متخصصة مثل مارشال وايس **Marchal - Wace**، فولتير **Voltaire**، ميديتو **Meditor** ، أو تايجر **Tiger**، كما نجدهم وسط مديرى الصناديق الأساسية مثل صندوق أموال البحث الدولي، صندوق الأمانة، أو صناديق البنك الألمانى، بل فى صناديق المغامرة **Venture Capital** المخصصة لتمويل الاختراعات. ما بين هؤلاء الأخيرين، كان جورج سوروس **Georg Soros** واحدًا من بين الذين تمكنوا وحدهم من إنشاء كياناتهم الخاصة. ولد جورج سوروس فى المجر ١٩٣٠، وصل إلى لندن ١٩٤٧ ، عمل أولًا لما تبقى آنذاك من بنك بليشرودير فى نيويورك، قبل أن يقوم فى عام ١٩٧٢ بتأسيس صندوق الحصص **Quantum Fund**، الذى سرعان ما سوف يتداول أكثر من خمسة عشر مليار دولار. أكثر من مستثمر، كان سوروس متخصصًا فى إدارة العمليات قصيرة الأجل، بما فى ذلك المضاربة النقدية، قبل أن يكرس معظم وقته وثروته وجمعياته الداعية لدعم الديمقراطية وتشجيعها فى أوروبا الشرقية ولنشر أفكار الفيلسوف كارل بوبير **Karl Popper**.

بقى بعض القطاعات تحت سيطرة اليهود إلى حد كبير، كما كان الحال منذ قرون خلت:صناعة الملابس فى لندن، شيكاغو، نيويورك،وباريس وتداول الماس، الذى يجرى معظمه بين الشارع السابع والأربعين فى نيويورك، تل أبيب، وأنفرس. واجه القطاعان منافسة قوية: يبدو السوق الهندى متقدمًا بشكل خاص فى مجال الماس.

تقلص الدور النسبى للوسط اليهودى المشبوه أيضًا فى مجال الجريمة مع تقدم العولمة، حتى ولو تواجد بعض أعضائه إلى الآن كوسطاء فى بعض المجالات، غسيل أموال، تجارة المخدرات،من لوس أنجلوس إلى موسكو، من بوجوتا إلى تل أبيب. فى فبراير ١٩٩٠ ، كشف فى نيويورك عن شبكة إجرامية يهودية تعيينًا، كانت تلك الشبكة تعمل وفق المسار التالي: يتم تبادل جانب من المخدرات التى ينتجها اتحاد (كارتل)كالى فى كولومبيا مقابل أحجار الماس، ولتحويلها إلى أموال سائلة، تنقل هذه الماسات إلى ميلانو وترصع بها الحلى التى يجرى بعد ذلك نقلها إلى مانهاتن كى تباع بصورة قانونية – نقدًا–فى سوق الماس فى الشارع رقم ٤٧ فى نيويورك، حيث يوجد، وفق تعبير طنان لجريدة معاريف الإسرائيلية اليومية، التى كشفت هى الأخرى عن القضية " عدد من مطاعم " الكاشير" يفوق عددها فى تل أبيب بأكملها وحيث تقوم أكبر مغسلة لأموال مخدرات الولايات المتحدة " . يقوم تجار المخدرات حينذاك بنقل جزء من حصيلة هذا البيع إلى بعض المؤسسات اليهودية فى نيويورك،التى تعيد جانبًا منه، نقدًا باستمرار،إلى عصابات التهريب. أوهم قادة هذه الشبكة بعض وسطائهم – يهود أرثونكس–مثل أحد حاخامات بروكلين، الذى سيؤدى القبض عليه فى فبراير ١٩٩٠، إلى الكشف عن القضية بأكملها – إنهم يقومون بمساعدة تجار الماس فى شارع ٤٧ فى التهرب من الضرائب، أو بمساعدة بعض اليهود الإيرانيين فى إخراج أموالهم من إيران . اعترف رئيس الشبكة الإسرائيلي، أنه تمكن بذلك من غسيل ٢٠٠ مليون دولار لحساب "كارتل" أى أقل من ١٪ من حجم الأعمال السنوى "للكارتل" التى تقوم بتوزيع أربعة أخماس كمية الكوكايين وثلث الهيروين المستخدم فى العالم.

ماذا تبقى من مناهضة السامية ؟

بوقوع المحرقة وميلاد إسرائيل صارت معاداة السامية فى أوروبا أكثر تحفظًا، دون أن تختفى مع ذلك، كما كان الحال دائمًا، كانت تعود بقوة مع وقوع الأزمات الاقتصادية. إلى جانب الاتهامات القديمة بقتل الرب وبممارسة الربا أضيفت الآن

اتهامات أعداء السياسة الإسرائيلية التى تجمع ما بين العداء للصهيونية والعداء للسامية:الرب، الأرض، المال.

فى عام ١٩٦٣، وضع المجمع المسكونى الثانى بالفاتيكان ، بناءً على مبادرة البابا جان الثالث عشر، مبدئيًا، نهاية لألفى عام من اتهامات بقتل الإله من خلال نص اختيرت كل كلمة فيه بعناية كبيرة:

« إن الكنيسة لا تستطيع نسيان أنها قد تلقت تنزيل العهد القديم من خلال هذا الشعب الذى تكرم الرب عليه، برحمته الواسعة، بإتمام العهد القديم، وأنها تقتات من أصل شجرة الزيتون النقية التى طعمت عليها أغصان الزيتون البرية التى تمثل غير العبرانيين، إن الكنيسة تؤمن فى الحقيقة أن المسيح خلاصنا، قد وفق بين اليهود وغير اليهود من خلال آلامه، وفيه شخصيًا صار الاثنان واحدًا.وأنها تذكر أن الشعب اليهودى هو من أنجب الحواريين، الذين هم أساس الكنيسة وأعمدتها وكذلك أكبر عدد من أتباع المسيحيين الأوائل الذين نشروا إنجيله فى العالم.بالرغم من أن زعماء اليهود وأنصارهم كانوا قد حرضوا على قتل المسيح، غير أن ما اقترف خلال أسبوع آلامه لا يمكن أن يعزى بلا تمييز إلى كل اليهود الذين عاشوا فى تلك الفترة، ولا إلى اليهود فى وقتنا الحالي.إذا كان من الحقيقة أن الكنيسة هى شعب الله الجديد، فلا ينبغى أن يقدم اليهود لهذا السبب باعتبارهم مطرودين من رحمة الله، ولا ملعونين كما لو كان ذلك نابعًا من الكتاب المقدس».

بالرغم من أن –أو بسبب هذا النص– لم يكن شىء قد حُسِمَ حقيقة:حيث رأينا ، فى العام ١٩٦٥ ، بول الخامس الذى تولى البابوية بعد جان الثالث عشر، يعلن فى الموعظة التى ألقاها فى أحد الآلام أن «هذا اليوم يكتب الصفحة المهمة والحزينة التى تروى قصة الخلاف بين المسيح واليهود،الشعب المقدر له أن ينتظر عودة المسيح، الذى لم يعترف به والذى قتله فى النهاية».ينبغى علينا الانتظار إلى عام ١٩٧٥ حتى يقوم الفاتيكان بنشر وثيقة يدعو فيها الكاثوليك إلى مكافحة عداء السامية، وإلى عام ١٩٨٥ حتى تشير روما فى إحدى وثائقها إلى الهولوكست وإلى دولة إسرائيل .

فى العالم التالي، كان جون بول الثانى هو أول بابا مسيحى يدخل إلى أحد المعابد اليهودية،معبد روما،وفى عام ١٩٩٣ ، أقام علاقات دبلوماسية مع إسرائيل، ثم سافر إليها بعد ذلك وقام فيها بالصلاة أمام الحائط الغربى (المبكي).وفى عام ٢٠٠٠ نشر أخيرًا رسالة حول أخطاء الكنيسة، قام بها وللمرة الأولى بذكر أخطاء الكنيسة ومن بينها محاكم التفتيش والإجبار على اعتناق المسيحية.

خبا العداء المسيحى للسامية واختفى دون أن يزول تمامًا، إنه لا يزال حاضرًا، فى صورة آثار لا تزال بصورة ما منسية فى العديد من كتب التعليم الكاثوليكي.

أما معاداة السامية اقتصاديًا، فعن نفسها، قد واصلت الظهور بشكل منفرد إلى حد ما، فى كل فترة تراجع اقتصادي، على شكل اتهامات بالاستغلال،بالطفيلية وخصوصًا بالهيمنة على الاقتصاد العالمي. وكذلك توجد فى بريطانيا وفى بلجيكا بعض الحركات والأحزاب المعادية صراحةً للسامية. فى فرنسا ١٩٤٥ حينما أصبح بيير مندس فرانس Pierre Mendes France ثالث رئيس يهودى للمجلس الوطنى بعد ليون بلوم Leon Blum ورينيه ماير Rene Mayer ،ظهرت بعض المنشورات الداعية إلى التصدى إلى هيمنة اليهود «أيها الفرنسيون الشرفاء، ذو الأصول العريقة، إلى مشاعلكم ...سوف يعم الحريق، إن مال اليهود هو بؤس الآخرين، لا تشتروا شيئًا بعد الآن من اليهود. اكتشفوا ألاعيبهم. أعدوا ملفاتكم،اعلموا أن المهندس المدعو "فرانس"قد باع لتوه باريس إلى الحركة اليهودية العالمية »، فى الولايات المتحدة رافقت الماركسية حملة تنديد عنيف « دون أى أدلة بالطبع » بالروابط المزعومة بين يهود هوليوود ويهود موسكو.فى عام ١٩٥٠، حقق كتاب شركة الاحتياط الاتحادى: للمدعو ويليام ويكليف William Wickliffe، نجاحًا باهرًا من خلال تفسيره لكيفية سيطرة رجال بنوك اليهود على بنك الاحتياط الاتحادي، ومن خلال ذلك على الاقتصاد الأمريكى.وأكد كتاب آخر «مؤامرة الاحتياط الاتحادي» من تأليف أويستاسى مولينز Eustace Mullins أن "الشعب الأمريكى يتحمل عبء مليارات الدولارات من الديون لمجرد أننا قد سمحنا لحفنة من الأجانب الأعداء بالسيطرة على نظامنا النقدي. أهم ثلاثة من هؤلاء هم: بول فاربورج اليهودى الألمانى الذى صاغ قانون بنك الاحتياط الفيدرالى، إيمانويل جولد نفايسر، اليهودى الروسى الذى أشرف على تفاصيل عمليات

بنك الاحتياط الفيدرالى خلال ثلاثين عامًا، وهارى ديكستر وايت سليل يهود ليتوانيا، الذى أنشأ صندوق النقد الدولى.

فى عام ١٩٧٦، قامت فى نيويورك بعض المظاهرات، تواجه فيها المعلمون السود واليهود، ودفعت بعض المفكرين الأمريكان –أحيانًا كانوا أنفسهم من اليهود مثل نعوم تشومسكى Noam Chomsky، إلى الاحتجاج على إسرائيل دون التمكن دومًا من تجنب الانزلاق إلى التجاوزات المعادية للسامية، بعدها بقليل لم يتوقف لويس فاراخان ،أحد القادة السود الأكثر تطرفًا، عن تكرار مقولته بكل إلحاح، « هل تمتلك الحكومة بنك الاحتياط الفيدرالى ؟ كلا، بل اليهود فى نفس العام الذى أنشئت فيه إدارة الضرائب، أنشئ مكتب التحقيقات الفيدرالية والرابطة اليهودية لمكافحة التشهير.إنها ليست مصادفة » ويردد آخرون باستمرار أن نيويورك Jew Yourk مدينة يهودية، وليست أمريكية، إن ألف موقع من المواقع التى تزدهر فى أمريكا وخارجها اليوم غير خاضعة لأى رقابة،بسبب الأولوية المعترف بها لحرية التعبير، تدعى هذه المواقع كشف الحقيقة،دون أن تقدم هى الأخرى أى أدلة غير قناعاتها الخاصة حول كيفية تحكم اليهود فى مجمل صناعات الاستعراض،أو مجمل صناعات السكر، أو أيضا وفق هوى وخيال أصحابها، صناعات الأحذية ، المجوهرات، القمح، القطن، البترول، الحديد والصلب، المشروبات الكحولية، ووسائل الإعلام أو البنوك...لم يعد اليهودى فقط ذلك الطفيلى الذى يختلس جزءًا من الثروة عن طريق الربا، ولا ذلك الذى يسعى للتأثير على السلطات ليخدم مصالحه الخاصة، لكنه أيضا الحاكم الخفى للأسواق « كما جاء فى بروتوكولات حكماء صهيون»، مهندس العولمة. إن هؤلاء يرون يهودًا مقنعين فى كل مظاهر أى سلطة مالية، ثقافية، أو سياسية.لم ينج أى صاحب نفوذ من الاتهام بأنه يهودى متخفٍ أو بأنه خاضع لنفوذ « تسلط يهودى عالمى مستبد » وحيث إن أى مؤامرة لابد أن تكون سرية، غير معترف بها، فإن الدليل على حقيقة وجودها يكمن تحديدًا فى استحالة إقامته، ثم أن من يشكك فيها هم بالضرورة عملاء لحساب المتآمرين ! كما حدث عام ١٩٩٢ عندما قال جيمس بوجريتز، المرشح المحتمل عن الحزب الشعبى فى الانتخابات الرئاسية الأمريكية :« إن ثمانى عائلات يهودية تسيطر على بنك الاحتياط الفيدرالي: آل روتشيلد،لازار، إسرائيل روزيسس سايلز، أحد رجال

البنوك فى إيطاليا، الإخوة ليهمان، أسرة شاس مانهاتن، كوهين لويب وجولدمان ساشس « إذا لم يكن أى من هذه البنوك مساهمًا فى البنك الفيدرالى فإن واحدًا فقط منها يساهم فى بنك الاحتياط الفيدرالى فى نيويورك، وهو بنك شاس Chase،الذى لم تكن له تحديدًا أى صفات يهودية على الإطلاق!

فى سويسرا، اتهم كتاب «الجمعيات السرية ونفوذها فى القرن العشرين»، الذى أصدره الكاتب الألمانى جان فان هيلسنج عام ١٩٩٧ ، والذى لاقى رواجا هائلًا، اليهود صراحة بالمسئولية فى خلق النظام الرأسمالى ،البلشفى، وقوع الأزمات المالية وعدم الاستقرار السياسي.فى اليابان،تعرض كتاب آخر،«اليابانيون واليهود»الذى بيع منه أكثر من مليون نسخة،إجمالًا لمسئولية اليهود فى الحرب الروسية،اليابانية،هيروشيما، ناكازاجي،والسيدا « الايدز».بل إن طائفة أوم شينريكيو Aum Shinriko، تؤكد أن اليهود قد استفادوا من هزيمة اليابان فى عام ١٩٤٥ لفرض سيطرتهم على العالم.

فى ألمانيا، كما هو الحال فى فرنسا، لم تختفِ حرمة انتهاك المقابر اليهودية وتدنيسها، ولا الاعتداءات على الحاخامات،المسئولين اليهود،المعابد والمراكز الاجتماعية التابعة للطوائف اليهودية، بل اتهم اليهود بأنهم كانوا مسئولين مسئولية غير مباشرة عن المحرقة: فلعل هتلر لم يكن، كما يدعى بعض المؤرخين الألمان.من أمثال أرنست نولته Ernest Nolte، سوى رد على الماركسية وعلى الاتحاد السوفيتي. سوف يفى بالحاجة أن نضيف أن الماركسية والاتحاد السوفيتى كانت "مبتكرات يهودية" حتى يصير اليهودى المزعج مسئولًا عما يلحق به شخصيًا!

فى بلاد العالم الإسلامي، استخدم العداء للسامية ذريعة لتحدى الغرب دون الإشارة إلى ذلك. وفى أوج الأزمة النقدية، فى سبتمبر ١٩٩٧ ، وفى الاجتماع السنوى لصندوق النقد الدولى فى هونج كونج، اتهم رئيس الوزراء الماليزى «المصرفيين اليهود» أيضًا بالمسئولية عن انهيار عملة بلاده، سيكون عليه أن يرجع عما قاله بوقت قصير.

فى الوقت الذى كانت فيه إحدى الديانات التوحيدية، ابنة اليهودية تعترف بأخطائها تجاهها، نجد البعض فى ديانة توحيدية أخرى استقبلتها بترحاب خلال أربعة عشر

قرنا، يحملون راية الكراهية من جديد. وهكذا، رأينا فى جانب من الصحافة العربية المعاصرة،إضافة إلى الانتقادات المعادية للسامية، كل الانتقادات القديمة التى تخلى عنها المسيحيون تولد من جديد. كما اتهم المستشارون الزراعيون الإسرائيليون فى مصر بنشر الأمراض النباتية والآفات، وآخرون بتسميم المياه، ونسب إلى أطباء يهود التسبب فى إصابة الفلسطينيين فى غزة بالعقم بل إنهم قد نقلوا إليهم مرض الإيدز. كتب وزير الصحة فى السلطة الفلسطينية، رياض الزعنون،فى صحيفة الأيام الفلسطينية الصادرة فى ٢٥ يوليو ١٩٩٨: إن الأطباء الإسرائيليين يستخدمون المرضى الفلسطينيين فى تجربة الأدوية وتدريب الأطباء الشباب "وكتب سكرتير السلطة الفلسطينية، طيب عبد الرحيم"يقول: إن الطائرات الإسرائيلية قد ألقت على قطاع غزة قطع شيكولاته مسممة. كما كتب شخص يدعى مصطفى محمود فى ٢٣ يونيو عام ٢٠٠١، فى صحيفة الأهرام اليومية المصرية " ماذا يريد اليهود بالضبط ؟ اقرأوا البروتوكول التاسع من بروتوكولات حكماء صهيون " قام العديد من البلاد العربية بإعادة طباعة هذا البهتان، الذى اختلقته شرطة القيصر منذ قرن مضي، بكل اللغات.فى ٢٥ مارس ٢٠٠١، كتب محمود السيد الكردى فى جريدة الأخبار اليومية المصرية " إن التلمود ثانى كتب اليهود المقدسة، يقرر أن كل فطير يوم الغفران يجب أن يعجن بدم شخص غير يهودي، ومن الأفضل أن يكون دم شابات يؤخذ عقب اغتصابهن". فى العشرين من فبراير ٢٠٠١ ، أعلن مفتى القدس، عكرمة صبري،فى إحدى الفتاوى التى بثتها الإذاعة الفلسطينية : " توجد عدة روايات حول السبب الذى يبكى اليهود من أجله أمام الحائط. وفقًا لإحدى هذه الروايات، أنهم يبكون لأنهم لم ينفذوا الوصايا العشرة لسيدنا موسى عليه السلام.ووفقًا لرواية أخرى، بسبب أن النبى محمد كان عربيًا وليس يهوديًا.وبسبب هذا يطلق عليه اسم حائط المبكي، لكن وفقًا للقانون الدولى، فإن هذا الحائط إرث إسلامى مقدس لأن هذا الحائط جزء من سور المسجد الأقصى. والأكثر من ذلك أن النبى محمد بذاته،هو الذى قدسه عندما ربط إليه "البراق" الذى نقله على ظهره من مكة إلى القدس فى ليلة المعراج. ومن هنا فإننا نقرر أن هذا الحائط يعود إلى الإسلام وليست له أى علاقة باليهود.

ربما يمكننا أن نضيف ألف مثال آخر مأخوذ من صحف عربية أخرى أو من أى كتب مدرسية فى هذه البلاد.وأخيرًا، فوفقًا لأبى الأصولية الإسلامية المصرية سيد قطب، فى كتابه، "معركتنا ضد اليهود، "فإن الطبيعة الخبيثة لليهود تتضح من خلال كراهيتهم للملك جبريل الذى نزل بالوحى على محمد، ومن خلال جحودهم لكرم ضيافة المسلمين. إنهم- يؤكد قطب- ألد أعداء المسلمين.

لحسن الحظ، فإن هذه المشاعر لا تزال تعبر عن الأقلية وإنها كانت موضوع انتقاد وتنديد الهيئات الرسمية للإسلام، المهدد هو الآخر كاليهودية تمامًا.

لا حضر مقيمون بدون بدو رُحَّل

لا مجال للدهشة من قدرة اليهود على البقاء، فثلاثة آلاف عام من التاريخ تظهر كيف تكونت شيئًا فشيئًا أسطورة ذلك اليهودى الذى استهواه المال والرغبة فى أن يكون قادرًا على كل شيء، لكنها تظهر أيضًا على وجه الخصوص كيف امتد التنوع الشديد لمصائر اليهود.

لا يبدو هناك أى خيط موصل، ربط عبر قرون بين هؤلاء التجار الذين كانوا يتدارسون كتابهم المقدس على ضوء الشموع فى نفس الوقت الذى ينقلون فيه بالات القطن على ظهور السفن المبحرة من عدن صوب الهند، هؤلاء الخياطون الذين يخيطون الفراء فى دكاكين بولندية، هؤلاء المزارعون الذين يزرعون كروم العنب فى ريف فرنسى هادئ، هؤلاء الصاغة الذين يتداولون فى فرانكفورت بعض القطع النادرة، هؤلاء الممولون الذين يستثمرون قروض الأمراء الألمان وشركات خطوط السكك الحديد الأمريكية،هؤلاء النقابيون الذين ينظمون الاضطرابات فى ليتوانيا،هؤلاء القادة الشيوعيون الروس، هؤلاء العمال البولنديون، هؤلاء الصناعيون الألمان، هؤلاء المستكشفون الذين قاموا باكتشاف أمريكا والصين، هؤلاء اليهود الإسبان والبرتغاليون الذين ماتوا من أجل عقيدتهم، هؤلاء القراصنة فى البحر الكاريبى، هذا الزعيم الهندى، هؤلاء المنتجين فى هوليوود، بل وأيضًا هؤلاء الموسيقيون فى فيينا، عمال الميناء فى أوديسا، مدرسو وعلماء الرياضيات

الفرنسيون، هؤلاء المتسولون فى أسواق المغرب، تجار الملابس القديمة هؤلاء الموجودون فى بلدات الجزائر. ومع هذا،فقد واجه كل هؤلاء نفس الاختيار، الاستقرار، التحول إلى سكنى الحضر، الاندماج وفقدان هويتهم، أو البقاء على حالهم، القيام بأدوار لا يود الآخرون القيام بها، المجازفة بالتعرض للاضطهاد والطرد.

أثبت كل من اختار واحدة من بين ألف وسيلة ووسيلة للصمود والبقاء على عقيدتهم أنه ما من ثقافة يهودية دون بعد بدوي، إن الثراء لا يكون إلا فى خدمة عقيدة أخلاقية، وإن شيئًا لن ينفعهم إن لم يكن نافعًا للآخرين وإن العالم قد استفاد من الأدوار التى اضطرهم إلى القيام بها استفادة هائلة من خلال مطالبتهم بأن يبتكروا وسائل عيشهم وبأن يدفعوا ضريبة وجودهم.

فيما يتجاوزهم شخصيًا بكثير، أظهر اليهود تلك الحقيقة التى نادرًا ما تؤخذ فى الحسبان: إن أيًا من المجتمعات الحضرية ما كان لها أن تستطيع العيش والبقاء بدون رحالة ينقلون بينها وبين بعضها البضائع، الأفكار، الأموال، ويتجاسرون من أجل القيام بذلك على التعرض للمخاطر المادية والأدبية والمعنوية التى لم يكن أى شعب حضرى مقيم مستعدًا للتعرض لها.هذا هو الاختلاف بين الواحد والآخر من أنماط الثقافة: درجة الخطر التى يكون كل منها على استعداد لمواجهتها. مقبولاً بوجودهم مؤقتًا كحضر مقيمين، جالبين الثراء لمضيفهم، مهددين دومًا بالاضطرار إلى الرحيل، مكروهين بسبب الخدمات التى يسدونها لمجتمعات إقامتهم، محل ارتياب بسبب التغييرات التى يوجدونها، يُبعد اليهود الرحل عندما تتم السيطرة على الأخطار التى كانوا يتحملونها جيدًا بما يكفى كى تكون هذه الأخطار ذاتها منذ ذلك الوقت فصاعدًا فى مواجهة سكان الحضر المستقرين بأنفسهم. وعلى العكس أيضًا، فإن البدوى الرحال يحتاج إلى الحضرى المستقر الذى يوفر له مكانًا فى واحته، ليقايض ويتاجر. إنه يحتاج أيضًا إلى أن يظل متوحدًا حتى يستفيد من معونة الطائفة.

لقد لعب الشعب اليهودى دور الرحالة الذى يصنع رخاء وثروات الشعوب المستقرة. هكذا يقوم بدوره «كمصلح للعالم» هكذا تشكلت هويته من خلال هذا الترحال الاضطرارى

والبداوة الإجبارية: اسمه كان رحلة، حياته كانت رحلة، كانت حركة: وحنينه كان، إلى حط الرحال.كرم وفادة وإثراء مضيفيه كانا شرط بقائه على قيد الحياة. ثقافته وأخلاقيته، تشكلت بنيتها حول مقتضيات التيه: التضامن، حسن استقبال الغير، التسامح هى أهم بنود شريعته، أوضاعه هشة مؤقتة وهامشية، الجديد، هو رأس ماله التجاري، بدوى رحال،لا يستطيع أن يكدس شيئًا باستمرار ولا أن يتجذر، لا يمكن للمال سوى أن يكون وسيلة لا غاية بالنسبة إليه، البداوة ليست تفوقًا، مجرد صفة نوعية تتقاسمها معهم شعوب أخرى وضرورة حتمية لبقاء ورخاء الشعوب المستقرة.

بصورة أكثر تحديدًا، يتكفل اليهود منذ قرابة ثلاثة آلاف عام بالقيام بالخدمات الأساسية الثلاثة التى يسديها الرحالة: الاكتشاف، الربط، الابتكار، بدون هذه الإسهامات، ربما لم يكن بمقدور أى مجتمع مفتوح أن يبقى على قيد الحياة.

الاستكشاف

إن كل اكتشاف هو بالضرورة نتيجة ارتجال شارد وعشوائى، إنه ليس امتلاكًا خاصًا بأى حال، وإنما هو وضع فكرة ما، أرض أو معرفة فى متناول الجميع. بمجرد أن يتحركوا ليبدأو رحلتهم الأولى، حتى قبل أن تتأكد هويتهم عبر كتابهم المقدس، كان العبرانيون مستكشفين.

كان أول اكتشافهم هو اكتشاف وحدانية الله، لم يكن النفاذ إلى حقيقة كهذه ليحدث إلا بواسطة شعب من الرحالة: يحملون آلهتهم معهم فى سفرهم، كان لابد لهذه الآلهة أن تنتهى حتمًا بالانصهار والامتزاج فى إله واحد، ليسهل عليهم حمله والانتقال به، ولأن هذا الإله قد صار منذ ذلك الوقت فصاعدًا معهم فى كل مكان، لم يعد إلهًا لأرض ما، وإنما أيضًا إلهًا لكل الأماكن التى يعبرونها: لم يكن بإمكان إلههم إلا أن يكون إلهًا للجميع.

الاكتشاف الآخر الذى شاركوا فيه من موقع الصدارة، كان اكتشاف النقود، وأدواتها، الشيك، الكمبيالة، الأوراق المالية. التجريد، صيغة عالمية، تناسب البداوة

تمامًا،من الناحية المادية يؤدى المال وظائف موازية لمهام الرب:كما حل الله محل الآلهة المتعددة (الشرك)، حلت النقود محل المقايضة. ومثله، ناب المال عن العنف، عن التضحية، عن الثأر والقصاص، وكما كانت فكرة الإله، كان المال تجريدًا بدويًا، مثله، لكن فى مجال مختلف تمامًا، يبدو المال قادرًا على فعل كل شيء، منزهًا عن الخطأ، غيورًا لا يمكن فهمه أو إدراكه، منظمًا لحياة البشر الجماعية. مثله مثل الرب، يتيح المال السفر بلا أحمال، إنه علة الاكتشاف ومبعثه، إنه وسيلة لخدمة الرب. أداة لفعل الخير، إنه لا يختلف عما تمثله الفرشاة للرسام، كما سوف يقول فى القرن العشرين، رجل المصارف سيجموند فاربورج مستعيدًا بذلك ذلك الهاجس اليهودى بعدم اعتبار المال إلا وسيلة لتحقيق متطلبات أخرى. لكن، فى اختلاف جذري، عن الإله، الأزلي، يظل المال مؤقتًا، غير مستقر، قابلًا للزوال، قابلًا للتوريث، إنه الجانب الآخر من الرب.

كان البدوى الرحال هو أول من قام باستكشاف الأرض: لذا يبرز اليهود من بين الأوائل فى علم الفلك، رسم الخرائط، الجغرافيا علم جوهري، معرفة ثمينة، بل وأيضًا من بين الرحالة الدائمين الذين ربطوا أوروبا بالصين، بالهند، أمريكا، مثل يهودا كريسكاس Yehudah Crescas،جاسبار دولاس أندياس الذى جاء ذكره آنفًا .

قادهم اكتشاف هذا العالم، فى نفس الوقت،الذى توصلوا فيه إلى التجريد، إلى المشاركة فى ابتكار المنهج العلمى لأنه يقوم، كما رأينا، على اكتشاف الثوابت خلف الحالات الخاصة، المبادئ من وراء حكم ما، الأعداد من وراء الكلمات، المفاهيم من وراء الوقائع، ولأنهم تُركوا خاصة يبحثون وينقبون فى مجالات لم يجرؤ أحد على التطرق إليها قبلهم، أصبح اليهود روادًا فى الطب، الرياضيات، الموسيقى، الكيمياء، الطبيعة النووية، التحليل النفسى، الوراثة، وبصورة أعم فى كل مجال يمكن أن يؤدى إلى اكتشاف جديد فيه إلى تهديد نظام مستقر أو خلق ثروات جديدة لآخرين غير السلطات القائمة: هناك طرق أخرى لتغيير العالم بغير طريق الاقتصاد.

وأخيرًا فإن البدوى لا يشغل المكان فقط، لكن الزمان أيضًا الذى يسافر فيه ليتنبأ بالمستقبل ويحتاط له ويقدر مخاطره.

ولذالك مثل التجريد الذهنى بالنسبة له رحلة افتراضية فى الزمن. أرهفت مهنة المقرض، التى أجبر عليها، إحساسه بالأجل الطويل، تلك المهنة التى دفعت اليهود إلى تقدير المخاطر،بعبارة أخرى باكتشاف الزمن وتقصى احتمالاته: من المصرفى إلى رجل التأمين، من الفيلسوف إلى العالم فى شئون المستقبل، وهناك أيضًا يكتشف اليهود أشياء، يعلنون عنها ويتنبأون بها،حتى لو أُبينوا بالمسئولية عن تلك الأحداث التى تنبأ بها والمخاطر التى لفتوا إليها.كباش فداء مرة أخرى.

الربـط

إن الاكتشاف، هو فى الغالب مجرد الربط بين بعض المجالات التى لم يكن بينها من قبل أى علاقة، كما ربط، من بين كثيرين آخرين، سيجموند فرويد بين الحلم والجنس، ألبرت أينشتاين بين الموجات وجزيئات المادة، جأبريل ليبمان،بين الكيمياء والتصوير الفوتوغرافي،...إنه أيضًا، وببساطة الربط بين أرض معروفة ومكتشفة وبين السكان المستقرين فيها..وهكذا أقيمت منذ القدم طوائف، محطات فى كل الموانئ، ومدن الأسواق الموسمية، وأنشئت شبكات التواصل الثقافى والتجارى بين الأماكن والشعوب، الكيانات الاجتماعية، المؤسسات، الأسواق التى لم يكن للاقتصاد لينمو من دونها. وعليه فقد كانت أهم مهنة يهودية بطبيعة الحال هى مهنة السمسار "الوسيط" التى تقوم على العثور على مورد لما يراد شراؤه، أو عميل مشتر لما يراد بيعه، كما مارسوا أيضًا كل مهن «الربط والاتصال» الأخرى: ملاحون، مجهزو سفن، دبلوماسيون، أصحاب مصارف، أصحاب وعمال مطابع،صحفيون، كتاب، سينمائيون،... من تجار الرذنية فى القرن الحادى عشر إلى البرتغاليين والإسبان الذين تحولوا اضطرارًا إلى الكاثوليكية، «مع بقائهم سرًا على عقيدتهم» فى القرن السابع عشر،من جراسيا ميندس إلى أندريه ماير.

كانت الكتابة أهم وسائل هذه العلاقة، لا يمكن للبدوى أن يقوم بدور الموصل إذا لم يقرأ، ولهذا كان نمط التعبير المكتوب، الذى كان اليهود من بين أقدم من استعملوه، بالغ الأهمية بالنسبة إليهم، مع كل وسائل وصور الاتصال الأخرى،المطبعة، الراديو، التليفون،

السينما من مناساه بن إسرائيل إلى الإخوة وارنر.من جوليوس رويتر إلى إسحق برلينر Isaac Berliner ، من الإخوة سونشينو Soncino إلى دافيد سارنوف Sarnoff .

الابتكــار

كما يقوم اليهود بالتصدير، كما يقومون بالربط بين الأماكن والبشر، فإنهم يستوردون.بعد أن يقبل الحضر المستقرون بوجودهم بينهم، وبعد أن يربطوا بين هذه الشعوب وبعضها، يجلب اليهود إلى أحدها ما اكتشفوه لدى شعوب أخرى، بضائع، رءوس أموال، أفكار.

ثم إن أهم مهنة للأغراب كانت من جانب آخر، هي أن يوفروا لمن يقوم باستقبالهم المنتجات الواردة من الخارج. وعليه فقد زودوا لشبونة بالفلفل، الملابس إلى أمريكا، الحرائر الثمينة الفاخرة إلى أمراء الألمان.. جلب اليهود أيضا الجديد حتى إلى المهن الأكثر حضرية واستقرار، الانقلاب، على سبيل المثال، فى طرق الزراعة ومنتجاتها فى بابل، فى إسبانيا،فى بلاد ما بين النهرين، فى فلسطين، فى مصر، فى بولندا، فى البرازيل، فى سورينام، فى الولايات المتحدة.كما أحدثوا انقلابًا فى العلاقات الاجتماعية، أول النقابيين، بل أول الثوار، جلب اليهود إلى أمريكا هذه الأفكار التى نضجت فى أوروبا الغربية وطبقتها شعوب شرق أوروبا.

مستوردون للفضة وللمعادن الثمينة، كانوا أخيرًا قد وفروا الأموال التى قدمت إلى المزارعين، إلى الحملات الصليبية،إلى حكومات المدن، إلى الكنائس، إلى البلاطات الملكية، إلى الجيوش، من بابل إلى إسبانيا، من بولندا إلى ألمانيا، من لندن إلى أمريكا. أصبح المال معهم وسيلة لنقل كل ما هو جديد، وأصبح اليهود أنفسهم بورجوازية بديلة، تجتهد فى إيجاد الموارد التى تحتاجها الخزائن العامة: قاموا بتمويل الحملات الصليبية، ملوك إنجلترا، حكومات المدن الألمانية، أمريكا المكتشفة حديثًا، لكنهم كانوا مكروهين دومًا بسبب الخدمات التى يقومون بإسدائها.مرة أخرى كان اليهود أكباش فداء.

من بين كبار وسطاء الجديد: دوق ناكسوس Naxos فى سعيه لغزو طبرية، ناثان روتشيلد،فى بحثه عن تمويل الحلف المقدس، جوزيف سليجمان،فى بحثه عن أموال لحملة أبراهام لينكولن، الإخوة بيريرى Pereire ، الذين أعدوا مشروعات لتمويل خطوط السكك الحديدية، ولدينا أيضًا صامويل جومبرز Samuel Gompers الذى أسس النقابات الأمريكية انطلاقًا من المفاهيم ومناهج مجلوبة من أوروبا ، والكثير من غير المعروفين الذين مارسوا كل أشكال تجارة البضائع والأفكار.

كانت تلك الأدوار الثلاثة، الاستكشاف، الرابط، الابتكار، جوهرية لإدارة وتشغيل الاقتصاد الحضرى المستمر. كانت مفاتيح تطور العالم. بدون هؤلاء البدو الرحل ما تقدمت المجتمعات الحضرية المستقرة. وبدونهم أيضًا ما جرى انتقاد الأوضاع وتغييرها، لهذا ظل اليهود دومًا محل ارتياب: لابد من مراقبة من يساهم فى تغيير الأوضاع المكتسبة القائمة.

ابتداءً من القرن السادس عشر، مع انتشار الحريات، سعى العديد من بلاد الغرب فى تشجيع مواطنيها على السفر وفى اجتذاب الرحالة الأجانب إليها، تراجعت البلاد التى لم تكن لها طوائف مهاجرة من مواطنيها إلى البلاد الأخرى، أو تلك التى طردت من أراضى مواطنى البلاد الأخرى. مثل إسبانيا التى قامت بطرد اليهود، وروسيا التى حصرتهم فى أدوار حضرية دون أن تجعل آخرين يؤدون الوظائف والمهام الملقاة على عاتق البدو الرُحل.

البقــاء

كان البدو الرُحل واقعين بين نارين: مهددون بالفناء من خلال العنف، مهددون بنفس المصير عبر السلام الذى يجبرهم على الاندماج والذوبان فى حياة الآخرين. حتى يستمروا، كان عليهم أن يمزجوا بين الدوام والتغيير، الأجل القصير والأجل الطويل. حَمَلَ التاريخُ اليهودَ إذًا إلى التقيد بسبعة قوانين، لم يجر التصريح بها مطلقًا لكنها كانت تطبق دائمًا:

١. الحياة فى جماعة لحماية أنفسهم من الاضطهاد. من هذا جاء التنظيم الدقيق والصارم للحياة داخل الطائفة، نهى اليهودى عن الصلاة منفردًا، اشتراط الزواج من داخل الطائفة وخاصة التضامن الجبرى، الذى عبر عنه سفر التكوين بمنتهى الروعة:«اترك باب بيتك مفتوحًا على مصراعيه و عامل الفقراء كأفراد فى أسرتك» و بتلك الوصية الأخرى التى جاءت فى سفر اللاويين:« إذا تورط أخوك فى المعصية، إذا رأيته يبدد المال، عاونه، كما أو كان غريبًا أو قادمًا جديدًا، اجعله يعيش معك»، وأخيرًا فى التفسير الذى يطالب أعضاء نفس الطائفة بأن «يتبادلوا إسداء الخدمات الموافقة لمصالحهم الخاصة» لقد رأينا التطبيق الواقعى للقانون عبر القرون الماضية.

٢. الترقب والحذر الدائم، تقدير المخاطر، الاستعداد للرحيل فى أى لحظة إذا لاح الخطر. كثيرًا ما كلفت بعض الطوائف أحد أفرادها بإقامة علاقات مع السلطات الخارجية وترصد الأخطار المحدقة بالطائفة. هكذا قام الناسى le nassi ، حاكم المنفى le exilarque، النقيب le naguib، الاستادلان stadlan ، بالتفاوض كل فى بلده، مع السلطات المحلية فى المدن.

٣. نقل الإرث الثقافى إلى الأجيال التالية، فالتعليم اليهودي، مثل العلمانى، كان الواجب الأول على اليهود: التزام إجبارى مطلوب باستمرار يضفى على التوراة ، على القراءة، على الكتابة مكانة متفردة.

٤. فرض أخلاقية شديدة الزهد على النفس، لا تسامح لا مع التغطرس ولا مع الفسوق حتى لا تُثار غيرة أو حسد ولا ذريعة للاضطهاد. يوضح التلمود بتفصيل كبير كيف لا تخدعنا المقتضيات وكيف نحافظ على أوليات أخلاقية، كيف لا نقيم أعيادًا باذخة أو ننفق بإسراف. لماذا لا نراكم أملاكًا ثابتةً، لا أرض، لا قصور: كيف يجب أن نثقل كواهلنا أو أن نتباهى بالأموال. امتلاك الأمتعة المنقولة فقط، التى يمكن حملها والارتحال بها: أفكار، كتب، كمان، أحجار، ماس. « ليس من المتاح لكل من يقوم بكثير من الإنجازات أن يصبح حكيمًا » هكذا يقول التلمود مختتمًا.

٥. القبول بقانون المضيف دون انتهاك لشريعته الخاصة. إقامة علاقات نزيهة آنية وليست متعاقبة، القبول بالثنائية دون المساس بالعقيدة اليهودية مطلقًا أو تكذيبها، إلا لكى ينجو اليهودى بحياته. مثل اليهودى الإسبانى الذى اعتنق المسيحية، والذى لا يزعم مطلقًا أنه يهودى دون أن ينسى مطلقًا أن يكون كذلك. مثل المواطن الذى ينبغى أن يكون مخلصًا للدولة أو للمجتمع الذى يأويه.

٦. قبول المساعدات والهبات الخارجية، الأفكار، الثقافات، لغة الآخرين وعلى وجه الخصوص القادمين الجدد ممن اعتنقوا اليهودية. ربما كان هذا هو القانون الأصعب من حيث التطبيق (العمل على انقاذه).

٧. خلق ثروات جديدة أو خدمات جديدة، تحمل الرخاء والنمو لمن يجاوْرون الطائفة، وألا يبنوا قوة أو يخلقوا ثروة أبدًا بالاستئثار بما هو موجود من قبل. حتى لا يكون هناك ما يفيدهم وحدهم ولا يفيد الآخرين. حتى يكون من صالح الآخرين أن يعيش اليهود فى رخاء. فى آية تلخص الأمر كله تقول توراة موسي: « عليك أن تحب الله بكل قواك.» أي، يقول راشى Rachi مفسرًا ، بكل ما تملك.

بدون هذه القوانين لم تكن الطوائف اليهودية لتستطع بلا شك مقاومة العنف الذى يطاردها ولا التحضر والتوطين الذى يذيبها و يدمجها فيه بواسطة هذه القوانين، تمكن الشعب اليهودى من الحفاظ على سبب وجوده. من البقاء على أرضه منذ ألفى عام، ربما كان قد أضاع فيها هويته. بتحوله إلى مجرد بلد، سيكون قد أصبح شعبًا من بين شعوب الشرق الأوسط الأخرى. غير أن أيًا منها لم يتمكن من الصمود. لقد ساعده الاضطهاد، وللمفارقة، فى إبقائه رحّالاً دائمًا، على البقاء. وبأن يستفيد الجميع من أن يظل يهوديًا ، حتى يبقى على قيد الحياة.

غير أن شيئًا لا يضمن أن يحدث نفس الشيء فى المستقبل: من كان يستطيع أن يتنبأ، فى عام ١٨٠٠ ، بما سوف يجرى فى القرن التاسع عشر ؟ وأكثر من ذلك أيضًا فى عام ١٩٠٠ من كان بإمكانه أن يتنبأ بالمآسى التى سيكون القرن العشرين مسرحًا لها ؟

بينما انتقل مركز ثقل العالم، على الأقل من الناحية السكانية، نحو الشرق من جديد، سوف يتحدد تاريخ إسرائيل، مرة أخرى، وفقًا لقدرتها على أن تؤدى دور ناقل، وسيط السلام والرخاء والتقدم بين الشرق والغرب. إذا حاولت أن تقصر هويتها على الأراضى التى حصلت عليها، ستكون هى الخاسرة. إذا تابعت طريقها سوف تستطيع البقاء ومساعدة البشرية على البقاء.

٣ ـ حلقة الوصل بالشرق : إسرائيل

على مدى التاريخ الإنسانى - باستثناء نصف القرن الأخير - عاش معظم اليهود بالشرق. ومن جديد يتكرر اليوم نفس الشىء، بإسرائيل كنقطة مركزية. غير أن هذه الدولة، لكى تدوم لن تستطيع أن تظل معزولة، مقاطعة صغيرة من الغرب محصورة بين أقطار الشرق. سوف يكون عليها مرة أخري، أن تكون نافعة لمن يحيط بها، حتى قبل أن تفكر فى نفسها. أى أن تساعد فى نفس الوقت على صبغ المنطقة بالصبغة الغربية والقبول بشرقيتها هى شخصيًا.

غايات الحرب ، صور الحرب

يبلغ عدد الإسرائيليين اليوم ستة ملايين « منهم ١,١ عربى» و عدد الفلسطينيين قد صار ٣,٢ مليون « دون احتساب عدد اللاجئين بالخارج ». ويبلغ عدد المصريين، السوريين، الأردنيين، العراقيين مائة وثمانين مليونًا. غدًا سوف تزداد حدة اختلال التوازن السكانى هذا.

من المؤكد، أن إسرائيل كانت تشهد هى الأخرى أعلى مستوى للخصوبة فى البلاد المتقدمة « ٢,٨ طفل لكل امرأة » ويظل سكانها من الشباب: من خلال عامل النمو السكانى فقط، سوف يرتفع عدد السكان إلى ٧,٦ ملايين فى عام ٢٠٢٥ وإلى أكثر من ٨,٥ ملايين فى عام ٢٠٥٠ .

لكن، السكان العرب فى إسرائيل و فى فلسطين سوف يكونون أكثر عددًا من السكان اليهود، بحلول عام ٢٠١٠ على أقصى تقدير. ابتداءً من تلك السنة –٢٠١٠– سوف يمثل العرب ٥٨٪ من ١٥,٢ مليون من السكان المقيمين بين البحر المتوسط ونهر الأردن. لأنه إذا كان أحد الطرفين يعرف أعلى معدل للخصوبة فى نصف الكرة الأرضية الشمالى، فإن الآخر يعرف أعلى معدل خصوبة على ظهر الكوكب (٥,٦٪) . قبل عام ٢٠٥٠ سيكون عدد الفلسطينيين أكبر من عددد الإسرائيليين، و للمحافظة على توازن سكانى بين اليهود والعرب، سيكون من الضرورى أن يتدفق إلى إسرائيل خمسون ألف مهاجر سنويًا. وفى الجوار فإن العراق، مصر، سوريا، الأردن، لبنان التى يبلغ تعداد سكانها اليوم ثلاثين ضعف سكان إسرائيل، سوف يتضاعف هذا العدد مرتين فى عام ٢٠٥٠.

سوف يختل التوازن بصورة أسرع إذا تمت الموافقة على حق العودة لأبناء وأحفاد الفلسطينيين الذين رحلو عاما ١٩٤٨ . إلا إذا منح نفس الحق إلى أبناء وأحفاد اليهود وأحفاد اليهود الذين طردوا فى نفس الوقت من البلاد العربية.

سوف يجد العشرة ملايين إسرائيلى أنفسهم فى مواجهة ثلاثمائة وخمسين مليونًا من العرب. إن مثل هذا الوضع مرتبط بفارق متنامٍ فى مستوى المعيشة، ربما لن يكون محتملًا إلا إذا ساد السلام.

غير أن إسرائيل مهددة بكل غايات الحرب الخمسة التى تترصد العالم: من أجل الأرض، العقائد، الثروات، الماء، الطاقة وربما سيكون على هذا البلد، مرة أخري، أن يخوض غمار كل أشكال الحروب الجديدة فى المستقبل: إرهاب المدن، معارك بدون ثياب عسكرية، أسلحة مدنية، حرب بلا أسلحة.

١. بدأت حرب من أجل الحدود بين الدولة العبرية والدولة الفلسطينية. حرب أهلية، من شارع إلى شارع، يخوضها الأطفال يهودًا و عربًا، حروب قصاص يقتل فيها الجميع ثأرًا لموتٍ سابقٍ، حرب متناقضة أيضًا، يقوم فيها متطرفون بالاعتداء أو بالقتل ليمنعوا آخرين، فى نفس معسكرهم، من إقامة السلام. حرب انتقامية تفتك بالتقدم والحضارة. يمكن أن تؤدى إلى زوال السلطة الفلسطينية، إلى العودة إلى احتلال مباشر وصريح للأرض، دون أن يحمل ذلك حلًا دائمًا لتعايش شعبين معًا.

٢. إسرائيل آخر بلاد الشمال المنزرعة فى الجنوب هى أيضًا أحد الرهانات المحتملة لحرب بين الشمال والجنوب.يثير الفرق بين مستويات المعيشة فى المنطقة، مشاعر الغيرة ويفاقم حدة الشعور بالظلم. عمل بصورة غير قانونية، استغلال، هجرة غير شرعية، يتداخل هنا كل هذا. حرب عصابات اقتصادية ربما يمكنها أن تخرب مواطن القوة فى اقتصاد إسرائيل.

٣. تورطت إسرائيل أيضًا فى حرب دينية أعلنها فريق من الإسلام على الغرب اليهودي / المسيحى، حرب كانت الصهيونية رمزًا فيها والقضية الفلسطينية مجرد حجة. ربما أمكننا إذًا تخيل حرب تتورط فيها كل القوى العقائدية والعلمانية ضد قوى هؤلاء المتطرفين الدينيين. لانتزاع الحق الحصرى فى الله.

٤. ربما دخلت إسرائيل كذلك حربًا من أجل البترول الذى يسيطر الشرق الأوسط على ثلثى الاحتياطى العالمى منه. إن حربًا مثل هذه، كانت، فى الحقيقة، فى خلفية الصراع الإسرائيلى- الفلسطينى منذ صدور وعد بلفور والاتفاق على تقسيم ثروات الخليج.

٥. أخيرًا، ربما أصبح نقص المياه سببًا فى حرب أخرى. تمتلك إسرائيل، الأردن، فلسطين اليوم أقل من ٥٠٠ متر مكعب من المياه للفرد سنويًا، سوف تتناقص هذه الحصة، متطلبة توزيع جديد للمياه واستثمارات هائلة.

إجمالًا، ربما لن يكون بمقدور إسرائيل البقاء على قيد الحياة وسط هذه الحروب المتراكمة ولا وسط علاقات قوة على ذلك النحو. بالرغم من تفوقها التكنولوجى، فإنها سوف تنهزم على المستوى السكانى، ونخبتها ربما تهاجر، ربما انهار اقتصادها. إن الحرب الدائمة، الشاملة ربما وضعت نهاية للصهيونية.

إن ما يجرى هناك، لم يكن من ناحية أخرى سوى تصور مسبق لصراعات أكثر اتساعًا تدور خارج الشرق الأوسط حول نفس أغراض الحرب، لكن بوسائل جديدة، خاصة من خلال السيطرة على وسائل الاتصال المدنية « كما حصل فى نيويورك فى الحادى عشر من سبتمبر ٢٠١١» وتوجيهها لتصبح وسائل قتل. سيصبح كثير من الحدود محل نزاع سيتواجه أهل الشمال وأهل الجنوب فى كثير من المعارك ،سينهض كثير من الحركات

العقائدية فى مواجهة حركات أخرى، سوف يندلع كثير من النزاعات المسلحة لضمان السيطرة على مصادر الطاقة « خاصة فى القوقاز ». وأخيرًا فإن امتلاك منابع المياه سوف يصبح سريعًا، السبب فى توترات مهمة: فى عام ٢٠١٥ ، سوف يعانى ثلاثة مليارات من البشر من شح المياه، سوف تقوم المعارك من أجلها.

لا وجود لإسرائيل دون فلسطين

غير أن السلام لا يزال رغم ذلك ممكنًا، تحتاج إسرائيل إلى أن تكون نافعة للآخرين حتى يمكنها البقاء ، هناك خمسة ملايين يهودى وأربعة ملايين عربى يعيشون الآن فوق ٢٤٠٠٠ ألف كيلو متر مربع بين نهر الأردن وساحل المتوسط، لا يطالب الفلسطينيون إلا بعشرين بالمئة فقط من هذه الرقعة. من صالح إسرائيل أكثر من أى جهة أخرى أن تمنحهم ما يطالبون به. إنها تحتاج إلى فلسطين على الأقل بقدر ما تحتاج إليها فلسطين.بل ربما أمكننا القول إن إسرائيل أكثر احتياجًا إلى وجود فلسطين التى سوف تتيح لها أن تواصل تطورها فى أمان ، من منظمة التحرير ذاتها. حيث إن قيام الدولة، فى واقع الأمر،قد يثير جدلا حول الدور القيادى لهذه الأخيرة، لأن تطور فلسطين نحو الديموقراطية سوف يؤدى إلى ظهور نخبة أخرى مختلفة تمامًا. و بما أن الحرب تقودها حتمًا إلى الفناء، فإن الدولة العبرية لن يكتب لها البقاء على المدى البعيد إلا بالاعتراف لفلسطين بحقها فى الوجود، أى الحق فى دولة تملك كل وسائل السيادة الكاملة، على أرض مترابطة تحظى بإمكانية العيش فوقها، مع وضع خاص لمدينة القدس، لتكون عاصمة للدولتين، مدينة للجميع. وبالعكس، يجب على الفلسطينيين أن يعترفوا بحق الوجود لدولة يهودية، وأن يستعيدوا لاجئيهم فى مقابل الاعتراف بالقدس الشرقية كعاصمة لفلسطين. وأخيرًا فإن على كل طرف أن يقبل بوجود الآخر على أرضه الخاصة.

بدا الكثير على قناعة من الآن فصاعدًا، بتلك الفكرة. لم يبق إلا أن نجد داخل المعسكرين رجال دولة يفرضوا هذه القناعة على متطرفيهم. رجالاً قادرين على إدراك أن القوة وحدها، دون مراعاة احتياجات الآخر، تقود إلى الهلاك. يأتى السلام عبر القبول

بوجود الآخر، الفصل بين المتقاتلين، إنشاء قوات تدخل تعمل على احترام وقف إطلاق النار، مقاومة كل طرف لمتطرفيه.

سيكون على الجماعة الدولية مساعدة كل من الإسرائيليين والفلسطينيين على استئناف العمل سويًا، على مكافحة الإرهاب فى بلديهما وانطلاقًا من بلديهما. عندما يقوم هنا الاعتراف المتبادل – والأكثر صعوبة أيضًا !– وتنخفض حدة الكراهية، سيكون من الواجب إقامة تعاون حقيقى بين البلدين، حتى يسود بينهما سَلام دائم. لن يكون من اليسير تحقيق هذا. إنهما فى الحقيقة مختلفان جدًا، وليس فقط على المستوى الدينى.

منذ وقت طويل، كان العالم العربى يحلم بإقامة وحدته الاقتصادية وأن يجمع فى كيان واحد متماسك الثلاثمائة مليون مواطن المقيمين فى بلدانه العشرين ابتداءً من المملكة العربية السعودية إلى السودان ومن العراق إلى ليبيا. أطلق العديد من المشروعات فى هذا الاتجاه :صناديق عربية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية، بنك إسلامى، سوق عربية مشتركة، منطقة عربية للتبادل التجارى الحر ...باءت كل هذه المشروعات بالفشل، بل إن الرسوم الجمركية بين مختلف هذه البلاد قد ظلت مرتفعة للغاية. كانت التفاوتات بين مستوى المعيشة ، اختلافات النظم الاجتماعية، المنافسة السياسية قد أعاقت هذه الدول عن الاندماج ولاتزال التجارة بين البلاد العربية لا تمثل إلا خمسة بالمائة فقط من حجم تبادلاتها التجارية.

سوف يكون من الصعب توحيد إسرائيل وفلسطين مع جيرانهما، الأردن، مصر، لبنان وسوريا. إلى ذيول الحرب وتداعياتها، تضاف حقيقة أنهم لم يعتادوا على ممارسة التجارة فيما بينهم وأن قليلاً منهم ينتج ما يحتاجه الآخر. غير أن مثل هذا المشروع قد يكون شرطًا ضروريًا لتحقيق سلام دائم، كما كان الحال فى أوروبا. خلق الظروف التى تجعل من صالح كل طرف أن يحقق الطرف الآخر النجاح.

إن تنفيذ مثل هذا المشروع سوف يبدأ بتحرير تدريجى لتداول الأموال والسلع والخدمات. سوف يمكن ذلك عودة الجميع إلى النمو الاقتصادى وخلق فرص عمل، سوف يقود شيئًا فشيئًا، كما كان الحال فى أوروبا، إلى توافق التشريعات القانونية، جعل الموارد

الأساسية مشتركة بين الجميع، خصوصًا المياه التى سوف تتطلب استثمارات هائلة يشارك فيها الجميع. وكما حدث فى أوروبا أيضًا، سيكون من الواجب تمويل صناديق اجتماعية لتعويض التفاوت الشاسع فى مستويات المعيشة بين مختلف البلاد. بعد أن يتم إعداد مثل هذا المجال الاقتصادى، سوف تتوقف الهويات الوطنية عن التعارض، سيكون لكل طرف مصلحة فى نمو الآخر. سوف يتم الانتقال من حالة العداء إلى حالة التنافس، من التنافس إلى التسابق، من التسابق إلى التعاون. فى البداية سيكون السلام خطرًا بالنسبة للقادة؛ سوف يرى حكام مستبدون شعوبهم وهى تحول غضبها إليهم وتطالب بالديموقراطية و الوحدة.

سيكون لـ" اتحاد الشرق الأوسط " إذًا فى يوما ما عملة، برلمان، بل ومجلس تنفيذى أيضًا، كما هو الحال فى أوروبا. سيكون على إسرائيل آنذاك أن تقبل بأن تعبر أراضيها شعوب لا تزال إلى اليوم معادية لها ؛ بل أن تكون ملزمة بأن تمنح هؤلاء الأجانب الحق فى الإقامة، التوطين، شراء أراض، التصويت فى الانتخابات المحلية. عضوة من بين أعضاء آخرين فى "اتحاد الشرق الأوسط "، ستدخل إسرائيل مع جيرانها فى نمط حياة بصورة ما مشترك، فى مصير مشترك، كما هو الحال فى أوروبا، سوف تنعقد زيجات مختلطة تختتم إتمام هذه المسيرة. بعد أن تصبح إسرائيل دولة مستقرة، سيكون عليها إذًا أن تقبل بإسهامات الآخرين. وبذلك سوف تفقد هويتها، و هو ما سعى إليه مؤسسوها على أى حال.

فى النهاية فإن المشروع الصهيونى سوف يفقد مغزاه ، فى حالة السلم كما فى حالة الحرب.

من الشرق ومن الغرب

فى مواجهة هذا المأزق المزدوج – فى الحرب كما فى السلام – مازالت النخب الإسرائيلية مترددة. إنها لا تريد خسائر الحرب ولا عواقب السلام. إنها ترى بعين الرعب كيف أن أكثر الحروب الدينية عبثية وحمقًا قد دمرت أيرلندا، وتلاحظ فى قلق كيف تغير

أجمل صور السلام فى جنوب إفريقيا. أما بالنسبة للفلسطينيين، الذين تساورهم نفس الشكوك، فإن البعض لا يزال يرى فى مواصلة النزاع أفضل وسائل الحفاظ على وحدتهم، متخوفين من أن يؤدى السلام إلى تدميرها.

للخروج من هذه الورطة، سوف يقترح البعض، فى كلا المعسكرين، إقامة منطقة عازلة بين الدولتين، محصورة خلف الحدود، انتقالات جماعية مكثفة للسكان، كما كان الحال بين كرواتيًا و صربيا، تسمح بخلق كيانات شبه متجانسة. بينها، ما يشبه حائط أريحا Jericho ، أول سور (حائط) بين الشمال والجنوب. إن حلاً كهذا ربما يخدم كثيرًا من المصالح فى كلا الجانبين، مع ذلك ، فسوف يكون من غير المتصور تحقيق هذا سياسيًا واقتصاديًا: لا يمكن تخيل أن يقبل العرب الإسرائيليين بعزلهم عن أبناء عمومتهم الذين يعيشون فى الجهة الأخرى من الحائط ، كما كانت الحال فى ألمانيا سابقًا، و كما هى الآن فى كوريا. بالنسبة لإسرائيل، ربما استلزم تحقيق ذلك طرد كل العرب الإسرائيليين والعيش دون أى رابط مع جيرانها. فإن مثل هذا التقسيم كان سيحرمها من جانب كبير من مواردها و سوف يؤدى إلى انهيار اقتصادى بصورة أكثر عمقًا مما تعانيه اليوم . كلا الخيارين كان مستحيلًا ، إلا بالنسبة إلى بعض المتطرفين من الجانبين .

سيكون على إسرائيل إذًا أن تقبل بالسلام و بما ينطوى عليه الانفتاح على الآخرين. سيكون عليها أن تكف عن تأسيس ذاتيتها على مجرد ملكية أرض، حتى تتميز مرة أخرى بقدرتها على النهوض بهوية الرحالة، الناقلين، أى مواصلة الوجود والتألق عبر لغة، تاريخ، ثقافة، و منظومة قيم. إنها سوف تصبح آنذاك وسيطًا وناقلاً لقيمها الخاصة ، كما تصبح وسيط القيم الغربية، فى نفس الوقت الذى سوف تقبل فيه بأن تثرى نفسها بقيم الشرق والإسلام .

فى وقت أبعد ، فى قلب المثلث القادم حيث سوف يتحدد كل شىء – الغرب، الإسلام، الشرق الأقصى – سوف يبدأ لأكثر القوى الغربية استشراقًا، دور جديد كوسيط للسلام والتقدم .

سوف يصبح التعليم حينذاك أكثر الأوراق الرابحة إستراتيجية . إن سباق التسلح – العقلى – هو فقط ما يجب أن يبدأ . سوف يكون على طوائف الخارج آنذاك أن تقوم بدور إستراتيجى لم تعد تبدو فى وضع يمكنها من لعبه : بخلاف بعض الاستثناءات النادرة تقريبًا ، فإن هذه الطوائف فى حقيقة الأمر كانت فى طريقها إلى الفناء من خلال توحدها مع القيم والثقافات الغربية ونسيانها لهويتها .

٤ ـ حلقة الوصل مع الغرب

طوائف الخارج (الشتات)

الاندثار عبر فقدان التميز:

كان عدد اليهود فى العالم، المقدر باثنى عشر مليونًا ونصف المليون عام ٢٠٠٢، يتراجع منذ منتصف السبعينيات، التى قد وصل فيها إلى ١٣,٧ مليون نسمة. هكذا تناقص عدد يهود جاليات الخارج خلال حوالى عشرين عامًا من تسعة ملايين إلى سبعة ملايين ونصف المليون يهودى. وحتى بدون احتساب عدد المهاجرين إلى إسرائيل، فإن معدل الخصوبة المنخفض لجاليات الخارج (١,٦ طفل لكل امرأة ، فيما عدا الأسر الأرثوذكسية) لم يتح لها الحفاظ على هذا العدد. ترتب على ذلك تقدم العمر بأعضائها: فى الولايات المتحدة ، هناك فقط ٢١٪ من اليهود الأمريكان أقل من ثمانية عشر عامًا فى مقابل ٣٥٪ من الشعب الأمريكى إجمالًا . فى أماكن أخرى – فيما عدا كندا و فرنسا– كان الوضع أكثر سوءًا: فى روسيا، مثل عدد الأطفال الأقل من أربعة عشر عامًا أقل من عشرة بالمئة من مجموع السكان، و صار الكهول الأكثر من ٥٥ عامًا يمثلون قرابة نصف الجالية اليهودية هناك.

يضاف إلى ما سبق، تزايد عدد الزيجات المختلطة وتراجع مشاعر الانتماء . فى الغرب يقل عدد من يقيمون مع والديهم بصورة مطردة ، ويتزايد عدد من يتزوجون عن طريق التعارف فى مجالات العمل أو فى الجامعة. فى كل طوائف الأقليات فى العالم بأسره،

يتزايد عدد الزيجات المختلطة. فى طوائف الخارج على نحو الخصوص ارتفع هذا العدد من ٣٪ من إجمالى عدد الزيجات عام ١٩٤٠ إلى ٨٪ عام ١٩٦٠ و إلى أكثر من ٥٢٪ عام ٢٠٠١. فى الأرجنتين كان ٥٧٪. فى الولايات المتحددة بلغ ٧٢ ٪ عند العلمانيين وحتى وإن ظل ثابتًا عند ٣٪ لدى الأرثوذكس المتشددين. ثمانية من كل عشرة أزواج «بدون عقود زواج» من ديانات مختلطة. لا يخرج عن هذا المنوال جزئيًا غير الأفارقة الأمريكان فى الولايات المتحدة و المسلمون فى أوروبا، لأنهم يرغبون فى ذلك و لأنهم عرضة للتمييز العنصرى. وبما أن مستوى التعليم الجامعى يدفع إلى الاندماج فى مجتمعات الشتات، فإن الطوائف اليهودية فى الخارج معنية بذلك على وجه الخصوص. مأزق أزلى: المعرفة العلمية تهدد الانتماء الذاتى.

لا تنتهى معظم الزيجات المختلطة إلى اعتناق الطرف اليهودى لديانة أخرى، لكنها تؤدى إلى رفض الطرف غير اليهودى تغيير ديانته وخاصة إلى تخلى الجيل التالى عن اليهودية. إذا كان ثلث شباب الشتات اليوم ، يتزوجون من غير اليهود الذين لا يغيرون ديانتهم، فإن أكثر من نصف الأطفال الناتجين عن هذه الزيجات المختلطة فى الولايات المتحدة لا يصيرون يهودًا. فى الولايات المتحدة، هناك ٧٠٠٠٠٠ ألف شاب ممن تقل أعمارهم عن ١٨ عامًا، وممن كان أحد والديهم من اليهود ، قد نشأوا فى ديانة أخرى، ٦٠٠٠٠٠ ألف شخص بالغ رشيد لوالد أو والدة على الأقل من اليهود الذين يمارسون شعائر عقيدة أخرى.

بل إن أطفال زوجين «رجل وأمرأة» من اليهود يفقدون هويتهم: فى الولايات المتحدة، لا يتلقى اثنان من بين كل ثلاثة أطفال من اليهود تعليمًا دينيًا. فى فرنسا، كانت هذه النسبة واحدًا من اثنين تقريبًا. أحد الاستثناءات النادرة فى حال الطوائف اليهودية فى الخارج كان فى مدينة أنفرس، حيث لا يزال ٩٠٪ من الأطفال يرتادون المدارس اليهودية.

أكثر من أى وقت مضى، أصبح الانتماء خيارًا شخصيًا، وتناقصت إمكانية فرضه من خلال البيئة المحيطة شيئًا فشيئًا. إذا كان من الصعب على شخص إسرائيلى، ألا يقول إنه كذلك، فبالنسبة لكثير من يهود المهاجر، خصوصًا الأمريكان منهم – الذى يمثل المدعو جيرى شاينفيلد jerry Seinfeld مثالهم النموذجى – لم يعد انتماؤهم إلى

طوائفهم يظهر اليوم إلا من خلال بعض المعطيات المبهمة: ذكرى المحرقة، الحذر فى مواجهة تهديدات العداء للسامية، ضرورة مساندة دولة إسرائيل، التضامن مع الأكثر فقرًا، الرحمة بالأبناء، احترام التقاليد العائلية. لم يبق يهودى إلا من اختار ذلك، لكن كما لا يستطيع أن يختار ذلك إلا من ولد يهوديًا، فلم يمكن لعددهم إلا أن يتناقص.٠

فى النهاية إذا امتدت هذه النزاعات، فإن سكان يهود الشتات ربما سيكون قد اندثروا فى عام ٢٠٢٠ ، والثلثان فى ٢٠٥٠ . تبعًا لدراسة أكثر تشاؤمًا قام بها بعض باحثى جامعة هارفارد لن يكون هناك فى الولايات المتحدة عام ٢٠٨٠ إلا ٩٠٠٠٠ ألف يهودى، على أفضل تقديرات، وفقًا لدراسة أخرى قامت بها اللجنة الأمريكية اليهودية للكتاب السنوى اليهودى الأمريكى، فإن عدد اليهود الأمريكان سوف يصل إلى ٣,٨ ملايين نسمة فى عام ٢٠٨٠، غير أن أربعين بالمائة منهم سيكون قد تجاوز الرابعة والستين من عمره.

تبدو الطائفة الكندية ومعها الطائفة الفرنسية، الأقل عرضة لأخطار هذه التطورات المؤدية إلى الزوال، حتى لو كان إيقاع الاندماج فيها يقترب من مثيله فى الولايات المتحدة.

بناءً على ذلك، إلا إذا أفرغتها الحرب من سكانها، فإن إسرائيل سوف تصبح عام ٢٠٢٠ أهم طائفة يهودية فى العالم وسوف يعيش فيها قبل عام ٢٠٥٠ أغلبية الشعب اليهودى . وحينذاك لن يكون هناك طائفة مهاجرة أكبر من الدولة. سوف نتحدث آنذاك عن "شتات إسرائيل" ولن يكون هناك "شتات يهودى"

سوف يصبح شتات إسرائيل شتاتًا وطنيًا وليس شتاتًا ثقافيًا، مختلطًا من خلال العولمة بأشكال أخرى من الهجرات الوطنية وممتزجًا بها.

سيكون الشعب اليهودى الذى قد عاش ألفى عام فى الطليعة ليختفى عندما يريد الآخرون اللحاق به. لم يكن هذا الفناء من خلال التماثل هو الخطر الوحيد الذى يتهدده.

الفناء عن طريق الاختلاف

منهكة لكن دائمًا موضع حسد، كان من الممكن لطوائف الشتات أن تندثر من جراء معاداة الشعوب المستقرة لها. لقد شاهدنا من قبل، عودة إلى العنف تظهر فى مواجهتها، كما هو الحال تجاه أقليات أخرى لم تعد ذكرى المحرقة تكفى لحمايتها من مآس بمثل هولها. يمكن لهذه المآسى أن تتجدد إذا تركزت حول طوائف الشتات بعض الاتهامات الخرافية مثل اتهامهم بالهيمنة على مشروع العولمة. أو أيضًا لو أشارت إليها بعض القوى، التى لا تزال غامضة و غير متوقعة، باعتبارها مرتبطة بدولة ربما كان وجودها يمثل خطرًا، كما يقال، يهدد وصول الغرب إلى البترول، أو بشكل أعم، إذا اتهمت بأنها تمثل عائقًا سياسيًا أمام التوصل إلى اتفاق بين الشرق والغرب أو بين الاسلام والمسيحية. كان من الممكن حينذاك المضى، فى أسوأ الكوابيس، نحو إتفاق بين العقيدتين الابنتين ضد أمهما، بين الإسلام والمسيحية ضد اليهودية. أو بين الإسلام والعلمانيين ضد اليهودية. إن خطاب الرئيس السورى الحديث أمام البابا، الذى ندد فيه باليهودية باعتبارها قاتلة الإله، وغياب رد فعل الفاتيكان على ذلك ربما مثل إحدى العلامات المنذرة المبكرة لتحالف معاد للسامية كهذا. يبقى أن نتصور أن بعض القوى، فى الغالب، فى الغرب أو فى أماكن أخرى، ربما استطاعت أن تنشر مثل هذه الخيالات. من حسن الحظ أن ذلك الأمر لا يزال مستحيلًا إلى الآن و أن هذا التهديد لا يزال بعيدًا.

بصورة أعم، تفاقم العولمة، من خلال دفعها إلى التماثل والتوحد، من حدة المنافسة بين هؤلاء المتشابهين و تركز العنف على طرف ثالث مغاير: هنا أيضًا، يبدو أن الشعب اليهودى فى موقف يوشك فيه أن يصير مرة أخرى ذلك "الطرف المغاير المعذب"، كبش فداء المتنافسين المتشابهين.

لا شىء يسمح اليوم بالتكهن باحتمالية تحقق مثل هذه التهديدات، على الأقل فى ظل الوضع الحالى لعلاقات القوى الجغرافو / سياسية. غير أن شيئًا، لم يكن يسمح فى عام ١٩٠٠، أو تقريبًا كذلك، بتوقع ما سوف يجرى بعد عدة عقود من الزمان ...

٥ ـ من الغرب ومن الشرق
الانفتاح أو الزوال

سوف تمثل تقنيات الاتصال الحديثة وسيلة رائعة للربط بين اليهود فى الخارج وطوائفهم الأصلية. وسوف تسرع من وتيرة تفوق وسيطرة القيم النابغة من الشعب اليهودى، من خلال تعميمها لأوضاع ووسائل الرحالة على الجميع: ليس هناك شىء أكثر يهودية، فى روحه، من الهاتف المحمول.

مثل كل الأقليات الأخرى، لن تستطيع طوائف الشتات اليهودية البقاء على قيد الحياة إلا إذا تراجعت بربرية العالم، الأمر الذى لا يعتمد على هذه الطوائف؛ إذا تعلم كل منا أن يحترم الفوارق، وأن يجد سعادته فى سعادة جيرانه. ليس من خلال التقريب بين طوائف منغلقة تقريبًا، حول فكرة الطائفية أو الجماعية، لكن من خلال تعدد الانتماءات، المشاركة فى كيانات متعددة؛ خاصة فيما يتعلق باليهودية إذا أمكن التوصل إلى اتفاق إقليمى. أخيرًا، إذا واصلت العقائد الدينية الجهد الرائع للتجديد الثقافى الذى يبدو أن بعض زعاماتها تقوم به وتحث عليه الآن.

هناك جماعة من الأنصار الأمريكيين، يدعمها أحد رجال المال فى وول ستريت، ميشيل شتاينهارت Michel Steinhardt ، ابن أحد تجار المجوهرات فى بروكلين، ترغب فى تشجيع الشباب اليهودى على التعرف على التاريخ اليهودى و الهوية اليهودية بصورة أفضل. جاعلة من الارتباط بإسرائيل بديلاً عن الانتماء الدينى، قامت هذه الجماعة بتأسيس جمعية «الشراكة من أجل تميز التعليم اليهودى »، التى يتم مدها بثمانية عشر مليونًا من الدولارات سنويًا، من أجل إرسال شباب الطوائف اليهودية المهاجرة إلى إسرائيل، لاكتشافها والتعرف على تاريخها: ٨٠٠٠ شاب فى العام الأول، ٥٠٠٠٠ ألفًا فى الأعوام التالية. كما قامت أيضًا بتأسيس رابطة «حق الميلاد» the birth right ، التى تقدم رحلات شهر عسل إلى المتزوجين حديثًا من شباب اليهود. وأخيرًا، تقوم المجموعة، بفضل تقنيات تجارية حديثة، بتقديم النصح للطوائف الهودية حول طريقة تطوير رؤيتهم للدين والمتدين، مجددة الصلة بذلك مع محاولات مشابهة قامت بها الكنائس البروتستانتية والكاثوليكية فى أمريكا وأوروبا، بدعم، هى الأخرى، من رجال أعمال: تسويق عقائدى.

كثير من الإسهامات الأخرى ربما ستكون ضرورية حتى تصبح الديانة اليهودية – مثلها مثل العقائد الأخرى – قطبًا جاذبًا وحتى تقدم إجابات عن الأسئلة الكبرى التى تطرحها الإنسانية على نفسها . بدون أن تنغلق بسبب هذا على نفسها فى أرثوذكسية متعصبة، فى طائفية غيورة. ليس مؤكدًا أن كل طوائف اليهود فى الشتات سوف تمتلك وسائل تنمية وتشجيع مثل هذا التجدد الروحى. حتى لا تُعرف بعد ذلك من خلال تعريف الآخرين لها فقط، ولا من خلال التعريف الذى صاغه الآخرون لإسرائيل، لابد من وجود مدرسين، مدارس، حلقات نقاش، أماكن لقاء. لابد من السلام، من الانفتاح، التسامح، القبول بتعدد الولاءات، تحديث الأعراف والطقوس العقائدية، الممارسات والأفكار. إذا استمرت الحرب فى الشرق الأوسط، فإن مسئولية بقاء اليهودية ستقع آنذاك على عاتق ثلاث طوائف يهوية من طوائف الغرب: طوائف الولايات المتحدة، كندا و فرنسا. إذا أصبحت أرضًا للسلام، تستطيع إسرئيل فى المقابل أن تقوم بدورها بتمويل الحياة الثقافية لبعض طوائف الشتات: لن يكون هناك استخدام أفضل لأموال تضخها البنوك السويسرية لتعويض ما تم نهبه والاستيلاء عليه خلال الحرب العالمية الثانية.

لإنجاح مثل هذا التجديد، فى أى من تلك الحالتين، سيكون على الشعب اليهودى خاصة، مثل أى أقلية أخرى، أن يعيد انفتاحه أمام القادمين الجدد، أن يتسامح مع أنماط جديدة للحياة، وأن يتقبل بسهولة أكثر من يريدون الانضمام إليه. ويحاول معهد الهداية المشترك، الذى تم تأسيسه فى إسرائيل عام ١٩٩٩، تلطيف قواعد اعتناق اليهودية وإكسابها بعض المرونة، حتى تقبل بانضمام من قد لا يلتزم بالعيش وفق قواعد الدين الحنيف. ليس الأمر هنا سوى محاولة أولى وخجولة. وحدها المجتمعات المنفتحة هى من تستطيع البقاء. انفتاح اليهودية وحده هو ما كفل لها البقاء حتى الآن.

على كل حال، لم تكن روث Ruth، والدة جدة دافيد (داوود)، التى سينحدر منها المسيح، وفقًا لما جاء بالتلمود ، يهودية ...

عابرون وناقلون من الشرق ومن الغرب

إلى جانب إسرائيل، ربما تستطيع طوائف الشتات اليهودية، من بين أخرى، أن تلعب دورًا أخلاقيًا، أن تذكّر البشر أجمعين بالقيم الأخلاقية التى مكنتها من البقاء، أن تستمر فى مساعدة الآخرين على التحاور، على الخلق والابتكار، على التطور، على التبادل. فى الوقت الذى تظهر فيه وتتشكل حضارات أخرى، سيكون على الشعب اليهودى أن يستعيد، بطريقة مختلفة تمامًا، من خلال الأدوات الحديثة لما هو كامن فيه، الدور الذى كان يلعبه منذ عشرة قرون: ناقل، عابر بين الغرب، الإسلام والشرق، ناقل للثروات، الأفكار، الثقافات، لكنه أيضًا وعلى وجه الخصوص، ربما، فى هذه المرحلة الجديدة من تاريخ العالم، ناقل لثروته الأساسية: الزمن.

بما أن الشعب اليهودى يرى إلهه، الذى أصبح إلهًا للجميع، كسيد للزمان الذى يسافر فيه والذى يقدر قيمته بالمال، وبما أنه قد وضع، غالبًا لسوء حظه، إلهه وماله تحت تصرف الآخرين، واهبًا بهذه الطريقة، الزمان إلى العالم – زمن الأبدية « من خلال الإله »، زمن المادية «من خلال المال »، زمن الروح «من خلال الفن »– يبقى عليه أن يجعل من الزمن مصدرًا جديدًا لتقدم البشرية.

فى الحوار الجديد بين الحضارات، فى التشريق الجارى للبشر، فى التغريب الجارى للأشياء، سوف يكون على الشعب اليهودى أن يؤدى دورًا رائدًا فى تلاقى الرؤى المختلفة للزمن، من الشرق ومن الغرب، اللذين سوف يتواجهان. بالتذرع بالفضيلة المشتركة الوحيدة بين الحضرى المستقر والبدوى الرحال: كرم الضيافة، حيث يجرى كل شىء من خلال الشعوربالسعادة فى إسعاد الآخرين وفى تبادل الزمن. زمن انتزاع أخيرًا من سيطرة الأرض و المال.

لا تتحدث هذه القصة إذًا عن شعب ضئيل من حيث العدد وحسب، لكنها تكشف عن دور كل الأقليات فى التاريخ الإنسانى، إنها تلفت الأنظار إلى المأزق الحرج الذى تواجهه كل الشعوب، إن عاجلًا أو آجلًا: الاندثار من خلال فقدان التميز بالتماثل مع

الآخرين أو الموت بسبب التعصب ضدد التفرد والتميز. إنها تتنبأ فى مثالها الأخير بتحول كل الأشياء وكل العلاقات الاجتماعية إلى مال، وتحول الجميع إلى الثقافات السائدة. إنها تبرز التهديد المحدق بكل الأقليات، التى اختيرت ككباش فداء من قبل هؤلاء الذين تصدت (تلك الأقليات) لمذاهبهم المحافظة ، محل غيرة الآخرين لقدرتها على الاستمرار والبقاء، والمضطهدة بسبب ما تقدمه لهم. وتوضح هذه القصة أيضًا أن الطوائف المهاجرة التى حققت النجاح قد كانت الطوائف التى أولت أهمية قصوى للتعليم، للذاكرة، الامتياز، للمدى الزمنى الطويل، لاحترام الآخرين. إنها تشير إلى أن المستقبل قد كان ملكًا للشعوب التى انفتحت على مهاجرى الشعوب الأخرى وعلى مهاجريها شخصيًا. إنها توضح حقيقة عدم قدرة الشعوب المستقرة على الحياة والاستمرار بدون البدو الرحال وأنه لا حياة للبدو من دون حضر مستقر. وأخيرًا فإنها تتنبأ بأنه لن يكون فى صالح الغرب أن يقيم سلامًا مع الإسلام ومع الشرق إلا إذا كان مستعدًا للانفتاح على ثقافتهم وجالياتهم المهاجرة إليها.

بصورة أو بأخرى، ستواجه كل شعوب العالم هذه الرهانات.لدى كل شعوب العالم هناك يعد بدوى رحال وحضرى مستقر فى آن واحد، وجاليات مهاجرة تتراوح أهميتها. سوف يتورط الجميع فى تلك الصورة المتنوعة للحرب. الإرهاب المتنقل الرحال لن يرحم أحدًا. سيواجه الجميع ضرورة أن يميزوا أنفسهم من خلال هوية ثقافية، لغة، وليس من خلال إقليم يقيمون عليه فقط. لن يكون بإمكان أحد، إلا إذا عاش محبوسًا فى جيتو، أن يكون شيئًا آخر سوى بوتقة تتمازج فيها الأجناس. على الجميع أن يردوا المعنى والمغزى إلى القيم الأخلاقية، العلوم الأخلاقية لتكون حاجزًا يحميهم من حماقات العالم. إن تاريخ الشعب اليهودى فى علاقته مع المال والعالم ليست إلا تحذيرًا طليعيًا، عظيم الأهمية للجميع، من خلال القواعد التى تعلمها، لِما ينتظر الجميع.

إلى الآن لا تزال الطوائف المهاجرة الواعدة موجودة فى الشرق. أولًا الصينية، التى يفوق عددها عدد الطوائف اليهودية عشرين مرة، أكثر منهم ثراءً بثلاثين مرة، المهتمة مثلها تمامًا بالأسرة، التعليم، بذل الجهد، القادرة مثلها تمامًا على الأخذ من الآخرين مع الحفاظ على هويتها فى الوقت نفسه غدًا، ستدفع العولمة إلى مضاعفة مثل هذه الجاليات

المهاجرة ، التى ستذوب تارة فى الشعوب التى تستضيفها، تتجدد تارة أخرى من خلال إمدادات جديدة من المهاجرين، أحيانًا بلا جذور، أحيانًا بلا دولة. سيكون العالم مكونًا من هذه الموزاييك المتحركة. لن يكون بإمكانه أن يبقى حيًا إلا بأن يتقبل نفسه كما هو، بأن ينبئ الجميع ما يجب عليهم انتظاره من الآخرين وما يجب أن يقدموه لهم.

على الأقل، تُعلمنا قصة اليهود، العالم، والمال هذه العبرة: أن كل إنسان يحتاج الآخرين حتى يستطيع النجاة بنفسه.

المراجع

1. ABBOTT (G. F.), *Israel in Europe*, Londres, Macmillan, 1907.
2. ADAMS, *Le Monde religieux dévoilé* [rédigé d'après des notes fournies par Josué Van Oven, membre du Consistoire israélite d'Allemagne].
3. ADAMS (Hannah), *History of the Jews from the Destruction of Jerusalem to Nineteenth Century*, Boston, 1812.
4. ADLER (E. N.), *Jewish Travellers in the Middle Ages : 19 First Hand Accounts*, New York, Hermon Press, 1966.
5. AGUS (I.), *The Heroic Age of Franco-German Jewry*, New York, Bloch, 1969.
6. ALBRIGHT (Mike), *Yahveh and the Gods of Canaan*, New York, 1983.
7. ALEM (Jean-Pierre), *La Mémoire du siècle. La Déclaration Balfour aux sources de l'État d'Israël*, Bruxelles, Complexe, 1991.
8. AMAR (André), « Essai psychanalytique sur l'argent », Paris, *Revue française de psychanalyse*, 1956.
9. ANCHEL (Robert), *Un baron juif français au XVIIIe siècle*, Paris, Souvenir et Science, 1930.
10. ANDICS (H.), *Histoire de l'antisémitisme*, Paris, Albin Michel, 1967.
11. ANDRIEU (Claire), « Le Mythe de la banque juive et les réalités de l'aryanisation », *Pardès*, Paris, 1992, n° 16.
12. ARENDT (Hannah), *Les Origines du totalitarisme*, Paris, Le Seuil, 1998, 3 volumes.
13. ARENDT (Hannah), *Sur l'antisémitisme*, Paris, Calmann-Lévy, réédition 1973.
14. ARENDT (Hannah), *La Tradition cachée. Le Juif comme paria*, Paris, Christian Bourgois, 1996.
15. ARISTOTE, *Éthique à Nicomaque*, Paris, J. Vrin, 1994.
16. ARMSTRONG (Karen), *A History of God, from Abraham to the*

Present : the 4000-Years Quest For God, Londres, Heinemann, 1993.
17. ATTALI (Jacques), *Au propre et au figuré*, Paris, Fayard, 1988.
18. ATTALI (Jacques), *Un homme d'influence*, Paris, Fayard, 1985.
19. ATTALI (Jacques), *1492*, Paris, Fayard, 1991.
20. ATTIAS (J.-C.) & BENBASSA (E.), *Dictionnaire de la civilisation juive*, Paris, Larousse, 1997.
21. AVI-YONAH (Michaël), *The Jews Under Roman and Byzantine Rule, From Barkochba to the Arab Conquest*, Jérusalem, Magnus Press.
22. AZÉMA (Jean-Pierre) & BÉDARIDA (François), dir., *Vichy et les Français*, Paris, Fayard, 1992.
23. AZÉMA (Jean-Pierre) & BÉDARIDA (François), dir., *La France des années noires*, t. I, *De la défaite à Vichy*, Paris, Le Seuil, 1993.
24. AZÉMA (Jean-Pierre), *De Munich à la Libération*, Paris, Le Seuil, 1979.
25. BÄCK (Samuel), *Die Geschichte des jüdischen Volkes und seiner Literatur vom babylonischen Exile bis auf die Gegenwart*, Lissa, 1878.
26. BACON (Francis), *La Nouvelle Atlantide*, Paris, Flammarion, 1995.
27. BADINTER (Robert), *Libres et égaux... L'Émancipation des Juifs 1789-1791*, Paris, Fayard, 1989.
28. BARBOUR (Violet), *Capitalism in Amsterdam in the 17th Century*, Baltimore, John Hopkins, 1950.
29. BARD (Mitchell), *The Babylonians*.
30. BARNAVI (Éli), *Histoire universelle des Juifs*, Paris, Hachette, 1992.
31. BARNAVI (Éli), *A Historical Atlas of the Jewish People*, New York, Alfred A. Knopf, 1992.
32. BARNAVI (Éli) et FRIEDLÄNDER (Saul), *Les Juifs et le XX^e^ siècle. Dictionnaire critique*, Paris, Calmann-Lévy, 2000.
33. BARNAVI (Éli), *Israël au XX^e^ siècle*, Paris, PUF, 1982.
34. BARON (S. W.), *Histoire d'Israël : Vie sociale et religieuse*, Paris, PUF, 1957-1964, 5 vol.
35. BARON (S. W.), « Population », in *Encyclopaedia Judaica*, t. 13, 1971.
36. BASTAIRE (Jean), « Drumont et l'antisémitisme », *Esprit*, mars 1964, n° 326.
37. BAUER (Julien), *La Nourriture casher*, Paris, PUF, 1996.
38. BAUER (Bruno), « La question juive », in *La Question juive par Karl Marx*, Paris, UGE, 1968.
39. BÉDARRIDE (Israël), *Les Juifs en France, en Italie et en Espagne*, Paris, Lévy frères, 1861.

40. BENBASSA (Esther), *Histoire des Juifs de France*, Paris, Le Seuil, 1998.
41. BENDELAC (Jacques), *Israël à crédit*, Paris, L'Harmattan, 1995.
42. BENDELAC (Jacques), *Les Fonds extérieurs d'Israël*, Paris, Economica, 1982.
43. BENAMOZEGH (Élie), *Israël et l'humanité*, Paris, Albin Michel, 1961.
44. BEN ISRAËL (Menasseh), *Espérance d'Israël*, Paris, Librairie philosophique J. Vrin, 1979.
45. BEN SASSOON (M.), « Letter Fragments from the Geniza to the Beginnings of the Renewal of Contact Between the Babylonian Yeshivot with the West », in *Tabriz*, vol. 56.
46. BENSIMON (Doris) et ERRÉRA (Églal), *Israéliens : des Juifs et des Arabes*, Bruxelles, Complexe, 1989.
47. BEN ZION (Yeshua-Raz), *From the Lost Tribes in Afghanistan to the Mashed Jewish Converts of Iran*, 1992.
48. Dr BERG (Philip S.), *Kabbalah For the Layman*, Jérusalem, Press of the Research Centre of Kabbalah, 1981.
49. Dr BERG (Philip S.), *An Entrance to the Zohar*, Jérusalem, Press of the Research Centre of Kabbalah, 1974.
50. BERSTEIN (Serge) et MILZA (Pierre), *L'Allemagne 1870-1970*, Paris, Masson, 1971.
51. GILLE (Bertrand), *La Banque en France au XIX[e] siècle*, Paris, 1970.
52. BEUGNOT (Auguste-Arthur), *Les Juifs d'Occident*, Paris, 1824.
53. BILLIG (Joseph), *Le Commissariat général aux questions juives (1941-1944)*, Paris, Éditions du Centre, 1955-1960 (2 vol.).
54. BIRMINGHAM (Stephen), *Our Crowd*, New York, Harper and Row, 1967.
55. BIRMINGHAM (Stephen), *The Grandees*, New York, Harper and Row, 1971.
56. BIRNBAUM (Pierre), *Un mythe politique, la « république juive »*, Paris, Fayard, 1988.
57. BLAZE (Elzéar), *La Vie militaire sous le Premier Empire. Souvenirs d'un officier de la Grande Armée*, Paris, 1906.
58. BLOOM (Herbert I.), *The Economic Activities of the Jews of Amsterdam in the 17th & 18th Centuries*, Londres, Kennicot Press, 1982.
59. BLUMENKRANZ (Bernhard), *Juifs et chrétiens dans le monde occidental (430-1096)*, Paris, Mouton, 1960.
60. BLUMENKRANZ (Bernhard), *Les Auteurs chrétiens latins du Moyen Âge sur les Juifs et le judaïsme*, Paris, Mouton, 1963.

61. BLUMENKRANZ (Bernhard), *Histoire des Juifs de France*, Toulouse, Privat, 1972.
62. BOCCACE, *Décaméron*, Paris, Bordas, 1988.
63. BOGUE (Donald J.), *The Population of the United States*, New York, 1959.
64. BOORSTIN (Daniel), *Les Découvreurs*, Paris, Seghers, 1986.
65. BOUNAN (Michel), *La Vie innommable*, Paris, Allia, 1993.
66. BORNSTEIN-MAKOVETSKY (Leah), « L'activité diplomatique de l'élite sépharade après l'expulsion », in *La Société juive à travers l'histoire*, t. III, Paris, Fayard, 1992-1993.
67. BOURDREL (Philippe), *Histoire des Juifs de France*, Paris, Albin Michel, 1974.
68. BOUVIER (Jean) et GERMAIN-MARTIN (Henry), *Finances et financiers de l'Ancien Régime*, Paris, PUF, 1969.
69. BRAUDEL (Fernand), *Civilisation matérielle, économie et capitalisme*, Paris, Armand Colin, 1979.
70. BRAUDEL (Fernand), *La Méditerranée et le Monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, Paris, Armand Colin, 1966, 2 vol.
71. BRAUDEL (Fernand) et LABROUSSE (Ernest), dir., *Histoire économique et sociale de la France*, Paris, PUF, 1970.
72. BREDIN (Jean-Denis), *L'Affaire*, Paris, Fayard-Julliard, 1993.
73. BUNAU-VARILLA (Philippe), *Mémoires*, non publiés.
74. BURIN (Philippe), *Hitler et les Juifs*, Paris, 1989.
75. CALIMANI (Ricardo), *Histoire du ghetto de Venise*, Paris, Denoël, 1997.
76. CAPEFIGUE (Jean-Baptiste), *Histoire des grandes opérations financières*, Paris, 1858.
77. CARS (Jean Des), *Malesherbes*, Paris, 1994.
78. *Catalogue d'Actes relatifs aux Juifs, Revue d'études juives*, III, p. 222, n° 86.
79. CATANE (Moshe), *Des croisades à nos jours*, Paris, 1956.
80. CAVE (C.) & COULSON (Herbert), éds, *A Source Book for Medieval Economic History*, Milwaukee, The Bruce Publishing Co., 1936.
81. CECIL (L.), *Albert Ballin*, New Jersey, Princeton University Press, 1970.
82. CERBELAUD (Dominique), *Écouter Israël*, Paris, Le Cerf, 1995.
83. CHARLOT (Monica), *L'Angleterre, 1945-1980*, Paris, Imprimerie nationale, 1981.
84. CHAUNU (Pierre), *L'Expansion européenne du XIIIe au XVe siècle*, Paris, PUF, 1969.
85. CHAUVEL (Geneviève), *Saladin, rassembleur de l'Islam*, Paris, Bordas, 1991.

86. CHESNAIS (Jean-Claude), *La Population mondiale*, Paris, Bordas, 1991.
87. CHEVALIER (Yves), *Le Juif, bouc émissaire : contribution à la théorie de l'antisémitisme*, thèse de doctorat, Paris IV, 1986.
88. CHOURAQUI (André), *L'Alliance israélite universelle et la Renaissance juive contemporaine*, Paris, PUF, 1965.
89. CHOURAQUI (André), *Histoire du judaïsme*, Paris, PUF, 1974.
90. CHOURAQUI (André), *L'Univers de la Bible*, Paris, Lidis, 1991.
91. CHOURAQUI (André), *Les Hommes de la Bible*, Paris, Hachette, 1994.
92. CLOULAS (Ivan), *Les Borgia*, Paris, Fayard, 1987.
93. COHEN (Raphaël), *Ouvertures sur le Talmud*, Paris, Jacques Grancher, 1990.
94. COHEN (Raphaël), *Les Chemins de la Torah*, Le Hameau, 1986.
95. COHEN (Brigitte-Fanny), *Élie Wiesel, qui êtes-vous ?*, Lyon, La Manufacture, 1987.
96. COHN (Norman), *Histoire d'un mythe : « la conspiration juive » et « les protocoles des Sages de Sion »*, Paris, Gallimard, 1967.
97. Colloque (XVII^e^) des intellectuels juifs de langue française : *Le Modèle de l'Occident*, Paris, PUF, 1977.
98. Colloque (XVIII^e^) des intellectuels juifs de langue française : *L'Argent*, Paris, Denoël, 1989.
99. COLOMB (Christophe), *Journal*, Paris, La Découverte, 1991.
100. COMTE (Bernard), « Conscience catholique et persécution antisémite : l'engagement de théologiens lyonnais en 1941-1942 », *Annales ESC*, mai-juin 1993, n° 3, pp. 635-654.
101. CONDER (Claude-Reignier), *Judas Macchabeus and the Jewish War of Independence*, Londres, 1894.
102. *Coran (Le)*, Flammarion.
103. DA COSTA, *Israel en de Volken*, Utrecht, 1876.
104. DAHAN (Gilbert), *La Polémique chrétienne contre le judaïsme au Moyen Âge*, Paris, Albin Michel, 1991.
105. DAHAN (Gilbert), *Les Intellectuels chrétiens et les Juifs au Moyen Âge*, Paris, Le Cerf, 1990.
106. DALY, *The Settlement of the Jews in North America*, New York, 1893.
107. DAVIS (D.), éd., *Hebrew Deeds of English Jews Before 1290*, Fainsworth, Gregg, 1972.
108. DEDIEU (J.-P.), *L'Inquisition*, Paris, Le Cerf, 1987.
109. DELUMEAU (Jean), *La Civilisation de la Renaissance*, Paris, Arthaud, 1984.

110. DEPPING (Georges-B.), *Les Juifs dans le Moyen Âge*, Paris, 1834.
111. DEUTSCH (Émeric), « L'argent entre violence et pacification » in *L'Argent*, XVIIIe colloque des intellectuels juifs.
112. DEUTSCHER (Isaac), *Staline*, Paris, Gallimard, 1973.
113. *Dictionnaire encyclopédique du judaïsme*, Paris, Laffont, 1996.
114. DIDEROT (Denis) & D'ALEMBERT (Jean), *Encyclopédie*, article « Judaïsme ».
115. DIMONT (Max), *Jews, God and History*, New York, Simon and Schuster, 1962.
116. DOUBNOV (Simon), *Précis d'histoire juive*, Service technique pour l'éducation, Paris, 1963.
117. DOUBNOV (Simon), *Histoire moderne du peuple juif (1789-1938)*, Paris, Le Cerf, 1994.
118. DRAÏ (Raphaël), *L'Économie chabbatique*, Paris, Fayard, 1998.
119. DRAÏ (Raphaël), *Le Dieu caché et sa révélation*, Paris, Fayard, 1990.
120. DRAÏ (Raphaël), *La Conscience des prophètes*, Paris, Fayard, 1993.
121. DRAÏ (Raphaël), *Le Mythe de la loi du talion*, Paris, Anthropos, 1996.
122. DROZ (Jacques), dir., *Histoire de l'Allemagne*, 4 vol., Paris, Hatier, 1970-1976.
123. DRUMONT (Édouard), *La France juive, essai d'histoire contemporaine*, Paris, Marpon et Flammarion, 1886.
124. DUCELLIER (Alain), KAPLAN (Michel), MARTIN (Bernadette) et MICHEAU (Françoise), *Le Moyen Âge en Orient, Byzance et l'Islam*, Paris, Hachette, 1990.
125. EHRENBOURG (Ilya) et GROSSMAN (Vassili), *Le Livre noir*, Arles-Paris, Actes-Sud-Solin, 1995.
126. EHRENBERG (R.), *Le Siècle des Fugger*, Paris, SEVPEN, 1955.
127. EINZIG (Peter), *The Euro-Bond Market*, Londres, Macmillan, 1969.
128. EISENBERG (Josy), *Une histoire du peuple juif*, Paris, Livre de Poche, 1970.
129. EISENBERG (Josy), *Histoire moderne du peuple juif, d'Abraham à Rabin*, Paris, Stock, nouv. éd., 1997.
130. EISENBERG (Josy) et ABECASSIS (Armand), *À Bible ouverte*, Paris, Albin Michel, 1978.
131. EISENBERG (Josy) et GROSS (Benno), *Un Messie nommée Joseph*, *À Bible ouverte V*, Paris, Albin Michel, 1983.
132. EISENBERG (Josy), ABECASSIS (Armand), *Moi, le gardien de mon frère ?*, *À Bible ouverte III*, Paris, Albin Michel, 1980.

133. ELIADE (Mircea), *Histoire des croyances et des idées religieuses*, Paris, Payot, 1976.
134. EMERY (Richard W.), *The Jews of Perpignan in the 13th Century*, New York, Columbia University Press, 1959.
135. *Encyclopaedia Judaica*, Jérusalem, Keter Publishing House, 1972.
136. ENDERLIN (Charles), *Paix et guerres. Les Secrets des négociations israélo-arabes, 1917-1997*, Paris, Stock, 1997.
137. ENGELS (Friedrich), *L'Origine de la famille, de la propriété privée et de l'État*, Paris, Éditions sociales, 1971.
138. ERSTEIN (I.), *Studies in the Communal Life of Jews in Spain*, New York, Herman Press, 1968.
139. FAVIER (Jean), *De l'or et des épices. Naissance de l'homme d'affaires au Moyen Âge*, Paris, Fayard, 1987.
140. FEINGOLD, *The Politics of Rescue*, Nouveau-Brunswick, Rutgers University Press, 1970.
141. FEUERWERKER (David), *L'Émancipation des Juifs en France de l'Ancien Régime à la fin du Second Empire*, Paris, Albin Michel, 1976.
142. FINKIELKRAUT (Alain), « Péguy, les Juifs, l'argent », in *L'Argent*, XVIIIe colloque des intellectuels juifs.
143. FINOT, *Étude historique des relations entre la Flandre et l'Espagne au Moyen Âge*, Paris, 1899 (Annales du Comité flamand de France).
144. FISCHEL (W. J.),« Rediscovery of the Medieval Jewish Community in Central Afghanistan », *Journal of the American Oriental Society*, vol. 85, 1965.
145. FLAUBERT (Gustave), *Carnets de voyage à Carthage*, Publications de l'université de Rouen, 1999.
146. FLEG (Edmond), *Anthologie juive des origines à nos jours*, Paris, Flammarion, 1956.
147. FLEG (Edmond), *Moïse raconté par les sages*, Paris, Albin Michel, 1969.
148. FLEG (Edmond), *Anthologie de la pensée juive*, Paris, « J'ai lu », 1966.
149. FONTETTE (François de), *Histoire de l'antisémitisme*, Paris, PUF, 1993.
150. FRAENCKEL (André-Aron), « ... Et ils dépouillèrent l'Égypte... », in *L'Argent*, XVIIIe colloque des intellectuels juifs.
151. FRAZER, *Le Bouc émissaire*, Paris, Laffont, 1983.
152. FREEDMAN (Maurice), PARKES (James), NEWSTATTER (Hannah), BROTZ (Howard), *A Minority in Britain. Social Studies of the Anglo-Jewish Community*, Londres, 1955.
153. FREUD (Sigmund), *L'Homme Moïse et la Religion monothéiste*, Paris, Gallimard, 1997.

154. GABLER (Neal), *An Empire of Their Own : How the Jews Invented Hollywood*, New York, 1988.
155. GALL (Lothar), FELDMAN (Gerald D.), JAMES (Harold), HOLTFRERICH (Carl-Ludwig), BUSCHGEN (Hans E.), *The Deutsche Bank 1870*, Londres, Weidenfeld and Nicholson, 1995.
156. GARDET (Louis), *La Cité musulmane. Vie sociale et politique*, Paris, 1954.
157. GARELLI (Paul), *Le Proche-Orient asiatique*, Paris, PUF, 1974.
158. GEIGER (Abraham), *Das Judenthum und seine Geschichte*, Breslau, 1909.
159. GÉNESTAL (R.), *Le Rôle des monastères comme établissements de crédit du XI^e au XIII^e siècle*, Paris, 1901.
160. GEREMEK (Bronislaw), *La Potence ou la Pitié*, Paris, Gallimard, 1987.
161. GIL (M.), *Les Tusturi, famille et clan*, Tel-Aviv, 1981 (en hébreu).
162. GIL (M.), *Land of Israel During the First Muslim Period (634-1099)*.
163. GINIEWSKI (Paul), *De Massada à Beyrouth*, Paris, PUF, 1983.
164. GIRARD (Patrick), *La Révolution française et les Juifs*, Paris, Robert Laffont, 1989.
165. GIRARD (René), *La Violence et le Sacré*, Paris, Grasset, 1970.
166. GOITEIN (Salomon Dov), *Juifs et Arabes*, Paris, Éd. de Minuit, 1957.
167. GOITEIN (Salomon Dov), Notes et traduction *de Letters of Medieval Jewish Traders*, Princeton University Press, 1973.
168. GOLDHAGEN (Daniel), *Les Bourreaux volontaires de Hitler*, Paris, Le Seuil, 1997.
169. GOLDMAN (Nahum), *Autobiographie. Une vie au service d'une cause*, Paris, Fayard.
170. GOMBRICH (E. H.), *Warburg Aby. An Intellectual Biography*, University of London, The Warburg Institute, 1970.
171. GOODMAN (D.), MIYAZAWA (M.), *Jews in the Japanese Mind*, New York, Free Press, 1995.
172. GOTTHEIL (R.), *The Belmont-Belmonte Family*, New York, 1917.
173. GOURÉVITCH (E.), trad., *Le Guide des Hassidim*, Paris, Le Cerf, 1988.
174. GRABOÏS (Aryeh), « L'abbaye de Saint-Denis et les Juifs sous l'abbatiat de Suger », *Annales ESC*, 24, 1969.
175. GRABOÏS (Aryeh), « Du crédit juif à Paris au temps de Saint Louis », *Revue des études juives*, t. 129, Paris, 1970.
176. GRABOÏS (Aryeh), « Rôle et fonction de l'usure juive dans

le système économique et social du monde médiéval (IX^e-XIV^e s.) », in *La Société juive à travers l'histoire*, t. III.
177. GRAYZEL (Salomon), *Histoire des Juifs*, Service technique pour l'éducation, t. I, Paris, 1967.
178. GRAETZ, Heinrich, *Histoire des Juifs*, t. I à V, Paris, Lévy, 1882-1897.
179. GRÉGOIRE, abbé, *Histoire des sectes religieuses*, Paris, Potey, 1810.
180. GRIBBEN (Mark), *Meyer Lansky, Mastermind of the Mob*, New York, Dark Horse Multimedia, 1999.
181. GRIBETZ (Judah), GREESTEIN (Edward), STEIN (Regina), *Timelines of Jewish History*, New York, Simon and Schuster, 1993.
182. GROLLENBERG (Luc H.), *Atlas de la Bible*, Paris, Elsevier, 1954.
183. GROSS (N.), éd., *Economic History of the Jews*, Jerusalem Library of Jewish Knowledge, Jérusalem, Keter Publishing House, 1975.
184. GRUNEBAUM (G. E. von), *Eastern Jewry Under Islam*, Viator, 1971.
185. GÜDEMANN (M.) citant SHEKEL (rabbi Chalom bar Isaac), *Geschichte des Erziehungswesens und der Cultur der Juden*, Vienne, 1881-1884, t. III.
186. GUEDJ (Marc), « Argent et violence dans la loi du talion », in *L'Argent*, XVIII^e colloque des intellectuels juifs.
187. GUGGENHEIM (E.), *Le Judaïsme dans la vie quotidienne*, Paris, Albin Michel, 1992.
188. GUILLEN (P.), *L'Allemagne de 1848 à nos jours*, Paris, Nathan, 1970.
189. HADAS-LEBEL (Mireille), « Sémite : histoire d'un mot », *L'Histoire*, octobre 1991, n° 148, pp. 16-18.
190. HADAS-LEBEL (Mireille), *Le Peuple hébreu*, Paris, Gallimard, 1998.
191. HADAS-LEBEL (Mireille), *Flavius Josèphe. Le Juif de Rome*, Paris, Fayard, 1985.
192. HAMBURGER, *Realencyclopädie des Judenthums*, Leipzig, 1896.
193. HARRIS, *History of the Medieval Jews*, New York, 1907.
194. HAYOUN (Maurice-Ruben), *Le Zohar aux origines de la mystique juive*, Paris, Noësis, 1999.
195. HEERS (Jacques), *Christophe Colomb*, Paris, Hachette, 1981.
196. HÉRODOTE, *L'Enquête*, Paris, Gallimard, 1985.
197. HERZL (Theodor), *L'État juif*, suivi de *Essai sur le sionisme*, Paris, La Découverte, 1990.
198. HILBERG (Raul), *La Destruction des Juifs d'Europe*, Paris, Fayard, 1988.

199. HIRSCHBERG (H. Z.), *Les Trois Cycles de l'histoire des Juifs d'Afrique du Nord*, vol. 6, automne 1965, « Dispersion et Unité ».
200. HIRSCH (Samson), *Dix-neuf épîtres*.
201. HITLER (Adolf), *Mein Kampf*, trad. fr., Paris, Sorlot.
202. HOBSON (O. R.), *How the City Works*, Londres, New Chronicle Book Department, 1955.
203. HUME (David), *Histoire de l'Angleterre*, Paris, Didier, 1842.
204. IANCU (Danièle et Carol), *Les Juifs du Midi. Une histoire millénaire*, Avignon, 1995.
205. JACOBS (J.), éd., *Jews of Angevin England*, Tornsworth England, Gregg, 1970.
206. JACOBSON (David), « When Palestine Meant Israel », *Israel Biblical Archeology Review*, mai 2001.
207. The Jewish Telegraphic Agency, « A Century of Vatican-Jewish Relations », *The Jewish Exponent*, Philadelphie, Jewish Publishing Group.
208. *Jews and Judaism in the United States. A Documentary History*, New York, Behrman House, 1983.
209. JÖHLINGER (Otto), *Bismarck und die Juden*, Berlin, 1921.
210. JOHNSON (Paul), *Une histoire des Juifs*, Paris, Lattès, 1989.
211. JORDAN (W. C.), *The French Monarchy and the Jews From Philip August to Philip IV*, Philadelphie, 1989.
212. FLAVIUS JOSÈPHE, *La Prise de Jérusalem*, Monaco, 1965.
213. FLAVIUS JOSÈPHE, *La Guerre des Juifs contre les Romains*, Paris, 1968.
214. KAENNEL (Lucie), *Luther était-il antisémite ?*, Genève, Labor et Fides, 1997.
215. KAPLAN (Joseph), *Un enseignement de l'estime*, Paris, Stock, 1982.
216. KARPELES, *Sketch of Jewish History*, Philadelphie, 1898.
217. KASPI (André), *Les Juifs pendant l'Occupation*, Paris, Le Seuil, 1991.
218. KASPI (André), *La Guerre de Sécession*, Paris, Gallimard, 1992.
219. KATZ (Jacob), *Tradition and Crisis. Jewish Society of the End of the Middle Age*, Glencoe, 1961.
220. KATZ (Jacob), *L'Émancipation des Juifs en Europe*, Paris, Hachette, 1984.
221. KATZ (Jacob), *Exclusion et tolérance : chrétiens et Juifs du Moyen Âge à l'ère des Lumières*, Paris, Lieu commun, 1987.
222. KEYNES (John Maynard), *The Economic Consequences of the Peace*, Londres, Macmillan, 1920.
223. KEYNES (John Maynard), *Carl Melchior*, Collected Writings, Londres, Macmillan, 1920.

224. KLARSFELD (Serge), *La Shoah en France*, Paris, Fayard, 2001, 4 vol.
225. KLIER (L.), LAMBROZA (Shlomo), *Pogroms : Anti-Jewish Violence in Modern Russian History*, Cambridge University Press, 1992.
226. KOCHAN (L.), dir., *Les Juifs en Union soviétique depuis 1917*, Paris, Calmann-Lévy, 1971.
227. KŒNEN, *Geschiedenis d. Juden in Nederland*, Utrecht, 1843.
228. KOLATCH (Alfred J.), *Le Livre juif du pourquoi*, Genève, 1990.
229. KRIEGEL (Annie), *Israël est-il coupable ?*, Paris, Laffont, 1982.
230. KRIEGEL (Maurice), *Les Juifs à la fin du Moyen Âge dans l'Europe méditerranéenne*, Paris, Hachette, 1979.
231. KRIEGEL (Maurice), « Les Juifs et l'argent au Moyen Âge », in *L'Argent*, actes du XVIIIe colloque des intellectuels juifs de langue française, Paris, Denoël, 1989.
232. Caisse des Dépôts et consignations, *La Spoliation antisémite sous l'Occupation : consignations et restitutions*, décembre 2001.
233. LAMBERT (Christian Yohanan), *Le Talmud et la Littérature rabbinique*, Paris, Desclée de Brouwer, 1997.
234. LANDES (David), « Les Juifs dans l'économie, images et réalités, l'argent », in *L'Argent*, actes du XVIIIe colloque des intellectuels juifs de langue française, Paris, Denoël, 1989.
235. LANDES (David), *Banquiers et pachas*, Paris, Albin Michel, 1993.
236. LANZMANN (Claude), *Shoah*, Paris, Fayard, 1986.
237. LE BRAS (Gabriel), « Usure », *Dictionnaire de théologie catholique*, t. XV, 2 (1950).
238. LE GOFF (Jacques), « Métiers licites et métiers illicites dans l'Occident médiéval », in *Pour un autre Moyen Âge*, Paris, Gallimard, 1977.
239. LE GOFF (Jacques), *Marchands et banquiers du Moyen Âge*, Paris, PUF, 1972.
240. LE GOFF (Jacques), *Saint Louis*, Paris, Gallimard, 1996.
241. *Le Juif et la France*, Catalogue de l'exposition du Palais Berlitz, 5 septembre 1941-15 janvier 1942, organisée par l'Institut d'études des questions juives, 1941.
242. LE LORRAIN (Hugues), *L'antisémitisme est-il indigne du chrétien et du Français ?*, slnd.
243. LEMANN (abbé Joseph), *L'Entrée des israélites dans la société française et les États chrétiens*, Paris, Lecoffre, 1886.

244. LÉON (Abraham), *La Conception matérialiste de la question juive*, Paris, Pionniers, 1946.
245. LEROY (Béatrice), *L'Aventure séfarade*, Paris, Flammarion, 1991.
246. LEROY (Béatrice), *Les « Menir » : une famille sépharade à travers les siècles (XII^e-XX^e)*, Bordeaux, CNRS, 1985.
247. *Les Juifs d'Espagne, histoire d'une diaspora 1492-1992*, collectif, Paris, Liana Levi, 1992.
248. LESLIE (D. D.), « Persia or Yemen ? The Origin of the Kaifeng Jews », in *Irano-Judaica*, p. 101-111.
249. LÉVINAS (Emmanuel), *De Dieu qui vient à l'idée*, Paris, Vrin, 1982.
250. LÉVINAS (Emmanuel), *Difficile liberté*, Paris, Albin Michel, 1976.
251. LEWIS (Bernard), *Les Juifs en terre d'Islam*, Paris, Flammarion, 1986.
252. LEWIS (Bernard), *Sémites et antisémites*, Paris, 1991.
253. LIBER (Maurice), *Les Juifs et la Convocation des États généraux*, Louvain-Paris, Peeters, 1989.
254. LOMBARD (Maurice), *Espaces et réseaux du haut Moyen Âge*, Paris-La Haye, Mouton, 1972.
255. LOMBARD (Maurice), *Études d'économie médiévale*, Paris-La Haye, Mouton, 1971.
256. LOMBARD (Maurice), *L'Islam dans sa première grandeur (VII^e-XI^e s.)*, Paris, Flammarion, 1971.
257. LULLE (Raymond), *Le Livre du Gentil et des trois sages*, Éd. de l'Éclat, 1992.
258. LYONS (Malcon) et JACKSON (David), *Saladin, The Politics of the Holy War*, Cambridge University Press, 1997.
259. MADARIAGA (Salvador de), *Christophe Colomb*, Paris, 1952.
260. MAHARAL (Juddah LOEW), *Commentaires*.
261. MAIER (Thomas), *Newhouse : All the Glitter, Power, and Glory of America's Richest Media Empire and the Secretive Man Behind it*, New York, Harper Collins, 1998.
262. MAIMONIDE (Moïse), *Le Guide des égarés*, Paris, Verdier, 1979.
263. MALISSA (Élisabeth D.), *Italy and the Jews*, compiled and copyrighted, 2000.
264. MALO (Charles), *Histoire des Juifs depuis la destruction de Jérusalem jusqu'à ce jour*, Paris, 1826.
265. MANN (Thomas), *Joseph et ses frères. Joseph le nourricier*, Paris, Gallimard, 1980.
266. MARIÉJOL (Jean-H.), *L'Espagne sous Ferdinand et Isabelle*, Paris, 1892.
267. MARIÉJOL (Jean-H.), *Histoire de la France depuis les origines jusqu'à la Révolution française*, Paris, 1905.

268. MARLOWE (Christopher), *Le Juif de Malte*, traduit par H. A. Baatsch, in *L'Avant-Scène, théâtre 1046*, Paris, 1999.
269. MARRUS (Michaël R.), PAXTON (Robert O.), *Vichy et les Juifs*, Paris, Calmann-Lévy, 1981.
270. MARX (Karl), *La Question juive*, Paris, 1968.
271. MARX (Karl), *Le Capital*, Paris, 1985.
272. MASSING (Paul W.), *Rehearsal for Destruction*, New York, 1967.
273. MECKLEMBURG (rabbi Yaacov), *Haktav ve hakabbalah*.
274. MENDEZ BEJARANO (M.), *Histoire de la Juiverie de Séville*, Madrid, 1922.
275. MICHEL (Alain), *Racines d'Israël. 1948 : Plongée dans 3 000 ans d'histoire*, Paris, Autrement, 1998.
276. *Michna*, t. 8, *Baba batra*, t. 9. *Babakama, Babametzia, Traité Nasikin*, traduit de l'hébreu par R. Weil, Presses du Temps présent, 1973.
277. MIQUEL (Pierre), *La Grande Guerre*, Paris, Fayard, 1983.
278. MISRAHI (Robert), *Marx et la question juive*, Paris, Gallimard, 1972.
279. MONTAIGNE (Michel de), *De la vanité*, Paris, Rivages, 1989.
280. MONTANDON (Georges), *Comment reconnaître et expliquer le Juif ?*, Paris, Nouvelles éditions françaises, 1940.
281. MONTANDON (Georges), *La Race, les races*, Paris, Payot, 1933.
282. MONTESQUIEU (Charles de Secondat de), *Lettres persanes*, Paris, 1994.
283. MORAIS (Umberto), *A Short History of Anti-Semitism*, New York, Norton and Co., 1976.
284. MORE (Thomas), *L'Utopie ou le Traité de la meilleure forme de gouvernement*, Paris, Flammarion, 1987.
285. MORRISSON, *The Jews under Roman Rule*, New York, 1893.
286. MORTON (F.), *The Rothschilds*, New York, Atheneum, 1962.
287. MUMFORD (Lewis), *La Cité à travers l'histoire*, Paris, Le Seuil, 1964.
288. NAHON (Gérard), *Les Hébreux*, Paris, Le Seuil, 1963.
289. NAHON (Gérard), « Le crédit et les Juifs dans la France du XIIIe siècle », Paris, *Annales ESC*, t. 24, 1969.
290. NEHER (André), *Faust et le Maharal de Prague*, Paris, PUF, 1987.
291. NEHER (André), *David Gans (1541-1613), disciple du Maharal, assistant de Tycho Brahé et de Jean Kepler*, Klincksieck, Paris, 1974.
292. NEHER (André et Renée), *Histoire biblique du peuple d'Israël*, Paris, Maisonneuve, 1962, 2 vol.
293. NEHER-BERNHEIM (Renée), *Histoire juive : faits et docu-

ments, de la Renaissance à nos jours, 4 vol., Paris, Klincksieck, 1971-1974.
294. NEUSNER (Jacob), *A History of The Jews in Babylonia*, Leyde, 1937.
295. NEUSNER (Jacob), *Le Judaïsme à l'aube du christianisme*, Paris, Le Cerf, 1986.
296. OUAKNIN (Marc-Alain), *Le Livre brûlé : lire le Talmud*, Paris, Lieu commun, 1986.
297. OUAKNIN (Marc-Alain), *De génération en génération... Être Juif*, Paris, Bibliophane, 1989.
298. ORMESSON (Wladimir d'), *La Crise mondiale de 1857*, Paris.
299. PALMER, *A History of the Jewish Nation*, Londres, 1874.
300. PARKES (James), *Les Juifs de la communauté médiévale*, New York, Sepher-Hermon Press, 1976.
301. PARKES (Rev. Dr James), *The Conflict of the Church and the Synagogue*, Philadelphie, Jewish Publication Society of America, 1961.
302. PAXTON (Robert O.), « La spécificité de la persécution des Juifs en France », *Annales ESC*, n° 3, mai-juin 1993.
303. PAXTON (Robert O.), *La France de Vichy (1940-1944)*, Paris, Le Seuil, 1973.
304. PÉREZ (Joseph), *Isabelle et Ferdinand, Rois catholiques d'Espagne*, Paris, Fayard, 1988.
305. PIETRI (François), *Napoléon et les israélites*, Paris, Berger-Levrault, 1965.
306. PICCIOTO, *Sketches of Anglo-Jewish History*, Londres, 1875.
307. POLIAKOV (Léon), *L'Envers du destin. Entretiens avec Georges Elia Sarfati*, Paris, De Fallois, 1989.
308. POLIAKOV (Léon), *Histoire de l'antisémitisme* ; t. I : *L'Âge de la foi*, Paris, Calmann-Lévy.
309. POLIAKOV (Léon), *Histoire de l'antisémitisme* ; t. II : *De Mahomet aux Marranes*, Calmann-Lévy.
310. POLIAKOV (Léon), *Histoire de l'antisémitisme* ; t. III : *L'Âge de la science*, Paris, Calmann-Lévy.
311. POLIAKOV (Léon), *Histoire de l'antisémitisme* ; t. IV : *De Voltaire à Wagner*, Paris, Calmann-Lévy.
312. POLIAKOV (Léon), *L'Impossible Choix*, Paris, Austral, 1994.
313. POLIAKOV (Léon), *Les Banchieri juifs et le Saint-Siège, du XIII^e au XVII^e siècle*, Paris, Imprimerie nationale, 1965.
314. POLIAKOV (Léon), *Du Christ aux Juifs de Cour*, Paris, Calmann-Lévy, 1955.
315. POLIAKOV (Léon), *Le Mythe aryen*, Paris, Presses Pocket, 1994.
316. POLIAKOV (Léon), *Bréviaire de la haine. Le III^e Reich et les Juifs*, Paris, Calmann-Lévy, 1951.

317. Polonski (Jacques), *La Presse, la Propagande et l'Opinion publique sous l'Occupation*, Paris, CDJC, 1946.
318. Poncins (Léon de), *La Mystérieuse Internationale juive*, Paris, Beauchesne et ses fils, 1936.
319. Pool (David de Sola), *An Old Faith in the New World*, New York, Columbia University Press, 1955.
320. Pool (David de Sola), *Portraits Etched in Stone*, New York, Columbia University Press, 1954.
321. Potok (Chaim), *Une histoire du peuple juif*, Paris, Presses Pocket, 1996.
322. Prévost (Philippe), *Histoire du ghetto d'Avignon*, Avignon, Aubanel, 1975.
323. Priebatsch, Felix, *Die Judenpolitik des fürstlichen Absolutismus im 17. & 18. Jahrhundert.*
324. Pulido Fernandez (Angel), *Espagnols sans patrie*, 1905.
325. Rachi, *Le Talmud, commentaires*, publié par Adin Steinsaltz.
326. Raizan (Marc), *Historia des Israelitas no Brasil*, Rio de Janeiro, 1937.
327. Raphaël (Freddy) et Weyl (Robert), *Regards nouveaux sur les Juifs d'Alsace*.
328. Raphaël (Freddy), *Juifs en Alsace. Culture, société, histoire*, Toulouse, Privat, 1977.
329. Raphaël (Freddy), *Judaïsme et capitalisme*, Paris, PUF, 1982.
330. *Rapport du Congrès juif mondial*, 1938.
331. Rault (Jean), *Drumont, la France juive et la Libre Parole*, Paris, Société française d'éditions littéraires et techniques, 1935.
332. Read (Donald), *The Power of News, the History of Reuters, 1849-1989*, Oxford University Press, 1992.
333. Reich (Carl), *The Biography of André Meyer*,. New York, William Morrow and Co., 1983.
334. Reinach (Théodore), *Histoire des Israélites depuis l'époque de leur dispersion jusqu'à nos jours*, Paris, Hachette, 1884.
335. Reinach (Théodore), *Textes d'auteurs grecs et romains relatifs au judaïsme*, Hildesheim, G. Olms, 1963.
336. Renan (Ernest), *Judaïsme et christianisme*, Paris, Copernic, 1977.
337. Renouard (Yves), *Histoire de Florence*, Paris, PUF, 1974.
338. Renouard (Yves), *Les Hommes d'affaires italiens du Moyen Âge*, Paris, Armand Colin, 1972.
339. Ricardo (David), *Œuvres complètes*, Zeller, 1966.
340. Rogier (J.), Aubert (R.), Knowles (M.-D.), *Nouvelle histoire de l'Église*, Paris, Le Seuil, 1968.

341. ROCKEVODE (J. G.), éd., *Chronica Jocelini de Brakelonda*, Londres, Camden Society, 1840.
342. ROLL (Eric), *Memoirs. Crowded Hours*, Londres, 1985.
343. ROSENBAUM (E.), SHERMAN (A. J.), *Das Bankhaus MM. Warburg & Co. 1798-1938*, Hambourg, Hans Christians Verlag, 1976.
344. ROTH (Cecil), *Doña Gracia Nasi*, Paris, Liana Levi, 1990.
345. ROTH (Cecil), *The House of Nasi, the Duke of Naxos*, New York, Greenwood Press, 1948.
346. ROTH (Cecil), *Histoire du peuple juif*, Éd. de la Terre retrouvée, 1963.
347. ROTH (Cecil), *Histoire des marranes*, Paris, Liana Levi, 1990.
348. ROUCHE (Michel), *Le Moyen Âge en Occident*, Paris, Hachette, 1999.
349. ROUMANI (Maurice), *The Case of the Jews from Arab Countries : A Neglected Issue*, Tel-Aviv, World Organization of Jews from Arab Countries, 1977.
350. RUPPIN (Arthur), *Les Juifs dans le monde moderne*, Paris, Payot, 1934.
351. SAFRAN (Alexandre), *Un tison arraché aux flammes. La Communauté juive de Roumanie 1939-1947, Mémoires*, Paris, Stock, 1987.
352. SAINT-BONNET (Georges), *Le Juif ou l'Internationale du parasitisme*, Paris, Vita, 1932.
353. SAINT-SIMON (Henri de), *Le Nouveau Christianisme. Dialogues entre un conservateur et un novateur*, Paris, 1825.
354. SANTINI (P.), éd., *Documenti dell'antica Costituzione del comune di Firenze*, in *Documenti di storia italiana*, Florence, 1895.
355. SAPORI (Armando), *Le Marchand italien au Moyen Âge*, Paris, 1952.
356. SAVARY, *Dictionnaire universel du commerce*.
357. SAVILLE (Pierre), *Le Juif de Cour*, Paris, 1970.
358. SAYOUS (André E.), *Les Débuts du commerce de l'Espagne avec l'Amérique (1503-1518)*, Paris, 1934.
359. SAYOUS (André), « Les Juifs », *Revue économique internationale*, mars 1932.
360. SCHACHT (H.), *Mémoires d'un magicien*, Paris, Amiot-Dumont, 2 vol.
361. SCHICK (L.), *Un grand homme d'affaires du début du XVI[e] siècle : Jacob Fugger*, SEVPEN, Paris, 1957.
362. SCHLATTER, *Israels Geschichte von Alexander dem Grossen bis Hadrian*, Karlowitz, 1901.
363. SCHŒNBERG (Shira), *Ashkenazim*.
364. SCHOLEM (Gershom), *Aux origines religieuses du judaïsme*

laïc : de la mystique aux Lumières, Paris, Calmann-Lévy, 2000.
365. SCHOLEM (Gershom), *On the Kabbalah and its Symbolism*, New York, Schocken Books, 1969.
366. SCHOLEM (Gershom), *Sabbataï Tsvi, le Messie mystique*, Paris, Verdier, 1983.
367. SCHOR (Ralph), *L'Antisémitisme en France pendant les années trente : prélude à Vichy*, Bruxelles, Complexe, 1992.
368. SCHÖRER (von), *A History of the Jewish People in the Time of Jesus Christ*, New York, 1891.
369. SCHWARZFUCHS (Simon), *Les Juifs de France*, Paris, Albin Michel, 1975.
370. SCHWARZFUCHS (Simon), *Kahal. La Communauté juive de l'Europe médiévale*, Paris, Maisonneuve et Larose, 1986.
371. SCHWARZFUCHS (Simon), *Brève histoire des Juifs de France*, Paris, Comptoir du livre du Kéren Hassefer.
372. SCHWARZFUCHS (Simon), « Les juifs de Cour », in *La Société juive à travers l'histoire*, t. III.
373. SCHWARZFUCHS (Simon), *Rachi de Troyes*, avec un glossaire d'ancien français, établi par Moshé Katane, Paris, Albin Michel, 1991.
374. SCHWARZFUCHS (Simon), *Les Juifs d'Algérie et la France : 1855-1930*, Jérusalem, Institut Ben-Zvi, 1981.
375. SCHWARZFUCHS (Simon), *Aux prises avec Vichy*, Paris, Calmann-Lévy, 1998.
376. SÉDILLOT (René), *Histoire des marchands et des marchés*, Paris, Fayard, 1964.
377. SEGEV (Tom), *Le Septième Million*, Paris, Liana Levi, 1993.
378. SEGEV (Tom), *Les Premiers Israéliens*, Paris, Calmann-Lévy, 1998.
379. SELTZER (Robert), *Jewish People, Jewish Thought*, New York, Macmillan, 1980.
380. SÉPHIPHA (H.-V.), *L'Agonie des Judéo-Espagnols*, Paris, Entente, 1979.
381. SHAKESPEARE (William), *Le Marchand de Venise*, Paris, Gallimard, La Pléiade, t. I, 1975.
382. SHATZMILLER (Joseph), *Le Prêt d'argent dans la société médiévale*, Paris, Les Belles Lettres, 2000.
383. SHAW (S.), *Histoire de l'Empire ottoman et de la Turquie*, Horvath.
384. SHIRER (William), *L'Ascension et la Chute du III^e Reich*, trad. fr., Paris.
385. SHORT (Walter), *The Exclusion of the Jews and Christians from the Arabian Peninsula*.
386. SILBERSTEIN (Laurence J.), « Others Within and Others Without », in *Jewish Thought and History : Construction of*

Jewish Culture and Identity, ed. by Laurence J. Silberstein and Robert L. Cohen, 1994.
387. SILVAIN (Gérard), *Images et traditions juives, un millier de cartes postales*, préface d'Alain Poher, Astrid, 1980.
388. SIRAT (Colette), *La Philosophie juive médiévale en pays de chrétienté*, Paris, CNRS, 1988.
389. SIRAT (Colette), *La Philosophie juive médiévale en terre d'islam*, Paris, Presses du CNRS, 1988.
390. SIRAT (René), *Les Fleurs du soleil*, Paris, 1991.
391. SOIL (H.), *Abravanel, Don Isaac, sa vie et ses œuvres*, Paris, Gallimard, 1983.
392. SOMBART (Werner), *Les Juifs et la Vie économique*, Paris, 1923.
393. SOMBART (Werner), *L'Apogée du capitalisme*, Paris, 1932, 2 vol.
394. SOMBART (Werner), *Le Bourgeois. Contribution à l'histoire morale et intellectuelle de l'homme économique et moderne*, Paris, 1926.
395. SOUTOU (Georges-Henri), « Comment a été financée la guerre de 1914 », in *La Première Guerre mondiale*, Paris, Flammarion, 1991, t. II.
396. SPINOZA (Baruch), *Éthique*, Paris, PUF, 1990.
397. STARR (J.), *The Jews in the Byzantine Empire*, Tarnsworth, Gregg, 1969.
398. STEIN (Siegfried), « The Laws on Interest in the Old Testament », *The Journal of Theological Studies*, t. 4, 1953.
399. STEIN (Siegfried), « The Development of the Jewish Law on Interest », *Historia Judaica*, 1955.
400. STEINGERG (August), *Studien zur Geschichte der Juden in der Schweiz während des Mittelalters*, Zurich, 1902.
401. STEINSALTZ (Adin), *Hommes et femmes de la Bible*, Paris, Albin Michel, 1990.
402. STERN (Selma), *Jude Süss*, Berlin, 1929.
403. STERN (Selma), *The Court Jew, a Contribution to the History of the Period of Absolution in Central Europ*, Philadelphie, Jewish Publication Society of America, 1950.
404. STERN (Fritz), *L'Or et le Fer, Bismarck, Bleichröder et la construction de l'Empire allemand*, Paris, Fayard, 1990.
405. STOLÉRU (Lionel), *Séminaire sur l'économie du judaïsme*, CUEJ, 1976.
406. SUAREZ FERNANDEZ (L.), *Les Juifs espagnols au Moyen Âge*, Paris, Gallimard, 1983.
407. *Talmud*, édition française Adin Steinsaltz, Paris, Ramsay/FSJU, 1999-2000.
408. *Talmud*, édité en hébreu par le rabbin Adin Steinsaltz, Jérusalem, Israel Institute for Talmudic Publications, 1994.

409. TAMARI (Meir), « With All Your Possessions », *Jewish Ethnics and Economic Life*, New York, Macmillan, 1987.
410. TAWNEY (R. H.), *La Religion et l'Essor du capitalisme*, Paris, M. Rivière, 1951.
411. TENENTI (A.), *Florence à l'époque des Médicis ; de la Cité à l'État*, Paris, Flammarion, 1968.
412. THALMANN (Rita), « La traque des Juifs dans le contexte de la "mise au pas" de la France », *Annales ESC*, mai-juin 1993, n° 3.
413. THOMAS (Louis), *Les Raisons de l'antijudaïsme*, Paris, Les Documents contemporains, 1942.
414. TOLLET (Daniel), *Histoire des Juifs en Pologne du XVIe siècle à nos jours*, Paris, PUF, 1992.
415. GRÉGOIRE DE TOURS, *Historia Francorum*, VII, trad. Robert Latouche, Paris, 1965.
416. TOUSSENEL (Alphonse), *Les Juifs rois de l'époque : histoire de la féodalité financière*, Paris, 1845.
417. TOVEY D'BLOSSIERS, *« Anglia Judaica » or the History and Antiquities of the Jews in England*, Oxford, Fletcher, 1738.
418. Travaux du Centre d'histoire des religions de Strasbourg II, *Prière, mystique et judaïsme*, Paris, PUF, 1987.
419. *Dictionnaire universel français et latin (Dictionnaire de Trévoux).*
420. TRIGANO (Shmuel), dir., *La Société juive à travers les âges*, Paris, Fayard, 1992-1993, 4 vol.
421. TROCMÉ (Étienne), *L'Enfance du christianisme*, Paris, Noësis, 1997.
422. TUDÈLE (Benjamin de), *Voyages autour du Monde*, Paris, 1830.
423. TURNER (H. A.), *Stresemann and the Politics of the Weimar Republic*, Princeton University Press, 1963.
424. VAJDA (Georges), « Le rôle et la signification de l'ascétisme dans la religion juive », *Archives de sociologie des religions*, 1964.
425. VALDMAN (Édouard), *Les Juifs et l'Argent. Pour une métaphysique de l'argent*, Paris, 1999.
426. VALLAT (Xavier), *Le Nez de Cléopâtre : souvenirs d'un homme de droite (1918-1945)*, Paris, Les Quatre Fils Aymon, 1957.
427. VAN CLEAF (Bachman), *Peltries or Plantations*, 1969.
428. VANEIGEM (Raoul), *La Résistance au christianisme*, Paris, Fayard, 1993.
429. VAUX (Roland de), *Histoire ancienne d'Israël des origines à l'installation en Canaan*, Paris, Gabalda, 1986.
430. VAUX (Roland de), *Les Institutions de l'Ancien Testament*, Paris, Le Cerf, 1989-1991, t. I.

431. VOLTAIRE, *Traité sur la tolérance*, Oxford, Voltaire Foundation, 1999.
432. VOLTAIRE, *Dictionnaire philosophique*, Oxford, Voltaire Foundation, 1994.
433. WACHTEL (Nathan), *La Vision des vaincus. Les Indiens du Pérou devant la conquête espagnole*, Paris, Gallimard, 1971.
434. WACHTEL (Nathan), *La Foi du souvenir : labyrinthes marranes*, Paris, Le Seuil, 2001.
435. WARBURG (J. P.), *The Long Road Home*, New York, Doubleday, 1964.
436. WARBURG (Aby), *Essais florentins*, Klincksieck, 1990.
437. WASSERSTEIN (Bruce), *Britain and the Jews of Europe, 1939-1945*, Oxford, Institute of Jewish Affairs, 1979.
438. WEBER (Max), *L'Éthique protestante et l'Esprit du capitalisme*, Paris, Plon, 1964.
439. WEBER (Max), *Le Judaïsme antique*, Paris, Plon, 1971.
440. WEBER (Max), « La morale économique des grandes religions », *Archives de sociologie des religions*, n° 9, 1960.
441. WEIDER (Ben), *Napoléon et les Juifs*, conférence donnée à la Société napoléonienne internationale, Alexandrie, 1997.
442. WEINGORT (Abraham), *Intérêt et crédit dans le droit talmudique*, Paris, Librairie de droit et jurisprudence, 1979.
443. WEIZMANN (Chaïm), *Naissance d'Israël*, Paris, Gallimard, 1957.
444. WEIZMANN (Ezer), *La Bataille pour la paix*, Paris, Hachette, 1981.
445. WIESEL (Élie), *La Nuit*, Paris, Éd. de Minuit, 1958.
446. WIESEL (Élie), *Les Juifs du silence*, Paris, Le Seuil, 1966.
447. WIESEL (Élie), *Célébration biblique. Portraits et légendes*, Paris, Le Seuil, 1975.
448. WILTON (Robert), *Les Derniers Jours des Romanov*, Paris, Crès, 1931.
449. WINOCK (Michel), *Nationalisme, antisémitisme et fascisme en France*, Paris, Le Seuil, 1990.
450. WIRTH (L.), *Le Ghetto*, Grenoble, PUG, 1980.
451. WIZNITZER (D.), *A History of Jewish Crafts and Guilds*, New York, Jo Nathan David, 1965.
452. WOLF, *The American Jews as Patriots, Soldiers, and Citizens*, Philadelphie, 1895.
453. YAFFE (J.), *The American Jews*, New York, Random House, 1968.
454. YE'OR (Bat), *The Dhimmi*, Fairleigh Dickinson University Press, 1985.
455. YE'OR (Bat), *Juifs et Chrétiens sous l'Islam*, Paris, Berg international, 1994.
456. YEHIEL NISSIM (BEN SAMUEL DE PISE), *Banking and Finance*

Among Jews in Renaissance Italy, éd. crit., notes de Gilbert Rosenthal, New York, 1962.
457. YOVEL (Yeremiahov), *Spinoza and Other Heretics*, Princeton University Press, 1989.
458. ZAFRANI (Haïm), *Mille ans de vie juive au Maroc. Histoire et culture, religion et magie*, Paris, Maisonneuve et Larose, 1983.
459. ZAFRANI (Haïm), *Les Juifs du Maroc. Études de Taqqanot et de Responsa*, Paris, 1972.
460. ZANGWILL (Israel), *The Melting Pot*, Londres, Heinemann, 1919.
461. ZIPOERSTEIN (E.), *Business Ethics in Jewish Law*, New York, Ktav, 1983.

Journaux, revues

462. *L'Arche*, Paris.
463. *Fortune*, « Lehman Bros », par AUTELLA K., 1984.
464. *Business Week*, « Warburg S.G., The Exceptional Survivor », 14 mars 1977.
465. *Euromoney*, numéro spécial. *A History of Eurobond Market.*
466. *Investor Chronicle*, interview de Siegmund Warburg, 1973.
467. *Jewish Chronicle*, Londres.
468. *Jerusalem Post*, Jérusalem.
469. *The Jewish Virtual Library.*
470. *American Jewish Year Book*, Philadelphie.
471. *Biblical Archeology Review*, Washington.
472. *Quotidien du peuple*, Pékin, 15 décembre 2000.

المؤلف فى سطور:

* ولد جاك أتالى **Jacques Attali** فى الجزائر عام ١٩٤٣ .

- تخرج بتفوق فى المدرسة العليا للهندسة بفرنسا عام ١٩٦٣ .
- حصل على درجة الدكتوراه فى الاقتصاد .
- قام بدراسات إضافية فى المدرسة العليا للمناجم ومعهد الدراسات السياسية والمدرسة العليا للإدارة .
- حصل على دكتوراه فخرية من عدة جامعات أجنبية .
- قام بتدريس النظريات الاقتصادية فى المدرسة العليا للهندسة وجامعة **Paris- Dauphine** .
- عمل طيلة عشر سنوات ١٩٨١ – ١٩٩١ مستشارًا لرئيس الجمهورية الفرنسية "فرانسوا ميتران" .
- ترأس البنك الأوروبى للإنشاء والتعمير فى لندن فى الفترة من ١٩٩١ إلى ١٩٩٣ .
- عينه رئيس الجمهورية الفرنسية رئيسًا للجنة تحرير النمو الاقتصادى الفرنسى عام ٢٠٠٧ .
- يكتب بانتظام المقال الافتتاحى لمجلة "**LÉxpress**" الفرنسية .
- عضو الأكاديمية العالمية للثقافات "**Univeral Academy of Cultures**" .
- صنفته مجلة "**Foreign Policy**" فى عددين لها صادرين فى ٢٠٠٨ و ٢٠١٠ باعتباره واحدًا من أهم مئة مفكر فى العالم .
- كتب أكثر من خمسين كتابًا فى الاقتصاد الرياضى والموسيقى والتراجم والمسرح، بالإضافة إلى مجموعات من القصص القصيرة وقصص الأطفال .
- ترجمت أعماله إلى أكثر من عشرين لغة .
- نذكر من أعماله: "أخوية اليقظانيين، و"كارل ماركس أو فكر العالم: سيرة، حياة، وقصة الخمسين عامًا القادمة ، وآفاق المستقبل " وغيرها ...

المترجمان فى سطور:

١ - عاصم عبد ربه حسين

٢٧ / ١٢ / ١٩٥٣

– عمل بالعديد من المجلات التى كانت تصدر فى باريس ولندن فى تلك الفترة (١٩٨٥–١٩٩٥)

– عمل مترجماً بمكتب «الهجرة» و كذلك بمؤسسة إكرا التى تهتم بتحسين أوضاع السجناء من المهاجرين العرب ورعاية أسرهم.

- أعماله المترجمة المنشورة :

جرائم المعلوماتية، عقود الامتياز، مسرح الفودو «مركز التعليم المفتوح – جامعة ٦ أكتوبر – القاهرة».

– الحركات الصوفية فى إقليم جنوب الصحراء «مركز الدراسات العربية – القاهرة».

– إصلاحى فى جامعة الأزهر – المركز القومى للترجمة.

– مصر التحرير – ميلاد ثورة – المركز القومى للترجمة.

– رواية الغريب – كامو – قصور الثقافة.

– رواية رحلة إلى آخر الليل – لوى فردينان – قصور الثقافة (تحت الطبع).

– الدولة العثمانية من الخلافة إلى الانقلابات – المركز القومى للترجمة .

٢ - تميم فتح الباب

حصل على ليسانس فى الآداب من جامعة عين شمس، ودرجة الماجستير من جامعة ستراسبورج، وعلى درجة D.E.U.G فى اللغة الإنجليزية من جامعة باريس، ودبلوم فى الترجمة من غرف التجارة والصناعة (الفرنسية / البريطانية) فى باريس. من أهم أعماله ترجمة كتاب" الصدام بين الشرق والغرب" .

التصحيح اللغوى : محمود فتحى
الإشراف الفنى : حسن كامل



كرس الدكتور جاك آتالي، مؤلف الكتاب، عمله الضخم، الذي يضاف إلى آلاف المؤلفات التي تناولت هذا الموضوع، لإيضاح مراحل تاريخ علاقات اليهود بغيرهم من الجماعات الإنسانية وبالمال؛ عصب الحياة. بدءًا بالعام ألفين قبل الميلاد وحتى وقتنا الراهن، بل إنه حاول استطلاع ما سيكون عليه الحال نحو عام 2050 .

طرح المؤلف العديد من الأسئلة التي كان بعضها جارحاً وتولى بنفسه الإجابة عنها، مقدما في كل حالة وجهتي نظر؛ إحداهما موالية والأخرى معارضة تاركاً للقارئ حرية الاختيار وإن بدا لنا أن آتالي كان يلتمس العذر لليهود في كل مرة.

تصميم الغلاف: نيرفانا